أئمة أهل البيت عليهم السلام

صدر، محمّد باقر، ١٩٣٥ ـ ١٩٨٠ م Sadr, Mohammad Baqir
أئمّة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة / تأليف: محمّد باقر الصدر؛ إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر. ـــ قم:مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ﷺ، ١٤٣٢ ق = ١٣٩٠ ش.
٦٥٠ ص. ـــــ (تراث الشهيد الصدر ﷺ؛ ٢٠)
عربي.
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
١. اسلام ـ ـ تاريخ ـ ـ از آغاز تا ١٣٢ ق. ٢. خلافت ـ ـ بيعت. ٣. على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. اثبات خلافت. ٤. شيعه ـ ـ تاريخ. ٥. امامت. الف. كنگره بين المللى آيت الله العظمى شهيد صدر ﷺ (نخستين ١٣٧٩: تهران). ب. پژوهشگاه علمى تخصصى شهيد صدر.
BP ٢٣٠/٢ ٩ ب ٤ ص ٢٩٧ / ٤٨٣٣
كتابخانه ملى ايران ٧١٥١ ـ ٨٣م



اسم الكتاب: ....أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة
المؤلّف: ....آية الله العظمى الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ﷺ
إعداد وتحقيق: ....لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ﷺ
الناشر: .... مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ﷺ
الطبعة المحقّقة في المؤتمر: ....الثانية
المطبعة: .... شريعت ـ قم
تاريخ الطبع: .... ١٤٣٢ ق
الكميّة: .... ٣٠٠٠ نسخة
رقم الشابك: .... ISBN: 964 - 5860 - 50 - 4

موسوعة الشهيد الصدر

٢٠



أئمة أهل البيت عليهم السلام

ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية

مجموعة من محاضرات ومقالات

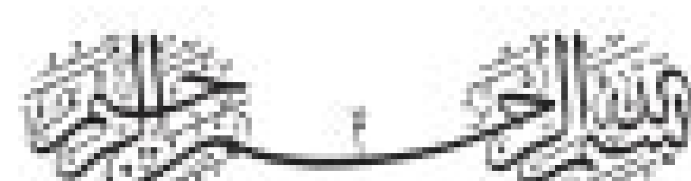
سماحة آية الله العظمى الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره

المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر قدس سره



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤتمر:



الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

منذ منتصف القرن العشرين، وبعد ليل طويل نشر أجنحته السوداء على سماء الأُمة الإسلاميّة لعدّة قرون، فلفَّها في ظلامٍ حالك من التخلّف والانحطاط والجمود، بدأت بشائرُ الحياة الجديدة تلوح في اُفق الاُمّة، وانطلق الكيان الإسلامي العملاق الذي بات يرزح تحت قيود المستكبرين والظالمين مدى قرون يستعيد قواه حتى انتصب حيّاً فاعلاً قويّاً شامخاً بانتصار الثورة الإسلاميّة في إيران تحت قيادة الإمام الخميني يقضُّ مضاجع المستكبرين، ويبدّد أحلام الطامعين والمستعمرين.

ولئن أضحت الاُمّة الإسلاميّة مدينةً في حياتها الجديدة على مستوى التطبيق للإمام الخميني، فهي بدون شك مدينةٌ في حياتها الجديدة على المستوى الفكري والنظري للإمام الشهيد الصدر؛ فقد كان المنظِّر الرائدَ بلا منازع للنهضة الجديدة؛ إذ استطاع من خلال كتاباته وأفكاره ـ التي تميّزت بالجدة والإبداع من جهة، والعمق والشمول من جهة اُخرى ـ أن يمهّد السبيل للاُمّة، ويشقَّ لها الطريق نحو نهضة فكريّة إسلاميّة شاملة، وسط ركام هائل من التيّارات الفكريّة المستوردة، التي تنافست في الهيمنة على مصادر القرار

الفكري والثقافي في المجتمعات الإسلاميّة، وتزاحمت للسيطرة على عقول مفكّريها وقلوب أبنائها المثقّفين.

لقد استطاع الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره بكفاءةٍ عديمةِ النظير أن ينازل بفكره الإسلامي البديع عمالقة الحضارة الماديّة الحديثة ونوابغها الفكريّين، وأن يكشف للعقول المتحرّرة عن قيود التبعيّة الفكريّة والتقليد الأعمى زيفَ الفكر الإلحادي، وخواءَ الحضارة الماديّة في أُسسها العقائديّة ودعائمها النظريّة، وأن يثبت فاعليّة الفكر الإسلامي وقدرته عديمة النظير على حلّ مشاكل المجتمع الإنساني المعاصر، والاضطلاع بمهمّة إدارة الحياة الجديدة بما يضمن للبشريّة السعادة والعدل والخير والرفاه.

ثم إنّ الإبداع الفكري الذي حقّقته مدرسة الإمام الشهيد الصدر، لم ينحصر في إطار معيّن؛ فقد طال الفكر الإسلامي في مجاله العام، وفي مجالاته الاختصاصيّة الحديثة، كالاقتصاد الإسلامي والفلسفة المقارنة والمنطق الجديد، وشمل الفكر الإسلامي الكلاسيكي أيضاً، كالفقه والأُصول والفلسفة والمنطق والكلام والتفسير والتاريخ، فأحدث في كل فرعٍ من هذه الفروع ثورةً فكريّة نقلت البحث العلمي فيه إلى مرحلة جديدة متميّزة، سواءٌ في المنهج أم المضمون.

ورغم مضيّ عقدين على استشهاد الإمام الصدر، ما زالت مراكز العلم ومعاهد البحث والتحقيق تستلهم فكره وعلمه، وما زالت الساحة الفكريّة تشعر بأمسّ الحاجة إلى آثاره العلميّة وإبداعاته في مختلف مجالات البحث والتحقيق العلمي.

ومن هنا، كان في طليعة أعمال المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر إحياء تراثه العلمي والفكري بشكل يتناسب مع شأن هذا التراث القيّم.

وتدور هذه المهمّة الخطيرة مع وجود الكمّ الكبير من التراث المطبوع للشهيد الصدر في محورين:

أحدهما: ترجمته إلى ما تيسّر من اللغات الحيّة بدقّة وأمانة عاليتين.

والآخر: إعادة تحقيقه للتوصّل إلى النصّ الأصلي للمؤلّف منزّهاً من الأخطاء التي وقعت فيه بأنواعها من التصرّف والتلاعب والسقط... نتيجة كثرة الطبعات، وعدم دقّة المتصدّين لها وأمانتهم، ثمّ طبعه من جديد بمواصفات راقية.

ونظراً إلى أنّ التركة الفكريّة الزاخرة للسيّد الشهيد الصدر ﵀ شملت العلوم والاختصاصات المتنوّعة للمعارف الإسلاميّة وبمختلف المستويات الفكريّة، لذلك أوكل المؤتمر العالمي للشهيد الصدر مهمّة التحقيق فيها إلى لجنة علميّة تحت إشراف علماء متخصّصين في شتّى فروع الفكر الإسلامي من تلامذته وغيرهم، وقد وُفّقت اللجنة في عرض هذا التراث بمستوى رفيع من الاتقان والأمانة العلميّة، ولخّصت منهجيّة عملها بالخطوات التالية:

١ ـ مقابلة النسخ والطبعات المختلفة.

٢ ـ تصحيح الأخطاء السارية من الطبعات الاُولى أو المستجدة في الطبعات اللاحقة، ومعالجة موارد السقط والتصرّف.

٣ ـ تقطيع النصوص وتقويمها دون أدنى تغيير في الاُسلوب والمحتوى، أمّا الموارد النادرة التي تستدعي إضافة كلمة أو أكثر لاستقامة المعنى فيوضع المضاف بين معقوفتين.

٤ ـ تنظيم العناوين السابقة، وإضافة عناوين اُخرى بين معقوفتين.

٥ ـ استخراج المصادر التي استند إليها السيّد الشهيد؛ بتسجيل أقربها إلى مرامه، وأكثرها مطابقة مع النصّ؛ ذلك لأنّ المؤلّف يستخدم النقل بالمعنى

في عددٍ من كتبه وآثاره معتمداً على ما اختزنته ذاكرته من معلومات، أو على نوعٍ من التلفيق بين مطالب عديدة في مواضع متفرّقة من المصدر المنقول عنه، وربما يكون بعض المصادر مترجماً وله عدّة ترجمات؛ ولهذا تُعدّ هذه المرحلة من أشقّ المراحل.

٦ ـ إضافة بعض الملاحظات في الهامش للتنبيه على اختلاف النسخ أو تصحيح النصّ أو غير ذلك، وتُختم هوامش السيّد الشهيد بعبارة: (المؤلف قدس سره)؛ تمييزاً لها عن هوامش التحقيق.

وكقاعدة عامّة لها استثناءات في بعض المؤلّفات، يُحاول الابتعاد عن وضع الهوامش التي تتولّى عرض مطالب إضافيّة، أو شرح وبيان فكرةٍ ما، أو تقييمها ودعمها بالأدلّة، أو نقدها وردّها.

٧ ـ تزويد كلّ كتاب بفهرس موضوعاته، وإلحاق بعض المؤلّفات بثبت خاص لفهرس المصادر الواردة فيها.

وقد بسطت الجهود التحقيقيّة ذراعيها على كلّ ما أمكن العثور عليه من نتاجات هذا العالم الجليل، فشملت: كتبه، وما جاد به قلمه مقدّمةً أو خاتمةً لكتب غيره ثمّ طُبع مستقلًّا في مرحلة متأخّرة، ومقالاته المنشورة في مجلّات فكريّة وثقافيّة مختلفة، ومحاضراته ودروسه في موضوعات شتّى، وتعليقاته على بعض الكتب الفقهيّة، ونتاجاته المتفرّقة الاُخرى، ثمّ نُظّمت بطريقة فنيّة، واُعيد طبعها في مجلّدات أنيقة متناسقة.

والكتاب الذي بين يديك «أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة» هو مجموعة محاضرات ألقاها السيّد الشهيد قدس سره في مناسبات مختلفة مثل مواليد ووفيات أهل البيت عليهم السلام، وكلمات كتبها وألقاها أو اُلقيت عنه في مناسبات متفرّقة.

وكانت (لجنة التحقيق) التابعة لـ(المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ﷺ) قد أصدرت منذ سنوات طبعتها الأُولى من هذا الكتاب، والتي لاقت رواجاً واسعاً.

وبعد سنوات على صدور الطبعة الأُولى المحقّقة اقتنعت (لجنة التحقيق) بضرورة تجديد العمل على الكتاب، وقد حداها إلى ذلك عدّة أُمور، أهمّها:

١ ـ ما تكشّف لها من أخطاء سرت إلى متن محاضرات الكتاب، والتي نجمت عن عوامل عديدة تتّضح في المقدّمة التفصيليّة الآتية إن شاء الله تعالى.

٢ ـ ما استجدّ لديها من مواد ترتبط بالكتاب، الأمر الذي جعل إصدار طبعة جديدة شاملة من صميم أولويّاتها.

وحيث إنّ عملاً من هذا القبيل يحتاج إلى جهة مختصّة، تؤمّن من جهةٍ جانبَ الشموليّة، وتراعي من جهة أُخرى عامل الدقّة، فقد ألقت لجنة التحقيق بهذه المهمّة الشاقّة على عاتق المحقّق الفذّ فضيلة الشيخ أحمد عبد الله أبو زيد العاملي (حفظه الله)، الذي أمضى في رحاب تراث الشهيد الصدر ﷺ سنواتٍ عديدة، منقّباً ومحقّقاً ومدقّقاً، فجاءت هذه الطبعة في حلّتها الجديدة ثمرةً من ثمار جهوده، فجزاه الله تعالى عن الإسلام خير جزاء المحسنين.

وهناك أُمور راجعة إلى خصائص هذه المجموعة وكيفيّة تحصيلها وتنظيمها وتحقيقها وما هو مرتبطٌ بشأنها على الإجمال، يجدها القارئ الكريم في المقدّمة التي وضعها فضيلة الشيخ العاملي لهذا المجلّد من مجموع آثار الشهيد الصدر ﷺ.

ولا يفوتنا أن نشيد بالموقف النبيل لورثة السيّد الشهيد كافّة ـ سيما نجله البارّ (سماحة الحجّة السيّد جعفر الصدر حفظه الله) ـ في دعم المؤتمر، وإعطائهم الإذنَ الخاصَّ في نشر وإحياء التراث العلمي للشهيد الصدر ﷺ.

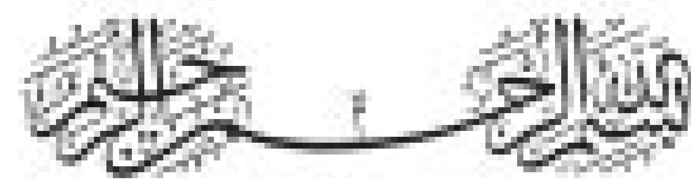
وأخيراً، نرى لزاماً علينا أن نتقدّم بالشكر الجزيل إلى اللجنة المشرفة على تحقيق تراث الإمام الشهيد قدس سره، والعلماء والباحثين كافّة الذين ساهموا في إعداد هذا التراث وعرضه بالأُسلوب العلمي اللائق، سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن يتقبّل جهدهم، وأن يمنَّ عليهم وعلينا جميعاً بالأجر والثواب، إنّه سميعٌ مجيب.

المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر قدس سره

أمانة الهيئة العلميّة

❋ ❋ ❋

كلمة المحقّق:



استطاع الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ﷺ أن يجسّد بحقّ اُنموذج المفكّر الجهبذ، الذي جمع إلى جانب عبقريّته الفذّة ونبوغه المتألّق أخلاقَ المعلّم الناجح والمربّي المعطاء. وإذا كانت كلتا هاتين الخصلتين نادرة التحقّق، فما بالك باجتماعهما معاً في شخصيّة واحدة؟!

لم يكتفِ الشهيد الصدر ﷺ يوماً بلعب دور الاُستاذ الذي لا تجمعه بطلّابه سوى حدود الدرس ومَدَياته، بل لامس اُفقاً أرحب ومدىً أبعد، جعل من خلالهما الرسالةَ محوراً للعيش ورحىً للتلاقي.

وفي هذا السياق ـ الذي يطول شرح أبعاده ـ لم ينفكّ الإمام الشهيد ﷺ عن الاستفادة من العطل الدراسيّة في شهر رمضان المبارك ومناسبات وفيّات المعصومين عليهم السلام من أجل ترشيد طلّابه من الناحيتين العلميّة والتربويّة. وقد فصّلنا في مقدّمة كتاب (محاضرات تأسيسيّة) الحديث عمّا يتعلّق بالمحاضرات المنطقيّة والفقهيّة التي ألقاها عليهم في العطل الرمضانيّة.

أمّا ما يرتبط بمحاضراته حول أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فقد دأب ﷺ على استثمار العطل الدراسيّة بمناسبة وفيّاتهم عليهم السلام ـ باستثناء بعضها، كعاشوراء والأربعين ـ، ليجعل من صاحب المناسبة محوراً لحديثه، فيتناول أبعاد شخصيّته وظروف تحرّكه، مبيّناً طبيعة الدور الذي أدّاه والرسالة التي حماها.

ثمّ عمد رحمه الله في مرحلة لاحقة إلى إلقاء بعض هذه المحاضرات عقيب دروسه المعتادة بدل أيّام العطل؛ وذلك كسباً لعدد أكبر من الحضور[1].

وكما هو الحال في أغلب ما كتبه الشهيد الصدر رحمه الله أو ألقاه، تتجلّى في هذه المحاضرات بوضوح روحُ الإبداع الأصيل والتحليل الفريد، وذلك على الرغم من وقوعها في مناسبات متفرّقة وبقائها حتّى الساعة على صورتها الأوّليّة؛ ففي الوقت الذي لم يرفض فيه شهيدنا الصدر رحمه الله دراسة حياة المعصومين عليهم السلام دراسة تجزيئيّة ـ بل اعتبرها خطوةً ضروريّة على طريق ما يرميه ـ ، أكّد على عجز هذه النظرة عن تفسير الظواهر المتخالفة في حياة الأئمّة عليهم السلام، وهذا ما دفعه إلى اعتماد النظرة الشموليّة الجامعة في دراسة حياتهم عليهم السلام وتحليلها.

ويؤمن الشهيد الصدر رحمه الله بأنّ هذه الرؤية ليست مجرّد افتراض نظري، وإنّما هي ممّا تفرضه العقيدة المتبلورة في فكرة الإمامة بالذات؛ لأنّ الإمامة واحدة في الجميع بمسؤوليّاتها وشروطها، فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الأئمّة عليهم السلام وأدوارهم مهما اختلفت ألوانها الظاهريّة بسبب الظروف والملابسات، وهو ما سيجده القارئ الكريم مفصَّلاً في ثنايا هذا الكتاب.

وإلى جانب ما قدّمه مفكّرنا الشهيد رحمه الله حول عطاءات الاتّجاه الشمولي، نجده قد أبدع في دراسته لحيثيّات حياة كلّ إمام وظروفه، مع قطع النظر عن الدور المشترك الذي عاشه مع سائر الأئمّة عليهم السلام. ومن أبرز مصاديق ذلك: دراسته المستوعبة لموقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تجاه معاوية بن أبي سفيان، وكذا تحليله لمصالحة الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، ثمّ قراءته الفريدة لتحرّك الإمام الحسين عليه السلام، وغير ذلك من مبتكراته في حقل تاريخ الأئمّة عليهم السلام.

وممّا تجدر الإشارة إليه في المقام: ما يرتبط ببعض المصطلحات التي

---

(١) يظهر ذلك من مقدّمة المحاضرة الرابعة من هذا الكتاب، حول: التقسيم المرحلي الثلاثي لحياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فراجع.

يتكرّر ذكرها في هذه المحاضرات، والتي قد يقع الخلط في ما بينها؛ فقد يلاحظ القارئ الكريم أنّ الشهيد الصدر ﵀ تارةً يتحدّث عن دورٍ مشتركٍ للأئمّة ﵈، وأُخرى عن اختلاف دور هذا الإمام عن ذاك.. ثمّ نراه يتحدّث تارةً عن دورين مارسهما الأئمّة ﵈، وأُخرى عن ثلاثة أدوار عاشوها.. فما السرُّ في ذلك؟

هنا نقول بإيجاز، تاركين الوقوف على التفصيل إلى القارئ الكريم:

١ ـ عندما تناول الشهيد الصدر ﵀ الدور الذي تفرضه طبيعة الشريعة فإنّه تحدّث عن دورٍ مشتركٍ للأئمّة ﵈ متمثّلٍ في خطّين: خطّ تصحيح الانحراف ومحاولة تسلّم زمام التجربة، وخطّ تحصين الاُمّة الإسلاميّة التي تعتبر الوجود المادي للرسالة الإسلاميّة. فالدور هنا بمعنى الهدف الكلّي العام، ولهذا عبّر ﵀ في بعض الموارد ـ وهو في مقام الحديث عن هذين الخطّين ـ بـ(الهدف) بدل (الدور)؛ فالدور هنا يختزن الأهداف العامّة التي عاشها كلّ الأئمّة ﵈ دون استثناء.

٢ ـ وعندما تحدّث ﵀ ـ مثلاً ـ عن اختلاف دور الإمام الحسن ﵇ عن دور الإمام الحسين ﵇، كان ناظراً إلى الموقف الذي فرضه الوضع الخارجي الذي عاشه كلُّ إمام؛ فالحديث هنا عن الأهداف الآنيّة التي تقع في طول تلك الأهداف الكبرى؛ فالإمام الحسن والإمام الحسين ﵉ كانا يستهدفان تسلّم زمام الحكم وتحصين الرسالة الإسلاميّة على حدٍّ سواء، ولكنّ مجتمع الأوّل عاش مرض الشكّ، بينما عاش مجتمع الثاني مرض موت الإرادة، فاختلف موقف أوّلهما عن موقف الثاني بهذا اللحاظ، وإن عاشا الهدفين الكلّيين نفسيهما.

أو من قبيل حديثه في مقدّمته على (الصحيفة السجّاديّة) عن عمل الإمام زين العابدين ﵇ على خطّين: خطّ مواجهة الخطر الناجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات متنوّعة، وذلك من خلال العمل على الصعيد العلمي بنحوٍ يؤكّد في

المسلمين أصالتهم الفكريّة، وخطّ مواجهة موجة الرخاء التي سادت المجتمع الإسلامي في أعقاب الامتداد الهائل الذي شهده، وذلك من خلال سياسة إشاعة الدعاء التي اتّبعها الإمام عليه السلام.

أو من قبيل حديثه ـ في محاضرة الإمام الرضا عليه السلام ـ عن أنّ المرحلة الثانية اشتملت على خطّين: خطّ التوعية وخطّ مواصلة تحريك ضمير الاُمّة.

فهذه كلّها خطوط فرعيّة تجلّت في حياة أفراد الأئمّة عليهم السلام بنحوٍ متفاوت بحسب الظرف العام الذي عاش فيه كلّ إمام، وهي لا تتنافى مع الخطّين الكلّيّين اللذين تحدّث عنهما الشهيد الصدر قدس سره وافترضهما بالنسبة إلى الأئمّة عليهم السلام كلّهم.

٣ ـ أمّا عندما تحدّث قدس سره عن ثلاثة أدوار عاشها الأئمّة عليهم السلام: دور تفادي صدمة الانحراف وتحصين الاُمّة ضدَّه، دور بناء الكتلة، ودور التوسّع والإعداد لتسلّم الحكم، ففقد قصد من (الدور): المرحلة التاريخيّة؛ فالأدوار الثلاثة عبارة عن المراحل التاريخيّة التي تتمايز عن بعضها على ضوء الطابع العام الذي يحكمها، ولهذا عبّر حيناً بـ(الدور) وآخر بـ(المرحلة).

ونترك تفاصيل الحديث عن هذه الأدوار ـ اتّحاداً وتنوّعاً ـ إلى محاضرات الكتاب.

طبعات الكتاب السابقة:

لم يُكتب لهذه المحاضرات أن تخرج إلى النور في حياة الشهيد الصدر قدس سره وتحت نظره، ولكنّها طبعت بعد استشهاده طبعاتٍ عديدة، وبدرجات متفاوتة من حيث العناية والتدقيق، نذكر في ما يلي أهمَّها:

١ ـ بعد أن كانت نسخة المرحوم الحجّة الشيخ حسن دبوق الخطّيّة قد تلفت خلال الحرب اللبنانيّة في سبعينات القرن الميلادي المنصرم، تمّ إرشاد سماحة الحجّة السيّد محمّد الغروي حفظه الله إلى المرحوم الحجّة الشيخ فهد فهدي

الذي كان يسكن في أُستراليا، والذي تفضّل بإرسال ما بقي لديه من هذه المحاضرات، بعد أن كان قسمٌ منها قد بقي في العراق.

وهكذا صدرت مجموعة من هذه المحاضرات عن دار التعارف ببيروت تحت عنوان (أهل البيت.. تنوّع أدوار ووحدة هدف)، وهو العنوان الذي اختاره لها فضيلة الحجّة الشيخ محمّد جعفر شمس الدين حفظه الله[١]، وقد طبع الكتاب بدون تاريخ أو تحقيق، واشتمل على إحدى عشرة محاضرة توزّعت على ثلاثة عشر فصلاً[٢].

٢ ـ وبعد سنوات حصلت مجلّة (الفكر الإسلامي) على ثلاث محاضرات إضافيّة بقلم سماحة آية الله السيّد كاظم الحائري حفظه الله، فدمجت بين اثنتين منها ونشرتهما في العدد (١٧)، ونشرت الثالثة في العدد (٢١ ـ ٢٢).

٣ ـ وبعد أن بدأ (مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدس سره) المنبثق عن (المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر قدس سره) أعماله العلميّة، والتي استهدف من خلالها إصدار الموسوعة الكاملة لآثار الشهيد الصدر قدس سره، كان بين يدَي لجنة التحقيق نسخ أُخرى من المحاضرات السابقة بأقلام مختلفة، إلى جانب محاضرات لم تُنشر سابقاً، فجاء المجموع في عشرين محاضرة نشرت تحت عنوان (أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة). ويعود الفضل في تحصيل هذه المحاضرات إلى مصدرين:

أحدهما: الأرشيف الواسع الثمين الذي تفضّل به فضيلة حجّة الإسلام السيّد حامد الحسيني حفظه الله وشكر مساعيه.

والثاني: ما وصل إلينا من دفاتر ومدوّنات فضيلة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد عبد الغني الموسوي النجفي الأردبيلي (تغمّده الله برحمته

---

(١) محمّد باقر الصدر.. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق ٣: ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٢) فالفصلان السابع والثامن عبارة عن محاضرة واحدة، وكذلك الحادي عشر والثاني عشر.

الواسعة)، الذي كان من أوفى تلامذة السيّد الشهيد قدس سره .

في رحاب الطبعة الحاليّة:

بعد صدور الطبعة المتقدّمة عن (مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدس سره)، كشف البحث والتنقيب المتواصل عن وجود مواد إضافيّة تنتمي إلى موضوع الكتاب، وهي عبارة عن خمسة ملحقات، نشرت لجنة التحقيق اثنين منها ضمن كتاب (ومضات) الذي يشكّل المجلّد السابع عشر من مجموعة (موسوعة الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره)، بينما ظلّت الملحقات الثلاثة الباقية تنتظر دورها إلى النشر، الأمر الذي ولّد لدى اللجنة فكرة إصدار طبعة جديدة تضمّ المحاضرات والمقالات كافّة، وذلك تزامناً مع تراكم مجموعة من الملاحظات على الطبعة الأخيرة التي أصدرتها اللجنة، فقرّرت الأخيرة العملَ على إصدار طبعة جديدة تضمّ الملحقات المستجدّة من ناحية، وتتفادى الأخطاء التي تجمّعت لديها من ناحية اُخرى.

وقد كان من حسن ظنّ (لجنة التحقيق) بكاتب هذه السطور أن ألقت على عاتقه مهمّة جمع هذه المحاضرات والعناية بها وتصحيحها وتحقيقها من أجل إخراجها بحلّة جديدة، فقمت بادئ الأمر بجمعها وفهرستها بهدف دراستها دراسة متأنّيّة، ثمّ كتابة تقرير مفصّل يوضح خصائصها ومنهج العمل على إخراجها.

وفي ما يلي نستعرض خصائص هذه المحاضرات ضمن حديثنا عن مراحل عملنا على إخراجها:

أ ـ ترميم المحاضرات الصوتيّة:

من جملة الآثار المهمّة التي يضمّها (مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدس سره): مجموعة من الأشرطة الصوتيّة التي يرجع أكثرها إلى تركة

السيّد عبد الغني النجفي الأردبيلي رحمه الله. وبغية الاستفادة من هذه المحاضرات، تمّ تبديل الأشرطة إلى ملفّات رقميّة بلغت نحو مائتين وعشرين ملفّاً.

وكان من جملة ما اشتملت عليه: بعضٌ من المحاضرات التي ألقاها الشهيد الصدر قدس سره حول أئمّة أهل البيت عليهم السلام، والتي تحتفظ لجنة التحقيق بنسخها المدوّنة بخطوط جملة من طلّابه. إلّا أنّ الملفّات الصوتيّة كانت رديئة الجودة ومقطّعة الأوصال ومبعثرة بين مختلف المحاضرات، بحيث قد تتوزّع مقاطع المحاضرة الواحدة على ستّة ملفّات مثلاً. وقد تفضّل فريق العمل في إذاعة النور ببيروت بالاستماع إلى هذه الملفّات كلّها، وتقديم تقرير مفصّل حول محتوياتها.

بعد ذلك عمدنا ـ على ضوء التقرير ـ إلى استخراج المقاطع المرتبطة بأهل البيت عليهم السلام وعزلها عن سائر المحاضرات، ثمّ قمنا ـ على ضوء المحاضرات المدوّنة والمتوفّرة بين أيدينا ـ بترميم المحاضرات الصوتيّة، وذلك من خلال وضع كلّ مقطع في مكانه المناسب. وبعد جهود مضنية، تمكّنّا من إعادة تشكيل إحدى عشرة محاضرة، الأمر الذي مكّننا من اعتمادها أصلاً في التحقيق الجديد.

ولا شكّ في أنّ اعتماد طبعتنا الجديدة على نسخ صوتيّة بصوت الشهيد الصدر قدس سره يعتبر أحد أهمّ ميّزات هذه الطبعة.

ب ـ إعداد أرشيف منظّم عن النسخ الواصلة لكلّ محاضرة:

لا شكّ في أنّ المحاضرات التي بين أيدينا تعبّر عن المادّة الخام لنظريّات الشهيد الصدر قدس سره حول سيرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام وما يرتبط بتحرّكاتهم؛ إذ لم تسنح الفرصة له قدس سره بإعادة النظر فيها، ولهذا لا يوجد بين أيدينا نسخة نهائيّة متبنّاة من قبله قدس سره لكي تُعتمد أصلاً، بل يدور أمر هذه المحاضرات بين نسخة صوتيّة حفظتها لنا الأيّام بصعوبة، وبين نسخ خطّيّة دوّنها جملة من طلّابه

بدرجات متفاوتة من حيث الدقّة.

وأمام عملٍ يستهدف إعداد طبعة جديدة تمتاز بالشمول والدقّة، كان من الطبيعي أن يتمّ في البداية إعدادُ فهرست منظّم يشتمل على مختلف النسخ الواصلة لكلّ محاضرة ومقالة، ممكِّناً بالتالي من تحديد النسخة الأصلح لتكون أصلاً معتَمَداً.

ولا بدّ لنا ـ ونحن نتحدّث عن شموليّة العمل ـ من الإشارة إلى مسألتين:

الأُولى: أنّنا قمنا بإدخال بعض المقالات إلى الكتاب لتناسبها مع موضوعه الرئيس، وإن كانت تختلف مع القسم الأكبر منه في محور الفكرة حيناً ولغة العرض حيناً آخر. ولهذا قد يجد القارئ الكريم تفاوتاً واضحاً بين المحاضرات وبين المقالات المضافة إليها.

الثانية: أنّنا استثنينا ما لم نحرز صدوره عن الشهيد الصدر قدس سره ونسبته إليه، من قبيل مقالة (رسالتنا في عصر الإمام الصادق عليه السلام) المنشورة في مجلّة (الأضواء الإسلاميّة)، والتي لا يُعلم نسبتها إلى الشهيد الصدر قدس سره على نحو الجزم.

كما استثنينا ما نُسب إلى الشهيد الصدر قدس سره في بعض طبعات الكتاب، مع كونه تلخيصاً لما جاء في كتابات غيره ممّا اعتبر إكمالاً للبحث(١).

ج ـ دراسة النسخ الخطيّة وتقييمها على أساس النسخ الصوتيّة:

في مرحلة لاحقة قمنا بمقارنة النسخة الواصلة بصوت الشهيد الصدر قدس سره مع مختلف المحاضرات المدوّنة، وتمّ على أساس ذلك تحديد النسخة ـ أو

---

(١) كما في فصل: (الإمام الحسن بن علي عليه السلام) من كتاب (أهل البيت عليهم السلام القدوة والدور التاريخي)، إعداد وتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي؛ حيث يعتبر هذا الفصل تلخيصاً لأفكار وردت في محاضرتين للشهيد الصدر قدس سره، مع إضافة بعضٍ من أفكار كتاب (صلح الحسن) للمرحوم الشيخ راضي آل ياسين.

النسخ ـ الأقرب إلى الأصل.

وبشكل عام، فقد تبيَّن لنا أنّه لا يوجد نسخة مطابقة للمحاضرة الصوتيّة وخالية من الأخطاء مائة في المائة، غاية الأمر أنّ بعضها أقرب إليها من البعض الآخر، ولذلك اصطلحنا عليها بالنسخ الأُم:

أمّا عدم المطابقة، فهو مبرَّرٌ إلى حدٍّ ما؛ لأنّ البُنية الأدبيّة لهذه المحاضرات تختلف حتّى عن بنية محاضرات الشهيد الصدرؒ الأُخرى التي ألقاها في مجال الفقه والأُصول والتفسير الموضوعي؛ فبينما تتميّز المحاضرات الأخيرة بوضوح اللغة والتسلسل المنطقي والتدرّج المنهجي، تكاد الأُولى تقترب من جوّ الحديث الداخلي الذي يتخلّله حديثٌ بالعاميّة، وبالتالي فمن المبرَّر للطالب أن لا يلتزم بتدوينها كلمةً كلمة.

أمّا عدم الخلوّ من الأخطاء، فقد تبيّن ـ وضمن نطاق النسخ المشتركة مع المحاضرات الصوتيّة ـ أنّه لا يوجد نسخة سليمة كليّاً عن الأخطاء، والتي نجمت ـ على ما يبدو في كثيرٍ منها ـ عن خللٍ في ضبط ما نطق به الشهيد الصدرؒ.

ومن باب المثال، فإنّنا نجد في المحاضرة الرابعة قول الشهيد الصدرؒ: «فسوف نواجه.. وتناقضاً من الناحية الشخصيّة بين الأدوات التي مارسها الأئمّة»، بينما جاء في المحاضرة الصوتيّة: «فسوف نواجه.. وتناقضاً من الناحية الشكليّة بين الأدوار التي مارسها الأئمّة».

أو حديثهؒ في المحاضرة الخامسة عن الفكر الجاهلي و«العاطفة الجاهليّة»، فدوّنت «العاطفة» في (غ١) و(غ٢) و(هـ) و(ن): «العاصمة»، وبقي مكان اللفظ فارغاً في (ش)، بينما حذفت العبارة من (ف).

أو حديثهؒ في المحاضرة السابعة عشرة عن أنّ الأُمّة الإسلاميّة أصبحت

تعيش عليّاً عليه السلام «كمثلٍ أعلى»، فدوّنت العبارة في النسخ الثلاث الواصلة ـ (غ) و(ش) و(ن) ـ : «ثبت من أعلى»، إلى غير ذلك.

وتتجلّى المشكلة بشكل أكثر جدّيّة عندما يكون التغيير أكثر مساساً في المعنى؛ بحيث يؤدّي النصّ المدوّن ـ بحسب مدلوله اللغوي والسياقي ـ معنىً كاملاً، ولكن إذا رجعنا إلى المحاضرة الصوتيّة نجد أنّ مراد الشهيد الصدر قدس سره مباينٌ له تماماً:

من قبيل ما ورد في المحاضرة الرابعة من النظر إلى الأئمّة بوصفهم «أُناساً مظلومين فقط قد اُقصوا عن مركز القيادة وأقرّت الأئمّة هذا الإقصاء»، بينما جاء في المحاضرة الصوتيّة: «وأقرّت الاُمّة».

أو من قبيل قوله قدس سره: «الذين استجابوا لدعوة الإمام الحسين هزّهم الإمام الحسين وهزّتهم هذه المظلوميّة»، فدوّنت في (غ): «هدّدهم الإمام الحسين وحدّثهم عن هذه المظلوميّة»، وعدّلت بنحوٍ آخر في (ش) و(ن).

إلى غير ذلك من الموارد الاُخرى الكثيرة التي لا تسع لها هذه المقدّمة.

وعلى أيّة حال، فقد مكّنت مقابلة النسخ الصوتيّة بالنسخ المدوّنة من تقييم الأخيرة من حيث الدقّة والسلامة، الأمر الذي سهّل في المرحلة اللاحقة تحديدَ النسخة ـ أو النسخ ـ المعتمدة في كلّ محاضرة.

د ـ تحديد النسخة الأصل:

بعد أن تمّ تقييم مختلف النسخ الخطيّة من حيث الدقّة والسلامة، تمّ اعتماد أصلٍ لكلّ محاضرة من المحاضرات. ويتلخّص منهج اعتماد الأصل بما يلي:

● كما سبق وأشرنا، فقد تمكّنا من إعادة ترميم إحدى عشرة محاضرة صوتيّة، تراوحت بين الكاملة والمشتملة على سقط؛ فحينما تتوفّر نسخة صوتيّة

تكون هي الأصل، ويُرجع إلى النسخ المدوَّنة في موارد السقط أو تشوّش الصوت وعدم وضوحه.

• في الموارد التي لا يوجد فيها نسخة صوتيّة يتمّ اعتماد نسخة بوصفها النسخة الأصل، وتُقابل إلى جانبها النسخ الأُخرى بحسب الحاجة، والتي تتفاوت من محاضرة إلى أُخرى.

هـ ـ التلفيق بين مختلف النسخ وبناء النسخة الجامعة:

في الموارد التي لم نعثر فيها على نسخة صوتيّة من المحاضرة، عمدنا إلى التلفيق بين مختلف النسخ بهدف بناء نسخة جامعة أقرب إلى الصحّة. ويتمثّل منهجنا في التلفيق والبناء بما يلي:

• إنّ وجود مقطع في نسخة من النسخ الأُم يبرّر لنا إضافته إلى المتن دون إشارة في الهامش إلى النسخة التي أُخذ منها.

• في الموارد التي نقطع فيها بوجود خطأ في الكلمة المدوَّنة ويكون الصحيح مثبتاً في نسخة من النسخ، فإنّ ذلك يبرّر لنا إثبات الصحيح دون الإشارة إلى النسخة التي أُخذ منها.

• في الموارد التي تتّفق فيها النسخ على كلمة ونقطع أو نظنّ ظنّاً كبيراً بخطئها، نقوم بالإشارة إلى ذلك في الهامش.

• في الموارد التي تختلف النسخ في إثبات كلمة، ولكن تكون صيغها المختلفة صحيحة، فإنّنا نثبت في المتن ما نراه راجحاً، ونشير في الهامش إلى الصيغة أو الصيغ الأُخرى إن كان لذلك بعضُ أهميّة، وإلّا لم نشر إلى ذلك.

• إذا لم نُشر أحياناً في الهامش إلى نحوِ ورود الكلمة في بعض النسخ المعتمدة في تحقيق المحاضرة، فهذا يعني أنّ العبارة لم ترد فيها.

و ـ تحديد التسلسل التاريخي وإعمال التسلسل المنطقي للمحاضرات:

اختلفت طبعات الكتاب المتعاقبة في ترتيب هذه المحاضرات، فربَّ مقدَّم في إحداها مأخَّر في أُخرى، ولكلٍّ مناطُه الخاص الذي أخضع له طبعته.

أمّا الترتيب الذي انتهينا إليه، فلا بدّ أوّلاً من التسليم بأنّه ليس بالضرورة ترتيباً تاريخيّاً؛ لعلمنا بأنّ أكثر هذه المحاضرات قد اُلقيت بمناسبة وفيّات المعصومين عليهم السلام، فخضعت بالتالي إلى العامل التاريخي، والذي لا مبرِّر لسحبه على التسلسل المنطقي الذي حدّده الشهيد الصدر قدس سره في بعض محاضراته وكرّره وأكّد عليه في بعضها الآخر.

والحقيقة أنّ هناك عدّة مشكلات واجهتنا في ترتيب المحاضرات من ناحية تاريخيّة، وقد اعتمدنا في ترتيبها على التواريخ الواردة في بعضها، وعلى الإحالات الداخليّة التي كان الشهيد الصدر قدس سره يسجّلها في ثناياها. وحيث إنّ هذه المقدّمة لا تتّسع للدخول في تفاصيل المسألة، فقد اكتفينا في المقام بالتأكيد على أنّ الترتيب الذي اعتمدناه ـ خاصّة في المحاضرات المرتبطة بالإمام علي عليه السلام ـ جاء بعد دراسة متأنّية أخذت بعين الاعتبار الترتيب التاريخي، وقدّمت في الوقت نفسه الترتيب المنطقي.

ومراعاةً للجانب المنطقي هذا، فقد قمنا بتأخير المحاضرتين الحادية عشرة والثانية عشرة عن بقيّة محاضرات الفصل مع كونهما متقدّمتين زماناً؛ حيث قدّرنا ـ من خلال الإحالات ـ أنّهما قد اُلقيتا في حدود ٢٥/محرّم/١٣٨٨هـ.

وعلى هذا الأساس أيضاً عمدنا إلى تقسيم محاضرة الشهيد الصدر قدس سره حول الإمام الجواد عليه السلام إلى قسمين؛ لأنّه كان بصدد إكمال حديثه عن الإمام الحسين عليه السلام، ولكن حيث صادف في تلك الأيّام مرور ذكرى وفاة الإمام الجواد عليه السلام فقد تحدّث بعض الشيء عن إمامته المُبْكِرة، ثمّ رجع إلى الحديث

عن الإمام الحسين عليه السلام، فكان من الأنسب تقسيم المحاضرة إلى قسمين، وقد أشرنا إلى ذلك في محلّه.

ولكنّنا لم نُعمل ذلك في المحاضرة الثانية عشرة التي اشتملت على أربعة موضوعات: كلمة حول الإمام السجّاد عليه السلام، وحديث عن سبب كون معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه من الإمام علي عليه السلام بخطّه، وإطلالة مختصرة على مرحلة الإمام الحسن عليه السلام وإطلالة مختصرة كذلك على مرحلة الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنّ الموضوع الأوّل مختصرٌ جدّاً ولا يحسن فصله في محاضرة مستقلّة، ولأنّ الموضوعات الباقية جاءت ـ إلى حدٍّ ما ـ متّصلة وغير منفصلة انفصالاً حديّاً، إلى جانب كونها بمثابة توطئة لفصول الكتاب القادمة التي سيدرس رحمه الله فيها مرحلة الإمام الحسن عليه السلام ثمّ مرحلة الإمام الحسين عليه السلام بشكل أكثر تفصيلاً.

إذاً، فمراعاة التسلسل المنطقي لا يعني إهمال التسلسل التاريخي بالكليّة؛ لأنّ الشهيد الصدر رحمه الله قام بإلقاء مجموعة من المحاضرات حول محور واحد وبتسلسل تاريخيٍّ ومنطقيٍّ في آن، وربّما توفّر تاريخ الإلقاء بالنسبة إلى بعضها دون البعض الآخر، فكان لا بدّ من دراستها والاستفادة من الإرجاعات والإحالات التي تتردّد فيها، وهو ما ينطبق على جملة من محاضراته حول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

وعلى كلّ حال، فبعد دراسة متأنّية لمضمون المحاضرات انتهينا إلى تحديد التسلسل الذي يُراعي الضوابط التي حدّدها الشهيد الصدر رحمه الله، عسى أن نكون قد وفّقنا إلى ذلك، ثمّ قمنا بتوزيعها على فصول تعكس الترتيب المنطقي السابق.

وعلى هذا الأساس، قمنا بتقسيم الكتاب تقسيماً سداسيّاً:

١ ـ مباحث تمهيديّة: حيث اشتمل هذا العنوان على محاضرتين لا

تنتميان إلى مباحث الكتاب بشكل لصيق، وهما: (فكرة موجزة عن الوحي) و(التجديد والتغيير في النبوّة)، وإن كان من الممكن اعتبارهما بمثابة التمهيد لمباحثه بنحوٍ من الأنحاء.

٢ ـ الاتّجاه الشمولي في دراسة حياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام: ويشتمل هذا العنوان على محاضرة يتيمة في هذا الموضوع.

٣ ـ التقسيم المرحلي الثلاثي لحياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام: وقد اشتمل هذا العنوان كذلك على محاضرة يتيمة في موضوعه.

وإذا كان من المبرَّر منطقيّاً أن تُدرج المحاضرتان الأخيرتان ضمن المباحث التمهيديّة، فقد حافظنا على استقلالها؛ تمييزاً لها عن المواد غير اللصيقة بمباحث الكتاب من ناحية، ومحاولةً لتسليط الضوء عليها من ناحية أُخرى.

٤ ـ المرحلة الأُولى: مرحلة تفادي صدمة الانحراف.

٥ ـ المرحلة الثانية: مرحلة بناء الكتلة الصالحة.

٦ ـ المرحلة الثالثة: مرحلة التوسّع والإعداد لتسلّم الحكم.

وقد استفدنا عناوين الفصول الثلاثة الأخيرة من كلمات الشهيد الصدر قدس سره نفسه، وقد ضمّ كلُّ فصلٍ منها عدّة محاضرات أو كلمات.

ز ـ عنوان الكتاب وعناوين المحاضرات:

● تمّ اقتباس عنوان الكتاب «أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة» من كلمات الشهيد الصدر قدس سره؛ حيث ركّز في محاضراته على أنّه رغم تفاوت الأدوار التاريخيّة والظروف السياسيّة والاجتماعيّة التي عاشها أئمّة أهل البيت عليهم السلام، إلّا أنّهم ساروا دائماً على خطّين: خطّ تصحيح الانحراف ومحاولة تسلّم زعامة التجربة، وخطّ تحصين الرسالة الإسلاميّة. وقصد الشهيد الصدر قدس سره من الرسالة الإسلاميّة وجودَها المادي، أي: الأُمّة الإسلاميّة، ولهذا

عبّر أحياناً بتحصين الرسالة وأُخرى بتحصين الاُمّة.

وحيث إنّ أكثر مباحث الكتاب تتمحور حول الخطّ الثاني، فقد حافظنا على العنوان الذي اخترناه في الطبعة السابقة، وهو: «أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة».

● لقد طرأ شيءٌ من التغيير على عناوين المحاضرات بين الطبعة السابقة والطبعة الحاليّة، وذلك بعد دراسة مضامينها دراسة متأنّية؛ حيث عمدنا إلى انتزاع عناوين أكثر دقّةً وأكثر قدرةً على التعبير عن مضامينها من العناوين المعتمدة في الطبعات السابقة.

● أمّا عناوين المتن الفرعيّة؛ فحيث إنّ النسبة الغالبة من مادة الكتاب عبارة عن محاضرات ملقاة، فقد جاءت بشكل عام عاريةً عن العناوين الفرعيّة، بل إنّ المقالات المكتوبة ماثلتها أيضاً في ذلك.

وعلى هذا الأساس، خرجنا عن الديدن المعتمد في تحقيق تراث الشهيد الصدر قدس سره من وضع العناوين المضافة بين عضادتين؛ لأنّها كلّها كانت من وضعنا، باستثناء موارد معدودة أشرنا في الهامش إلى أنّها من وضعه قدس سره.

ح ـ تصحيح النصّ:

لا يخفى أنّ هذه المحاضرات لم تتعرّض للصياغة بقلم الشهيد الصدر قدس سره، ولهذا فقد لا يتجلّى فيها بوضوح «سلاسته الجاحظيّة» و«السهل الممتنع نفسه الذي خلب به محمّد باقر الصدر عقول قرّائه»[١]. ومع هذا، فقد حرصنا على الحفاظ على أُسلوبها الإلقائي، ولم نتصرّف فيها إلّا بمقدار تفادي العجمة، أو حذف بعض الكلمات التي يقولها المحاضِر ثمّ يستدرك ويُهملها.

ولكنّ حرصنا على الحفاظ على هيئة هذه المحاضرات لم يمنعنا من

(١) الدكتور شبلي الملّاط، تجديد الفقه الإسلامي، مقدّمة الطبعة العربيّة: ١٦.

تصحيح بعض الكلمات تارةً، أو تفصيح بعضها العامّي أُخرى، أو إضافة بعضها ليستقيم به السياق ثالثةً، وقد جعلنا ذلك بين عضادتين في إشارةٍ إلى أنّه منّا، اللهمّ إلّا موارد لا تستحقّ الإشارة؛ فما جعلناه بين عضادتين هو في الغالب تصحيحٌ للكلمة من حيث الإعراب، أو التذكير والتأنيث، أو الإفراد والتثنية والجمع، أو تصحيحٌ للحرف الذي يتعلّق به الفعل، أو إضافةٌ لضمائر الفصل و«بين»، أو تفصيحٌ لما ورد بالعامّيّة. وفي الموارد التي يكون فيها التصرّف أزيد من هذا المقدار أشرنا إلى نحوِ التصرّف في الهامش.

يُشار إلى أنّنا لم نتقيّد بتصحيح ما بات يُعرف بـ (الأخطاء الشائعة).

ط ـ تقطيع النص :

لقد استعضنا عن إعادة صياغة هذه المحاضرات بتقطيعها بنحوٍ يتناسب مع طريقة الإلقاء ويوصل الفكرة بحسب ما أرادها صاحبها؛ فقد تبيّن لنا أنّ من مشاكل النسخ المدوّنة والتي تكشّفت أثناء مقابلتها بالنسخة الصوتيّة: ما اعتمده بعض المدوّنين في تقطيع النص؛ حيث ظهر ـ في موارد قليلة ـ أنّ تقطيع النصّ يجب أن يكون بنحوٍ مختلفٍ ليؤدّي المعنى الذي قصده الشهيد الصدر قدس سره، في الوقت الذي يؤدّي فيه ـ بحسب التقطيع المعتمد ـ معنىً آخر كاملاً، ولكنّه غير مرادٍ له قدس سره.

إضافةً إلى تسرّب الخطأ إلى بعض المركّبات الإضافيّة التي يُحتمل في قراءتها عدّة أوجه. وقد قمنا باكتشاف مقصود الشهيد الصدر قدس سره ومراده ـ وبالتالي إعراب بعض المركّبات الإضافيّة وتقطيع النصّ بالشكل المناسب ـ على ضوء الأشرطة الصوتيّة.

ومن أمثلة أخطاء التقطيع: قوله قدس سره: «..عبر مرانٍ طويلٍ على تحمّل المسؤوليّاتِ. البشريّةُ بقيت تتحمّل..»، فدوّنت في النسخ المطبوعة:

«المسؤوليّاتِ البشريّةِ. بقي يتحمّل..» بإرجاع الضمير إلى فاعلٍ مقدَّر.

ومن أمثلة أخطاء الإعراب: قوله ﷺ: «استطاعت أن تتحمّل مسؤوليّةَ رسالةٍ لا حدّ لها، ممتدّةٍ..»، فدوّنت في النسخ المطبوعة: «.. مسؤوليّةٌ رساليّةٌ لا حدّ لها ممتدّةٌ».

وقد بالغنا في التدقيق في الموارد التي تتوفّر فيها نسخة صوتيّة، وحاولنا أن تخرج المحاضرة مطابقة لما ألقاه الشهيد الصدر ﷺ، وقد تقيّدنا بالنسخة الصوتيّة حتّى بصيغ الصلوات الواردة فيها، ولهذا يجد القارئ أنّنا تارةً نثبت (عليه السلام) وأُخرى (عليه الصلاة والسلام)، وتارةً (عليهم السلام) وأُخرى (عليهم الصلاة والسلام)، وذلك وفقاً لما جاء على لسان الشهيد الصدر ﷺ، ولم نحذف سوى أجوبته ﷺ على الطلّاب حين دخولهم إلى حلقة الدرس متأخّرين؛ حيث كانوا يلقون السلام، فيقطع المحاضرة ليجيبهم (رضوان الله تعالى عليه)، أو بعض الكلمات المكرّرة أو الاستدراكيّة.

ي ـ توثيق المصادر وتعيين الإحالات:

● لقد حاولنا قدر المستطاع توثيق كلّ معلومة وردت في ثنايا الكتاب، وحرصنا على تعيين أقرب ما يُمكن أن يكون مراداً للشهيد الصدر ﷺ.

وبسبب الخصوصيّة التي يتمتّع بها هذا الكتاب وحساسيّة موضوعه، فقد خرجنا عن ديدنا في تحقيق سائر كتبه ﷺ من تجنّب نقل النصوص في مقام التوثيق، ولهذا سيجد القارئ في الهامش عدداً من النصوص المنقولة.

وفي مقام التوثيق، قمنا بتصنيف المنقولات الحديثيّة على أساس انتمائها إلى المدرستين، مع اعتماد الترتيب التاريخي داخل كلّ مدرسة، وحرصنا عند توثيق المنقولات التاريخيّة على الإرجاع إلى المصادر القديمة قدر المستطاع، وتدرّجنا من المصدر المتقدّم إلى المتأخّر عنه، ولم نتقيّد بالمصادر التي نطمئنُّ إلى كونها المصادر التي اعتمدها الشهيد الصدر ﷺ.

● وإلى جانب توثيق المصادر، قمنا بتعيين موارد الإحالات والإرجاعات. وفي سبيل تيسير هذه المهمّة، عمدنا إلى ترقيم موضوعات الكتاب ـ محاضراتٍ ومقالاتٍ ـ من (١) إلى (٢٦) بهدف الإحالة إلى الرقم، وأثبتنا الرقم في بداية كلّ موضوع وفي أعلى صفحاته وفي الفهرس، علماً بأنّنا عندما نحيل إلى المحاضرة الخامسة عشرة مثلاً، فهذا يعني الإحالة إلى المحاضرة التي تحمل الرقم (١٥)، وإن لم تكن في الرتبة الخامسة عشرة ضمن المحاضرات، بعد أن كان الكتاب يشتمل على محاضرات ومقالات.

المحاضرات الحالية.. ونسخها المتعدّدة:

سبق أن أشرنا في ثنايا هذه المقدّمة إلى أنّ ما وصلنا من محاضرات الشهيد الصدر قدس سره حول أئمّة أهل البيت عليهم السلام لا يغطّي كلّ ما كان قد ألقاه، وفي بعض الإحالات المبثوثة في المحاضرات التي بين أيدينا ما يشير إلى أن بعض ما ألقاه قدس سره لم يصلنا، كما كان يعد بمزيد منها، حتّى عن الأئمّة الذين تحدّث عن حياتهم وأحوالهم، ولعلّه أوفى بوعده ولم يصلنا ما ألقاه.

ومن الشواهد على ذلك ما نحتمله من أنّ محاضرة الإمام الجواد عليه السلام التي ننشرها في هذا الكتاب ليست هي المحاضرة التي أحال إليها في المحاضرتين الرابعة والرابعة والعشرين، وأنّ المحاضرة التي يحيل إليها لم تصلنا؛ لأنّ الفكرة المحال إليها ليست موجودة بشكل واضح في محاضرة الإمام الجواد عليه السلام التي بين أيدينا، خاصّة أنّها اُلقيت عَرَضاً بمناسبة وفاة الإمام الجواد عليه السلام بينما كان الشهيد الصدر يلقي محاضراته حول الإمام الحسين عليه السلام.

إذاً، يشتمل أرشيف (مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدس سره) على مجموعة من هذه المحاضرات فحسب، وهي عبارة عن مجموعة من النسخ الخطيّة التي دوّنها طلّاب الشهيد الصدر قدس سره، إلى جانب

نسخة المرحوم الشيخ فهد مهدي المطبوعة التي لم تتوفّر نسختها الخطيّة، إضافةً إلى مجموعة من الطبعات المختلفة التي طبعت بشكل عام على ضوء القسمين المتقدّمين.

ولإتمام العمل على تحقيق هذه المحاضرات على ضوء نسخة الأصل والنسخ الاُم والنسخ الاُخرى، جعلنا رمزاً لكلّ نسخة. وحيث إنّ لكلّ محاضرة نُسَخَها الخاصّة بنحوٍ مغايرٍ لأخواتها، فقد قمنا بعمليّة الترميز على أساس صاحب النسخة، وهذا يعني أنّ النسخة (أ) مثلاً من المحاضرة الاُولى ترجع إلى المدوِّن نفسه الذي دوّن النسخة (أ) من المحاضرة الثانية.

وقد قمنا بالإشارة إلى نسخة السيّد عبد الغني الموسوي النجفي الأردبيلي رحمه الله الخطيّة بـ(غ)، وإلى نسخة سماحة آية الله السيّد كاظم الحسيني الحائري حفظه الله الخطيّة بـ(ح)، وإلى نسخة سماحة آية الله السيّد محمود الهاشمي الشاهرودي حفظه الله الخطيّة بـ(ش)، وإلى نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن وردتنا مؤخّراً من النجف الأشرف بـ(ن)، وإلى أربع نسخ خطيّة اُخرى ـ مجهولة المدوّن كذلك ـ بـ(م) و(ج) و(هـ) و(و)، وإلى نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله المطبوعة بـ(ف).

وفي ما يلي تعدادٌ لمواد هذه الطبعة بحسب الترتيب الذي انتهينا إليه، مع الإشارة إلى تاريخ كلّ مادة ونسخها المتوفّرة ونسخها التي اعتمدناها:

١ ـ فكرة موجزة عن الوحي:

اُلقيت ـ بحسب ما جاء في دفاتر السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله ـ عصر ٢٨ صفر ١٣٨٥هـ، وذلك في مقبرة آل ياسين.

أ ـ نسخة صوتيّة كاملة، بمدّة (٤٤) دقيقة.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٥) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٦ صفحة: ٣٥ ـ ٥٠)، تحت عنوان: (فكرة موجزة عن الوحي).

ج ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، نشرت ضمن طبعة دار التعارف: (أهل البيت.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) التي سنرمز لها بـ(تع)، وقد نشرت في (١٢) صفحة (تع: ٤٥ ـ ٥٦)، تحت عنوان: (مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله).

د ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، جاء مقطّعاً في (٢٢) صفحة (٢٨ ـ ٢٩ و٤٨ ـ ٦٧)، تحت عنوان: (ضرورة الوحي) و(انقطاع الوحي.. مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً.

٢ ـ التجديد والتغيير في النبوّة:

أُلقيت بمناسبة البعثة النبويّة الشريفة في ٢٧ رجب، وذلك سنة ١٣٨٧هـ بحسب (غ)، أو سنة ١٣٨٨هـ بحسب (ف) و(و).

أ ـ نسخة صوتيّة كاملة، بمدّة (٣٩) دقيقة.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٣) صفحة.

ج ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١١) صفحة (تع: ٣٣ ـ ٤٣)، تحت عنوان: (التغيير والتجديد في النبوّة).

د ـ نسخة مجهولة المدوِّن (و)، تقع في (١١) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٦ صفحة: ١٧ ـ ٣٢)، تحت عنوان: (النبوّة الخاتمة).

هـ ـ بحث منشور في مجلّة (دراسات وبحوث)، السنة الثانية، العدد الخامس، محرّم ١٤٠٢هـ، وذلك في (١٠) صفحات (٢٠ ـ ٢٩)، تحت عنوان

(التجديد والتغيير في النبوّة).

و ـ بحث صادر سنة ١٩٩٠م عن دار التعارف ببيروت، ومطبوع ضمن المجلّد الحادي عشر من (المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّد باقر الصدر)، ويقع في (٢٥) صفحة (٣٧ ـ ٦١)، تحت عنوان: (النبوّة الخاتمة)، وذلك بدراسة وتقديم الدكتور جودت القزويني.

ز ـ بحث صادر سنة ١٩٩٠م عن دار التعارف ببيروت، ومطبوع ضمن المجلّد الثالث عشر من (المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّد باقر الصدر)، ويقع في (١٧) صفحة (٦٣ ـ ٧٩)، تحت عنوان: (التجديد والتغيير في النبوّة)، ولكنّه بدون تقديم أو تحقيق.

ح ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، يقع في (٤٥) صفحة (٣١ ـ ٧٥)، تحت عنوان: (التغيير والتجديد في النبوّة). وجاء في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (١٩) صفحة (٢٩ ـ ٤٧)، تحت عنوان: (ظاهرة النبوّة/ التغيير والتجديد في النبوّة).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً.

٣ ـ الاتجاه الشمولي في دراسة حياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

أُلقيت هذه المحاضرة في الجلسة الخامسة للموسم الثقافي الأوّل لجمعيّة الرابطة الأدبيّة في النجف الأشرف سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م)، وذلك ـ كما يُفهم منها ـ بمناسبة مولد أمير المؤمنين عليه السلام، أي في رحاب ١٣/رجب/١٣٨٦هـ. ولم يُذكر في نسختها المطبوعة الأُولى ما إذا كان الشهيد الصدر قدس سره هو الذي ألقاها أم شخصٌ آخر. ولكنْ، من خلال متابعة أُسلوب الإلقاء اتّضح لدينا أنّها تختلف عن المحاضرات الصوتيّة الأُخرى اختلافاً واضحاً، ويكاد يكون

واضحاً أنّ الشهيد الصدر رحمه الله يحاضر عن نصٍّ مكتوب، خاصّة أنّه يتوقّف ليضع بعض العناوين، الأمر الذي لم نشهده في سائر المحاضرات، الأمر الذي جعلنا نطمئنُّ إلى أنّ النسخة الصوتيّة التي لدينا ليست سوى النصّ الذي اُلقي في تلك الجلسة.

أ ـ نسخة صوتيّة كاملة بمدّة (٣١) دقيقة.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله: (غ١) في (١٠) صفحات تُمّمت بصفحتين بخطّ شخص آخر، و(غ٢) في (١٠) صفحات سقط منها صفحتان وتبدأ من الصفحة الثالثة. وكانت نسخته رحمه الله نسخةَ الأصل في طبعتنا الاُولى (١٣ صفحة: ٥٣ ـ ٦٥)، تحت عنوان: (الاتّجاه الشمولي في دراسة حياة الأئمّة عليهم السلام).

ج ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (٩) صفحات (تع: ١٤١ ـ ١٤٩)، تحت عنوان: (دور الأئمّة عليهم السلام).

د ـ نسخة خطّيّة مجهولة المدوِّن (ج)، تقع في (٩) صفحات، كلّها بخطّ (ج)، سوى الصفحة الأخيرة بخطّ (هـ).

هـ ـ نسخة خطّيّة مجهولة المدوِّن (ن)، تقع في (٩) صفحات.

و ـ بحث منشور في مجلّة (الإيمان) (إ)، السنة الثالثة، العدد (٣ ـ ٤)، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م، تحت عنوان: (دور الأئمّة في الحياة الإسلاميّة، بقلم: محمّد باقر الصدر)، وذلك في (١٠) صفحات (٢٣ ـ ٣٢). وفي هذه النسخة بعض الإضافات الطفيفة عمّا ورد في المحاضرة الصوتيّة.

ز ـ بحث منشور ضمن (دائرة المعارف الإسلاميّة) للمرحوم السيّد حسن الأمين، وذلك في مختلف طبعاتها، منها: الطبعة الثانية (١٩٧٥م) ٢: ٩٤ ـ ٩٧؛ الطبعة الثالثة (١٩٨٦م) ٢: ٦٣ ـ ٦٦؛ الطبعة الخامسة (١٩٩٢م) ١: ٤٨٧ ـ

٤٩٠.

ح ـ نسخة مطبوعة ضمن كتاب (اخترنا لك) ـ الذي كان قد أُعدَّ سنة ١٩٧٥م في حياة الشهيد الصدر، والذي اختار له هذا العنوان ـ ، تقع في (١٤) صفحة (٥٧ ـ ٧٠)، تحت عنوان: (دور الأئمّة في الحياة الإسلاميّة). وأُعيد طبعها في طبعات الكتاب المنقّحة والمزيدة في (١١) صفحة (٢٠٧ ـ ٢١٧) تحت العنوان نفسه.

ط ـ بحثٌ منشور تحت عنوان (دور الأئمّة في الحياة الإسلاميّة)، ويقع في (٢٦) صفحة (١٩ ـ ٤٤). وقد شكّل هذا البحث القسمَ الأوّل من كتابٍ حمل العنوان نفسه، وذلك بتحقيق ودراسة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ محمّد اليعقوبي، وعلى بحث الشهيد الصدر تعليقاتٌ بقلم تلميذه الفذ آية الله الشهيد السيّد محمّد محمّد صادق الصدر.

ي ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي، يقع في (٢٩) صفحة (٧٧ ـ ١٠٨)، تحت عنوان: (دور الأئمّة في الحياة الإسلاميّة). وجاء مبعثراً تحت العنوان نفسه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٢١) صفحة (٢٨٨ ـ ٣٠٤) و(٣٢٧ ـ ٣٣٠).

ك ـ ترجمت هذه المحاضرة إلى اللغة الفارسيّة تحت عنوان (نقش پيشوايان شيعه در بازسازى جامعه اسلامى).

ل ـ كما تُرجمت إلى الإنجليزيّة تحت عنوان (Common role of the imams) و(Introduction to Islamic Political System).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً، مع إضافة ما زاد عليها

أو تمّ تعديله في (إ).

٤ ـ التقسيم المرحلي الثلاثي لحياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، مع مقدّمة حول عناصر التجربة الإسلاميّة وعوامل انحرافها:

لم تحمل تاريخاً محدّداً، ولكنّها اُلقيت بعد محاضرة الإمام الجواد عليه السلام في ٢٩/ذي القعدة/١٣٨٨هـ وقبل محاضرة الإمام الرضا عليه السلام. وقد ورد في مطلعها أنّها على أبواب شهادة الإمام الحسن عليه السلام التي تقع في ٧/صفر بحسب الرواية المعمول بها في حوزة النجف الأشرف. كما ورد في ذيلها أنّ الشهيد الصدر رحمه الله كان سيلقي محاضرةً ثانيةً في اليوم التالي، ومحاضرةً ثالثة يوم الأربعاء (وهو ٧/صفر /١٣٨٩هـ)، فيُحتمل أن تكون في ٣ أو ٤ أو ٥ صفر/١٣٨٩هـ، وربّما كانت في ٥/صفر إذا فهمنا أنّه رحمه الله ألقى المحاضرات الثلاث بشكل متوالٍ.

وبهذا نفهم ما جاء في أوّلها من الوعد بالحديث عن الإمام الحسين عليه السلام، والمتمثّل في المحاضرتين التاسعة عشرة والعشرين في ١٦ و١٧ صفر/١٣٨٩هـ.

أ ـ نسخة صوتيّة كاملة بمدّة (٤٢) دقيقة.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله الأُولى (غ١)، تقع في (١٨) صفحة. ولدينا نسخة اُخرى (غ٢) تقع في (١٦) صفحة، وثالثة (غ٣) تقع في (١٨) صفحة.

جـ ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١١) صفحة (تع: ١١٥ ـ ١٢٥)، تحت عنوان: (ثلاثة أئمّة).

د ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله (ش)، تقع في (١٥) صفحة.

هـ ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ج)، تقع في (١٤) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٦ صفحة: ٢١١ ـ ٢٢٦)، تحت عنوان (المرحلة الأُولى من حياة الأئمّة عليهم السلام).

و ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ن)، تقع في (١٢) صفحة.

ز ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، يقع في (٢٠) صفحة (٣٠١ ـ ٣٢٠)، تحت عنوان: (الانحراف وبعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام/ ثلاثة أئمّة). وجاء قسمٌ منه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (١٠) صفحات (٣٦٢ ـ ٣٧١)، تحت عنوان: (أئمّة المرحلة الأُولى). وقسمٌ آخر في (٧) صفحات (٥٣٢ ـ ٥٣٨)، تحت عنوان: (كيفيّة وجود التربية الكاملة).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً.

٥ ـ مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله (١).. الأُمّة الإسلاميّة .. طاقة حراريّة أم وعي مستنير؟! (بدون تاريخ):

أ ـ نسخة صوتيّة كاملة بمدّة (٥٥) دقيقة.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله: (غ ١) في (٢٦) صفحة، و(غ ٢) في (٢٥) صفحة. وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (٢٤ صفحة: ٦٩ ـ ٩٢)، تحت عنوان (الأُمّة الإسلاميّة: طاقة حراريّة أم وعي مستنير؟).

ج ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١٦) صفحة (تع: ٨٧ ـ ١٠٢) ضمن قسمين، يحمل الثاني منهما عنوان: (ممارسة أئمّة المرحلة الأُولى للصراع السياسي).

د ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله (ش)، تقع في (٢٠) صفحة.

هـ ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (هـ)، تقع في (١٩) صفحة.

و ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ن)، تقع في (١٦) صفحة.

ز ـ نسخة مطبوعة ضمن كتاب (الإمام علي عليه السلام.. سيرة وجهاد) الصادر

عن دار المرتضى ٢٠٠٣م، تقع في (٢٦) صفحة (٩٢ ـ ١١٧).

ح ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، يقع في (٣٣) صفحة (٢٤٦ ـ ٢٧٨)، تحت عنوان: (الانحراف وبعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام/ الانحراف ووعي الأُمّة). وجاء قسمٌ منه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٧) صفحات (٣٥٥ ـ ٣٦١)، تحت عنوان (ممارسة أئمّة المرحلة الأُولى للصراع السياسي). وقسمٌ ثانٍ في (١٨) صفحة (٥١٤ ـ ٥٣١)، تحت عنوان: (الانحراف ووعي الأُمّة). وقسمٌ ثالث في صفحتين (٥٣٩ ـ ٥٤٠)، تحت عنوان: (موقف أمير المؤمنين السياسي)، وقسمٌ رابع ـ هو في المحاضرة الصوتيّة متقدّم على الثالث ـ في صفحتين (٥٤٠ ـ ٥٤١)، تحت عنوان: (موقف الأئمّة السياسي).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً.

٦ ـ مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله (٢).. عوامل انحراف التجربة الإسلاميّة ودور الأئمّة عليهم السلام في مواجهته (بدون تاريخ):

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٦) صفحة.

ب ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١٣) صفحة (تع: ١٢٧ ـ ١٤٠)، تحت عنوان: (بداية الانحراف).

ج ـ نسخة مجهولة المدوِّن (م)، تقع في (١٨) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٨ صفحة: ٩٥ ـ ١١٢)، تحت عنوان (بداية الانحراف).

د ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، يقع في (٢٨) صفحة (٣٢١ ـ ٣٤٨)، تحت عنوان: (الانحراف وبعض المشاكل التي

واجهت أمير المؤمنين عليه السلام/ بداية الانحراف) و(دور الأئمّة عليهم السلام تجاه تسلسل الأحداث).

وجاء تحت عنوان (بداية الانحراف) في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٢٠) صفحة (٣٣٠ ـ ٣٤٩).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (م) أصلاً، مع مقابلتها بـ(غ) و(ف).

٧ ـ مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله (٣).. وضع الأمّة الإسلاميّة وموانع تزعّم الإمام علي عليه السلام (بدون تاريخ):

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٠) صفحات.

ب ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١٤) صفحة (تع: ٧٣ ـ ٨٦)، تحت عنوان: (بداية الانحراف وبعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام).

ج ـ نسخة مجهولة المدوِّن (م)، تقع في (١٩) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٨ صفحة: ١٦٩ ـ ١٨٦)، تحت عنوان (انحراف التجربة الإسلاميّة وتخطيط الأئمّة لمواجهة الانحراف).

د ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (الإمام علي عليه السلام.. سيرة وجهاد) الصادر عن دار المرتضى ٢٠٠٣م، يقع في (٢٥) صفحة (٦٨ ـ ٩٢)، تحت عنوان: (بعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام).

هـ ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، يقع في (٣٣) صفحة (٢١٣ ـ ٢٤٥)، تحت عنوان: (بداية الانحراف، وبعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام). وجاء قسمٌ منه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٧) صفحات (٢١٦

ـ ٢٢٢)، تحت عنوان: (ضرورة عصمة القيادة)، وقسمٌ ثانٍ في (١٣) صفحة (٤٢٠ ـ ٤٣٢)، تحت عنوان: (تحليل الموقف عقيب وفاة الرسول صلى الله عليه وآله)، وقسمٌ ثالث في (٥) صفحات (٥٠٩ ـ ٥١٣)، تحت عنوان: (بداية الانحراف وبعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (م) أصلاً، مع مقابلتها بـ(غ) و(ف).

٨ ـ مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله (٤).. الإمام علي عليه السلام بين تصحيح الانحراف وتحصين الأُمّة (بدون تاريخ):

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٧) صفحة.

ب ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١٥) صفحة (تع: ٥٧ ـ ٧١)، تحت عنوان: (دور الأئمّة عليهم السلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله).

ج ـ نسخة مجهولة المدوّن (م)، تقع في (١٩) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (٢٠ صفحة: ١٨٩ ـ ٢٠٨)، تحت عنوان (بداية الانحراف ودور عليٍّ عليه السلام في مواجهته).

د ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (الإمام علي عليه السلام.. سيرة وجهاد) الصادر عن دار المرتضى ٢٠٠٣م، يقع في (٢٥) صفحة (٤٣ ـ ٦٧)، تحت عنوان: (علي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله).

هـ ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، يقع في (٣١) صفحة (١٧٩ ـ ٢٠٩)، تحت عنوان: (علي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله).

وجاء قسمٌ منه تحت عنوان: (الأئمّة ومواجهة منطق الانحراف) في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٢٢) صفحة (٣٠٥

ـ ٣٢٦)، وقسمٌ آخر في (٣) صفحات (٤٨٨ ـ ٤٩٠)، تحت عنوان: (عليٌّ بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (م) أصلاً، مع مقابلتها بـ (غ) و(ف).

٩ ـ الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم (١).. مبرّرات رفض المساومات وأنصاف الحلول (١):

أُلقيت بتاريخ ١٨/ شهر رمضان/ ١٣٨٨هـ بحسب (غ) و(م)، وفي ١٩ منه بحسب (ف).

أ ـ نسخة صوتيّة بمدّة (٤٠) دقيقة، سقط منها سطرٌ من أوّلها، وصفحةٌ ونيّفٌ من آخرها، وسنشير إلى السقط في محلّه.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٣) صفحة، سقط من آخرها مقدار خمسة أسطر.

ج ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١٤) صفحة (تع: ٥ ـ ١٨)، تحت عنوان: (ليلة جرح الإمام عليه السلام).

د ـ نسخة مجهولة المدوِّن (م)، تقع في (١٨) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٧ صفحة: ١١٥ ـ ١٣١)، تحت عنوان (موقف الإمام علي السياسي بعد تسلّمه زمام الحكم ـ ق ١).

هـ ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ن)، تقع في (١١) صفحة.

و ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (الإمام علي عليه السلام.. سيرة وجهاد) الصادر عن دار المرتضى ٢٠٠٣م، يقع في (٢٧) صفحة (١٣٩ ـ ١٦٥)، تحت عنوان: (أشأم ليلة).

ز ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله،

يقع في (٣٦) صفحة (١٠٦ ـ ١٤١)، تحت عنوان: (ليلة جرح الإمام علي عليه السلام).

وجاء تحت عنوان: (الإمام علي عليه السلام) في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٢٧) صفحة (٤٣٥ ـ ٤٦١). وتكرّرت (١٦) صفحة منه (٥٤٢ ـ ٥٥٧) في الكتاب نفسه، تحت عنوان: (الإمام علي عليه السلام.. الموقف الرسالي وأنصاف الحلول) و(موقف الإمام علي بين انحرافات العهد السابق والأُمّة الثائرة).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً، واستدركنا ما سقط منها من (غ) و(ف) و(م).

١٠ ـ الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم (٢).. مبرّرات رفض المساومات وأنصاف الحلول (٢):

أُلقيت في ١٩/رمضان/١٣٨٨هـ بحسب (غ) و(م)، وبتاريخ ٢٠ منه بحسب (ف).

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، وهي مبتورة الأوّل وتشتمل على آخر صفحتين فقط.

ب ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١٣) صفحة (تع: ١٩ ـ ٣١)، بدون عنوان.

ج ـ نسخة مجهولة المدوِّن (م)، تقع في (١٣) صفحة، وقد فات مدوِّنَها تدوينُ مقدار ثلاث صفحات من أوّلها، وقد تمّ تداركها من (ف)، وشكّل المجموع نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٤ صفحة: ١٣٥ ـ ١٤٨)، تحت عنوان (موقف الإمام علي السياسي بعد تسلّمه زمام الحكم ـ ق ٢).

د ـ نسخة خطّيّة مجهولة المدوِّن (ن)، تقع في (١٢) صفحة.

هـ ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (الإمام علي عليه السلام.. سيرة وجهاد) الصادر

عن دار المرتضى ٢٠٠٣م، يقع في (٢٧) صفحة (١٦٥ ـ ١٩١).

و ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، يقع في (٣٤) صفحة (١٤٢ ـ ١٧٥)، تحت عنوان: (شهادة أمير المؤمنين عليه السلام). وجاء تحت العنوان نفسه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٢٦) صفحة (٤٦٢ ـ ٤٨٧).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (م) أصلاً، مع مقابلتها بـ (غ) و(ف) و(ن)، بعد أن استفدنا الصفحات الأُولى من (ف) خاصّة؛ لسقوطها من (م).

١١ ـ الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم (٣).. لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه (١)؟! (آخر محرّم / ١٣٨٨ هـ):

وقد أُلقيت في آخر محرّم الحرام / ١٣٨٨ هـ على الأرجح، بعد أن كانت قد أُلقيت مع المحاضرة الثانية عشرة في فترة واحدة.

أ ـ نسخة صوتيّة كاملة بمدّة (٤٣) دقيقة.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٠) صفحات، سقط من وسطها مقدارُ ستّ صفحات.

ج ـ نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله (ف)، طبعت في (١١) صفحة (تع: ١٠٣ ـ ١١٣)، تحت عنوان: (تولّي أمير المؤمنين زعامة المسلمين).

د ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله (ش)، وصلتنا صفحاتها الخمس الأُولى فقط.

هـ ـ نسخة مجهولة المدوِّن (هـ)، تقع في (١٢) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٦ صفحة: ١٥١ ـ ١٦٦)، تحت عنوان (الصعوبة التي واجهها الإمام علي عليه السلام بعد البيعة).

و ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ن)، وصلنا منها مقدارُ صفحةٍ ونصف.

ز ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (الإمام علي عليه السلام.. سيرة وجهاد) الصادر عن دار المرتضى ٢٠٠٣م، يقع في (٢٢) صفحة (١١٧ ـ ١٣٨).

ح ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء نسخة الشيخ فهد مهدي رحمه الله، يقع في (٢٢) صفحة (٢٧٩ ـ ٣٠٠)، تحت عنوان: (الانحراف وبعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام/ تولّي أمير المؤمنين زعامة المسلمين). وجاء تحت العنوان نفسه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (١٨) صفحة (٤٩١ ـ ٥٠٨).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً.

١٢ ـ الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم (٤).. لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه (٢)؟! مع إطلالة على مرحلة الإمام الحسن عليه السلام ومرحلة الإمام الحسين عليه السلام (آخر محرّم /١٣٨٨ هـ):

وقد أُلقيت في رحاب الخامس والعشرين من محرّم الحرام؛ لكونها في رحاب شهادة الإمام علي بن الحسين عليه السلام كما جاء في مطلعها. ومن الأرجح أنّها أُلقيت سنة ١٣٨٨ هـ؛ للإحالة إليها في المحاضرات الأُخرى التي أُلقيت في تلك السنة، بعد استبعاد أن يكون قدس سره قد أحال إلى ما ألقاه في سنة سابقة.

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١١) صفحة.

ب ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله (ش)، وصلتنا صفحاتها الخمس الأخيرة فقط.

ج ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن تقع في (٢١) صفحة: ١٠ منها بخطّ (م) والباقي بخطّ شخص آخر. وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (٢٢ صفحة:

٢٢٩ ـ ٢٥٠)، تحت عنوان (مواجهة أئمّة المرحلة الأُولى للانحراف).

د ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ج)، تقع في (١٧) صفحة.

هـ ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ن)، تقع في (١٦) صفحة.

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (م) أصلاً، مع مقابلتها بـ (غ) و(ج) و(ن) و(ش).

١٣ ـ كلمة في مهرجان أمير المؤمنين عليه السلام:

بحثٌ مطبوع ضمن أعمال (المهرجان العالمي بمولد الإمام بطل الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في كربلاء ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م)، وقد أُقيم الاحتفال بكربلاء ليلة ١٣/رجب/١٣٧٩هـ وقد ألقى هذه الكلمة بالنيابة عن الشهيد الصدر رحمه الله المحامي صبري القنبر. وقد سبق أن نشرناها ضمن المجلّد السابع عشر من (موسوعة الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر رحمه الله) (ومضات: ٢٢١ ـ ٢٢٨).

١٤ ـ خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها (١):

لم يتعيّن تاريخها في النسخ الواصلة إلينا، ولكنّها تسبق المحاضرة اللاحقة بيوم، فيكون تاريخ إلقائها يوم السبت ١٢/ رجب/ ١٣٨٨هـ .

أ ـ نسخة صوتيّة بمدّة (١٦) دقيقة فقط، سقط منها مقدارُ إحدى عشرة صفحة من أوّلها، وسنشير إلى مقدار السقط في محلّه إن شاء الله تعالى.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٦) صفحة.

ج ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (هـ)، تقع في (١٢) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٨ صفحة: ٢٥٣ ـ ٢٧٠)، تحت عنوان (خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها ـ القسم الأوّل).

د ـ جاءت بعض أفكار هذه المحاضرة، مع إضافة جملة من الأفكار

المتناثرة في مختلف محاضرات الشهيد الصدر رحمه الله، إلى جانب تلخيص بعض ما ورد في كتابات كتّاب آخرين، جاء ذلك كلّه منسوباً إلى الشهيد الصدر رحمه الله في كتاب (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي)، وقد وقع في (١٧) صفحة (٥٦١ ـ ٥٧٧) تحت عنوان: (الإمام الحسن بن علي عليه السلام).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً، واستدركنا ما سقط منها من (غ) و(هـ).

١٥ ـ خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها (٢):

أُلقيت يوم الأحد ١٣/ رجب/ ١٣٨٨هـ

أ ـ نسخة صوتيّة بمدّة (٥٤) دقيقة، وقد سقط منها مقدارُ سطرين من آخر المحاضرة، وسنشير إلى السقط في محلّه إن شاء الله تعالى.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (٢١) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (٢٢ صفحة: ٢٧٣ ـ ٢٩٤)، تحت عنوان (خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها ـ القسم الثاني).

ج ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (هـ)، تقع في (١٤) صفحة، وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (٢٢ صفحة: ٢٧٣ ـ ٢٩٤)، تحت عنوان (خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها ـ القسم الثاني).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً، واستدركنا ما سقط منها من (غ) و(هـ).

١٦ ـ موقف الإمام الحسين عليه السلام من طمس معالم النظريّة الإسلاميّة وتمييع الأُمّة:

أُلقيت بتاريخ ٢٥/ شوّال/ ١٣٨٨هـ بحسب (غ).

أ ـ نسخة صوتيّة بمدّة (٢٦) دقيقة، سقط منها مقدارُ سطرين من مطلع

المحاضرة، وثماني صفحات من آخرها، وسنشير إلى هذا السقط في محلّه إن شاء الله تعالى.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٩) صفحة. وقد شكّلت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (٢٢ صفحة: ٢٩٧ ـ ٣١٨)، تحت عنوان (طمس معالم النظرية الإسلاميّة وتمييع الأُمّة وموقف الإمام الحسين عليه السلام من ذلك).

ج ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله (ش)، تقع في (١٩) صفحة.

د ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ن)، تقع في (١٣) صفحة.

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً، واستدركنا ما سقط منها من (غ).

١٧ ـ الإمام الحسين عليه السلام ومبرّرات رفض البيعة:

قد وردت هذه المحاضرة في ذيل محاضرة الشهيد الصدر قدس سره حول الإمام الجواد عليه السلام والإمامة المبْكرة. ولمّا كانت منفصلة كليّاً عن محاضرة الإمام الجواد عليه السلام، فقد عزلناها ونشرناها بنحو مستقل على ما أشرنا في بداية هذه المقدّمة. وقد أُلقيت بتاريخ ٢٩/ ذي القعدة/ ١٣٨٨ هـ بحسب (غ) و(ح).

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (٧) صفحات.

ب ـ نسخة آية الله السيّد كاظم الحسيني الحائري حفظه الله (ح)، تقع في (١١) صفحة. وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (٨ صفحات: ٤٠٧ ـ ٤١٤). وقد لخّصها السيّد الحائري وطبعت في (٣) صفحات (٤٨ ـ ٥٠) في هامش محاضرة (التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة) المنشورة في مجلّة (الفكر الإسلامي) الصادرة بقم المقدّسة، العدد (١٧).

ج ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله (ش)، تقع في (٦) صفحات.

د ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ن)، تقع في (٥) صفحات.

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (ح) أصلاً، مع مقابلتها بـ (غ).

١٨ ـ مقومات ثورة الإمام الحسين عليه السلام:

لم نعثر على نسخة مخطوطة لهذه المحاضرة، ولم نتوصّل ـ بعد البحث والتحرّي ـ إلى تعيين مصدرها، ولكنّنا نعلم جيّداً أنّها للشهيد الصدر قدس سره؛ وذلك مضموناً ولغةً وأُسلوباً، إلى جانب انسجامها مع سائر المحاضرات، باستثناء بعض الاستشهادات التي ليس من دأبه قدس سره اللجوء إليها، لكنْ ليس ذلك بشيء.

ولكنّ الذي استوقفنا فيها قول الشهيد الصدر قدس سره: «وإمّا أن يكون الحاكم فقيهاً عادلاً، كما هو الحال في إيران اليوم»؛ إذ يظهر من ذلك أنّه ألقاها بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران؛ لأنّ الإمام الخميني قدس سره لم يكن حاكماً قبل ذلك، والحال أنّ طلّابه المقرّبين الذين عاشوا معه في تلك المرحلة أكّدوا على أنّه لم يُلقِ أيّة محاضرة حول هذا الموضوع بعد انتصار الثورة. وعلى هذا الأساس، فقد احتمل بعض كبار تلامذته والمقرّبين منه أن تكون عبارة «كما هو الحال في إيران اليوم» من إضافة المصحّح عندما تقرّر أن تُطبع، وهو غير بعيد. ونحتمل بشدّة أنّ بعض العبارات هي كذلك من إضافة الناشر، من قبيل ما ورد فيها: «مسلم بن عقيل عليه السلام»؛ حيث لم يدأب الشهيد الصدر قدس سره على هذا الاستعمال في بقيّة محاضراته.

أ ـ بحثٌ مطبوعٌ ضمن (المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّد باقر الصدر) تحت عنوان: (محاضرة حول ثورة الإمام الحسين عليه السلام) الصادرة عن دار التعارف ببيروت (١٣ صفحة: ٨٣ ـ ٩٥).

ب ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي على ضوء النسخة السابقة، يقع

في (١٨) صفحة (٣٤٩ ـ ٣٦٦)، تحت عنوان: (دور الأئمّة عليهم السلام تجاه تسلسل الأحداث / ثورة الإمام الحسين عليه السلام). وجاء تحت العنوان نفسه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (١٤) صفحة (٥٧٨ ـ ٥٩١).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه طبعةَ دار التعارف أصلاً.

١٩ ـ التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة:

أُلقيت بتاريخ ١٦/ صفر / ١٣٨٩هـ بحسب (غ) و(ح)، وجاء في المحاضرة التي تليها أنّها ـ أي التالية ـ هي المحاضرة الرابعة حول الإمام الحسين عليه السلام، فإذا فهمنا من ذلك أنّها المحاضرة الرابعة ضمن المحاضرات التي هي عن الإمام الحسين عليه السلام، لا أنّها المحاضرة الرابعة وهي عن الإمام الحسين عليه السلام، فهذا يعني أنّه يوجد قبل المحاضرة الحاليّة التاسعة عشرة محاضرتان حول الإمام الحسين عليه السلام لم تصلانا.

أ ـ نسخة صوتيّة بمدّة (٣٥) دقيقة، سقط منها مقدارُ ثلاث صفحات من آخرها، وسنشير إلى هذا السقط في محلّه إن شاء الله تعالى.

ب ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٣) صفحة.

ج ـ نسخة آية الله السيّد كاظم الحائري حفظه الله (ح)، تقع في (٢٠) صفحة. وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٨ صفحة: ٣٢١ ـ ٣٣٨)، تحت عنوان (التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة).

د ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله (ش)، تقع في (١٢) صفحة، سقط منها مقدارُ صفحةٍ من أوّلها.

هـ ـ بحثٌ مطبوع في (١٧) صفحة (٤٧ ـ ٦٣) على ضوء النسخة (ح) في مجلّة (الفكر الإسلامي) الصادرة بقم المقدّسة، العدد (١٧)، وذلك تحت عنوان: (التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة).

و ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (الحسين عليه السلام يكتب قصّته الأخيرة) على ضوء طبعة مجلّة (الفكر الإسلامي)، وذلك بتحقيق وتعليق ومراجعة الأُستاذ صادق جعفر الروازق، يقع في (٣٤) صفحة (٥١ ـ ٨٢)، تحت عنوان: (التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة).

ز ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) على ضوء طبعة مجلّة (الفكر الإسلامي)، وذلك بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي، يقع في (٢٤) صفحة (٣٦٧ ـ ٣٩٠)، تحت عنوان: (دور الأئمّة عليهم السلام تجاه تسلسل الأحداث/ التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة). وجاء تحت العنوان نفسه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٢٠) صفحة (٥٩٢ ـ ٦١١).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه النسخة الصوتيّة أصلاً، واستدركنا ما سقط منها من (ح) و(غ).

٢٠ ـ التحوّل من أخلاقيّة الهزيمة إلى أخلاقيّة الإرادة:

اُلقيت بتاريخ ١٧/ صفر/ ١٣٨٩هـ بحسب (غ) و(ح).

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٤) صفحة.

ب ـ نسخة آية الله السيّد كاظم الحائري حفظه الله (ح)، تقع في (٢٢) صفحة. وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الأُولى (١٨ صفحة: ٣٤١ ـ ٣٥٨)، تحت عنوان (التحوّل من أخلاقيّة الهزيمة إلى أخلاقيّة الإرادة).

ج ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله (ش)، تقع في (١٥) صفحة.

د ـ بحثٌ مطبوع في (١٤) صفحة (٦٣ ـ ٧٦) على ضوء النسخة (ح) في مجلّة (الفكر الإسلامي) الصادرة بقم المقدّسة، العدد (١٧)، تحت عنوان: (التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة).

هـ ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (الحسين عليه السلام يكتب قصّته الأخيرة) على ضوء طبعة مجلّة (الفكر الإسلامي)، وذلك بتحقيق وتعليق ومراجعة الأُستاذ صادق جعفر الروازق، يقع في (٣٣) صفحة (٨٢ ـ ١١٤)، تحت عنوان: (التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة).

و ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) على ضوء طبعة مجلّة (الفكر الإسلامي)، وذلك بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي، يقع في (٢٥) صفحة (٣٩٠ ـ ٤١٤)، تحت عنوان: (دور الأئمّة عليهم السلام تجاه تسلسل الأحداث/ التحوّل من أخلاقيّة الهزيمة إلى أخلاقيّة الإرادة).

وجاء تحت العنوان نفسه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٢١) صفحة (٦١١ ـ ٦٣١).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (ح) أصلاً، مع مقابلتها بـ (غ).

٢١ ـ كلمة حول الثورة الحسينيّة وتغيير أخلاقيّة الهزيمة:

هذه المحاضرة عبارة عن كلمة للشهيد الصدر قدس سره ألقاها باسمه سماحة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله في مكتبة الإمام الحكيم العامّة في محافظة الديوانيّة، وذلك بتاريخ ٢/٧/١٩٧٥م، بمناسبة الموسم الثقافي في عاشوراء، وتشترك في العديد من الأفكار مع محاضرة (التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة).

أ ـ نسخة آية الله السيّد محمود الهاشمي الشاهرودي حفظه الله (ش)، تقع في (٦) صفحات.

ب ـ بحث مطبوع تحت عنوان (الثورة الحسينيّة وتغيير أخلاقيّات الهزيمة) على ضوء (ش)، وذلك في مجلّة (المنهاج) الصادرة ببيروت، في العدد

(٤٤) (٩ ـ ١٥).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (ش) أصلاً.

٢٢ ـ سيبقى هذا الصوت خالداً:

أ ـ بحثٌ مطبوع في (٤) صفحات تحت هذا العنوان في مجلّة (النشاط الثقافي)، وذلك في العدد الثامن من سنتها الأُولى (١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م: ٤٢٧ ـ ٤٣٠).

ب ـ بحثٌ مطبوع تحت العنوان نفسه في صحيفة (لواء الصدر)، العدد (٨٤١) الصادر بتاريخ ٤/ذي الحجّة/١٤١٨هـ، وذلك على ضوء مقال (النشاط الثقافي) على ما يبدو.

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه نسخةَ مجلّة (النشاط الثقافي) أصلاً.

٢٣ ـ نبذة عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام:

أ ـ هذا البحث عبارة عن مقدّمة لكتاب (الصحيفة السجّاديّة)، كتبها الشهيد الصدر قدس سره سنة ١٩٧٧م، ونشرت في العديد من طبعات الكتاب منذ ذلك الحين حتّى يومنا هذا.

والعنوان الذي أثبتناه مستفادٌ من وثائق الشهيد الصدر قدس سره الخطّيّة. وقد سبق أن نشرنا هذا البحث في المجلّد السابع عشر من (موسوعة الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره) (ومضات: ٢٢٩ ـ ٢٣٥).

ب ـ بحثٌ مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) بتحقيق الأُستاذ عبد الرزّاق الصالحي، يقع في (٩) صفحات (٤١٥ ـ ٤٢٣)، تحت عنوان: (الإمام علي بن الحسين عليه السلام). وجاء تحت العنوان نفسه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٧) صفحات (٦٣٢ ـ ٦٣٨).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه على الطبعات المختلفة للصحيفة السجّاديّة.

٢٤ ـ الإمام الباقر عليه السلام ودوره في تحديد ملامح التشيّع :

لم تحمل تاريخاً محدّداً، ولكن ورد فيها أنّها بعد محاضرة الإمام الجواد عليه السلام، وهي قبل المحاضرة الرابعة التي اُلقيت في ٥/صفر/١٣٨٩هـ. فالأرجح أن تكون قد اُلقيت بمناسبة شهادة الإمام الباقر عليه السلام في ٧/ذي الحجّة/١٣٨٨هـ.

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله، تقع في (١٩) صفحة.

ب ـ نسخة خطيّة مجهولة المدوِّن (ج)، تقع في (١٦) صفحة. وقد شكّلت نسخة الأصل في طبعتنا الاُولى (١٨ صفحة: ٣٦١ ـ ٣٧٨)، تحت عنوان (دروس من تاريخ حياة الإمام الباقر عليه السلام).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (ج) أصلاً، مع مقابلتها بـ (غ).

٢٥ ـ الإمام الرضا عليه السلام.. المنعطف التاريخي في حياة الأئمّة عليهم السلام:

ورد في (غ) أنّها اُلقيت بمناسبة وفاة الإمام الرضا عليه السلام، وهي متأخّرة عن محاضرة الإمام الباقر عليه السلام، المتأخّرة بدورها عن محاضرة الإمام الجواد عليه السلام، فيكون إلقاؤها في ١٧/صفر/١٣٨٩هـ بحسب الرواية المعمول بها في حوزة النجف الأشرف، ولكن حيث إنّ المحاضرة العشرين اُلقيت بهذا التاريخ، فمن المرجّح أنّ هذه اُلقيت بتاريخ ١٨/صفر/١٣٨٩هـ.

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله، تقع في (١٧) صفحة. وقد شكّلت نسخة الأصل في طبعتنا الاُولى (١٨ صفحة: ٣٨١ ـ ٣٩٨)، تحت عنوان (الإمام الرضا عليه السلام المنعطف التاريخي في حياة الأئمّة).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (غ) أصلاً، بعد أن كانت النسخة الوحيدة.

٢٦ ـ الإمام الجواد عليه السلام والإمامة المبْكرة:

اُلقيت بتاريخ ٢٩/ ذي القعدة/ ١٣٨٨ هـ بحسب (غ) و(ح).

أ ـ نسخة السيّد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله (غ)، تقع في (١٤) صفحة إذا استثنينا ما يرتبط بالإمام الحسين عليه السلام، والذي نشرناه مستقلّاً كما أوضحنا لدى الحديث عن المحاضرة (١٦) من هذا الكتاب.

ب ـ نسخة آية الله السيّد كاظم الحائري حفظه الله (ح)، تقع في (٨) صفحات. وكانت نسخةَ الأصل في طبعتنا الاُولى (٦ صفحات: ٤٠١ ـ ٤٠٦)، تحت عنوان (الإمام الجواد عليه السلام والإمامة المبْكرة).

ج ـ بحثٌ مطبوع في (٦) صفحات (١٥ ـ ٢٠) على ضوء النسخة (ح)، في مجلّة الفكر الإسلامي بقم المقدّسة، العددان (٢١ ـ ٢٢)، وذلك تحت عنوان: (الإمامة المبْكرة).

د ـ بحث مطبوع ضمن كتاب (أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف) على ضوء طبعة مجلّة (الفكر الإسلامي)، وذلك بتحقيق الاُستاذ عبد الرزّاق الصالحي، يقع في (٨) صفحة (٤٣٣ ـ ٤٤٠)، تحت عنوان: (دور الأئمّة عليهم السلام تجاه تسلسل الأحداث/ الإمامة المبْكرة عند الإمام الجواد عليه السلام). وجاء تحت العنوان نفسه في طبعة الكتاب الثانية (أهل البيت.. القدوة والدور التاريخي) في (٧) صفحات (٦٤٩ ـ ٦٥٥).

■ اعتمدنا في طبعتنا هذه (ح) أصلاً، مع مقابلتها بـ (غ).

كلمة أخيرة لا بدّ منها:

أخيراً نرى من المناسب أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ ما سيجده مسطوراً في ثنايا هذا الكتاب لا يمثّل تأمّلات فاض بها عقل مفكّرنا الشهيد في غمرة تعمّقاته التحليليّة فحسب، بل إنّه يفسّر في ما وراء سطوره ـ وبحسب

تعبيره ـ الدرجة العالية من استنزال الأفكار والقيم العقليّة إلى مستوى المحسوسات والمعايشات الوجدانيّة العميقة والمتجذّرة التي عاشها في حياته وسلوكه.

فإذا وفّق القارئ إلى فهم الأُطروحات المودعة في الكتاب ـ خاصّةً ما يرتبط بالدروس المستوحاة من ظاهرة الوحي، وبسبب رفض أمير المؤمنين عليه السلام مبدأ المساومات وأنصاف الحلول، وحيثيّات المهمّة التي ضحّى الإمام الحسين عليه السلام لأجلها بنفسه، وهي مهمّة علاج مرض موت إرادة الأُمّة ـ فسيكون يسيراً عليه تفسيرُ الحالة الروحيّة الأصيلة والراقية التي صبغت حياةَ سيّدنا الشهيد الصدر، وتفسيرُ الكثير من مواقفه السياسيّة والاجتماعيّة في مختلف محطّات حياته، والدوافع الذاتيّة والموضوعيّة التي جعلته يختار درب الشهادة، في الوقت الذي طأطأت فيه الزعامةُ الدينيّة له رأسها، وأسدلت له الشهرة جناحَيها.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتقبّل عملي هذا بأحسن قبول، وأن يكتبه عنوانَ حبٍّ وولاء لمحمّد صلى الله عليه وآله وأهل بيت محمّد عليهم السلام، وأن يمنَّ على معلّمنا ومربّينا الشهيد بعلوّ المنزلة، ويحشره مع من يحبّ ويتولّى، وأن يصبّرنا وقد تقطّعنا بفقده حسرات وتصدّعنا برحيله زفرات، عسى أن يَقِبَّ جرحٌ مضّ؛ إنّه سميعٌ مجيب.

أحمد عبد الله أبو زيد العاملي
١٣ / رجب / ١٤٣١ هـ
مولد أمير المؤمنين عليه السلام
قم المشرّفة

***

أئمّة أهل البيت عليهم السلام

ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة

- مباحث تمهيديّة
- الاتّجاه الشمولي في دراسة حياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام
- التقسيم المرحلي الثلاثي لحياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام
- المرحلة الأُولى: مرحلة تفادي صدمة الانحراف
- المرحلة الثانية: مرحلة بناء الكتلة الصالحة
- المرحلة الثالثة: مرحلة التوسّع والإعداد لتسلّم الحكم



أئمّة أهل البيت عليهم السلام

١

مباحث تمهيديّة

- فكرة موجزة عن الوحي
- التجديد والتغيير في النبوّة



فكرة موجزة عن الوحي

أُلقيت عصر ٢٨ من شهر صفر ١٣٨٥ هـ في مقبرة آل ياسين

انقطاع الوحي:

اليوم نجتمع بمناسبة أعظم فاجعةٍ مرّت على تاريخ البشريّة على الإطلاق[(١)]، بمناسبة الفاجعة المزدوجة التي مثّل الجزءَ الأوّلَ منها انقطاعُ الوحي في تاريخ النوع البشري. هذه الظاهرة التي لم يعرف الإنسان في تاريخه الطويل الطويل ظاهرةً يمكن أن تماثلها أو أن تناظرها في القدسيّة والجلال والأثر في حياة الإنسان وتفكيره.

و[ما][(٢)] يمثّل الجزءَ الآخرَ من الفاجعة هو الانحرافُ داخلَ المجتمع الإسلامي على يد المؤامرة التي قام بها [جناحٌ][(٣)] من المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فانحرف بذلك الخطُّ عمّا كان مقرّراً له من قِبل النبي[ﷺ]، ومن قِبَل الله تعالى.

أحداث ما بعد الفاجعة:

كان هذا اليوم المشؤوم بدايةَ انحرافٍ طويل، ونهايةَ وحيٍ طويل، نهايةَ

---

(١) توفّي رسول الله ﷺ سنة ١١ للهجرة، وذلك لليلتين بقيتا من شهر صفر (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ١٨٩؛ إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ٤٦، ٥٣)، وقيل: إنّه تاريخ مرضه، وإنّ وفاته كانت لاثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأوّل يوم الاثنين (الطبقات الكبرى ٣: ٥؛ المغازي ٣: ١١١٧).

(٢) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٣) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(ف).

عهدٍ سعيدٍ بالوحي، تمثّل في مائةٍ وأربعةٍ وعشرين ألف نبي ـ كما في بعض الروايات[١] ـ ، وكان بداية ظلام ومحنٍ ومآسٍ وفواجع وكوارث من ناحيةٍ أُخرى، تمثّلت في ما أعقب وفاةَ النبي[صلى الله عليه وآله] من أحداث في تاريخ العالم الإسلامي، هذه الأحداث المرتبطة ارتباطاً شديداً قويّاً بما تمّ في هذا اليوم من الفاجعة، على ما في (الزيارة الجامعة) التي نقرؤها:

«[يَدْعُونَهُ إِلَى][٢] بَيْعَتِهِمُ التي عَمَّ شُؤْمُهَا الإِسْلَامَ، وَزَرَعَتْ فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا الآثَامَ، وَعَقَّتْ[٣] سَلْمَانَهَا، وَطَرَدَتْ مِقْدَادَهَا، وَنَفَتْ جُنْدَبَهَا[٤]، وَفَتَقَتْ بَطْنَ عَمَّارِهَا، وَحَرَّفَتِ الْقُرْآنَ، وَبَدَّلَتِ الأَحْكَامَ، وَغَيَّرَتِ الْمَقَامَ، وَأَبَاحَتِ الْخُمُسَ لِلطُّلَقَاءِ، وَسَلَّطَتْ أَوْلَادَ اللُّعَنَاءِ عَلَى الْفُرُوجِ، وَخَلَطَتِ الْحَلَالَ بِالْحَرَامِ، وَاسْتَخَفَّتْ بِالإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ، وَهَدَمَتِ الْكَعْبَةَ، وَأَغَارَتْ عَلَى دَارِ الْهِجْرَةِ يَوْمَ الْحَرَّةِ، وَأَبْرَزَتْ بَنَاتِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لِلنَّكَالِ وَالسَّوْءَةِ[٥]»[٦].

إلى غير ذلك من الأوصاف التي نَعَتَ بها الإمامُ عليه السلام الجزءَ الثاني من الفاجعة الذي تمّ في هذا اليوم.

---

(١) معاني الأخبار: ٣٣٣، الحديث ١؛ الخصال ٢: ٥٢٤، الحديث ١٣؛ جامع الأخبار: ١٧٩؛ البدء والتاريخ ٣: ١؛ بحار الأنوار ١١: ٣٢، كتاب النبوّة، باب معنى النبوّة وعلّة بعثة الأنبياء، الحديث ٢٤، ٧٧: ٧١، كتاب الروضة، الباب ٤، الحديث ١.

(٢) ما بين عضادتين أضفناه من المصدر.

(٣) في المحاضرة الصوتيّة: «عنّفت»، وهو ما احتُمِل في هامش المصدر.

(٤) بفتح الدال المهملة، فلاحظ: تنقيح المقال في علم الرجال ١٦: ٢٤٤.

(٥) في نسخة: «السَورة»، وهي: الحدّة، فراجع: لسان العرب ٤: ٣٨٤.

(٦) جاء النصُّ في المحاضرة الصوتيّة كالتالي: «ببيعتهم التي عمّ شؤمها الإسلام، وزرعت في قلوب الأمّة الآثام، وعنّفت سلمانها، وطردت مقدادها، ونفت جندبها، وفتقت بطن عمّارها، وأباحت الخمس للطلقاء وأولاد الطلقاء، وسلّطت اللعناء وأولاد اللعناء على المصطفين الأخيار، وأبرزت بنات المهاجرين والأنصار إلى الذلّة والمهانة، وهدمت الكعبة، وأباحت المدينة، وخلطت الحلال بالحرام»، وقد أوردنا المتن وفقاً لما جاء في المصدر، فراجع: المزار الكبير: ٢٩٧، الباب ١٣ من القسم الثالث، الزيارة ١٤؛ بحار الأنوار ١٠٢: ١٦٦، كتاب المزار، الباب ٥٧، الزيارة ٥.

هذا الجزء الثاني من الفاجعة تحدّثنا عنه خلال الكلام عن حياة الأئمّة عليهم السلام[١]، وسوف نتحدّث عنه أيضاً خلال كلامنا عن مناسباتٍ أُخرى في حياة الأئمّة عليهم السلام.

أودُّ الآن أن أقتصر على الجزء الأوّل من هذه الفاجعة، يعني أن أنظر إلى الحدث الواقع في هذا اليوم بوصفه حدثاً قد وضع حدّاً لتلك الظاهرة العظيمة التي اقترنت مع هبوط الإنسان على وجه الأرض، ظاهرة الوحي، ظاهرة ارتفاع الإنسان وتساميه[٢] للاتصال المباشر بالله سبحانه وتعالى.

ففي مثل هذا اليوم وُضِع حدٌّ نهائيٌّ لهذه الظاهرة المباركة الميمونة، وفي بعض الروايات: أنّ جبرائيل عليه السلام حينما ارتفع ملائكة السماء بروح محمّدٍ صلى الله عليه وآله إلى ربّها راضيةً مرضيّةً، التفت إلى الأرض مودّعاً، ثمّ طار إلى سماواته[٣].

هذا اليوم كان هو يوم انقطاع الإنسانيّة عن الاتصال المباشر بالله سبحانه وتعالى بانتهاء حياة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله.

بهذه المناسبة أُريد أن أُعطي فكرةً موجزةً ـ على مستوى بحث اليوم ـ عن الوحي، هذا الوحي الذي انقطع في مثل هذا اليوم.

الوحي الذي يتمثّل في اتصالٍ خاصٍّ بين الإنسان وبين الله، هذا الوحي هو ضرورةٌ من ضرورات تخليد الإنسان على وجه الأرض. وبهذا[٤] خَلَقَ

---

(١) حيث يبدو أنّه رحمه الله قد ألقى محاضراتٍ حول الأئمّة عليهم السلام قبل هذه المحاضرة، وإن لم يصلنا من المحاضرات المؤرّخة ما يسبق هذا التاريخ.

(٢) هذا ما يبدو من المحاضرة الصوتيّة، وهو أكثر انسجاماً مع السياق، وفي (غ) و(ف): «تفانيه».

(٣) عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «..فقال جبرئيل: هذا آخر وطئي الأرض؛ إنّما كنتَ حاجتي من الدنيا» الأمالي (الصدوق): ٢٧٥، المجلس ٤٦، الحديث ١١؛ بحار الأنوار ٢٢: ٥٠٥، تاريخ نبيّنا صلى الله عليه وآله، الباب ٢، باب وفاته وغسله والصلاة عليه، الحديث ٤، وراجع قريباً منه في: إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ٢٦٩.

(٤) هذا هو المثبَت في (غ) و(ف)، وهو ما يبدو من المحاضرة الصوتيّة، ويُحتمل كونه: «ولهذا».

الله سبحانه وتعالى الإنسان، وأودعه الاستعداد الكامن[١]، والأرضيّة الصالحة بإفاضة هذه الموهبة من الله سبحانه وتعالى ضمن شرائط وظروف موضوعيّة وذاتيّة معيّنة.

الحسُّ وأثره في تربية الإنسان:

وهنا أنا أُريد أن أدرس جانباً واحداً من ضرورة الوحي؛ لأنّ ضرورة الوحي يمكن أن توضع باعتبار جانبين في الإنسان. الآن أقتصر على أحد الجانبين.

الإنسان خُلق حسّيّاً أكثر منه عقليّاً، خُلق يتفاعل مع حسّه أكثر ممّا يتفاعل مع عقله، يعني: إنّ النظريّات والمفاهيم العقليّة العامّة في إطارها النظري، هذه المفاهيم، حتّى لو آمن بها الإنسان إيماناً عقليّاً، حتّى لو دخلت إلى ذهنه دخولاً نظريّاً، مع هذا: لا تهزّه، ولا تحرّكه، ولا تبنيه، ولا تزعزع ما كان فيه، ولا تنشئه من جديد إلّا في حدود ضيّقة جدّاً.

على عكس الحسّ؛ فإنّ الإنسان الذي يواجه حسّاً ينفعل بهذا الحسّ، وينجذب إليه، وينعكس هذا الحسّ على روحه ومشاعره وانفعالاته وعواطفه، بدرجةٍ لا يمكن أن يقايَس بها انعكاسُ النظريّة العقليّة، والمفهوم المجرّد عن أيّ تطبيقٍ حسّي.

وليس من الصدفة أنْ كان الإنسانُ على طول الخطّ في تاريخ المعرفة البشريّة أكثر ارتباطاً بمحسوساته من معقولاته، وأكثر تمسّكاً بمسموعاته وإبصاراته من نظريّاته؛ فإنّ هذا هو طبيعة التكوين الفكري والمعرفي عند الإنسان.

وليس من الصدفة أنْ قُرِنَ إثباتُ أيِّ دين ـ حقّانيّة أيّ دينٍ ـ بالمعجزة،

---

(١) هذا ما يبدو من المحاضرة الصوتيّة، وفي (غ) و(ف): «الكامل»، وسيأتي نظيره قريباً.

وكانت أكثر المعاجز هي معاجز على مستوى الحسّ، أكثر معاجز الأنبياء كانت معاجز على مستوى الحسّ؛ لأنّ الإنسان يتأثّر بهذا المستوى أكثر ممّا يتأثّر بأيّ مستوىً آخر.

إذاً، فالإنسان ـ بحسب طبيعة جهازه المعرفي وتكوينه النظري ـ خُلق حسيّاً أكثر منه عقليّاً، خُلق متفاعلاً مع هذا المستوى المنخفض من المعرفة أكثر ممّا هو متفاعل مع المستوى النظري المجرّد من المعرفة، وهذا يعني أنّ الحسّ أقدرُ على تربية الإنسان من النظر العقلي المجرّد.

لو ترقّى الإنسان إلى نظره العقلي المجرّد وإلى حسّه المجرّد ـ يعني إلى ما يتّفق له من حسّ، وما يتّفق له من نظر ـ فسوف يسيطر الحسُّ عليه أكثر ممّا يسيطر عليه النظر، سوف يهيمن عليه حسّه ويحتلُّ من جوانب وجوده وشخصيّته وأبعاد مشاعره وعواطفه وانفعالاته أكثر ممّا يحتلّ العقلُ، المفهومُ النظريُّ المجرّد.

الحسّ هو المربّي الدرجة الأُولى لإنسانٍ هذا مزاجُه وهذا وضعُه. والعقل هو المربّي الدرجة الثانية لإنسانٍ هذا وضعه وهذا مزاجه.

بناءً على هذا، كان لا بدّ للإنسانيّة من حسٍّ مُربٍّ زائداً على العقل والمدركات العقليّة الغائمة الغامضة، التي تدخل إلى ذهن الإنسان في[1] قوالب غير محدّدة وغير واضحة، ومكتنفة بدرجة كبيرة من الغموض والضباب.. إضافةً إلى هذه القوالب، كان لا بدّ لكي يربّى الإنسان على أهداف السماء، على مجموعةٍ من القيم والمُثُل والاعتبارات، كان لا بدّ من أن يكون له مربٍّ حسّي، كان لا بدّ من أن يربّى على أساس الحسّ، وهذا هو السبب في أنّ أيّ إنسانٍ وأيَّ حضارةٍ وأيّ مَدَنيّةٍ انقطعت عن السماء لم يربِّها العقل، بل ربّاها

(١) في (غ) و(ف): «ذا» بدل «في»، وهو ما يبدو من المحاضرة الصوتيّة، ولعلّ المراد ما أثبتناه.

الحسّ.

نحن لا نعرف حضارةً انقطعت عن السماء ثمّ ربّاها العقل، بل كلّ الحضارات التي عرفها تاريخ النوع البشري إلى يومنا هذا، إلى حضارة الإنسان الأُوروبي اليوم التي تحكم العالم ظلماً وعدواناً، كلُّ هذه الحضارات التي انقطعت عن السماء ربّاها الحسُّ ولم يربّها العقل؛ لأنّ الحسّ هو المربّي الأوّل دائماً.

فكان لا بدّ لكي يمكن تربية الإنسان على أساس الحسّ ـ لكن على أساس حسٍّ يبعث في هذا الإنسان إنسانيّته الكاملة، الممثّلة لكلّ جوانب وجوده الحقيقيّة ـ، كان لا بدّ من خلق حسٍّ في الإنسان، هذا الحسّ يدرك تلك القيم والمثل والمفاهيم، يدرك التضحية في سبيل تلك القيم والمثل إدراكاً حسّيّاً، لا إدراكاً عقلانيّاً بقانون الحسن والقبح العقليّين فقط، بل يدركها كما ندرك محسوساتنا، مسموعاتنا ومبصراتنا.

وهذا معنى ما قلناه من أنّ ضرورة الإنسانيّة، ضرورة الإنسان في خطّ التربية، تفرض أن يودَعَ في طبيعة تكوينِه وخلقِه أرضيّة، هذه الأرضيّة صالحةٌ لأنْ تكوِّنَ مِثْلَ هذا الحسّ، لأنْ تكوّن حسّاً بحسن العدل، بقبح الظلم، بآلام المظلومين، أنْ تكوّن حسّاً بكلّ ما يمكن للعقل وما لا يمكن للعقل إدراكُه[1] من قيمٍ ومثلٍ واعتبارات.

وهذه الأرضيّة أو هذا الاستعداد الكامن[2] الذي كان لا بدّ من خلقه في طبيعة الإنسان، هذا الاستعداد هو استعداد الوحي، هو استعداد الارتباط المباشر بالله سبحانه وتعالى؛ لكي تنكشف كلُّ السحب، كلّ الستائر، عن كلّ

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «من إدراكه».

(٢) في (غ) و(ف): «الكامل»، والظاهر من المحاضرة الصوتيّة ما أثبتناه، وقد تقدّمت الإشارة إليه سابقاً.

القيم وكلّ المثل وكلّ هذه الاعتبارات والأهداف العظيمة، لكي تُرى رؤية العين وتُسمع سماع الأُذن، لكي يلمَسَها بيده، يراها بعينه، يشمّها، يتذوّقها.

كان لا بدّ من أن توجد هذه البذرة ـ بذرةُ مثل هذا الحسّ ـ في النوع البشري، إلّا أنّ وجدان هذه البذرة في النوع البشري لا يعني أنّ كلَّ إنسانٍ سوف يصبح له مثل هذا الحسّ، سوف يتفتّق إدراكه عن مثل هذا الحسّ، وإنّما يعني أنّ الإمكانيّة الذاتيّة موجودة فيه، إلّا أنّ هذه الإمكانيّة لن تخرج إلى مرحلة الفعليّة إلّا ضمن شروطها وظروفها وملابساتها الخاصّة، كأيّ إمكانيّةٍ أُخرى في الإنسان.

هناك شهواتٌ وغرائزُ موجودةٌ في الإنسان منذ يُخلق وهو طفل، ولكنّه لا يعيش تلك الشهوات ولا يعيش تلك الغرائز إلى مراحل متعاقبةٍ من حياته، فإذا مرّ بمراحل متعاقبة من حياته تفتّحت تلك البذور، وحينئذٍ أصبح يعيش فعليّةَ تلك الشهوات والغرائز.

هذا على مستوى تلك الشهوات والغرائز.

كذلك على مستوى هذا الحسّ، الذي هو أشرف وأعظم وأروع ما أُودع في طبيعة الإنسان.. هذا قد لا يعيشه مئاتُ الملايين من البشر في عشرات الآلاف من السنين، قد لا يتفتّح، يبقى مجرّد استعدادٍ خام وأرضيّة ذاتيّة تمثّل الإمكان الذاتي لهذه الطينة فقط، دون أن تتفتّح عن وجود مثل هذا الحسّ؛ لأنّ تفتُّحَه يخضع لما قلناه من الملابسات والشروط التي لها بحث آخر أوسع من كلامنا اليوم.

مراتب الحسّ:

هذه الأرضيّة، أرضيّة أن يحسَّ الإنسان بتلك القيم والمُثل، هذه الأرضيّة تصبح أمراً واقعاً في أشخاص معيّنين يختصّهم الله تبارك وتعالى بعنايته ولطفه

واختياره، وهؤلاء هم الأنبياء، وهم المرسَلون، الذين يرتفعون إلى مستوى أنْ تصبح المعقولاتُ الكاملةُ محسوساتٍ لديهم، يصبح كلُّ ما نفهمه وما لا نفهمه عقليّاً من القيم والمثل، يصبح أمراً حسّيّاً لديهم، يحسّونه ويسمعونه ويبصرونه؛ ذلك أنّ الأفكار التي ترد إلى ذهن الإنسان:

تارةً ترد إلى ذهن الإنسان وهو لا يدرك إدراكاً حسّيّاً مصدر هذه الأفكار.

وأُخرى ترد إلى ذهن الإنسان وهو يدرك إدراكاً حسّيّاً مصدر هذه الأفكار.

الأفكار التي ترد إلى الإنسان كلّنا نؤمن بأنّها أفكار وردت إلى ذهن الإنسان وإلى فكره بقدرة الله وعنايته[1]، لكنْ إيماننا بذلك إيمانٌ عقلي، نظري، لا أنّنا نحسّ هذا، وإنّما نؤمن به إيماناً نظريّاً عقليّاً، بأنّ الله تعالى هو مصدر العلم والمعرفة والأفكار الخيّرة في ذهن الإنسان. ولهذا: أيّ فكرةٍ من هذا القبيل تطرأ في ذهن إنسانٍ نؤمنُ عقليّاً بأنّها من الله تعالى.

لكنْ هناك فارقٌ كبيرٌ بين حالتين:

١ ـ بين حالةِ أنْ تَرِدَ فكرةٌ إلى ذهن إنسان، فيحسّ هذا الإنسان بأنّ هذه الفكرة اُلقيت إليه من أعلى، بحيث يدرك إلقاءها من أعلى كما تدرك أنت الآن أنّ الحجر وقع من أعلى، أنّ قطرة المطر وقعت من أعلى، يدرك هذا بكلّ حسّه، وبكلّ سمعه وبصره، يدرك أنّ هذه القطرة، هذا الفيض، هذا الإشعاع، هو وقع عليه من أعلى، اُلقي عليه من قبل الله تعالى.

٢ ـ واُخرى لا يدرك هذا على مستوى الحسّ، يدركه عقليّاً، لكن لا يدركه حسّيّاً، يدرك أنّ هناك فكرةً تعيش في ذهنه، نيّرة، خيّرة، لكنّه لم يرَ

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «بأنّها أفكار بقدرة الله وعنايته وردت..»، وما أثبتناه أنسب للمراد.

بعينيه، لم يرَ أنّ هناك يداً قذفت بهذه الفكرة إلى ذهنه.

القسم الثاني [هو] الأفكار الاعتياديّة، الأفكار الاعتياديّة التي تعيش في أذهان الناس هي من القسم الثاني.

وأمّا القسم الأوّل ـ وهي[1] الأفكار التي تُقذف في ذهن إنسان، فيتوفّر لدى ذاك الإنسان حسٌّ بها بأنّها قُذفت إليه من الله تعالى، وأُفيضت عليه من واهب المعرفة ـ فهذه أيضاً على أقسام؛ لأنّ هذا الإنسان:

أ ـ تارةً قد بلغ حسُّه إلى القمّة، قد استطاع أن يحسّ بالعطاء الإلهي من كلّ وجوهه، من كلّ جوانبه، يسمعه ويبصره، يراه من جميع جهاته، يتفاعل معه بكلّ ما يمكن للحسّ أن يتفاعل مع حقيقة.

هذا هو الذي يعبّر عنه بمصطلح الروايات ـ على ما يظهر من بعضها[2] ـ بمقامٍ عالٍ من الأنبياء، مقام الرسول الذي يسمع الصوت ويرى الشخص أيضاً.

ويمكن أن نفترض أنّ هناك ألواناً أُخرى من الحسّ تدعم هذا الحسّ السمعي والبصري عند هذا الإنسان العظيم؛ فهو يحسّ بالحقيقة المعطاة من الله تعالى من جميع جوانبها، يحسّ بها بكلّ ما أُوتي من أدوات الحسّ بالنسبة إليه.

هذا هو الدرجة العالية من الحسّ وقابليّة الاتّصال مع العطاء الإلهي.

ب ـ وأُخرى يُفترض أنّه يحسّ بها من بعض جوانبها، وهو الذي عُبِّر

---

(١) ضمائر التأنيث في هذا المقطع ترجع تقديراً إلى (أفكار) القسم الأوّل.

(٢) عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام: «..الرسول: الذي يظهر له المَلَك فيكلّمه، والنبي هو الذي يرى في منامه، وربما اجتمعت النبوّة والرسالة لواحد، والمحدَّث: الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة» الكافي ١: ١٧٧، الحديث ٤، وعن أبي جعفر عليه السلام: «النبي هو الذي يرى في منامه، يسمع الصوت ولا يعاين المَلَك، والرسول يعاين المَلَكَ ويكلّمه، قلتُ: فالإمام ما منزلته؟ قال: يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين المَلَك، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: ٥١)» الاختصاص: ٣٢٨.

عنه بأنّه يسمع الصوت ولا يرى الشخص[١]، هذا إحساس، إلّا أنّه إحساس ناقص.

ج ـ وقد يفترض أنّه أقلّ من ذلك، وهو الذي عبّر عنه في بعض الروايات بأنّه يرى الرؤيا في المنام[٢].

هنا يرى شيئاً، هذه الرؤيا المناميّة طبعاً تختلف عن الرؤيا في اليقظة من حيث درجة الوضوح؛ فهنا فارقٌ كيفيٌّ بين الحسّ في الرؤيا المناميّة و[بين] الرؤيا في عالم اليقظة والانتباه الكامل.

هناك درجاتٌ من الحسّ، على وفق هذه الدرجات وضعت مصطلحات (الرسول) و(النبي) و(المحدَّث) و(الإمام) ونحوُ ذلك من المصطلحات، إلّا أنّ الذي يمثّل أعلى هذه الدرجات هو الوحي المتمثّل في مَلَكٍ يتفاعل معه النبي[٣] تفاعلاً حسّيّاً من جميع جوانبه، كما كان يعيش سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله مع جبرائيل عليه السلام.

هنا: رسول الله صلى الله عليه وآله يعيش الحقيقة الإلهيّة عيشاً حسّيّاً من جميع جوانبها، يعيشها كما نعيش نحن على مستوى حسّنا وجودَ رفيقنا وصديقنا، لكنْ مع فارقٍ بين هذين الحسّين بدرجة الفارق بين المحسوسَيْن.

الحسّ هو الذي يربّي النبي:

هذا الحسّ هو الذي استطاع أن يربّي شخصَ النبي، بهذا الحسّ رُبّي شخصُ النبي، أُعدّ شخصُ النبي لكي يكون الممثّلَ الأوّلَ والرائدَ الأوّلَ لخطّ هذه القيم والمُثُل والأهداف الكبيرة.

يعني: هذا الحسّ قام بدور التربية للنبي؛ لأنّه استنزل القيم والمُثُل

---

(١) كما تقدّم في الهامش السابق، وهو (المحدَّث).

(٢) وهو النبي، كما تقدّم آنفاً.

(٣) في المحاضرة الصوتيّة إضافة: «صلى الله عليه وآله»، واللازم حذفها.

والأهداف والاعتبارات العظيمة، استنزلها من مستواها الغائم المبهم، من مستواها الغامض العقلي، من مستوى النظريّات العموميّة، أعطاها معالمَ الحسّ التي لا ينفعل الإنسان[1] ـ كما قلنا ـ بقدر ما ينفعل بها.

فبهذا تصبح هذه الصورة المحسوسة التي هبطت على النبي، على أيّ نبيٍّ من الأنبياء، تصبح هذه الصورة ملءَ وجوده، ملء روحه، ملء كيانه، تصبح همَّه الشاغل له، ليله، نهاره؛ لأنّها هي أمامه، هو يراها، هو يحسّها، هو يلمسها ويشمّها أروع[2] ممّا نلمس ونشمّ ونسمع ونبصر.

النبي هو الحسّ المربّي للآخرين:

ثمّ هذا الشخص الذي استطاع أن يربّيَه الحسُّ القائم على الوحي يصبح هو حسّاً مربّياً للآخرين؛ فالآخرون من أبناء البشريّة الذين لم تُتِح لهم ظروفهم وملابساتهم وعناية الله أن يرتفعوا هم إلى مستوى هذا الحسّ، الذين لم يُتَح لهم هذا الشرف العظيم، سوف يُتاح لهم الحسّ، لكن بالشكل غير المباشر، حسٌّ بالحسّ، لا حسّ بالحقيقة الإلهيّة مباشرة، حسٌّ بالمرآة، الحقيقة الإلهيّة ـ أقصد من الحقيقة الإلهيّة، يعني: المُعطى الإلهي، الثقافة الإلهيّة ـ الثقافة الإلهيّة انعكست على هذه المرآة، والآخرون يحسّون بهذه المرآة، بينما النبي نفسه كان يحسُّ مباشرةً بتلك الثقافة الإلهيّة بما هي أمرٌ حسّي، لا بما هي أمرٌ نظري.

أمّا نحن، نحسُّ محمّداً صلى الله عليه وآله بما هو رجلٌ عظيم، بما هو رجل استطاع أن يثبت للبشريّة أنّ هناك اعتباراً وهدفاً فوق كلّ المصالح والاعتبارات، فوق كلِّ الأنانيّات، فوق كلِّ الأمجاد المزيّفة والكرامات المحدودة، أنّ هناك إنساناً

---

(١) من المناسب هنا تقديرُ: «بشيءٍ».

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «بأروع».

لا تنفد طاقته إذا ربط طاقته بطاقة الله، أنّ هناك إنساناً لا ينقطع نَفَسُه إذا كان دائماً يسير على خطّ رسالة الله تعالى[١].

هذا المضمون الذي بالإمكان أن ندركه عقليّاً، هذا المضمون الذي حشد فيه أرسطو وأفلاطون مئاتِ الكتب للبرهنة العقليّة على هذا، على إمكانيّة الاستمداد اللامتناهي من اللامتناهي[٢]، هذا المعنى أصبح لدى البشريّة أمراً محسوساً، خرج من نطاق أوراق أرسطو وأفلاطون التي لم تستطع أن تصنع شيئاً، ولم تستطع أن تفتح قلب إنسانٍ على الصلة بهذا اللامتناهي، خرج من مستوى هذه الأوراق وأصبح أمراً حسّيّاً يعيش بين الناس، يعيش في قلوب الناس، يعيش مع تاريخ الناس؛ لكي يكون هذا الأمر المحسوس هو التعبير القوي دائماً عن تلك القيم والمُثُل، وهو المربّي للبشريّة على أساس تلك القيم والمُثُل.

فالوحي ـ بحسب الحقيقة إذاً ـ هو المربّي الأوّل للبشريّة، الذي لم يكن بالإمكان للبشريّة أن تربّى بدونه؛ لأنّ البشريّة بدون الوحي ليس لديها إلّا حسٌّ بالمادة وما على المادة من ماديّات، إلّا[٣] إدراكٌ عقليٌّ غائمٌ قد يصل إلى مستوى الإيمان بالقيم والمُثُل وبالله، إلّا أنّه إيمانٌ عقليٌّ على أيِّ حال، لا يهزّ قلب هذا الإنسان ولا يدخل إلى ضميره، ولا يصنع كلّ وجوده، ولا يتفاعل

---

(١) تعرّض الشهيد الصدر رحمه الله لما يقرب من هذا المعنى لدى حديثه عن أنّ (الإيمان بالله هو العلاج)، فراجع: الفتاوى الواضحة: ٧٥٦، نظرة عامّة في العبادات، الحاجة إلى الارتباط بالمطلق.

(٢) أكثر أرسطو الحديث عن المتناهي وغير المتناهي، كحديثه عن استحالة الإدراك الذهني لغير المتناهي إذا لم يكن يحتمل القسمة (تفسير ما بعد الطبيعة ١: ٣٦)، أو حديثه عن معنى وجود غير المتناهي بالقوّة وخروجه إلى الفعل (تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة: ٨٣؛ رسالة ما بعد الطبيعة: ٩٨، تفسير ما بعد الطبيعة ٢: ١١٦٢)، ولكن لم تجد له حديثاً عن الاستمداد اللامتناهي من اللامتناهي. نعم، ذهب في الكميّات الرياضيّة إلى إمكانيّة التقسيم المستمر (اللامتناهي) للّامتناهي، فراجع: موسوعة الفلسفة (بدوي) ١: ١٠٧.

(٣) في المحاضرة الصوتيّة: «وإلّا».

مع كلّ مشاعره وعواطفه.

فكان لا بدّ من أن يُستَنزل ذاك العقل على مستوى الحسّ، لا بدّ أن تُستَنزل تلك المعقولات على مستوى الحسّ، وحيث إنّ هذا ليس بالإمكان أن يعمل مع كلّ الناس؛ لأنّه ليس كلّ إنسان مهيّأً لهذا، ولهذا اختصّ بهذه العمليّة أناسٌ معيّنون أوجد الله تبارك وتعالى فيهم الحسَّ القائدَ الرائد، هذا الحسّ ربّاهم هم أوّلاً وبالذات، ثمّ خلق حسّاً ثانويّاً، وجوداً حسيّاً ثانويّاً، هذا الوجود الحسّي الثانوي كان هو المربّي للبشريّة.

استنزال القيم العقليّة إلى مستوى المحسوسات:

أظنُّ أنّ الوقت انتهى، أنا أيضاً تعبت، لكن على أيّ حال نختم هذا الحديث الآن بضرورة الاستفادة من هذه الفكرة، يعني: لئن كانت القيم والمثل والأهداف والاعتبارات، إذا بقيت عقليّةً محضةً، فهي سوف تصبح قليلة الفهم، ضعيفة الجذب بالنسبة إلى الإنسان، وكلّما أمكن تجسيدها حسّيّاً أصبحت أقوى، وأصبحت أكثر قدرةً على الجذب والدفع.

إذا كان هذا حقّاً، فيجب أن نخطّط لأنفسنا، ونخطّط في علاقتنا مع الآخرين على هذا الأساس، يجب أن نخطّط في أنفسنا على هذا. يعني: أن لا نكتفي بأفكار عقليّة نؤمن بها، نضعها في زاوية عقلنا كإيمان الفلاسفة بآرائهم الفلسفيّة، لا يكفي أن نؤمن بهذه القيم والمثل إيماناً عقليّاً صرفاً، بل يجب أن نحاول أن نستنزلها إلى أقصى درجة ممكنة من الوضوح الحسّي.

طبعاً، نحن لا نطمع أن نكون أنبياء، لا نطمع أن نحظى بهذا الشرف العظيم الذي انغلق على البشريّة بعد وفاة النبيﷺ، ولكن مع هذا: (الوضوح) مقولٌ بالتشكيك على حسب اصطلاح المناطقة[١].

---

(١) «التشكيك عند المنطقيّين: كونُ اللفظ موضوعاً لأمرٍ عامٍّ مشتركٍ بين الأفراد لا على السواء، بل

ليس كلّ درجة من الوضوح معناها النبوّة، هناك ملايين من درجات الوضوح قبل أن تصبح نبيّاً، يمكن أن تكسب ملايين من درجات الوضوح ـ ملايين من الدرجات وهذه المراتب المتصاعدة ـ قبل أن تبلغ إلى الدرجة التي أصبح فيها موسى[عليه السلام] في لحظةٍ استحقّ فيها أن يخاطبه الله تعالى، أو قبل أن تصل إلى الدرجة التي بلغ إليها محمّد صلى الله عليه وآله حينما هبط عليه أشرف كتب السماء.

هناك ملايين من الدرجات، وهذه الملايين بابها مفتوحٌ أمامنا، ولا بدّ لنا أن لا نقتصر، أن لا نزهد في هذا التطوير العقلي للقيم والمثل الموجود عندنا، لا بدّ لنا أن نطمع في أكثر من هذا من الوضوح، وفي أكثر من هذا من التحدّد ومن الحسّية، لا بدّ لنا أن نفكّر في أن نُعبّئ كلَّ وجودنا بهذه القيم والمُثُل؛ لكي تكون على مستوى المحسوسات بالنسبة إلينا.

أساليب استنزال القيم العقليّة إلى مستوى المحسوسات:

من أساليب استنزال هذه القيم والمثل إلى مستوى المحسوسات هو التأكيد الذهني عليها باستمرار، هو الإيحاء بها، إيحاء الإنسان بها إلى نفسه باستمرار.

حينما توحي إلى نفسك باستمرار بهذه الأفكار الرفيعة، حينما توحي إلى نفسك باستمرار بأنّك عبدٌ مملوكٌ لله تعالى، وأنّ الله تبارك وتعالى هو المالك المطلق لأمرك وسلوكك ووجودك، وهو المخطّط لوضعك ومستقبلك وحاضرك، وأنّه هو الذي يرعاك بعينٍ لا تنام في دنياك وفي آخرتك، حينما توحي إلى نفسك بهذه العبوديّة، وتوحي إلى نفسك باستمرار بمستلزمات هذه العبوديّة، من أنّك مسؤول أمام هذا المولى العظيم، مسؤول أن تطيعه، أن تطبّق

على التفاوت» كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١: ٤٤٧.

خطّه، أن تلتزم رسالته، أن تدافع عن رايته، أن تَلْزَمَ شعاراته، حينما تُسِرُّ[١] في نفسك وتؤكّد على نفسك باستمرار أنّ هذا هو معنى العبوديّة، وأنّك دائماً وأبداً يجب أن تعيش لله، حينما توحي إلى نفسك بأنّك يجب أن تعيش لله، سوف تتعمّق فكرة العيش لله في ذهنك، سوف تتّسع، سوف تصبح بالتدريج شبحاً يكاد أن يكون حسّيّاً بعد أن كان نظريّاً عقليّاً صرفاً.

أَليس هناك أشخاص من الأولياء والعلماء والصدّيقين قد استطاعوا أن يكشفوا محتوى هذه القيم والمثل بأُمّ أعينهم؟ ولم يستطيعوا أن يكشفوها بأُمّ أعينهم إلّا بعد أن عاشوها عيشاً تفصيليّاً مع الالتفات التفصيلي الدائم، وهذه عمليّة شاقّة جدّاً؛ لأنّ الإنسان ـ كما قلنا ـ ينفعل بالحسّ، وما أكثر المحسوسات من أمامه ومن خلفه، الدنيا كلّها بين يديه تُمتّع حسّه بمختلف الأشياء، هو يجب عليه دائماً وهو يعيش في هذه الدنيا التي تنقل إلى عينه مئات المبصَرات، وتنقل مئات المسموعات، يجب عليه أن يلقّن نفسه دائماً بهذه الأفكار، ويؤكّد هذه الأفكار، خاصّة في لحظات ارتفاعه، في لحظات تساميه؛ لأنّ أكثر الناس ـ إلّا من عصم الله ـ تحصل له لحظات التسامي وتحصل له لحظات الانخفاض.

لحظة الجلوة والانفتاح:

ليس كلّ إنسانٍ يعيش محمّداً[ﷺ] مئة بالمئة، وإلّا لكان كلُّ الناس من طلّابه الحقيقيّين، كلّ إنسانٍ هو لا يعيش محمّداً ﷺ إلّا لحظاتٍ معيّنةً تتّسع وتضيق بقدر تفاعل هذا الإنسان برسالة محمّد ﷺ.

إذاً، ففي تلك اللحظات التي تمرّ على أيّ واحدٍ منّا، ويحسّ بأنّ قلبه

(١) هذا هو المثبَت في (غ) و(ف)، وهو ما يبدو من المحاضرة الصوتيّة، ويُحتمل منها أيضاً: «تصِرُّ»، وكلاهما ينسجم مع السياق؛ فـ(الإسرار) ينسجم مع (الإيحاء) المتقدّم، و(الإصرار) ينسجم مع (التأكيد) الآتي ذكرُه قريباً.

منفتحٌ لمحمّدﷺ، وأنّ عواطفه ومشاعره كلّها متأجّجة بنور رسالة هذا النبيّ العظيم، في تلك اللحظات يغتنم تلك الفرصة ليختزن، وأنا أُؤمن بعمليّة الاختزان، يعني أُؤمن بأنّ الإنسان في هذه اللحظة إذا استوعب أفكاره وأكّد على مضمونٍ معيّنٍ وخَزَنه في نفسه، سوف يفتح له هذا الاختزان في لحظات الضعف بعد هذا، حينما تفارقه هذه الجلوة العظيمة، حينما يعود إلى حياته الاعتياديّة، سوف يتعمّق بالتدريج هذا الرصيد، هذه البذرة التي وضعها في لحظة الجلوة، في لحظة الانفتاح المطلق على أشرف رسالات السماء، تلك البذرة سوف تشفعه[1]، سوف تقول له في تلك اللحظة: إيّاك من الانحراف، إيّاك من المعصية، إيّاك من أن تنحرف قيد أنملةٍ عن خطّ محمّدٍﷺ.

كلّما يربط الإنسان نفسه في لحظات الجلوة، في لحظات الانفتاح، إذا ربط نفسه بقيود محمّدٍﷺ، إذا استطاع في لحظةٍ من اللحظات ـ من هذه اللحظات ـ أن يعاهد نبيَّه العظيم على أن لا ينحرف عن رسالته، على أن لا يتململ عن خطّه، على أن يعيشه ويعيش أهدافه ورسالته وأحكامه، حينئذٍ، بعد هذا، حينما تفارقه هذه الجلوة ـ وكثيراً ما تفارقه ـ إذا أراد أن ينحرف يتذكّر عهده، يتذكّر صلته بالنبي[ﷺ]، تصبح العلاقة حينئذٍ ليست مجرّد عقل، مجرّدَ نظريّةٍ عقليّة، بل هناك اتّفاق، هناك معاهدة، هناك بيعةٌ أعطاها لهذا النبي في لحظة حسّ، في لحظةٍ قريبةٍ من الحسّ، كان كأنّه يرى النبيَّ أمامه فبايعه.

لو أنّ أيَّ واحدٍ منّا رأى النبي[ﷺ]، استطاع أن يرى النبي[ﷺ] بأُمّ عينيه، أو رأى صاحب الأمر عليه السلام.. تصوّروا أنّ أيّ واحدٍ منّا لو اُتيح له هذا الشرف العظيم ورأى إمامَه، إمامَ زمانه، رأى قائده بأُمّ عينيه، وعاهده وجهاً

(١) في (غ) و(ف): «تشعره» بدل «تشفعه»، وما أثبتناه هو الذي يبدو من المحاضرة الصوتيّة.

لوجه على أن لا يعصي، على أن لا ينحرف، على أن لا يخون الرسالة، هل بإمكان هذا الإنسان بعد هذا ـ ولو فارقته تلك الجلوة، ولو ذهب إلى ما ذهب، ولو عاش أيَّ مكانٍ وأيَّ زمان ـ هل يمكنه أن يعصي؟ هل يمكنه أن ينحرف؟ أو يتذكّر دائماً صورة وليّ الأمر! صورة الإمام عليه السلام وهو يأخذ منه هذه البيعة! يأخذ منه هذا العهد!

نفس هذه العمليّة يمكن أن يعملها أيُّ واحدٍ منّا، لكن في لحظة الجلوة، في لحظة الانفتاح.

كلّ إنسانٍ منّا يعيش لحظة لقاء الإمام من دون أن يلقى الإمام، ولو مرّةً واحدةً في حياته[1]، هذه المرّة الواحدة أو المرّتان أو الثلاثة يجب أن نعمل لكي تتكرّر؛ لأنّ بالإمكان أن نعيش هذه اللحظة دائماً، هذا ليس أمراً مستحيلاً، بل هو أمرٌ ممكن، والقصّةُ قصّةُ إعدادٍ وقصّةُ تهيئةٍ لأنْ نعيش هذه اللحظة، لأنْ نوسّع هذه اللحظة [في] حياتنا، لكي تأخذَ كلَّ حياتنا أو الجزءَ الأكبرَ من حياتنا.

لكن حتّى في حالة عدم توسعة هذه اللحظة، حتّى في حالة وجود لحظاتٍ أكثر بكثيرٍ نعيش فيها الدنيا، نعيش فيها أهواء الدنيا ورغبات الدنيا وشهوات الدنيا، مع هذا يجب أن تخلّف فينا تلك اللحظة رصيداً، يجب أن تخلّف فينا بذرةً، منعةً، عصمةً، قوّةً قادرةً على أن تقول: «لا» حينما يقول الإسلام: «لا»، «لا تُقدِم» حينما يقول الإسلام: «لا تُقدِم»، أو: «أقدِم» حينما يقول الإسلام: «أقدِم»، هذه اللحظة يجب أن نغتنمها، ويجب أن نختزن؛ لكي تتحوّل ـ بالتدريج ـ هذه المفاهيمُ إلى حقائق، وهذه الحقائق إلى محسوسات، وهذه المحسوسات إلى وجود نعيشه بكلّ عواطفنا ومشاعرنا وانفعالاتنا آناء

---

(١) العبارة الأخيرة ـ كما يظهر من السياق الآتي ـ متعلّقة بعيش اللحظة، لا بلقاء الإمام عليه السلام.

الليل والنهار.

هذه هي تجربتنا نحن، يعني: نحن بيننا وبين أنفسنا، ونحن ما أحوجنا إلى ذلك؛ لأنّ المفروض أنّنا نحن الذين يجب أن نبلّغ للناس، نحن الذين يجب أن نشعّ بنور الرسالة على الناس، نحن الذين يجب أن نرسم الطريق والدرب، نحدّدَ معالم الطريق للأُمّة، للمسلمين.

إذاً فما أحوجنا إلى أن يتبيّن لدينا الطريقُ تبيّناً حسّيّاً، تبيّناً أقرب ما يكون إلى تبيّن الأنبياء لطرقهم.

ليس عبثاً وليس صدفةً أنّ رائد الطريق دائماً كان إنساناً يعيش الوحي؛ لأنّه كان لا بدّ أن يعيش طريقه بأعلى درجةٍ ممكنةٍ من الحسّ حتّى لا ينحرف، حتّى لا يتململ، حتّى لا يضيع[1]، حتّى لا يكون سبباً في ضلال الآخرين، ليس هذا صدفة.

إذاً، فلا بدّ لنا أن نطمع في أكبر درجةٍ ممكنةٍ ـ بالنسبة إلى ظروفنا وملابساتنا ـ من الحسّ، يجب أن ندعو، أن نتضرّع إلى الله دائماً بأنْ يفتح لنا، يفتح أمام أعيننا معالمَ الطريق، أن يرِيَنا الطريق رؤيةَ عينٍ، لا رؤية عقلٍ فقط، أن يجعلَ هذه القيمَ وهذه المثل، والطريقَ إلى تجسيد هذه القيم وهذه المثل، أن يجعلَه شيئاً محسوساً لكلّ منعطفات هذا الطريق ولكلّ[2] صعوبات هذا الطريق، وما يمكن أن نصادفه في أثناء هذا الطريق، لا بدّ لنا أن نفكّر في أن نحصّل أكبر درجةٍ ممكنةٍ من الوضوح في هذا الطريق.

هذا بيننا وبين أنفسنا.

---

(١) ما أثبتناه من (غ) و(ف)، والمقطع الصوتي هنا غير واضح، ولكنّ الأرجح أنّه ليس كذلك، وإن كان المعنى يستقيم بما أثبتناه.

(٢) في (غ) و(ف): «بكلّ.. وبكلّ»، والذي يبدو من المحاضرة الصوتيّة ما أثبتناه.

ما هي العبرة المتوخّاة

وأمّا العبرة التي نأخذها بالنسبة إلينا مع الآخرين: نحن أيضاً يجب أن نفكّر في أنّنا سوف لن نطمع في هداية الآخرين عن طريق إعطاء المفاهيم فقط، عن طريق إعطاء النظريّات المجرّدة فقط.

إعطاء النظريات المجرّدة، تصنيف الكتب العميقة، كلّ هذا لا يكفي، إلقاء المحاضرات النظريّة لا يكفي، [بل] لا بدّ لنا أن نبني تأثيرنا في الآخرين أيضاً على مستوى الحسّ، يجب أن نجعل الآخرين يحسّون منّا بما ينفعلون به انفعالاً طيّباً طاهراً رساليّاً؛ فإنّ الآخرين مثلنا، الآخرون هم بشر، والبشر ينفعلون بالحسّ أكثر ممّا ينفعلون بالعقل، فلا بدّ لنا إذاً أن نعتمد على هذا الرصيد أكثر ممّا نعتمد على ذلك الرصيد.

مائة كتاب نظري لا تساوي أن تعيش حياةً هي الحياةُ التي تمثّل خطَّ الأنبياء، حينما تعيش هذه الحياة بوجودك، بوضعك، بأخلاقك، بإيمانك بالنار والجنّة، إيمانُك بالنار والجنّة حينما ينزل إلى مستوى الحسّ، إلى مستوى الرقابة الشديدة، إلى مستوى العصمة، حينما ينزل إلى هذا المستوى يصبح أمراً محسوساً، يصبح هذا الإيمان أمراً حسّيّاً، حينئذٍ سوف يكهرب الآخرين، سوف يشعّ على الآخرين.

فلا بدّ لنا ـ في حياتنا مع الآخرين والتأثير على الآخرين ـ أن لا نطمع بالتأثير عليهم على مستوى النظريّات فحسب؛ فإنّ هذا وحده لا يكفي، وإن كان ضروريّاً أيضاً، ولكن يجب أن نضيف إلى التأثير على مستوى النظريّات تطهيرَ أنفسنا، وتكميلَ أرواحنا، وتقريبَ سلوكنا من سلوك الأنبياء عليهم السلام وأوصياء هؤلاء الأنبياء، لنستطيع أن نجسّد تلك القيم والمثل بوجودنا أمام حسّ الآخرين قبل أن نعطيها لعقول الآخرين، أو توأماً مع إعطائها لعقول

الآخرين.

اللهمّ وفّقنا للسير في خطّ أشرف أنبيائك، والالتزام بتعاليمه.

غفر الله لنا ولكم جميعاً.

* * *



التجديد والتغيير
في النبوّة

اُلقيت في ٢٧ من شهر رجب ١٣٨٨ هـ

المقدّمة:

نجتمع اليوم بمناسبة أروع ذكرى مرّت في حياة الإنسان، وفي يومٍ هو أشرف يومٍ في تاريخ الإنسان على الإطلاق، سواءٌ قيّمنا الأيّام بما تشتمل عليه من أحداث، أو بما تتمخّض عنه من نتائج؛ فإنّ هذا اليوم ـ بما يشتمل عليه من أحداثٍ ـ هو اليوم الأوّل في تاريخ الإنسان؛ لأنّه اليوم الذي استطاع فيه الإنسان أن يبلغ الذروة التي رشّحتها له[1] عشرات الآلاف من الرسالات والنبوّات، فأصبح ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[2]، متمثّلاً في شخص النبي محمّد صلى الله عليه وآله.

وكذلك إذا لاحظنا ما تمخّض عنه هذا اليوم العظيم.

وأنتم يمكنكم أن تتصوّروا الكمّية العظيمة من الطاعات والعبادات والأعمال النبيلة الزاخرة بكلّ معاني النبل الأخلاقي التي أُتي بها بعد هذا اليوم، باسم هذا اليوم.

[و][3] يمكنكم أن تتصوّروا العروش التي حُطّمت، والجبابرة الذين قُضي عليهم، وعهود الظلم والطغيان التي قُوّضت باسم هذا اليوم[4].

(١) كذا في المحاضرة الصوتيّة، ويُحتمل أن يكون رحمه الله قد قصد العكس: «رشّحته لها»، وهو ما أُثبت في (ف) و(و).

(٢) النجم: ٩.

(٣) صوت الشهيد الصدر رحمه الله هنا ضعيف، والأقرب ما أثبتناه، وهو المثبت في (غ).

(٤) ربما يقصد رحمه الله على وجه الخصوص أُفول الحضارتين الفارسيّة والرومانيّة.

ويمكنكم أن تتصوّروا التضحيات العظيمة، والبطولات المستميتة في سبيل إقامة العدل على الأرض باسم هذا اليوم.

هذا اليوم هو اليوم الأوّل في تاريخ الإنسانيّة، سواءٌ قيّمناه على أساس ما حدث فيه، أو على أساس ما نتج عنه وأنّه[1] يوم (النبوّة الخاتمة).

وبمناسبة (النبوّة الخاتمة) أُريد أن أتحدّث إليكم عن فكرة التغيير والتجديد في النبوّة، هذه الفكرة التي عاشتها ظاهرة النبوّة في تاريخ الإنسان على مرّ الزمن، حتّى وُضع لها الحدُّ النهائيُّ على يد الرسالة الإسلاميّة الخاتمة.

أسباب التجديد والتغيير في النبوّة:

التجديد والتغيير في النبوّة له أسباب عديدة معقولة يمكن أن يقوم على أساس أيّ واحدٍ [منها]، ويمكن أن يقوم على أساس أكثر من سببٍ [منها]:

السبب الأوّل: استنفاد غرض النبوّة:

السبب الأوّل ما إذا كانت هذه النبوّة قد استنفدت[2] أغراضها، واستكملت أهدافها، وأنهت شوطها المفروض عليها؛ فإنّه في مثل هذه الحالة لا بدّ لها أن تخلي الميدان لنبوّةٍ تحمل أهدافاً جديدة، وتحمل شوطاً جديداً لا بدّ أن تؤدّيه في خدمة الإنسان وتصعيده إلى المستوى المطلوب.

وأقصد بكون النبوّة تستنفد أغراضها: أن تكون النبوّة بالذات وصفةً لمرضٍ طارئ في حياة البشريّة.

هناك نقاطٌ من الضعف تطرأ بين حينٍ وحين، في بعض الأزمنة والأمكنة، في بعض المجتمعات البشريّة،تطرأ بعض الأمراض المعيّنة من الناحية الفكريّة

---

(١) في (ف) و(غ) و(و): «لأنّه»، وما أثبتناه هو الذي يبدو من صوت الشهيد الصدر ﷺ ، وهو الأنسب للسياق.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «استنفذت»، والصحيح ما أثبتناه وستثبته في سائر الموارد.

أو الروحيّة والأخلاقيّة، وهذه الأمراض تستفحل بموجب شروطٍ موضوعيّةٍ خاصّة، وتحتاج هذه الأمراض إلى نوعٍ من العلاج، فقد يتلطّف[1] المولى سبحانه وتعالى بإنزال وحي معيّن لأجل علاج هذه الحالة المرضيّة الاستثنائيّة في ذلك المكان المعيّن والزمان المعيّن.

وبطبيعة الحال، سوف تكون الوصفة المقدّمة من قبل هذه الرسالة المرحليّة لعلاج هذا المرض قائمةً على أساس هذا الحال الاستثنائي المنحرف الذي يعيشه إنسان عصر هذه النبوّة.

ومن المنطقي والمعقول أن لا تصحّ وصفةٌ من هذا القبيل على كلّ زمانٍ أو مكان؛ فكلّ إنسانٍ منّا قد يستعمل وصفةً معيّنة في حالةٍ مَرَضيّة، إلّا أنّ هذه الوصفة نفسها لا يمكن أن تصبح غذاءً اعتياديّاً للإنسان في كلّ زمانٍ ومكان.

فحينما تكون النبوّة ـ في طبيعة تركيبها ـ قد جاءت لعلاج مرض معيّنٍ طارئٍ في حياة الإنسان، وتكون في طبيعة رسالتها قد صمّمت وفق هذه الحاجة.. فحينما تكون هذه النبوّة هكذا وتدخل شوط عملها وجهادها، وتحارب وتكافح في سبيل استئصال هذا المرض الاستثنائي، بعد هذا تكون هذه النبوّة قد استنفدت أغراضها؛ لأنّها جاءت لمعركة جزئيّة محدّدة بظروف زمانيّة ومكانيّة خاصّة، وهذه المعركة انتهت خلال هذا الشوط.

فمثلاً: ما يقال من أنّ المسيحيّة كانت تتّجه إلى نزعة روحيّة مفرطة، يعني إلى الإفراط في الروحيّة، والتركيز على الجانب الغيبي بدرجةٍ أكبر بكثير من التركيز على أيّ جانب من جوانب الحياة المعاشة المحسوسة.. يقال عادةً: إنّ هذا التركيز على الجانب الغيبي اللامنظور، التركيزَ على جعل النفس منقطعةً عن كلّ علائق الدنيا، هذا التركيز الذي [قامت] على أساسه بعد هذا

(١) كذا في المحاضرة الصوتيّة، والأنسبُ للعبارة: «فيتلطّف»؛ جواباً لما تقدّم.

في المسيحيّة فكرةُ الرهبنة، هذا التركيز كان علاجاً لمرضٍ عاشه شعب بني إسرائيل حينما ظهرت المسيحيّة في ذلك الوقت.

هذا المرض، هذا الانغماس المطلق في الدنيا وفي علائق الدنيا، هذه الحالة النفسيّة التي كانت تجعل الإنسان اليهودي مشدوداً إلى درهمه وديناره ويومه وغده... هذه الحالة كانت بحاجةٍ إلى وصفةٍ تحاول أن تنتشل هذا الإنسان اليهودي من ضرورات يومه وغده، وتذكّره بأمسه وربّه.

ولهذا كان في هذه المسيحيّة هذا النوعُ من الإفراط المناسب مع حالةٍ موضعيّةٍ زمانيّة معيّنة في التاريخ الطويل للإنسان.

أمّا هذا النوع من الإفراط حينما يؤخذ كخطٍّ عامٍّ للإنسان، يعتبر شذوذاً وانحرافاً؛ لأنّه دواءٌ للمريض، وليس طعاماً للصحيح.

فمن هذه الأسباب التي تجعل التغيير في النبوّة أمراً معقولاً هو: أنّ النبوّة تستنفد أغراضها وتستوفي أهدافها؛ باعتبارها رسالةً صمّمت لعلاج حالةٍ طارئةٍ، وقد استُنفِدَت أغراض العلاج.

السبب الثاني: انقطاع تراث النبوّة:

من جملة الأسباب المعقولة لتغيير النبوّة: هو أن لا يبقى منها تراثٌ يمكن أن يقام على أساسه العملُ والبناء.

إذا افترضنا أنّ نبوّةً جاءت ومارست دورها في قيادة البشريّة وهدايتها ووصلها بربّها وتطهيرها من شوائبها، إلّا أنّ هذه النبوّة بعد أن مات شخص النبي تولّدت ظروفُ انحرافٍ أكلت كلَّ ذلك التراث الروحي والمفاهيمي الذي خلّفه ذلك النبي الذي قاد تلك المعركة، بقيت النبوّة مجرّد مسألةٍ تاريخيّة وشعارٍ غامضٍ غائمٍ باهت، دون أن يكون معبّراً عن أيّ كيانٍ فكريٍّ مفاهيميٍّ محدّدٍ في أذهان القاعدة الشعبيّة المرتبطة بتلك النبوّة.

في مثل هذه الحالة لا يمكن أن تواصل هذه الدفعة الإلهيّة ـ المتمثّلة في تلك النبوّة ـ عملَها؛ لأنّ الدفعة الإلهيّة لا يمكن أن تواصل عملها بدون مصباحٍ منير، بدون كتابٍ منيرٍ على ما يصطلح عليه القرآن الكريم[1]، وهذا الكتابُ المنير عبارة عن ذاك التراث الفكري والمفاهيمي الذي يمثّل القاعدة للعمل النبوي، ويمثّل الإطار للحياة التي يقدّمها النبي ويدعو إليها؛ فإذا ماتت تلك القاعدة وذلك الإطار باضمحلال ذلك التراث، وبقيت النبوّة مجرّدَ مسألةٍ تاريخيّةٍ لا يوجد لها (ما بإزاء) على ما يقول المناطقة ـ يعني: لا يوجد بالفعل في حياة الناس ما يجسّد مفهوم تلك النبوّة ومنظار تلك النبوّة إلى الحياة ـ، ففي مثل ذلك لا بدّ من دفعةٍ جديدةٍ لكي يُستَأنف العمل، ويُستَأنف الشوط في سبيل إعادة البشريّة إلى ربّها، وإقامة دعائم العدل والحقّ والتوحيد على وجه الأرض.

وأيضاً هذا السبب سببٌ نجده ـ إلى درجة كبيرةٍ ـ في المسيحيّة بالذات أيضاً: المسيحيّة بعد أن غادر السيّد المسيح عليه السلام مسرح الدعوة والعمل لم يبقَ [منها] شيءٌ حقيقي يمكن أن يُقام على أساسه العمل النبوي.

الإنجيل الذي يُحدّث عنه القرآن[2] فُقِد[3] نهائيّاً؛ لأنّ الإنجيل الذي يحدّث عنه القرآن الكريم كتاب أُنزل على السيّد المسيح، لا كتاب أُلّف من قبل طلّاب السيّد المسيح.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ آل عمران: ١٨٤، وقوله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ فاطر: ٢٥، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ الحج: ٨، لقمان: ٢٠.

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ المائدة: ٤٦.

(٣) صوت الشهيد الصدر رحمه الله هنا مشوّش، ولعلّه: «سقط»، وفي (غ): «نفد»، ولكنّه ليس كذلك حتماً، وما أثبتناه من (ف)، وهو ساقطٌ من (و).

والأناجيل التي تعيش اليوم وكانت تعيش بالأمس في ذلك الحين هي كتب ألّفها طلّاب السيّد المسيح على أفضل التقادير[١].

فالرسالة المتمثّلة في الكتاب السماوي قد انطفأت، والحواريّون كانوا من حيث القلّة والتشتّت والاضطراب الذهني ما يجعلهم غير قادرين على حماية التراث الباقي في أذهانهم من السيّد المسيح؛ بدليل مراجعة هذه الأناجيل التي كتبوها؛ فإنّ هذه الأناجيل لا تحمل في الحقيقة إلّا سيرة السيّد المسيح، هذه الأناجيل أكثر من تسعين بالمئة منها هي سيرة السيّد المسيح مع إبراز الجانب الغيبي والمعاجزي من هذه السيرة في تسعين بالمئة من هذه السيرة.

إذاً: لم يبقَ من السيّد المسيح بعد انتهاء دوره على المسرح حصيلةٌ مضيئةٌ يمكن أن يقام على أساسها ـ في المدى الطويل وعلى الخطّ الطويل ـ العملُ النبوي؛ إذ لم تبقَ إلّا فكرة غائمة غامضة عن إنسانٍ جاء ليصلح، وقال وعلّم، ثمّ انتهى. أمّا أنّه: ماذا قال؟ وكيف انتهى؟ وماذا خلّف؟ وما هي شريعته؟ كلّ هذا بقي غائماً غامضاً.

وبهذا مُلئ بالتدريج بأيدٍ بشريّة، بالأيدي البشريّة ـ التي تزعّمت بعد هذا المسيحيّةَ ـ مُلِئت هذه الفراغات الكبيرة التي تركها السيّد المسيح، خاصّةً بعد أن أصبحت المسيحيّة رومانيّةً، ودخلت الإمبراطوريّةُ الرومانيّة في الديانة المسيحيّة رسميّاً أوّلاً، وشعبيّاً ثانياً[٢].

في مثل هذه الحالة أصبحت هذه الفراغات تُملأ بأيدٍ بشرية: أدركت بأنّ

---

(١) راجع حول مصادر الأناجيل الأربعة ـ برواية: مَتّى، مَرقُس، لوقا ويوحنّا ـ وتاريخها: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة ٧٧ ـ ١٠٦؛ تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ.. أسبابه ونتائجه: ٢١٣ ـ ٢٩٣.

(٢) راجع حول توحّد الإمبراطوريّة الرومانيّة تحت سلطة قسطنطين سنة ٣٢٤م وتنصّره: تاريخ الحضارات العام ٢ (روما وإمبراطوريّتها): ٥٦٢.

هذه الوصفة فيها فراغات كبيرة لا يمكن أن تقدّم مع هذه الفراغات إلى الناس، فأصبحت هذه الفراغات تُملأ عن هذا الطريق.

إذاً: هذا أيضاً من الأسباب المعقولة لتغيير النبوّة: أن لا يبقى من ذلك النبي تراثٌ حيٌّ يمكن أن يقامَ على أساسه العملُ، وترتكزَ بموجبه الدعوةُ إلى الله تعالى.

السبب الثالث: محدوديّة نفس النبي :

وأيضاً من جملة الأسباب التي يمكن أن يقوم على أساسها التغييرُ في النبوّة : هو أن تكون الرسالة التي هبطت على النبي محدودةً باعتبار محدوديّة نفس النبي.

[إنّ مفهوم][١] (النبي) وإن كان مفهوماً عامّاً، إلّا أنّ هذا المفهوم العام ـ على ما يقوله المناطقة[٢] ـ يصدق على أفراده بالتشكيك.

هناك ـ على ما تقول الروايات[٣] ـ نبيٌّ للبشريّة، ونبيٌّ للجماعة، ونبيٌّ للقبيلة. هناك نبوّات تختلف من حيث السعة والضيق باختلاف طبيعة النبي نفسه، باعتبار مستوى كفاءة [القيادة][٤] الفكريّة والعمليّة في نفس النبي.

فمحدوديّة الكفاءة القياديّة في المجالين الفكري والعملي، هذا ممّا يؤثّر في تحديد الرسالة التي يحملها النبي؛ لأنّ كلّ إنسانٍ على الأرض لا يمكن أن يحمل رسالة يحارب ويجاهد ويدافع عنها حقيقةً إلّا إذا كان مستوعباً لها استيعاباً كاملاً شاملاً، وهذا الاستيعاب الكامل الشامل يتطلّب من هذا الداعية

---

(١) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٢) تقدّم تعريف (التشكيك) في المحاضرة السابقة. راجع: كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١: ٤٤٧.

(٣) أُنظر: كمال الدين وتمام النعمة ١: ٢١٩، الحديث ٢.

(٤) صوت الشهيد الصدر ﷺ هنا مشوّش، ولعلّه قال: «التجربة»، وما أثبتناه من (ف) و(غ) و(و)، وهو يناسب ما يأتي.

أن يكون على مستوى هذه الرسالة.

ومن الواضح أنّ الأنبياء ـ كغير الأنبياء ـ يتفاوتون في درجات تلقّيهم للمعارف الإلهيّة عن طريق الوحي من قبل الله تعالى، ولهذا كانت بعض الرسالات محدودةً بحكم محدوديّة قابليّة الأنبياء أنفسهم؛ حيث إنّ هذا النبيّ ليس مؤهّلاً لأنْ يحمل هموم البشريّة على الإطلاق: في كلّ زمانٍ ومكان، بل هو مهيَّأٌ لأنْ يحمل هموم عصره فقط، أو هموم مدينته فقط، أو هموم قبيلته فقط. وإنّ[1] ذاك الشخص الذي يحمل هموم البشريّة على الإطلاق، ويعيش مشاكلها على الإطلاق، ويكتوي بنارها على الإطلاق، ليس إلّا الدرجة العالية من الدعاة إلى الله من الأنبياء والأوصياء.

فإذا كانت النبوّة محدودةً بطبيعة قابليّات هذا النبي، فكان لا بدّ ـ في خارج هذه الحدود الزمانيّة أو المكانيّة ـ من نبوّةٍ أُخرى تمارس عملها في سبيل الله.

السبب الرابع: تطوّر الإنسان المدعوّ:

وأخيراً: من جملة الأسباب التي تدعو إلى تغيير النبوّة هو تطوّر البشريّة، تطوّر نفس الإنسان (المدعو)، لا محدوديّة الإنسان (الداعي) كما في ما سبق، بل محدوديّة الإنسان المدعو، وكون الإنسان المدعو يتصاعد بالتدريج لا بالطفرة، وينمو على مرّ الزمن في أحضان هذه الرسالات الإلهيّة، فيكتسب من كلّ رسالةٍ إلهيّةٍ درجةً من النموّ تهيّئُهُ وتعدُّه لكي يكون على مستوى الرسالة الجديدة، وأعبائها الكبيرة، ومسؤوليّاتها الأوسع نطاقاً.

وفكرة التطوّر هنا لا بدّ وأن تحدَّد إجمالاً ملامحُها ومعالمُها:

---

(١) صوت الشهيد الصدر (قدس سره) هنا غير واضح، ولعلّه ما أثبتناه.

ملامح فكرة التطوّر:

هنا يمكننا أن نبرز ثلاثة خطوطٍ تتطوّر [عليها] الإنسانيّة. الإنسانيّة تتطوّر على هذه الخطوط الثلاثة، إلّا أنّ العمل التغييري في النبوّة يرتبط بالتطوّر في خطّين من هذه الخطوط الثلاثة، ولا يرتبط بالخطّ الثالث منها.

الخطوط الثلاثة هي:

١ ـ خطّ وعي التوحيد.

٢ ـ وخطّ المسؤوليّة الأخلاقيّة للدعوة، لحمل أعباء الدعوة.

٣ ـ وخطّ السيطرة على الكون والطبيعة.

هذه خطوط ثلاثة يتطوّر الإنسان عبرها وفق مراحل تاريخيّة:

النبوّة ترتبط في الواقع بالخطّ الأوّل والخطّ الثاني من هذه الخطوط الثلاثة: بالوعي التوحيدي عند الإنسان، والخطّ الثاني هو خطُّ المسؤوليّة الأخلاقيّة لحمل أعباء الدعوة في العالم، ولا ترتبط النبوّة بالخطّ الثالث من خطوط التطوّر، وهو مدى سيطرة الإنسان على عالم الطبيعة والكون؛ ذلك لأنّ النبوّة تستهدف أن تصنع الإنسان من داخله، تستهدف أن تضع للإنسان قاعدةً فكريّةً يقوم على أساسها بناؤه الداخلي، ثمّ يقوم على أساس هذا البناء الداخلي البناءُ الخارجي[1].

١ ـ الخطّ الأوّل: وعي التوحيد:

وهذه القاعدة الأساسيّة التي يقوم على أساسها البناء الداخلي ـ وبالتالي البناء الخارجي ـ هي التوحيد، هي فكرة التوحيد وربط الإنسان بكامل مرافق

---

(١) راجع حول العلاقة بين هذين البناءين (أو المحتويين): اقتصادنا: ٣٣٥؛ المدرسة الإسلاميّة: ٩٥، الحريّة في المجال الشخصي؛ الإسلام يقود الحياة، صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي: ٣٢، هل الإسلام منهج حياة؟؛ المدرسة القرآنيّة: ١١٦، الدرس التاسع.

وجوده وجوانب حياته بربٍّ واحدٍ أحد.

هذه الفكرة هي القاسم المشترك بين كلّ النبوّات والرسالات التي عاشها الإنسان منذ [خلقه] الله على وجه الأرض(١).

إلّا أنّ هذه الفكرة ـ فكرة التوحيد ـ ليست ذات درجةٍ حدّيّة، وإنّما هي بنفسها ذات درجاتٍ من العمق والأصالة والتركيز والترسّخ؛ فهذه الدرجات المتفاوتة كان لا بدّ ـ بمقتضى الحكمة الإلهيّة ـ أن يُهيّأ الإنسان لها بالتدريج، هذا الإنسان الذي غرق ـ بمقتضى تركيبه العضوي والطبيعي ـ في حسّه ودنياه، حينما يُدعى إلى فكرة التوحيد لا بدّ من أن يُنتزع من عالم حسّه ودنياه بالتدريج لكي ينفتح على فكرة التوحيد، التي هي فكرة الغيب؛ فالغيب يجب أن يُعطى له على مراحل وعلى درجات، كلّ درجة تهيّئ ذهنه لتلقّي التوحيد على الدرجة الأُخرى.

نحن بإمكاننا ـ بالالتفات إلى فكرة التوحيد المعطاة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم ـ أن نفهم هذا المعنى.

[نضرب](٢) مثالاً على هذا المعنى: التوراة والإنجيل والقرآن؛ كلّ هذه الكتب تعطي فكرة التوحيد.

وأنا حينما أقول: التوراة والإنجيل، أقصد التوراة والإنجيل اللذين يعيشان(٣) بيننا اليوم؛ لأنّ هذه التوراة وهذا الإنجيل اللذين يعيشان بيننا اليوم هما ـ على أيّ حال ـ يصوّران الفكرة الدينيّة في شعب موسى وشعب عيسى، في قوم موسى وقوم عيسى. ولا شكّ في أنّهما يحتفظان بجزءٍ من النصّ الديني إلى حدٍّ قليلٍ أو كثيرٍ، خاصّةً في التوراة.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٢٥.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «نفهم»، وما أثبتناه أنسبُ للمراد.

(٣) قمنا بتصحيح ضمائر التذكير والتأنيث والتثنية والجمع دون وضعها بين عضادتين.

ولهذا يمكن أن نستلهم [من] هذين الكتابين في سبيل تقدير وتحديد الروح الدينيّة العامّة لمرحلتين من مراحل الإنسان التي عاشها مع النبوّة.

بطبيعة الحال هنا نرى فارقَ درجةٍ وتطوّراً في مفهوم التوحيد المُعطى:

أ ـ فكرة التوحيد في التوراة:

التوحيد[1] في الكتاب الأوّل يقوم على أساس إعطاء (إله)[2]، هذا الإله لا يستطيع هذا الكتاب أن ينتزع عنه الطابع القومي المحدود، فيشدّ هذا الإله إلى جماعةٍ معيّنةٍ، إلى شعبٍ معيَّن، هذا الشعب المعيَّن هو الشعب الذي قُدِّر أن تنزل الرسالة فيه، وأن يكون النبيُّ منه، فكانت التوراة باستمرارٍ تقدّم الإله في إطارٍ قومي، كأنّه إلهُ هؤلاء في مقابل الأصنام والأوثان التي هي آلهة سائر الشعوب والقبائل.

فلم تقل التوراة بشكلٍ صريحٍ عميقٍ لهؤلاء: إنّ هناك إلهاً واحداً للجميع، وإنّ هذه الأصنام والأوثان يجب أن ترفضها البشريّة، وإنّما كأنّها عوضّت هؤلاء بالخصوص عن صنمٍ معيَّن ووثنٍ معيّنٍ بإلهٍ يعبدونه بدلاً عن هذا الصنم.

هذا الشيء الذي بعث في نفوس هؤلاء القوم[3] ـ تاريخيّاً ـ الشعورَ بالاعتزاز، والشعور بالزهوّ والخيلاء على بقيّة الشعوب الاُخرى، هذا الشعور الذي لم يوجد في شعوبٍ متأخّرةٍ نزلت فيها نبوّات التوحيد، على أساس أنّ الإله الذي اُعطي إليهم كان إلهاً مشوباً بشيءٍ من المحدوديّة والطابع القومي،

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «فبينما التوحيد»، وقد حذفنا «فبينما» نظراً إلى تأخّر الحديث عن عِدل مدخولها إلى العنوان القادم.

(٢) يظهر من المحاضرة الصوتيّة أنّ الشهيد الصدر‌ﷺ أراد إضافة شيء، ثمّ أهمله وأكمل، ومراده‌ﷺ: «إعطاء مفهوم عن إله».

(٣) يقصد‌ﷺ: اليهود.

فخُيِّل لهم ـ على مرّ الزمن ـ أنّهم يحتكرون (الله) لأنفسهم، بينما الشعوب والقبائل الأُخرى هي ذات آلهةٍ شتّى وأصنامٍ شتّى.

ويُشير القرآن الكريم إلى فكرة الاحتكار التي كان يعتقدها اليهود بالنسبة إلى الله تعالى[١].

ب ـ فكرة التوحيد في الإنجيل:

في الكتاب الثاني صَعَدَت فكرة (الله) مرتبة؛ وذلك لأنّ الطابع القومي انتُزع عن هذه الفكرة، أصبح (الإله) المقدَّم من قبل تلامذة المسيح للعالم إلهاً عالميّاً لا فرق فيه بين شعب وشعب[٢]، هو إلهُ العالَم على الإطلاق، إلّا أنّ هذا الإله ـ الذي هو إله العالم على الإطلاق ـ لم يغادر منطقةً قريبة من ذهن الإنسان المحسوس، لم يُجرَّد تجريداً كاملاً عن عالم الحسّ، بقي على صلةٍ وثيقةٍ جدّاً بالإنسان الحسّي، كأنّه أبوه، ولهذا يُعبَّر في الأناجيل كثيراً عن الإنسان بأنّه (ابن الله)[٣].

المسيحيّة الرسميّة تفسّر هذا الإنسان بعيسى بن مريم: أنّ عيسى بن مريم هو ابن الله. لكن لا أظنّ أنْ يُقصد به هذا؛ الأناجيل تعبّر عن الإنسان

---

(١) لاحظ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ المائدة: ١٨؛ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الجمعة: ٦؛ ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ البقرة: ١١١؛ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ البقرة: ١٣٥.

(٢) إنّ الفكرة المقدّمة في الإنجيل عن نبي الله عيسى عليه السلام هي أنّه لم يُرسل «إلّا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة» كما نقلوا عنه أثناء انصرافه إلى نواحي صور وصيداء، فراجع: الكتاب المقدّس، العهد الجديد: ٢٨جـ، إنجيل مَتّى، الأصحاح الخامس عشر، وهو موافقٌ لما ورد عندنا من أنّ «الله عزّ وجلّ أرسل عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل خاصّة، فكانت نبوّته ببيت المقدس» كمال الدين وتمام النعمة: ٢٢٠، الحديث ٢.

(٣) انظر: الكتاب المقدّس، العهد الجديد: ٦جـ، إنجيل مَتّى، الأصحاح الرابع؛ ٥٦جـ، إنجيل مَرقُس، الأصحاح الأوّل؛ ٦٠جـ، إنجيل مَرقُس، الأصحاح الثالث؛ ٩٠جـ، إنجيل لوقا، الأصحاح الأوّل؛ ٩٦ جـ، إنجيل لوقا، الأصحاح الثالث؛ ١٤٦جـ و١٤٧جـ، إنجيل يوحنّا، الأصحاح الأوّل.

ـ أيِّ إنسانٍ ـ بأنّه ابن الله، لا عن عيسى بن مريم بالخصوص أنّه ابن الله؛ لأنّها تعطي[١] عن الله فكرةَ الأب الواحد للجماعة البشريّة، لا فكرة الخالق، السيّد، المطلق، المقتدر، الواهب، الكبير.. فكرةَ أبٍ له أبناء، هؤلاء الأبناء لهم لغات شتّى، ولهم اتّجاهات شتّى، ولهم مذاهب شتّى، ولهذا يجب أن يتآخوا، يجب أن يتآخوا لأنّهم أبناء أبٍ واحد.

ج ـ فكرة التوحيد في القرآن:

بينما الكتاب الثالث الذي وصلت إليه النبوّة على يد الإسلام، هذا الكتاب الثالث يعطي فكرة التوحيد بأنصع وأوسع ما يمكن من التنزيه الذي يبقى محتفظاً بقدرته على تحريك الإنسانية؛ لأنّه يجرّد هذه الفكرة عن طابع الأُبوّة والعلائق الماديّة مع الإنسان على الإطلاق، يجرّد (الله) عن أيّ علاقةٍ ماديّةٍ مع أيّ إنسانٍ، حتّى مع أشرف إنسانٍ على وجه الأرض، مع صاحب الرسالة بالذات: محمّد صلى الله عليه وآله.

يقف النبيُّ محمّد في لغة القرآن بين يَدَي[٢] الله عبداً ذليلاً خاضعاً يتلقّى الأوامر، وليس له إلّا أن يطيع، وإلّا أن ينفّذ حرفيّاً[٣].

مثل هذه الفكرة هي أقصى ما يمكن أن يصل إليه التنزيه والتعميق والترسيخ في فكرة التوحيد، مع الحفاظ على فاعليّة الفكرة وعلى [محرّكيّتها].

هذا الخطّ ـ خطُّ وعي التوحيد وفكرةِ التوحيد ـ هو أوّل الخطوط التي تتغيّر مواقف النبوّات بموجبها؛ على أساس أنّ هذا الخطّ هو المرتبط بالقاعدة

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة إضافة: «فكرةً»، وحذفها أنسب للمراد.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «يد»، وما أثبتناه أوْلى.

(٣) لاحظ من باب المثال قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ الحاقّة: ٤٤ـ٤٥؛ ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ المائدة: ٤٩؛ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة: ٦٧، وغيرها.

الفكريّة الأساسيّة التي تعمل بموجبها كلُّ نبوّة؛ فمهما صعدت درجة الوعي لهذه القاعدة الأساسيّة يجب أن تُعطى لها الصيغة المعمّقة الأكبر(١).

٢ ـ الخطُّ الثاني: المسؤوليّة الأخلاقيّة للدعوة:

الخطُّ الثاني هو خطُّ تحمّل أعباء المسؤوليّة الأخلاقيّة للدعوة، يعني: كون الإنسان بالغاً إلى درجةٍ تؤهّله لأنْ يتحمّل أعباء دعوةٍ لها ضريبتُها وواجباتُها وآلامُها وهمومُها.

مثل هذا التحمّل أيضاً له درجات، ولم يستطع الإنسان بالطفرة أن يصل إلى درجة تحمّل أعباء رسالة عالميّة واسعة غيرِ محدودةِ الزمان والمكان، لم يستطع أن يصل إلى هذا بالطفرة، وإنّما استطاع أن يصل إلى ذلك عبر مرانٍ طويلٍ على تحمّل المسؤوليّات.

البشريّة بقيت تتحمّل المسؤوليّات عبر مرانٍ طويل، ونمت خلال مرانها الطويل حتّى استطاعت أن تتحمّل مسؤوليّةَ رسالةٍ لا حدَّ لها، ممتدّةٍ مع الزمان والمكان، وإلّا فأيّ مسؤوليّاتٍ كانت تتحمّلها أُمم الأنبياء السابقين؟!

الأُمم التي تنكشف أمامنا اليوم [تواريخُها] هي أُممُ موسى وعيسى،

---

(١) هنا يسجّل أحد الحاضرين مداخلة باللغة الفارسيّة قائلاً: إنّه ليس معلوماً أن تكون للتوراة والإنجيل الحاليّين علاقةٌ بالتوراة والإنجيل النازلين من عند الله تعالى، فيجيب الشهيد الصدر رحمه الله: «أنا هكذا بيّنتُ: بأنّ التحريف لا يمنع عن افتراض وجود نصوص دينيّة كثيرة في التوراة [والإنجيل]، خاصّة في التوراة؛ باعتبار أنّ القرآن يقول بأنّ هؤلاء عندهم التوراة، وظاهرهُ أنّ التوراة المعاشة في أيّام النبي صلى الله عليه وآله كان فيها جزءٌ كبيرٌ معتدٌّ به ممّا أُنزل على موسى[عليه السلام]. ثمّ ـ على أيّ حال ـ هي تمثّل الروح الدينيّة العامّة؛ يعني: إنّ الأناجيل حتّى لو فرض أنّها لا تمثّل شيئاً ممّا نزل على السيّد المسيح عليه السلام ـ كما هو المفروض في الأناجيل، لا في التوراة ـ، إلّا أنّها تمثّل الروح الدينيّة العامّة؛ فإنّ الروح الدينيّة العامّة بعد السيّد المسيح هي هذه الروح التي كتب بها أصحاب الأناجيل هذه الكتب، المفاهيم التي كان يعيشها الناس وقتئذٍ هي هذه المفاهيم؛ فهذا يكشف عن المستوى العام للوعي التوحيدي وقتئذ، وإن لم يكشف عن حدود ما أعطاه السيّد المسيح بالذات. وهذا يكفي كاستشهاد على تطوّر الوعي التوحيدي على مرّ الزمن».

والمقارنة بين أُمم موسى وعيسى و[بين] المسؤوليّات التي تحمّلتها الاُمّة الإسلاميّة حينما نزل الوحي على النبيﷺ بالرسالة الخاتمة تكشف عن الدرجة الكبيرة في تحمّل المسؤوليّات، وهذه الدرجة الكبيرة في تحمّل المسؤوليّات تعبّر عن نموّ الاستعداد على مرّ الزمن.

موسى[عليه السلام] مات وشعب بني إسرائيل في التيه، يعني: توّج حياته، توّج كلّ أعماله، توَّجَها بكلّ ما يُمكنه من جهاد وتضحية في سبيل أداء رسالته، ولكنّه أنهى حياته وشعبُ بني إسرائيل في التيه. كتب الله عليهم التيه أربعين عاماً[١]؛ لأنّهم لم يستجيبوا أبداً لمتطلّبات الرسالة، لم يستجيبوا أبداً لما تقتضيه رسالة موسى بالنسبة إليهم، حتّى خلّفهم موسى حيارى ومات.

أين هذا من اُمّةٍ حملت أعباء الرسالة؟

هذا هو الخطّ الثاني من الخطوط الثلاثة. لا بدّ لي أن أختصر الكلام.

٣ ـ الخطّ الثالث: سيطرة الإنسان على الطبيعة:

الخطّ الثالث من الخطوط الثلاثة هو خطّ سيطرة الإنسان على الكون والطبيعة. هذا الخطّ خطٌّ متطوّر قبل الإسلام وبعد الإسلام، ولن يقف هذا الخطُّ عند مرحلةٍ من المراحل على الإطلاق.

الإنسان سوف لن تقف سيطرته ـ بإذن الله ـ عند مرحلةٍ من مراحل الاستيلاء على الكون والطبيعة. إن انتهى استيلاؤه الكامل على الأرض، سوف يفكّر في الاستيلاء على السماء، في الاستيلاء على كلّ أبعاد الكون[٢].

إذاً: فهو في نموٍّ مستمرّ لا ينقطع، ولا توضع له حدود مفترضة من هذه الناحية. فلو كانت النبوّة مرتبطةً بهذا الخطّ أيضاً، لتحتّم أن تتغيّر النبوّات على

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ المائدة: ٢٦.

(٢) راجع حول (علاقة الإنسان مع الطبيعة): المدرسة القرآنيّة: ١٥٨، الدرس الثاني عشر.

مرّ الزمن وإلى يومنا هذا، وإلى يوم القيامة.

ولكنّ النبوّة غير مرتبطةٍ بهذا الخطّ؛ لأنّ النبوّة لم تجئ لكي تأخذ بيد الإنسان في مجال السيطرة على الكون والطبيعة، وإنّما جاءت لتصنع من هذا الإنسان المسيطر على الكون والطبيعة ـ بالدرجة التي هيّأتها له[1] ظروفه الموضوعيّة ـ إنساناً فاضلاً نبيلاً مدبِّراً حكيماً، سواءٌ أكانت سيطرته على الطبيعة تهيّئهُ لأنْ ينتقل من بلدٍ إلى بلدٍ على رجليه، أو على الحمير، أو في الطائرات، أو في الصواريخ.

على جميع هذه التقادير، وفي جميع هذه المراحل التي تعبّر عن درجات من سيطرة الإنسان على الكون والطبيعة، في جميع هذه المراحل: النبوّةُ لا يختلف دورها وطبيعة رسالتها.

ومن هنا لم يكن من الحَتْم أن تتغيّر النبوّة بموجب تغيّر الخطّ الثالث، بينما من المعقول ـ بل من الضروري ـ أن تتغيّر النبوّة بين حينٍ وحين وفقاً للخطّ الأوّل والخطّ الثاني.

ومن هنا، نعتقد نحن ـ كمسلمين ـ أنّ الخطّ الأوّل والخطّ الثاني ـ هذين الخطّين اللذين ترتبط بهما التغيّرات في النبوّة ـ لهما حدٌّ نهائي يصل إليه الإنسان، هذا الحدّ النهائي هو الحدّ النهائي الذي وصل إليه الإنسان حينما جاء الإسلام. الإسلام كرسالةٍ شاملةٍ كاملةٍ عامّةٍ للحياة، هذه الرسالة جاءت على أبواب وصول الإنسان إلى رشده الكامل من ناحية استعداده لتقبّل وعيٍ توحيديٍّ صحيح شامل كامل، ومن ناحية تحمّله لمسؤوليّة أعباء الدعوة.

ونحن ـ باستقراء تاريخنا المنظور منذ جاء الإسلام إلى يومنا هذا ـ لا نجد أيَّ تغيّرٍ حقيقيٍّ في هذين الخطّين، لا في مدى اتّساع الوعي التوحيدي

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة وفي (ف): «هيّأته لها»، وما أثبتناه هو المناسبُ للمراد.

عند الإنسان، ولا في اتّساع التحمّلات الأخلاقيّة لأعباء الدعوة، في كلا هذين الخطّين لا نجد أيَّ تغيّر حقيقي.

نعم، نجد التغيّر الواسع جدّاً في الخطّ الثالث الذي يُعتبر خارج نطاق عمل النبوّة ورسالتها.

أظنّ أنّ هذا المقدار كافٍ.

❊ ❊ ❊

أئمّة أهل البيت عليهم السلام

٢



الاتجاه الشمولي

في دراسة حياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام

اُلقيت في الجلسة الخامسة للموسم الثقافي الأوّل
لجمعيّة الرابطة الأدبيّة في النجف الأشرف
في رحاب ١٣/رجب/١٣٨٦ هـ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على القادة من حملة الرسالة الكبرى، أشرف الأنبياء محمّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين، [الذين نعيش الآن أيّها الإخوة الأعزّاء يوماً من أيّامهم العظيمة، يوم مولد القائد الثاني من قادة الرسالة، والإمام الأوّل من أئمّة أهل البيت عليٍّ بن أبي طالب (عليه أفضل الصلاة والسلام).

ومن الطبيعي لنا أن نلتقي مع هذا اليوم وغيره من أيّامهم العظيمة التي تمرّ بنا في كلّ عام التقاءً روحيّاً مخلصاً والتقاءً فكريّاً واعياً؛ لكي نعمّق باستمرار صلتنا الروحيّة بقادة الرسالة، ونبلور أكثر فأكثر مفهومنا ودراساتنا عنهم، ونستمدَّ دائماً من تاريخهم العظيم قبساً ينير لنا الطريق.

وعلى هذا الأساس أودّ أن أجعل من هذه المناسبة التي نعيشها الآن مجالاً للتعبير عن][1] اتّجاه معيّن في دراسة حياة الأئمّة عليهم السلام.

وسوف لن يتّسع لحديثي معكم ـ أيها الإخوة الأعزّاء ـ في حدود هذه الفرصة أن يرسم اتجاهاً معيّناً ويجسّده أو يخطّط له، وإنّما كلّ ما أُحاوله هو إثارة التفكير حول هذا الاتجاه، وإعطاء بعض الملامح العامّة عن حياة الأئمّة.

(١) ما بين عضادتين أثبتناه من (إ)، وهو غير مثبت في المحاضرة الصوتيّة.

النظرة الكلّيّة والتجزيئيّة لحياة الأئمّة عليهم السلام:

وهذا الاتجاه الذي أُريد أن أتحدّث إليكم عنه هو الاتجاه الذي يتناول حياة كلِّ إمام ويدرس تاريخه على أساس النظرة الكلّيّة بدلاً عن النظرة التجزيئيّة، أي: يَنظُرُ[1] إلى الأئمّة ككلٍّ مترابطٍ، ويُدرَس هذا الكلّ وتُكتَشف ملامحه العامّة، وأهدافه المشتركة، ومزاجه الأصيل، ويُتفهّم الترابطُ بين خطواته، وبالتالي: الدور الذي مارسه الأئمّة جميعاً في الحياة الإسلاميّة.

ولا أُريد بهذا أن نرفض دراسة الأئمّة على أساس النظرة التجزيئيّة، أي: دراسة كلّ إمام بصورة مستقلّة، بل إنّ هذه الدراسة التجزيئيّة نفسَها ضروريّة لإنجاز دراسة شاملة للأئمّة ككلّ؛ إذ لا بدّ لنا أوّلاً أن ندرس الأئمّةَ بصورة مجزّأة، ونستوعب ـ إلى أوسع مدى ممكن ـ حياة كلّ إمام، بكلّ ما تزخر به من ملامح وأهداف ونشاط، حتّى نتمكّن بعد هذا أن ندرسهم ككلٍّ، ونستخلصَ الدور المشترك للأئمّة جميعاً، وما يعبّر عنه من ملامح وأهداف وترابط.

الفارق في المُعطى على مستوى كلتا النظرتين:

١ ـ المُعطى على مستوى الدراسة التجزيئيّة:

وإذا قمنا بدراسة الأئمّة على هذين المستويين، فسوف نواجه على المستوى الأوّل اختلافاً في الحالات، وتبايناً في السلوك، وتناقضاً من الناحية الشكليّة بين الأدوار التي مارسها الأئمة عليهم السلام: فالحسن عليه السلام هادن معاوية، بينما حارب الحسين عليه السلام يزيد حتّى قُتل. وحياة السجّاد عليه السلام طافحة بالدعاء، بينما كانت حياة الباقر عليه السلام طافحة بالحديث والفقه. وهكذا...

---

(١) أثبتنا المعلوم والمجهول وفق ما ورد في المحاضرة الصوتيّة.

٢ ـ المُعطى على مستوى الدراسة الكلّيّة:

وأمّا على المستوى الثاني: حينما نحاول اكتشاف الخصائص العامّة والدور المشترك للأئمّة ككلٍّ، فسوف تزول كلُّ تلك الاختلافات والتناقضات؛ لأنّها تبدو ـ على هذا المستوى ـ مجرّد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنّما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مرّ بها كلُّ إمام وعاشتها القضيّة الإسلاميّة والشيعيّة في عصره عن الظروف والملابسات التي مرّت بالرسالة في عهد إمامٍ آخر.

ويمكننا ـ عن طريق دراسة الأئمّة على أساس النظرة الكلّيّة ـ أن نخرج بنتائج أضخم من مجموع النتائج التي تتمخّض عنها الدراسات التجزيئيّة؛ لأنّنا سوف نكشف ترابطاً بين أعمالهم.

وسوف أستخدم مثالاً بسيطاً لتوضيح الفكرة:

أ ـ فنحن نقرأُ في حياة أمير المؤمنين عليه السلام أنّه جمع الصحابة في خلافته واستشهدهم على نصوص الإمامة، فشهد عددٌ كبيرٌ بالسماع من الرسول الأعظم[١].

ب ـ ونقرأ في حياة الإمام الحسين عليه السلام أنّه جمع في عرفة ـ على عهد معاوية ـ من تبقّى من خيار الصحابة والمهاجرين وعدداً كبيراً من التابعين، وطلب منهم أن يحدّثوا بنصوص النبي صلى الله عليه وآله في عليٍّ وأهل البيت[٢].

ج ـ ونقرأ في حياة الإمام الباقر أنّه قام بنفس العمليّة، واستشهد التابعين

---

(١) المسند (ابن حنبل) ١: ١١٨؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢١٠؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣: ٣٦٦؛ البداية والنهاية ٥: ٢١٠؛ وانظر: الأمالي (المفيد): ٢٦، الحديث ٩.

(٢) كتاب سليم بن قيس: ٧٨٨ ـ ٧٨٩؛ الاحتجاج ٢: ٢٩٦. وسيتجدّد الاستشهاد بهذه الحادثة في المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: موقف الإمام الحسين عليه السلام على مستوى النظريّة.

وتابعي التابعين(١).

وحين ندرس الأئمّة ككلٍّ، ونربط بين هذه النشاطات بعضِها ببعض، ونلاحظ أنّ العمليّات الثلاث وُزّعت على ثلاثة أجيال، نجد أنفسنا أمام تخطيط مترابط يكمّل بعضُه بعضاً، يستهدف الحفاظ على تواتر النصوص عبر أجيال عديدة؛ حتّى تصبح في مستوىً من الوضوح والاشتهار يتحدّى كلّ مؤامرات الإخفاء والتحريف.

فكرةُ الإمامة تفرض وجود دور مشترك للأئمّة عليهم السلام:

وفي عقيدتي: إنّ وجود دور مشترك مارسه الأئمّة جميعاً ليس مجرّدَ افتراض نبحث فيه عن مبرّراته التاريخيّة، وإنّما هو ممّا تفرضه العقيدة نفسُها، وفكرة الإمامة بالذات؛ لأنّ الإمامة واحدة في الجميع بمسؤوليّاتها وشروطها، فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الأئمّة وأدوارهم، مهما اختلفت ألوانها الظاهريّة بسبب الظروف والملابسات، ويجب أن يشكّل الأئمّة مجموعُهم وحدةً مترابطةَ الأجزاء، يواصل كلُّ جزءٍ في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمّله.

ما هو هذا الدور المشترك للأئمّة؟(٢)

وقد لا نحتاج إلى شيء من البحث لكي نتّفق بسرعة على نوعيّة الدور المشترك الذي أُسند إلى الأئمّة في تخطيط الرسالة؛ فكلّنا نعلم أنّ الرسالة الإسلاميّة ـ بوصفها رسالةً عقائديّةً ـ قد خطّطت لحماية نفسها من الانحراف، وضمانِ نجاح التجربة خلال تطبيقها على مرّ الزمن، فأوكلت أمر قيادة

---

(١) الكافي ٨: ٣٤٩، الحديث ٥٤٨.

(٢) العنوان منه قدس سره، وفي المحاضرة الصوتيّة إضافة: «هذا هو السؤال الذي يقفز على ضوء ما تقدّم».

التجربة وتمويلها[١] تشريعيّاً وتوجيهها سياسيّاً إلى الأئمّة؛ بوصفهم الأشخاص العقائديّين الذين بلغوا في مستواهم العقائدي درجة العصمة عن الانحراف والزلل والخطأ.

غير أنّنا حين نحاول أن نحدّد الدور المشترك الذي مارسه الأئمّة ككلٍّ في تاريخهم المديد[٢] لا نعني هذا الدورَ القياديَّ في تزعّم التجربة الإسلاميّة؛ لأنّنا نعلم جميعاً أنّ الأحداث المؤلمة التي وقعت بعد وفاة الرائد الأعظم صلى الله عليه وآله قد أقصت الأئمّة عن دورهم القيادي في تزعّم التجربة، وسلّمت مقاليد الرسالة ومسؤوليّة تطبيقها إلى أشخاص آخرين انحرف معهم التخطيط[٣]، واشتدّ الانحراف على مرّ الزمن.

وإنّما نريد بالدور المشترك في تاريخ الأئمّة: الموقفَ العامَّ الذي وقفوه في خضمِّ الأحداث والمشاكلِ التي اكتنفت الرسالة بعد انحراف التجربة وإقصائهم عن مركزهم القيادي في زعامتها.

وهنا نجد تصوّراً شائعاً لدى كثيرٍ من الناس الذين اعتادوا أن يفكّروا في الأئمّة بوصفهم أُناساً مظلومين فحسب، قد أُقصوا عن مركز القيادة وأقرّت الأُمّة هذا الإقصاء، وذاقوا بسبب ذلك ألوان الاضطهاد والحرمان؛ فهؤلاء الناس يعتقدون أنّ دور الأئمّة في حياتهم كان دوراً سلبيّاً على الأغلب نتيجةً لإقصائهم عن مجال الحكم؛ فحالهم حالُ من يملك داراً فتغصب منه، وينقطع أمله في إمكان استرجاعها.

وهذا التفكير ـ بالرغم من أنّه خاطئ ـ يعتبر خطأً من الناحية العمليّة؛ لأنّه يحبّب إلى الإنسان السلبيّة والانكماش والابتعاد عن مشاكل الأُمّة

(١) كذا في المحاضرة الصوتيّة، وفي (إ): «تنويرها».
(٢) كذا في المحاضرة الصوتيّة، وفي (إ): «المرير».
(٣) كذا في المحاضرة الصوتيّة، وفي (إ): «التطبيق».

ومجالات قيادتها.

ولهذا أعتقد أنّ من ضروراتنا الإسلاميّة الراهنة أن نثبت خطأ ذلك التفكير، وندرس حياة الأئمّة على أساس نظرةٍ كلّية؛ لنتبيّن إيجابيّتهم الرساليّة على طول الخطّ، ودورَهم المشتركَ الفعّال في حماية الرسالة والعقيدة.

انعكاسات دور الأئمّة عليهم السلام الإيجابي في الحفاظ على الرسالة:

إنّ الأئمّة عليهم السلام بالرغم من التآمر على إقصائهم عن مجال الحكم، كانوا يتحمّلون باستمرار مسؤوليّتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلاميّة، وتحصينها ضدّ التردّي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ عن مبادئها وقيمها انسلاخاً تامّاً.

وكلّما كان الانحراف يطغى ويشتدّ وينذر بخطر التردّي إلى الهاوية، كان الأئمّة يتّخذون التدابير اللازمة ضدّ ذلك.

وكلّما وقعت التجربة الإسلاميّة أو العقيدة في محنةٍ أو مشكلة وعجزت الزعامات المنحرفة عن علاجها ـ بحكم عدم كفاءتها ـ، بادر الأئمّة إلى تقديم الحلّ ووقاية الاُمّة من الأخطار التي كانت تهدّدها.

وبكلمةٍ مختصرة: كان الأئمّة يحافظون على المقياس العقائدي والرسالي في المجتمع الإسلامي، ويحرصون على أن لا يهبط إلى درجة تشكّل خطراً ماحقاً، وهذا يعني ممارستهم جميعاً دوراً إيجابيّاً فعّالاً في حماية العقيدة وتبنّي مصالح الرسالة والاُمّة:

١ ـ ردع الحاكم عن مزيد من الانحراف:

تمثّل هذا الدور الإيجابي في إيقاف الحاكم عن المزيد من الانحراف، كما عبّر عنه الإمام علي عليه السلام حين صعد عمر على المنبر، وتساءل عن ردّ الفعل لو صرف الناس عمّا يعرفون إلى ما ينكرون، فردّ عليه الإمام بكلّ وضوح

وصراحة: «إذاً لقوّمناك بسيوفنا»[١].

٢ ـ تعرية الزعامة المنحرفة:

وتمثّل في تعرية الزعامة المنحرفة إذا أصبحت تشكّل خطراً ماحقاً، ولو عن طريق الاصطدام المسلّح بها، والشهادة في سبيل كشف زيفها وشلّ تخطيطها، كما صنع الإمام الحسين مع يزيد.

٣ ـ مجابهة المشاكل التي تهدّد كرامة الدولة الإسلاميّة:

وتمثّل في مجابهة المشاكل التي تهدّد كرامة الدولة الإسلاميّة وتعجز الزعامات المنحرفة عن حلّها: كما في المشكلة التي أحدثها كتاب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان؛ إذ عجز عبد الملك عن الجواب على الكتاب في مستواه[٢]، فملأ الإمام زين العابدين هذا الفراغ، وأجاب بالشكل الذي يحفظ للدولة كرامتها وللأُمّة الإسلاميّة هيبتها[٣].

---

(١) سيستشهد الشهيد الصدر ﵀ بهذه الحادثة في المحاضرة الثامنة، تحت عنوان: الخطّ الثاني: خطُّ تحصين الأُمّة، معارضة الحكّام ومنعهم عن المزيد من الانحراف، وفي المحاضرة التاسعة، عند حديثه عن السبب الثالث من أسباب رفض الإمام ﵇ المساومات وأنصاف الحلول، ناسباً القول إلى الأُمّة. وكان ﵀ قد استشهد به في (فدك في التاريخ: ٣٩) ناسباً إيّاه إلى (شخص) لا إلى أمير المؤمنين ﵇. وهو يتناسب مع ما ذكره القاضي عبد الجبّار من أنّه روي عن الخليفة الثاني أنّه قال لأصحاب النبي ﷺ: «أنشدكم الله! هل ترونني عدلاً؟»، قالوا: «لو غير ذلك رأيناك لقوّمناك بأسيافنا» (المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢٠: ٧٦)؛ حيث لم ينصّ على أنّ عليّاً ﵇ هو القائل. ويبدو أنّه ﵀ يقصد هنا ما روي من أنّ الخليفة الثاني خطبهم فقال: «لو صرفناكم عمّا تعرفون إلى ما تنكرون ما كنتم صانعين؟»، قال: فسكتوا.. فقام عليٌّ ﵇ فقال: «يا أمير المؤمنين! إذاً كنّا نستتيبك، فإن تبت قبلناك»، قال: «فإن [لم أتب]؟»، قال: «إذاً نضرب الذي فيه عيناك» [ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣: ١٥٠؛ المناقب (الخوارزمي): ٩٨، الحديث ١٠٠]، ورواه الإربلي بدون: «يا أمير المؤمنين!» (كشف الغمّة في معرفة الأئمّة ﵈ ١: ١١٨).

(٢) في (إ): «على كتابٍ في مستواه»، ولكنّ الأرجح أنّ مقصوده ﵀: «على الكتاب بكتاب في مستواه».

(٣) مناقب آل أبي طالب ٤: ١٦١؛ بحار الأنوار ٤٦: ١٣٢ كلاهما نقلاً عن (العقد الفريد)، لكنْ في نسخته المطبوعة أنّ عبدالله بن الحسن هو الذي ملأ هذا الفراغ (العقد الفريد ٢: ٧٣). وفي مصادر

٤ ـ إنقاذ الدولة الإسلاميّة من التحدّي الكافر الذي يهدّد سيادتها:

وتمثَّل أيضاً في إنقاذ الدولة الإسلاميّة من تحدٍّ كافرٍ يهدّد سيادتها، كالتحدّي الذي واجهه [عبد الملك](١) من الروم بشأن النقد، وعَجِزَ عن الردّ عليه. وكان الإمام الباقر عليه السلام(٢) في مستوى الردّ على هذا التحدّي، فخطّط للاستقلال النقدي(٣).

٥ ـ معارضة الزعامات المنحرفة بنحوٍ يعكس الوجه الحقيقيَّ للرسالة:

وتمثّل الدور الإيجابي للأئمّة أيضاً في تلك المعارضة القويّة العميقة التي كان الأئمّة يواجهون بها الزعامات المنحرفة بإرادة صلبة لا تلين، وقوّة نفسيّة صامدة لا تتزعزع؛ فإنّ هذه المعارضة بالرغم من أنّها اتّخذت مظهر السلبيّة والمقاطعة في أكثر الأحايين بدلاً عن مظهر الاصطدام الإيجابي والمقابلة المسلّحة، غير أنّ المعارضة ـ حتّى بصيغتها السلبيّة ـ كانت عملاً إيجابيّاً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ على مُثُله وقيمه؛ لأنّ انحراف الزعامات القائمة كان يعكس الوجه المشوّه للرسالة، فكان لا بدّ للقادة من أهل البيت أن يعكسوا الوجه النقيَّ المشرقَ لها، وأن يؤكّدوا ـ عمليّاً باستمرار ـ المفارقاتِ بين الرسالة و[بين] الحكم الواقع.

أُخرى نقلاً عن علي بن الحسين ـ والمقصود به السجّاد عليه السلام ـ أنّ عبدالملك استشار ابن الحنفيّة (تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ٣٣٢؛ تذكرة الخواص: ٢٦٦).

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «هشام»، والصحيح ما أثبتناه وفقاً للمصادر التاريخيّة، وهو الذي سيذكره قدس سره في بحث (نبذة عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام).

(٢) ذكر الشهيد الصدر قدس سره في بحث (نبذة عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام) أنّ عبدالملك بن مروان لجأ إلى الإمام زين العابدين عليه السلام، الذي أرسل بدوره ابنه الإمام الباقر عليه السلام إلى الشام بهدف حلّ المعضلة، ولكنّنا لم نعثر عليه، وسيأتي بعضُ التعليق هناك، فراجع.

(٣) المحاسن والمساوئ ١: ٣٤٢؛ الأمالي (ابن سمعون) ١: ٦١؛ حياة الحيوان الكبرى ١: ٩٦ ـ ٩٧.

وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظريّة سليماً من الانحراف، وإن تشوّهت معالم التطبيق.

ويمكنني أن أذكر بهذا الصدد مثالاً جزئيّاً، ولكنّه يعبِّر عن مدى الجهود التي بذلها الأئمّة عليهم السلام في سبيل الحصول على هذا المكسب، مكسبِ خروج الإسلام ـ على المستوى النظري ـ سليماً من الانحراف.

تصوّروا أيّها الإخوة: أنّ الإمام موسى بن جعفر (سلام الله عليه) سجينٌ قد هدَّ السجنُ صحّتَه وأذاب جسمه، حتّى أصبح حين يسجد لربّه كالثوب المطروح على الأرض[١]، فيدخل عليه رسول الزعامة المنحرفة[٢] فيقول: «إنّ الخليفة يعتذر إليك ويأمر بإطلاق سراحك، على أن تزوره وتعتذر إليه أو تطلب رضاه»، فيشمخ الإمام وهو يجيب بالنفي بكلِّ صراحة[٣]، ويتحمّل مرارة الكأس إلى الثُّمالة؛ لا لشيءٍ إلّا لكي لا يحقّق للزعامة المنحرفة هدفها في أن يباركَ الإمامُ خطَّها، فتنعكس معالم التشويه من التطبيق المنحرف على الرسالة نفسها.

٦ ـ تمويل الاُمّة رساليّاً وفكريّاً ومقاومة التيّارات الفكريّة الخطرة:

وتمثّل الدور الإيجابي للأئمّة في تمويل[٤] الاُمّة العقائديّة بشخصيّتها الرساليّة والفكريّة من ناحية، ومقاومة التيّارات الفكريّة التي تشكّل خطراً على الرسالة وضربها في بدايات تكوّنها من ناحية اُخرى.

وللإمام من علمه المحيط المستوعب ما يجعله قادراً على الإحساس بهذه البدايات الخطرة، وتقدير أهمّيّتها ومضاعفاتها، والتخطيط للقضاء عليها.

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٤٦، الحديث ١٨؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٠٦، الحديث ١٠.

(٢) وهو يحيى بن خالد البرمكي، وفي المصدر أنّه كان يتولّى الكاظم عليه السلام وهارون لا يعلم ذلك.

(٣) كتاب الغيبة (الطوسي): ٢٤؛ مناقب آل أبي طالب ٤: ٢٩٠. وانظر: تاريخ اليعقوبي ٢: ٤١٤.

(٤) كذا في المحاضرة الصوتيّة، وفي (إ): «تموين».

وقد[١] نفسّر على هذا الضوء اهتمامَ الإمام العسكري وهو في المدينة بمشروع كتابٍ يصنّفه الكندي وهو في العراق حول متناقضات القرآن؛ إذ اتّصل به عن طريق بعض المنتسبين إلى مدرسته، وأحبطَ المحاولة، وأقنع مدرسة الكندي بأنّها على خطأ[٢].

٧ ـ الإيجابيّة تتكشّف في علاقات الأئمّة عليهم السلام بالأُمّة[٣]:

وفي الواقع: إنّ حياةَ الأئمّة عليهم السلام زاخرةٌ كلّها بالشواهد على إيجابيّة الدور المشترك الذي كانوا يمارسونه.

فمن ذلك: علاقاتُ الأئمّة عليهم السلام بالأُمّة والزعامة الجماهيريّة واسعة النطاق التي كان إمام أهل البيت يتمتّع بها على طول الخطّ؛ فإنّ هذه الزعامة لم يكن إمامُ أهل البيت يحصل عليها صدفةً، أو على أساس مجرّد الانتساب إلى الرسول ـ والمنتسبون إلى الرسول كُثُر ـ، بل على أساس العطاء والدور الإيجابي الذي يمارسه الإمام في الأُمّة بالرغم من إقصائه عن منصب[٤] الحكم؛ فإنّ الأُمّة لا تمنح ـ على الأغلب ـ الزعامة مجاناً، ولا يمتلك الفرد قيادتها ويحتلُّ قلوبها بدون عطاء سخيّ منه تستشعره الأُمّة في مختلف مجالاتها، وتستفيد منه في حلّ مشكلاتها والحفاظ على رسالتها.

أ ـ إنّ تلك الزعامة الواسعة ـ التي كانت نتيجةً لإيجابيّة الأئمّة عليهم السلام في الحياة الإسلاميّة ـ هي التي جعلت من عليٍّ عليه السلام المثلَ الأعلى للثوّار الذين قضوا على عثمان[٥]، وهي التي كانت تتمثّل في مختلف العلاقات التي عاشها

(١) في المحاضرة الصوتيّة إضافة: «يُمكن أن».

(٢) مناقب آل أبي طالب ٤: ٤٢٤، ولم يرد في المصدر اسم التلميذ.

(٣) العنوان منه قدس سره، والترقيم منّا.

(٤) كذا في المحاضرة الصوتيّة، وفي (إ): «مركز».

(٥) «إنّ الناس كانوا يأتون عليّاً لسابقته وقرابته وفضله، لا أنّه أراد ذلك منهم» أنساب الأشراف ٥: ٥٥١.

الأئمّة مع الاُمّة.

ب ـ اُنظروا إلى الإمام موسى بن جعفر كيف يقول لهارون الرشيد: «أنت إمام الأجسام، وأنا إمام القلوب»(١).

ج ـ اُنظروا إلى عبد الله بن الحسن حين أراد أن يأخذ البيعة لابنه محمّد كيف يقول للإمام الصادق: «واعلم ـ فديتُك ـ أنّك إذا أجبتني لم يتخلّف عنّي أحدٌ من أصحابك، ولم يختلف عليّ اثنان من قريش ولا من غيرهم»(٢).

د ـ ولاحظوا مدى ثقة الاُمّة بقيادة أئمّة أهل البيت نتيجةً لما يعيشونه من دورٍ إيجابيٍّ في حماية الرسالة ومصالح الاُمّة.

لاحظوا المناسبة الشهيرة التي أنشد فيها الفرزدق قصيدته في الإمام زين العابدين: كيف أنّ هيبة الحكم وجلال السلطان لم [يستطيعا] أن [يشقّا] لهشام طريقاً لاستلام الحجر بين الجموع المحتشدة من أفراد الاُمّة في موسم الحجّ، بينما استطاعت زعامة أئمّة أهل البيت أن تكهرب تلك الجماهير في لحظةٍ، وهي تحسّ بمقدم الإمام القائد، وتشقّ الطريق بين يديه نحو الحجر(٣)!

هـ ـ لاحظوا قصّة الهجوم الشعبي الهائل الذي تعرّض له قصر المأمون نتيجةً لإغضابه الإمامَ الرضا، فلم يكن للمأمون مناصٌ [من] الالتجاء إلى الإمام لحمايته من غضب الاُمّة، فقال له الإمام: «اتّقِ الله في اُمّة محمّد وما ولّاك من هذا الأمر وخصّك به؛ فإنّك قد ضيّعت اُمور المسلمين، وفوّضت ذلك إلى غيرك يحكم فيه بغير حكم الله عزّ وجلّ»(٤).

---

(١) «أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم» الصواعق المحرقة ٢: ٥٩٢.

(٢) الكافي ١: ٣٥٩، الحديث ١٧.

(٣) الأغاني ٢١: ٢٤٦؛ تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٤٠٠؛ تذكرة الخواص: ٢٩٦؛ تاريخ الإسلام ٨: ٢٠٨؛ البداية والنهاية ٩: ١٠٨. وفي: الفتوح ٥: ٧٢ أنّه أنشأها في الإمام الحسين ﷺ، وسيتجدّد استشهاده ﷺ بهذه الحادثة في بحث (نبذة عن الإمام علي بن الحسين ﷺ).

(٤) عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ١٦٠، الحديث ٢٤.

إنّ كلَّ هذه النماذج والمظاهر للزعامة الشعبيّة التي عاشها أئمّة أهل البيت على طول الخطّ تبرهن على إيجابيّتهم، وشعورِ الأُمّة بدورهم الفعّال في حماية الرسالة.

٨ ـ الإيجابية تتكشّف في علاقات الأئمّة بالحكّام[١]:

ويمكننا أن ننظر من زاوية جديدة لنصل إلى نفس النتيجة، من زاوية علاقات الزعامات المنحرفة مع إمام أهل البيت على طول الخطّ؛ فإنّ هذه العلاقات كانت تقوم على أساس الخوف الشديد من نشاط الأئمّة ودورهم في الحياة الإسلاميّة، حتّى يصل الخوف لدى الزعامات المنحرفة أحياناً إلى درجة الرعب.

وكان محصول ذلك باستمرار تطويق إمام الوقت بحصار شديد، ووضع رقابة محكمة عليه، ومحاولة فصله عن قواعده الشعبيّة، ثمّ التآمر على حياته، ووفاته شهيداً بقصد التخلّص من خطره.

فهل كان من الصدفة أو مجرّدَ تسليةٍ أن تتّخذ الزعاماتُ المنحرفةُ كلَّ هذه الإجراءات تجاه أئمّة أهل البيت، بالرغم من أنّها تكلّفها ثمناً بالغاً من سمعتها وكرامتها؟! أو كان كلُّ ذلك نتيجةً لشعور الحكّام المنحرفين بخطورة الدور الإيجابي الذي يمارسه أئمّة أهل البيت؟! وإلّا فلماذا كلُّ هذا القتل والتشريد والنفي والسجن؟!

هل كان الأئمّة يحاولون تسلّم[٢] الحكم؟[٣]

يبقى سؤال واحد قد يتبادر إلى الأذهان، وهو: أنّ إيجابيّة الأئمّة هل

(١) العنوان منه رحمه الله، والترقيم منّا.

(٢) كذا في المحاضرة الصوتيّة، وفي (إ): «استلام»، وكذا في المواضع الآتية.

(٣) هذا العنوان منه رحمه الله.

كانت تصل إلى مستوى العمل لتسلّم زمام الحكم من الزعامات المنحرفة؟ أو تقتصر على حماية الرسالة ومصالح الأُمّة من التردّي إلى الهاوية وتفاقم الانحراف؟!

والجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى توسّع في الحديث يضيق عنه هذا المجال، غير أنّ الفكرة الأساسيّة في الجواب(١) المستخلصةَ من بعض النصوص والأحاديث المتعدّدة: أنّ الأئمّة لم يكونوا يَرَون الظهورَ بالسيف والانتصارَ المسلّح آنيّاً كافياً لإقامة دعائم الحكم الصالح على يد الإمام.

إنّ إقامة هذا الحكم وترسيخه لا يتوقّف في نظرهم على مجرَّد تهيئة حملة عسكريّة، بل يتوقّف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً، ويعي أهدافه الكبيرة، ويدعم تخطيطه في مجال الحكم، ويحرس ما يحقّقه للأُمّة من مكاسب(٢).

وكلّكم تعلمون قصّة ذلك الخراساني(٣) الذي جاء إلى الإمام الصادق يعرض عليه تبنّي حركة الثوّار الخراسانيّين، فأجّل جوابه، ثمّ أمره بدخول التنوّر، فرفض.

وجاء [هارون المكّي](٤)، فأمره بذلك، فسارع إلى الامتثال، فالتفت الإمام إلى الخراساني، وسأله كم له من أمثال [هارون المكّي]؟ وكان هذا هو

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «الدراسة»، وما أثبتناه من (إ)، و«المستخلصة» وصفٌ للفكرة.

(٢) وهو ما سيتحدّث عنه ؓ في المحاضرتين السابعة والثامنة ضمن الحديث عن الخطّين اللذين عمل عليهما أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فراجع. وقد تعرّض ؓ لهذه النقطة في بشكل أكثر تفصيلاً في المحاضرة الخامسة والعشرين، تحت عنوان: اتّساع القاعدة الشعبيّة أهّلت الإمام عليه السلام للحكم المتعارف لا المنشود. وراجع كذلك: التشيّع والإسلام (بحث حول الولاية): ٦٣، [الجانب الروحي والسياسي في أطروحة التشيّع].

(٣) هو سهل بن حسن الخراساني.

(٤) في المحاضرة الصوتيّة و(إ): «أبو بصير»، والصحيح ما أثبتناه وفقاً للمصدر.

الردّ العملي من الإمام على اقتراح خراسان[١].

وعلى هذا الأساس، تسلّم أمير المؤمنين زمام الحكم في وقت توفّر فيه ذلك الجيش العقائدي الواعي، متمثّلاً في الصفوة من المهاجرين والأنصار والتابعين وأصحابه عليهم السلام.

٩ ـ رعاية الشيعة بوصفها الكتلة المؤمنة بالإمام[٢]:

عرفنا أنّ الدور المشترك الذي كان الأئمّة يمارسونه في الحياة الإسلاميّة هو دور الوقوف في وجه المزيد من الانحراف، وإمساك المقياس عن التردّي إلى الصفر والهبوط إلى الهاوية. غير أنّ هذا ـ في الحقيقة ـ يعبّر عن بعض ملامح الدور المشترك.

وهناك جانبٌ آخر في هذا الدور المشترك لم نشر إليه حتّى الآن، وهو جانب الإشراف المباشر على الشيعة بوصفهم الجماعة المرتبطة بالإمام، والتخطيطِ لسلوكها، وحمايةِ وجودها، وتنميةِ وعيها، وإمدادِها بكلّ الأساليب التي تساعد على صمودها في خضمّ المحن، و[على] ارتفاعها إلى مستوى الحاجة الإسلاميّة، [أي:] إلى جيش عقائدي وطليعة واعية.

ولدينا عددٌ كبيرٌ من الشواهد من حياة الأئمّة على أنّهم كانوا يباشرون نشاطاً واسعاً في مجال الإشراف على الكتلة المرتبطة بهم والمؤمنة بإمامتهم، حتّى إنّ الإشراف كان يصل أحياناً إلى درجة تنظيم أساليبَ لحلّ الخلافات الشخصيّة بين أفراد الكتلة، ورصد الأموال لها، كما يحدّث بذلك المعلّى بن خنيس عن الإمام الصادق عليه السلام[٣].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٤: ٢٣٧.

(٢) العنوان منه رحمه الله، والترقيم منّا.

(٣) لم نعثر على ما يشير إلى هذا المعنى عن المعلّى، والظاهر أنّه رحمه الله يقصد المفضّل بن عمر الجعفي، فراجع: الكافي ٢: ٢٠٩، الحديثان ٣ و٤.

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نفهم عدداً من نصوص الأئمّة بوصفها تعليمَ أساليبَ للجماعة التي يشرفون على سلوكها، وقد تختلف الأساليب باختلاف ظروف الشيعة والملابسات التي يمرّون بها.

خاتمة:

أحسُّ أيّها الإخوة أنّ ما قدّمته كافٍ لإثارة النقاط التي أحببت إثارتها، والتي يجب أن يرتكز عليها الأساس في دراساتنا للأئمّة عليهم السلام.

وختاماً، أرجو أن يكون هذا منطلقاً للباحثين في حياة أهل البيت. وأبتهل إلى المولى سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعاً من أتباع الأئمّة، والسائرين على هداهم، والملتزمين بكلّ حدودهم، والمطبّقين لأوامرهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❊ ❊ ❊

٤

التقسيم المرحلي الثلاثي

لحياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام

مع مقدّمة حول
عناصر التجربة الإسلاميّة وعوامل انحرافها

أُلقيت أوائل شهر صفر، وعلى الأرجح في الخامس منه، من العام ١٣٨٩هـ

تمهيد:

أردنا أن نتكلّم في نهاية هذا البحث شيئاً [ما]؛ تحقيقاً لقرار سابق؛ لأنّنا كنّا قد قرّرنا منذ مدّة من الزمان أنّنا في وفاة كلّ إمام من الأئمّة (عليهم السلام) نتحدّث عن تاريخ ذلك الإمام وعن أحواله، بالقدر الذي يضيئ لنا العبرة من حياته وأحواله.

وقد قمنا بهذا بالنسبة إلى عدّة أئمّة (عليهم السلام)، ولكن بالنسبة إلى الإمام الحسين (سلام الله عليه) لم يتهيّأ لنا ذلك؛ باعتبار [طول] التعطيل، وكذلك بالنسبة إلى الإمام السجّاد.

غير أنّنا عيّنّا يوماً من أيّام التعطيل للاجتماع، فلم يجتمع إلّا أقلُّ من الربع من الإخوان، ولهذا تبادر إلى ذهني [أن] نقوم بهذا الواجب في أعقاب الأبحاث التحصيليّة؛ وذلك اصطياداً لاجتماع تمام الإخوان، وفراراً من أن نعيّن يوماً تعطيليّاً، فيكون شخصٌ مسافراً إلى مكان، والآخر يتعطّل في حادث، وثالثٌ يتعطّل بمسامحة، ونحو ذلك من الأُمور.

وبالرغم من أنّي تعبت الآن[1] ـ ولا بدّ أنّكم أنتم أيضاً تعبتم ـ، بالرغم من هذا، نتكلّم بمقدار ما:

نحن بقي علينا الإمام الحسين (عليه السلام) من بين يوم عاشوراء، والإمامُ علي بن

---

(١) حيث ألقى (قدس سره) هذه المحاضرة بعد درسه المعتاد.

الحسين من بين الخامس والعشرين من محرّم، والإمامُ الحسن عليه السلام نحن على أبواب وفاته، يعني: نحن أمام حياة ثلاثة من الأئمّة عليهم السلام من الأئمّة المترتّبين: الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ علي بن الحسين عليه السلام.

مراحل تاريخ أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

وهؤلاء الثلاثة يشكلّون مع أبيهم عليه السلام ـ على ما قلنا في بعض المجالس السابقة[1] ـ تمام المرحلة الأُولى من المراحل الثلاث لحياة الأئمة عليهم السلام؛ فإنّنا ـ في بعض الجلسات السابقة التي عقدناها لغرض البحث عن تاريخ الأئمّة عليهم السلام ـ قلنا بأنّه يمكن تقسيم تاريخ الأئمّة (عليهم أفضل الصلاة والسلام) بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى ثلاث مراحل:

١ ـ المرحلة الأُولى: مرحلة تفادي صدمة الانحراف:

المرحلة الأُولى هي مرحلة تفادي صدمة الانحراف. هذه المرحلة هي المرحلة التي عاش فيها قادة أهل البيت عليهم السلام مرارة الانحراف ونكسة انحراف التجربة الإسلاميّة بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

وكان لمرارة هذا الانحراف ولصدمة هذا الانحراف آثارُها وفجائعُها ومضاعفاتُها[2] التي كان من الممكن أن تمتدَّ فتقضي على الإسلام ومصادره، وعلى الأُمّة الإسلاميّة، فتصبح قصّةً في التاريخ لا وجود لها في خطّ الزمن

---

(١) يظهر من ذيل هذه المحاضرة أنّه رحمه الله يقصد في الإحالة هنا: محاضرته حول الإمام الجواد عليه السلام، والتي سيُجدَّد الإحالة إليها في المحاضرة الرابعة والعشرين من هذا الكتاب، ونحن نحتمل بقوّة أن يكون رحمه الله قد ألقى حول الإمام الجواد عليه السلام محاضرة أُخرى سنة ١٣٨٧هـ غير التي في هذا الكتاب؛ لأنّ الأخيرة أُلقيت عَرَضاً، والمحال عليه ـ هنا وفي المحاضرة الرابعة والعشرين ـ ليس موجوداً فيها. وعلى كلّ حال راجع حول طبيعة المرحلة الأُولى: المحاضرتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «آثاره وفجائعه ومضاعفاته».

المستمرّ.

الأئمّة في هذه المرحلة الأُولى ـ مرحلة مجابهة هذا الانحراف ـ عاشوا صدمة الانحراف، وقاموا عليهم السلام بالتحصينات اللازمة ـ بقدر الإمكان طبعاً، لا بالقدر الذي لم يكن داخلاً في الإمكان، بالقدر الممكن قاموا بالتحصينات اللازمة ـ لكلّ العناصر الأساسيّة للرسالة ضدّ صدمة الانحراف، فحافظوا على الرسالة الإسلاميّة، وحافظوا على التصوّرات الإسلاميّة، وحافظوا على الأُمّة الإسلاميّة نفسها.

كلّ هذه الأركان والمقوّمات حصّنوها ـ بنحوٍ سوف يظهر خلال الحديث ـ تجاه صدمة الانحراف.

هذه هي المرحلة الأُولى، وقلنا: إنّ هذه المرحلة تبدأ بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مباشرةً، وتستمرّ إلى الإمام الرابع من قادة أهل البيت، وهو الإمام زين العابدين عليه السلام.

٢ ـ المرحلة الثانية: مرحلة بناء الكتلة الصالحة:

ثمّ تبدأ المرحلة الثانية. وقلنا بأنّ الإمام الباقر يشكّل شبه البداية لها. وإنّما نقول: شبه البداية؛ لأنّ تطوّر هذا العمل ليس حدّيّاً، بحيث يمكن أن نقف على لحظةٍ فنقول: هذه اللحظة هي نهاية مرحلةٍ وبداية مرحلة، وإنّما هذا التطوّر يتّفق مع طبيعة الأحداث المتطوّرة في خطّ تاريخ الإسلام. وقلنا بأنّ الإمام محمّد بن علي بن الحسين عليه السلام يمكن أن يشكّل شبه بدايةٍ للمرحلة الثانية.

والمرحلة الثانية التي شرع فيها قادة أهل البيت ـ بعد أن وضعوا التصميمات[1] اللازمة، وفرغوا من الضمانات الأساسيّة ضدّ صدمة الانحراف،

(١) كذا في المحاضرة الصوتيّة، وفي (ف) و(غ): «التحصينات».

هذه المرحلة الثانية ـ هي مرحلة بناء الكتلة، بناء الجماعة المؤمنة بزعامة أهل البيت، المنضوية تحت لوائهم، الشاعرة بكلّ الحدود والأبعاد للمفهوم الإسلامي المتبنّى من قبل أهل البيت عليهم السلام.

منذ زمان عليّ بن الحسين، وعلى زمان الإمام الباقر والإمام الصادق كان هذا العمل يبلغ القمّة.

وليس معنى هذا أنّ العمل الأوّل ـ الذي كان هو الخصّيصة الرئيسيّة للمرحلة الأُولى ـ قد انقطع، وإنّما معنى هذا أنّ العمل الأوّل ـ الذي كان هو الخصّيصة الرئيسة للمرحلة الأُولى ـ استمرّ، ولكن حيث إنّ صدمة الانحراف كان قد أمكن تقليل خطرها خلال ما قام به أُولئك الأئمّة الأربعة العظام من جهودٍ وتضحياتٍ في سبيل حفظ الإسلام؛ ولهذا تحتّم أن يواجه قادة أهل البيت عليهم السلام المهمّة الجديدة، مهمّة بناء الجماعة الصالحة من مجموع هذه الأُمّة التي حصّنت بالحدّ الأدنى من التحصين، لا بدّ من أن يُنتخَبَ مجموعةٌ من هذه الأُمّة، فيحصَّنون بأعلى درجةٍ ممكنةٍ من التحصين، ويوعَّون بأعلى درجةٍ ممكنة من التوعية؛ حتّى تكون هذه الجماعة هي الرائد والقائد والحامي للمجموع الإسلامي الذي حُصِّن بالحدّ الأدنى من التحصين.

هذا العمل مارسه الإمام الباقر والإمام الصادق على مستوى القمّة، وقلنا: إنّ هذه المرحلة استمرّت إلى زمان الإمام الكاظم عليه السلام.

٣ ـ المرحلة الثالثة: مرحلة التوسّع والإعداد لتسلّم الحكم:

في زمان الإمام الكاظم بدأت المرحلة الثالثة. والمرحلة الثالثة هنا لا يحدّدها بشكلٍ بارزٍ ـ على ما ذكرت سابقاً[١] ـ النشاطُ الإيجابيُّ من قِبَل الأئمّة أنفسهم، بل يحدّدها ـ بشكلٍ بارزٍ ـ موقفُ الحكم المنحرف من الأئمّة

---

(١) راجع: المحاضرتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين المتقدّمتين زماناً على هذه المحاضرة.

أنفسهم؛ وذلك لأنّ الجماعة التي نشأت في ظلّ المرحلة الثانية ـ التي وُضِعَت بذرتُها في ظلّ المرحلة الأُولى، ونشأت ونمت في ظلّ المرحلة الثانية، هذه الجماعة ـ غزت العالم الإسلامي، وبلغت إلى درجةٍ من الاتّساع والنموّ والنفوذ الفكري بحيث إنّها أخذت تشكّل خطراً حقيقيّاً على الزعامات المنحرفة التي كانت تحكم المجتمع الإسلامي وقتئذٍ.

وبدا للخلفاء يومئذٍ أنّ قيادة أهل البيت أصبحت على مستوى تسلّم زمام الحكم، والعود بالمجتمع الإسلامي إلى حظيرة الإسلام الحقيقي؛ ولهذا اختلفت بشكلٍ رئيسيٍّ ردودُ الفعل للخلفاء تجاه الأئمّة من أيّام الإمام موسى بن جعفر، على ما أوضحناه في حديثنا عن الإمام الجواد عليه السلام[١].

كرّرتُ هذا مرّة أُخرى؛ لأنّ هذه هي الخطوط الرئيسيّة التي لا بدّ وأن تُذكر بلحاظ الإخوان الذين لم يعيشوا تلك الاجتماعات السابقة[٢].

هذه هي المراحل الثلاثة التي سوف نستوعبها بالتدريج خلال تاريخ كلّ واحد من الأئمّة، إلى أن يكملوا عليهم السلام.

* * *

(١) تقدّم في مطلع هذه المحاضرة أنّنا نحتمل بشدّة أن المحاضرة المقصودة حول الإمام الجواد عليه السلام تختلف عن المحاضرة الموجودة في هذا الكتاب تحت هذا العنوان، فلاحظ، ولكن راجع حول طبيعة المرحلة الثالثة للأئمّة عليهم السلام: المحاضرتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين.

(٢) يقصد قدس سره أنّه كرّر ما كان قد ذكره في محاضرات سابقة؛ ليطّلع عليه من لم يستمع إلى تلك المحاضرات.

مقدّمة حول
عناصر التجربة الإسلاميّة وعوامل انحرافها

الآن نحن نعيش المرحلة الأُولى من هذه المراحل الثلاث[١]، نعيش حياة ثلاثةٍ من الأئمّة من المرحلة الأُولى، التي تشتمل على أربعة أئمّة: أمير المؤمنين والحسن والحسين وعلي بن الحسين.

قلنا: إنّ هذه المرحلة خصّيصتها الرئيسيّة أنّ الأئمّة عليهم السلام قاموا بتحصين المقوّمات الأساسيّة للحضارة الإسلاميّة ضدّ صدمة الانحراف.

لكي نفهم معنى هذا الكلام، ولكي نستطيع أن نطبّقه على أحوال الأئمّة عليهم السلام، يجب أن نتبيّن ما هي صدمة الانحراف؟ وما هو عمق صدمة الانحراف؟ وبالتالي: ما هو منطلق هذا الانحراف؟ وكيف كان يُترقّب أن يستمرّ هذا الانحراف؟ وكيف وقع بحسب الخارج؟

على ضوء تحديد منطلق هذا الانحراف، وعمق هذا الانحراف، وخطورة هذا الانحراف، يمكن أن نتنبّأ حينئذٍ بجلالة هذه المرحلة وعظمة منجزات الأئمّة فيها.

خطورة هذا الانحراف، وجلالة هذا الانحراف[٢]، هذا الانحراف الذي يمكننا أن نختصره في جملةٍ بسيطةٍ جدّاً، وهي: أنّ شخصاً غير عليٍّ بن أبي طالب تولّى أمر السلطان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فأصبح سلطانَ المسلمين بعد

(١) اقتصر الشهيد الصدر قدس سره في هذا المحاضرة على الحديث عن مقدّمات هذه المرحلة، ولم يُكمل الحديث عن المرحلتين الثانية والثالثة، واللتين يأتي الحديثُ عن بعض محطّاتهما في محاضرات هذا الكتاب المتعاقبة.

(٢) يدخل الشهيد الصدر قدس سره في جملة أُخرى وتبقى هذه الجملة بدون تتمّة.

رسول الله شخصٌ من الصحابة غيرُ الإمام علي عليه السلام. هذه الجملة البسيطة هي التي تشكِّل كلَّ هذا البلاء العظيم بكلِّ مضاعفاته ونتائجه التي سوف نتحدّث عنها.

ليست هذه الجملة البسيطة معبّرةً فقط عن ظلمٍ وغبنٍ شخصيٍّ للإمام عليه السلام واستيلاءٍ على حقٍّ خاصٍّ من حقوقه، ليس [الأمر] هكذا؛ لو كان الأمر مجرَّدَ مظلوميّةٍ لعلي بن أبي طالب عليه السلام لوقف الأمر على مستوى العقيدة الدينيّة ولم يسرِ إلى الحياة الإسلاميّة بكلّ مجالاتها الخارجيّة.

لم تكن المسألة مسألة عقيدةٍ فحسب، أو مسألة نزاعٍ بين شخصين في حقٍّ مشروعٍ يدّعيه المدّعي وينكره المنكر، لم يكن هكذاً، وإنّما كان تغييرُ شخص هذاً الحاكم تعريضاً للتجربة الإسلاميّة للفشل المحقَّق فعلاً، ثمّ لخطر الانهيار الكامل في المستقبل.

ماهيّة الرسالة الإسلاميّة:

ولكي يتّضح هذا المعنى أيضاً تمامَ الاتّضاح، لا بدّ وأن نعرف ما هي الرسالة الإسلاميّة؟ هذه الرسالة التي [هي] بحيث إنّ مجرّد تغيير شخص الحاكم فيها، [و]مجرّدَ استيلاء أبي بكر على الحكم بدلاً عن الشخص المعيّن من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالنصّ يُزعزِعُ كيان هذه الرسالة، ثمّ يمحقها محقاً كاملاً لولا جهودُ الأئمّة عليهم السلام.

كيف إنّ مجرّد تغيير اسم الحاكم وشخص الحاكم يوجب هذا العمق في الخطر، وهذا المحق في نهاية الشوط!

ما هي الرسالة الإسلاميّة؟ حتّى نعرف على ضوء ذلك كيف يكون هذا الخطر عميقاً؟ ثمّ نفهم بعد هذا ما هي التحصينات ضدَّ هذا الخطر العميق؟

هناك منذ البدء نظرتان أساسيّتان للكون، ولموقف الإنسان في الكون:

١ ـ النظرة الأُولى: النظرة إلى الكون بوصفه مملكةَ مليكٍ مقتدر:

إحدى النظرتين الأساسيّتين للإنسان نحو الكون وموقفه من الكون: أنّه يرى أنّ الكون مملكةٌ لمليكٍ قديرٍ مراقبٍ من وراء الستار، مراقبٍ مراقبةً غيرَ منظورة. هذه هي النظرة الأُولى التي يتحدّد بها موقفُ الإنسان من الكون وطبيعة هذا الكون.

أ ـ استبطان النظرةُ الأُولى شعورَ الإنسان بكونه خليفة[(١)]:

وهذه النظرة ـ النظرة إلى الكون بأنّه مملكةٌ كبيرةٌ لمليكٍ قديرٍ مراقبٍ من وراء الستار ـ تستبطن حتماً الشعورَ بأنّ وجود الإنسان في الكون هو وجود الأمين ووجود الخليفة[(٢)]، لا وجود الأصيل ووجود المتحكّم؛ لأنّ هذه مملكةُ غيره بكلّ ما فيها من وجود وبما فيها نفسُ الإنسان، هي مملكة ذلك المليك القدير المراقب من وراء الستار.

ولهذا يشعر بأنّه يقوم بأعباء الأمانة والخلافة، هذه الخلافة التي قام بها آدم، وقامت بها بعد ذلك الأجيالُ الصالحةُ من بني آدم، هذه الخلافة والأمانة تُستبطن في هذه النظرة.

ب ـ استبطان النظرة الأُولى تصرّف الخليفة وفق رغبات المستخلِف:

حينما يشعر بأنّه أمينٌ وأنّه خليفة، هذا أيضاً يستبطن معنىً آخر، وهذا المعنى الآخر هو معنى ضرورة استيحاء الأمر والتدبير والتقرير والتقديم من قبل ذلك المليك القدير؛ لأنّه هو خليفة وأمين، والأمين لا بدّ له أن يطبّقَ على الأمانة التي استؤمن إيّاها قراراتِ المالك، فلا بدّ إذاً للإنسان أن يكون رهنَ

---

(١) تعرّض الشهيد الصدر رحمه الله لما تستبطنه النظرة الأُولى في: الإسلام يقود الحياة: ١٢٧، خطّ الخلافة وركائزه العامّة، فراجع.

(٢) الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

أمر ذلك المليك القدير.

وهذا هو معنى الإقرار بالعبوديّة، والإقرار بضرورة بناء الحياة الإنسانيّة في الأرض، والتفاعل مع الكون في كلّ مجالات الإنسان والكون وفقاً للقرارات الإلهيّة المعطاة من قبل ذلك المليك القدير.

ج ـ استبطان النظرة الاُولى التصرّف بمسؤوليّة وترقّب يوم الحساب:

ثمّ إنّ الجزء الآخر من هذه النظرة الأساسيّة [هو]: المليك القدير المراقب من وراء ستار. ما معنى المراقب من وراء ستار؟ يعني أنّه يراقب ويحاسب ويدقّق. ولكنّ هذا المليك له طريقة خاصّة في المراقبة والتدقيق؛ فإنّه يراقب من وراء ستار، لا يتجلّى للناس في مملكته جهاراً فكلٌّ من عصاه يضربه آناً ويُنزل به العقوبات، بل يختفي عن مملكته بحسب المنطق الحسّي لأهل هذه المملكة، ويراقب أهل هذه المملكة.

هذا المليك القدير، فكرة أنّه يراقب من وراء ستار تستبطن المسؤوليّة، والمسؤوليّة تستبطن الحساب والعقاب، والحساب والعقاب يستبطن وجود عالمٍ آخر وراء هذا العالم. وراء هذه الدنيا يوجد هناك عالمٌ آخر لتحقيق نتائج هذه المراقبة المستورة ـ غير المنظورة وغير السافرة ـ والعادلة من قِبل ذلك المليك القدير.

د ـ استبطان النظرة الاُولى عيش الأهداف الكبيرة:

إذا جاءت فكرة عالمٍ آخر للجزاء وللحساب والثواب والعقاب تجيء فكرة الأهداف الكبيرة.

حينئذٍ، الإنسان لا يكون قيدَ عمره في الدنيا، ولا يكون قيدَ هذا الشوط القصير في الدنيا، بل يكون رهنَ خطٍّ طويلٍ طويلٍ يمتدّ مع ذلك العالم غير المنظور.

وحينئذٍ يكون الإنسان على مستوى الأهداف الكبيرة، الأهداف التي هو لا يستطيع أن يمتصّها، لا يستطيع أن يستنزفها، لا يستطيع أن يستفيد منها. أعظم الأهداف وأجلّ الأهداف وأسمى الأهداف هي تلك الأهداف التي تكون أوسع من عمر إنسانٍ واحد، أوسع من عمر موجود من الموجودات، هذه الأهداف كيف يمكن أن تُحمَل الإنسانيّة عليها، وتحمل الإنسانيّة على تحقيقها إذا كانت الإنسانيّة لا ترى إلّا مرمى نظرها، إلّا هذا الشوط القصير؟!

إذاً، هذا الهدف ليس هدفها؛ لأنّها هي لا تستنزف عصارة هذا الهدف، ولا تشرب نخب هذا الهدف، فتكون هذه الأهداف معطّلة، وتبقى الإنسانيّة رهن الأهداف القصيرة، رهن الغايات الماديّة المحدودة. وهذه الغايات الماديّة المحدودة هي منطلق ألوانٍ كثيرةٍ[1] من الصراع والكفاح والعراك ما بين الأُسرة البشريّة، بين فردٍ وفرد، بين مجتمعٍ ومجتمع، بين قوميّةٍ وقوميّة، بين أُمّةٍ وأُمّة.

وأمّا إذا أصبحت البشريّة على مستوى الأهداف الكبيرة؛ لأنّها انطلقت في غاياتها وفي ثوابها وعقابها إلى أكثر من حدود هذه الدنيا، حينئذٍ تستطيع أن تنهض لأجل تلك الأهداف الكبيرة.

من خرج من بيته مهاجراً في سبيل الله فمات وقع أجره على الله[2]. هذا الهدف الكبير هو لم يستطع أن يحقّقه، هو خرج من بيته، هو خطا خطوةً في تحقيق هذا الهدف الكبير. كم من آلاف الناس درسوا وماتوا قبل أن يحقّقوا النتيجة! كم من آلاف المجاهدين خرجوا للحرب واستشهدوا قبل أن يذوقوا لذّة الانتصار! كم من أجيال المجدّدين والمصلحين طاقوا[3] وتحمّلوا في سبيل

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «كبيرة».

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ النساء: ١٠٠.

(٣) كذا في المحاضرة الصوتيّة، فإمّا أن يكون ﷺ قد اشتقّها من الطاقة، ومراده: «بذل الطاقة»، وإمّا أن

صيحاتهم ما تحمّلوا من أذىً وظلمٍ وإهانةٍ وماتوا قبل أن يذوقوا لذّة الانتصار!

إلّا أنّ هؤلاء، حيث إنّهم خرجوا من بيتهم مهاجرين في سبيل الله وماتوا في وسط الطريق، وقع أجرهم على الله.

بالأجر الإلهي انفتح أمام هؤلاء طريق هذه الأهداف الكبيرة، فلا يهمّ هذا الإنسان قصير العمر أن يموت خلال الخطوة الأُولى، أو خلال الخطوة الثانية، ما دام يسير في خطٍّ، في أيّ مرحلةٍ منه يموت يقع أجره على الله تعالى.

هـ ـ استبطان النظرة الأُولى فتح باب القيم الخُلُقيّة:

هنا انفتح طريق هذه الأهداف الكبيرة. لمّا انفتح طريق هذه الأهداف الكبيرة انفتح باب القيم الخلقيّة، هذه القيم الخلقيّة لا معنى لها ما لم تكن على مستوى الأهداف الكبيرة والجزاء الكبير غير المنظور. القيم الخلقيّة، من التضحية والفداء والحبّ والإيثار ونحو ذلك من الأُمور... كلّ هذه القيم الخلقيّة انفتح بابها؛ لأنّها جميعا طرقٌ إلى الله.

كلٌّ من يمشي في طريقٍ من هذه الطرق ويموت ويخسر ويُبتلى بصدمة تجاهها يقع أجره على الله. كلٌّ من يضحّي فلا يلاقي جزاء تضحيته يقع أجره على الله تعالى. كلٌّ من يقوم بخدمةٍ لآخر ثمّ لا يلاقي جزاءً من الآخر يقع أجره على الله تعالى؛ لأنّه يدخل في ملاك (من خرج من بيته مهاجراً في سبيل الله فمات وقع أجره على الله تعالى).

حينئذٍ، هذه النظرة الأساسيّة ـ إذاً ـ تشعّبت منها كلُّ هذه الشُعَب وكلُّ هذه الفروع التي بكاملها ـ بكامل أُخطبوطها ـ تشكّل الحضارةَ الإسلاميّة؛ فالحضارة الإسلاميّة عبارة عن هذه النظرة الأساسيّة بكلّ شعبها وفروعها

يكون قد قال: «ذاقوا». وفي (ف) و(غ): «طافوا»، من الطواف، والمراد: التجوال.

التي ترجع بالنهاية إلى تجسيدٍ كاملٍ للعلاقة مع الله في تفاعل الإنسان مع كلّ مجالاته الحيويّة والكونيّة.

هذه نظرة من النظرات.

٢ ـ النظرة الثانية: النظرة إلى الكون بوصف الإنسان أصيلاً فيه:

في مقابلها نظرة أُخرى، وهي النظرة غير الإسلاميّة.

هذه النظرة غير الإسلاميّة الإنسان ينظر [فيها] إلى الكون بأنّه أصيل في هذا الكون، وحينما ينظر إلى نفسه [على] أنّه أصيلٌ في هذا الكون، وأنّ هذا الكون مستقلٌّ وغير خاضع لمليكٍ وراء الستار، ولمراقبةٍ من وراء الستار، حينما يتركّز في نظره الأصالةٌ لنفسه، والاستقلال لهذا الكون، حينئذٍ تنعدم المسؤوليّة. وإذا انعدمت المسؤوليّة في المقام، بقي أن يتحمّل هو المسؤولية بنفسه؛ يعني بدلاً عن أن يشعر بأنّه مسؤولٌ ومراقَبٌ أمام جهةٍ عليا تضع أمامَهُ الأهداف الكبيرة في سبيل الثواب الكبير والعقاب الكبير، يضع هو المسؤوليّة.

وحينما يتحمّل هو وضع المسؤوليّة، تكون هذه المسؤوليّة نتاجَ نفسه، فينعكس في ما يضعه تمامُ ما في نفسه، تمامُ المحتوى الداخلي والروحي والفكري له بكلّ ما فيه من نقصٍ وشهوةٍ وخطأ.

وحينئذٍ، حينما يريد الإنسان أن يحدّد لنفسه مسؤوليّاته، سوف يحدّدها على ضوء أهدافه، وحينما يريد أن يحدّد أهدافه، سوف يحدّدها على ضوء طريقه، وعلى ضوء مدى طريقه. وحيث إنّ طريقه محدود، وحيث إنّ طريقه منكمش في نطاق المادّة، فسوف تكون الأهداف على مستوى الطريق. وحينما تكون الأهداف على مستوى الطريق، سوف تكون المسؤوليّات أيضاً في نطاق هذه الأهداف، وبعد هذا سوف تُخسر [الـ]قيمُ الخُلُقيّة [1]، وبعد هذا سوف يتولّد

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «قيمُ الخُلُقيّةِ»، ولعلّ المراد ما أثبتناه بقرينة ما تقدّم منه قدس سره.

عن ذلك ألوانٌ من الصراع والنزاع بين البشريّة جماعاتٍ ووحداناً.

هذه [هي] النظرة الثانية في مقابل [تلك] النظرة.

الإسلام يهيمن على الإنسان ويربّيه على النظرة الأُولى:

الإسلام هو جاء لأجل أن يربّي الإنسان على النظرة الأُولى، لا لأجل أن يكون مجرّد عالِم يجيء بنظريّة فيكتبها في كتاب، ليس حاله حال العلماء الذين يجيئون بالنظريّات فيكتبونها في كتاب، أو يلقونها في مجلس درسٍ أو بحث.

لم يكن الإسلام عالِماً، بل كان الإسلام مربّياً، جاء الإسلام ليربّي الإنسان على هذه النظرة، بحيث تصبح هذه النظرة جزءاً من وجوده، وتسري مع دمه وعروقه، ومع فكره وعواطفه، وتنعكس على كلّ مجالات تصرّفه وسلوكه مع الله ومع نفسه ومع الآخرين.

حيث إنّ الإسلام جاء مربّياً له، وجاء لأجل أن يُجسّد هذه النظرة فيه، فلا بدّ للإسلام إذاً ـ حينما جاء لهذا الغرض ـ أن يهيمن على هذا الإنسان، ويهيمن على كلّ علاقاته؛ ليستطيع أن يربّيه.

المربّي لا يستطيع أن يربّي شخصاً ما لم يهيمن عليه، إذا لم يهيمن عليه يكون مجرّد تلميذ وأُستاذ: الأُستاذ يلقي النظريّة العلميّة للتلميذ، فإن شاء التلميذ قَبِل وإن شاء رفض، وهذا باب التلمذة والبحث.

أمّا باب التربية، فهو باب الهيمنة: الأب يستطيع أن يربّي ابنه أحياناً فيما إذا هيمن عليه.

إذاً فالهيمنة هي الشرط الأساس للتربية، والهيمنة كلّما كانت أوسع نطاقاً وأوسع مجالاً كانت أكثر إنجاحاً لعمليّة التربية:

الأب يستطيع أن يربّي ابنه، ولكنّه قد لا يستطيع أن ينجح؛ لأنّ وجود

ابنه ليس كلّه تحت هيمنته، وليس كلّه تحت سيطرته؛ لأنّ هذا الابن هو ابنه، وهو أيضاً ابن هذا المجتمع، ابن مجتمع كبيرٍ يتفاعل معه ويتأثّر به ويؤثّر فيه، ويتبادل معه العواطف والمشاعر والأفكار والانفعالات، ويقيم معه العلاقات في الحقول الأخلاقيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، وغير ذلك من مجالات حياته.

فهو ليس ابنه وحده، بل هو ابنه وابن المجتمع، وبنوّة الولد لهذا المجتمع[1] أكبر بكثيرٍ من بنوّته لهذا الأب الذي ولد منه، ولهذا قد يعجز كثيرٌ من الآباء عن تربية أبنائهم في مجتمع فاسد.

كم سمعتم من أبٍ يتذمّر لأنّه لا يستطيع أن يربّي ابنه في آخر الزمان ومع هذا الفساد مثلاً؟! هذا كلّه لأنّه يوجد هناك أبٌ آخر أكبر منه لهذا الابن، وهو المجتمع.

إذاً، فالتربية الكاملة لا يمكن أن تكون لهذا الفرد إلّا إذا هيمن المربّي عليه، وعلى علاقاته الاجتماعيّة، وعلى روابطه مع غيره أيضاً؛ ليصبح تمامُ هذا الموجود تحت سيطرة هذا المربّي، [لتصبح] تمامُ نشاطاته وتصرّفاته تحت سيطرة هذا المربّي، شخص واحد يكون هو الأب ويكون هو المجتمع، حينئذٍ يصبح هذا مربّياً كاملاً مطلقاً بالنسبة إلى هذا الابن.

الهيمنة على العلاقات الاجتماعيّة من خلال تزعّم المجتمع:

كيف يمكن الهيمنة على هذه العلاقات الاجتماعيّة؟

هذا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فإنّه هيمن على العلاقات الاجتماعيّة؛ لأنّه تزعّم بنفسه المجتمعَ، لأنّه أنشأ مجتمعاً وقاده بنفسه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وآله يخطّط لهذا المجتمع، ويرسم لهذا المجتمع، ويبني كلَّ العلاقات في داخل

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة وفي (ف) و(غ): «بنوّة المجتمع لهذا الولد»، والصحيح ما أثبتناه.

هذا الإطار الاجتماعي: علاقة الإنسان مع نفسه، علاقته مع ربّه، علاقته مع عائلته، علاقته مع بقيّة أبناء مجتمعه، علاقاته في مختلف المجالات ومختلف الحقول الاجتماعيّة والشخصيّة، كان هو الذي يخطّط.

إذاً، فكلُّ هذه الأُمور صارت تحت هيمنته، [و]لمّا صارت تحت هيمنته استُكمل هنا الشرط الأساسي في التربية الناجحة.

ولا شكّ ولا ريب [في] أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لو كان قد امتدّ به العمر، أو كانت التجربة الإسلاميّة قد امتدّت بعده على أيدي خلفائه الميامين المعصومين من أهل بيته، من أمير المؤمنين عليه السلام وأولاده، إذاً لأمكن لهذه التربية أن تؤتي ثماراً عجيبةً جدّاً، هذه الثمار نقرؤها الآن بعنوان المعجزات والكرامات عن أحوال الناس بعد ظهور صاحب الأمر (سلام الله عليه). تلك المعجزات والكرامات ليست معجزاتٍ ولا كرامات، وإنّما هي نتيجة تربية.

أَيمكن أن يبلغ المجتمع البشري إلى مستوىً من التعاون والتعاضد، إلى مستوىً من التوحّد والترفّع، بحيث إنّه يستغني عن النقد؟! يستغني حتّى عن الدرهم والدينار! عن التعبير المادّي القاسي جدّاً في حياة الإنسان! عن أقسى تعبير مادّي في حياة الإنسان![1]

الروايات تقول: إنّ هذا سوف يقع في حياة صاحب الزمان (سلام الله عليه)، [و]هذا الذي[2] كان سوف يقع هو نتيجة هذه التربية المخطّطة على يد رسول الله صلى الله عليه وآله ويد الخلفاء المعصومين من أهل بيته.

---

(١) راجع حول الاستغناء عن الدراهم: بحار الأنوار ٥٢: ٣٩٠، الحديث ٢١٢، وفي حديث: «يكون في آخر الزمان خليفةٌ يقسم المال ولا يعدّه» المسند (ابن حنبل) ٣: ٣٨؛ الجامع الصحيح (مسلم) ٤: ٢٢٣٥. وراجع حول إخراج الأرض بركاتها: الجامع (الأزدي) ١١: ٣٧١؛ كتاب الفتن (ابن حمّاد) ١: ٣٤١؛ وحول حلول الأمن «حتّى إنّ المرأة لتحجّ في خمس نسوة وما معهنّ رجل، لا تتّقي شيئاً إلّا الله»: كتاب الفتن (ابن حمّاد) ١: ٣٥٦.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة إضافة: «كان».

انحراف التجربة الإسلاميّة بتهدّم أحد أركانها:

إذاً، التجربة الإسلاميّة كانت تشتمل على عناصر ثلاثة، التجربة الإسلاميّة ـ باعتبار أنّها عمليّة تربية ـ كان لا بدّ فيها من عناصر ثلاثة:

أ ـ من قائد، هذا الذي نسمّيه: المربّي.

ب ـ ومن تنظيمٍ يُستمدُّ من قبل الشريعة الإسلاميّة.

ج ـ ومن حقلٍ لهذا التنظيم، وهو الأُمّة أو المجتمع.

هذه هي العناصر الثلاثة المزدوجة(١) في هذه التجربة.

إذاً، الانحراف كيف بدأ؟

الانحراف هنا بدأ بتغيير أحد هذه العناصر الثلاثة الرئيسيّة في هذه التجربة. هذه التجربة الإسلاميّة ـ التي هي عمليّة التربية التي كان من الممكن أن تُنشئ بشراً غير البشر، وإنساناً غير الإنسان الذي ترونه الآن على وجه الأرض ـ هذه العمليّة عمليّة مزدوجة من ثلاثة عناصر: واحدٌ من هذه العناصر تهدّم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعني ثلث العمليّة تهدّم، ثلث التجربة الإسلاميّة تهدّم، ثلث البناء الذي لأجله جاء مئة وأربع وعشرون ألف رسالة من السماء، جزءٌ واحدٌ من ثلاثة أجزاء من هذه التجربة تهدّم بذلك.

وكان تهدُّمُ هذا الجزء الواحد كفيلاً ـ بطبيعة الحال ـ لأنْ يهدم الجزءين الآخرين؛ لأنّ هذه التجربة متفاعلة في عناصرها، بعد أن ينهدم هذا الجزء ينهدم الجزءان الآخران حتماً.

أنا لا أدري: هل المسلمون وقتئذٍ كانوا يتصوّرون عمق هذا الانحراف بعد هذا؟! أكبر الظنّ أنّهم لم يكونوا يتصوّرون.

---

(١) المراد: المؤلّفة أو المكوّنة، وإلّا فالمزدوج ما كان مثنى، فلاحظ: الصحاح ١: ٢٧٥؛ لسان العرب ٢: ١٢٤؛ تاج العروس من جواهر القاموس ٣: ١٧٨.

في بداية الأمر كانوا يتصوّرون أنّ المسألة مسألة انحراف في حكمٍ من أحكام الله لا أكثر؛ الله تعالى قال: «اجعلوا عليّاً»، وهم جعلوا أبا بكر. أمّا في باقي الجهات، [فقد] بقي الوضع على حاله، بقيت الصلاة على حالها، بقيت الزكاة تُجبى، بقي الفقراء يُعطَون من الزكاة، بقي كتاب الله يُقرأ في المساجد، بقيت الجماعات تُقام ظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً، بقي بيت الله الحرام يُحجّ إليه بعشرات الألوف، بقيت الجيوش، بقي المرابطون للجهاد يفتحون بلاد الله بلداً بعد بلد.

إذاً، لم يتغيّر شيءٌ إلّا أنّ شخصاً كان اسمه عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ـ هو أفضل وأكمل وأعدل وأورع من أبي بكر ـ اُقصي في المقام؛ لغلبة الهوى، ولغلبة الشهوة، ولاُمور اُخرى سوف نذكرها في حياة أمير المؤمنين عليه السلام[1]، وهذا الشخص اُقصي وجعل مكانه أبو بكر، لا أكثر من هذا المقدار.

لكنّ الأمر لم يكن هكذا، هذا كان نذيرَ الشؤم والويل والدمار بالنسبة إلى التجربة الإسلاميّة كلّها لمّا بُدِّل شخص الحاكم وجُعل حاكمٌ آخر. هذا الحاكم الآخر لم يكن مصمَّماً من قِبل واضع التجربة، هذا الحاكم ليس مصمَّماً من قبل واضع التجربة.

ومعنى أنّه ليس مصمَّماً من قبل واضع التجربة[2]: أنّ هذا الإنسان ـ على أقلّ تقديرٍ، حتّى لو أخذنا بمفهوم [أهل] السنّة عن أبي بكر، لا بمفهومنا عن أبي بكر، لو أخذنا بمفهوم أخلص المخلصين لأبي بكر، لا بمفهوم أهل البيت عن أبي بكر، لو أخذنا بمفهوم أعداء أهل البيت عن أبي بكر، لا بمفهوم شيعة أهل البيت عن أبي بكر ـ إنسانٌ تحتشد في نفسه أفكارٌ كثيرةٌ خاطئة، وتحتشد في نفسه شهواتٌ كثيرةٌ تعرّضه للانحراف، هذا على أقلّ تقديرٍ. يعني:

(١) سيأتي الحديث عن موانع تزعّم الإمام علي عليه السلام في المحاضرة السابعة إن شاء الله تعالى.

(٢) هنا قال الشهيد الصدر رحمه الله: «تبقّى عشرُ دقائق فقط، ثمّ نؤجّل الباقي إلى اليوم الآتي».

لم يكن إنساناً معصوماً من الناحية الفكريّة، ولم يكن معصوماً أيضاً من الناحية العمليّة، لا قصوراً، ولا تقصيراً.

هذا الإنسان جاء ليتسلّم زمام هذه التجربة الإسلاميّة في بداية أمرها بدلاً عن ذلك الإنسان المعصوم.

حكم غير المعصوم يعني حكم مكوّنات شخصيّته غير الإسلاميّة:

حينئذٍ: من هو الحاكم الآن؟

الحاكم الآن هو أبو بكر. لكن سوف نبدّل شخصَ أبي بكر بشيء آخر، برقم آخر؛ لأنّ أبا بكر ما هو معناه؟ أبو بكر معناه هذه المجموعة الكثيرة من الأفكار والعواطف والمشاعر والانفعالات، هذا هو أبو بكر. أبو بكر الحاكم هو عبارة عن هذه الكومة من الانفعالات والعواطف والمشاعر والأفكار. إذاً، فالحاكم هو هذه الكومة من الأفكار والعواطف والمشاعر والانفعالات.

افرضوا أنّ هذه الحفنة، افرضوا أنّه صَدَقَ [أهل] السنّة، وأنّ هذه الحفنة فيها خمسون بالمئة من الإسلام، [أنّ] خمسين[1] بالمئة من هذه الكومة من الأفكار والعواطف كانت إسلاميّة، لكنْ فيها خمسون بالمئة ليس إسلاميّاً.

إذاً، فقد أصبح الحكم مزدوج الشخصيّة، أصبح الحاكم في المقام عبارةً عن خمسين بالمئة من الأفكار والعواطف الإسلاميّة ـ من وجهة رأي [أهل] السنّة ـ وخمسين بالمئة من العواطف والأفكار غير الإسلاميّة والجاهليّة في المقام.

فبطبيعة الحال: إنّ هذا النصف الثاني على أقلّ تقدير ـ إن لم نقل بأنّ كلا النصفين حاله هكذا، وأخذنا بنظريّة من يقول بأنّ القصّة قصّة مناصفة ـ لا أقلّ من أن [يَجعلَ] هذا الشخص عرضةً للانحراف، فمن هو الضامن لعدم هذا

(١) قمنا بنصب «خمسون»؛ لإضافتنا «أنّ».

الانحراف؟ هل الضامن هو الأُمّة؟

الأُمّة بوصفها المجموعي ليست معصومة ولا يُمكن أن تكون الضمان:

الأُمّة لم تكن في مستوى العصمة وقتئذٍ؛ كما أنّ أبا بكر ـ بوصفه الفردي ـ لم يكن معصوماً، كذلك الأُمّة بوصفها المجموعي لم تكن معصومة.

من الممكن أنّ الأُمّة تبلغ [درجة] العصمة خلال تربيةٍ طويلة الأمد. لو أنّ رسول الله والأئمّة الاثني عشر قد توالَوا على أُمّةٍ واحدةٍ ومارسوا عمليّة التربية، كان من الجائز أن تبلغ الأُمّة بوصفها المجموعي مستوى العصمة وتصبح معصومة، بحيث لا تحتاج بعد هذا إلى قائدٍ معصوم، بل هي تحكم نفسها بنفسها؛ لأنّها بوصفها المجموعي تكون معصومة.

هذا أمرٌ جائزٌ عقلاً، ولكنّه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرةً: الأُمّة ـ بوصفها المجموعي ـ لم تكن على مستوى العصمة، والدليل على هذا يأتي إن شاء الله في الأيّام الآتية، يعني في الملحقات الآتية(١).

انعكاس انحراف الحكم على مصادر الإسلام الأُولى:

فإذا لم تكن الأُمّة في مستوى العصمة، ولم يكن أبو بكر على مستوى العصمة، إذاً فسوف ينفتح من هذا ـ يعني من معرَّضيّة هذا الحاكم للانحراف وللخطأ، بل من حتميّة الانحراف في هذا الحاكم، حسبما نؤمن ونعتقد ـ الخطرُ على الأجزاء الأُخرى من التجربة، على المقوّمات الأساسيّة للرسالة الإسلاميّة، سوف ينفتح منه خطرٌ على مصادر الإسلام الأُولى، على الكتاب والسنّة.

أنتم تعلمون أنّ الكتاب مات عنه رسول الله صلى الله عليه وآله والكتابُ بعدُ لم يُجمع في مصحف واحد، في كتاب واحد.

(١) لمزيد من الاطّلاع، راجع: المحاضرتين الخامسة والسابعة.

نعم، كان مكتوباً، ولكنّه لم يكن مطبوعاً ومتداولاً على النحو الذي [هو] عليه الآن. لم يكن هذا الكتاب بين أيدي المسلمين بوصفه كتاباً وبوصفه قرآناً محدَّداً من أَلِفه إلى يائِه[١].

وأنتم تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات والسنّة لم تكن مكتوبةً أصلاً، لا بشكلٍ موزّع كالقرآن، ولا بشكلٍ غير موزّع، وإنّما كانت محفوظةً في صدور المسلمين وقتئذٍ، والسنّة هي المصدر الثاني للإسلام.

انحراف الحاكم وانعكاسُ تميّعه على الأُمّة:

ماذا يُتَرقَّب في شخص الحاكم المنحرف ـ في المقام ـ أن يقف من هذين المصدرين، وأن يعمل في مقام حماية هذين المصدرين؟

لو لم يكن هناك تحصينٌ من خارج، من قادة أهل البيت عليهم السلام ـ بالنحو الذي سوف نشرحه إن شاء الله[٢] ـ، كان من الطبيعي أن يُترقّب وأن يُخمَّن أنّ الكتاب وأنّ السنّة ـ ولا أقلّ من السنّة ـ أنّها سوف تكون في عرضة الضياع والانحراف والتزوير على أساس انحراف هذا الحاكم.

فالمقوّمات الأساسيّة للإسلام سوف تُصَوَّر[٣] وسوف تُزَوَّر، النظريّة الإسلاميّة للحياة سوف تشوّه. الإسلام له نظريّة للحياة، هذه النظريّة للحياة سوف تشوّه، وسوف تصوّر بشكلٍ آخر، بشكلٍ جاهليٍّ لا يختلف عن النظريّة الجاهليّة للحياة، لماذا؟

لأنّ المصادر الأُولى للإسلام فرضنا أنّها عرضةٌ للتحريف وللإقصاء عن مجالات الذهنيّة الإسلاميّة.

---

(١) يشير الشهيد الصدر رحمه الله إلى ذلك في: المدرسة القرآنيّة (علوم القرآن): ٢١٣، تحت عنوان: تاريخ علوم القرآن. تجدر الإشارة إلى أنّ بحث «جمع القرآن وتاريخه» (٢٧٥ ـ ٢٧٦) ليس له رحمه الله.

(٢) هذا ما سيتكرّر في أغلب موضوعات هذا الكتاب.

(٣) أي: «بشكل آخر»، كما يأتي منه رحمه الله قريباً.

وحتّى لو لم تكن عرضة، فالنصوص ـ وهي موجودة في أُمّهات الكتب، وموجودة في الورق، وموجودة في حبرٍ على ورق ـ لا تعطي النظريّة الحقيقيّة للناس. الناس حسّيون أكثر منهم منطقيّون، الناس يعيشون ما يَرَون، ولا يعيشون ما يقرؤون حبراً على ورق، إذاً فماذا يعيشون؟

يعيشون ويَرَون النظريّة التي يمارسها أبو بكر، ويمارسها الخلفاءُ الذين توالَوا من بعده[1]، يمارسها هذا الخطُّ المنحني من الانحراف[2]، الذي اشتدَّ انحناؤه بالتدريج حتّى بلغ هاويةً من الانحراف.

إذاً، فسوف يعيشون هذا الواقعَ كمجسِّد للنظريّة الإسلاميّة للحياة، وسوف لن يبقى هناك أُطروحة أُخرى للنظريّة الإسلاميّة للحياة.

وبذلك يفقد الإسلام أُطروحته على المستوى النظري وعلى المستوى النضالي بعد أن فقده على المستوى الواقعي والمستوى الاجتماعي الخارجي، بعد هذا ماذا سوف يكون؟

انعكاس الانحرافات السابقة على مصير الأُمّة نفسها:

بعد هذا سوف تزول الأُمّة نفسها؛ لأنّ هذه الأُمّة سوف ينعكس فيها بعد إقصاء مصادر الرسالة عنها، وبعد تشويه معالم النظريّة الإسلاميّة للحياة في وجهها، وبعد تعمّق الحاكم في انحرافه..[3]

معنى انحراف الحاكم أنّه سوف يتميّع في حفظ مصالح الأُمّة، وسوف يتجبّر في حاكميّته.

---

(١) يقصد رحمه الله: من غير أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

(٢) الانحناء والوصول إلى الهاوية محمولان على التجربة الإسلاميّة التي تتعرّض للانحراف، لا على خطّ الانحراف نفسه، الذي ازداد حتّى بلغ القمّة.

(٣) يدخل الشهيد الصدر رحمه الله في الحديث عن انحراف الحاكم وانعكاس تميّعه على الأُمّة، ولا يُتمُّ هذه الجملة.

أ ـ ردّ الفعل لتميّعه في حفظ مصالح الأُمّة ما هو؟ كيف ينعكس هذا التميّع على الأُمّة؟

ينعكس هذا التميّع على الأُمّة في الظلم والفساد والتناحر والصراع في ما بين أفراد الأُمّة؛ لأنّ الوالي لا يحفظ مصالحها الحقيقيّة.

ب ـ وتَجَبُّرُ [الحاكم في حاكميّته][1] كيف ينعكس على الأُمّة؟

سوف ينعكس على الأُمّة في الضياع، والذلّ، وفقدان الإرادة، وفقدان الشعور بالمسؤوليّة، الذهول و[الشرود][2].

إذاً، سوف تصبح الأُمّة بعد شوطٍ طويلٍ من الزمان أُمّةً ملؤها الفساد، وملؤها انعدام الإرادة.

حتميّة سقوط التجربة المنحرفة ولو كانت إسلاميّة:

وهذه التجربة الإسلاميّة المنحرفة سوف تسقط حتماً في يومٍ من الأيّام؛ لأنّها منحرفة، والتجربة المنحرفة حتّى ولو كانت إسلاميّة يجب أن تسقط في يومٍ ما.

إذاً، هذه التجربة سوف تسقط في يومٍ ما كما سقطت في التاريخ في يومٍ ما، سوف تسقط وسوف تجيء تجربة أُخرى كافرة صريحة مكانها. وحينما تجيء تلك التجربة الكافرة الصريحة مكانها سوف تواجه أُمّةً متميّعةً لا يوجد لديها أيُّ مناعةٍ ضدَّ الكفر، وسوف تندمج هذه الأُمّة اندماجاً كاملاً مع التجربة الكافرة الصريحة، وبذلك يضيع الإسلام والرسالة والنظريّة الإسلاميّة للحياة، وتضيع الأُمّة نفسها.

هذه هي الأخطار التي كان من المترقّب أن تنجم عن منطلق الانحراف

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «والتجبّر والحاكميّة في الحاكم»، وما أثبتناه هو على ضوء ما تقدّم.

(٢) ما بين عضادتين مردّدٌ في المحاضرة الصوتيّة بين «الشرود» و«الشرور»، وما أثبتناه مناسبٌ للذهول.

يوم السقيفة.

باقي الحديث يبقى [غداً] إن شاء الله، [غداً] أيضاً سوف نباحث[١]، وبعد البحث أيضاً سوف نتكلَّم، ويوم الأربعاء[٢] سوف نكمل الكلام باعتباره يومَ الوفاة، سوف نخصّص يوم الأربعاء للكلام في هذا المطلب.

* * *

(١) أي: سوف نلقي البحث الدرسي المعتاد.

(٢) الواقع ـ على الأرجح ـ في ٧ / صفر / ١٣٨٩ هـ.

المرحلة الأُولى

مرحلة تفادي صدمة الانحراف

- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
- الإمام الحسن بن علي عليه السلام
- الإمام الحسين بن علي عليه السلام
- الإمام علي بن الحسين عليه السلام

١

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

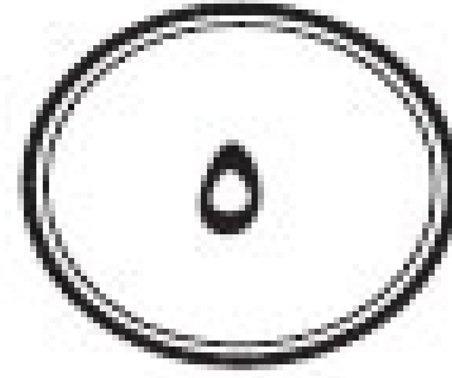
- مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله
- الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم
- كلمة في المهرجان العالمي في كربلاء بمناسبة مولد أمير المؤمنين عليه السلام

١

مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله

- الأُمّة الإسلاميّة.. طاقة حراريّة أم وعيٌ مستنير؟!
- عوامل انحراف التجربة الإسلاميّة
- وضع الأُمّة الإسلاميّة وموانع تزعّم الإمام علي عليه السلام
- الإمام علي عليه السلام بين تصحيح الانحراف وتحصين الأُمّة

١



الأُمّة الإسلاميّة
طاقة حراريّة أم وعيٌ مستنير؟!

عدم أهليّة الأُمّة الإسلاميّة للرقابة:

قلنا[1]: إنّه حينما وجد الانحراف بعد وفاة الرسول الأعظمﷺ لم تكن الأُمّة على مستوى المراقبة.

الأُمّة بوصفها المجموعي لم تكن قادرةً على ضمان عدم وقوع هذا الحاكم ـ المنحرف بطبيعته ـ في سلوكٍ منحرف؛ لأنّ كون الأُمّة على مستوى هذا الضمان إنّما يكون فيما إذا وصلت الأُمّة بوصفها المجموعي إلى درجة العصمة، أي: إذا أصبحت الأُمّة ـ كأُمّةٍ ـ تعيش الإسلام عيشاً كاملاً، عميقاً، مستوعِباً[2]، مستنيراً، منعكساً على مختلف مجالات حياتها.

وهذا ما لم يكن، بالرغم من أنّ الأُمّة الإسلاميّة وقتئذٍ كانت تشكّل أفضل نموذج للأُمّة في تاريخ الإنسان على الإطلاق. يعني: نحن الآن لا نعرف في تاريخ الإنسان أُمّةً بلغت ـ في مناقبها، وفضائلها، وقوّة إرادتها، وشجاعتها، وإيمانها، وصبرها، وجلالتها، وتضحيتها ـ ما بلغته هذه الأُمّة العظيمة حينما خلّفها رسول اللهﷺ.

الذي يقرأ تاريخ هؤلاء الناس ـ هذه الحفنة من الناس التي عاش معها النبيﷺ ـ تبهره أنوارُهم في المجال الروحي والفكري والنفسي، وفي مجال

(١) في المحاضرة الرابعة، عند الحديث عن التقسيم المرحلي لحياة الأئمّة(عليهم السلام)، وعناصر التجربة الإسلاميّة وعوامل انحرافها.

(٢) أي: فاهماً مدرِكاً، وليس بمعنى: شاملاً، وإن كان يصحّ بحسب السياق.

الجهاد والتضحية في سبيل العقيدة.

ولكنّ هذه الأنوار التي تبهر المطالع لم تكن نتيجةَ وعيٍ معمّقٍ تعيشه الاُمّة في أبعادها الفكريّة والنفسيّة، بل [كانت] نتيجةَ طاقةٍ حراريّةٍ هائلةٍ اكتسَبَتْها هذه الاُمّةُ بإشعاع النبي الأعظم صلى الله عليه وآله عليها. هذه الاُمّة التي عاشت مع أكمل قائدٍ للبشريّة اكتسبت عن طريق الإشعاع من هذا القائد درجةً كبيرةً من الطاقة الحراريّة.

هذه الدرجة الكبيرة من الطاقة الحراريّة صنعت المعاجز، وصنعت البطولات، وصنعت التضحيات التي يقلّ نظيرها في تاريخ الإنسان، ولا اُريد أن أذكر الأرقام.

طبعاً، أنتم قرأتم غزواتِ رسول الله صلى الله عليه وآله، وقرأتم روحيّةَ المجاهدين في أيّام رسول الله، وإيثارَ كلٍّ واحدٍ منهم للإسلام وللعقيدة، إيثارَه بكلّ وجوده، وبكلّ طاقاته وإمكاناته. هذه النماذج الرفيعة إنّما هي نتاج هذه الطاقة الحراريّة.

هذه الطاقة الحراريّة هي التي جعلت الاُمّة الإسلاميّة تعيش أيّامَ رسول الله محنةَ العقيدة بكلّ صبر، ثمّ تتحمّل مسؤوليّة هذه العقيدة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وتحمل لواء الإسلام ـ بكلّ شجاعةٍ وبطولةٍ ـ إلى مختلف أرجاء الأرض والعالم.

هذه هي طاقة حراريّة وليست وعياً.

ماهيّة الوعي والطاقة الحراريّة:

ويجب أن نفرّق ونميّز بين الطاقة الحراريّة وبين الوعي:

١ ـ الوعي هو عبارة عن الفهم الفعّال الإيجابي المحرِّك للإسلام في نفس الاُمّة، الذي يستأصل جذور المفاهيم الجاهليّة السابقة استئصالاً كاملاً،

ويحوِّل تمام مرافق الإنسان من مرافق للفكر الجاهلي، للعاطفة الجاهليّة، للذوق الجاهلي، إلى مرافق للفكر الإسلامي والعاطفة الإسلاميّة والذوق الإسلامي. هذا هو الوعي.

٢ ـ وأمّا الحرارة، الطاقة الحراريّة، فهي عبارة عن توهّجٍ عاطفيٍّ حارٍّ مسعور[١]، قد يبلغ في مظاهره نفسَ ما يبلغه الوعيُ في ظواهره، بحيث يختلط الأمر؛ فلا يُميَّزُ بين الأُمّة التي تحمل مثل هذه الطاقة الحراريّة وبين أُمّةٍ تتمتّع بذلك الوعي إلّا بعد التبصّر.

الفرق بين الأُمّة الواعية وبين الأُمّة ذات الطاقة الحراريّة:

إلّا أنّ الفرق ما بين الأُمّة الواعية والأُمّة التي تحمل الطاقة الحراريّة فرقٌ كبير:

١ ـ تناقص الطاقة الحراريّة عند ابتعادها عن مركزها، بخلاف الوعي:

فإنّ الطاقة الحراريّة بطبيعتها تتناقص بالتدريج بالابتعاد عن مركز هذه الطاقة. المركز الذي كان يموّن الأُمّة بهذه الطاقة هو شخص القائد (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وكان من طبيعة الحال أن يكون حالُ الأُمّة بعده في تناقصٍ مستمرّ، حال الشخص الذي يتزوّد من الطاقة الحراريّة للشمس أو النار، ثمّ يبتعد عن الشمس والنار؛ فإنّ هذه الطاقة تتناقص عنده باستمرار.

وهكذا كان: تاريخ الإسلام يثبت أنّ الأُمّة الإسلاميّة كانت في حالة تناقصٍ مستمرٍّ لهذه الطاقة الحراريّة التي خلّفها رسول الله ﷺ في أُمّته حين وفاته، بخلاف الوعي؛ فإنّ الوعي ـ بذلك المعنى المركَّز، الشامل، المستأصِل لجذور ما قبله، والذي يخلُف جميع المفاهيم والأفكار المسبقة ـ من طبيعته

(١) في (ف): «بشعور»، وفي (غ): «شعور»، والمقطع الصوتي هنا مشوّش، ولكنّ الأقرب أن يكون: «مسعور»، أي: مهيّج (المفردات في غريب القرآن: ٤١١).

الثباتُ والاستقرار، بل التعمّق على مرّ الزمن؛ لأنّ هذا الوعي ـ بطبيعته ـ يمتدّ، ويخلق له ـ بالتدريج ـ مجالاتٍ جديدةً وفقاً لخطّ العمل ولخطّ الأحداث.

فالاُمّة الواعية هي اُمّةٌ تسير في طريق التعمّق في وعيها. والاُمّة التي تحمل طاقةً حراريّةً هائلةً هي الاُمّة التي لو بقيت هي وحدها مع هذه الطاقة الحراريّة فسوف تتناقص هذه الطاقة الحراريّة باستمرار.

٢ ـ الوعي لا تهزّه الانفعالات، بخلاف الطاقة الحراريّة:

الفرق الآخر: أنّ الوعي لا تهزّه الانفعالات، الوعي يصمد أمام الانفعالات، وأمّا الطاقة الحراريّة فتهزّها الانفعالات. الانفعال حينئذٍ يفجّر المشاعر الباطنيّة المستترة، يبرز ما وراء الستار، ما وراء سطح النفس؛ لأنّ الطاقة الحراريّة طاقة تبرز على سطح النفس البشريّة. وأمّا الوعي، فهو شيءٌ يثبت في أعماق هذه النفس البشريّة.

ففي حالة الانفعال ـ سواء أكان الانفعال انفعالاً معاكساً، يعني: حزناً وألماً، أو كان انفعالاً موافقاً، أي: فرحاً ولذّةً وانتصاراً، في كلا الحالين ـ سوف يتفجّر ما وراء الستار، ويبرز ما كان كامناً وراء هذه الطاقة الحراريّة في الاُمّة المزوَّدة بهذه الطاقة فقط.

أمّا الاُمّة الواعية، فوعيها يصمد ويتقوّى على مرّ الزمن، وكلّما مرّ بها انفعالٌ جديدٌ أكّدت شخصيّتها الواعية في مقابل هذا الانفعال، وصبغته بما يتطلّبه وعيُها من موقف.

هذا هو الفرق بين الوعي والطاقة الحراريّة.

الاُمّة الإسلاميّة حملت طاقةً حراريّةً ولم تحمل وعياً مستنيراً:

نحن ندّعي أنّ الاُمّة الإسلاميّة العظيمة التي خلّفها القائد الأعظم صلى الله عليه وآله، والتي ضربت أعظم مَثَلٍ للاُمّة في تاريخ الإنسان إلى يومنا هذا، هذه الاُمّة

كانت أُمّةً تحمل طاقةً حراريّةً هائلةً كبيرة، ولم تكن أمّةً تحمل وعياً مستنيراً مستوعِباً مجتثّاً لأُصول الجاهليّة فيها.

والدليل على كلّ هذا واضحٌ من تاريخ الأُمّة نفسها: من يقرأ تاريخ الأُمّة يعرف أنّ الأُمّة كانت أُمّة طاقةٍ حراريّة، ولم تكن أمّة وعيٍ مستنيرٍ تُجْتَثُّ فيه أُصول الجاهليّة. في حالات الانفعال ـ الانفعال الموافق، أو الانفعال المخالف ـ يبدو أنّ هذه الأُمّة لم تكن إلّا أُمّةَ طاقةٍ حراريّةٍ، ولم تكن أُمّة وعي.

١ ـ موقف الأنصار من حرمانهم غنائم حُنين:

أُنظروا إلى غزوة حُنين، غزوة هوازن[١] بعد فتح مكّة، ماذا صنعت هذه الأُمّة العظيمة ذات الطاقة الحراريّة في لحظة الانفعال؟

رسول الله صلى الله عليه وآله خرج بجيشٍ مزيجٍ من الأنصار ومن قريش من أهل مكّة، فانتصر في معركته، وأخذ غنائم كثيرة، وكان من قراره صلى الله عليه وآله توزيع هذه الغنائم جميعاً على من خرج معه من مسلمي مكّة، فوزّعها جميعاً على مسلمي مكّة، ولم يحظَ أحدٌ من الأنصار بشيءٍ منها.

هذه لحظة انفعال، لحظة انفعالٍ نفسيٍّ؛ لأنّ هؤلاء يَرَون أنفسهم أنّهم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة ليفتحوا مكّة، وفتحوا مكّة، وحقّقوا للأُمّة أعظَم انتصاراتها في حياة النبي بفتح مكّة، وبعد هذا يدخل معهم في الدعوة أُناسٌ جُدُد، فهؤلاء الأُناس الجدد يستقلّون بتمام المغانم ويأخذونها على يد النبي.

هذه لحظة انفعال، في هذه اللحظة من لحظات الانفعال لا تكفي الطاقة الحراريّة، هنا نحتاج إلى وعيٍ لتتثبَّت هذه الأُمّة، لتستطيع أن تتغلّب على لحظة الانفعال، فهل كان مثل هذا موجوداً؟

---

(١) حيث جمعت هوازن وغطفان للنبي صلى الله عليه وآله جمعاً كثيراً.

لا، لم يكن موجوداً؛ فإنّ الأنصار أخذ يشيع في ما بينهم هذا الهمس، الهمس القائل بأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لقي أهله وقومه وعشيرته فنسي أصحابه وأنصاره! هؤلاء الذين شاركوه في محنته، هؤلاء الذين ضحّوا في سبيله، هؤلاء الذين قاوموا عشيرته في سبيل دعوته، [نسيهم]، أهملهم، أعرض عنهم؛ لأنّه رأى أحبّاءه، أولاد عمّه، رأى عشيرته.

اُنظروا إلى هذا التفسير! يبدو أنّ الأنصار كان المفهوم القَبَلي متركّزاً في نظرهم، متركّزاً في واقع نفوسهم، إلى درجةٍ يبدو لهم أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله، وهو الرجل الأشرف الأكمل الذي عاشوا معه، وعاشوا مع تمام مراحل حياته الجهاديّة، ولم يَبدُ في كلِّ مراحلهم الجهاديّة أيُّ لونٍ يعطي شعوراً قَبَليّاً أو قوميّاً، بالرغم من هذا، وبالرغم من خلوّ حياته من أيّ إشعارٍ سابقٍ بذلك... في لحظة انفعالٍ قالوا بأنّه وقع تحت تأثير العاطفة القَبَليّة، تحت تأثير العاطفة القوميّة.

هذه العاطفة القَبَليّة أو العاطفة القوميّة، هذا الترابط القَبَلي كيف كان قويّاً في نفوسهم؟! بحيث إنّهم اصطنعوه تفسيراً للموقف في لحظةٍ من لحظات الانفعال!

رسول الله صلى الله عليه وآله سمع بالهمس، اطّلع على أنّ هناك بذورَ ردّةٍ فكريّة في الأنصار. أرسل على كبار الأنصار من الأوس والخزرج، جمعهم عنده، التفت إليهم، قال ـ وأنا أنقل بالمعنى طبعاً، لا باللفظ ـ: ما مقالةٌ تبلغني عن بعضكم في هذا الموضوع؟! أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله نسي أصحابه وأنصاره حينما التقى بقومه؟! فسكت الجميع، واعترف البعض بهذه المقالة.

حينئذٍ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ يعالج الموقف الآني، المشكلة الآنيّة يعالجها أيضاً عن طريق إعطاء مزيدٍ من الطاقة الحراريّة؛ لأنّ هذه المشكلة ذات حدّين: حدّ آنيّ، وحدّ على المدى الطويل:

الحدّ على المدى الطويل يجب أن يعالج عن طريق التوعية على الخطّ الطويل، وهو الشيء الذي كان يمارسه النبي صلى الله عليه وآله.

وأمّا المشكلة بحدّها الآني [فـ]ـيجب أن تعالج أيضاً معالجةً آنيّة، والمعالجة الآنيّة لا تكون إلّا عن طريق إعطاء مزيدٍ من هذه الطاقة الحراريّة لتسيطر على لحظة الانفعال.

ماذا قال لهم؟ كيف ألهب عواطفهم؟

قال لهم: أَلا ترضون أن يذهب أُولئك ـ يرجعون إلى بلادهم ـ بمجموعة من الأموال الزائفة وأنتم ترجعون إلى بلادكم بمحمّد؟! ألا ترون أنّ غنيمتكم أكبر من غنيمتهم؛ لأنّكم ترجعون بالنبي إلى المدينة، وهؤلاء يرجعون بكومةٍ من الأموال لا تنفعهم إلّا برهةً من الزمان؟!

هذه كانت دفعةً حراريّةً كبيرةً جدّاً. تحوّل الموقف في لحظة: هذه الأُمّة التي تعيش اللحظات العاطفيّة هكذا يكون شأنها، تحوّلت هذه الأُمّة، أخذ يبكي هؤلاء الأوس والخزرج، يبكون أمام رسول الله صلى الله عليه وآله، يستغفرون ويعلنون ولاءهم، تضحيتهم، استعدادهم، يقينهم به.

أراد صلى الله عليه وآله أن يعمّق أكثرَ هذا الموقفَ العاطفي؛ فبعد أن سكن بكاؤهم وهدأت عواطفهم قال لهم: ألا تقولون لي في مقابل هذا؟! أخذ يترجم بعض الأحاسيس المستترة في نفوسهم لأجل أن يهيّج عواطفهم تجاهه، ولأجل أن يُشيع في ذلك المجلس جوّاً عاطفيّاً روحيّاً يتغلّب على الموقف، إلى آخر القصّة[١].

---

(١) السيرة النبويّة (ابن هشام) ٢: ٤٩٩؛ الطبقات الكبرى ٢: ١١٧؛ الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٦؛ المسند (ابن حنبل) ٣: ١٨٨؛ الجامع المسند الصحيح المختصر (البخاري) ٤: ٥٩؛ الجامع الصحيح (مسلم) ٣: ١٠٦؛ تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٣: ٩٤؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ١٤٥؛ دلائل النبوّة ٥: ١٧٣؛ تاريخ الإسلام ٢: ٦٠٠؛

هنا: الأُمّة التي تحمل الطاقة الحراريّة تنهار أمام لحظة انفعال.

٢ ـ نظرة المسلمين إلى النبوّة بوصفها سلطاناً:

لحظة انفعالٍ أُخرى أيضاً في تاريخ هذه الأُمّة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. هذه لحظة انفعال، لحظة انفعالٍ كبيرة؛ لأنّ رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله كان يشكّل أزمة نفسيّة هائلة بالنسبة إلى الأُمّة الإسلاميّة التي لم تكن قد تهيّأت بعدُ ذهنيّاً وروحيّاً لأنْ تفقد رسول الله صلى الله عليه وآله.

في هذه اللحظة من الانفعال أيضاً المشاعرُ التي كانت في الأعماق برزت على السطح.

هناك تكلّمنا عن الأنصار، هنا نتكلّم عن المهاجرين: ماذا قال المهاجرون في لحظة الانفعال؟ هؤلاء المهاجرون، هؤلاء الذين هاجروا من بلادهم، تركوا دورَهم، عوائلهم، قومهم في سبيل الإسلام، ماذا قالوا؟ ماذا كان موقفهم؟

كان موقفهم أنّهم قالوا: إنّ السلطان سلطان قريش! إنّ سلطان محمّد سلطان قريش، وسلطان قريش نحن أولى به من بقيّة العرب، أولى به من بقيّة المسلمين[1].

هنا برز الشعور القَبَلي أو الشعور القومي في لحظة انفعال؛ لأنّ هذه اللحظة من الانفعال من طبيعتها أن تشكّل صدمةً بالنسبة إلى الطاقة الحراريّة، يصبح الإنسان في حالةٍ غير طبيعيّة، في هذه الحالة غير الطبيعيّة ـ حيث لا يوجد وعيٌ عاصم ـ ينهار[2] أمام تلك الأفكار المستترة، أمام تلك العواطف

البداية والنهاية ٤: ٣٥٧.

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٥، ٢٩؛ تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٢٠. وقد عبّر عن هذه العقيدة أبو سفيان، الذي قال للعبّاس يوم فتح مكّة: «يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! قال: قلت: يا أبا سفيان! إنّها النبوّة» البداية والنهاية ٤: ٢٩٠.

(٢) أي: الإنسان.

المختفية وراء الستار، تبرز هذه الأفكار وهذه العواطف.

إذاً، لحظة الانفعال هي التي تحدّد أنّ هذه الأُمّة هل تحمل وعياً أو تحمل طاقةً حراريّة؟!

٣ ـ استيلاء المسلمين على كنوز كسرى وقيصر:

صحيح أنّ عبادة بن الصامت حينما واجه ملك القبط في مصر واجهه بطاقةٍ حراريّةٍ كبيرةٍ هائلة، حينما سأله عن هدفه: هل يريد مالاً؟ هل يريد جاهاً؟ هل يريد مقاماً؟ قال: لا نُريد شيئاً من ذلك، وإنّما نريد أن ننقذ المظلوم من الظالم في أيّ مكانٍ على وجه الأرض، ونريد أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى[1].

هذه طاقة حراريّة، هذه الطاقة الحراريّة تشبه الوعي تماماً؛ لأنّ عبادة بن الصامت لو كان يمثّل الأُمّة الواعية لقال نفس هذا الكلام.

لكنّ الفرق في لحظة الانفعال، في لحظة الانتصار، ماذا صنع المسلمون؟ في لحظة الانتصار والاستيلاء على كنوز كسرى وقيصر، الاستيلاء على العالم، ماذا صنع المسلمون؟

المسلمون في هذه اللحظة أخذوا يفكّرون في الدنيا، أخذوا يفكّرون في أن يقتنص كلُّ واحدٍ منهم أكبر قدرٍ ممكنٍ من هذه الدنيا.

---

(١) قال عبادة بن الصامت للمقوقس في أحداث فتح مصر: «..وذلك أنّا إنّما رغبتنا وهمّتنا الجهاد في الله واتّباع رضوانه، وليس غزونا عدوَّنا ممّن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلباً للاستكثار منها» الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ٤: ١٤ ـ ١٥؛ نهاية الأرب في فنون الأدب ١٩: ٢٩١؛ فتوح مصر وأخبارها ١: ١٤٦. ولعلّ كلام ربعي بن عامر لرستم ملك الفرس جواباً عن سؤال ترجمانه حول علّة مجيئهم إلى فارس أوضح في ما قصده ﷺ؛ حيث قال: «الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه»، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٥٢٠؛ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٤: ١٦٨؛ الكامل في التاريخ ٢: ٤٦٣؛ البداية والنهاية ٧: ٣٩.

٤ ـ موقف الخليفة الثاني من حكم الأرض المفتوحة:

والأزمة التي مرّت بعمر بن الخطّاب في تحقيق حال الأرض المفتوحة عنوة، وأنّ الأرض المفتوحة عنوةً: هل تقسّم على المقاتلين؟ أو أنّها تجعل لبيت المال وتجعل ملكاً عامّاً؟

هذه الأزمة تعطي في المقام كيف أنّ هذه الاُمّة تردّت في لحظة الانفعال؛ لأنّ وجوه المهاجرين والأنصار، [لأنّ] هؤلاء الأبرار المجاهدين، هؤلاء الذين عاشوا كلَّ حياتهم الكفاحَ والجهادَ في سبيل الله، هؤلاء أخذوا يصرّون إصراراً مستميتاً على أنّ هذه الأراضي يجب أن توزّع عليهم، وعلى أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يجب أن ينال أكبر قدرٍ ممكنٍ من هذه الأرض، إلى أن أفتى عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام بأنّ الأرض للمسلمين جميعاً، لمن هو موجود الآن ولمن يوجد بعد اليوم إلى يوم القيامة[1].

هذه اللحظات، لحظات الانفعال ـ لحظات الانفعال الانخذاليّة ولحظات الانفعال الانتصاريّة ـ هي التي تحدّد أنّ الاُمّة هل كانت تحمل طاقةً حراريّةً أو تحمل وعياً.

إذاً، فالاُمّة كانت تحمل وعياً، ولكنْ من وراء هذا الوعي يوجد قدرٌ كبيرٌ

(١) «وشاور عمر أصحاب رسول الله في سواد الكوفة، فقال له بعضهم: تقسمها بيننا، فشاور عليّاً، فقال: إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن تقرّها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا» تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥١ ـ ١٥٢. «كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقّاص حين فتح السواد: أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أنّ الناس سألوك أن تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم، فإذا أتاك كتابي فانظر.. واترك الأرض والأنهار لعمّالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين؛ فإنّك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء» فتوح البلدان: ٢٦١؛ معجم البلدان ١: ٤٤. وسيرجع الشهيد الصدر رحمه الله إلى هذه الحادثة في المحاضرة الثامنة، تحت عنوان: الخطّ الثاني: خطّ تحصين الاُمّة، معالجة العامل الكمّي. وقد تعرّض رحمه الله لها في: اقتصادنا: ٤٩٢؛ حيث درس المسألة وخلص إلى استنتاج أحكامها العامّة (اقتصادنا: ٥٠٣)، وراجع: محاضرات تأسيسيّة: ٤١٤ وما بعد.

من الرواسب الفكريّة والعاطفيّة والنفسيّة التي لم تكن قد استؤصلت بعد.

عوامل انطماس النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة[1]:

قد يقول قائل: إذاً ماذا كان يصنع النبي ﷺ إذا لم تكن قد استؤصلت هذه الرواسب؟!

الجواب على ذلك: بأنّ هذه الرواسب ليس استئصالها شيئاً سهلاً يسيراً، وذلك:

١ ـ الدعوة الإسلاميّة طفرة وليست خطوة:

أمّا أوّلاً؛ فلأنّ الدعوة الإسلاميّة التي جاء بها النبي ﷺ لم تكن مجرّد خطوة إلى الأمام، بل كانت طفرةً بين الأرض والسماء.

إذا لاحظنا حال العرب قبل الإسلام ولاحظنا مستوى الرسالة الإسلاميّة، نرى أنّ المستوى هو مستوى الطفرة بين الأرض والسماء، لا مستوى الحركات الإصلاحيّة التي توجد في المجتمعات العالميّة، وهي مستوى الخطوة إلى الأمام.

أيّ حركة إصلاحيّة تنبع من الأرض، وتنبع من عبقريّة الإنسان بما هو إنسان، هي تزحف بالمجتمع خطوةً إلى الأمام لا أكثر: المجتمع كان قد وصل إلى الخطوة السابعة، هذه الحركة الإصلاحية التي تنبع من الأرض تتقدّم به خطوة واحدة أو خطوتين أو ثلاث خطوات في خطّ التقدّم، وحينئذٍ من الممكن ـ في زمن قصير ـ أن تُستأصل رواسب الخطوة السابعة بعد الدخول

(١) يبدو من كلام الشهيد الصدر ﷺ الآتي أنّه كان ينوي الحديث عن عوامل (صعوبة استئصال الرواسب الجاهليّة في عهد النبي ﷺ)، وهو ما بحثه في النقطة الأُولى الآتية، ولكنّ البحث قاده إلى الحديث عن عوامل (انطماس النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة) بحسب تعبيره ﷺ، فلاحظ. وسيأتي الحديث عن بعض هذه النقاط في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: مضاعفات وفاة رسول الله ﷺ (٢).

في الخطوة الثامنة؛ لأنّ الفرق الكيفي بين الخطوة السابعة والخطوة الثامنة فرقٌ قليل، فرقٌ ضئيل، التشابه بين الخطوة السابعة والخطوة الثامنة تشابهٌ كبيرٌ جدّاً. هذا التشابه الكبير، ذاك التفاوت اليسير، يعطي في المقام إمكانيّة التحويل، إمكانيّة اجتثاث تلك الأُصول الموروثة من الخطوة السابقة.

ولكن ماذا ترون وماذا تقدّرون لو أنّ شخصاً جاء إلى شخصٍ آخر في الأرض فطار به إلى السماء؟!

في لحظةٍ من اللحظات جاء النبيُّ صلى الله عليه وآله إلى مجتمعٍ متناحرٍ يعيش الفكرة القبَليّة بأشدّ ألوانها، وبأضرى[1] معارفها ونتائجها، وأخسّ مفاهيمها وأفكارها، جاء إلى المجتمع فألقى فيه فكرة المجتمع العالمي الذي لا فرق فيه بين قبيلةٍ وقبيلة، وبين شعبٍ وشعب، بين أُمّةٍ وأُمّة، وقال بأنّ الناس سواسية كأسنان المشط[2]، وأنّ هؤلاء الناس يجب أن يشكّلوا أُسرةً واحدة، ومجتمعاً واحداً، ودولةً واحدة، تضمّ العالم كلَّه.

هذه الطفرة الهائلة ـ بكلّ ما تضمّ من تحوّلٍ فكري، وانقلاب اجتماعي، وتغيّرٍ في المشاعر والمفاهيم والانفعالات، هذه الطفرة ـ لم تكن شيئاً عاديّاً في حياة الإنسان، وإنّما كانت شيئاً هائلاً في حياة الإنسان.

إذاً، كيف يمكن أن نتصوّر أنّ هذا المجتمع الذي طفر هذه الطفرة، مهما كان هذا المجتمع ذكيّاً، مهما كان صبوراً على الكفاح، مهما كان قويّاً ومؤمناً برسول الله صلى الله عليه وآله؟ كيف يمكن أن نتصوّر ـ في الحالات الاعتياديّة ـ أنّ هذا المجتمع يودِّع تمام ما كان عنده من أفكارٍ ومن مشاعرَ ومن انفعالات، ويقلب

---

(١) في (غ): «وبأحطّ»، وهي ساقطة من (ف). والذي يبدو من المحاضرة الصوتيّة: «بأضغى»، بمعنى: «بأذلّ»؛ فالضغاء: صوتُ كلّ ذليل مقهور (الصحاح ٦: ٢٤٠٩). أو أن تكون: «بأضرى»، بمعنى: أشدّها ضراوة، وهو ما أثبتناه.

(٢) البيان والتبيين ٢: ١٤؛ من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٩، الحديث ٥٧٩٨؛ الاختصاص: ٣٤١.

صفحةً جديدةً كاملةً دون أيِّ اصطحابٍ لموروثات العهد السابق؟

هذا أمر غير ممكن، لا في فترة عشر سنوات، بل في فترةٍ أطول من عشر سنوات، فكيف وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يعش كمجتمعٍ ودولةٍ، كمربٍّ تربيةً كاملةً مع المدينة إلّا عشر سنوات فقط؟! كيف وأنّ جزءاً كبيراً من المجتمع الإسلامي ـ الذي دخل الأحداث بعد وفاة رسول الله مباشرةً ـ هو مجتمع مكّة الذي كان قد دخل في حظيرة الدولة الإسلاميّة وقتئذٍ، ومكّة لم تكن قد دخلت الإسلام إلّا قبل سنتين من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، كانت قد رأت النور قبل سنتين من وفاة الرسول؟! كيف يمكن أن نتصوّر [أنّه] في خلال هذه الأزمنة القصيرة ومع تلك الطفرة الهائلة الكبيرة يُمكن اجتثاث تلك الأُصول؟!

إذاً، فالأُصول كان من المنطقي والطبيعي أن تبقى، وكان من المنطقي والطبيعي أن لا تُجتثَّ إلّا خلال عملٍ طويل، وخلال عمليّة تستمرّ مع خلفاء الرسول بعد الرسول صلى الله عليه وآله. إلّا أنّ هذه العمليّة انقطعت بالانحراف، وتحوُّلِ خطِّ الخلافة من علي عليه السلام إلى الخلفاء الذين تولّوا الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

إذاً، فهذا لا يعطي أيضاً نقطة استغراب، أو يُعطي نقطة ضعفٍ بالنسبة إلى عمل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، بل هذا ينسجم مع عظمة الرسالة ومع جلالها ومع تخطيط النبي صلى الله عليه وآله.

إذاً هذه هي الأُمّة، الأُمّة تحمل طاقةً حراريّة، ولكنّها أُمّة غير واعية. إذا كانت هي أُمّةً تحمل طاقةً حراريّةً ولكنّها أُمّة غير واعية، إذاً فهي غير قادرةٍ على حماية التجربة الإسلاميّة، وعلى وضع حدٍّ لانحراف الحاكم الذي تولّى الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ ـ بالصيغة الأُصوليّة التي قلناها[1] ـ إنّ الأُمّة بوصفها المجموعي ليست معصومةً، ما دامت هي تحمل طاقةً حراريّةً فقط ولا

(١) نسبةً إلى علم أُصول الفقه، ويقصد رحمه الله قوله: «الأُمّة بوصفها المجموعي».

تحمل وعياً مستنيراً يجتثّ أُصول الجاهليّة، إذاً فهي بوصفها المجموعي ليست معصومة، وإذا لم تكن معصومةً بوصفها المجموعي، إذاً فلا تقف في وجه هذا الانحراف، ولا يمكن أن تكون ضماناً لعدم هذا الانحراف.

٢ ـ استبطان الذين تولَّوا الحكم قدراً كبيراً من الأفكار الجاهليّة:

يبقى الحاكم نفسه، هذا الحاكم نفسه أيضاً قلنا بأنّه حتّى لو أخذنا بالنسبة إلى الحاكم بغير مفهومنا عن هذا الحاكم، مع هذا تبقى في المقام طبيعةُ الأشياء وطبيعةُ الأحداث تفرض أن يكون هذا الحاكم عرضةً للانحراف، وعرضةً لتحطيم التجربة الإسلاميّة، وبالتالي تحطيم جميع الأُصول الموضوعيّة والإطار العام لهذه التجربة الشريفة المباركة؛ فإنّ الحاكم ـ أوّلاً ـ هو جزءٌ من هذه الأُمّة، جزءٌ عاديٌّ من هذه الأُمّة التي قلنا بأنّها لم تكن تحمل وعياً مستنيراً، بل كانت تحمل طاقةً حراريّة.

ولنفرض أنّ هذا الحاكم لم يكن شخصاً متميّزاً عن هذه الأُمّة بانحرافٍ خاصٍّ، أو بتخطيطٍ سابق للاستيلاء على الحكم، أو بتصميم على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله في سبيل الاستيلاء على الحكم.. فلنفرض أنّ كلَّ هذا لم يكن، وإنّما هو جزءٌ عاديٌّ من هذه الأُمّة، لا تدلّ سوابقه ـ على أحسن تقدير ـ على أكثر من أنّه جزءٌ عاديٌّ من هذه الأُمّة التي كانت تحمل طاقةً حراريّةً، ولم تكن تحمل وعياً مستنيراً..

إذاً، فكونه جزءاً من هذه الأُمّة بهذا المعنى معناه: أنّ الحاكم يستبطن قدراً كبيراً من الأفكار الجاهليّة والعواطف الجاهليّة والمشاعر الجاهليّة[1].

وهذا كان واضحاً من اللحظة الأُولى في يوم السقيفة. من اللحظة الأُولى

(١) وهو ما اعترف به الخليفة الأوّل نفسه؛ حيث قال: «أما والله، ما أنا بخيركم.. إنّ رسول الله [صلى الله عليه وآله] كان يُعصم بالوحي وكان معه ملك، وإنّ لي شيطاناً يعتريني» الجامع (الأزدي) ١١: ٣٣٦؛ الطبقات الكبرى ٣: ١٥٩؛ الإمامة والسياسة ١: ٣٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٢٤.

في يوم السقيفة، وفي الحجج التي أوردها المهاجرون ضدّ الأنصار، كان من الواضح أنّ تقييم الخلافة لم يكن تقييماً إسلاميّاً، وأنّ تقييم النبوّة لم يكن تقييماً إسلاميّاً[١].

إذاً، فهذه الرواسب الفكريّة والعاطفيّة للجاهليّة سوف تعمل عملَها في سلوك هذا الحاكم، وفي تخطيط هذا الحاكم، وفي كلِّ ما يتصّرف به هذا الحاكم.

٣ـ نزعة الذين تولَّوا الحكم إلى الاستقلال بالرأي[٢]:

نضيف[٣] إلى هذا أنّ هذا الحاكم بالخصوص[٤] كان يبدو منه في حياة الرسول الأعظم ﷺ نزعة الاستقلال بالرأي وروح التمرّد على التعبّد. هذا أمرٌ كان ظاهراً فيهم، خاصّة في الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، كان من الظاهر فيه في حياة الرسول ﷺ أنّه كان بعيداً عن نزعة التعبّد المطلق بكلّ ما يأتي به رسول الله ﷺ، بل كان فيه روح التمرّد على جملةٍ من التعاليم التي جاء بها[٥]؛ لأنّها تُحدِث عنده حالةَ التناقض بين الدعوة الجديدة التي دخل فيها وبين مفاهيمه وأفكاره وعواطفه المسبقة التي صاغتها الجاهليّة له.

هذه النزعة، نزعة التحرّر، ونزعة التعويل على الرأي والتمرّد على التعبّد،

---

(١) حيث اعتبرت النبوّة سلطاناً كما تقدّم في هذه المحاضرة. فراجع: الإمامة والسياسة ١: ٢٥، ٢٩؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٢٠.

(٢) عالج ﷺ هذه الفكرة بشكل أوسع في: التشيّع والإسلام (بحث حول الولاية): ٥٢، فراجع.

(٣) في المحاضرة الصوتيّة: «إذا أضفنا»، وما أثبتناه أنسبُ للعبارة؛ لعدم ذكر جواب الشرط لاحقاً.

(٤) يقصد ﷺ: الخليفة الثاني.

(٥) من قبيل: اعتراضه على صلح رسول الله ﷺ في صلح الحديبية وقوله: «فعلام نعطي الدنيّة في ديننا» [المغازي ٢: ٦٠٦؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٢: ٦٣٤]، وصدّه رسول الله ﷺ عن ذكر عليٍّ ﷺ في مرضه وقوله: «ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك؛ إشفاقاً وحيطة على الإسلام» شرح نهج البلاغة ١٢: ٢١.

لم تكن تشكّل خطراً في الوقت الذي كان هذا الرجل إنساناً عاديّاً في المجتمع الإسلامي وكان الرسول هو الحاكم في هذا المجتمع. ولكن في الوقت الذي تولّى هذا الشخصُ وأصحابُ هذا الشخص زمام قيادة التجربة، قيادة هذه السفينة، في هذا الوقت هذه النزعة أصبحت تشكّل خطراً في المقام.

فإذا أضفنا تلك الموروثات الجاهليّة إلى هذه النزعة، إلى نزعة الاستقلال بالرأي، سوف نستنتج طبيعيّاً في المقام أنّ هذا الحاكم سوف يسير في جملةٍ من قضاياه ومشاكله على وفق موروثاته الجاهليّة، وعلى وفق رواسبه العاطفيّة والنفسيّة التي خلّفها له آباؤه وأجداده، لا التي خلّفها له رسول الدعوة صلى الله عليه وآله.

٤ ـ عدم إعداد الذين تولّوا الحكم إعداداً إلهيّاً[1]:

نضيف[2] إلى ذلك أيضاً أنّ الحاكم لم يكن قد هُيِّئَ أبداً لأنْ يكون حاكماً. وللحاكم مشاكله الخاصّة، وسلوكه الخاص، وثقافته الخاصّة. الحاكم ـ خاصّةً إذا كان حاكماً في صدر دعوةٍ جديدة، ذات حضارة خاصّة وذات ثقافةٍ جديدة ـ لا بدّ وأن يكون مهيّأً بصورة مسبقة ـ ثقافيّاً، علميّاً، روحيّاً ـ لأنْ يكون حاكماً.

هنا نريد أن نقصد بعدم التهيّؤ: عدم التهيّؤ الثقافي والعلمي؛ يعني لم يكن قد استوعب الإسلام، ولم يكن قد حاول أن يدرس الإسلام في المقام.

عمر نفسه يقول: «بأنّه شَغَلَنا في أيّام رسول الله الصَّفْقُ في الأسواق»؛ تأتيه مشكلةٌ فلا يعرف الجواب عنها، يبعث على المهاجرين والأنصار ليستفتيهم، مرّةً أُخرى، مرّة ثالثة، مرّة رابعة.. حينما يتكرّر هذا المطلب منه ويقف موقفاً سلبيّاً تجاه المشاكل من الناحية الدينيّة يعتذر عن ذلك، يقول:

---

(١) راجع للشهيد الصدر رحمه الله ما يندرج في السياق نفسه: المدرسة القرآنيّة، علوم القرآن: ٣١٥، [عدم توفّر الفهم التفصيلي للقرآن في معاصري الوحي].

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «إذا أضفنا»، وما أثبتناه أنسبُ للعبارة؛ لعدم ذكر جواب الشرط لاحقاً.

«شغلنا في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله الصَّفْقُ في الأسواق»(١).

نعم، رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن قد اشتغل لتهيئة مجموعةٍ من الأُمّة لتحكم الناس؛ لأنّه قد كان هيّأ قادةً معيَّنين من أهل البيت عليهم السلام ليحكموا. كان لرسول الله صلى الله عليه وآله درسان، كان له بحثان بحسب الاصطلاح الآخوندي(٢):

١ ـ كان له درسٌ وعمليّةُ توعيةٍ على مستوى الأُمّة، وهذه عمليّة توعية للأُمّة بوصفها رعيّةً، وبالمقدار الذي تتطلّبه الرعيّةُ الواعيةُ من فهمٍ وثقافة.

٢ ـ وكان له درسٌ آخر، وبحثٌ آخر، ومستوى آخر من التوعية للصفوة التي اختارها الله تعالى لتخلفه في قيادة هذه التجربة، وتلك كانت توعيةً على مستوى القيادة، وعلى مستوى الحاكميّة.

هؤلاء الذين تولَّوا الحكم بعد رسول الله لم يكونوا قد وُعّوا على هذا المستوى، ولم يكونوا هم أنفسُهم قد هيّئوا أنفسَهم بصورةٍ مسبقةٍ لهذا المستوى من الناحية الفكريّة والثقافيّة.

أَلَسنا جميعاً نعلم أنّ الصحابة في أيّام أبي بكر وعمر اختلفوا في المسائل الواضحة جدّاً، اختلفوا في حكم مسألةٍ كان يمارسها رسول الله صلى الله عليه وآله أمام أعينهم طيلة السنة، اختلفوا في حكم صلاة الجنائز(٣).

---

(١) وهو قول الخليفة الثاني: «خفي هذا عليَّ من أمر رسول الله[صلى الله عليه وآله]؛ ألهاني عنه الصفق بالأسواق» المسند (ابن حنبل) ٤: ٤٠٠؛ الجامع الصحيح (مسلم) ٦: ١٧٩. وستأتي الإشارة إلى هذا الموقف في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: عدم استيعاب الرسالة الإسلاميّة والتهيّؤ للحكم.

(٢) وهو ما ذكره قدس سره حول تفسير رسول الله صلى الله عليه وآله القرآن الكريم على مستويين: عام: على مستوى الصحابة، وخاص: على مستوى أهل البيت عليهم السلام، فراجع: المدرسة القرآنيّة، علوم القرآن: ٣٢٣، التفسير في عصر الرسول صلى الله عليه وآله.

(٣) «جمع عمر الناس فاستشارهم في التكبير على الجنازة، فقال بعضهم: كبّر رسول الله[صلى الله عليه وآله] خمساً، وقال بعضهم: كبّر سبعاً، وقال بعضهم: كبّر أربعاً، فجمعهم على أربع تكبيرات كأطول الصلاة» الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار (ابن أبي شيبة) ٢: ٤٩٥. وراجع: تاريخ المدينة المنوّرة ١: ٣٩٠؛ الحاوي الكبير ٣: ٥٥. وسيستشهد قدس سره بهذا الشاهد في المحاضرة السادسة، تحت عنوان:

هذه المسألة البسيطة العباديّة الصرفة البعيدة عن كلّ مجالات الهوى، عن كلّ مجالات السياسة والاقتصاد ونحو ذلك، مسألة تعبّديّة صرفة، ليس فيها هوى؛ فالاختلاف هنا اختلافٌ ناشئٌ من جهلٍ حقيقةً، لا اختلافٌ ناشئٌ من هوى، ليس من قبيل الاختلاف في حكم الأرض، في حكم الغنيمة، في حكم الخمس؛ هناك قد يقال بأنّ هذا ليس جهلاً، هذا هوى، لكنْ صلاة الميّت!!

رسول الله كان كلّ ميّت يموت من المؤمنين يذهب إلى الخارج ويصلّي عليه مع المسلمين، والمسلمون يصلّون جماعةً مع النبي. عملٌ مكشوفٌ أمام أعينهم، مع هذا اختلف الناس فيه في ما بينهم، واختلف الخلفاء في ما بينهم، في أنّه كم عدد التكبيرات في صلاة الميّت؟!

كلّ هذا ينشأ من عدم التهيئة السابقة، من عدم الاستعداد السابق لممارسة الحكم، ولقيادة هذه التجربة.

٥ ـ التوسّع الكمّي للأُمّة الإسلاميّة في ظلّ غياب الأُطروحة الحيّة:

يضاف إلى كلّ ذلك، يُضاف إلى أنّ الأُمّة كانت تحمل طاقةً حراريّةً ولم تكن واعية، وإلى أنّ الحاكم كان قاصراً ومقصّراً، يضاف إلى ذلك: أنّ الإسلام كان على أبواب تحوّلٍ كمّيٍّ هائل، كان على أبواب أن يفتح أحضانه لأُممٍ جديدةٍ لم ترَ النبي صلى الله عليه وآله، ولم تسمع آيةً من القرآن من فم النبي على الإطلاق.

تلك الأُمّة التي خلّفها النبي كانت تحمل طاقةً حراريّةً، لكن بعد أن اتّسعت الأُمّة كمّيّاً وضمّت إليها شعوباً كثيرةً، ضمّت إليها الشعب العربي بكامله تقريباً في أيّام عمر بن الخطّاب، وضمّت إليها كثيراً من الشعوب الأُخرى:

عدم استيعابِ الرسالة الإسلاميّة والتهيّؤ للحكم، كما تعرّض له في بعض مؤلّفاته، فراجع: التشيّع والإسلام (بحث حول الولاية): ٣٤.

الفارسيّة والتركيّة والكرديّة[١].

ما بال هذه الشعوب التي لم تكن قد رأت رسول الله ﷺ، ولا سمعت منه كلمةَ قرآن، ولا صلَّت معه صلاةً واحدة! هل يترقّب أن يكون لها وعيٌ؟! أو يترقّب أن يكون لها طاقة حراريّة كتلك الطاقة الحراريّة؟!

تلك الطاقة الحراريّة كانت نتيجةَ كفاحٍ مستمرٍّ مع أشرف قائد على وجه الأرض. أمّا هذه الشعوب التي دخلت في حظيرة الإسلام، لم تكن قد عاشت هذا الكفاح المستمرّ مع أشرف قائدٍ على وجه الأرض.

إذاً، فهذا الانفتاح الهائل على شعوبٍ أُخرى أيضاً أضعَفَ من مناعة هذه الأُمّة، وأضعف من قدرة هذه الأُمّة على الحماية، وفَتَحَ مجالاتٍ جديدةً للقصور والتقصير أمام الحاكم أيضاً.

الحاكم الذي لم يكن مهيّأً نفسيّاً لأنْ يحكم في مجتمع المدينة، كيف يكون مهيّأً نفسيّاً، كيف يكون مهيّأً فكريّاً وثقافيّاً لأنْ يحكم على بلاد كسرى وقيصر؟ لأنْ يقوّض ويجتثَّ أُصول الجاهليّة الفارسيّة والهنديّة والكرديّة والتركيّة، إضافةً إلى اجتثاث أُصول الجاهليّة العربيّة؟! هذه الجاهليّات التي كلٌّ واحدةٍ منها كانت تحتوي على قدرٍ كبيرٍ من الأفكار والمفاهيم المنافية مع الأفكار والمفاهيم الأُخرى أيضاً، جاهليّات عديدة متضاربة في ما بينها، متضاربة عاطفيّاً، متضاربة فكريّاً، كلّها اندمجت في مجتمعٍ واحدٍ، في حالة عدم وجود ضمانٍ، لا على مستوى الحاكم ولا على مستوى الأُمّة.

لئن كان أُولئك الذين خلّفهم رسول الله ﷺ قد رَأَوا بأُمّ أعينهم ـ ولو لحظةً قصيرة ـ تجسيداً واقعاً حيّاً للنظريّة الإسلاميّة للحياة وللمجتمع في أيّام رسول الله، لئن كانوا قد رَأَوا تصرّفات رسول الله في المجال السياسي

(١) راجع حول الفتوحات في عهد الخليفة الثاني: الأخبار الطوال: ١١٣ وما بعد.

والاقتصادي والعسكري والاجتماعي، لئن كانوا قد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه يقول: إنّ «الناس سواسية كأسنان المشط»[١]، فهذه الشعوب التي دخلت في الإسلام جديداً لم تكن قد سمعت كلَّ هذا، بل سمعت خلاف هذا من الحكّام الجدد الذين كانوا يتولّون زعامة التجربة.

إذاً، فكان كلُّ هذا الذي قلناه يمهّد لانطماس النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة انطماساً كاملاً؛ لأنّ هذه النظريّة الاجتماعيّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة كان أمينُها حاكماً منحرفاً، وكانت الأُمّة غير قادرة على مواجهة هذا الانحراف، وكانت على أبواب توسّعٍ هائلٍ يضمّ شعوباً لا تعرف شيئاً أصلاً عن هذه النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة، وإنّما تعرف الواقع الذي تَجَسَّد خارجاً، والذي عاشته كواقعٍ فاتحٍ مسلَّحٍ سيطر على بلادها.

إذاً، فكان من المفروض ومن المنطقي ـ بحسب طبيعة الأشياء ـ أن تتحوّل النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة إلى نظريّة أُخرى على وفق خطّ الحاكم. يعني: كان من المنطقي أن يعيش المسلمون ذهنيّاً وفكريّاً نظريّة أبي بكر وعمر وعثمان للحكم، كما [عاشوها] واقعيّاً وسياسيّاً، وأن تنطمس تلك الأُطروحة الحقيقيّة ـ تلك الأُطروحة الصالحة ـ فكريّاً وروحيّاً كما انطمست سياسيّاً واقتصاديّاً في يوم السقيفة.

هذا كان أمراً طبيعيّاً، وهذا الأمر الطبيعي قد خطّط لحماية الإسلام من قبل قادة أهل البيت عليهم السلام، وذلك عن طريق الدخول في الصراع السياسي مع خلفاء الجور.

هدف الأئمّة عليهم السلام من دخول الصراع مع الزعامة المنحرفة:

الأئمّة عليهم السلام دخلوا في صراع مع الخلفاء المنحرفين ومع الزعامات

---

(١) البيان والتبيين ٢: ١٤؛ من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٩، الحديث ٥٧٩٨؛ الاختصاص: ٣٤١.

المنحرفة، دخلوا في صراعٍ معها يحملون بأيديهم مشعلَ تلك النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة بكلّ بهائها ونورها وجمالها وكمالها، ولم يكونوا يستهدفون من هذا أن يعيدوا خطَّ التجربة؛ لأنّ المؤسف ـ وهذا ما سوف نتحدّث عنه في يومٍ آخر، في يوم عن أمير المؤمنين عليه السلام[١] ـ أنّ خطّ التجربة لم يكن بالإمكان أن يعود مرّة أُخرى إلى الاستقامة بعد أن انحرف، لم يكن الصراع السياسي يستهدف في المقام أن يعيد التجربة إلى خطّها المستقيم وعلى المدى الطويل الطويل[٢]، لم يكن هذا هو الهدف الآني للصراع السياسي، وإنّما كان الهدف الآني للصراع السياسي هو أن يُسمعوا المسلمين، يُسمعوا الشعوبَ الجديدة، ويُوعّوا الشعوب الأُخرى التي كانت، يوعّوها على النظريّة الحقيقيّة للإسلام عن الحياة، عن المجتمع، عن الدولة، عن الاقتصاد، عن السياسة، عن الأُخوّة، عن التعامل والتعاضد... ما هو مفهوم الإسلام في كلّ هذه المجالات يجب أن يبيَّن للناس، يجب أن توضع هذه النظريّة في ذهن الناس.

صحيح أنّ هذه النظريّة كانت موجودةً في القرآن، وكانت موجودةً في

---

(١) راجع على وجه الخصوص المحاضرات: السادسة والسابعة والثامنة.

(٢) وذلك في المدى المنظور وفي ظلّ القيادة غير المعصومة؛ بقرينة تعبيره ﷺ بـ«الهدف الآني»، ولهذا يأتي منه بعد قليل: «أنّ عود التجربة الإسلاميّة إلى الخطّ المستقيم على المدى البعيد البعيد لم يكن بالإمكان أصلاً»، كما يأتي في المحاضرة الثامنة أنّ «أمير المؤمنين عليه السلام حينما تولّى الحكم لم يكن يستهدف من تولّي الحكم تحصين التجربة أو الدولة بقدر ما كان يستهدف تقديم المثل الأعلى للإسلام؛ لأنّه كان يعرف أنّ التناقضات في الأُمّة الإسلاميّة بلغت إلى درجةٍ لا يمكن معها أن ينجح عمل إصلاحي إزاء هذا الانحراف». ولا يقصد ﷺ المدى غير المنظور؛ فـ«الحدُّ على المدى الطويل يجب أن يعالج عن طريق التوعية على الخطّ الطويل» كما تقدّم في هذه المحاضرة. وسيأتي أيضاً في المحاضرة السادسة أنّ «الأمر الأوّل الذي كان الأئمّة يمارسونه في حياتهم هو محاولة القضاء على الانحراف الموجود في تجربة المجتمع الإسلامي، وإرجاع التجربة إلى وضعها الطبيعي؛ وذلك بإعدادٍ طويلِ المدى»، وأنّ الظروف الموضوعيّة «تجعل في قدرة الإمام المعصوم أن يحاول إعادة التجربة الإسلاميّة إلى وضعها الطبيعي ووضعها الصحيح». كما سيأتي في المحاضرة السابعة أنّه: «لا بدّ من العمل لتسلّم زمام هذه التجربة»، فلاحظ.

النصوص، لكنْ وجودها في القرآن وفي النصوص لا يكفي وحده:

أوّلاً: النظريّات حينما تكون حبراً على ورقٍ لا تكفي لأنْ تعطي صورةً واضحةً في أذهان الناس.

وثانياً: بأنّ القرآن والسنّة لم تكن قد فهمتهما هذه الشعوبُ الجديدة التي دخلت في الإسلام جديداً:

أمّا السنّة: لم يكونوا قد سمعوا منها شيئاً، وإنّما سوف يسمعون عنها عن طريق الصحابة.

وأمّا القرآن الكريم: لم يكونوا قد سمعوا شيئاً من تفسيره أيضاً، وإنّما يسمعون تفسيرَه عن طريق الصحابة.

إذاً، فكان لا بدّ من تجسيدٍ حيٍّ لهذه النظريّة الإسلاميّة. وحيث لم يكن بالإمكان [تجسيدها] عن طريق الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرةً، ولهذا [جسّدت] عن طريق المعارضة مع الزعامات المنحرفة على يد عليّ عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام، أئمّة المرحلة الأُولى.

حيثيّات بدء أمير المؤمنين عليه السلام الصراعَ السياسي:

في هذه المرحلة الأُولى، هؤلاء الأئمّة مارسوا هذا الصراع السياسي لأجل إعطاء هذه النظريّة بكلّ وضوح، غاية الأمر: أنّنا نرى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يبدأ بالصراع الحادّ الواضح إلّا بعد موت عمر بن الخطّاب، في أيّام أبي بكر لم يبدُ أنّه اشتغل في صراعٍ واضحٍ مكشوف[1].

(١) وقد تعرّض الشهيد الصدر قدس سره لدوافع أمير المؤمنين عليه السلام في عدم إعلان الثورة المسلّحة، وحيثيّات سكوته عليه السلام عن الاستشهاد بنصّ رسول الله صلى الله عليه وآله على إمامته في: فدك في التاريخ، تاريخ الثورة: ٨٣ ـ ٩١. وقد بقي قدس سره على هذه القناعة إلى فترة متأخّرة؛ حيث كتب في الإجابة عن سؤالٍ وجّه إليه حول قضيّة فدك: «طرأ على فدك انحرافان: أحدهما: الانحراف بتحويلها من حيازة فاطمة عليها السلام إلى بيت المال العام. والآخر تحويلها من بيت المال إلى يد مروان، والانحراف الثاني تمّ

نعم، بعد السقيفة بأيامٍ سجَّل أمير المؤمنين هناك للتاريخ رأيه في السقيفة[١]، وسجّل ذلك الحواريّون من أصحاب أمير المؤمنين، من أمثال: سلمان والمقداد وعمّار، هؤلاء سجّلوا آراءهم، وهناك قالوا كلمتهم، وقالوا: بأنّ هذا ليس تعدّياً على عليّ، وإنّما هو تعدٍّ على الأُمّة الإسلاميّة، وعلى التجربة الإسلاميّة.

سلمان أخذ يصف المسلمين: ماذا يكون حالهم لو ولّوا عليّاً! لو ولّوا عليّاً ماذا كان يصير حالهم[٢]!

كما إنّ فاطمة الزهراء (عليها الصلاة والسلام) في كلامٍ لها مع نساء المهاجرين والأنصار وصفت أيضاً حالة المسلمين بعد الانحراف، وحالة المسلمين لو أنّهم ولّوا عليّاً[٣].

لكن، بعد هذا، أمير المؤمنين ﷺ لم يبدُ على مسرح الصراع بشكلٍ مكشوفٍ أيّام أبي بكر، وكذلك لم يبدُ على مسرح الصراع بشكلٍ مكشوفٍ أيّام عمر بن الخطاب، بالرغم من أنّ الانحراف كان قد بدأ من خلافة أبي بكر، لا الانحراف في تغيير شخص الحاكم، [بل] الانحراف في تغيير مضمون الحكم،

على يد عثمان. والإمام أمير المؤمنين حينما تولّى الخلافة كان بصدد إزالة الانحرافات التي وقعت من قِبَل عثمان، مؤجّلاً إزالة ما قبل ذلك من انحرافات إلى المرحلة التالية. ولهذا فقد استرجع فدك وأعادها إلى سيرتها قبل عثمان، ولم يردّها إلى ورثة الصدّيقة ﷺ»، راجع: محمّد باقر الصدر.. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق ٣: ١٩٧، وانظر الوثيقة الخطيّة في: ٥: ٣٠٦، الوثيقة ٢٩٢.

(١) راجع على سبيل المثال احتجاج الإمام علي ﷺ على أبي بكر في: الخصال ٢: ٥٤٨، الحديث ٣٠؛ الاحتجاج ١: ١١٥.

(٢) قال سلمان: «أصبتم ذا السن منكم وأخطأتم أهل بيت نبيّكم؛ لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان ولأكلتموها رغداً» شرح نهج البلاغة ٢: ٤٩.

(٣) في قولها ﷺ: «.. لسار بهم سيراً سجحاً لا يكلم خشاشه ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً تطفح ضفّتاه، ولأصدرهم بطاناً قد تخيّر لهم الري غير متحلّ منه بطائل إلّا بغمر الماء وردعه سورة الساغب، ولفتحت عليهم بركات السماء والأرض» معاني الأخبار ٣٥٤ ـ ٣٥٥، الحديث ١. أُنظر بلاغات النساء (ابن طيفور): ٣٢ ـ ٣٣

وسياسة الحكم، هذا بدأ في أيّام أبي بكر، واشتدّ في أيّام عمر، وكان الانحراف يسير في خطّ منحنٍ[١]، حتّى وصل إلى الهاوية بعد ذلك.

وإنّما بدأ أمير المؤمنين معارضته لأبي بكر ولعمر ولعثمان وللزعامات المنحرفة جميعاً ـ بشكلٍ مكشوفٍ صريحٍ ـ بعد وفاة عمر مباشرةً، وقبل أن يتمّ الأمر لعثمان.

في ذلك الوقت بدأ بمعارضته الصريحة المكشوفة لكلّ هذه الزعامات المنحرفة في قوله لعبد الرحمن بن عوف حينما قال له عبد الرحمن بن عوف ـ وكانوا ستّةً مجتمعين للشورى ـ قال له: «مدّ لي يدك أُبايعك على كتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الشيخين»، يعني سيرة أبي بكر الصدّيق وعمر الفاروق.

كان يريد عبدُ الرحمن بن عوف من ذلك أن يجعل سيرةَ الشيخين ممثّلاً شرعيّاً للنظريّة الإسلاميّة للحياة. النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة، هذه النظريّة أراد أن يجعل سيرةَ أبي بكر المنحرف وعمر المنحرف جزءاً وممثّلاً [عن] هذه النظريّة.

لو أنّ عليّاً قبل بذلك لانتهى هذا التمثيل؛ لأنّه لم يكن يوجد في مقابل أُطروحة أبي بكر وعمر إلّا علي، فلا بدّ أن يوافق عليٌّ، ولو وافق عليٌّ على ذلك، إذاً لأصبحت هذه هي النظريّة السائدة.

عليٌّ هناك قال: «لا، لا أقبل، بايعني على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي»[٢]، أمّا سيرة أبي بكر وعمر [فـ]ـلا يمكن أن تُفرض كممثّلٍ شرعيٍّ للنظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة.

---

(١) الانحناء وصفٌ للمنحرِف لا للانحراف نفسه، وإلّا فخطُّ الانحراف كان تصاعديّاً على ما يأتي منه قدس سره في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: التسلسل المنطقي للانحراف بقطع النظر عن دور الأئمّة عليهم السلام.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨.

هنا بدأ أمير المؤمنين يشجب ويعارض هذه الزعامة المنحرفة، أمير المؤمنين رفض الخلافة، رفض الزعامة، رفض أن يكون حاكماً على المسلمين لأجل أن لا يُدخِل أبا بكر وعمرَ كجزءٍ من النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة.

معارضة أمير المؤمنين عليه السلام وإشكاليّة باب التزاحم[١]:

قد يقول قائلٌ بأنّ هذا بابُ التزاحم، هذا باب العناوين الثانويّة، ماذا كان يضيره أن يقول: «نعم، أنا أقبل بذلك، بايعني»؟! فيبايعه على كتاب الله وسنّة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر. ثمّ بعد هذا، يقول أمير المؤمنين ويعمل أمير المؤمنين حسب رأيه، ويخون عهده إلى عبد الرحمن بن عوف؛ لأنّ كلَّ شرطٍ خالف كتاب الله وسنّة رسوله فهو مردود[٢]، وهذا شرطٌ خالف كتاب الله وسنّة رسوله، فهو مردود.

ماذا كان يضيره؟! أوَ لم يكن هذا هو التكليف الشرعي بناءً على أنّ الوصول إلى الخلافة واجب؟ و[تنحصر] مقدّمة هذا الواجب بأنْ يُمضي هذا الشرط! إذاً فهذا مقدّمة الواجب، فبالعنوان الثانوي يكون واجباً. ألَم يكن هذا في المقام واجباً؟

لا، لم يكن واجباً؛ لأنّه ما أشدَّ ضياعَ الإسلام لو قال هذا، لو قال عليُّ بن أبي طالب ذلك إذاً لتمَّ هذا التخطيط، لتمَّ تخطيطُ أنّ النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة هي النظريّة التي قدّمها أبو بكر وعمر في المقام.

وقد قلنا ـ وسوف نشرح في ما بعد[٣] ـ: [إنّ عود التجربة الإسلاميّة

---

(١) تعرّض الشهيد الصدر رحمه الله لهذه الإشكاليّة أيضاً لدى حديثه عن مبرّرات إصراره على عزل معاوية بن أبي سفيان بعيد مبايعته، فراجع: المحاضرة التاسعة، موقف الإمام علي عليه السلام فقهيّاً.

(٢) انظر: الكافي ٥: ٢١٢، الحديث ١٧؛ تهذيب الأحكام ٧: ٢٢، الحديث ٩٣.

(٣) في المحاضرات السابعة والثامنة والتاسعة على وجه الخصوص.

إلى الخطّ المستقيم على المدى البعيد البعيد[١] لم][٢] يكن بالإمكان أصلاً حتّى لو تولّى علي بن أبي طالب الخلافة بعد عمر، إذاً فماذا يكون؟ ماذا يكون إلّا الخسارة، إلّا أن يُعطي هذا الإمضاء وهذا الصكّ للزعامات المنحرفة؟! صكّ أنّ عمل أبي بكر وعمر كان جزءاً من النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة!

هذا بنفسه هو جزءٌ من عمليّة إعطاء النظريّة الأُخرى للحياة الاجتماعيّة على أساس الإسلام.

هنا بدأ أمير المؤمنين يصارع، ثمّ بعد هذا في أيّام عثمان اتّضح صراعه السياسي بشكلٍ أوضح، كان عليه السلام هو الذي يعبّر عن آلام الأُمّة، وعن آمال الأُمّة، وعن مظالم الأُمّة أمام عثمان، ويعظه، ويوبّخه ويذكّره الله وأيّامَ الله، والآخرة ورسول الله، ولكنّ عثمان لم يكن يتّعظ[٣].

مبرِّرات تأخير أمير المؤمنين عليه السلام الصراعَ السياسي مع الحكم:

أمير المؤمنين لماذا تأخّر في عمليّة الصراع السياسي إلى ما بعد موت عمر مباشرة؟ لماذا لم يصارع؟ لماذا لم يدخل في صراعٍ في أيّام أبي بكر وفي أيّام عمر؟!

كان أمير المؤمنين عليه السلام حريصاً كلَّ الحرص على أن يبدوَ صراعُه موضوعيّاً، عقائديّاً، يستهدف النظريّة لا الشخص، يستهدف تثبيت دعائم نظريّةٍ حقيقيّةٍ للإسلام، لا تدعيم شخصه.

يعني: كان الإمام حريصاً على أن تكون التصوّراتُ والانعكاساتُ التي يعيشها الناس عن صراعه هي على هذا المستوى، هي على مستوى أنّ صراعه

(١) تقدّم التعليقُ على المراد من طول المدى وبعده، فراجع.

(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (ف) و(غ)، وفي (ف): «التجربة» بدل «التجربة الإسلاميّة».

(٣) راجع حديثه عليه السلام مع عثمان بن عفّان في: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٣٧.

صراعٌ نظريٌّ عقائدي، وليس صراعاً شخصيّاً؛ لأنّ هذا كان من أكبر الوسائل لتثبيت حقّانيّة هذه النظريّة التي يقدّمها.

أ لَيس هو يريد أن يثبّت في الذهنيّة الإسلاميّة أنّ النظريّة الإسلاميّة للحياة [هي] هذه، لا تلك التي يطبّقها الزعماء المنحرفون؟! كيف يستطيع أن يرسّخ هذا في الذهنيّة الإسلاميّة مع الالتفات إلى نقاط الضعف في الذهنيّة الإسلاميّة؟ وإلى عدم كون الذهنيّة الإسلاميّة ذهنيّةً واعية؟

يرسّخ هذا بأنْ لا يبدوَ منه أيُّ ظاهرةٍ يمكن أن تُفسَّر ـ حتّى على مستوى تلك الذهنيّة الضعيفة ـ [بأنّها] عملٌ شخصي، و[أنّها] صراع شخصي، لا [أنّها] صراع عقائدي ونضالٌ في سبيل تثبيت النظريّة.

ولهذا انتظر أمير المؤمنين عليه السلام أن يبرز الانحراف واضحاً، أن يتجلّى الانحراف واضحاً، ثمّ يبدأ بالصراع.

والانحراف لم يكن واضحاً مكشوفاً لدى الناس، أيّ ناس؟!

هؤلاء الناس غير الواعين، هؤلاء الناس غير الواعين لا يشعرون بمرارة الانحراف إلّا إذا دخل الانحراف إلى بيوتهم، إلّا إذا مسّ جلودهم، إلّا إذا أحرق شعرهم، إلّا إذا أذاب معاشهم ومالهم، إلّا إذا فتّت قواهم، حينئذٍ يشعرون بحرارة هذا الانحراف، بنار هذا الانحراف. أمّا قبل هذا، فلا يترقّب من اُمّة غير واعية ـ بذلك المستوى من الوعي ـ أن تشعر بالانحراف.

الانحراف بدأ في أيّام أبي بكر، ونما في أيّام عمر، ولكنّه كان انحرافاً مستوراً، وكان عمر موفّقاً جدّاً في أن يُلبِسَ هذا الانحراف في المقام الثوب الديني المناسب[١].

نحن لا نريد أن نعطي مفهومنا الخاصَّ عن عمر، [بل] نأخذ بمفهوم

(١) تقدّم التعليق على هذه النقطة لدى الحديث عن: حيثيّات بدء أمير المؤمنين عليه السلام الصراعَ السياسي، فراجع.

[أهل] السنّة عن عمر، إلّا أنّ عمرَ ـ حتّى بحسب المفهوم السنّي، لا بمفهومنا الخاص عنه (هو من المحتمل أنّه كان حقيقةً يفكّر في الإسلام على مستوى هذه الأثواب الدينيّة المصطنعة)[١] ـ عمر بن الخطّاب ميّز بين الناس في العطاء، ووضع تركيباً[٢] طَبَقيّاً في المجتمع الإسلامي كما صنع عثمان، لكنْ فرقٌ بين عمر وعثمان؛ لأنّ عمرَ جعل هذا التركيب الطبقي على أساس خدمة الإسلام، هكذا قال: قال: بأنّ كلَّ من كان أقربَ إلى النبي أنا أُعطيه أكثر، وكلّ من كان أجلَّ سوابقَ وأعظم جهاداً في سبيل الإسلام، أنا أُعطيه أكثر[٣].

هذا هو الثوب الديني الظاهر لهذه القصّة، وهذا ثوبٌ تقبله أُمّةٌ غيرُ واعيةٍ قبولاً إجماعيّاً أكثرَ ممّا تقبل النظريّة الإسلاميّة الحقيقيّة قبل أن تلتفت إلى نتائج هذا التركيب الطَبَقي.

في اللحظة الأُولى ـ قبل أن تلتفت إلى ما سوف يتمخّض عنه هذا التركيب الطبقي من بلايا ومن كوارث ومن محنٍ في المجتمع الإسلامي ـ تستسيغ هذا المطلب، تستسيغ أن يكون عمُّ رسول الله أكثر الناس عطاءً، أن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر الناس عطاءً، أن يكون البدريّون أكثر عطاءً من الأُحُديّين، وأن يكون المهاجرون أكثر عطاءً من غير المهاجرين، وأن يكون العرب ـ الذين كانوا مسلمين في أيّام رسول الله، وعاشوا مع الدعوة من مراحلها الأُولى ـ أكثر عطاءً من غير العرب من الشعوب الأُخرى التي دخلت جديداً في الإسلام.

---

(١) بقرينة قوله رحمه الله: «حتّى بحسب المفهوم السنّي»، فإنّ الجملة المقوّسة ليست خبراً لـ(إنّ)، بل هي جملة اعتراضيّة داخل الجملة الاعتراضيّة، والمراد: «إلّا أنّ عمرَ بن الخطّاب ـ حتّى بحسب المفهوم السنّي، لا بمفهومنا الخاص عنه ـ ميّز بين الناس في العطاء».

(٢) يُحتمل ـ بحسب صوته رحمه الله ـ أن يكون الصادر عنه في الموارد الآتية: «الترتيب» بدل «التركيب».

(٣) راجع: الطبقات الكبرى ٣: ٢٢٥؛ فتوح البلدان ٤: ٣٨؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥٣. وراجع حول فوارق حكم عمر مع حكم عثمان: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٣٨.

هذا أمرٌ مستساغٌ على مستوى الذهنيّة الإسلاميّة غير الواعية يومئذٍ.

لو أنّ عليّاً كان يعارض وقتئذٍ هذا الثوب، لو كان يريد أن يعارض هذا الثوب لفُسّر ـ على مستوى تلك الذهنيّة ـ بأنّه صراع شخصي وليس صراعاً عقائديّاً، لم يكن بإمكان عليٍّ يومئذٍ أن يقول للناس ماذا سيتمخّض عن هذه الجريمة ـ التي ارتكبها عمر ـ بعد عشرين سنة، ماذا سوف تجرّ هذه الجريمة من كوارث ومن محن، لم يكن بإمكانه أن يُفهِمَ المسلمين ذلك.

ولهذا سكت علي بن أبي طالب، لأجل أن لا يُلْبِس صراعَه الثوبَ الشخصي.

ولهذا هو يقول ﷺ: «أنا ساكتٌ ما سلمت أُمور المسلمين»[١]، ما دام الظلم، ما دام التعدّي عليَّ أنا [فـ]ـأنا أسكت، ما دام الناس يعيشون، ما دام الناس يشعرون بأنّ الأُمور بخير، فأنا أسكت، حتّى تصيبهم شرارة الانحراف.

بعد عمر مباشرةً أعلن رأيه في عمر بن الخطّاب، قبل أن تجيء الأحداث أعلن رأيه في عمر وأبي بكر، وهذا لم يكن صراعاً شخصيّاً؛ لأنّ عمر كان قد مات، وهو الآن عضوٌ في الشورى، ومصيره السياسي مرتبطٌ بانتخاب عبد الرحمن بن عوف له، وعبد الرحمن بن عوف لا ينتخبه إذا أعلن معارضة عمر.

إذاً، فإعلانه لمعارضة عمر في مجلس الشورى كان على العكس، هذا كان موقفاً عقائديّاً، موقفاً نضاليّاً، ولم يكن موقفاً شخصيّاً أبداً؛ لأنّ المصلحة الشخصيّة هنا كانت تقتضي أن يسكت عن عمر لا أن يعترض على عمر، [كانت تقتضي] أن يُمضي أعمالَ عمر لا أن يعترض على عمر.

هو تصيّد أوّل فرصة مناسبة لأنْ يعترض فيها على عمر، ثمّ يفسّر موقفه

(١) نهج البلاغة: ١٠٢، الخطبة ٧٤.

بأنّه موقف عقائدي لا أنّه موقف شخصي. المسلمون كلّهم يشعرون أنّه ليس بينه وبين الخلافة إلّا أنْ يقرَّ تصرّفاتِ عمر، إلّا أنْ يقرَّ سلوك عمر، فقال: «لا أُريد هذه الخلافة»(١).

هذا موقفٌ لا يُمكن أن يفسَّر على أساس الصراع الشخصي، وإنّما يفسَّر على أساس أنّ هذا الرجل يمسك بيده نظريّةً جديدة للإسلام، نظريّةً غيرَ النظريّة التي طبّقها عمر بن الخطّاب، والتي طبّقها أبو بكر من قبله.

ثمّ بعد هذا لمّا جاء عثمان، ولمّا تكشّف الانحراف إلى درجةٍ لم يكن بحاجة إلى صعوبةٍ لتشعر به الأُمّةُ غيرُ الواعيةِ ذلك الوعيَ الكاملَ، شعرت الأُمّة الإسلاميّة بذلك الانحراف، خصوصاً في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان.

دخل أمير المؤمنين عليه السلام في الصراع بشكل مكشوف ليثبّت في الذهنيّة الإسلاميّة دعائم النظريّة الأُخرى، فكان أمير المؤمنين عليه السلام هو رمزَ نظريّةٍ إسلاميّةٍ للحياة الاجتماعيّة تختلف عن النظريّة المطبّقة في واقع الحياة، وبقي رمزاً لهذه النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة، على ما سوف نشرح في يومٍ آخر(٢).

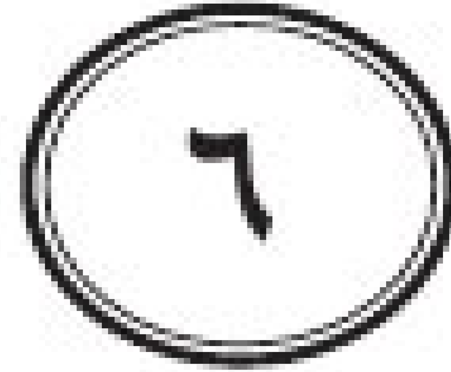
الآن انتهى الوقت؛ لأنّي أنا تعبت كثيراً، والموضوع [لم ينتهِ]، وسوف نؤجّله إن شاء الله إلى يوم آخر يكون الإشعار به في أيّام البحث(٣).

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨.

(٢) وهو ما سوف يكرّره قدس سره في محاضراته الباقية حول الإمام علي عليه السلام، وفي محاضراته حول الإمامين الحسنين عليهما السلام.

(٣) يقصد قدس سره من البحث: درسه اليومي المعتاد. وفي آخر المحاضرة الصوتيّة يقول قدس سره: «الآن شيخ علي اقرأ».



عوامل انحراف التجربة الإسلاميّة ودور الأئمّة عليهم السلام في مواجهته

كنّا نريد أن نحدّد دور الأئمّة عليهم السلام ـ والمخلصين ممّن يدور في فلكهم من أهل البيت عليهم السلام، والواعين من المسلمين في عصرهم[1] ـ في حماية الإسلام، وردّ الفعل بالنسبة لما وقع من انحراف بعد وفاة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله.

دور الأئمّة عليهم السلام في صيانة التجربة الإسلاميّة:

هناك دورٌ مفروض للأئمّة عليهم السلام في عالم التشريع، وذلك بنصّ الشريعة الإسلاميّة المقدّسة، وهذا الدور هو عبارة عن صيانة التجربة الإسلاميّة ـ في إنشاء المجتمع الإسلامي العالمي ـ التي أنشأ بذرتها النبي صلى الله عليه وآله، وكان المفروض أنّ القيادة الإسلاميّة لهذه التجربة تتسلسل في هؤلاء الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام واحداً بعد الآخر.

هذا هو الدور التشريعي المفروض والمنتظر بالنسبة للأئمّة عليهم السلام.

إلّا أنّنا لا نريد أن نتحدّث عن هذا الدور التشريعي[2] وأدلّته ومبرّراته، بمعنى أنّنا لا نريد الخوض في بحث الإمامة وإثبات إمامتهم عليهم السلام:

أ ـ لأنّنا سنعتبر هذا البحث مفروغاً عنه.

ب ـ ولأنّ هدف هذا البحث هو دراسة مواطن العبرة من حياتهم عليهم السلام،

---

(١) يبدو أنّ حقّ العبارة أن تكون: «..دور الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، والمخلصين ممّن يدور في فلكهم، والواعين من المسلمين في عصرهم..»، أو أن يكون المراد من (أهل البيت) الأعمّ من المعصومين عليهم السلام.

(٢) في (غ): «المشترك».

ومحاولة فهم وضعهم عليهم السلام بعد أن اُقصوا عن مراكزهم القياديّة في تزعّم التجربة الإسلاميّة للمجتمع، للدولة، للاُمّة.

ج ـ ولأنّ هذه الدراسة ربما تعطينا الضوء الذي نستعين به في تصوّرنا وموقفنا الإسلامي تجاه قضايانا وأهدافنا.

التسلسل المنطقي للانحراف بقطع النظر عن دور الأئمّة عليهم السلام:

الفكرة التي اُريد عرضها خلال هذا البحث تتلخّص في عدّة أسطر، ولذا سنعرض هذا الملخّص، ومن ثمّ ننتقل إلى الشرح والتوسيع، والفكرة هي: أنّ الإسلام جابه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله انحرافاً خطيراً في صميم التجربة التي أنشأها النبي صلى الله عليه وآله للمجتمع الإسلامي والاُمّة الإسلاميّة.

هذا الانحراف في التجربة الاجتماعيّة والسياسيّة للاُمّة، في الدولة الإسلاميّة، كان من المفروض ـ بحسب طبيعة الأشياء[١] ـ أن يتّسع ويتعمّق بالتدريج وعلى مرّ الزمن؛ لأنّ الانحراف يبدأ بذرةً ثمّ تنمو، وكلّما تحقّقت مرحلة من هذا الانحراف مهّدت هذه المرحلة إلى مرحلةٍ أوسع وأرحب.

وبناءً عليه، كان من المفروض أن يصل هذا الانحراف في خطّه المنحني[٢] ـ طوال عمليّةٍ تاريخيّةٍ وزمنيّةٍ طويلة المدى ـ إلى الهاوية، أي إلى أبعد مدىً متصوّرٍ لهذا الانحراف، بحيث تصبح التجربة الإسلاميّة للمجتمع والدولة مليئةً بالتناقضات من كلّ جهةٍ وصوب، وتصبح عاجزةً عن مجاراة ومواكبة الحدّ الأدنى من حاجات ومصالح الاُمّة، بمعنى أن تتهاوى هذه التجربة بالتدريج،

---

(١) في المحاضرة المدوّنة تقدّمت الجملة الاعتراضيّة على قوله قدس سره: «من المفروض».

(٢) السير والانحناء التنازلي هنا وصفٌ للمنحرِف، بينما السير التصاعدي الآتي وصفٌ للانحراف نفسه، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: حيثيّات بدء أمير المؤمنين عليه السلام الصراع السياسي.

فتثبت عجزاً تلو عجز، وقصوراً تلو قصور، حتّى تعلن إفلاسها نهائيّاً عن مواكبة الحدّ الأدنى للقضايا التي تتبنّاها، وللرسالة التي تعلن عنها.

وحينما يتسلسل الانحرافُ في خطٍّ تصاعديٍّ من هذا القبيل أو في خطٍّ تنازليٍّ إلى الهاوية، فمن المنطقي ـ في فهم تسلسل الأحداث ـ أنّ هذه التجربة سوف تتعرّض بعد مدىً من الزمن لانهيارٍ كامل، أي: إنّ الدولة والمجتمع الإسلامي والحضارة الإسلاميّة ـ كقيادةٍ للمجتمع ـ سوف تتعرّض للانهيار الكامل؛ لأنّ هذه التجربة حينما تصبح ملأى بالتناقضات، حينما تصبح عاجزةً عن مواجهة وظائفها الحقيقيّة.. حينما تصبح بهذا الوضع، تصبح عاجزةً عن حماية نفسها، وتصبح الأُمّة نفسها عاجزةً عن حماية هذه التجربة(١)، [فـ]ـلا بدّ أن تنهار هذه التجربة في مدىً من الزمن، وذلك كنتيجة نهائيّة وحتميّة لبذرة الانحراف التي غُرست فيها.

وحينما تنهار هذه التجربة، يكون معنى ذلك أنّ الدولة الإسلاميّة تسقط، والحضارة الإسلاميّة تتخلّى عن قيادة المجتمع، والمجتمع الإسلامي يتفكّك، والإسلام يُقصى عن مركزه كقائدٍ للمجتمع وكقائدٍ للأُمّة.

ولكنّ الأُمّة تبقى طبعاً، المسلمون يبقون كأُمّة، التجربة في المجتمع والدولة تفشل وتخطئ وتنهار أمام أوّل غزو يغزوها، كما حصل أمام الغزو التتري الذي واجه الخلافة العباسيّة(٢).

---

(١) هنا قال الشهيد الصدر ﷺ في جملة اعتراضيّة: «أمّا أنّ التجربة عاجزة عن حماية نفسها؛ [فـ] ـلأنّها تكون قد استنفدت أهدافها، واستنفدت إمكانيّة البقاء والاستمرار على مسرح التاريخ؛ لأنّها أصبحت مكفوفةً ومفضوحةً وواضحةَ الخطأ، والتجربةُ المكفوفةُ لا يمكن أن تستمرَّ على مسرح التاريخ. وأمّا أنّ الأُمّة ليست على مستوى حماية هذه التجربة؛ [فـ]ـلأنّ الأُمّة لا ترى منها ولا تجني الخير الذي تفكّر فيه، ولا تحقّق عن طريقها الآمال التي تصبو إليها؛ ولذا لا ترتبط هذه التجربة بأيّ ارتباطٍ حقيقيٍّ مع الأُمّة. وبناءً لما تقدّم..».

(٢) والذي بدأ في أواخر سنة ٦٥٥ هـ، وتلاه سقوط بغداد مطلع سنة ٦٥٦هـ، فراجع: تاريخ مختصر

لكنّ هذه الأُمّة بقيت كمسلمين، ولكنْ ـ بحسب المنطق وتسلسل الأحداث ـ من المحتوم أن تنهار الأُمّة بعد انهيار التجربة. هذه الأُمّة ـ كأُمّةٍ تدين بالإسلام، وتؤمن بالإسلام، وتتفاعل مع الإسلام ـ أيضاً تنهار، لماذا؟

لأنّ هذه الأُمّة ما عاشت[1] الإسلام الصحيح الكامل مدىً طويلاً من الزمن، [وإنّما] عاشت الإسلام الصحيح الكامل زمناً قصيراً، وهو الزمن الذي مارس فيه التجربةَ شخصُ الرسول صلى الله عليه وآله. ومن ثمّ عاشت تجربة منحرفة، هذه التجربة المنحرفة لم تستطع أن تعمّق فيها الرسالة، وتعمّق فيها المسؤوليّة تجاه عقيدتها، ولم تستطع أن تثقّفها، وتحصّنها، وتزوّدها بالضمانات الكافية لعدم الانهيار أمام حضارةٍ جديدةٍ وغزوٍ جديدٍ وأفكارٍ جديدةٍ يحملها الغازي إلى بلاد الإسلام.

هذا الغازي الذي يأتي فيحطّم التجربة ويحطّم المجتمع الإسلامي والدولة الإسلاميّة يأتي معه بتقاليد ومفاهيم وحضارةٍ وتصوّراتٍ وعادات، هذه كلّها سوف تؤثّر على الأُمّة الإسلاميّة التي لم تعرف الإسلام معرفةً حقيقيّةً طيلة هذه التجربة المنحرفة، وسوف لن تجد هذه الأُمّة في نهاية تلك التجربة المنحرفة ـ وبعد أن نفدت[2] روحها الحقيقيّة، وبعد أن أُهينت كرامتها، وبعد أن حُطّمت إرادتها، وبعد أن غلّت أياديها عن طريق الزعامات التي مارست تلك التجربة المنحرفة ـ ما تحصّن نفسها به ضدّ ما يطرأ بعد انهيار التجربة.

وحينئذٍ ستنهار الأُمّة أيضاً، وسوف تندمج بالعالَم الكافر الذي غزاها وفتحها وسيطر عليها، وسوف تذوب الرسالة والعقيدة، وتصبح الأُمّة خبراً بعد أن كانت أمراً حقيقيّاً على مسرح التاريخ، وبعد هذا ينتهي دور الإسلام.

الدول: ٢٦٩؛ تاريخ الإسلام ٤٨: ٣٢ وما بعد.

(١) أي: «لم تَعِش».

(٢) في (غ): «فقدت».

هذا هو التسلسل المنطقي بقطع النظر عن دور الأئمّة عليهم السلام.

خلاصة دور الأئمّة عليهم السلام تجاه التسلسل المنطقي للانحراف:

أمّا دور الأئمّة عليهم السلام تجاه هذا التسلسل فيتلخّص بأمرين[١]:

١ ـ محاولة القضاء على الانحراف في تجربة المجتمع الإسلامي:

الأمر الأوّل الذي كان الأئمّة يمارسونه في حياتهم هو محاولة القضاء على الانحراف الموجود في تجربة المجتمع الإسلامي، وإرجاع التجربة إلى وضعها الطبيعي، وذلك بإعدادٍ طويلِ المدى، وبتهيئة الظروف الموضوعيّة التي تناسب وتتّفق مع إرجاع التجربة إلى وضعها الطبيعي.

فمتى كانت الظروف الموضوعية مهيّأةً، كان الأئمة عليهم السلام على استعدادٍ لأنْ يمارسوا إرجاع التجربة إلى الوضع الطبيعي، كما مارس أمير المؤمنين عليه السلام وقال بأنّ الله أخذ عهداً على الإنسان أن لا يقرَّ على الظلم مع وجود الناصر والناصر موجود...[٢].

وكلمة (الناصر) استبطنت كلَّ الحدود والظروف الموضوعيّة التي سوف تذكر في ما بعد[٣]، والتي تجعل في قدرة الإمام المعصوم أن يحاول إعادة التجربة الإسلاميّة إلى وضعها الطبيعي ووضعها الصحيح.

هذا هو الأمر الأوّل، الذي يعني الإعدادَ والعملَ لتهيئة المقدّمات والظروف الموضوعيّة للتمكّن من إعادة التجربة إلى وضعها الطبيعي والصحيح.

---

(١) سيتجدّد الحديث عن هذين الخطّين في المحاضرة السابعة، تحت عنوان: تخطيط الأئمّة عليهم السلام لمواجهة الانحراف، وفي المحاضرة الثامنة، تحت عنوان: موقف الأئمّة عليهم السلام من انحراف الزعامة وانهيار التجربة والأُمّة.

(٢) «وما أخذ الله على العلماء ألّا يقارّوا على كظّة ظالمٍ ولا سغب مظلوم» نهج البلاغة: ٥٠، الخطبة ٣.

(٣) في المحاضرتين القادمتين كما أشرنا آنفاً.

٢ ـ تعميق الرسالة فكريّاً وروحيّاً وسياسيّاً في ذهن الأُمّة:

الأمر الثاني الذي كان يمارسه الأئمّة عليهم السلام ـ حتّى في حالة الشعور بعدم وجود هذه الظروف الموضوعيّة، وبعدم تحقّق هذه الظروف التي تهيّئ الإمام عليه السلام لخوض المعركة في مقام تسلّم زمام الحكم من جديد، هذا الأمر الذي كان يمارسه الأئمّة عليهم السلام.. ـ هو تعميق الرسالة فكريّاً وروحيّاً وسياسيّاً في ذهن الأُمّة الإسلاميّة؛ بغية إيجاد تحصينٍ كافٍ تامٍّ في صفوف الأُمّة الإسلاميّة؛ وذلك لكي يؤثّر هذا التحصين في مناعتها وفي عدم انهيارها بعد تردّي التجربة وسقوطها.

كان من اللازم بعد أن حرمت الأُمّة الإسلاميّة من التجربة الصحيحة للحياة الإسلاميّة بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أن تطعّم وأن تغذّى رساليّاً بالإسلام، تغذّى في مجالها الروحي، وفي مجالها الفكري، وفي مجالها الاجتماعي والسياسي، في جميع هذه المجالات تغذّى الأُمّة بالإسلام، وتحصّن بالإسلام لكي تعرف الإسلام وتستوعبه.

وأعني بتعبئة الأُمّة هنا: لا مجموع الأُمّة[1]؛ لأنّ هذه لا يمكن أن تتحقّق بالنسبة لمجموع الأُمّة إلّا في حال وجود قيادةٍ تمارس التجربة، تمارس الحكم في الدولة والمجتمع. ولكنّ الذي أعنيه في المقام من تعبئة الأُمّة هو إيجاد قواعد واعيةٍ في الأُمّة، وإيجاد روحٍ رساليّةٍ في الأُمّة، وإيجاد عواطف تجاه هذه الرسالة في الأُمّة.

هذا هو الأمر الثاني الذي مارسه الأئمّة عليهم السلام على طول الخطّ، وإن كان الأئمّة عليهم السلام حتّى في حالة شعورهم بعدم إمكان استرجاع مركزهم المغصوب من الخلفاء الغاصبين، حتّى في هذه الحالة كانوا يعملون عملاً مهمّاً جدّاً لإنقاذ

(١) مراده قدس سره: «ولا أعني بتعبئة الأُمّة هنا: مجموع الأُمّة».

وجود الأُمّة في المستقبل، وضمان عدم انهيارها الكامل وتفتّتها كأُمّةٍ بعد سقوط التجربة، وذلك بإعطاء التحصين الكامل المستمرّ لهذه الأُمّة، على تفصيلٍ سوف يأتي إن شاء الله تعالى خلال بحث هذه الفكرة بالتوسيع.

هذا هو ملخّص البحث. وأمّا التفصيل، فما يلي:

قسمٌ من تفاصيل هذه الفكرة قلناه في ما سبق من أيّام البحث[١]، ولكنّنا الآن نلخّصه لأجل أن يبقى التسلسل في عرض الفكرة، وسنستمرّ في عرض الفكرة في طول التلخيص:

تمثّل الانحراف في تغييب الرسالة لا الشخص:

وقع الانحراف بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله. هذه هي بداية البحث في تسلسل هذه الفكرة، وكان هذا الانحراف الذي وقع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله انحرافاً أساسيّاً وخطراً جدّاً، بالرغم من أنّه لم يمسَّ ـ في ظاهر الحال ـ إلّا ميداناً واحداً من الميادين التي كان يعتمد عليها الإسلام في بداية الأمر.

لعلّ كثيراً من الناس هكذا بدا لهم: أنّ هذا الانحراف لا يعني أكثر من أنّ شخصاً كان مرشّحاً من قبل النبيّ صلى الله عليه وآله أو من قبل الله سبحانه وتعالى، وهذا الشخص قد أُقصي أو غصب حقّه وأُعطي حقّه لشخصٍ آخر بدلاً عنه.

قد يكون هذا الشخص الآخر قادراً على أن يقوم مقامه في هذه المهمّة، قد يكون في ظاهر الحال هكذا يُتخيَّل: يُتخيَّل أنّ الانحراف كان يتمثّل في اعتداءٍ على حقّ شخصٍ معيّن، وسلب هذا الحقّ من هذا الشخص المعيّن، وتسلّمه [من قِبَل] شخص آخر من الخلفاء الذين تسلّموا زمام الحكم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله.

إلّا أنّ الانحراف لم يكن انحرافاً شخصيّاً أو سهلاً أو بسيطاً بهذا المقدار؛

---

(١) في المحاضرة الرابعة، تحت عنوان: مقدّمة حول عناصر التجربة الإسلاميّة وعوامل انحرافها.

لأنّنا قلنا في الأيّام السابقة[1] بأنّ الإسلام رسالة تربيةٍ للإنسان، رسالة جاءت لتبني الإنسان من جديد، وبناء الإنسان من جديدٍ يتوقّف على السيطرة على كلّ المجالات التي يمكن للإنسان أن يمارس حياته ونشاطه عليها؛ لأنّ المربّي ما لم يسيطر على كلّ تلك المجالات، وما لم يمتلك زمام كلّ تلك الميادين لا يمكنه أن يسيطر على كلّ أبعاد الإنسان، وبالتالي أن يربّي الإنسان وفقاً للرسالة التي جاء بها.

التربية الشاملة الكاملة للإنسان ـ بحيث يبني إنساناً إسلاميّاً جديداً متميّزاً بكلّ أبعاده وجهاته ومقوّماته عن إنسان ما قبل الإسلام، عن إنسان الجاهليّة ـ هذا يتوقّف على أن يسيطر المربّي على كلّ المجالات التي يعمل عليها الإنسان، يسيطر على مجال العلاقات الفرديّة مع الإله، يسيطر على مجال علاقاته مع الآخرين في النطاق العائلي والمجال الاجتماعي، يسيطر على كلّ هذه المجالات؛ لأنّه لو لم يسيطر على أيّ واحدٍ منها يكون معنى ذلك أنّ جزءاً من الإنسان لم يُسيطَر عليه. وبما أنّ الإنسان يتفاعل مع كلّ هذه المجالات، يكون عدم السيطرة على واحدٍ منها معناه أنّه لم يسيطر على جزءٍ من الإنسان، وبالتالي لم يستطع أن يربّي الإنسان.

أنتم ترون أنّ الأب لا يستطيع أن يربّي ابنه تربيةً كاملةً شاملة؛ لأنّه ليس المربّي الوحيد لابنه؛ ولأنّ هناك أشياء تشاركه في تربيته ابنَه، يشاركه في تربيته زملاؤه في المدرسة، وأساتذته في المدرسة، والمجتمع الذي يعيش فيه، الشارع الذي يلعب فيه، القوانين التي تطبّق عليه من قِبَل الدولة، كلّ هؤلاء يشاركون في تربية ابنه.

فالتربية الشاملة الكاملة لا تكون إلّا بالهيمنة الكاملة على كلّ هذه

---

(١) في المحاضرة الرابعة، تحت عنوان: ماهيّة الرسالة الإسلاميّة.

المجالات، بحيث أنْ تؤخذ خيوط هذه المجالات بيد المربّي، وبعد هذا يستطيع أن يحدّد الأُطروحة الصحيحة للإنسان الأفضل.

على هذا الأساس كانت سيطرة الإسلام على كلّ المجالات ـ بما فيها المجال الاجتماعي، الذي هو رأس هذه المجالات، كان هذا ـ جزءاً أساسيّاً من التركيب الإسلامي، من الأُطروحة الإسلاميّة. كان من الضروري جدّاً للنبي صلى الله عليه وآله أن يسيطر على كلّ هذه المجالات، لا أن يكون واعظاً في المسجد فحسب، ولا أن يكون أُستاذاً في حلقةٍ فحسب، بل يكون هذا وذاك، ويكون ـ إضافةً إلى هذا وذاك ـ رائداً للمجتمع، حاكماً للمجتمع في كلّ ما يصبو إليه المجتمع من آمالٍ وأهداف، ويكون مخطِّطاً ومقنِّناً للمجتمع في كلّ ما يحتاج إليه المجتمع من قوانين ونظم.

هذا هو أُسلوب التربية الكاملة الشاملة الذي اختاره الإسلام، وليس من الكلفة أن يقال في نصٍّ نبويٍّ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهليّة»[(١)]؛ لأنّ الارتباط بالإمام، الارتباط بالقيادة[(٢)]، جزءٌ من التربية الشاملة الكاملة للإنسان.

إذاً، كانت القيادة الإسلاميّة للحياة الاجتماعيّة جزءاً ضروريّاً لإنجاح الحياة الإسلاميّة، والثروة[(٣)] الإسلاميّة، وإنتاج الأُمّة والفرد والعائلة.

بناءً على هذا، نستطيع أن نعرف أنّ أيّ انحرافٍ يحصل في مجال قيادة المجتمع وقيادة التجربة الإسلاميّة، أنّ أيّ انحرافٍ يقع في هذه القيادة، فهو يهدّد المخطَّط كلَّه بكامله؛ لأنّ هذا الانحراف سوف ينزع هذا المجال من يد الإسلام، وإذا انتزع هذا المجال من يد الإسلام فسوف لن يسيطر على جزءٍ

(١) الكافي ١: ٣٧١، الحديث ٥ و٣٧٦، الحديث ١.

(٢) في (م) و(غ): «الارتباط في الإمام، الارتباط في القيادة».

(٣) كذا في (م) و(غ)، وفي (ف): «الثورة».

كبيرٍ من الإنسان، وبالتالي ـ وبقانون التفاعل بين الأجزاء بعضها مع بعضٍ ـ سوف لن يسيطر على بقيّة الأجزاء.

يعني: إنّ الانحراف في هذا المجال يشكّل بداية خطرٍ على التجربة الإسلاميّة كلّها، على عمليّة التربية الإسلاميّة كلّها، ولم يكن مجرّدَ استبدال شخصٍ بشخصٍ آخر، لم يكن ظلماً لعليٍّ بن أبي طالب عليه السلام بما هو عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام، وإنّما كان ظلماً للتجربة الإسلاميّة، وبالتالي للبشريّة كلّها.

عدم كفاءة قيادة التجربة الإسلاميّة[١]:

هذا الانحراف وقع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وتمثّل في أنّ جماعةً من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله لم يرتضوا عليّاً المنصوصَ عليه من قبل النبي صلى الله عليه وآله للخلافة، فتصدّى بعضُهم لها، ومارس هؤلاء المرشّحون الحكمَ وقيادةَ التجربة الإسلاميّة، مارس أبو بكر ذلك، ومن بعده عمر بن الخطّاب، ثمّ عثمان بن عفّان.

هؤلاء الصحابة تارةً ننظر إليهم بمنظارٍ شيعيٍّ خاصّ، وهذا المنظار لا نريد أن نتحدّث به، ولكنّا ننظر إلى هؤلاء بقطع النظر عن هذا المنظار الخاصّ، فنقول: إنّ تسلّم هؤلاء لزعامة التجربة الإسلاميّة كان يشكّل بداية الانحراف، وكان سبباً حتميّاً لتأرجح التجربة بين الحقّ والباطل، واستبطانها شيئاً من الباطل، واتّساع دائرة الباطل بالتدريج، وذلك [لعدّة أُمور][٢]:

١ ـ الرواسب الجاهليّة:

أمّا أوّلاً؛ فلأنّ هؤلاء الصحابة الذين تسلّموا زمام الحكم أُناسٌ يشهد التاريخ عن حياتهم بأنّهم عاشوا الجزء الأكبر من حياتهم في عصرٍ جاهلي[٣]،

(١) سبق أن تعرّض الشهيد الصدر رحمه الله للحديث عن بعض هذه النقاط في المحاضرة الخامسة.

(٢) ما بين عضادتين من (ف).

(٣) فالخليفة الأوّل عمّر ٦٣ عاماً وتوفّي سنة ١٣ هـ (الفتوح ١: ١٢١ ـ ١٢٣)، فيكون قد عاش في

وضمن إطار التفكير الجاهلي في كلّ ما كانوا يفكّرون فيه [أو يعملون فيه][(١)] أو يتألّمون منه، في كلّ مجالاتهم الاجتماعيّة ومجالات أهدافهم ومجالاتهم الفكريّة والعقائديّة، كانوا يعيشون الإطار الجاهلي بكلّ معناه، بعد هذا دخلوا في الإسلام.

ولا نريد أن نتحدّث عن طبيعة دخولهم في الإسلام. لنفترض أنّ دخولهم في الإسلام كان دخولاً حسناً، وأنّهم عاشوا مع النبي ﷺ عيشةً حسنة، ولكنّ بذور الجاهليّة لم تُستأصل من أفكارهم وعقولهم؛ بدليل أنّهم ـ بالرغم من عيشهم مع النبي ﷺ، وبالرغم من الادّعاء بالاستئثار بلطف النبي ﷺ، بالرغم من كلّ هذا ـ كانوا بين حينٍ وآخر يعلنون عن تقاليد وتصوّراتٍ ترتبط بالوضع الذي كانوا يعيشونه قبل الإسلام:

أ ـ احتجاج الخليفة الثاني على متعة الحجّ:

احتجاج الخليفة الثاني مثلاً على متعة الحجّ؛ فبالرغم من أنّ متعة الحجّ عملٌ عباديٌّ خالصٌ لا يرتبط بأيّ مصلحةٍ من مصالح الدنيا المعلومة، وبالرغم من أنّ الإنسان العاقل لا يستطيع أن يدرك بعقله أيّهما أحسن: هل الأحسن العمرة المستمرّة إلى الحجّ؟ أو العمرة المتحلّل منها التي يأتي بعدها الحجّ؟ هذا العمل العبادي الذي لا تستطيع عقولنا أن تفضّل فيه بين الطريقتين اللتين يمكن أن يؤدّى بهما..

هنا عمر لم يتأثّر في احتجاجه بعقله؛ لأنّه لا محلّ للعقل في التفضيل في هذا المقام، وإنّما تأثّر بطبيعة تربيته وعاداته وتقاليده. وحيث إنّ الجاهليّة

الجاهليّة ٤٠ عاماً. والخليفة الثاني ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة (الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣: ١١٤٥)، فيكون قد عاش فيها ٢٧ عاماً. والخليفة الثالث ولد في السنة السادسة بعد الفيل (الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣: ١٠٣٨)، فيكون قد عاش فيها ٣٤ عاماً.

(١) ما بين عضادتين من (غ) و(ف).

كانت ترفض التحلّل بين العمرة والحجّ[١]، تأثّر الخليفة الثاني تأثّراً إلى درجةٍ أن يردّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وجهاً لوجهٍ، مفضّلاً طريقة الجاهليّة على طريقة الإسلام[٢].

وفي حياة الخلفاء الثلاثة شواهدُ كثيرةٌ على هذا تظهر بين حينٍ وحين[٣].

ولا نريد من هذا أن نقول بأنّ هؤلاء كانوا أُناساً يستبطنون الكفر والعداء للإسلام أو لشخص رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فإنّ الحديث عن هذا قد جمّدناه، ولكن

(١) كذا في (م) و(غ) و(ف)، وهو يناسب ما تقدّم، لكن وفقاً للتعليل الآتي يُفترض أن يكون مراده رحمه الله: «..ترفض الجمع» لا «التحلّل»؛ إذ لم نعثر على ما يفيد بأنّ أهل الجاهليّة كانوا لا يتحلّلون بين العمرة وبين الحجّ ويبقون على إحرامهم، بل هو بعيد؛ فإنّهم كانوا يعتمرون في رجب ويحجّون في ذي الحجّة، وكانوا يفصلون بينهما، و«يعتقدون.. أنّ العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر» [فتح العزيز ٧: ١١٢؛ المجموع (النووي) ٧: ٨، وراجع حول عقائد أهل الجاهليّة في المسألة: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٣٩٢]. ثمّ إنّ عمر بن الخطّاب ـ وكما يأتي ـ أمر بالفصل بين الحجّ وبين العمرة بعد أن جمع بينهما رسول الله صلى الله عليه وآله، لا أنّه أمر بالتحلّل بينهما مع بقاء العمرة في رجب والحجّ في ذي الحجّة، فلاحظ.

(٢) سُجّل اعتراض الخليفة الثاني على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله بعدّة صيغ: **الأُولى**: في حياته صلى الله عليه وآله، وهي التي ربما قصدها الشهيد الصدر رحمه الله بقوله: «وجهاً لوجه»؛ حيث بلغه صلى الله عليه وآله اعتراض أصحابه بالقول: «..فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا»، والاعتراض منسوبٌ في عشرات مصادر أهل السنّة إلى الصحابة على لسان جابر بن عبدالله الأنصاري [الجامع المسند الصحيح المختصر (البخاري) ٦: ٢٦٨١، الحديث ٦٩٣٣]. ولكنّ الشيخ المفيد رحمه الله صرّح بأنّه «كان في من أقام على الخلاف للنبي صلى الله عليه وآله: عمر الخطّاب، فاستدعاه..» (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ١٧٤؛ بحار الأنوار ٢١: ٣٨٦، الحديث ١٠). **الثانية**: بعد وفاته صلى الله عليه وآله؛ حيث نهى عن عمرة التمتّع وقال: «قد علمتُ أنّ النبي[صلى الله عليه وآله] قد فعله وأصحابه، ولكنّي كرهتُ أن يظلّوا بهنّ معرّسين في الأراك، ثمّ يروحون بالحجّ تقطر رؤوسهم» المسند (ابن حنبل) ١: ٥٠. ولعلّ تعليله يؤيّد ما ذكره المفيد رحمه الله من كونه ضمن المعترضين في الصيغة الأُولى. **الثالثة**: بعد وفاته صلى الله عليه وآله أيضاً؛ حيث قال: «افصلوا بين حجّكم وعمرتكم؛ فإنّ ذلك أتمّ لحجّ أحدكم وأتمّ لعمرته أن يعتمر في غير أشهر الحج» (الموطّأ ١: ٣٤٧، الحديث ٦٧؛ كتاب الأم ٧: ٢٢٦). والصيغة الأخيرة أنسبُ لتعليل الشهيد الصدر رحمه الله، ولكنّها لم تكن وجهاً لوجه.

(٣) راجع بعض اعتراضات القوم على رسول الله صلى الله عليه وآله في: النصّ والاجتهاد: ٧٧، ١٢٥ و١٦٢، الموارد: ١٠، ١٥ و١٨.

ما قلناه يمكن أن ينسجم حتّى مع التصوّر السنّي لهؤلاء؛ بأن نقول: هؤلاء صحابة صالحون، ولكنّهم مع هذا كلّه لا يزال الراسب الجاهلي يعيش في أعماقهم بدرجة ٣٠، ٤٠، ٥٠٪ مثلاً، وأمّا الباقي فأصبح إسلاميّاً.

ب ـ النظر إلى النبوّة بوصفها سلطاناً:

مثلاً: في يوم السقيفة، تعلمون بأنّ الخليفة الأوّل والثاني قالا: «من ينازعنا سلطان محمّد»؟!(١).

كان محمّد ﷺ شيخ قبيلةٍ وهم شيوخ هذه القبيلة، وبعد أن مات شيخ القبيلة الأوّل يتولّى شيوخ القبيلة الآخرون.

«من ينازعنا سلطان محمّد؟!»، هذا راسب جاهلي.

قد لا يكون عمر أو أبو بكر يعيش هذا الراسب [في تمام حالاته، بل يكون في بعض الحالات يترفّع عن هذا الراسب](٢)، قد يكون الجانب الإسلامي يتغلّب على الجانب الجاهلي، ولكن حيث إنّ الراسب موجود، فإنّ جزءاً من نفسه يمثّل هذا الراسب، ولهذا يطفو هذا الراسب في لحظاتٍ عديدةٍ من حياتهم الاجتماعيّة والسياسيّة.

إذاً، فهؤلاء الخلفاء ـ بحكم وضعهم وحياتهم ـ لم يكونوا أُناساً قد اجتثّت الجاهليّة من نفوسهم اجتثاثاً تامّاً، بل كانت الجاهليّة تعيش في نفوسهم في حالةٍ واضحةٍ ملحوظةٍ تنعكس على سلوكهم بين حينٍ وآخر.

وحينئذٍ، فهؤلاء حينما يتزعّمون قيادة التجربة الإسلاميّة فبطبيعة الحال: مجموع الأفكار والعواطف التي يمثّلها أبو بكر أو عمر أو عثمان هي التي تحكم

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٥، ٢٩؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٢٠، وهو قول الخليفة الثاني، وقد ذكرنا في المحاضرة الخامسة كيف عبّر أبو سفيان عن هذا المفهوم يوم فتح مكّة (البداية والنهاية ٤: ٢٩٠).

(٢) ما بين عضادتين من (غ) و(ف).

وهي التي تسود، فمعنى ذلك أنّ الجاهليّة سوف تشارك الإسلام في الحكم، وسوف يصبح للجاهليّة حكمٌ وتزعّمٌ في توجيه التجربة الإسلاميّة التي جاءت لأجل أن تنقذ الإنسان من الجاهليّة إلى الإسلام، وتصنع الإنسان الجديد، وتقضي على الإنسان القديم. بينما كان المفروض هكذا، وإذا بالجاهليّة تشارك الإسلام في الحكم.

٢ ـ عدم استيعابِ الرسالة الإسلاميّة والتهيّؤِ للحكم:

وأمّا ثانياً، فإنّ هؤلاء ـ بقطع النظر عن جهة الراسب الجاهلي ـ لم يكونوا مهيّئين للحكم[١]؛ لم يكونوا قد استوعبوا الرسالة الإسلاميّة استيعاباً كاملاً؛ لأنّ هؤلاء الصحابة تأثّروا بالمحنة، عاشوا المحنة السياسيّة للدولة الإسلاميّة، المحنة العسكريّة لهذه الدولة. الدولة الإسلاميّة كانت في خضمّ الحروب وفي خضمّ الفتن، وفي منازعاتٍ مع المشركين من ناحية، ومع اليهود من ناحيةٍ أُخرى، ومع سائر قبائل العرب من ناحيةٍ ثالثة.

إذاً، خضمُّ هذا الصراع العسكري والسياسي كان يجعل الصحابة دائماً في دوّامة التفكير في كيفيّة حماية الدولة الإسلاميّة، وفي كيفيّة الدفاع عنها، وفي كيفيّة المساهمة في حروبها.

تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله غزا عشرات المرّات[٢] في فترة قصيرة، [غزا] في عدّة سنوات عشرات الغزوات، غزوات أعمّ من أن يكون قد وقع فيها قتال أو لم يقع فيها قتال؛ فالحياة كانت قلقة، حياةَ صراعٍ عسكريٍّ وسياسيٍّ مع

---

(١) هنا تبدأ الجملة الاعتراضيّة في المحاضرة المدوّنة، وتقديمها ـ كما فعلنا ـ أنسبُ لمراده رحمه الله.

(٢) اختلف في عدد غزواته صلى الله عليه وآله، فقيل: ١٨ (المعرفة والتاريخ ٣: ٢٦٢)، وقيل: ١٩ (الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢: ٥٣٥)، وقيل: ٢١ (الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١: ٢٢٠)، وقيل: ٢٤ (المعرفة والتاريخ ٣: ٢٦٢)، وقيل: ٢٦ [تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ١٥٢؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة ١: ٢٨]، وقيل: ٢٧ [تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ١١: ٥٢٦].

الأعداء، مع المشركين، مع المنافقين، من كلّ صوبٍ وحدب، لم يكن ليتوفّر لرسول الله ﷺ الوقتُ لتدريبهم وتثقيفهم على مستوى القيادة.

صحيحٌ أنّ رسول الله ﷺ كان يمارس تثقيفاً عالياً لأجل إيجاد اُمّةٍ واعية، اُمّةٍ تتمتّع بالحدّ الأدنى من الوعي، ولكن لم يكن هناك تخطيطٌ من قِبَل النبي ﷺ، أو: لم يكن هناك تخطيطٌ من قِبَلهم أيّام النبي ﷺ في أن يُثقّفوا أنفسهم ويهيّئوا أنفسهم لكي يتسلّموا الحكم بعد رسول الله ﷺ، ولهذا قال عمر بن الخطّاب عندما عزّت عليه الفتوى أنّه: ألهانا أيّام رسول الله ﷺ الصَّفْقُ في الأسواق عن تعلّم مثل هذا الحكم[1].

نحن لا نقول: إنّه ألهاه الصَّفْقُ في الأسواق، افرضوا: ألهته الحرب والغزو والجهاد في المقام عن تعلّم مثل هذه الأحكام، مع هذا هو في النتيجة لم يتهيّأ لمستوى القيادة. [سواءٌ] قلنا بأنّه اشتغل بالصفق في الأسواق كما هو يعترف، أو انشغل بوضع الدولة الإسلاميّة وظروفها السياسيّة والعسكريّة، على أيّ حالٍ: لم يتهيّأ للقيادة.

من هنا نرى أنّ أبا بكر وعمرَ كانا عاجِزَين عن تحديد أبسط الأحكام الشرعيّة؛ لأنّه لم يكن [عندهما][2] تثقيف للاختزان إلى ما بعد رسول الله ﷺ.

قلنا في بعض الأيّام السابقة[3]: إنّ صلاة الميّت التي كان يمارسها النبي ﷺ أمام المسلمين، وكان يمارسها في كلّ يوم تقريباً؛ لأنّه كان هناك عددٌ كبيرٌ من المسلمين يموتون، وكان النبي ﷺ يصلّي عليهم، مع هذا اختلف المسلمون بعد هذا، اختلف هؤلاء القادة: بأنّ التكبيرات في صلاة الميّت كم

---

(١) راجع: المسند (ابن حنبل) ٤: ٤٠٠؛ الجامع الصحيح (مسلم) ٦: ١٧٩. وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا الموقف في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: عدم إعداد الذين تولّوا الحكم إعداداً إلهيّاً.

(٢) في (م) و(غ) و(ف): «عندهم».

(٣) في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: عدم إعداد الذين تولّوا الحكم إعداداً إلهيّاً.

عددها؟[١]

هذا كلُّه يعطي المعنى الاتّكالي. إنّ هؤلاء كانوا في أيّام النبي صلى الله عليه وآله متّكلين على النبي صلى الله عليه وآله، هو القائد، هو الرائد، هو الموجِّه. الواحدُ كان يأتي، يأتمّ بالنبي صلى الله عليه وآله، لم يخطر بباله في مرّةٍ من المرّات أن يحسب هذه التكبيرات: [هذه] الأُولى، هذه الثانية، هذه... حتّى يعرف أنّها [أربع] أو [خمس].

هذا معنى الاتّكاليّة، هذه الاتّكالية عاشها هؤلاء الصحابة في عصر النبي صلى الله عليه وآله، ولم يكن المسلمون متهيّئين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله تهيُّؤاً فكريّاً وعقائديّاً لتحمّل أعباء الرسالة.

٣ ـ الفرق بين ظروف التجربة في أيّام النبي صلى الله عليه وآله وبعدها:

ثالثاً: إنّ التجربة التي عاشها النبي صلى الله عليه وآله لو فُرض أنّها تعطي هذه الإمكانيّات الفعليّة، فمن المعلوم أنّ هناك فارقاً كبيراً بين ظروف التجربة في أيّام النبي صلى الله عليه وآله والظروف التي كانت الأُمّة الإسلاميّة مقبلةً عليها حينئذٍ.

الأُمّة الإسلاميّة بعد النبي صلى الله عليه وآله كانت مقبلةً على تحوّلٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ كبيرٍ وضخمٍ جدّاً؛ لأنّه كان من المفروض تحقيق فكرة المجتمع العالمي، هذه الفكرة التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وآله ولكنّه لم يحقّقها؛ لأنّ النبي إلى أن مات لم يمتدّ نفوذه إلى أكثر من نطاق الجزيرة العربيّة، بالرغم من أنّه دعا ملوك العالم، دعا كسرى[٢] وقيصر[٣]، دعا سلطان الحبشة[٤]، دعا غيرهم إلى الإسلام لأجل

---

(١) راجع: الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار (ابن أبي شيبة) ٢: ٤٩٥. وراجع: تاريخ المدينة المنوّرة ١: ٣٩٠؛ الحاوي الكبير ٣: ٥٥. وقد استشهد الشهيد الصدر رحمه الله بهذا الشاهد في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: عدم إعداد الذين تولّوا الحكم إعداداً إلهيّاً، كما تعرّض له في بعض مؤلّفاته، فراجع: التشيّع والإسلام (بحث حول الولاية): ٣٤.

(٢) الطبقات الكبرى ١: ١٩٩؛ أنساب الأشراف ١٠: ٢٧٤.

(٣) دلائل النبوّة ٤: ٣٧٨؛ عيون الأثر ٢: ٣٢٤.

(٤) الطبقات الكبرى ١: ١٦٣؛ أنساب الأشراف ١: ٤٣٨.

توعيتهم بالإسلام، ولأجل تسجيل أنّ الإسلام مجتمعٌ عالمي، ويدعو إلى المجتمع العالمي الذي لا يفرِّق فيه بين شعبٍ وشعب، وبين قوميّةٍ وقوميّةٍ، بالرغم من هذا لم يتحقّق المجتمع العالمي أيّام النبي ﷺ، تحقّق مجتمعٌ عربيٌّ يحمل الفكرة العالميّة، مجتمعٌ عربيٌّ يقوم على أساس الرسالة، على أساس الفكرة العالميّة، ليس على أساس الفكرة القوميّة أو القاعدة القوميّة للرسالة.

هذا المجتمع بعد النبي ﷺ كان من المفروض أن يبني عالميّته، أن يُنشِئ المجتمع العالمي، أن يضمَّ في مجتمعٍ واحدٍ العربَ والفرسَ والتركَ والهنودَ وجميعَ شعوب الأرض، أن يضمَّهم في مجتمعٍ واحد، وهذه المهمّة مهمّة صعبةٌ وعظيمةٌ جدّاً، وتختلف كلَّ الاختلاف عن الظروف الموضوعيّة للمرحلة الأُولى التي عاشها النبي ﷺ.

هذه المرحلة أو هذه المهمّة تحتاج[1] إلى عقليّة رساليّة ١٠٠٪، وإلى نزاهة، وإلى تخلّص من كلّ شائب، ومن كلّ الانخفاضات الفكريّة والعاطفيّة التي يعيشها الإنسان القَبَلي أو الإنسان القومي.

عمر أو أبو بكر لن يستطيعا أن يجعلا من تجربة رسول الله ﷺ ـ التي[2] كانت تمرّ في المرحلة البدائيّة للموضوع ـ أساساً ضامناً قطعيّاً لصحّة[3] سيرهم في المرحلة الثانية، في مرحلة إنشاء المجتمع العالمي.

حتّى ذلك الوقت[4] لم يعيشا المجتمع العالمي إلّا كفكرةٍ لم تولد إلى النور، لم يعيشا أنّ الناس كلَّهم أُسرة، كلَّهم سواسية كأسنان المشط[5]، أنْ لا

---

(١) في المحاضرة المدوّنة: «التي تحتاج»، وما أثبتناه أنسب.

(٢) في (م) و(غ) و(ف): «بالرغم من أنّها»، وما أثبتناه أقرب لمراده ﷺ.

(٣) كذا في (غ) و(ف)، وفي (م): «لصفحة». وفي المقطع الوارد في (م) سقطٌ عالجناه على ضوء (غ) و(ف).

(٤) في (م): «مع أنّهما»، والصحيح ما أثبتناه من (غ) وعلى ضوء (ف).

(٥) البيان والتبيين ٢: ١٤؛ من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٩، الحديث ٥٧٩٨؛ الاختصاص: ٣٤١.

فرق بين عربيٍّ وعجمي[(١)].

هذا كانوا يسمعونه كفكرةٍ من النبي صلى الله عليه وآله، ولكن لم يكونوا يرونه مجسّداً في المجتمع، في علاقاتهم، بحيث إنّ إنساناً عجميّاً وإنساناً عربيّاً عاشا مجتمعاً واحداً بصورةٍ متكافئة، وإنّما هي مجرّد فكرةٍ لم يتيسّر لهؤلاء أن يحقّقوها، وأن يتولّوا تحقيقها في هذه المرحلة الدقيقة من التجربة الإسلاميّة.

ولذا ـ وبطبيعة الحال ـ سوف تحصل لهم بعد النبي صلى الله عليه وآله انخفاضاتٌ فكريّة وعاطفيّة تجعلهم دون مستوى تحقيق فكرة المجتمع العالمي، وقد تكون بذرةً صغيرةً جدّاً في عهدٍ ما، وقد تكون هذه البذرة تكبر بعد هذا وتصبح بلاءً كبيراً وشرّاً مستطيراً، [و] كلّكم تعلمون بأنّ في التاريخ أمثلةً كثيرةً على هذا:

العهدة على التاريخ في النقل: أنّ عمر بن الخطّاب أعفى نصارى العرب في العراق من الجزية. العرب الذين كانوا موجودين في العراق أعفاهم من الجزية وكلّفهم بالزكاة، لماذا؟ عاتبوه، قالوا له: إنّ الجزية فيها شأن الذلّ، فلا ندفع الجزية؛ لأنّنا عرب، قال لهم: إذاً فادفعوا الزكاة، وأمر بأخذ المال منهم بعنوان الزكاة[(٢)].

طبعاً لم تكن الزكاة أصغر من الجزية؛ لأنّ المشرك يدفع الجزية والمسلم يدفع الزكاة، غاية الأمر: كانت الجزية ـ بحسب نفسها ـ علاقةً فيها مهانة[(٣)]، عمر بدّل الجزية بالزكاة.

هذه البذرة ـ الصغيرة جدّاً والطفيفة ـ لم تطبّق إلّا على عشيرةٍ واحدةٍ لا أكثر من عشائر النصارى في العراق، هذه البذرة على مرّ الزمن تأتي بالشرّ

(١) البيان والتبيين ٢: ٢٤؛ الاختصاص: ٣٤١.

(٢) الجامع الصغير ١: ١٢٦؛ كتاب الأموال ١: ٣٧؛ المحلّى ٦: ١١٢؛ المبسوط (السرخسي) ٢: ١٧٨.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩).

المستطير.

لعلّ هذه البذرة هي الأساس في كلّ الشرور التي عاشها المسلمون بعد هذا، والتي مُني بها المسلمون نتيجةً للكيانات القوميّة التي زعزعت بعد ذلك الإسلام، وحطّمت الرسالة الإسلاميّة، الكيانات القوميّة: العربيّة، الفارسيّة، التركيّة، الهنديّة... إلى غير ذلك من الكيانات القوميّة الكافرة التي اُنشئت في العالم الإسلامي. لعلّ هذه العمليّة البسيطة كانت هي نقطة الانطلاق لهذا الخطّ الطويل.

أنا لا اُريد أن أقول: إنّ هذا الخبر صحيح، بل اُريد أن أقول بأنّ مهمّة إنشاء مجتمع عالمي، هذه المهمّة تحتاج إلى قيادةٍ تختلف عن طبيعة الصلات والفروق التي كانت موجودةً في هؤلاء الخلفاء.

٤ ـ فتح باب البدع والتضليل:

رابعاً: لأنّ الشعور بالظلم في نفس الخلفاء كان يقيّض لهم التوسّعَ في الإضرار. الخلفاء كانوا يشعرون بأنّهم ظلموا عليّاً عليه السلام وغصبوه حقَّه المنصوص عليه من قبل النبي ﷺ(١).

نعم، لعلّهم لم يكونوا يشعرون بأنّهم أساؤوا إلى الإسلام بهذا الترتيب(٢)، وأنّ عملهم سوف يؤدّي إلى هدم الكيان الإسلامي، لعلّهم لم يكن لهم دقّة النظر وفهمُ تسلسل الأحداث ومنطق التاريخ كما ينبغي، لم يكونوا يقدّرون

---

(١) كقول الخليفة الثاني: «هذا مولاي ومولى كلّ مؤمن، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن» (ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ١: ٦٨). وقد ذكر الشهيد الصدر ﷺ أنّ هذا الحديث يدلّ على أنّ الخليفة الثاني «كان يميل أحياناً إلى تغيير الطريقة التي سار عليها الحزب في بداية الأمر مع الهاشميّين، غير أنّ الطابع السياسي الأوّل غلب عليه أخيراً» (فدك في التاريخ: ٩٠، الهامش) ولهذا قال عمر بن الخطّاب لابن عبّاس: «ما أظنّ صاحبك إلّا مظلوماً» شرح نهج البلاغة ٦: ٤٥.

(٢) أي: بهذا الإجراء.

أنّه بعد مرور ستّين سنةً على وفاة النبي صلى الله عليه وآله سوف يشرب خليفة المسلمين الخمر[١]، ويقتني الجواري للرقص والغناء والتسلية.

لعلّهم لا يستطيعون أن يفسّروا هذا التفسير، ولكنّهم ـ على أيّ حال ـ كانوا يشعرون بأنّهم غصبوا عليّاً عليه السلام وأنّهم أخذوا حقّه، ولهذا كانوا في مقام تبرير هذا نفسيّاً، أرادوا أن يبرّروا هذا، وظهر هذا السبيل[٢] على كلماتهم.

عمر ـ خليفة المسلمين ـ قال بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حاول أن يولّي عليّاً، لكنّي أنا منعته؛ احتياطاً للإسلام وحرصاً على مصلحة الإسلام[٣]، وغير ذلك كثير.

كلّ هذه التبريرات النفسيّة إزاء وخز الضمير أنتجت انحرافاً خطيراً، أنتجت البناء النفسيَّ عندهم بأنّه لا يلزم التقيّد[٤] بما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله.

صحيحٌ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال بأنّ عليّاً إمامٌ بعدي، وإنّه خليفةٌ بعدي، [ولكن] قد يكون هناك شيءٌ آخر أصلح من هذا لحال المسلمين. إنّهم للدفاع عن الذنب الذي كان موجوداً في نفوسهم قالوا هذا.

وحينما قام هذا المبدأ انفتحت كلُّ البدع والانحرافات، حتّى إنّ عمرَ لم يرَ مانعاً من أن يقول: «متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أُحرّمهما»[٥]، لم ير مانعاً من ذلك بعد أن عاش مدّةً من الزمن الشعورَ بالذنب، وحلَّ هذا

---

(١) الفتوح ٥: ١٤.

(٢) لعلّ الأنسب: «التبرير».

(٣) «ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه، فمنعت من ذلك؛ إشفاقاً وحيطةً على الإسلام» شرح نهج البلاغة ١٢: ٢١.

(٤) كذا في (م) و(ف)، وفي (غ): «التعبّد».

(٥) «متعتان كانتا على عهد رسول الله[صلى الله عليه وآله] أنهى عنهما وأُعاقب عليهما» المناسك (ابن أبي عروبة): ٨٢ ـ ٨٣، الحديثان ٥٠ و٥١؛ المسند (ابن حنبل) ٣: ٣٢٥.

التناقضَ بأنْ خدع نفسه وأقنعها خداعاً وتضليلاً، أصبح [يستطيع أن][1] يقول: قال رسول الله ﷺ، وأنا أقول.

هذا الباب ـ باب خدع النفس ـ فتح باباً آخر، وهو باب البدع والتضليل، باب حمل الشعارات الجزئيّة الهستيريّة غير الصحيحة.

هذه الأُمور الأربعة فرضت حتميّة الانحراف لتجربة الإسلام التي جاء بها رسول الله ﷺ، وتولّى قيادتَها بعده غيرُ أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

❊ ❊ ❊

(١) ما بين عضادتين من (غ).

٣



وضع الأُمّة الإسلاميّة
وموانع تزعّم الإمام علي عليه السلام

اشتراط العصمة في القائد:

قلنا[1]: إنّ الذين تسلّموا القيادة الفعليّة وزمام التجربة الإسلاميّة بعد النبيّ ﷺ كان من المحتوم أن ينحدروا إلى الانحراف، ويزرعوا البذرة الصغيرة التي تنمو على مرّ الزمن لتأتي على التجربة وتحطّمها تحطيماً كاملاً بعد أن تبعد في التاريخ، بينما لو تسلّمها الأئمّة عليهم السلام لكان العكس، ولَمَا وجدت تلك البذرة.

ولكن قد يقال: إنّ الأشخاص الذين انتزعوا قيادة التجربة الإسلاميّة بعد النبيّ ﷺ وإن كانوا غير مهيّئين سياسيّاً[2] وروحيّاً، وإن كانوا يعيشون راسباً جاهليّاً على النحو الذي ذُكر[3]، وبالتالي لم يكونوا يمثّلون الدرجة الكاملة للانصهار مع هذه الرسالة، هذه الدرجة التي هي شرطٌ أساسيٌّ لتزعّم هذه التجربة، [لكن] أَ لا يكفي وجودُ أفرادٍ في الأُمّة يمكنهم أن يشرفوا على القيادة، فيعطوا الضمان والحماية الكافية لعدم انحراف القيادة، ولعدم مواكبتها لخطّ الرسالة؟!

الفكرة في هذا الحديث تقوم على هذا الأساس، على أساس أنّ قيادة

(١) في المحاضرتين السابقتين: الخامسة والسادسة.

(٢) في (غ): «أساسيّاً».

(٣) في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: عدم كفاءة قيادة التجربة الإسلاميّة، الرواسب الجاهليّة.

التجربة يجب أن تكون على مستوى العصمة[١]. وهذا في الواقع ليس من مختصات الشيعة؛ ليس من مختصّات الشيعة الإيمانُ بأنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً، بل هذا ما تؤمن به كلُّ الاتجاهات العقائديّة في العالم على الإطلاق. أيُّ اتّجاهٍ عقائديٍّ في العالم يريد أن يبني الإنسان من جديدٍ في إطار عقيدته، ويريد أن ينشئ للإنسانيّة معالمَ جديدةً فكريّةً وروحيّةً واجتماعيّةً، هذا الاتجاه العقائدي يشترط ـ لأنْ ينجح[٢]، وأن يتنجَّز، وأن يأخذ مجراه في خطّ التاريخ ـ أن يكون القائد الذي يمارس تطبيق هذا الاتجاه معصوماً.

يشترط في القيادة التي تطبّق الماركسيّة ـ بوصفها اتجاهاً عقائديّاً يريد أن يصنع[٣] الإنسان ويبلوره في إطاره الخاصّ ـ أن يكون معصوماً، إلّا أنّ مقاييس العصمة تختلف. في الاتجاه الماركسي يجب أن يكون القائد الذي يمارس تطبيقه معصوماً بمقاييس الماركسيّة، والقائد الذي يمارس زعامة التجربة الإسلاميّة يجب أن يكون معصوماً بمقاييس إسلاميّة، والعصمة في الحالتين بمفهومٍ واحد، وهو عبارة عن: الانفعال الكامل في الرسالة، والتجسيد الكامل لكلّ معطياتها في النطاقات الروحيّة والفكريّة والعمليّة.

هذه هي العصمة، والشيعة لم يشذّوا ـ باشتراط العصمة في الإمام ـ عن أيّ اتجاهٍ عقائديٍّ آخر؛ ولهذا نرى في الاتجاهات العقائديّة الأُخرى كثيراً ما يُتّهم القائد الذي يمثّل الاتجاه بأنّه ليس معصوماً، توجَّه إليه نفس التهمة التي يوجّهها المسلمون الواعون ـ أصحابُ عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام ـ إلى الخلفاء الذين تولَّوا الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. نفس هذه التهمة يوجّهونها إلى القادة الذين يعتقدون أنّهم لم ينصهروا برسالاتهم، ولم يتفاعلوا باتجاهاتها تفاعلاً

(١) في (م) و(ف): «العبء»، وما أثبتناه من (غ)، وهو المناسب للسياق.
(٢) في (م): «يُنتج»، وما أثبتناه من (غ) و(ف).
(٣) في (م): «يصيغ»، وما أثبتناه من (غ) و(ف).

كاملاً.

بالأمس القريب جزءٌ كبير من الماركسيّة في العالم انشطر [عن] قيادة الاتحاد السوفياتي، واتّهم [قادة][(١)] الاتحاد السوفياتي بأنّهم غير أهلٍ للحكم، بأنّهم غير مهيّئين لأنْ يكونوا قادةً للتجربة الماركسيّة[(٢)]، يعني: غير معصومين بحسب لغتنا، إلّا أنّ نفي العصمة عنهم [هو] بمقاييس ماركسيّةٍ لا بمقاييسنا الخاصّة، أي ليس بمقاييس إسلاميّة.

الاتفاق حول أصل اشتراط العصمة، والاختلاف حول مقاييسها:

إذاً، فأصل الفكرة وجوهرها تؤمن به كلّ الاتجاهات العقائديّة، وإنّما مقاييسها[(٣)] تختلف باختلاف طبيعة تلك الاتجاهات.

نعم، العصمة في الإسلام ذات صيغةٍ أوسع نطاقاً من العصمة في الاتجاهات العقائديّة الأُخرى. وهذه السعة في صيغة العصمة تنبع من طبيعة سعة الإسلام نفسها؛ لأنّ العصمة ـ كما قلنا ـ هي: التفاعل الكامل والانصهار الشامل والتجاوب مع الرسالة في كلّ أبعاد الإسلام. والرسالة الإسلاميّة تختلف عن أيّ رسالةٍ أُخرى في العالم؛ وذلك لأنّ أيّ رسالةٍ أُخرى في العالم لا تعالج إلّا جانباً من الإنسان:

١ ـ الماركسيّة ـ التي تمثّل أحدث رسالةٍ عقائديّةٍ في العالم الحديث ـ تعالج جانباً من وجود الإنسان، تترك الإنسان حينما يذهب إلى بيته، حينما يذهب الإنسان إلى مخبئه، حينما يخلو الإنسان بنفسه، ليس لها أيّ علاقةٍ

(١) في المحاضرة المدوّنة: «قيادة».

(٢) يبدو أنّه ﷺ يقصد انشقاق ماوتسي تونغ عن الحركة الشيوعيّة العالميّة بعد إعلانه قيام جمهوريّة الصين الشعبيّة عام ١٩٤٩م، ومخالفته المثال السوفييتي بخمس وعشرين نقطة نظريّة، فراجع: موسوعة السياسة ٥: ٧٠١.

(٣) في (م) و(غ): «المقاييس لها»، وفي (ف): «المقياس للعصمة».

مع الإنسان في هذه الميادين، وإنّما تأخذ بيده في مجال الصراع السياسي والاقتصادي لا أكثر من هذا المقدار. فصيغة الرسالة بطبيعتها صيغة منكمشة محدودة، صيغة تعالج جانباً من الحياة الإنسانيّة؛ فالعصمة العقائديّة التي لا بدّ أن تتوفّر في قائدٍ ماركسيٍّ مثلاً هي العصمة في حدود هذه المنطقة التي تعالجها الرسالة العقائديّة الماركسيّة.

٢ ـ أمّا الرسالة الإسلاميّة ـ التي هي رسالة السماء على وجه الأرض ـ فهي تعالج الإنسان من كلّ نواحيه، وتأخذ بيده إلى كلّ مجالاته، ولا تفارقه وهو على مخدعه في فراشه، وهو في بيته[1] بينه وبين نفسه، وهو في أيّ مجالٍ من مجالات حياته، هذه الرسالة معه، وحيث إنّ هذه الرسالة معه ولا تفارقه في أيّ مجالٍ من مجالات حياته، لهذا تكون الصيغة المحدودة من العصمة على أساس هذه الرسالة أوسع نطاقاً وأرحب أُفقاً وأقسى شروطاً، وأقوى من ناحية مفعولها وامتدادها في كلّ أبعاد الحياة الإنسانيّة.

فعصمة الإمام ليست هي عبارة عن مجرّد النزاهة في الحكم، وليست هي عبارة عن مجرّد الترفّع عن المال، بل هي عبارة عن النزاهة في كلّ فكرة، وفي كلّ عاطفة، وفي كلّ الشؤون. والنزاهة في كلّ فكرة وعاطفة وشأن هي عبارة عن انصهارٍ كاملٍ مع مفاهيم وأحكام الرسالة الإسلاميّة في كلّ مجالات هذه الأفكار والعواطف والشؤون.

هذا استطرادٌ كان لا بدّ منه.

إذاً، فالعصمة شرطٌ لمجموع الاتجاهات العقائديّة، ونحن أيضاً نؤمن بأنّ العصمة هي شرطٌ في هذا الاتجاه.

وبطبيعة الحال حينما نقول بأنّ العصمة شرطٌ في هذا الاتجاه لا نقصد بها

---

(١) في (ف) إضافة: «بينه وبين ربّه...».

أمراً حتميّاً غير قابلٍ للزيادة والنقصان والتشكيك. نفس العصمة إذا حوّلناها إلى مفهوم النزاهة والتجاوب الكامل مع الرسالة تكون أمراً مقولاً بالتشكيك، مختلفاً في الشدّة والضعف، وبوصف أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام المرتبة الأسمى والأكمل من هذه المراتب المقولة بالتشكيك والمختلفة شدّةً وضعفاً نقول بإمامتهم.

عدم عصمة الأُمّة والزعامة التي خلفت النبي ﷺ:

ولنعد أخيراً إلى موضوع البحث فنقول: بأنّ هؤلاء الذين تسلّموا أمر التجربة الإسلاميّة وزعامتها بعد النبي ﷺ لم يكونوا معصومين حتّى بأدنى مراتب العصمة، بأدنى مراتب النزاهة والتفاعل مع الرسالة الإسلاميّة كما أشرنا إلى ذلك بالأمس[1].

وحينئذٍ، حيث إنّ التجربة تمثّل اتّجاهاً عقائديّاً ورساليّاً، وليس أنّ مجموعة من الناس يعيشون، مجرّد أنّهم يعيشون، وإنّما أيضاً هم هادفون، أُناس مثاليّون، أُناس يمثّلون وجهة نظر معيّنةٍ في الكون والحياة والمجتمع، يمثّلون رسالةً لتغيير الحياة على وجه الأرض وتغيير التاريخ.. إذاً: هذه التجربة العقائديّة الضخمة على هذا المستوى بحاجةٍ إلى قيادةٍ عقائديّةٍ معصومةٍ تتوفّر فيها فعاليّة عالية جدّاً من النزاهة والتجرّد والموضوعيّة والانفعال بمعطيات هذه الرسالة.

إذاً، لم تكن هذه موجودةً في القيادة.

قد يقال: إنّ العصمة كانت موجودةً في الأُمّة ككلّ، والأُمّة ككلٍّ كانت تمارس الإسلام، وكانت تمارس التوجيه، وكانت تمارس المراقبة للحكم القائم حتّى لا ينحرف، الأُمّة ككلٍّ كانت معصومة، وإذا كانت الأُمّة ككلٍّ

(١) في المحاضرة السادسة، وقبلها في المحاضرة الخامسة.

معصومةً، إذاً فالعصمة قد حصلنا عليها عن طريق الوجود الكلّي للأُمّة. و[هذه هي] الفكرة التي قد يكون الحديث المروي من طرق العامّة يحاول تذليلها: «أُمّتي لا تجتمع على خطأ»(١).

إلّا أنّ هذه الفكرة غير صحيحة. نحن نؤمن [بـ]ـأنّ الأُمّة بوجودها المجموعي لم تكن معصومةً، كما هي الحال في الخلفاء الذين استولَوا على الزعامة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله. طبعاً إذا استثنينا من ذلك الزعامة المعصومة الموجودة في داخل هذه الأُمّة، والمتمثّلة في اتجاه أمير المؤمنين عليه السلام.

إنجازات الأُمّة بقيادة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله:

هذا، بالرغم من أنّنا نعترف ونفتخر ونمتلئ اعتزازاً بالإيمان بأنّ الأُمّة الإسلاميّة التي أسّسها النبي صلى الله عليه وآله والتي حرسها ضربت أروع نموذجٍ للأُمّة في تاريخ البشريّة على الإطلاق.

الأُمّة الإسلاميّة كانت الأُمّة المثلى الكاملة التي أمكن للنبي صلى الله عليه وآله في وقتٍ قصير جدّاً نسبيّاً في تاريخ إنشاء الأُمم، في مدّةٍ لا تبلغ ربع قرنٍ، أن ينشئ أُمّةً لها من الطاقة والإرادة والحرارة القدرُ الكبير، والذي لا يمكن للإنسان الاعتيادي أن يتخيّل كيف تمكّن من إيجادها.

هذه الأُمّة التي قدّمت من التضحيات في أيّام النبي صلى الله عليه وآله في سبيل رسالتها ما لم تقدّم أيُّ أُمّةٍ قبلها، هذا التسابق على الجنّة، التسابق على الجهاد، التسابق على الموت، الإيثار الذي كان موجوداً بين المسلمين، روح التآخي التي شاعت في المسلمين، المهاجرون والأنصار كيف عاشوا؟ كيف تفاعلوا؟

---

(١) «إنّ أُمّتي لا تجتمع على خطأ» تأويل مختلف الحديث ١: ٢٠؛ «إنّ أُمّتي لا تجتمع على ضلالة» السنن (ابن ماجة) ٢: ١٣٠٣، الحديث ٣٩٥٠. وانظر كلاماً للشهيد الصدر رحمه الله حول هذا الحديث في: دروس في علم الأصول، الحلقة الثالثة: ١٥٩؛ بحوث في علم الأصول ٤: ٣٠٧. وقد وصفه في المصدر الأوّل بـ(الحديث المُدّعى).

كيف انصهروا؟

أُنظر إلى أهل بلدٍ واحدٍ، ينزح إليهم أهلُ بلدٍ آخر، يأتون إليهم ليقاسموا هؤلاء خيراتِ بلادهم ومعاشَهم وأموالَهم[١]، بل حتّى نساءهم[٢]، وهؤلاء يستقبلونهم برحابة صدر، ينطلقون معهم، ينظرون إليهم [على] أنّهم إخوة لهم، يعيشون مجتمعاً واحداً وكأنّهم كانوا قد عاشوا [معاً][٣] مئات السنين.

هذه الانفتاحات العظيمة في كلّ ميادين المجتمع التي حقّقتها الأُمّة بقيادة الرسول صلى الله عليه وآله، هذه الانفتاحات لا مثيل لها، وبالرغم من كلّ هذا نقول بأنّ الأُمّة لم تكن معصومة، وإنّ كلّ هذه الانفتاحات كانت قائمةً على أساس الطاقة الحراريّة التي كانت تمتلكها الأُمّة من لقاء القائد الأعظم، ولم تكن قائمةً على أساس درجةٍ كبيرةٍ من الوعي الحقيقي للرسالة العقائديّة.

الأُمّة الإسلاميّة بين الطاقة الحراريّة والتوعية النبويّة:

نعم، كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يمارس عمليّة توعية الأُمّة، وعمليّة الارتفاع بالأُمّة إلى مستوى أُمّةٍ معصومة. هذه العمليّة ـ التي كانت مضغوطة، والتي بدأ بها النبي صلى الله عليه وآله ـ لم ينجز شيئاً منها في هذا الخطّ، إنّما الشيء الذي أُنجز في هذا الخطّ ـ في خطّ عمل النبي صلى الله عليه وآله على مستوى الأُمّة ككلّ، وليس على مستوى أفرادٍ معدودين ـ هو إعطاء الأُمّة طاقةً حراريّةً من الإيمان بدرجةٍ كبيرةٍ جدّاً، هذه الطاقة الحراريّة التي كانت تمتلكها الأُمّة يوماً بعد

(١) «قال رسول الله[صلى الله عليه وآله] للأنصار: إنّ إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله[صلى الله عليه وآله]: أو غير ذلك؟، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: هم قومٌ لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر، قالوا: نعم» البداية والنهاية ٣: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٢) قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين قدم المدينة وآخا بينهما رسول الله صلى الله عليه وآله: «أي أخي! أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطرَ مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيّهما أعجب إليك حتّى أطلّقها لك» أنساب الأشراف ١٠: ٣١.

(٣) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

يوم، وشهراً بعد شهر، وفي كلّ لحظةٍ من لحظات انتصارها أو انكسارها هي المصدر، وهي السبب في كلّ هذه الانفتاحات العظيمة، وكانت روح القائد هي التي تجذب، وهي التي تحصد، وهي التي تقود هؤلاء إلى المثل العليا والقيم الضخمة الكبيرة التي حدّدها الرائد الأعظم صلى الله عليه وآله بين يديهم.

إذاً، فهي طاقة حراريّة وليست وعياً.

وقلنا في ما سبق[1]: إنّ الطاقة الحراريّة والوعي قد يتّفقان في كثيرٍ من الأحيان، ولكن لا يمكننا المقارنة في الحالات الاعتياديّة بين اُمّةٍ واعيةٍ وبين اُمّةٍ تملك طاقةً حراريّةً كبيرةً دون درجةٍ كبيرةٍ من الوعي.

نعم، قد تكون هناك مظاهر مشتركة في كثيرٍ من الأحيان. ولكن في منعطفاتٍ معيّنةٍ من حياة هذه الاُمّة، في لحظاتٍ حاسمةٍ من حياة هذه الاُمّة، في مواقف حرجةٍ من تاريخها، يتبيّن الفرق بين الوعي والطاقة الحراريّة، يتبيّن هذا في لحظات الانفعال، الانفعال الشديد، سواءٌ كان انفعالاً موافقاً لعمليّات الانتقال أو انفعالاً معاكساً.

في هذه اللحظات يبدو حينئذٍ الفرقُ بين الطاقة الحراريّة وبين الوعي؛ لأنّ الوعي لا يتزعزع في لحظة الانفعال، يبقى ثابتاً وصامداً لا يتزعزع عن موضعه، ولا يلين ولا يتميّع في لحظة الانفعال.

وعي الإنسان وإيمانه بأهدافه ومسؤوليّاته فوق كلّ الانفعالات، فوق كلّ المشاكل والانتصارات، أيّ انتصارٍ يحقّقه الإنسان لا يمكن أن يخلق فيه انفعالاً يزعزع وعيه إذا كان واعياً وعياً حقيقيّاً، يبقى على الخطّ، لا يشطّ ولا يشذّ، ولا يزيد ولا ينقص.

محمّد صلى الله عليه وآله ـ هذا الرجل العظيم ـ يدخل إلى بيت الله الحرام منتصراً،

---

(١) تقدّم الكلام مفصّلاً حول هذه المسألة في المحاضرة الخامسة.

لحظة الانتصار هذه لم تزعزع من خُلقه، من وضعه، لم تخلق فيه نشوة الانتصار، وإنّما خلقت فيه ذُلّ العبوديّة، شعر بذلّ العبوديّة أكثر ممّا شعر بنشوة الانتصار[١]. هذا هو الذي يمثّل الوعي العظيم، لكنّ المسلمين عاشوا نشوة الانتصار[٢].

في لحظاتٍ عديدة، لحظات الصدمة، لحظات المشكلة، لحظات المأساة، الواعي يبقى صامداً أمام المشكلة لا يتزعزع، لا يلين ولا يتراخى، يبقى على خطّه واضحاً.

النبي ﷺ لم يكن يبدو عليه أيُّ فرقٍ بينه وهو داخلٌ مكّةَ فاتحاً، وبينه وهو مطرود في الحجاز من قبائل العرب المشركين. يتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى يقول له: «لا يهمّني ما يصنع هؤلاء إذا كنت راضياً عنّي»[٣].

نفس الروح التي نجدها في لحظة انقطاعه، في لحظة مواجهته البشريّةَ التي تحمل ألوان الشرور، في لحظة تمرّد الإنسان على هذا الوجه الذي[٤] جاء ليُصلحه. لم تتبدّل حالته هذه اللحظة وبين حالته والإنسانيّة تستجيب[٥]، والإنسانيّة تخضع، والإنسانيّة تُطأطئ رأسها بين يديه، بين يدي القائد العظيم ﷺ.

---

(١) «دخل رسول الله [ﷺ] يومئذٍ وعليه عمامة سوداء، ورايته سوداء، ولواؤه أسود، حتّى وقف بذي طوى وتوسّط النّاس، وإنّ عثنونه [= لحيته] ليمسّ واسطة الرّحل أو يقرب منه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثمّ قال: العيش عيش الآخرة» المغازي ٢: ٨٢٤.

(٢) «وأعطى رسول الله [ﷺ] رايته سعد بن عبادة وهو أمام الكتيبة، فلمّا مرّ سعد براية النبي [ﷺ] نادى: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الحرمة، اليوم أذلّ الله قريشاً» المغازي ٢: ٨٢١.

(٣) «اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكنّ عافيتك هي أوسع لي» السيرة النبويّة (ابن هشام) ١: ٤٢٠.

(٤) كذا في (ف) و(غ)، وفي (م): «هذا الذي».

(٥) المراد: «لم تتبدّل حالته بين هذه اللحظة وبين اللحظة التي كانت فيها الإنسانيّة تستجيب».

هذا هو الوعي، أمّا الأُمّة لم تكن هكذا. ولا نريد أن نكرّر الشواهد مرّة أُخرى حتّى يأتي البحث اليوم كاملاً؛ الشواهد على أنّ الأُمّة كانت غير واعيةٍ وإنّما هي طاقة حراريّة مرّت في الأيام السابقة [1].

إذاً، فالأُمّة الإسلاميّة كانت تحمل طاقةً حراريّةً كبيرةً، ولم تكن أُمّةً واعيةً بدرجةٍ كبيرة؛ فلم تكن العصمة متوفّرةً لا في القيادة، ولا في الأُمّة بوجودها المجموعي، ومن أجل هذا كان الانحراف حتميّاً على النحو الذي بيّنّا بالأمس [2]، وهكذا بدأ الانحراف بعد النبي (صلى الله عليه وآله).

تخطيط الأئمّة (عليهم السلام) لمواجهة الانحراف:

وقلنا [3]: إنّ الخطّ الذي بدأه الأئمّة (عليهم السلام) كان ينحلّ إلى شكلين:

الخطُّ الأوّل: وهو خطّ محاولة القضاء على هذا الانحراف في التجربة الإسلاميّة. أَ ليس التجربة ـ تجربة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلاميّة ـ انحرفت بإعطاء زمامها إلى أُناسٍ لا يؤتمنون عليها وعلى مقدّراتها ومُثلها وقيمها؟! الخطُّ الأوّل كان يحاول أخذ هذه التجربة وتسلّم زمامها.

الخطّ الثاني: هو الخطّ الذي كان الأئمّة (عليهم السلام) يؤدّونه حتّى في الحالات التي كانوا يَرَون أنْ ليس في الإمكان السعيُ وراء تسلّم زمام هذه التجربة، وهو خطّ الضمان لوجود الأُمّة في المستقبل البعيد؛ لأنّنا قلنا [4]: حيث إنّ التجربة انحرفت، كان من المنطقي ـ في تسلسل الأحداث ـ أن يتعمّق هذا الانحراف

---

(١) في المحاضرة الخامسة كما أشرنا سابقاً.

(٢) في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: التسلسل المنطقي للانحراف بقطع النظر عن دور الأئمّة (عليهم السلام).

(٣) في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: خلاصة دور الأئمّة (عليهم السلام) تجاه التسلسل المنطقي للانحراف. وسيتجدّد الحديث عن هذين الخطّين في المحاضرة الثامنة، تحت عنوان: موقف الأئمّة (عليهم السلام) من انحراف الزعامة وانهيار التجربة والأُمّة.

(٤) في المحاضرة نفسها.

ثمّ يتعمّق حتّى تنهار التجربة.

وإذا انهارت التجربة أمام أوّل غزو، أمام أوّل تيّار يدرك الأُمّة الإسلاميّة، فسوف لن تحارب عن إسلامها كأُمّة؛ فالأُمّة الإسلاميّة لم تعش[1] إلّا التجربة المنحرفة المضلّلة، إلّا هذه التجربة المشوّهة عن الإسلام[2]، إذاً فسوف لن تحارب عن إسلامها كأُمّة. بعد أن تنهار الدولة وتنهار الحضارة الحاكمة، تنهار الأُمّة كأُمّةٍ أيضاً، سوف تتنازل عن إسلامها؛ لأنّها لم تجد في هذا الإسلام ما تدافع عنه.

أعتقد أنّ الأُمّة الإسلاميّة لو كانت قد عاشت الإسلام فقط من منظار عمر وأبي بكر وعثمان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد، والباقي من هؤلاء الخلفاء غير الصالحين الذين تزعّموا التجربة الإسلاميّة، لو أنّ الأُمّة كانت قد عاشت الإسلام من هذا المنظار فقط، إذاً لتنازلت عن هذا الإسلام بكلّ رحابة صدر.

ماذا وجدت من هذا الإسلام؟ وماذا جنت منه؟ كيف نقدر أن نتصوّر أنّ الإنسان غير العربي يدافع عن الإسلام الذي يتبنّى زعامة العربي على غير العربي؟ كيف نتوقّع من العربي أو الفارسي أن يدافع عن كيانٍ يعتبر هذا الكيان ملكاً لأُسرةٍ ولقبيلة من قبائل العرب، و[هي] أُسرة قريش؟ كيف يعقل أنّ هؤلاء المسلمين يشعرون بأنّهم قد وجدوا حقوقهم وكرامتهم في مجتمعٍ يضجّ بكلّ ألوان التفاوت والتمييز والاستئثار والاحتكار؟ ولذا كان من الطبيعي أن يتنازلوا عن هذا الإسلام حينما تنهار التجربة بعد تعمّق الانحراف.

إلّا أنّ الذي جعل الأُمّة لا تتنازل عن الإسلام هو المثل الآخر الذي قُدّم له، مثلٌ واضح المعالم، أصيلُ المثل والقيم، أصيلُ الأهداف والغايات،

---

(١) العبارة غير مثبتة في (ف)، وفي (م): كلمة غير مفهومة، وكذلك في (غ)، وما أثبتناه من السياق.

(٢) كذا في (م)، وفي (غ): «المشوّهة للإسلام»، والعبارة غير مثبتة في (ف).

قدّمت هذه الأُطروحة من قبل الواعين من المسلمين بزعامة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام.

ولنعلم مسبقاً ـ وقبل أن نأتي إلى التفاصيل ـ أنّ هذه الأُطروحة التي قدّمها الأئمّة عليهم السلام للإسلام لم تكن تتفاعل مع الشيعة المؤمنين بإمامة أهل البيت عليهم السلام فقط، بل كان لها صدىً كبيرٌ في كلّ العالم الإسلامي؛ حيث إنّ الأئمّة عليهم السلام كانت لهم أُطروحة الإسلام، وكانت لهم دعوة[1] لإمامة أنفسهم.

صحيحٌ أنّ الدعوة لإمامة أنفسهم لم يطلبوا لها إلّا عدداً ضئيلاً من مجموع الأُمّة الإسلاميّة إلى أواخر حياتهم عليهم السلام، إلّا أنّ الأُطروحة الواضحة التي تمثّل الإسلام الصحيح من كلّ جهاته، والتي مثّلها الأئمّة عليهم السلام والواعون الملتفّون حولهم، تفاعلت مع مجموع الأُمّة الإسلاميّة في كلّ أبعادها، تفاعلت مع أُناس من أكابر الأُمّة ومن أكابر مفكّريها، وهي التي ثبّتت إسلام كلّ الأقطار الإسلاميّة.

الأُمّة الإسلاميّة بمجموعها تفاعلت مع هذه الأُطروحة؛ فكان الخطّ الكبروي للأئمّة عليهم السلام هو تقديم الأُطروحة الصحيحة للإسلام، والنموذج والمخطّط الواضح والصريح له في كلّ مجالاته الخاصّة والعامّة، في المجالات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والخلقيّة والعباديّة. في كلّ هذه المجالات كان هؤلاء الأئمّة عليهم السلام والواعون من المسلمين يقدّمون هذه الأُطروحة الواضحة، التي جعلت المسلمين على مرّ الزمن يسهرون على الإسلام، ويحمونه، ويقيّمونه، وينظرون إليه بمنظارٍ آخر غير منظار الواقع الذي يعيشونه، غير منظار التجربة التي يعيشونها.

هذا هو الخطّ الثاني الذي عمل عليه الأئمّة عليهم السلام.

---

(١) في (م) و(ف) و(غ): «دعوى».

والآن نبدأ بتحليل الموقف عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وآله وعلى ضوء هذه الأُطروحة.

التجربة النبويّة مع الاستخلاف، والموقف العلوي من الانحراف:

أمير المؤمنين عليه السلام حينما واجه الانحراف في التجربة عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وآله قام بعمليّة تعبئةٍ فكريّةٍ في صفوف المسلمين مؤدّاها: أنّ هذا الوضع الجديد هو وضعٌ غير طبيعيٍّ ومنحرفٌ عن الخطّ الإسلامي، واستعان لهذا السبيل ببنت رسول الله صلى الله عليه وآله، قرينته العظيمة[1]؛ وذلك لأجل أن يستثير في نفوس المسلمين عواطفهم ومشاعرهم المرتبطة بأعزّ شخصٍ يحبّونه ويجلّونه، وهو شخص النبي صلى الله عليه وآله.

إلّا أنّه فقدها عليها السلام، ولم يستطع أن يستثير المسلمين بالدرجة التي تحوّل مجرى التجربة وتجعل هناك تبدّلاً أساسيّاً في الخطّ القائم، وكان ذلك أمراً طبيعيّاً. يعني: من الطبيعي أن ينتهي أمير المؤمنين عليه السلام إلى عدم النجاح في القضاء على هذا الانحراف.

ولكي نفهم هذا، يكفي أن نلتفت إلى نفس ما أصاب النبي صلى الله عليه وآله ـ وهو الرائد الأعظم لهذه الرسالة، ما أصابه ـ من قلقٍ وارتباكٍ في سبيل تركيز إمامة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ماذا أصاب النبي صلى الله عليه وآله؟!

١ ـ هذا النبيُّ العظيم الذي لم يتلكّأ ولم يتلعثم ولم يتردّد في أيّ لونٍ من ألوان التركيز والعمل في سبيل تلك المهمّات، هذا النبيُّ العظيم الذي لم يشعر بالخوف ولا القلق، والذي لم يخفق قلبه بأيّ لونٍ من ألوان الوساوس والشكوك، ولا بأيّ لونٍ من ألوان الضعف والانهيار.. هذا النبيُّ العظيم يقف

(١) «وخرج عليٌّ[عليه السلام] يحمل فاطمة بنت رسول الله[صلى الله عليه وآله] على دابّة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة» الإمامة والسياسة ١: ٢٩.

حائراً أمام الأمر الإلهي في أن يبلّغ وأن يركّز إمامة عليٍّ بن أبي طالب، حتّى جاء ما جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله من إنذاره بأن يُبلّغ، وإلّا فكأنّه لم يبلّغ الرسالة (١).

يعني: كان مستوى الخطر في نظر النبي صلى الله عليه وآله يصل إلى درجة هدر (٢) شخصيّته، شخصيّة الرائد الأوّل وصاحب الرسالة، أي: إنّ الانحراف كان على سبيل المنعة. هذه الموانع التي كانت تمنع عن تزعّم عليٍّ عليه السلام للتجربة الإسلاميّة عميقةٌ قويّةٌ واسعة؛ بدرجة أنّ النبي صلى الله عليه وآله نفسَه كان يخشى من أن يُعلن عن تشريع هذا الحكم، ليس عن تطبيقه بحسب الخارج، بل عن تشريعه وإعلانه أمام المسلمين تجاه هذه الموانع.

هذه قصّة.

٢ ـ وقصّة أُخرى حينما أراد أن يسجّل هذا الحكم؛ حين أراد أن يسجّله في كتاب:

المسلمون، لأوّل مرّة في تاريخ النبي صلى الله عليه وآله ـ هذا النبيُّ الذي كانوا يتسابقون إلى الماء الذي يتقاطر من وضوئه، هذا النبيُّ الذي ذهب رسول قريشٍ إلى قريش يقول لهم: إنّي رأيت كسرى وقيصر وملوك الأرض، فما رأيت رجلاً انجذب إليه جماعته وأصحابه ويؤمنون به كما ذاب أصحابُ محمّدٍ في محمّد صلى الله عليه وآله، ولا يشعرون بوجودهم أمام هذا الرجل العظيم (٣).. وبالرغم من كلّ هذا، وفي مجلسه صلى الله عليه وآله ـ يقوم واحدٌ من أصحابه فيقول ما يقول

(١) وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ المائدة: ٦٧.

(٢) كذا في (م)، وفي (غ): «تهدّد»، والعبارة غير مثبتة في (ف).

(٣) «ركب عروة بن مسعود حتّى أتى قريشاً فقال: يا قوم! إنّي قد وفدت على الملوك، على كسرى وهرقل والنجاشي، وإنّي والله ما رأيت ملكاً قطّ أطوع في من هو بين ظهرانيه من محمّد في أصحابه. والله ما يشدّون إليه النظر وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلّا أن يشير إلى أمر فيُفعَل، وما يتنخّم وما يبصق إلّا وقعت في يدي رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضّأ إلّا ازدحموا عليه أيّهم يظفر منه بشيء» المغازي ٢: ٥٩٨.

ممّا تعلمون، ثمّ لا يحصل بعد هذا أيُّ ردّ فعلٍ لهذا الكلام، أيُّ ردّ فعلٍ حاسم، حينما يقوم هذا الصحابي ويقول هذا الكلام وينحرف بهذا الشكل الواضح، ولا يجد النبي صلى الله عليه وآله إلّا أن يقول: «قوموا عنّي»[1].

المسألة كانت بهذه الدرجة من العمق، والموانع بهذه الدرجة من الشمول.

وعلى سبيل الإجمال، يجب أن نعلم بأنّ عليّاً عليه السلام لم يكن رئيساً ولا كان قاصراً أو مقصّراً حينما فشل؛ لأنّ كلَّ هذا غير محتملٍ، خصوصاً وأنّ النبي صلى الله عليه وآله ـ وهو قمّة النشاط والحيويّة والجهاد[2]، ومع ذلك ـ واجه هذه المشاكل والصعاب تجاه تشريع هذا الحكم.

إذاً، فموقف الإمام عليه السلام كان حرجاً غاية الحرج تجاه هذه الموانع.

بعض موانع تزعّم الإمام علي عليه السلام:

أمّا ما هي طبيعة هذه الموانع؟ فإنّ ذلك يحتاج إلى دراسةٍ مفصّلةٍ لنفسيّة المجتمع الإسلامي في أيّام الرسول صلى الله عليه وآله أوضح ممّا يتوفّر لدينا الآن من معلومات. إلّا أنّنا يمكننا ذكر بعض الموانع على سبيل المثال:

---

(١) «عن ابن عبّاس قال: لمّا حضرت رسول الله[صلى الله عليه وآله] الوفاة وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب، فقال رسول الله[صلى الله عليه وآله]: هلمّ أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده! فقال عمر: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن؛ حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا؛ فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله[صلى الله عليه وآله]، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلمّا كثر اللغط والاختلاف وغمّوا رسول الله[صلى الله عليه وآله] فقال: قوموا عنّي! فقال عبيد الله بن عبد الله: فكان ابن عبّاس يقول: الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله[صلى الله عليه وآله] وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم» الطبقات الكبرى ٢: ١٨٨، وعنه في المصدر نفسه ٢: ١٨٧: «فقال بعض من كان عنده: إنّ نبي الله ليهجر».

(٢) كذا في (م)، وفي (ف): «الحرص»، وفي (غ): «الحضارة». وفي (ف) جعل النشاط والحيويّة و.. وصفاً للإمام عليه السلام وتعليلاً لعدم احتمال التقصير في حقّه، بينما جعلت في (م) و(غ) وصفاً للنبي صلى الله عليه وآله وبياناً للأولويّة، وهو الصحيح بحسب السياق.

١ ـ التفكير غير الإسلامي من ولاية الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام:

ومن تلك الموانع العميقة: التفكير اللا إسلامي من ولاية عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام.

رسول الله صلى الله عليه وآله جعل عليّاً عليه السلام بعده حاكماً على المسلمين وإماماً لهم ككلّ. المسلمون ـ ولنتكلّم عن المسلمين المؤمنين بالله ورسوله حقّاً ـ لم يكونوا من الواعين بدرجةٍ كبيرة. نعم، كانت عندهم طاقة حراريّة تصل إلى درجة الجهاد، إلى الموت في سبيل الله.

هؤلاء الذين قاموا بعد النبي صلى الله عليه وآله ضدَّ علي بن أبي طالب عليه السلام أنا لا أشكّ بأنّهم مرّت عليهم بعض اللحظات كانوا على استعدادٍ [فيها] لأنْ يضحّوا بأنفسهم في سبيل الله، وأنا لا أشكّ أنّ الطاقة الحراريّة كانت موجودةً عندهم.

سعد بن عبادة الخزرجي مثلاً ـ الذي عارض عليَّ بن أبي طالب عليه السلام، والذي فتح باب المعارضة عليه إلى حين[١] ـ كان مثل المسلمين الآخرين، ويجاهد مثلهم، غاية الأمر: لم يكن لديه وعي.

هؤلاء المسلمون المؤمنون بالله ورسوله لم يكونوا على درجةٍ واحدةٍ من الوعي، وكانت الكثرة الكاثرة منهم أُناساً يملكون الطاقة الحراريّة [بدرجات] متفاوتة، ولم يكونوا يملكون وعياً. تبادر إلى ذهن عددٍ كبيرٍ من هؤلاء، فكّروا ـ وكان تفكيراً سطحيّاً ـ بأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله يريد أن يُعلي مجد بني هاشم، ويُعلي كيان هذه الأُسرة، وأن يمدَّ بنفسه بعده، فاختار عليّاً عليه السلام، اختار ابن عمّه[٢]؛

---

(١) باعتبار ما جرى في سقيفة بني ساعدة وعزم الأنصار في بداية الأمر تنصيب سعد بن عبادة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يحولّها عمر بن الخطّاب إلى أبي بكر. فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٢١٨.

(٢) من قبيل قول الحارث بن النعمان الفهري لرسول الله صلى الله عليه وآله بعد تنصيبه عليّاً عليه السلام: «يا محمّد! إنّك دعوتنا أن نقول: لا إله إلا الله فقلنا، ثمّ دعوتنا أن نقول إنّك رسول الله فقلنا وفي القلب ما فيه...

لأجل أن يمثّل عليٌّ عليه السلام أمجاد أُسرته.

هذا التفكير كان منسجماً مع الوضع النفسي الذي يعيشه أكثر المسلمين كرواسب جاهليّة، كرواسب عرفوها قبل الإسلام، ولم يستطيعوا أن يتخلّوا عن ذلك تخلّياً تامّاً[١].

أَلَسنا نعلم أنّ هؤلاء المسلمين الغيارى المجاهدين ماذا صنعوا في غزوة حنين حينما وزّع رسول الله صلى الله عليه وآله المال والغنائم على قريش ولم يُعطِ الأنصار؟! وزّع على قريشٍ، على أهل مكّة، ولم يعطِ أهل المدينة. ماذا صنع أهل المدينة؟ أخذ بعضهم يقول لبعض: إنّ محمّداً لقي عشيرته فنسينا، لقي قريشاً ونسي الأوس والخزرج[٢]، [نسيَ] هاتين القبيلتين اللتين قدّمتا ما قدّمتا للإسلام.

إذاً، فكان هؤلاء على المستوى الذي تصوّروا أنّ هذا القائد الرائد العظيم الموضوعيّ الذي كان يعيش الرسالة آثر قبيلته بمال، آثر عشيرته بمال، فكيف لا يتصوّرون أنّه آثر عشيرته بحكمٍ وزعامةٍ وقيادةٍ على مرّ الزمن والتاريخ؟!

هذا التصوّر كان يصل إلى هذا المستوى المتدنّي من الوعي. هؤلاء لم يدركوا أبعاد محمّد صلى الله عليه وآله، لم يكونوا قد أدركوا أبعاد الرسالة الإسلاميّة، كانوا بين

ثمّ إنّك أقمت ابن عمّك فجعلته علماً وقلت: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله؛ أ فعنك أم عن الله؟ قال بل عن الله» تفسير فرات الكوفي: ٥٠٦.

(١) في (غ): «لم يستطيعوا أن يتحمّلوا تحمّلاً تامّاً»، وفي (ف) إضافة: «أبعاد الرسالة»، وما أثبتناه من (م).

(٢) تقدّم الاستشهاد بهذه الواقعة في المحاضرة الخامسة، وراجع: السيرة النبويّة (ابن هشام) ٢: ٤٩٩؛ الطبقات الكبرى ٢: ١١٧؛ الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٦؛ المسند (ابن حنبل) ٣: ١٨٨؛ الجامع المسند الصحيح المختصر (البخاري) ٤: ٥٩؛ الجامع الصحيح (مسلم) ٣: ١٠٦؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٩٤؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ١٤٥؛ دلائل النبوّة ٥: ١٧٣؛ تاريخ الإسلام ٢: ٦٠٠؛ البداية والنهاية ٤: ٣٥٧.

حينٍ وحينٍ عرضةً لأنْ يطغى عليهم الراسب الجاهلي، و[كانوا] ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وآله من منظار رواسبهم الجاهليّة، ينظرون إليه كشخصٍ يرتبط بابن عمّه ارتباطاً رحميّاً، ويرتبط بعشيرته ارتباطاً قَبَليّاً، ويرتبط بالعرب ارتباطاً قوميّاً. كلُّ هذه الارتباطات كانت تراود أذهانهم بين حين وحين.

وأنا أظنُّ ظنّاً كبيراً أنّه لو لم يكن عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ابنَ عمِّ النبي صلى الله عليه وآله، لو أنّ الصدفة لم تشأ أن يكون الرجل الثاني في الإسلام من أُسرة محمّد صلى الله عليه وآله، بل كان من عديٍّ أو تميم، لو كان من غير قريش، لكان لهذه الولاية مفعولٌ كبيرٌ جدّاً، ولقضي على هذا التفكير اللا إسلامي بالنسبة للولاية.

ولكن، ما هي حيلة محمّد صلى الله عليه وآله إذا كان الرجلُ الثاني في الإسلام ابنَ عمّه؟ لم يكن له حيلة في أن يختار شخصاً دون آخر، وإنّما كان عليه أن يختار من اختاره الله، ومن اختاره الله كرجلٍ ثانٍ في تاريخ الرسالة وكيانها وفي الجهاد في سبيلها كان ـ من باب الصدفة ـ ابنَ عمّ النبي صلى الله عليه وآله، وهذه الصدفة فتحت باب المشاغبة على هؤلاء.

هذا هو العامل الأوّل [الذي] يعيش في نفوس المؤمنين بالله ورسوله.

٢ ـ عامل النفاق:

العامل الثاني هو العامل الذي كان يعيش في نفوس المنافقين. والمنافقون كثيرون في المجتمع الإسلامي، خاصّةً وأنّه انفتح قبيل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله انفتاحاً جديداً على مكّة التي كانت قد دخلت أيضاً في المجتمع الإسلامي، ودخلت قبائلُ كثيرةٌ في الإسلام قبيل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان هناك أُناسٌ كثيرون قد دخلوا الإسلام نفاقاً وطمعاً؛ لأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله فرض زعامته على العرب، ولم يكن أحدٌ يفكّر في زحزحة هذه الزعامة، فلا بدّ من الاعتراف بهذه الزعامة لأجل أن يُعاش في ظلّها.

دخل كثيرٌ من الناس بهذه العقليّة، وهؤلاء كانوا يعلمون أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو الرجل الثاني في هذه الرسالة، وهو الاستمرار العنيد لها، لا الاستمرار الرخو المتميّع لها(١).

هؤلاء كانوا مشدودين إلى أطماع وإلى مصالح كانت تتطلّب أن تستمرّ الرسالة، كان من مصلحتهم أن يستمرّ الإسلام؛ لأنّ الإسلام إذا انطفأ، فمعنى هذا أنّه سوف تنطفئ هذه الحركة القويّة التي بنت دولةً ومجتمعاً، والتي يُمكن أن تُطبِق على العالم، على كنوز كسرى وقيصر، وتضمَّ أموال الأرض كلّها إلى هذه الأُمّة.

كان من المصلحة أن تستمرَّ هذه الحركة، لكن لا بتلك الدرجة من الصلابة والجدّية، بل أن تستمرَّ بدرجةٍ رخوةٍ هيّنة، كما وصف الإمام الصادق عليه السلام حينما سئل: كيف نجح أبو بكر وعمر في قيادة المسلمين، وفشل عثمان وعليٌّ عليه السلام في هذه القيادة؟ قال عليه السلام: لأنّ عليّاً أرادها حقّاً محضاً، وعثمان أرادها باطلاً محضاً، وأبو بكر وعمر خلطا حقّاً بباطل(٢).

---

(١) يكتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان: «وإنّي لو قتلت في ذات الله وحييت، ثمّ قتلت ثمّ حييت سبعين مرّة، لم أرجع عن الشدّة في ذات الله والجهاد لأعداء الله.... وأمّا استواؤنا في الخوف والرجاء، فإنّك لست أمضى على الشكّ منّي على اليقين» وقعة صفّين: ٤٧١.

(٢) لم نعثر عليه. نعم، ذكر عماد الدين الطبري مرسلاً أنّهم: «سألوا الإمام الصادق عن أبي بكر وعمر؛ كيف استقامت لهما الأُمّة ولم تستقم لعثمان؟ فقال عليه السلام: عدل الرجلان مع الناس إلّا مع أهل بيت النبي. أمّا عثمان فكان ظلمه عامّاً لأهل البيت وللناس قاطبة، من هذه الجهة اجتمع الناس عليه فقتلوه» (كامل البهائي في السقيفة ٢: ١٧٥)، ومثله في (الصوارم المهرقة في ردّ الصواعق المحرقة: ٤٦) و(البراهين القاطعة في شرح تجريد العقائد الساطعة ٣: ٢٩٧) دون نسبته إلى الإمام الصادق عليه السلام، وقريبٌ منه كلامٌ للأمير عليه السلام (وقعة صفّين: ٢٠٠). وقد تحدّث عليه السلام في كلام آخر له عن عدم خفاء الباطل إذا خلص، وعدم الاختلاف في الحقّ كذلك، واستحواذ الشيطان إذا مُزجا معاً (نهج البلاغة: ٨٨، الخطبة ٥٠)، وطبّقه الشارح على «الأسلاف ومن يحسن الظنُّ فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب» (شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٢). وقد استفاد من أصل النكتة النقيب أبو جعفر يحيى (شرح نهج البلاغة ١٢: ٨٩)، والجاحظ (الرسائل السياسيّة: ٤٦٩).

كان لا بدّ أن تستمرَّ هذه الرسالة، لكن تستمرّ بشكلٍ هيّنٍ ليّن، بشكلٍ ينفتح على مطامع أبي سفيان، بشكلٍ يُمكن أن يتفاعل معه أبو سفيان.

أبو سفيان الذي جاء إلى عليٍّ عليه السلام في لحظةٍ قاسية، تلك اللحظة التي يشعر فيها الإنسان عادةً بقدر كبيرٍ من المظلوميّة، في لحظةٍ خانه فيها المسلمون وتآمروا عليه وتنكّروا لكلّ جهاده وأمجاده، حتّى أنكروا اُخوّته لرسول الله صلى الله عليه وآله(١)... في تلك اللحظة جاءه أبو سفيان يعرض عليه القيادة بين يديه، يعرض عليه أن يُزَعِّمه في سبيل أن يكون هو اليدَ اليمنى للدولة الإسلاميّة. يأبى علي عليه السلام، يأبى وهو مظلوم ومتآمَرٌ عليه ومضطهدٌ حقُّه(٢)، ثمّ يذهب أبو بكر وعمر إلى أبي سفيان ويتعاملان معه، ويولّيان أولاده على بلاد المسلمين(٣).

هذا هو الاستمرار الهيّن الذي كانت مصالح المنافقين تطلبه وقتئذٍ. وبهذا كانت قيادة علي بن أبي طالب عليه السلام وزعامته تمثّل خطراً على هذه المصالح.

٣ ـ العامل الأخلاقي والنفسي:

والعامل الثالث هو عامل يرتبط بعوامل نفسيّة خُلُقيّة(٤):

عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام كان يمثّل استمراراً وتحدّياً ـ بوجوده التكويني ـ للصادِقين من الصحابة لا المنافقين، وذلك بجهاده، بصرامته، باستبساله،

(١) في قول الخليفة الثاني له عليه السلام: «أمّا عبدالله فنعم، وأمّا أخو رسوله فلا» الإمامة والسياسة ١: ٣١.

(٢) «لمّا اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: والله! إنّي لأرى عجاجةً لا يطفئها إلّا دم. يا آل عبد مناف! فيمَ أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ اين الأذلّان عليٌّ والعبّاس؟ وقال: أبا حسن! ابسط يدك حتّى أبايعك» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٠٩؛ شرح نهج البلاغة ٢: ٤٤.

(٣) «لمّا استخلف أبو بكر قال أبو سفيان: ما لنا ولأبي فصيل، إنّما هي بنو عبد مناف.. فقيل له: إنّه قد ولّى ابنك، قال: وصلته رحم» تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٠٩.

(٤) راجع بعض ما يرتبط بهذا العامل: فدك في التاريخ: ٤٩، [دوافع الخليفة الأوّل في موقفه].

بشبابه، بكلّ هذه الأُمور، كان يضرب الرقم القياسي الذي لا يمكن أن يحلم به صحابيٌّ آخر. كلُّ هؤلاء كانوا يودّون أن يقدّموا خدمةً للإسلام ـ أتكلّم عن الصحابة الصالحين الصادقين ـ، ولكنّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام كان يفوقهم بدرجةٍ كبيرةٍ هائلة، بدرجة هائلة.

عليُّ بن أبي طالب بالرغم من التفاوت الكبير في العمر بينه وبين شيوخ الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وغيرهما، ممّن عاش في تلك الفترة التي تلت وفاة النبي صلى الله عليه وآله، بالرغم من كلّ ذلك أفلس أبو بكر، وأفلس عمر، وأفلس هؤلاء كلّهم أمام رسوخ عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يضرب بسيفين(١).

يقول معاوية لمحمّد بن أبي بكر بأنّ علياً عليه السلام كان في أيّام النبي صلى الله عليه وآله كالنجم في السماء لا يطاول(٢). الأُمّة الإسلامية كانت تنظر إليه كالنجم في السماء، بالرغم من أنّ العدد الكبير منها لم يكن يحبّه.

كان عليٌّ كالنجم في السماء لا يُمكن أن يُطاوَل؛ لأنّ النسبة لم تكن نسبةً معقولة، كان عليٌّ عليه السلام مجاهداً بدرجةٍ لا يمكن أن يقاس به شخص آخر، كان صامداً بدرجةٍ لا يمكن أن يقاس به شخص آخر، وهكذا في زهده، وفي كلّ كمالات الرسالة الإسلاميّة.

إذاً، فعليٌّ عليه السلام كان تحدّياً، كان استفزازاً للآخرين، وهؤلاء الآخرون ليسوا كلُّهم يعيشون الرسالة فقط، بل جملةٌ منهم يعيشون معها أنفسَهم وأنانيَّتَهم. وحينما يشعرون بهذا الاستفزاز التكويني من شخص هذا الرجل العظيم ـ الذي

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٥، الحديث ٢؛ بشارة المصطفى: ١٥٦؛ الخرائج والجرائح ١: ٢١٢. وهو ما ورد على لسان الإمام زين العابدين عليه السلام تارةً (بحار الأنوار ٤٥: ١٣٨)، وعلى لسان قنبر مولى أمير المؤمنين عليه السلام أُخرى (الاختصاص: ٧٣؛ اختيار معرفة الرجال: ٧٣).

(٢) «وقد كنّا وأبوك معنا في حياة من نبيّنا صلى الله عليه وآله نرى حقَّ ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرزاً علينا» وقعة صفّين: ١٢٠؛ مروج الذهب ٣: ١٢؛ شرح نهج البلاغة ٣: ١٩٠.

كان يتحدّاهم من غير قصد التحدّي، بل يقصد أن يهديهم ويبني[1] مجدهم ورسالتهم وعقيدتهم، ولكن ماذا يصنع بأُناسٍ يعيشون أنفسَهم؟! ـ فهؤلاء كانوا يفكّرون في أنّ هذا تحدٍّ لهم، استفزازٌ لهم، وكان ردّ فعلهم لهذا مشاعر ضخمة من العداء لعليٍّ بن أبي طالب عليه السلام.

ويكفي كمثالٍ لأنْ نوضح هذا المطلب: أن نذكر أنّ النبي صلى الله عليه وآله حينما خرج غازياً وخلّف عليّاً عليه السلام مكانه أميراً على المدينة، هؤلاء الناس لم يتركوا عليّاً عليه السلام، أخذوا يُشيعون ـ بالرغم من أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يستخلف في المرّات السابقة أحد الأنصار على المدينة، ولم يكن عليٌّ عليه السلام [أحدَ المستخلفين]؛ لأنّ المنصب لم يكن من الأهميّة بحيث يتولاّه عليٌّ عليه السلام دائماً ـ بأنّه ترك عليّاً عليه السلام في المدينة لأنّه لا يصلح للحرب.

عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ـ هذا الرجل الصلب العنيد المترفّع، هذا الرجل الذي يقول: «لا يزيدني إقبال الناس عليَّ ولا ينقصني إدبارهم»[2] ـ استُفِزَّت أعصابُه لدرجة أنّه ترك المدينة ولحق بالنبي صلى الله عليه وآله، فسأله النبيُّ صلى الله عليه وآله عن سبب تركه المدينة، فقال: يقولون بأنّك تركتني لأنّي لا أصلح للحرب!

أُنظروا للحقد، لو أمكن أن تُنكرَ كلُّ فضيلةٍ لعليٍّ عليه السلام، [فـ]ـلا يمكن أن يُنكَرَ أنّه يصلح للحرب، ولكنّ الحقد على هذا الرجل العظيم وصل بهم إلى أن يفسّروا إمارته على المدينة بأنّه لا يصلح للحرب.

تأذّى عليُّ بن أبي طالب عليه السلام من هذا الكلام مع أنّه لا يتأذّى، ومع أنّه لا يتزعزع، إلى درجة أنّه اضطرَّ إلى أن سافر ليلحق بالنبي صلى الله عليه وآله، يقول له: «يا رسول الله! أَتركتني هكذا؟!»، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله كلمته المشهورة: «إنّ عليّاً عليه السلام منّي بمنزلة هارون من موسى؛ إنّه لا ينبغي أن أخرج من المدينة إلّا

---

(١) كذا في (م) و(ف)، وفي (غ): «يبيّن».

(٢) «لا يزيدني كثرة الناس معي عزّة، ولا تفرقهم عنّي وحشة» نهج البلاغة: ٤٠٩، الكتاب ٣٦.

وأنت فيها»[١]؛ إثباتاً لوجودي ولتحمي المدينة.

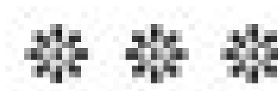
فهنا لا يُمكن أن يفسَّر هذا الموقف إلّا على أساس هذا العامل النفسي.

هذا العامل الثالث، وهناك عوامل أُخرى.

هذه العوامل كلّها اشتركت في سبيل أن تجعل موانع قويّةً جدّاً، هذه الموانع اصطدم بها النبيُّ صلى الله عليه وآله عند تشريع الحكم، واصطدم بها عليُّ بن أبي طالب عليه السلام عند محاولة تطبيقه، وعند محاولة مقابلة الانحراف وتعديل التجربة وإرجاعها للوضع الطبيعي، ولهذا فشل في زعزعة الوضع القائم بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وفي ذلك الحين بدأ خطّه الثاني، وهو خطّ تحديد الإسلام في إطاره الصحيح الكامل، وتحصين الاُمّة، وجعلها قادرةً على مواصلة وجودها الإسلامي.

والحمد لله ربّ العالمين، وإلى محاضرةٍ أُخرى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



(١) «فلمّا بلغ أميرَ المؤمنين عليه السلام إرجافُ المنافقين به أراد تكذيبهم وإظهار فضيحتهم، فلحق بالنبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله! إنّ المنافقين يزعمون أنّك إنّما خلفتني استثقالاً ومقتاً. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ارجع يا أخي إلى مكانك؛ فإنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك؛ فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي، أ ما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيَّ بعدي» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ١٥٦؛ «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّك لست بنبي؛ إنّه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي» البداية والنهاية ٧: ٣٣٨.

٤



الإمام علي عليه السلام

بين تصحيح الانحراف وتحصين الأُمّة

انحراف المثلّث الذي خلّفه رسول الله ﷺ:

حينما توفّي رسول الله ﷺ خلّف أُمّةً ومجتمعاً ودولة:

أقصد بالأُمّة: المجموعة من المسلمين الذين كانوا يؤمنون برسالته، ويعتقدون بنبوّته.

وأقصد بالمجتمع: تلك المجموعة من الناس التي كانت تمارس حياتها على أساس تلك الرسالة، وتنشئ علاقاتها على أساس التنظيم المقرّر لتلك الرسالة.

وأقصد بالدولة: القيادة التي كانت تتولّى زعامة ذلك المجتمع، والاشتغال على تطبيق الإسلام، وحمايته ممّا يهدّده من أخطار.

١ ـ انحراف الدولة وانهيارها:

الانحراف الذي حصل يوم السقيفة كان انحرافاً ـ أوّل ما كان ـ في الدولة، في كيان الدولة؛ لأنّ القيادة اتّخذت طريقاً غير طريقها الطبيعي.

وقلنا بأنّ هذا الانحراف في زعامة التجربة ـ أي في الدولة ـ كان من الطبيعي ـ في منطق الأحداث ـ أن ينمو وأن يثبت وأن يتّسع حتّى يحيق بالتجربة نفسها، فتنهار الزعامة الحامية للإسلام، الزعامة التي تشرف على تطبيق الإسلام، هذه الزعامة ـ باعتبار انحرافها وعدم كونها قادرةً على تحمّل المسؤوليّة ـ تنهار في أمدٍ قصيرٍ أمام أيّ خطرٍ أو غزوٍ حقيقيٍّ تواجهه في

حياتها العسكريّة والسياسيّة.

٢ ـ انهيار المجتمع الإسلامي:

وحينما تنهار الدولة، زعامة التجربة، ينهار ـ تبعاً لذلك ـ المجتمع الإسلامي؛ لأنّ المجتمع يتقوّم بالعلاقات التي تنشأ على أساس الإسلام، فإذا لم تبقَ زعامةٌ ترعى هذه العلاقات وتحميها وتقنّن القوانين لها، فلا محالة ستتفتّت هذه العلاقات وتتبدّل بعلاقاتٍ اُخرى قائمةٍ على أساس آخر غير الإسلام، وهذا معناه زوال المجتمع الإسلامي.

٣ ـ انهيار الاُمّة:

وتبقى بعد ذلك الاُمّة، وهي أبطأ العناصر الثلاثة تصدّعاً وزوالاً، أي: إنّ مجموعةً من البشر يبقَون يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر.

بعد أن زالت الدولة الشرعيّة الصحيحة وزال المجتمع الإسلامي الصحيح تبقى الاُمّة، إلّا أنّها أيضاً ـ وفي منطق الانحراف ـ من المحتوم عليها أن تتفتّت، وأن تنهار، وأن تنصهر ببوتقة الغزو الكافر الذي أطاح بدولتها ومجتمعها؛ لأنّ الاُمّة التي عاشت الإسلام زمناً قصيراً لم تستطع أن تستوعب من الإسلام ما يحصّنها، وما يحدّد أبعادها ويعطيها أصالتها وشخصيّتها وروحها العامّة، ويمنحها القدرة للاجتماع على مقاومة التميّع والتسيّب والانهيار في البوتقات الاُخرى.

هذه الاُمّة، بحكم أنّ الانحراف قصّر عمر التجربة، وبحكم أنّ الانحراف قد زوّر معالم الإسلام، بحكم هذين السببين: الكمّي والكيفي ـ السبب الكمّي هو: أنّ عُمْرَ التجربة الإسلاميّة يصبح قصيراً بفضل الانحراف؛ لأنّه يسرّع بإفناء التجربة الإسلاميّة. والعامل الكيفي هو: أنّ الانحراف يشوّه معالم الإسلام، ولا يعطي الإسلام بشكلٍ صحيح ـ فهذا العامل الكيفي وذاك العامل الكمّي

يجعلان الأُمّة غير مستوعبةٍ للإسلام؛ لأنّها لم تَعِش الإسلام إلّا زمناً قصيراً بحكم العامل الكمّي، ولم تعشه إلّا بصورة مشوّهةٍ بحكم العامل الكيفي.

إذاً، فلا تتحصّن بالطاقة التي تُمنِعُها[١] وتحفظها من الانهيار[٢] أمام الكافرين وثقافاتهم. ومن هنا، تنهار الأُمّة وتتنازل بالتدريج عن عقيدتها وآدابها وأحكامها، ويخرج الناس من دين الله أفواجاً.

وهذا هو واقع الفكرة التي عرضتها روايةٌ عن أحد أئمّة أهل البيت عليهم السلام ـ ولا أذكر من هو ـ تقول: إنّ أوّل ما يتعطّل من الإسلام هو الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، وآخر ما يتعطّل من الإسلام الصلاة[٣].

هذا هو تعبيرٌ بسيط، شرحُه هو ما قلناه من أنّ أوّل ما يتعطّل هو الحكم بما أنزل الله، أي: إنّ الزعامة والقيادة والدولة تنحرف، وعندما تنحرف سوف يتعطّل الحكم بما أنزل الله، وهذا الخطّ ينتهي حتماً إلى أن تُعطَّل الصلاة، أي إلى أن تتميّع الأُمّة.

تعطُّلُ الصلاة هو مرحلةُ أنّ الأُمّة تتعطّل، أنّ الأُمّة تتنازل عن عقيدتها، أنّ الأُمّة تضيِّع رسالتها وآدابها وتعاليمها. الحكم بغير ما أنزل الله معناه: أنّ التجربة سوف تنحرف، أنّ المجتمع يتميّع.

فهذا خطٌّ متسلسل نستنبطه من الرواية، تقول هذه الرواية: أوّل ما يتعطّل هو الحكم بما أنزل الله، وآخر ما يتعطّل هو الصلاة، آخر ما يتركه المسلمون هو الصلاة، وبمعنى آخر: يتركون الإسلام.

---

(١) أي: تجعلها ذات منعة.

(٢) كذا في (غ) و(ف)، وفي (م): «الانصهار».

(٣) لم نعثر عليه عن أحد أئمّة أهل البيت عليهم السلام، ولعلّه قدس سره أراد ما روي عن رسول الله ﷺ: «أوّل ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون منه الصلاة» المسائل والرسائل المرويّة ٢: ٤٢. وكثيراً ما روي عن عبد الله بن مسعود، فراجع: المصنّف (عبد الرزّاق) ٣: ٣٦٣؛ كتاب الفتن (ابن حمّاد) ٢: ٦٠٣؛ الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار (ابن أبي شيبة) ٧: ٢٥٦.

موقف الأئمّة عليهم السلام من انحراف الزعامة وانهيار التجربة والأُمّة:

في مقابل هذا المنطق وقف الأئمة عليهم السلام على خطّين كما قلنا(١):

١ ـ الخطُّ الأوّل: محاولة تسلّم زمام التجربة:

الخطُّ الأوّل هو محاولة تسلّم زمام التجربة، زمام الدولة، محو آثار الانحراف، إرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي لأجل أن تكتمل العناصر الثلاثة: الأُمّة، والمجتمع، والدولة.

٢ ـ الخطُّ الثاني: تحصين الأُمّة ضدّ الانهيار بعد سقوط التجربة:

والخطُّ الثاني هو تحصين الأُمّة ضدّ الانهيار بعد سقوط التجربة، وإعطاؤها من المقوّمات القدر الكافي لكي تبقى وتقف على قدميها، وتعيش المحنة بعد سقوط التجربة بقدمٍ راسخة، وبروحٍ مجاهدة، وبإيمانٍ ثابت.

هذا هو الخطُّ الثاني الذي عمل عليه الأئمّة عليهم السلام.

والآن نريد أن نتبيّن وجود هذين الخطّين في حياة أمير المؤمنين عليه السلام مع استلال العبر في المشي على هذين الخطّين:

الخطّ الأوّل: محاولة أمير المؤمنين عليه السلام تصحيح الانحراف:

على الخطّ الأوّل ـ خطّ محاولة تصحيح الانحراف، وإرجاع وضع المجتمع والدولة في الأُمّة الإسلاميّة إلى خطّه الطبيعي ـ عمل الإمام عليٌّ عليه السلام في هذا الخطّ حتّى قيل عنه: إنّه أشدّ الناس رغبةً في الحكم والولاية(٢). اتّهمه معاوية بن أبي سفيان بأنّه طالب جاهٍ وسلطانٍ وزعامة، اتّهمه بالحقد على أبي

---

(١) تقدّم الحديث عن هذين الخطّين في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: خلاصة دور الأئمّة عليهم السلام تجاه التسلسل المنطقي للانحراف، وفي المحاضرة السابعة، تحت عنوان: تخطيط الأئمّة عليهم السلام لمواجهة الانحراف.

(٢) كقول عمر بن الخطّاب له عليه السلام: «وما يمنعني منك يا علي إلّا حرصك عليها، وإنّك أحرى القوم إن ولّيتها أن تقيم على الحقّ المبين» الإمامة والسياسة ١: ٤٣.

بكر وعمر، اتّهمه بكلّ ما يمكن أن يُتّهم به الشخص المطالب بالجاه وبالسلطان وبالزعامة[١].

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عمل على خطّ تسلّم زمام الحكم وتفتيت هذا الانحراف، وكسب زعامة التجربة الإسلاميّة إلى شخصه الكريم. بدأ هذا العمل عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وآله مباشرةً كما قلناه بالأمس[٢]؛ حيث حاول إيجاد تعبئةٍ وتوعيةٍ فكريّةٍ عامّةٍ في صفوف المؤمنين، وإشعارهم بأنّ الوضع منحرف.

إلّا أنّ هذه التعبئة لم تنجح؛ لأسباب ترتبط بشخص علي عليه السلام ـ استعرضنا بعضها بالأمس[٣] ـ، ولأسباب أُخرى ترتبط بانخفاض وعي المسلمين أنفسهم؛ لأنّ المسلمين وقتئذٍ لم يدركوا أنّ يوم السقيفة كان هو اليوم الذي سوف ينفتح منه كلُّ ما انفتح من بلاءٍ على الخطّ الطويل لرسالة الإسلام، لم يدركوا هذا، ورَأَوا أنّ وجوهاً ظاهرةَ الصلاح قد تصدّت لزعامة المسلمين ولقيادتهم في هذا المجال، ومن الممكن [من] خلال هذه القيادة أن ينمو[٤] الإسلام وأن تنمو الأُمّة، ولم يكن يُفهم عن عليّ عليه السلام إلّا أنّ له حقّاً شخصيّاً يطالِب به، وهو مقصِّرٌ في مطالبته، والمسألة تقف عند هذا الحدّ وليس أكثر، ولذا ضاقت القصّة على أمير المؤمنين من هذه الناحية.

وإنّنا نجد في مراحل متأخّرة من حياة أمير المؤمنين عليه السلام المظاهر الأُخرى لعمله على هذا الخطّ لمحاولة تسلّمه ـ أو سعيه في سبيل تسلّم ـ

---

(١) كتب معاوية بن أبي سفيان لعليٍّ عليه السلام بعد مقتل عثمان: «فكلّهم حسدت وعلى كلّهم بغيت، عرفنا ذلك في نظرك الشزر وفي قولك الهجر وفي تنفسك الصعداء وفي إبطائك عن الخلفاء»، فأجابه عليه السلام: «وذكرت حسدي الخلفاء وإبطائي عنهم وبغيي عليهم؛ فأمّا البغي فمعاذ الله أن يكون، وأمّا الإبطاء عنهم والكراهة لأمرهم فلست أعتذر منه إلى الناس...» وقعة صفّين: ٨٧، ٩٠.

(٢) في المحاضرة السابعة، تحت عنوان: تخطيط الأئمّة عليهم السلام لمواجهة الانحراف.

(٣) في المحاضرة السابعة، تحت عنوان: بعض موانع تزعّم الإمام علي عليه السلام.

(٤) كذا في (م) و(ف)، وفي (غ): «ينجو».

زعامة التجربة الإسلاميّة، وتفادي الانحراف الذي وقع.

الإمام علي عليه السلام بين ترسيخ الوجه الواقعي وتفادي استغلال الوجه الظاهري:

إلّا أنّ الشيء الذي يجب أن يكون واضحاً ـ والذي هو في غاية الوضوح في حياة أمير المؤمنين عليه السلام ـ أيضاً هو أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ـ خلال عمله في سبيل تزعّم التجربة، وفي سبيل محاربة الانحراف القائم، ومواجهته بالقول الحقّ وبالعمل الحقّ، وشرعيّة حقّه في هذا المجال ـ كان يواجه مشكلةً كبيرةً جدّاً، وقد استطاع أن ينتصر عليها انتصاراً كبيراً جدّاً أيضاً، وهي مشكلة الوجه الظاهري لهذا العمل والوجه الواقعي له، وعمليّة التوفيق بينهما:

الوجه الظاهري للعمل: حيث إنّه يتبادر إلى ذهن الإنسان الاعتيادي لأوّل مرّةٍ[1] أنّ العمل في سبيل معارضة زعامة العصر، والعمل في سبيل كسب هذه الزعامة، أنّه عملٌ في إطارٍ فكريٍّ يعبّر عن شعور هذا العامل بوجوده ومصالحه ومكاسبه وأبعاد شخصيّته.

هذا هو التفسير التلقائي الذي يتبادر إلى الأذهان من عملٍ يتمثّل فيه الإصرارُ على معارضة زعامة العصر، وعلى كسب هذه الزعامة[2]. وقد حاول معاوية ـ كما أشرنا[3] ـ أن يستغلّ هذه البداهة التقليديّة في مثل هذا الموقف [الصادر] من أمير المؤمنين عليه السلام في معركته مع الإمام.

هذا التفسير هو تفسيرٌ للوجه الظاهري للعمل.

الوجه الواقعي للعمل: إلّا أنّ الوجه الواقعي لهذا العمل من قِبَل الإمام لم يكن هكذا. الوجه الواقعي هو أنَّ عليّاً عليه السلام كان يمثّل الرسالة، وكان يمثّل

---

(١) يقصد قدس سره: للوهلة الأولى، أي: بدواً.

(٢) وهو ما ذكره الإمام علي عليه السلام نفسه حيث قال: «وقد قال قائلٌ: إنّك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص، فقلت: بل أنتم والله أحرص» نهج البلاغة: ٢٤٦، الخطبة ١٧٢؛ الإمامة والسياسة ١: ١٧٦.

(٣) في مطلع الحديث عن الخطّ الأوّل.

الأهداف الحقيقيّة لها، وكان الأمينَ الأوّل من قِبَل رسول الله ﷺ على التجربة، على استقامتها، على صلابتها، على عدم تميّعها على الخطّ الطويل الذي سوف يعيشه الإسلام والمسلمون بعد النبي ﷺ.

فالعمل كان بروح الرسالة ولم يكن بروحه هو، كان عملاً بروح تلك الأهداف الكبيرة ولم يكن عملاً بروح مصالحه الشخصيّة، لم يكن يريد أن يبني زعامةً لنفسه، وإنّما كان يريد أن يبني زعامة الإسلام، وقيادة الإسلام في المجتمع الإسلامي، وبالتالي في مجموع البشريّة على وجه الأرض[1].

تعارض الوجهين: الواقعي والظاهري:

هذان وجهان مختلفان، وهما قد يتعارضان في نفس العامل نفسِه، وقد يتعارضان في نفس الأشخاص الآخرين الذين يريدون أن يفسّروا عمل هذا العامل.

أ ـ أمّا في نفس العامل، فقد يتراءى له في لحظةٍ أنّه يريد أن يبني زعامة الإسلام لا زعامة نفسه، إلّا أنّه خلال العمل إذا لم يكن مُزوّداً بوعيٍ كامل، إذا لم يكن مزوّداً بإرادةٍ قويّة، إذا لم يكن قد استحضر في كلّ لحظاته وآنات حياته أنّه يعيش هذه الرسالة ولا يعيش نفسه، إذا لم يكن هكذا فسوف يحصل في نفسه ـ ولو لاشعوريّاً ـ انفصامٌ بين الوجه الظاهري للعمل والوجه الواقعي له، سوف تُخلَق في نفسه التناقضات، وسوف تضيع عليه خلال العمل وخضمِّ المشاكل كلُّ الأهداف، أو جزءٌ كبيرٌ منها، وسوف تتغلّب زعامته الشخصيّة على حساب تلك الأهداف، سوف ينسى أنّه لا يعمل لنفسه بل يعمل لتلك الرسالة، سوف ينسى أنّه ملكٌ لغيره وليس ملكاً لنفسه.

---

(١) فقال ﷺ لمّا عزموا على بيعة عثمان: «لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري. ووالله! لأُسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلّا عليّ خاصّة؛ التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً في ما تنافستموه من زخرفه وزبرجه» نهج البلاغة: ١٠٢، الخطبة ٧٤.

هذا خطرٌ كبيرٌ جدّاً يواجه كلَّ شخصٍ يحمل هذه الأهداف الكبيرة؛ حيث يواجه خطر الضياع في نفسه، وخطر أن تنتصر أنانيّته على هذه الأهداف الكبيرة، فيسقط في أثناء الخطّ، ويسقط وسط الطريق، وهذا شيءٌ طبيعي، وهو ما كان عليٌّ عليه السلام معه على طرف نقيض[(١)].

عليّ عليه السلام الذي يصرُّ دائماً أن يكون زعيماً، ويصرُّ أنّه هو الأحقُّ بالزعامة، عليٌّ الذي يتألّم، الذي يتحسّر لأنّه لم يصبح زعيماً للتجربة بعد محمّدٍ صلى الله عليه وآله، الذي يقول: «لقد تقمّصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أنّ محلّي منها محلُّ القطب من الرّحى»[(٢)]؛ فإنّه في غمرة هذا التأسّف، في غمرة هذا الألم، في غمرة هذه الحساسيّة يجب أن لا ينسى أنّ هذا الألم ليس لنفسه، وأنّ هذه الحساسيّة ليست لنفسه، أنّ كلَّ هذا العمل وكلَّ هذا الجهد ليس لأجل نفسه[(٣)].

وعدم الاهتمام[(٤)] هذا في غمرة هذه المشاكل هو الذي يولّد المشكلة الكبيرة، هذه المشكلة تحتاج إلى ترويضٍ كبيرٍ من قبل العامل؛ فإنّ العامل دائماً يثير نفسه، ودائماً يسأل نفسه بأنّه ليس ملكاً لنفسه، وإنّما هو ملكٌ لتلك الأهداف، ومن ثمّ يحدّث أصحابه، ويُبقي[(٥)] أصحابه الذين يشاركون معه في العمل بأنّهم ليسوا أصحابه، وإنّما هم أصحاب تلك الأهداف الكبيرة، يربّيهم دائماً على أنّهم هم أصحاب الرسالة لا أصحابه هو؛ وذلك حتّى يصبح هؤلاء

---

(١) العبارة الأخيرة من (ف)، وهي غير مثبتة في (م) و(غ).

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ١٥١. وفي: نهج البلاغة: ٤٨، الخطبة ٣: «فلان» بدل «ابن أبي قحافة».

(٣) قال قدس سره في آخر محاضرة وصلتنا منه: «هذا الرجل الذي كان يحترق لأنّ الخلافة خرجت من يده، لو أنّ إنساناً يقرأ هذه العبارة وحدها لقال: ما أكثر شهوة هذا الرجل إلى السلطان وإلى الخلافة! لكنّ هذا الرجل نفسه، هذا الرجل بذاته عرضت عليه الخلافة، عرضت عليه رئاسة الدنيا فرفضها، لا لشيء إلّا لأنّها شُرطت بشرط يخالف كتاب الله وسنّة رسوله. من هنا نعرف أنّ ذلك الاحتراق لم يكن من أجل ذاته، وإنّما كان من أجل الله سبحانه وتعالى» المدرسة القرآنيّة: ١٩٨؛ ومضات: ٣٨.

(٤) كذا، وربما يقصد قدس سره: عدم اهتمام العامل بجعل مشاعره لا لنفسه.

(٥) مراده قدس سره: «يربّي أصحابه.. على أنّهم ليسوا أصحابه».

ملك تلك الأهداف لا ملك نفسه.

أيُّ زعيم يمكن أن ينحرف خلال خطّ عمله:

إذا افترضنا أنّ هذا الزعيم قد ربّى أصحابه على أنّهم أصحابه هو، فإنّهم قد لا يستطيعون تقويمه بعد هذا.

وأمّا إذا ربّى أصحابه على أنّهم أصحاب أهدافه لا أصحاب نفسه، فإنّهم سوف ينظرون إلى هذا الشخص المربّي من خلال تلك الأهداف، ويحكمون عليه من خلالها، ويقيّمونه على أساسها.

نجاح الإمام عليّ عليه السلام في التوفيق بين الوجهين:

وقد انتصر عليٌّ عليه السلام انتصاراً عظيماً في تلكما الناحيتين، انتصر عليٌّ عليه السلام على نفسه، وانتصر في إعطاء عمله إطارَه الرسالي وطابعه العقائدي انتصاراً كبيراً:

أ ـ عليٌّ عليه السلام ربّى أصحابه على أنّهم أصحاب الأهداف لا أصحاب نفسه، كان يدعو دائماً إلى أنّ الإنسان يجب أن يكون صاحب الحقّ قبل أن يكون صاحب شخصٍ بعينه، عليٌّ عليه السلام هو الذي قال: «اعرف الحقّ تعرف أهله»[1].

هو الذي كان يقول للمقداد وأبي ذر وسلمان وعمّار وغيرهم: اعرفوا الحقّ ثمّ احكموا على عليٍّ هل هو مع الحقّ أو لا! لا تأخذوا عليّاً أو عمرَ أو أبا بكر أو سعداً أو أيَّ شخصٍ وتجعلوه مقياساً للحقّ، بل خذوا الحقَّ ثمّ احكموا على عليٍّ وغيره في إطار ذلك الحقّ.

وهذا غاية ما يمكن أن يقدّمه الزعيم من إخلاص في سبيل أهدافه: أن يؤكّد دائماً لأصحابه، لأنصاره ـ وهذا ما يجب على كلّ المخلصين أن يؤكّدوا عليه في أنفسهم، ويؤكّدوا عليه بين أتباعهم ـ أنّ المقياس هو الحقّ وليس

---

(١) «فاعرف الحق تعرف أهله» الأمالي (المفيد): ٥، الحديث ٣؛ الأمالي (الطوسي): ٦٢٦، الحديث ٥.

هو الشخص، أنّ المقياس هو الأهداف وليس هو الفرد، مهما كان هذا الفرد عظيماً.

هل يوجد شخص أعظم من عليّ بن أبي طالب؟ لا يوجد هناك شخصٌ أعظم منه إلّا اُستاذه صلى الله عليه وآله، لكن مع هذا، جعل المقياس هو الحقّ لا المقياس هو نفسه.

ب ـ لمّا جاء ذلك الشخص وسأله عن الحقّ في حرب الجمل: هل هو مع هذا الجيش؟ كان هذا الرجل يعيش في حالة تردّدٍ بين عائشة وعلي، يريد أن يوازن بين عائشة وعلي، أيّهما أفضل؟ حتّى يحكم بأنّ عائشة مع الحقّ أو علي مع الحقّ، أَ جُهود عائشة أفضل للإسلام أم جهود علي؟ قال له الإمام: «اعرف الحقّ تعرف أهله»[١].

علي عليه السلام كان يصرّ دائماً على أن يعطي العمل الشخصي طابعه الرسالي، لا طابع المكاسب الشخصيّة بالنسبة إليه.

ج ـ وهذا هو الذي يفسّر لنا أنّ عليّاً عليه السلام ـ بعد أن فشل في تعبئته الفكريّة عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ لم يعارض أبا بكر وعمر معارضةً واضحةً سافرةً طيلة حياتهما؛ ذلك أنّ أوّل موقفٍ اعتزم فيه على المعارضة والمواجهة بعد تلك التعبئة الفكريّة وإعطائها الشكل الواضح والصريح كان عقيب وفاة عمر، وذلك يوم الشورى، حينما حطّم صنميّة أبي بكر وعمر عندما عرض عليه عبد الرحمن بن عوف أن يبايعه على كتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الشيخين؛ فإنّه أبى أن يبايع على ذلك، وقال: «بل على كتاب الله وسنّة نبيّه واجتهاد رأيي»[٢]. هنا أعلن عليّ عليه السلام عن معارضة عمر.

في حياة أبي بكر وعمر ـ بعد تلك التعبئة ـ لم يبدُ من الإمام موقفٌ

---

(١) تقدّم تخريجه آنفاً، وقد قال ذلك للحارث الهمداني.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨، وفيه: «سنّة رسوله». وانظر قريباً منه في: تاريخ اليعقوبي ٢: ١٦٢.

إيجابيٌّ واضحٌ في معارضة أبي بكر وعمر، والوجه في هذا هو[١]: أنّ عليّاً كان يريد أن تكون المعارضة دائماً في إطارها الرسالي، وأن ينعكس هذا الإطار الرسالي على المسلمين؛ حتّى يفهموا أنّ معارضته ليست لنفسه وإنّما هي للرسالة.

[ومع أنّ][٢] أبا بكر وعمر كانا قد بدءا الانحراف، ولكنّ هذا الانحراف لم يكن قد تعمّق بعد، والمسلمون قصيرو النظر الذين قدّموا أبا بكر ثمّ عمر على علي عليه السلام لم يكن باستطاعتهم أن يعمّقوا النظر إلى هذه الجذور من الانحراف التي نشأت في أيّام أبي بكر وعمر، فكان معنى مواصلة العمليّة ومواصلة المعارضة بشكلٍ شديدٍ أيّام أبي بكر وعمر، معنى أن يبدأ عمَلَه ـ الذي بدأه أيّام عثمان ـ أيّامَ أبي بكر وعمر، معناه أن يفسَّر من أكثر المسلمين على أنّه عملٌ شخصي ومنافسةٌ شخصيّةٌ مع أبي بكر وعمر.

أبو بكر وعمر وإن بدأت بذور الانحراف في عهدهما، إلّا أنّه حتّى هذه البذور كانت في الأغلب مصبوغةً بالصبغة الحراريّة الإيمانيّة، مربوطة بالحرارة الإيمانيّة الموجودة لدى الأُمّة. وحيث إنّها حرارة إيمانيّة بدون وعيٍ رساليٍّ، لم تكن الأُمّة تميّز أنّ هذا هو عبارة عن الانحراف.

عمر حينما ميّز بين المسلمين وأنشأ نظام الطبقات، حينما أثرى قبيلةً أو جماعةً دون غيرها وعلى حساب غيرها، حينما أثرى قبيلة النبي صلى الله عليه وآله ـ حيث أغنى زوجاته، أغنى عمَّه، أغنى أهل بيته، حينما كان يعطي لزوجات النبي لكلٍّ عشرةَ آلاف، ويعطي عمَّ النبي صلى الله عليه وآله العبّاس اثني عشر ألفاً[٣] ـ، حينما

---

(١) سبق أن تعرّض الشهيد الصدر رحمه الله لهذا الوجه في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: حيثيّات بدء أمير المؤمنين عليه السلام الصراعَ السياسي.

(٢) في المحاضرة المدوّنة: «وحيث إنّ»، وما أثبتناه أنسب للمراد.

(٣) «وكان فرض للعبّاس خمسةً وعشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وأعطى نساء النبي[صلى الله عليه وآله] عشرة

قسّم الأموال الضخمة على هذه الأُسرة، لم يكن هذا الانحراف مختلفاً عن انحراف عثمان في جوهره عندما ميّز عثمان أهل بيته وعشيرته، إلّا أنّ عمرَ ربطَ هذا الانحراف بالحرارة الإيمانيّة عند الأُمّة. هذه الحرارة غير الواعية عند الأُمّة كانت تقبل مثل هذا الانحراف؛ لأنّ هؤلاء أهل النبي وزوجاته، العبّاس مثلاً يمكنه أن يَثرى على حساب النبي، وكذا عائشة وحفصة و... ولا تحسّ الأُمّة بأساً بذلك.

عثمان حينما جاء لم يزد على هذا الانحراف في جوهره شيئاً، بدّل عشيرة النبي صلى الله عليه وآله بعشيرته هو فقط[1]. انحراف عثمان استمرارٌ لانحراف عمر، إلّا أنّه انحراف مكشوف، بينما ذلك الانحراف مقنّع، ذاك الانحراف مرتبط بالحرارة الإيمانيّة عند الأُمّة، وهذا الانحراف يتحدّى مصالح الأُمّة، ويتحدّى المصالح الحسّية للأُمّة، ولهذا استطاعت الأُمّة أن تلتفت إلى انحراف عثمان، بينما لم تلتفت بوضوحٍ إلى انحراف أبي بكر وعمر.

ولذا لم يستطع عليّ عليه السلام أن يعلن ذلك إلّا بعد أن مات أبو بكر وعمر، في الوقت الذي لا يفسّر فيه عملُه على أنّه منازعةٌ للسلطان والزعامة مع أبي

آلاف عشرة آلاف، إلّا من جرى عليها الملك» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٦١٤، وراجع أرقاماً أُخرى في: الطبقات الكبرى ٣: ٢٢٩؛ فتوح البلدان: ٤٣٦.

(١) «إلى أن قام ثالثُ القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومُعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع» نهج البلاغة: ٤٩، الخطبة ٣. وراجع: الإمامة والسياسة ١: ٥٠؛ المعارف: ١٩٥؛ أنساب الأشراف ٥: ٥١٥، ٥٨٠؛ البدء والتاريخ ٥: ٢٠٠. وقد أنشأ عبد الرحمن بن حنبل الجمحي لمّا أعطى عثمانُ مروان بن الحكم خمسمائة ألف من خمس إفريقية:

ووليّت قرباك أمر العباد خلافاً لسنّة من قد مضى

الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢: ٨٢٨ ـ ٨٢٩

وأورد القاضي عبد الجبّار إيثار عثمان عشيرَته ضمن ما يُطعن به عليه، فراجع حول ذلك نفياً وإثباتاً: المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢٠ (الإمامة ج٢): ٣٩؛ الشافي في الإمامة ٤: ٢٢٩؛ تلخيص الشافي ٤: ٥٦؛ شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣؛ بحار الأنوار ٣١ : ٢١٨، الطعن الثامن.

بكر وعمر[١].

لكن بعد أن تمّ الأمر لعثمان وبويع في يوم الشورى، عليٌّ عليه السلام قوّض خلافته بأنْ قال: إنّي سوف أسكت ما سلمت أُمور المسلمين ومصالحهم[٢]. ما دام الغبن عليَّ وحدي، ما دمت أنا المظلومَ وحدي، وما دام حقّي وحده هو الضائع، إنّي سوف أسكت وأُبايع وأُطيع عثمان. لكن إذا تهدّمت مصالح المسلمين وقضاياهم وكرامتهم وإسلامهم، إذا واجهوا مصائبهم نتيجةً لهذه الزعامة المنحرفة، فلن أستطيع الصبر والسكوت.

هذا هو الشعار الذي أعطاه بصراحة مع أبي بكر وعمر وعثمان، وبهذا الشعار أصبح في عمله رساليّاً، وانعكست هذه الرسالة على عهد أمير المؤمنين عليه السلام.

وبقي عليه السلام ملتزماً بما تعهّد به من السكوت إلى أن بدأ الانحراف في حياة عثمان بشكل مفضوح، فلم يصبر في حياة عثمان؛ لأنّ الانحراف تكشّف، وارتفعت تلك الأقنعة، وفقد الارتباط بالحرارة الإيمانيّة التي ارتبط بها الانحراف في أيّام الخليفة الأوّل والثاني. ولهذا أسفر عليٌّ عليه السلام عن المعارضة، وواجه عثمان بما سنتحدّث عنه بعد ذلك[٣].

فعليٌّ عليه السلام في محاولته تسلّم زمام التجربة وزعامة القضيّة الإسلاميّة كان يريد أن يوفّق بين هذا الوجه الظاهري للعمل وبين الوجه الواقعي للعمل.

ولقد استطاع ذلك، واستطاع أن يوفّق بينهما توفيقاً كاملاً، واستطاع هذا في توقيته للعمل، وفي تربيته لأصحابه؛ حيث ربّاهم على أنّهم أصحاب

---

(١) راجع: المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: حيثيّات بدء أمير المؤمنين عليه السلام الصراعَ السياسي.

(٢) «لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري، ووالله! لأسلمنّ ما سلمت أُمور المسلمين ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليَّ خاصّة» نهج البلاغة: ١٠٢، الخطبة ٧٤.

(٣) لم تسنح الفرصة أمامه قدس سره للحديث عن هذا الجانب كما وعد.

الأهداف لا أصحاب الأشخاص، واستطاع هذا في كلّ الشعارات التي طرحها، واستطاع أن يثبت أنّه بالرغم من أنّ رغبته في أن يصبح الحاكم كانت في القمّة، لكن مع ذلك لم يكن مستعدّاً أبداً لأنْ يصبح حاكماً مع وجود الشروط التي وضعت.

أَ لم تعرض عليه الحاكميّة بعد موت عمر؟! ولكن عندما وجد شرطاً من الشروط قد اختلّ في هذه الرسالة رفض هذه الحاكميّة(١).

د ـ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام بالرغم من أنّه كان في أشدّ ما يكون سعياً وراء الحكم، جاءه المسلمون بعد أن قتل عثمان وعرضوا عليه أن يكون حاكماً، قال لهم: «بايعوا غيري وأنا أكون كأحدكم، بل أكون أطوعَكم لهذا الحاكم الذي تبايعونه ما سلمت أُمور المسلمين في عدله وعمله»(٢).

يقول ذلك لأنّ الخطر الذي تواجهه الاُمّة الإسلاميّة كبيرٌ جدّاً، [ولأنّ] بذرةَ الانحرافِ التي عاشها المسلمون بعد النبي صلى الله عليه وآله إلى أن قتل عثمان تمادت وتعمّقت وتجبّرت وطغت. هذا الانحراف الذي استكبر، الذي خلّف التناقضات في الاُمّة الإسلاميّة، هذا عبءٌ كبيرٌ جدّاً.

ماذا يريد أن يقول؟

يريد أن يقول بأنّي لا أقبل شيئاً إلّا أن تصفّوا هذا الانحراف، أنا أقبل الحكم الذي يصفّي هذا الانحراف ويقتلع جذوره، لا الحكم الذي يصانعه.

هذه الإحجامات عن قبول الحكم في مثل هذه اللحظات كانت تؤكّد الطابع الرسالي لحرقته، للوعته، لأساه، لألمه، لرغبته في أن يكون حاكماً.

---

(١) الطبقات الكبرى ٣: ٢٥٩؛ الإمامة والسياسة ١: ٤٣؛ أنساب الأشراف ٥: ٥٠١؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥٨؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ١٩٢؛ الفتوح ٢: ٣٢٥؛ البدء والتاريخ ٥: ١٩٠.

(٢) «وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم منّي أميراً» نهج البلاغة: ١٣٦، الخطبة ٩٢.

استطاع أن ينتصر على نفسه ويعيش دائماً لرسالته وأهدافه، واستطاع أن يربّي أصحابه أيضاً على هذا المنوال.

هذا هو الخطّ الأوّل، وهو خطُّ محاولته تسلّمَ زمام التجربة الإسلاميّة.

الخطّ الثاني: خطُّ تحصين الأُمّة:

الخطُّ الثاني هو خطُّ تحصين الأُمّة التي كانت تواجه خطر العاملَين الكمّي والكيفي، اللّذَين سوف يجعلان هذه الأُمّة لا تعيش الإسلام إلّا زمناً قصيراً بحكم العامل الكمّي الذي سوف يُسرع في إفناء التجربة، وسوف لن تعيش إلّا تجربةً مشوّهةً بحكم العامل الكيفي الذي يفرض عليها.

ولذا، بدأ الإمام هنا بتحصين الأُمّة بالتغلّب على هذين العاملين:

١ ـ معالجة العامل الكمّي:

أمّا التغلّب على العامل الكمّي، فكان في محاولة تمديد عمر التجربة. [و]حيث لا يمكن تمديدها بزعامته هو شخصيّاً، [فقد] كان ذلك التمديد بأُسلوبين:

أ ـ التدخّل الإيجابي الموجِّه[1] في حياة قيادة التجربة الإسلاميّة:

[الأُسلوب] الأوّل هو عبارة عن التدخّل الإيجابي الموجِّه في حياة هذه التجربة بلحاظ قيادتها.

القادة والزعماء الذين كانوا يتولّون هذه التجربة كانوا يواجهون قضايا كثيرةً لا يُحسنون مواجهتها، كانت تواجههم مشاكل كثيرة لا يحسنون حلّها، ولو حاولوا حلّها ومواجهتها لوقعوا في أشدِّ الأخطار والأضرار، ولأَوْقعوا المسلمين في أشدِّ التناقضات، ولأصبحت النتيجة المحتومة أقرب، ولأصبحت

---

(١) أو «الموجَّه»، وسنعتمد قراءتها بالكسر.

التجربة على شفا الموت وأقرب إلى الفناء وأسرع إلى الهلاك.

هنا كان يتدخّل الإمام عليه السلام ـ وهذا خطٌّ عام سار الأئمّة عليهم السلام كلُّهم على هذا الخطّ كما قلنا[١]، وسوف نقول[٢] ـ، فكان الإمام عليه السلام يتدخّل تدخّلاً إيجابيّاً موجِّهاً في سبيل أن ينقذ التجربة من المزيد من الضياع، ومن المزيد من الانحراف، ومن المزيد من السير في الضلال.

كلّنا نعلم بأنّ المشاكل العقائديّة التي كانت تواجه الزعامة السياسيّة بعد النبي صلى الله عليه وآله، هذه المشاكل العقائديّة التي كانت تثيرها الحضارات الأُخرى التي بدأت تندرج في الأُمّة الإسلاميّة، وكذلك الأديان الأُخرى التي بدأت تعاشر المسلمين، هذه المشاكل العقائديّة لم تكن الزعامات السياسيّة قادرةً على حلّها، ولذا كان الإمام عليه السلام هو المُعينَ لتلك الزعامة في عمليّة التغلّب على تلك المشاكل:

* كلّنا نعلم بأنّ الدولة الإسلاميّة واجهت في عهد عمر خطراً من أعظم الأخطار، وهو خطر إقامة إقطاع لا نظير له في المجتمع الإسلامي[٣]، هذا الإقطاع الذي كان من المفروض أن يُسرع في دمار الأُمّة الإسلاميّة، وذلك حينما وقع البحث بين المسلمين بعد فتح العراق في أنّه: هل توزّع أراضي العراق على المجاهدين المقاتلين، أو أنّها تبقى ملكاً عامّاً للمسلمين عموماً؟

وكان هناك اتّجاهٌ كبيرٌ بين المسلمين إلى أن توزَّع هذه الأراضي على المجاهدين، أي على الذين فتحوا العراق والشام ومصر وفارس.

---

(١) في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: خلاصة دور الأئمّة عليهم السلام تجاه التسلسل المنطقي للانحراف، وفي المحاضرة السابعة، تحت عنوان: تخطيط الأئمّة عليهم السلام لمواجهة الانحراف، وفي هذه المحاضرة، تحت عنوان: موقف الأئمّة عليهم السلام من انحراف الزعامة وانهيار التجربة والأُمّة.

(٢) في ثنايا هذه المحاضرة.

(٣) كذا في (غ) و(ف)، وفي (م): «مجتمعات العالم».

وكان نتيجة ذلك أن يُعطى العراق وسوريا وإيران ومصر وجميع العالم الإسلامي الذي أسلم بالفتح إلى أربعة أو خمسة أو ستّة آلاف من المسلمين المجاهدين إلى بضعة آلافٍ كانت تقاتل وتحارب، سوف تستقطع أراضي العالم الإسلامي لهؤلاء، وبالتالي سوف يشكّل ذلك إقطاعاً لا نظير له في التاريخ.

هذا المطلب هو الخطر الذي كان يهدّد الدولة الإسلاميّة، وكان عمر قد تحيَّر من أجل ذلك عدّة أيّام؛ لأنّ عمر ليس على مستوى المسؤوليّة، ولا يعرف ماذا يصنع، ولا يعرف ما هو الأصلح، وكيف يُمكن أن يعالج هذه المشكلة.

عليُّ بن أبي طالب عليه السلام هو الذي تدخّل ـ كما تعلمون ـ وحسم هذا الخلاف، وبيّن وجهة نظر الإسلام في الموضوع، وأخذ عمر بنظر الإمام عليٍّ عليه السلام، وأنقذ بذلك الإسلام من الدمار الكبير[1].

* وكذلك التدخّلات الكثيرة، والتي منها قضيّة النفير العامّ الذي اقتُرح على عمر، والذي كان يهدّد العاصمة في غزوٍ سافرٍ كان من الممكن أن يقضي على الدولة الإسلاميّة.

هذا الاقتراح طُرح على عمر، وكاد عمر أن يأخذ به. جاء عليٌّ إلى المسجد، إلى عمر، مسرعاً ـ على ما في بعض الروايات[2] ـ، قال له: لا تنفر نفراً عامّاً. كان عمر يريد أن يخرج مع تمام المسلمين الموجودين آنذاك في

(١) تقدّم الاستشهاد منه ﷺ بهذه الحادثة في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: الأمّة الإسلاميّة حملت طاقةً حراريّةً ولم تحمل وعياً مستنيراً، موقف الخليفة الثاني من حكم الأرض المفتوحة، فراجع: فتوح البلدان: ٢٦١؛ معجم البلدان ١: ٤٤. وراجع له أيضاً: اقتصادنا: ٤٩٢ ـ ٥٠٣؛ محاضرات تأسيسيّة: ٤١٤ وما بعد.

(٢) لم نعثر ضمن الروايات على ما يفيد ذلك.

المدينة، وعندها تفرغ المدينة عاصمة الإسلام ممّن يحميها عن غزو المشركين والكافرين، منعه من النفير العام(١).

وهكذا، كان عليٌّ عليه السلام يتدخّل تدخّلاً إيجابيّاً موجِّهاً في سبيل أن يقاوم المزيد من الانحراف والمزيد من الضياع، كي يطيل عمر هذه التجربة الإسلاميّة، ويقاوم عامل الكمّ الذي ذكرناه.

هذا هو أحد أُسلوبَي مقاومة العامل الكمّيّ.

ب ـ معارضة الحكّام ومنعهم عن المزيد من الانحراف:

والأُسلوب الآخر لمقاومة العامل الكمّي في الموضوع كان هو المعارضة، أي كان عبارةً عن تهديد الحكّام ومنعهم من المزيد من الانحراف، لا عن سبيل التوجيه، وإنّما عن سبيل المعارضة والتهديد.

في [الأُسلوب] الأوّل كنّا نفرض أنّ الحاكم فارغٌ دينيّاً وكان يحتاج إلى توجيه، الإمام عليه السلام كان يأتي ويوجّه.

أمّا الأُسلوب الثاني [فـ]ـيكون فيه الحاكم منحرفاً ولا يقبل التوجيه، إذاً فيحتاج إلى معارضة، ويحتاج إلى حملةٍ ضدَّ هذا الحاكم لأجل إيقافه عند حدّه، ولأجل منعه عن المزيد في الانحراف. وكانت هذه هي السياسة العامّة للأئمّة عليهم السلام.

أَلَسنا نعلم أنّ عمر صعد على المنبر وقال: «ماذا كنتم تعملون لو أنّا صرفناكم عمّا تعلمون إلى ما تنكرون؟!»؛ كان يريد أن يقدّر الموقف وماذا سيكون. لم يقم له إلّا عليٌّ عليه السلام ليقول له: «لو فعلت ذلك لقوّمناك بسيوفنا»(٢).

---

(١) نهج البلاغة: ٢٠٣، الخطبة ١٤٦؛ الأخبار الطوال: ١٣٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ١٢٥؛ الفتوح ٢: ٢٩٣؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ٢٠٩؛ تجارب الأمم ١: ٣٨٣؛ الكامل في التاريخ ٣: ٨.

(٢) تقدّم التعليق مفصّلاً على هذا الخبر في المحاضرة الثالثة، تحت عنوان: انعكاسات دور الأئمّة عليهم السلام

كان هذا هو الشعار العامّ للإمام عليٍّ عليه السلام. بالرغم من أنّه لم يشترك في عمليّة تعديل عُمَرَ بالسيف خلال حكم عمر ـ وذلك لظروفٍ ذكرناها ودرسناها [١] ـ، إلّا أنّه قاد المعارضة لعثمان وتزعّم هذه المعارضة، واستقطب آمال المسلمين ومشاعر المسلمين واتّجاهات المسلمين نحو حكمٍ صحيح، ولهذا كان هو المرشّح الأساسي شبه الوحيد أيضاً بعد أن قتل عثمان، واجتمع عليه المسلمون [٢].

الإمام عليه السلام كان يتحرّك بهدف وقف امتداد الانحراف، وتجميد حركة أصحاب الانحراف، وبهذا يكمل معالجة العامل الكمّي.

٢ ـ معالجة العامل الكيفي:

وأمّا معالجة العامل الكيفي ـ وهو المحافظة على الأُمّة الإسلاميّة، وإعطاؤها الوجهةَ الإسلاميّةَ الصحيحةَ دون قبول الوجهة المنحرفة المشوّهة للإسلام ـ [فـ]ـهذا العمل لا يكفي فيه الصراعُ على المستوى الكمّي السابق؛ لأنّه لا يُكسِب الأُمّة المناعة الحقيقيّة والحرارة الحقيقيّة للبقاء والصمود كأُمّة.

إذاً، كان لا بدّ وأن يحدَّد الوجهُ الحقيقي للإسلام في سبيل الحفاظ عليه، وهذا الوجه الحقيقي للإسلام قدَّمه الإمام عليٌّ عليه السلام من خلال معارضته للزعامات المنحرفة أوّلاً [٣]، ومن خلال حكم الإمام عليه السلام بعد أن مارس الحكم

الإيجابي في الحفاظ على الرسالة، ردع الحاكم عن مزيد من الانحراف. وراجع: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣: ١٥٠؛ المناقب (الخوارزمي): ٩٨، الحديث ١٠٠؛ بحار الأنوار ٤٠: ١٨٠ ـ ١٨١.

(١) في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: حيثيّات بدء أمير المؤمنين عليه السلام الصراعَ السياسي.

(٢) «فما راعني إلّا والناس كعُرف الضبع إليّ ينثالون عليّ من كلّ جانب، حتّى لقد وُطِئ الحسنان، وشُقَّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم» نهج البلاغة: ٤٩، الخطبة ٣.

(٣) وهو ما تقدّم الحديث عنه عند معالجة العامل الكمّي.

بنفسه [ثانياً](١).

من خلال هذين العملين ـ العمل السياسي المتمثّل في المعارضة، والعمل السياسي المتمثّل في رئاسة الدولة بصورةٍ مباشرةٍ ـ قدَّم الوجهَ الحقيقيَّ للإسلام، الأُطروحة الصحيحة للحياة الإسلاميّة، الأُطروحة الخالية من كلّ تلك الألوان من الانحراف.

طبعاً هذا لا يحتاج إلى حديث، ولا يحتاج إلى تمثيل؛ لأنّه واضح لديكم.

أمير المؤمنين عليه السلام حينما تولّى الحكم لم يكن يستهدف من تولّي الحكم تحصين التجربة أو الدولة بقدر ما كان يستهدف تقديم المثل الأعلى للإسلام؛ لأنّه كان يعرف أنّ التناقضات في الأُمّة الإسلاميّة بلغت إلى درجةٍ لا يمكن معها أن ينجح عملٌ إصلاحيٌّ إزاء هذا الانحراف، مع علمه أنّ المستقبل لمعاوية، وأنّ معاوية هو الذي يمثّل القوى الكبرى الضخمة في الأُمّة الإسلاميّة.

كان يعلم ذلك، ولهذا ذكّر بولاية معاوية، وقال لأهل الكوفة: ويلكم، إنّه سيسلّط عليكم هذا الرجل الذي نعته النبيُّ صلى الله عليه وآله خاصّة(٢).

كان يعرف أنّ القوى الضخمة التي خلّفها عمر وخلّفها عثمان والتي خلّفها الانحراف، هذه القوى كلّها إلى جانب معاوية، وليس إلى جانبه هو ما يعادل هذه القوى(٣)، ولكنّه مع هذا قَبِل الحكم، ومع هذا بدأ بتصفية وتعرية

(١) وهو ما يعالجه الشهيد الصدر قدس سره هنا تحت عنوان: معالجة العامل الكيفي.

(٢) عن الحسن بن علي عليهما السلام: «إنّي سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تذهب الليالي والأيّام حتّى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السّرم، ضخم البلعوم، يأكل ولا يشبع، لا ينظر الله إليه، ولا يموت حتّى لا يكون له في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر. وإنّه لمعاوية، وإنّي عرفت أنّ الله بالغ أمره» مقاتل الطالبيّين: ٧٦؛ وراجع كلام عليٍّ عليه السلام في: نهج البلاغة: ٩٢، الخطبة ٥٧.

(٣) سيعالج الشهيد الصدر قدس سره بشكل مفصّل العوامل التي أدّت إلى أن يكون معاوية أقدر على الاستمرار

الحكم والانحراف الذي كان قبله، ومع هذا مارس الحكم وضحّى في سبيل هذا الحكم بعشرات الآلاف من المسلمين.

أوّلُ من قتل الآلاف من المسلمين في سبيل الحكم هو عليٌّ عليه السلام، وذلك في سبيل أن يقدّم الأُطروحة الصحيحة الصريحة للإسلام وللحياة الإسلاميّة، وقد قلت بالأمس[1] ـ وأؤكّد اليوم مرّة أُخرى ـ بأنّ عليّاً عليه السلام في معارضته، في حكمه، لم يكن يمثّل الشيعة فقط، ولم يكن يؤثّر على انحراف الشيعة فقط، بل كان يؤثّر على مجموع الأُمّة الإسلاميّة.

عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ربّى المسلمين جميعاً، شيعةً وسنّةً[2]، حصّن المسلمين جميعاً، شيعةً وسنّة، عليٌّ عليه السلام عرّف المسلمين جميعاً ـ سنّةً وشيعة ـ قيمة الإسلام وعظمة الإسلام، عليٌّ عليه السلام أصبح أُطروحةً ومثلاً أعلى للإسلام الحقيقي. من الذي كان يحارب مع الإمام علي عليه السلام؟

هؤلاء المسلمون الذين كانوا يحاربون المسلمين في سبيل هذه الأُطروحة الغالية، وفي سبيل هذا المثل الأعلى، أَكانوا كلّهم شيعةً بالمعنى الأخصّ؟ لا، لم يكونوا كلّهم شيعة.

هذه الجماهير التي انتفضت بعد عليٍّ عليه السلام على مرّ التاريخ بزعامات أهل البيت عليهم السلام، بزعامات العلويّين الثائرين من أهل البيت، الذين كانوا يرفعون راية عليٍّ عليه السلام وشعار عليٍّ عليه السلام للحكم، هؤلاء كلّهم كانوا شيعةً بالمعنى الأخصّ؟ لا، لم يكونوا شيعةً بالمعنى الأخصّ، بل كان أكثرهم لا يؤمن بعليٍّ عليه السلام إيمانَنا

بخطّه من إمام الإسلام عليه السلام في المحاضرتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

(١) في المحاضرة السادسة، تحت عنوان: تخطيط الأئمّة عليهم السلام لمواجهة الانحراف؛ حيث تقدّم «أنّ هذه الأُطروحة التي قدّمها الأئمّة عليهم السلام للإسلام لم تكن تتفاعل مع الشيعة المؤمنين بإمامة أهل البيت عليهم السلام فقط، بل كان لها صدىً كبيرٌ في كلّ العالم الإسلامي».

(٢) يقصد قدس سره على التوالي: من لم يوالِه ومن والاه، وإلّا فقد صرّح قدس سره في المحاضرة الخامسة عشرة أنّ تسمية هذه «الكتلة» بـ «الشيعة» من تسميات اليوم.

نحن الشيعة، ولكنّهم كانوا ينظرون إلى عليٍّ عليه السلام [على] أنّه المثل الأعلى، أنّه الرجل الصحيح الحقيقي للإسلام.

حينما قام نائب عبد الله بن الزبير يعلنُ سياسة عبد الله بن الزبير، وقال بأنّنا سوف نحكم بما كان يحكم به عمر وعثمان، قامت الجماهير، جماهير المسلمين تقول له: «لا، بل بحكم علي عليه السلام»(١).

فعليٌّ كان يمثّل اتّجاهاً في مجموع الاُمّة الإسلاميّة.

الخلافة العباسيّة كيف قامت؟ كيف نشأت؟ قامت على أساس دعوةٍ كانت تتبنّى زعامة الرضا من آل محمّد صلى الله عليه وآله(٢). يعني: إنّ هذه الحركة استغلّت عظمة هذا الاتّجاه، وتجمُّعَ المسلمين حول هذا الاتّجاه، ولم يكن هؤلاء شيعة، أكثر هؤلاء لم يكونوا شيعة، لكن كانوا يعرفون أنّ الاتّجاه الصالح الحقيقيَّ الصلبَ العنيفَ كان يمثّله عليٌّ عليه السلام والواعون من أصحاب عليٍّ عليه السلام وأبنائه.

ولهذا، فإنّ كثيراً من أبناء العامّة هم من أصحاب الأئمّة عليهم السلام، كثيرٌ من أصحاب الأئمّة كانوا من العامّة(٣)، بل من أئمّة العامّة ومن أكابر أصحاب الصادق عليه السلام(٤).

كان الأئمّة عليهم السلام يفكّرون في أن يقدّموا الإسلام لمجموع الاُمّة الإسلاميّة،

---

(١) «فإنّا نشهدك أنّا لا ترضى أن تحمل فضل فيئنا عنّا، وألّا يقسم إلّا فينا، وألّا يُسار فينا إلّا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتّى هلك رحمة الله عليه» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٦: ١١؛ الكامل في التاريخ ٤: ٢١٣؛ البداية والنهاية ٨: ٢٦٥.

(٢) كذا في (م)، وفي (غ): «الصالح من آل محمّد»، وفي (ف): «الصادق من آل محمّد»، وراجع: أخبار الدولة العبّاسيّة: ١٩٤، ٢٨٢؛ البدء والتاريخ ٦: ٦٢.

(٣) راجع مثلاً: فهرست أسماء مصنّفي الشيعة ومصنّفاتهم (رجال النجاشي): ١٠٧، ٢٠٥، ٢٠٧، ٣١٠، ٣٥٥، ٤٠٩، ٤٤٣.

(٤) فقد كان أبو حنيفة ومالك من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، فراجع: الأعلام ٢: ١٢٦.

وأن يكونوا مثلاً، أن يكونوا أُطروحةً، أن يكونوا مثلاً أعلى. كانوا عليهم السلام يعملون على خطّين: خطّ بناء المسلمين الشيعيّين الصالحين، وخطّ ضرب المثل الأعلى لمجموع المسلمين بقطع النظر عن كونهم شيعة أو سنّة.

هناك علماء من كبار علماء السنّة أفتوا بوجوب الجهاد، وبوجوب القتال بين يدي ثوّار آل محمّدٍ ﷺ: أبو حنيفة النعمان قبل أن ينحرف، قبل أن يرشيَه السلطان ويصبح من فقهاء عمّال السلطان، أبو حنيفة نفسه ـ الذي كان من أعيان السنّة ومن زعماء السنّة، هو نفسه ـ خرج مقاتلاً ومجاهداً مع رايةٍ من رايات آل عليٍّ عليه السلام، وأفتى بالجهاد مع رايةٍ من رايات آل عليٍّ عليه السلام[(١)]، مع راية تحمل شعار عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام. كلُّ هذا قبل أن يتعامل مع السلاطين[(٢)].

إذاً، فاتّجاه عليٍّ عليه السلام لم يكن اتّجاهاً منفرداً محدوداً، كان اتّجاهاً واسعاً على مستوى الأُمّة الإسلاميّة كلِّها؛ لأجل أن يحصّن الأُمّة الإسلاميّة كلَّها، لأجل أن يعرّف الأُمّة الإسلاميّة ما هو الإسلام، وما هي أهداف الإسلام، وكيف يمكن للإنسان أن يعيش حياةً إسلاميّة، وفي إطار مجتمعٍ إسلامي.

العبرة التربويّة التي نأخذها من سيرة الإمام عليٍّ عليه السلام [(٣)]:

المهم من هذا الحديث أن نأخذ العبرة وأن نقتدي حينما نرى أنّ

---

(١) «وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سرّاً بوجوب نصرة زيد بن علي (رضوان الله عليهما) وحمل المال إليه والخروج معه على اللصّ المتغلّب المتسمّى بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه» الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل ١: ١٨٤، وقد نسب أبو حنيفة إلى أنّه زيديُّ المذهب (الرسائل السياسيّة: ٤٥٠)، كما كان أبو حنيفة يجاهر بأمر إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام (تاريخ الإسلام ٩: ٤٣).

(٢) حيث أوكل إليه المنصور عمارة مدينة بغداد بعد أن رفض تولّي القضاء، فراجع: كتاب البلدان: ٢٨٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٧: ٦١٩؛ الإنباء: ٦٤؛ الكامل في التاريخ ٥: ٥٥٩؛ البداية والنهاية ١٠: ٩٧.

(٣) توقّف حديثه في (م) عند المقطع السابق، وما يأتي أثبتناه من (ف) بعد سقوطه من (غ).

عليَّ بن أبي طالب عليه السلام ـ على عظمته ـ يربّي أصحابه على أنّهم أصحاب الهدف، لا أصحاب نفسه.

يجب أن لا أُفكّر أنا، ويجب أن لا تفكّر أنت بأن تربّي أصحابك على أنّهم أصحابك، وإنّما هم أصحاب الرسالة. أيُّ واحد منكم ليس صاحباً للآخر، ولهذا يجب أن نجعل الهدف دائماً مقياساً، نجعل الرسالة دائماً مقياساً.

احكموا عليَّ في اللحظة التي أنحرف فيها عن الهدف؛ لأنّ الهدف هو الأعزّ والأغلى، هو ربُّ الكون الذي يجب أن تشعروا بأنّه يملككم، بأنّه بيده مصيركم، بيده مستقبلكم، بأنّه هو الذي يمكن أن يعطيكم نتائج جهادكم.

هل أنا أُعطيكم نتائج جهادكم؟! أو أيُّ إنسان على وجه الأرض يمكن أن يعطي الإنسان نتائج جهاده، نتائج عمله، نتائج إقدامه على صرف شبابه، حياته، عمره، على زهده، على تحمّله آلام الحياة، تحمّله للجوع، تحمّله للظلم، تحمّله للضيم؟ من الذي يعطي أجر كلّ هذا؟ هل الذي يعطي أجر هذا هو أنا وأنت؟!

لا أنا ولا أنت يعطي أجر هذا، وإنّما الذي يعطي أجر هذا هو الهدف فقط. هذا هو الذي يعطي النتيجة والتقييم، هو الذي سوف يفتح أمامنا أبواب الجنّة، هو الذي سوف يغيّر أعمالنا، هو الذي سوف يصحّح درجاتنا.

إذاً، لا تفكّروا في أنّ أيَّ واحد منكم، في أنّ أيَّ واحد منّا مرتبط مع أيِّ واحد منّا، بل فكّروا هكذا: أنّ أيَّ واحدٍ منّا مرتبطٌ كلُّه مع أكبر من أيَّ واحدٍ منّا، هذا الشيء الذي هو أكبر هو الله سبحانه، هو رضوان الله، هو حماية الإسلام، هو العمل في خطّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

وغفر [الله] لنا ولكم.

❊ ❊ ❊

٢

الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم

- مبرّرات رفض المساومات وأنصاف الحلول (١)
- مبرّرات رفض المساومات وأنصاف الحلول (٢)
- لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه؟ (١)
- لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه؟ (٢)

١

٩

مبرِّرات رفض المساومات وأنصاف الحلول (١)

أُلقيت في ١٨ / رمضان المبارك / ١٣٨٨هـ

الإمام علي عليه السلام أمل الإسلام والأُمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله:

نجتمع الليلة لذكرى أشأم ليلةٍ بعد [اليوم الذي] توفّي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فإنّ اليوم الذي توفّي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله كان هو اليوم الذي خلّف فيه النبيُّ تجربته الإسلاميّة في [مهبّ القدر][1]، وفي رحمة المؤامرات التي رست عليها بعد برهةٍ من الزمن.

واليوم الذي اغتيل فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان هو اليوم الذي قضى على آخر أملٍ في إعادة خطّ تلك التجربة الصحيحة، هذا الأمل الذي كان لا يزال يعيش في نفوس المسلمين الواعين متجسّداً في شخص هذا الرجل العظيم، الذي عاش منذ اللحظة الأُولى هموم الدعوة وآلامها، واكتوى بنارها، وشارك في بنائها لبنةً لبنة، وأقام صرحها مع أُستاذه صلى الله عليه وآله صرحاً صرحاً.

هذا الرجل الذي كان يعبّر عن كلّ هذه المراحل بكلّ همومها ومشاكلها وآلامها.

هذا الرجل كان هو الذي يمثّل هذا الأمل الوحيد الذي بقي للمسلمين الواعين في أن تسترجع التجربةُ خطَّها الواضح الصريح، وأُسلوبها النبويّ المستقيم؛ حيث إنّ الانحراف في داخل وفي أعماق هذه التجربة كان قد طغى وتجبّر واتّسع، بحيث لم يكن هناك ـ ولا يكون هناك ـ أيُّ أملٍ في أن يقهر

(١) المقطع الصوتي هنا غير صالح، وما بين عضادتين أثبتناه من (ف) و(غ).

هذا الانحراف، اللهمّ إلّا على يد رجلٍ واحدٍ كعليّ بن أبي طالب.

ولهذا كانت حادثة اغتيال هذا الإمام العظيم ـ حينما خرّ صريعاً في مثل صبيحة اليوم الآتي ـ تقويضاً حقيقيّاً لآخر أملٍ حقيقيٍّ في قيام مجتمعٍ إسلاميٍّ صحيحٍ على وجه الأرض إلى يومٍ غير معلوم، وإلى أجلٍ غير محدود.

كان هذا الاغتيال المشؤوم عقيب حكمٍ مارسه الإمام عليه السلام طيلة خمس سنواتٍ تقريباً، أو بين الأربع والخمس سنوات[1].

وهذه الأربع أو الخمس سنوات التي مارس عليه السلام فيها الحكم، بدأ منذ اللحظة الأُولى من حين تسلَّمَ زمام الحكم في عمليّة التغيير الحقيقيّة في كيان هذه التجربة المنحرفة، وواصل سعيه في سبيل إنجاح عمليّة التغيير.

واستشهد وخرّ صريعاً في المسجد وهو في قمّة هذه المحاولة، أو في آخر محاولةٍ من محاولات عمليّة التغيير، وتصفية الانحراف الذي كان قد ترسّخ في جسم المجتمع الإسلامي متمثّلاً في معسكرٍ منفصلٍ عن الدولة الإسلامية الأُمّ[2].

ظاهرة رفض المساومات وأنصاف الحلول:

والظاهرة الواضحة في هذه الأربع سنوات التي مارس فيها الإمام عليه السلام تسلُّمَ زمام الحكم هي أنّ الإمام عليه السلام منذ بدأ تسلُّمَ زمام الحكم إلى أن خرَّ صريعاً في سبيل إقامة عدل الله على الأرض كان غير مستعدٍّ ـ بأيّ شكلٍ من الأشكال، وفي أيّ صيغةٍ من الصيغ ـ لتقبّل أنصاف الحلول بالنسبة إلى تصفية

(١) بويع عليه السلام يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجّة سنة ٣٥ هـ، واستشهد في ٢١ من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٤٣٦؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ٨.

(٢) «فلمّا ذاق معاوية أهل الشام وعرف مبايعتهم له قال لجرير: الحق بصاحبك، وأعلمه أنّي وأهل الشام لا نجيبه إلى البيعة» الأخبار الطوال: ١٦٠.

هذا الانحراف، أو لتقبّل أيّ معنىً من معاني المساومة أو المعاملة على حساب هذه الأُمّة، التي كان يرى بكلّ قرحةٍ[1] وألم أنّها تُهدر كرامتها وتباع بأرخص الأثمان.

هذه الظاهرة تسترعي الانتباه سياسيّاً من ناحية، وتسترعي الانتباه فقهيّاً من ناحية أُخرى:

١ ـ دراسة الظاهرة من الناحية السياسيّة:

أمّا من الناحية السياسيّة، فقد استرعت انتباه أشخاص معاصرين للإمام عليه السلام، واسترعت انتباه أشخاصٍ آخرين حاولوا أن يحلّلوا ويدرسوا حياة الإمام عليه السلام؛ فقد لوحظ عليه ـ أي على الإمام عليه السلام ـ أنّ عدم تقبّله بأيّ شكلٍ من الأشكال لهذه المساومات وأنصاف الحلول كان يعقّد عليه الموقف، ويثير أمامه الصعاب، ويرسّخ المشاكل، ويجعله عاجزاً عن مواجهة مهمّته الأساسيّة، والمضيّ بخطّ تجربته إلى حيث يريد.

فمثلاً: ذاك الشخص[2] الذي جاء إليه بعقليّة هذه المساومات اقترح عليه أن يُبقي معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام، قال له: إنّ معاوية بن أبي سفيان بإمكانك إبقاؤه والياً على الشام برهةً من الزمن، وهو في هذه الحالة سوف يخضع ويبايع، وحينئذٍ: بعد هذا يكون بإمكانك استبداله أو تغييره بأيّ شخصٍ آخر بعد أن تكون قد استقطبتَ كلّ أطراف الدولة، وقد تمّت لك البيعة والطاعة في كلّ أرجاء العالم الإسلامي.

فاشترِ ذلك بإبقاء هذا الوالي أو ذلك الوالي، هذا الحاكم أو ذلك الحاكم، بإقرار هذه الثروات المحرّمة في جيب هذا السارق أو في جيب ذلك السارق

---

(١) هذا ما يبدو من المحاضرة الصوتيّة، ولعلّه رحمه الله أراد: «حرقة».

(٢) حدّثه بذلك عدّة أشخاص، منهم: المغيرة بن شعبة وعبدالله بن العبّاس وجرير بن عبدالله البجلي كما يأتي قريباً.

برهةً من الزمن، ثمّ بعد هذا يمكنك أن تصفّي كلّ هذه الولايات الفاجرة، وكلّ هذه الثروات المحرّمة، كلّها تنكرها بعد هذا.

الإمام عليه السلام في جواب هذا الشخص رفض هذه الألوان من المساومة والمعاملة، واستمرّ في خطّه السياسي يرفض كلّ مساومة ومعاملة من هذا القبيل[1].

ومن هنا قيل ـ قال معاصروه، وقال غير معاصريه[2] ـ : إنّه كان بإمكانه أن يسجّل نجاحاً أكبر وأن يحقّق توفيقاً من الناحية السياسيّة أكثر لو أنّه قَبِل أنصاف الحلول، ولو أنّه مارس هذا النوع من المساومات ولو بشكلٍ مؤقّت.

هذه هي الناحية السياسيّة في الموضوع.

٢ ـ دراسة الظاهرة من الناحية الفقهيّة :

أمّا من الناحية الفقهيّة في الموضوع، فهي ناحية التزاحم.

الفقه يقول بأنّه إذا توقّف واجب أهمّ على مقدّمةٍ محرّمةٍ. فلا بدّ من الحفاظ على ذلك الواجب الأهمّ، ولا يجوز تبرير ترك الواجب الأهمّ في سبيل

(١) قال المغيرة بن شعبة لعليّ عليه السلام: «أرى أن تقرّ معاوية على الشام وتثبت ولايته» أنساب الأشراف ٢: ٢٠٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٠؛ الفتوح ٢: ٥١٥؛ بحار الأنوار ٣٢: ٣٤، الحديث ٢٢. وقد كتب الإمام علي عليه السلام إلى معاوية: «وإنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليّ أن أستعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة، فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتّخذ المضلّين عضداً» وقعة صفّين: ٥٢. كما كان ابن عبّاس «ممّن أشار على عليّ أن يستتيب معاوية على الشام وأن لا يعزله عنها في بادئ الأمر، حتّى قال له في ما قال: إن أحببت عزله فولّه شهراً واعزله دهراً»، ولكنّه عليه السلام أبى «إلّا أن يقاتله» البداية والنهاية ٨: ٢٩٩، وكان عليه السلام قد قال لابن عبّاس حول تولية طلحة والزبير: «ولو كنت مستعملاً أحداً لضرّه ونفعه لاستعملت معاوية على الشام» الإمامة والسياسة ١: ٧١. كما تبرّع جرير بن عبدالله البجلي أن يكلّم معاوية ويدعوه «على أن يسلّم لك هذا الأمر ويجامعك على الحق، على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمّالك ما عمل بطاعة الله واتّبع ما في كتاب الله» وقعة صفّين: ٢٧؛ الفتوح ٢: ٥٠٦.

(٢) ممّن تعرّض لهذه الإشكاليّة ودفعها الدكتور عبد الفتّاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب ٤: ٢٣ وما بعد.

حرمة المقدّمة[١].

كلّكم تعرفون المثال التقليدي الذي يقال عادةً في هذا المقام، في هذه المسألة، حينما يقال: إذا توقّف إنقاذ نفسٍ محترمةٍ من الغرق على اجتياز أرضٍ مغصوبةٍ لا يرضى صاحبها باجتيازها فلا بدّ من اجتيازها[٢].

تسقط هنا حرمة هذا المالك ورضا هذا المالك ويُجتاز؛ لأنّ النتيجة أهمّ من هذه المقدّمة، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض غزواته[٣] [في] مثالٍ مشابهٍ لهذا المثال:

كان الجيش الإسلامي مضطرّاً إلى الخروج من المدينة عن طريقٍ معيّن، وهذا الطريق كان فيه مزرعة لأحد الصحابة[٤]، وكان هذا الجيش حينما يمرّ على هذه المزرعة ـ بطبيعة مروره كجيش على هذه المزرعة ـ يتلف كثيراً من محاصيل هذه المزرعة، ويؤدّي [إلى] أضرار بالنسبة إليها.

صاحب المزرعة ما هان عليه أن يقدّم هذه الأضرار في سبيل الله، في سبيل الرسالة. احتجّ على ذلك وصرخ، ثمّ جاء إلى رسول الله فقال: مزرعتي ومالي! فلم يجبه رسول الله بحرف واحد، وأصدر أوامره إلى الجيش، ومشى في هذه المزرعة حتّى لم يبقَ في هذه المزرعة شيءٌ ممّا كان يَخافُ تلفَه صاحبُ المزرعة إلّا وتلف[٥].

---

(١) راجع حول هذه المقولة: دروس في علم الأُصول، الحلقة الثالثة: ٢٣١، شرطيّة القدرة بالمعنى الأعمّ.

(٢) انظر: أجود التقريرات ٢: ١٠٦؛ نهاية الأفكار ٢: ٣٣٤؛ دراسات في علم الأُصول ١: ٣٣١.

(٣) وكان ذلك حين خروجه صلى الله عليه وآله إلى أُحُد.

(٤) هو: مربع بن قيظي، «عُدَّ في المنافقين، ويقال: تاب» الإصابة في تمييز الصحابة ٦: ٥٣.

(٥) «قال لرسول الله [صلى الله عليه وآله] حين أجاز في حائطه ورسول الله [صلى الله عليه وآله] عامدٌ إلى أُحد: لا أُحلّ لك يا محمّد إن كنت نبيّاً أن تمرّ في حائطي، وأخذ في يده حفنة من تراب ثمّ قال: والله لو أعلم أنّي لا أُصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله [صلى الله عليه وآله]: دعوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصيرة» السيرة النبويّة (ابن هشام) ١: ٥٢٣؛ المغازي ١: ٢١٨؛ أنساب الأشراف ١: ٢٧٦؛ الكامل في التاريخ ٢: ١٥١.

كلّ ذلك لأنّ النتيجة كانت أهمّ من المقدّمة؛ كان هذا الجيش يسير لأجل أن يغيّرَ وجه الدنيا، ولأجل تغيير وجه الدنيا إذا تلفت مزرعة، إذا ضاعت هناك ثروةٌ صغيرة لشخص في سبيل أن يحفظ مقياس توزيع الثروات في العالَم على الخطّ الطويل الطويل، فهذا أمرٌ صحيحٌ ومعقول.

فمن ناحية فقهيّة دائماً يقرَّرُ أنّ الواجب إذا توقّف على مقدّمة محرّمة وكان ملاك الوجوب أقوى من ملاك الحرمة، فلا بدّ وأن يقدّم الواجب على الحرام.

وعلى هذا الضوء، حينئذٍ تثار هذه النقطة في هذه الظاهرة التي استوضحناها في حياة أمير المؤمنين كحاكم، وهي: أنّه لماذا لم يطبّق هذه القاعدة في سبيل استباحة كثير من المقدّمات المحرّمة؟

أليس إجماع الرأي عليه، أليس تملّكه زمامَ قيادة المجتمع الإسلامي أمراً واجباً محقِّقاً لمكسبٍ إسلاميٍّ كبير؟ لأنّه هو الذي سوف يفتح أبواب الخيرات والبركات ويقيم حكومة الله على الأرض.

إذاً، فلماذا في سبيل تحقيق هذا الهدف، إذا توقّف هذا الهدف على مقدّمةٍ محرّمة ـ من قبيل إمضاء ولاية معاوية بن أبي سفيان برهةً من الزمن، أو إمضاء الأموال المحرّمة التي نهبها آل اُميّة أو غيرهم من الاُسر التي وزّع عليها عثمان بن عفّان أموال المسلمين؟[1] ـ لماذا لا يكون السكوت المؤقّت عن هذا النهب والسلب مقدّمةً للواجب الأهمّ؟ ولماذا لا يكون جائزاً حينئذٍ على أساس توقّف الواجب الأهمّ على ذلك؟

---

(١) قيل لعثمان: «هلاّ فعلت مثل ما فعل عمر؛ لم يؤثر من قرابته أحداً على غيرهم، ولم يولّهم! فقال: كان عمر يقطع قرابته في الله، وأنا أصلهم في الله» الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة ١: ٢٦٩، و«كان عثمان إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال» تاريخ اليعقوبي ٢: ١٦٨.

مبرّرات رفض الإمام علي عليه السلام سياسة المساومات وأنصاف الحلول:

الواقع ـ أيّها الإخوان ـ هو أنّ الإمام عليه السلام كان لا بدّ له أن ينهج هذا الطريق، ولم يكن بإمكانه ـ كقائدٍ رساليٍّ يمثّل الإسلام وأهدافه ـ أن يقبل هذه المساومات وأنصاف الحلول ولو كمقدّمة، وليس قانون باب التزاحم الفقهي هنا صالحاً للانطباق على موقف أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك بعد أخذ النقاط الآتية بعين الاعتبار:

النقطة الأُولى: إعداد بيئة رساليّة لإنشاء الجيش العقائدي:

أوّلاً: لا بدّ وأن يلحظ في المقام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يريد أن يرسّخ قاعدة سلطانه في قطر جديد من أقطار العالم الإسلامي، وهذا القطر هو العراق، وكان شعب العراق وأبناء العراق مرتبطين روحيّاً وعاطفيّاً بالإمام عليه السلام، ولكن لم يكن شعب العراق ولا أبناء العراق يعون رسالة عليٍّ عليه السلام وعياً حقيقيّاً كاملاً.

ولهذا كان الإمام عليٌّ بحاجة إلى أن يبني تلك الطليعة العقائديّة، ذلك الجيش العقائدي الذي يكون أميناً على الرسالة، وأميناً على الأهداف، وساعداً له، ومنطَلَقاً له بالنسبة إلى ترسيخ هذه الأهداف في كلّ أرجاء العالم الإسلامي.

كان الإمام عليٌّ بحاجةٍ إلى أن يبني هذه القاعدة، لم يكن يملك هذه القاعدة، كان بحاجة إلى أن يبنيها. إذاً، كيف يبني هذه القاعدة؟ هل يمكن أن يبني هذه القاعدة في جوٍّ من المساومات وأنصاف الحلول، حتّى لو كانت المساومات وأنصاف الحلول جائزةً شرعاً؟!

افرضوا أنّ هذه المساومات و[أنصاف] الحلول كانت جائزة شرعاً، إلّا أنّ جوازها الشرعي لا يؤثّر في هذه الحقيقة النفسيّة الواقعيّة شيئاً، وهي: أنّ شخصاً لا يمكن أن يعيش في جوٍّ من المساومات وأنصاف الحلول فيكتسب

روحيّة أبي ذر، أو يكتسب روحيّة عمّار بن ياسر.

إنّ روحيّة أبي ذر أو روحيّة عمّار بن ياسر روحيّة الجيش العقائدي الواعي، البصير بأنّ المعركة ليست للذات، وإنّما هي للأهداف الكبيرة، التي هي أكبر من الذات.

هذه الروحيّة لا يمكن أن تنمو، ولا يمكن لعليّ عليه السلام أن يخلقها في من حوله، في حاشيته، في أنصاره، في قواعده الشعبيّة، لا يُمكن أن يخلقها في جوٍّ من المساومات وأنصاف الحلول حتّى لو كانت جائزة. إنّ جوازها لا يغيّر من مدلولها التربوي شيئاً، ولا من دورها في تكوين نفسيّة هذا الشخص بأيّ شكلٍ من الأشكال.

إذاً، فالإمام علي عليه السلام كان أمامه حاجةٌ ملحّةٌ حقيقيّةٌ ـ في بناء دولته ـ إلى قاعدةٍ شعبيةٍ واعيةٍ يعتمد عليها في ترسيخ الأهداف في النطاق الأوسع. وهذه القاعدة الشعبيّة لم تكن جاهزة له حينما تسلّم زمام الحكم حتّى يستطيع أن يتّفق معها على أنّ هذه المساومات وعلى أنّ أنصاف الحلول هنا ضروراتٌ استثنائيّة لا توجب الانحراف عن ذلك الخطّ. إنّما كان على عليٍّ أن يبني هذا الجيش العقائدي، كان على عليٍّ أن ينتزع الخيِّرَ الخيِّر، الطيّبَ الطيّب من جماعته وحاشيته العراقيّين؛ لكي يُكتّل منهم كتلةً واعيةً من قبيل مالك الأشتر وغيره.

وهؤلاء لم يكن بالإمكان ممارسة بناءٍ نفسيٍّ وروحيٍّ وفكريٍّ وعاطفيٍّ حقيقيٍّ لهم في جوٍّ مليءٍ بالمساومات وأنصاف الحلول. كانت المساومات وأنصاف الحلول نكسةً بالنسبة إلى عمليّة التربية لهذا الجيش العقائدي، وكان فقدان هذا الجيش العقائدي معناه فقدان القوّة الحقيقيّة التي يعتمد عليها الإمام

عليٌّ في بناء دولته؛ لأنّ أيّ دولة عقائديّة ـ كما قلنا في ما سبق[١] ـ هي بحاجة إلى طليعة عقائديّة تستشعر بشكلٍ واعٍ ومعمَّق ومرسَّخ أهدافَ تلك الدولة، وواقع أهميّتها، وضرورتها التاريخيّة.

ولهذا كان لا بدّ من الحفاظ على صفاء وطُهر عمليّة التربية لبناء هذا الجيش العقائدي، كان لا بدّ لآلافٍ من [أمثال] مالك الأشتر أن يشهدوا إنساناً لا تزعزعه المغريات، ولا يتنازل إلى أيّ نوعٍ من أنواع المساومات؛ حتّى يستطيعوا ـ من خلال حياة هذا الرجل العظيم ـ أن يتبيّنوا المدلول الرسالي الكامل لأُطروحته، [وللأبعاد الواسعة][٢] للصيغة الإسلاميّة للحياة.

إذاً، فكان على عليٍّ عليه السلام ـ لأجل ممارسة عمليّة التربية في بناء هذا الجيش العقائدي ـ أن يترفّع عن هذه المساومات والحلول الوسط؛ لكي يستطيع أن يخلق ذلك الجوّ الرفيع نفسيّاً وفكريّاً وروحيّاً، الذي سوف ينشأ في داخله وفي أعماقه جيلٌ يستطيع أن يحتضن أهداف أمير المؤمنين ويضحّي في سبيلها، ويواكب هذه الأهداف في حياته وبعد وفاته.

النقطة الثانية: استلام أمير المؤمنين عليه السلام الحكم حال ارتفاع عواطف الأُمّة:

وثانياً: لا بدّ من الالتفات أيضاً إلى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام جاء في أعقاب ثورةٍ، لم يجئ في حالة اعتياديّة، وإنّما جاء في أعقاب ثورة. ومعنى أنّه جاء في أعقاب ثورةٍ: أنّ البقيّة الباقية من العواطف الإسلاميّة قد تفجّرت في لحظة ارتفاع.

هذه العواطف ـ كلّ هذه العواطف ـ تجمّعت، ثمّ ضُغِطَت، ثمّ انفجرت في لحظة ارتفاع. وماذا ينتظر القائد الرسالي غير لحظة ارتفاع في حياة أُمّة

(١) في مطلع الحديث عن النقطة الأُولى.

(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وفي (ف): «لأُطروحة الأبعاد الواسعة»، وفي (غ): «ولأبعادها الواسعة»، ولعلّ الأنسب ما أثبتناه.

لكي يستطيع أن يستثمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الاُمّة إلى سيرها الطبيعي؟!

كان لا بدّ للإمام عليه السلام أن يستثمر لحظة الارتفاع الثوريّة هذه؛ لأنّ المزاج النفسي والروحي وقتئذٍ لشعوب العالم الإسلامي لم يكن ذاك المزاج الاعتيادي الهادئ الساكن لكي يَلِيَ فيه حسب مخطَّط تدريجي، وإنّما كان هو المزاج الثوري المرتفع الذي استطاع أن يرتفع إلى مستوى قتل الحاكم والإطاحة به؛ لأنّه انحرف عن كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله[١].

إذاً، هذا الارتفاع الذي وجد في لحظةٍ في حياة الاُمّة الإسلاميّة، هذا الارتفاع لم يكن من الهيّن إعادته بعد ذلك. كان لا بدّ للإمام ـ للحاكم الذي يتسلّم زمام المسؤوليّة في مثل هذه اللحظة ـ أن يعمّق هذه اللحظة، أن يمدّد هذه اللحظة، أن يرسّخ المضمون العاطفي والنفسي لهذه اللحظة عن طريق هذه الإجراءات الثوريّة التي قام بها أمير المؤمنين عليه السلام.

لو أنّ الإمام عليه السلام أبقى الباطل مؤقّتاً، أمضى التصرّفات الكيفيّة[٢] التي قام بها الحكّام من قَبْلِه، لو أنّه سكت عن معاوية، وسكت عن أحزاب اُخرى مشابهة لمعاوية بن أبي سفيان إذاً لهدأت العاصفة، ولانكمش هذا التيّار العاطفي النفسي. وبعد انكماش هذا التيّار العاطفي من الذي يضمن للإمام أن يرجع هذا التيّار مرّة اُخرى لكي يستطيع في ضمنه أن يقوم بمثل هذه الإجراءات؟!

فكان أفضل ظرفٍ لهذه الإجراءات هو الظرف الثوري الذي كانت تعيشه الاُمّة الإسلاميّة، ولم يكن بالإمكان تأجيل هذه الإجراءات إلى ظرفٍ آخر تنطفئ فيه هذه الشعلة، وتذوب هذه العواطف، وتتميّع هذه المشاعر.

هذا ثانياً.

---

(١) يقصد قدس سره مقتل عثمان بن عفّان.

(٢) يقصد قدس سره: المزاجيّة.

النقطة الثالثة: حرص الإمام عليه السلام على إدراك الأُمّة رساليّة المعركة:

وأمّا ثالثاً: فلا بدّ أيضاً من الالتفات إلى نقطة كنّا قد بحثناها(١)، وهي أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً على أن تدرك الأمّة كأُمّة ـ يعني: الأمّة ككلٍّ ـ أنّ واقع المعركة بينه وبين خصومه، بينه وبين شام معاوية ليست معركةً ما بين شخصين، بين قائدين، بين قبيلتين، وإنّما هي معركة بين الإسلام والجاهليّة. كان حريصاً على أن يفهم الناس أنّ واقع المعركة هو واقع المعركة بين رسول الله صلى الله عليه وآله والجاهليّة التي حاربته في بدرٍ وأُحُد وغيرهما من الغزوات.

وكان هذا الحرص سوف يُمنى بنكسةٍ كبيرةٍ لو أنّه عليه السلام أقرّ معاوية، وأقرّ مخلّفات عثمان السياسيّة والماليّة. لو أنّه أقرَّ هذه المخلَّفات ـ ولو إلى برهة من الزمن ـ إذاً لترسّخ في ذهن الناس ـ وفي ذهن المسلمين بشكل عام ـ أنّ القصّة ليست قصّةَ معركةٍ رساليّة، وإنّما قصّة أهداف حكم: إذا انسجمت هذه الأهداف مع واقع هذه المخلّفات، إذاً ستُمضى هذه المخلّفات.

ذلك الشكّ الذي درسناه في ما مضى(٢)، ووجدنا أنّه نما عند الأُمّة في أمير المؤمنين عليه السلام بالرغم من أنّه لم يكن يوجد له أيُّ مبرّرٍ موضوعي، وإنّما كانت له مبرّراته الذاتيّة التي قرأناها في ما سبق.. بالرغم من أنّه لم يكن يوجد أيّ مبرّرٍ موضوعيٍّ للشكّ، وبالرغم من أنّ المبرّر الوحيد للشكّ كان مبرّراً ذاتيّاً كما عرفنا في ما سبق، بالرغم من هذا: استفحل هذا الشكّ، وطغى هذا الشكّ،

(١) في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: مبرِّرات تأخير أمير المؤمنين عليه السلام الصراعَ السياسي مع الحكم، وفي المحاضرة الثامنة، تحت عنوان: الخطّ الأوّل: محاولة أمير المؤمنين عليه السلام تصحيح الانحراف، الإمام علي عليه السلام بين ترسيخ الوجه الواقعي وتفادي استغلال الوجه الظاهري.

(٢) في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين عليٍّ عليه السلام ومعاوية، وفي المحاضرة الثانية عشرة، تحت عنوان: سريان الشكّ وتعميقه في مجتمع الإمام علي عليه السلام. وقد أشرنا في مقدّمة التحقيق إلى تأخيرنا هاتين المحاضرتين المتقدّمتين زماناً لدواع منطقيّة. وراجع كذلك: المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: انسحاب خطّ الإمام علي عليه السلام مؤقّتاً عن الميدان.

وامتُحن هذا الإمام العظيم بهذا الشكّ، ومات واستشهد والأُمّة شاكّة.

ثمّ استسلمت الأُمّة بعد هذا، وتحوّلت إلى كتلةٍ هامدةٍ بين يَدَي الإمام الحسن ﷺ(١).

هذا كلّه بالرغم من أنّ الشكَّ لم يكن له أيُّ مبرِّر موضوعي، فكيف إذا افترضنا أنّ الشكّ وُجدت له مبرّرات موضوعيّة بحسب الصورة الشكليّة للموقف؟!

كيف لو أنّ المسلمين رأوا أنّ عليَّ بن أبي طالب ﷺ ـ الذي هو رمز الأُطروحة ورمز أهداف معيَّنة ـ يأتي ليساوم، وليعامل، وليبيع الأُمّة ـ ولو مؤقّتاً ـ مع خيار الفسخ؟! كيف للأُمّة أن تدرك الفرق بين بيع بلا خيار الفسخ وبين بيع يكون فيه خيار الفسخ؟!

إنّ البيع على أيّ حال طبيعته [هي] البيع، وأمير المؤمنين ﷺ كانت مهمّته الكبرى هي أن يحافظ على وجود الأُمّة، على أن لا تتنازل الأُمّة عن وجودها، الأُمّة التي قالت لعمر بن الخطّاب، لأكبر خليفةٍ تولّى الحكم المنحرف بعد رسول الله ﷺ، قالت لهذا الخليفة: «إذا انحرفتَ عمّا نعرف من أحكام كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ نقوّمك بسيوفنا»(٢).

هذه الأُمّة التي قالت هذه الكلمة بكلّ شجاعة لأكبر خليفةٍ منحرف بعد رسول الله ﷺ، هذه الأُمّة كانت قد بدأت تتنازل عن وجودها، أو بتعبيرٍ آخر: كانت هناك مؤامرات عليها لكي تتنازل عن وجودها، وكان على

---

(١) وهو ما سيبحثه ﷺ بشكل مفصّل في المحاضرتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة.

(٢) تقدّم التعليق على هذه الحادثة في المحاضرة الثالثة، تحت عنوان: انعكاسات دور الأئمّة ﷺ الإيجابي في الحفاظ على الرسالة، ردع الحاكم عن مزيد من الانحراف، وفي المحاضرة الثامنة، تحت عنوان: الخطّ الثاني: خطّ تحصين الأُمّة، معالجة العامل الكمّي، معارضة الحكّام ومنعهم عن المزيد من الانحراف. وراجع: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣: ١٥٠؛ المناقب (الخوارزمي): ٩٨، الحديث ١٠٠؛ بحار الأنوار ٤٠: ١٨٠ ـ ١٨١.

عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يحافظ على هذه الأُمّة، ويحصّنها ضدّ أن تتنازل عن وجودها.

عمليّة التنازل عن الوجود كان يمثّلها معاوية بن أبي سفيان وجذور معاوية بن أبي سفيان في تاريخ الإسلام، هذا الذي عبّر عنه وقتئذٍ بأنّ الإسلام أصبح هرقليّة وكسرويّة[١]. الهرقليّة والكسرويّة كان يُكنّى [بهما] عن تنازل الأُمّة عن وجودها. يعني: تحوّلت التجربة الإسلاميّة من أُمّةٍ تحمل رسالة إلى مَلِكٍ وسلطان يحمل هذه الرسالة بمستوى وعيه لهذه الرسالة، أو إخلاصه لهذه الرسالة، سلباً وإيجاباً.

هذه المؤامرة الكبيرة التي نجحت بعد هذا، والتي تُوّجت بكلّ المآسي والمحن والكوارث التي كانت ولا تزال إلى يومنا هذا، كلّ هذه المحن والكوارث هي نتيجةُ تنازل الأُمّة عن وجودها، نتيجةُ خداع الأُمّة وتضليلها أو الضغط عليها، حتّى تنازلت عن وجودها في عقدٍ لا يقبل الفسخ.

أمير المؤمنين عليه السلام أدرك الأُمّة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقلّ، كان يريد أن يمدّد هذا الوجود المستقلّ، أن يُشعر الأُمّة بأنّها ليست سلعةً تباع وتشترى، أنّها ليست شيئاً يساوَم عليه.

إذاً، كيف يُشعرها بأنّها ليست سلعةً تباع وتشترى إذا كان هو يبيعها ويشتريها ولو في عقود قابلة للفسخ؟!

كيف يستطيع أن يشعر الأُمّة بأنّها هي لا تُباع ولا تُشترى، ليست وفق رغبات السلاطين، ليست وفق أهواء الحكّام، وإنّما هذه الأُمّة تمثّل خلافة الله في الأرض، لأجل أن تحقّق أهداف هذه الخلافة في الأرض؟!

---

(١) قالها ــ مع تفاوتٍ ــ عبدالله بن عمر في حياة معاوية (الإمامة والسياسة ١: ١٩٦)، وقالها عبد الرحمن بن أبي بكر لمروان عند إرادة أخذ البيعة ليزيد (المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٥: ٢٩٩؛ البداية والنهاية ٨: ٨٩).

كيف يمكن أن يُفهِمَ الأُمّةَ ذلك إذا كان هو يبيع قطّاعاتٍ من هذه الأُمّة لحكّامٍ فجرةٍ من قبيل معاوية بن أبي سفيان في سبيل أن يسترجع هذه القطّاعات بعد ذلك ؟!

بطبيعة الحال، كان هذا معناه مواكبة المؤامرة التي كانت كلُّ روح العصر تتفجر أو تتمخّض عن مثل هذه المؤامرة. هذه المؤامرة التي كانت تتمخّض عنها كلُّ روح العصر، والتي كان أمير المؤمنين عليه السلام واقفاً لأجل أن يحبطها وينقذ الأُمّة منها، لا يُمكن ـ بحال من الأحوال ـ أن نفترض أنّ الإمام عليه السلام يساهم فيها[١].

النقطة الرابعة: الإمام علي عليه السلام يقدّم الأُطروحة السليمة على طول الخطّ:

وأخيراً ورابعاً: إنّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام لم يكن يتعامل مع الفترة الزمنيّة القصيرة التي عاشها فقط، وإنّما كان يحمل هدفاً أكبر من ذلك.

أمير المؤمنين عليه السلام كان يحسّ بأنّه قد أدرك المريض وهو في أواخر مرضه، قد أدركه حيث قد لا ينفع العلاج، ولكنّه كان يفكّر في أبعاد أطول وأوسع للمعركة، لم يكن يفكّر فقط في الفترة الزمنيّة التي عاشها، وإنّما كان يفكّر على مستوى آخر أوسع وأعمق، وهو المستوى الذي أشرنا إليه في بعض الأيّام السابقة[٢]؛ حيث قلنا بأنّ الإسلام كان بحاجة إلى أن تُقدَّم له في خضمّ الانحراف أُطروحةٌ واضحةٌ صريحةٌ نقيّةٌ لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تعقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق ولا تدجيل.

هذه الأُطروحة كان الإسلام بحاجة إلى أن تُقدَّم إلى الأُمّة، لماذا؟

لأنّ الأُمّة كُتِب عليها أن تعيش الحكم الإسلامي المنحرف منذ نجحت

---

(١) قمنا بتصحيح الضمائر الواردة في هذه المقطع.

(٢) في المحاضرة السابعة، تحت عنوان: تخطيط الأئمّة عليهم السلام لمواجهة الانحراف، وفي المحاضرة الثامنة، تحت عنوان: الخطّ الثاني: خطُّ تحصين الأُمّة، معالجة العامل الكيفي.

السقيفة. وحيث إنّها كُتِب عليها إلى أمدٍ طويلٍ أن تعيش الحكم الإسلامي المنحرف منذ نجحت السقيفة في أهدافها، إذاً فالإسلام الذي تعطيه السقيفة في امتدادها التاريخي إسلامٌ مشوّه ممسوخ، إسلامٌ لا يحفظ الصلة العاطفيّة ـ فضلاً عن الفكريّة ـ بين الأُمّة ككلٍّ وبين الرسالة، بين أشرف رسالات السماء وهذه الأُمّة التي هي أشرف أُمم الأرض.

لا يُمكن أن تُحفظ هذه الصلة العاطفيّة والروحيّة بين الأُمّة الإسلاميّة وبين الإسلام على أساس هذا الإسلام المُعطى لهارون الرشيد ولمعاوية بن أبي سفيان ولعبد الملك بن مروان[١]، هذا الإسلام لا يُمكن أن يحفظ هذه الصلة، فكان لا بدّ لحفظ هذه الصلة بين جماهير الأُمّة الإسلاميّة وبين هذه الرسالة من إعطاء صورةٍ واضحةٍ محدّدةٍ للإسلام، وهذه الصورة أُعطيت نظريّاً على مستوى ثقافة أهل البيت، وأُعطيت عمليّاً على مستوى تجربة الإمام عليٍّ عليه السلام.

فكان [الإمام علي] عليه السلام[٢] في تأكيده على العناوين الأوّلية في التشريع الإسلامي، وفي تأكيده على الخطوط الرئيسيّة في الصيغة الإسلاميّة للحياة، كان في هذا يريد أن يقدّم المنهاج الإسلامي واضحاً، [غير ملوّثٍ][٣] بلَوْثَة الانحراف التي كُتبت على تاريخ الإسلام مدّةً طويلةً.

وكان لا بدّ لكي يتحقّق هذا الهدف من أن يُعطي هذه التجربة بهذا النوع من الصفاء والنقاء والوضوح، دون أن يُعمل ما أسميناه بـ «قوانين باب

(١) مراده ﷺ: من قِبَلهم.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «فكان ... عليه الصلاة والسلام»، حيث المقطع الصوتي بمقدار النقاط غير صالح. وفي (ف): «الإمام»، وفي (غ): «الإمام علي».

(٣) المقطع الصوتي هنا غير واضح، وما بين عضادتين أثبتناه من (ف) و(غ)، وإن كان الوارد في المحاضرة الصوتيّة ليس كذلك حتماً، ولكنّه ـ على كلّ حال ـ مناسبٌ للسياق.

التزاحم».

وهكذا كان. وظلّ هذا الإمام العظيم عليه السلام صامداً مواجهاً لكلّ المؤامرات على الأُمّة، هذه المؤامرات التي كانت الأُمّة نفسها أيضاً تساهم في صنعها [وفي حياكتها على أساس جهلها وعدم وعيها، وعدم شعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه هذا الإمام في سبيل][١] حماية وجودها من الضياع، وحماية كرامتها من أن تتحوّل إلى سلعة تباع وتُشترى، حتّى خرّ صريعاً على يد شخصٍ من هذه الأُمّة التي ضحّى في سبيلها، خرّ صريعاً في المسجد، فقال ـ كما سمعنا من هذا الشيخ[٢] ـ : «فزت وربّ الكعبة»[٣].

هل كان عليّ عليه السلام أسعد إنسانٍ في آخر لحظةٍ من حياته؟

تعالوا نحسب حسابَ عليٍّ وهو في آخر لحظةٍ من لحظات حياته عليه السلام حينما قال: «فزت وربّ الكعبة»، هل كان عليٌّ أسعد إنسان، أو كان عليٌّ أتعس إنسان؟![٤]

هنا مقياسان: تارةً نقيس عليّاً بمقاييس الدنيا، وأُخرى نقيس عليّاً بمقاييس الله:

لو كان عليٌّ قد عمل كلّ ما عمله للدنيا، لنفسه، إذاً [فهو[٥] أتعس إنسان][٦]، ومَن أتعس من عليٍّ الذي بنى كلّ ما بنى، وأقام كلّ ما أقام من صروح، ثمّ حُرم من كلّ هذا البناء ومن كلّ هذه الصروح!

(١) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (ف) و(غ).
(٢) يقصد قدس سره شيخاً قرأ مصيبة أمير المؤمنين عليه السلام قبل إلقائه قدس سره المحاضرة.
(٣) الإمامة والسياسة ١: ١٨٠؛ أنساب الأشراف ٢: ٤٨٨؛ شرح نهج البلاغة ٩: ٢٠٧.
(٤) كرّر قدس سره هذا الكلام في آخر محاضرة وصلتنا منه، فراجع: المدرسة القرآنيّة: ٢٠١؛ ومضات: ٤١.
(٥) في (غ) إضافة: «عندما ضُرب كان».
(٦) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (ف) و(غ).

هذا الإسلام الشامخ العظيم الذي كان يأكل الدنيا شرقاً وغرباً، هذا الإسلام بُني بدم عليّ، بُني بخفقات قلب عليّ، بُني بآلام عليّ، بُني بنار عليٍّ عليه السلام، كان عليٌّ هو شريكَ النبيّ في كلّ محن هذا البناء، في كلّ كوارث هذا البناء، في كلّ مآسي هذا البناء.

أيّ لحظةٍ محرجةٍ وجدت في تاريخ هذا البناء لم يكن عليٌّ عليه السلام هو الإنسان الوحيد الذي يتّجه إليه نظر النبي ونظر المسلمين جميعاً لأجل إنقاذ عمليّة البناء؟!

إذاً فعليٌّ كان هو المضحّي دائماً في سبيل هذا البناء، هو الشخص الذي أعطى ولم يبخل، الذي ضحّى ولم يتردّد، الذي كان يضع دمه على كفّه في كلّ غزوة، في كلّ معركة، في كلّ تصعيدٍ جديدٍ لهذا العمل الإسلامي الراسخ العظيم.

إذاً، فقد أُشيدت كلّ هذه المنابر بيد علي عليه السلام، إذاً قد اتّسعت أرجاء هذه المملكة بسيف علي عليه السلام، جهاد عليٍّ كان هو القاعدة لقيام هذه الدولة واسعةِ الأطراف، لكن ماذا حصّل عليٌّ من كلّ هذا البناء بمقاييس الدنيا؟!

إذا حسبنا [بحسب] مقاييس الدنيا، [إذا حسبنا] حساب الدنيا: لو كان عليٌّ يعمل لنفسه، فماذا حصّل عليٌّ من كلّ هذه التضحيات؟ من كلّ هذه البطولات؟ ماذا حصّل غير الحرمان الطويل الطويل؟ غير الإقصاء عن حقّه الطبيعي؟!

بقطع النظر عن أيّ نصٍّ أو تعيينٍ من الله، كان حقّه الطبيعي أن يحكم بعد أن يموت النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنّه الشخص الثاني عطاءً للدعوة وتضحيةً في سبيلها. إذاً، كان من حقّه الطبيعي أن يحكم بعد النبي صلى الله عليه وآله، أُقصي [عن] حقّه الطبيعي، قاسى ألوان الحرمان، أُنكرت عليه كلّ امتيازاته.

معاوية بن أبي سفيان هو الذي يقول لمحمّد بن أبي بكر: «كان عليٌّ كالنجم في السماء في أيّام رسول الله، ولكنّ أباك والفاروق ابتزّا حقّه وأخذا أمره، وبعد هذا نحن شعرنا أنّ بإمكاننا أن ندخل في ميدان المساومة مع هذا الرجل»[١].

عليٌّ أيضاً يقول عن نفسه، يحدّث عن مقامه في أيّام النبي، وكيف أنّه أخذ هذا المقام يتنازل بالتدريج نتيجةً لمؤامرات الحاكمين عليه حتّى قيل: عليٌّ ومعاوية[٢].

إذاً، فعليٌّ عليه السلام حينما تحمّل، حينما واجهه عبد الرحمن بن ملجم بتلك الضربة القاتلة على رأسه الشريف، كان ماضيه كلّه ماضي حرمانٍ وألمٍ وخسارة، لم يكن قد حصل على شيء من هذا البناء العظيم العريض، لم يكن قد حصل على شيء منه.

لكنّ [الأشخاص الذين حصلوا على شيءٍ عظيم من هذا البناء هم أُولئك

(١) «وقد كنّا وأبوك معنا في حياة من نبيّنا صلى الله عليه وآله نرى حقّ ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرزاً علينا، فلمّا اختار الله لنبيّه[صلى الله عليه وآله] ما عنده وأتمّ له ما وعده وأظهر دعوته وأفلج حجّته قبضه الله إليه، فكان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه وخالفه على ذلك... ثمّ قام بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان يهتدي بهداهما ويسير بسيرتهما.. فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوّله، وإن يك جوراً فأبوك أسّسه ونحن شركاؤه، وبهداه أخذنا، وبفعله اقتدينا. ولولا ما سبقنا إليه أبوك ما خالفنا ابنَ أبي طالب وأسلمنا له، ولكنّا رأينا أباك فعل ذلك فاحتذينا بمثاله واقتدينا بفعاله، فعب أباك ما بدا لك، أو دع، والسلام على من أناب ورجع عن غوايته وتاب» وقعة صفّين: ١٢٠ ـ ١٢١؛ مروج الذهب ٣: ١٢؛ شرح نهج البلاغة ٣: ١٩٠.

(٢) «وهلمّ الخطب في ابن أبي سفيان؛ فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه. ولا غرو والله! فيا له خطباً يستفرغُ العجب ويُكثر الأود» نهج البلاغة: ٢٣١ ـ ٢٣٢، الخطبة ١٦٢. وقد روي عنه عليه السلام في مصادر متأخّرة قولُه عليه السلام: «الدهر أنزلني ثمّ أنزلني ثمّ أنزلني حتّى قيل: معاوية وعلي»، فراجع: حديقة الشيعة: ٢٠٨؛ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١٠: ٨؛ مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ٣: ٥٢٢. وقال عليه السلام: «متى اعترض الريبُ فيّ مع الأوّل منهم حتّى صرتُ أُقرن إلى هذه النظائر؟!» نهج البلاغة: ٤٩، الخطبة ٣.

الذين لم يساهموا في هذا البناء][١]، [هم أُولئك الذين كانوا يفرّون في اللحظات الحاسمة في عمليّة] هذا البناء، هم أُولئك الذين كانوا على استعدادٍ دائماً للتنازل عن مستوى هذا البناء في أيّ لحظةٍ من اللحظات، أُولئك حصلوا على مكاسب عريضةٍ من هذا البناء.

أمّا هذا الإمام الممتحن الذي لم يفرّ لحظة، الذي لم يتلكّأ في آن، الذي لم يتلعثم في قولٍ أو عمل، هذا الإمام العظيم لم يحصل على أيّ مكسبٍ من هذا البناء بأيّ شكلٍ من الأشكال!

انظروا! إنّ هذه الحادثة يمكن أن تفجّر قلب الإنسان ألماً، الإنسان غير العامل حينما ينظر في حال إنسانٍ عاملٍ على هذا الترتيب[٢] يتفجّر قلبه ألماً لحال هذا العامل المسكين، لحال هذا العامل التعيس الذي بنى فغيّر الدنيا، ثمّ لم يستفد من هذا التغيير.

ثمّ تعالوا انظروا إلى المستقبل الذي كان ينظره الإمام عليٌّ بعين الغيب. هذا ماضيه، فماذا عن مستقبله؟!

كان يرى بعين الغيب أنّ عدوّه اللدود سوف يطأ منبره، سوف يطأ مسجده، سوف ينتهك كلّ الحرمات والكرامات التي ضحّى وجاهد في سبيلها، سوف يستغلّ هذه المنابر التي شيّدت بجهاده وجهوده ودمه، سوف يستغلّها في لعنه وسبّه عشرات السنين، هو الذي كان يقول لأصحابه، كان يقول لهم، لبعض الخلّص من أصحابه: «إنّه سوف يعرض عليكم سبّي ولعني والبراءة منّي، أمّا السبُّ فسبّوني، وأمّا البراءة منّي فلا تتبرّؤوا منّي»[٣].

---

(١) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (ف) و(غ)، والجملة التالية أثبتناها من (غ) خاصّة.

(٢) أي: على هذا الشكل.

(٣) «أمّا إنّه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رحْب البلعوم مندحق البطن، يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد،

إذاً فهو كان ينظر بعين الغيب إلى المستقبل بهذه النظرة. لم يكن يرى في المستقبل نوعاً من التكريم يُتدارك به هذا الحرمان. كانت الأجيال التي سوف تأتي بعد أن يفارق الدنيا، هذه الأجيال كانت ضحية مؤامرةٍ أُمويّة جعلتها لا تدرك أبداً دور الإمام عليٍّ عليه السلام في بناء الإسلام.

هذا هو حرمان الماضي، وهذا هو حرمان المستقبل. وبالرغم من كلّ هذا قال عليه السلام: «فزت وربّ الكعبة»[(١)].

حينما أدرك أنّها اللحظة الأخيرة، وأنّه انتهى خطُّ جهاده وهو في قِمّة جهاده، وانتهى خطُّ محنته وهو في قمّة صلاته وعبادته، قال: «فزت وربّ الكعبة»؛ لأنّه لم يكن إنسان الدنيا، ولو كان إنسان الدنيا لكان أتعس إنسانٍ على الإطلاق، لو كان إنسان الدنيا لكان قلبه يتفجّر ألماً وكان قلبه يتفجّر حسرةً، ولكنّه لم يكن إنسان الدنيا. لو كان إنسان الدنيا فسوف يندم ندماً لا ينفعه معه شيء؛ لأنّه بنى شيئاً ثمّ انقلب عليه هذا [(٢) البناء ليحطّمه، أيُّ شيءٍ يمكن أن ينفع هذا الشخص؟

إذا فرضنا أنّ شخصاً أراد أن يربّي شخصاً لكي يخدمه، فلمّا تربّى ذاك الشخص ونما واكتمل رشده جاء ليقتل مربّيه، ماذا ينفع المربِّي غير أن يموت ندماً؟

لكنّ هذا الرجل العظيم قال: «فزت وربّ الكعبة». كان أسعد إنسانٍ ولم يكن أتعس إنسان؛ لأنّه كان يعيش لله ولم يكن يعيش للدنيا، كان يعيش

فاقتلوه، ولن تقتلوه. ألا وإنّه سيأمركم بسبّي والبراءة منّي، فأمّا السبُّ فسبّوني؛ فإنّه لي زكاة ولكم نجاة. وأمّا البراءة فلا تتبرّؤا منّي؛ فإنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة» نهج البلاغة: ٩٢، الخطبة ٥٧.

(١) تقدّم توثيقه.

(٢) من قوله عليه السلام: «البناء» إلى آخر المحاضرة ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه تلفيقاً بين (ف) و(غ).

لهدفه ولم يكن يعيش لمكاسبه، لم يتردّد لحظةً ـ وهو في قمّة هذه المآسي والمحن ـ في صحّة ماضيه، وفي صحّة حاضره، وفي أنّه أدّى دوره الذي كان يجب عليه.

العبرة التي يجب أن نأخذها:

هذه هي العبرة التي يجب أن نأخذها. نحن يجب أن نستشعر دائماً أنّ السعادة في عمل العامل لا تنبع من المكاسب التي تعود إليه نتيجةً لهذا العمل، يجب أن لا نقيّم سعادة العامل على أساس المكاسب التي تعود إلينا نتيجة لهذا العمل؛ لأنّنا لو قيّمناه على هذا الأساس فقد يكون حظّنا كحظّ هذا الإمام من دنياه؛ حيث إنّه بنى إسلاماً، غيّر دنيا، ووجّه أُمّة، ثمّ بعد هذا انقلبت عليه هذه الأُمّة لتلعنه على المنابر ألف شهر(١).

نحن يجب أن لا نجعل مقياس سعادة العامل في عمله هو المكاسب والفوائد التي تنجم عن هذا العمل، وإنّما رضا الله سبحانه وتعالى، وإنّما نجعل المقياس حقّانيّة العمل، كون العمل حقّاً، وكفى.

وحينئذٍ سوف نكون سعداء، سواءٌ أثّر عملنا أم لم يؤثّر، سواء قدّر الناس عملنا أم لم يقدّروا، سواء رمونا باللعن أو بالحجارة [أم لم يفعلوا]، على أيّ حالٍ سوف نستقبل الله سبحانه وتعالى ونحن سعداء؛ لأنّنا أدّينا حقّنا

(١) فإنّ أهل الشام «جعلوا لعنَ عليٍّ سُنّة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير» مروج الذهب ٣: ٣٢. و«استفاض لعن عليٍّ عليه السلام على المنابر ألف شهر» تذكرة الخواص: ٦٥، أي: ٨٣ سنة ونيّف، ولكنّه مبنيٌّ على التقريب؛ إذ «كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون عليّاً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته» شرح نهج البلاغة ١١: ٤٤، وعام الجماعة هو عامُ صلح الحسن عليه السلام، أي: سنة ٤١ هـ. وقد استمرّ لعنه عليه السلام إلى أن تولّى الأمر عمر بن عبد العزيز لعشر خلون من صفر سنة ٩٩ هـ؛ حيث أمر بتركه، فراجع: تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

وواجبنا، وهناك من ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[١].

لئن ضيّع هؤلاء السعادة، ولئن ضيّعوا فهمهم، ولئن استولى عليهم الغباء فخلطوا بين عليٍّ وعمر وبين عليٍّ ومعاوية، لئن انصرفوا عن عليّ عليه السلام وهم في قمّة الحاجة إليه، فهناك من لا يختلط عليه الحال، من يميّز بين عليٍّ عليه السلام وبين أيّ شخصٍ آخر، هناك من أعطى لعليٍّ عليه السلام نتيجةً لعملٍ واحدٍ من أعماله مثلَ عبادة الثقلين[٢]، ذاك هو الحقّ، وتلك هي السعادة.

اللهمّ احشرنا معه، واجعلنا من شيعته والمترسّمين خطاه، والحمد لله ربّ العالمين].

* * *

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) بل خيراً منها، فراجع: الإقبال بالأعمال الحسنة: ٤٦٧؛ الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف ٢: ٥١٩؛ كشف اليقين: ٨٣؛ نهج الحق: ٢٤٤. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودٍّ يوم الخندق أفضل من أعمال اُمّتي إلى يوم القيامة» المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٤؛ كنز العمّال ١١: ٢٨٦.

الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم

٢



مبرِّرات رفض المساومات وأنصاف الحلول (٢)

أُلقيت في ١٩/ رمضان المبارك / ١٣٨٨هـ

استكمال الحديث عن ظاهرة رفض المساومات وأنصاف الحلول:

كنّا نتحدّث[1] عن تلك الظاهرة الفريدة في المرحلة التي قضاها الإمام عليه السلام حاكماً متصرّفاً، ومصرّفاً لشؤون المسلمين.

هذه الظاهرة الفريدة هي ما ألمحنا [إليه] من أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً كلّ الحرص على إعطاء العناوين الأوّليّة للصيغة الإسلاميّة للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي الأوّلي بحسب مصطلح الأُصوليّين، دون تجاوزه إلى ضرورات استثنائيّة تفرضها طبيعة الملابسات والظروف[2].

قلنا: إنّ هذه النقطة بحثت من الناحية الفقهيّة ومن الناحية السياسيّة معاً، فقيل مثلاً:

لماذا لم يرضَ الإمام بأنصاف الحلول أو بشيءٍ من المساومة؟

لماذا لم يسكت؟

لماذا لم يُمْضِ ـ ولو بصورةٍ مؤقّتة ـ الجهاز الفاسد الذي تركه وخلّفه عثمان بعد موته؟ لماذا لم يُمْضِ الجهاز؟ حتّى إذا أطاعه هذا الجهازُ وأسلم له القيادة، بعد ذلك يستطيع أن يمارس بشكل أقوى وأعنف عمليّة التصفية!

كنّا نعالج هذه المسألة، وقلنا: إنّ الجوابَ عن هذا السؤال وتفسيرَ هذه الظاهرة الفريدة في حياة الإمام عليه السلام يتّضح بمراجعة عدّة نقاط.

---

(١) في المحاضرة السابقة (التاسعة).

(٢) قال رحمه الله: «إنّ الداعية يحتاج إلى مبرّرات كبيرة جدّاً لكي يقدم على ارتكاب العناوين الثانويّة، إنّ الداعية يجب أن يقتصر على أقلّ مقدار ممكن من العناوين الثانويّة» ومضات: ٣٦٧.

استعرضنا من هذه النقاط أربعاً [١]:

النقطة الأُولى: إعداد بيئة رساليّة لإنشاء الجيش العقائدي:

النقطة الأُولى هي أنّ الإمام عليه السلام كان بحاجةٍ إلى إنشاء جيشٍ عقائديٍّ في دولته الجديدة التي كان يخطّط لإنشائها في العراق. وهذا الجيش العقائدي لم يكن موجوداً، بل كان بحاجة إلى تربية وإعداد فكريٍّ ونفسيٍّ وعاطفي، وهذا الإعداد كان يتطلّب جوّاً مسبقاً صالحاً لأنْ تنشأ فيه بذور هذا الجيش العقائدي، وهذا الجوّ ما لم يكن جوّاً كفاحيّاً رساليّاً واضحاً، لا يمكن أن تنشأ في أحضانه بذور ذلك الجيش العقائدي.

لو افترضنا أنّ الجوَّ كان جوّ المساومات وأنصاف الحلول: حتّى في حالة كون أنصاف الحلول تكتسب الصفة الشرعيّة بقانون التزاحم على ما ذكرناه[٢]، حتّى في هذه الحالة تفقد الصيغة مدلولَها التربوي.

النقطة الثانية: استلام أمير المؤمنين عليه السلام الحكم في أعقاب ثورة:

النقطة الثانية هي أنّ الإمام عليه السلام جاء لتسلّم زمام الحكم في لحظة ثورة، لا في لحظة اعتياديّة. ولحظة الثورة تستبطن لحظة تركيزٍ وتعبئة وتجمّع كلّ الطاقات العاطفيّة والنفسيّة في الأُمّة الإسلاميّة لصالح القضيّة الإسلاميّة، فكان لا بدّ من اغتنام هذه اللحظة بكلّ ما تستبطنه من هذا الزخم الهائل عاطفيّاً ونفسيّاً وفكريّاً.

---

(١) يسترجع الشهيد الصدر قدس سره النقاط الأربع التي تقدّمت في المحاضرة التاسعة، ويُضيف إليها أربعاً أُخرى.

(٢) في المحاضرة التاسعة، تحت عنوان: ظاهرة رفض المساومات وأنصاف الحلول، دراسة الظاهرة من الناحية الفقهيّة.

النقطة الثالثة: حرص الإمام عليه السلام على إدراك الأُمّة موضوعيّةَ المعركة:

النقطة الثالثة التي ركّزنا عليها هي: أنّ ظاهرة الشكّ في مجتمع الإمام عليه السلام ـ هذه الظاهرة التي بيّنّاها في محاضرات سابقة[1]، وكيف أنّها عصفت بالتجربة، واستطاعت أن تقضي على الآمال والأهداف التي كانت معقودةً عليها ـ، هذا الشكّ، بالرغم من أنّه لم يكن يملك في سيرة الإمام عليه السلام أيّ مبرّرٍ موضوعي، وكانت مبرّراته ذاتيّة محضة ـ بالنحو الذي شرحناه تفصيلاً في ما مضى [2]ـ [فإنّه] قد استفحل وطغى، فكيف لو افترضنا أنّ هذه المبرّرات الذاتيّة أُضيفت إليها مبرّرات موضوعيّة من الناحية الشكليّة! إذاً، لكان هذا الشكّ أسرع إلى الانتشار والتعمّق والرسوخ، وفي النهاية إلى تقويض هذه التجربة.

النقطة الرابعة: الإمام علي عليه السلام يقدّم للأُمّة الأُطروحة السليمة:

النقطة الرابعة التي ختمنا بها الحديث بالأمس هي عبارة عن أنّ أنصاف الحلول أو المساومة هنا كانت في الواقع اشتراكاً في المؤامرة، وكانت تحقيقاً للمؤامرة من ناحية الإمام عليه السلام، ولم تكن تعبيراً عن الإعداد لإحباط هذه المؤامرة؛ لأنّ المؤامرة لم تكن مؤامرةً على شخص الإمام عليٍّ عليه السلام، لم تكن مؤامرةً على حاكميّة الإمام عليٍّ عليه السلام حتّى يقال: إنّه يمهّد لهذه الحاكميّة بشيءٍ من هذه الحلول الوسط، وإنّما المؤامرة كانت مؤامرةً على وجود الأُمّة الإسلاميّة، على شخصيّة هذه الأُمّة، على أن تقول كلمتها في الميدان بكلّ قوّةٍ وجرأةٍ وشجاعة، على أن تنسلخ عن شخصيّتها، وينصّب عليها قيّمٌ من أعلى يعيش معها عيش الأكاسرة والقياصرة مع شعوب الأكاسرة والقياصرة، هذا

---

(١) راجع: المحاضرة الثانية عشرة، تحت عنوان: سريان الشكّ وتعمّقه في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام، وقد ذكرنا في مقدّمة التحقيق أنّنا أخّرنا هذه المحاضرة لدواعٍ منطقيّة.

(٢) في المحاضرة نفسها.

الذي كان يسمّى بالمصطلح الإسلامي بالهرقليّة والكسرويّة[١].

هذه هي المؤامرة، وهذه المؤامرة هي التي كان يسعى خطّ السقيفة بالتدريج ـ عامداً أو غير عامدٍ ـ إلى تعميقها، إلى إنجاحها في المجتمع الإسلامي.

فلو أنّ الإمام عليه السلام كان قد مارس أنصاف الحلول، لو كان قد باع الأُمّة بيعاً مؤقّتاً مع خيار الفسخ، إذاً لكان بهذا قد اشترك في إنجاح وفي سلخ الأُمّة عن إرادتها وشخصيّتها.

كانت الأُمّة وقتئذٍ بحاجةٍ كبيرةٍ جدّاً لكي تستطيع أن تكون على مستوى مسؤوليّات ذلك الموقف العصيب، وعلى مستوى القدرة للتخلّص من تبعات هذه المؤامرة.

كان لا بدّ من أن تشعر بكرامتها، بإرادتها، بحرّيتها، بأصالتها، بشخصيّتها في المعترك، وهذا كلّه ممّا لا يتّفق مع ممارسة الإمام عليه السلام لأنصاف الحلول.

النقطة الخامسة: عدم تأتّي الإصلاح على أيدي الأجهزة الفاسدة:

النقطة الخامسة التي لا بدّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي: أنّ الإمام عليه السلام لو كان قد أمضى الأجهزة الفاسدة التي خلّفها الخليفة المنحرف[٢] من قبله وأقرّها، لكان من غير المعقول ـ بمقتضى طبيعة الأشياء ـ أن يستطيع بعد هذا أن يمارس عمليّة التغيير الحقيقي في هذه التجربة التي يتزعّمها.

في الواقع: إنّ هذا الفهم لموقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي أعرضُه في هذه النقطة مرتبطٌ بحقيقة مطلقة تشمل موقف الإمام عليه السلام، وتشمل أيَّ موقف رسالي عقائدي آخر مشابه لموقف أمير المؤمنين يستهدف تغييراً

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٩٦؛ المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٥: ٢٩٩؛ البداية والنهاية ٨: ٨٩.
(٢) كذا في (م) و(ن)، وفي (ف): «عثمان الخليفة».

جذريّاً أو إصلاحاً حقيقيّاً في مجتمع أو بيئة أو حوزة، أو في أيّ مجتمع آخر من المجتمعات.

هذه الحقيقة المطلقة هي أنّ كلَّ إصلاح لا يمكن أن ينشأ على يد الأجهزة الفاسدة التي يتوقّف الإصلاح على إزالتها وعلى تبديلها[1].

فلو افترضنا أنّ الزعيم المسؤول عن إصلاح تلك الأُمّة والبيئة التي يتزعّمها أقرَّ الأجهزة الفاسدة التي يتوقّف الإصلاح على إزالتها وتبديلها، ومن ثمّ تعاون معها ولو مؤقّتاً؛ بمنطق: أنّي أُقرّها، ثمّ بعد اكتسابي القوّة والمزيدَ من القدرة، وبعد امتدادي أُفقيّاً وعموديّاً في أبعاد هذه التجربة التي أتزعّمها، بعد ذلك أستبدل هذه الركائز بركائز صالحة.

هذا المنطق منطقٌ لا يتّفق مع طبيعة العمل الاجتماعي ومع طبيعة الأشياء؛ وذلك لأنّ هذا الزعيم: من أين يستمدّ القوّة؟ من أين سوف تتّسع له القدرة؟ من أين سوف يمتد أُفقيّاً وعموديّاً؟ هل تهبط عليه هذه القوّة بمعجزة من السماء؟

لا، وإنّما سوف يستمدّ هذه القوّة من تلك الركائز نفسها. إنّ أيَّ زعيم ـ في أيّة بيئة ـ يستمدّ قوّته وتتعمّق هذه القوة عنده باستمرار من ركائزه، من أُسسه، من أجهزته، التي هي قوّته التنفيذيّة، التي هي واجهته على الأُمّة، التي هي تعبيره، التي هي تخطيطه.

فإذا افترضنا أنّ هذه الأجهزة كانت هي الأجهزة الفاسدة التي يريد المخطّطُ الإصلاحيُّ إزالتَها وتبديلها، فليس من المعقول أن يقول الزعيم في أيّ لحظةٍ من اللحظات: «إنّي أرفض هذه الأجهزة الفاسدة» ؛ لأنّ النتيجة المنطقيّة مرتبطة بمقدّماتها، والنتيجة واقعيّاً مرتبطة بركائزها.

---

(١) في الموارد اللاحقة من مختلف النسخ اقترنت الإزالة بالتبديل، فلعلّ الصادر منه ﷺ في هذا المورد ما أثبتناه، وإن كان الوارد في مختلف النسخ: «تبديدها».

فهذا الشموخ المستمدّ من ركائز فاسدة، من أجهزة فاسدة، لا يمكن أن يتمرّد على هذه الركائز. هذا الزعيم حتّى لو كان حسن النيّة والتصوّر، مع هذا لو أنّه طبّق هذه الصورة سوف يجد في نهاية الطريق أنّه عاجز عن التغيير، وسوف لن يتمكّن من تحقيق أهدافه الكبيرة؛ لأنّ هذا الزعيم مهما كان متمكّناً ومتسلّطاً، فلن يستطيع أن يغيّر بيئةً بجرّةِ قلم أو إصدار قرار، وإنّما تتغيّر البيئة عن طريق الأجهزة التي تنفّذ إرادة هذا الزعيم وتخطيطه. وهذه الأجهزة إذا كانت هي نفسها لا تتّفق مع الإرادة الإصلاحيّة لهذا الزعيم، فكيف تنفّذ إرادته وتحقّق أهدافه؟!

إذاً، فطبيعة الأشياء وطبيعة العمل التغييري في أيّة بيئة تفرض على أيٍّ زعيم عقائدي إصلاحي أن يبدأ العمل ويبدأ بناء زعامته بصورةٍ منفصلةٍ عن تلك الأجهزة الفاسدة. وهذا ما كان يفرض على الإمام عليٍّ عليه السلام أن لا يقرّ ولا يمضي مخلّفات عثمان بن عفّان الإداريّة والسياسيّة.

النقطة السادسة: اكتساب معاوية من عمليّة الإمضاء المؤقّت لباس الشرعيّة:

النقطة السادسة التي لا بدّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي أنّ الإمام عليه السلام لو كان قد أمضى مرحليّاً الأجهزة التي خلّفها عثمان ـ مثل معاوية بن أبي سفيان ـ لحصل من ذلك على نقطة قوّة مؤقّتة؛ إذ لو باع الأُمّة من معاوية بن أبي سفيان بيعاً مؤقّتاً مع خيار الفسخ لاستطاع بذلك أن يحصل على نقطة قوّة، وهي أنّ معاوية بن أبي سفيان سوف يبايع عليّاً عليه السلام، وسوف يبايعه أهل الشام، و[نقطة القوّة هذه] هي ما يفترضه المعترِض على تصرّف الإمام.

صحيحٌ أنّ هذه النقطة نقطة قوّة في حساب عمليّة التغيير، لكن في مقابل هذا سوف يحصل معاوية على نقطة قوّة، ونقطة القوّة هذه هي اعتراف صاحبِ الأُطروحة الجديدة وصاحبِ الخطّ الإسلامي المعارض على طول

الزمن منذ أن تشكّلت السقيفة بشرعيّة حاكميّة معاوية بن أبي سفيان، ومعنى هذه الشرعيّة هو أنّ معاوية رجلٌ يوصف ـ على أقلّ تقدير ـ بأنّه عاملٌ قدير على تسيير مهامّ الدولة، وعلى حماية مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم.

هذا المعنى هو المدلول العرفي الواضح لمثل هذا الإمضاء في الذهنيّة الإسلاميّة العامّة: نقطة قوّة لمعاوية في مقابل نقطة قوّة لعليٍّ عليه السلام.

ونحن إذا قارنّا بين هاتين النقطتين، فسوف لن ننتهي إلى قرارٍ يؤكّد أنّ نقطة القوّة التي يحصل عليها الإمام عليه السلام هي أهمّ ـ في حساب عمليّة التغيير الاجتماعي التي يمارسها ـ من نقطة القوّة التي يحصل عليها معاوية، خاصّةً إذا التفتنا إلى أنّ عمليّة تغيير الولاة في داخل الدولة الإسلاميّة وقتئذٍ لم تكن عمليّة سهلة، ولم تكن عمليّة بهذا الشكل من اليسر الذي نتصوّره في دولة مركزيّة تسيطر حكومتها المركزيّة على كلّ أجزاء الدولة وقطّاعاتها.

ليس معنى أن يبايع معاوية خليفةً في المدينة أنّ جيشاً للحكومة المركزيّة سوف يدخل إلى الشام، أو أنّ هناك ارتباطاً عسكريّاً حقيقيّاً سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزيّة، وإنّما يبقى هذا الوالي بعد البيعة همزةَ الوصل الحقيقيّة بين هذا البلد وبين الحكومة المركزيّة:

أ ـ فضعف الحكومة المركزيّة عسكريّاً في ذلك الوقت.

ب ـ وترسّخ معاوية في الشام؛ لأنّ الشام لم تعرف والياً إسلاميّاً سوى يزيد بن أبي سفيان(١)، ومن بعده معاوية بن أبي سفيان(٢).

(١) «وجّه أبو بكر الجنود إلى الشام أوّل سنة ثلاث عشرة.. وولّى يزيد بن أبي سفيان؛ فكان أوّل الأُمراء الذين خرجوا إلى الشام» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٣٨٧؛ البداية والنهاية ٧: ٣١.

(٢) ولّى عمر بن الخطّاب معاوية على الشام «بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان في سنة تسع عشرة، ورزقه ألف دينار في كلّ شهر» إمتاع الأسماع ٦: ١٥١، ثمّ قال بعد ذلك: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما طمع يزيد بن أبي سفيان ومعاوية أن أستعملهما على الشام» أنساب الأشراف ١٠: ٤٣٥.

ج ـ وكذلك الصلاحيّات الاستثنائيّة التي أعطاها عمر بن الخطّاب لمعاوية في أن ينشئ له سلطنة ومَلَكيّة في الشام، بدعوى أنّ ذلك يكون مظهرَ عزٍّ وجلالٍ للإسلام في مقابل دولة القياصرة[1].

د ـ إلى جانب الصلاحيّات التي أخذها من عثمان[2]، والتي كرّست انفصال الشام واقعيّاً عن الحكومة المركزيّة، ولم يبقَ أيُّ ارتباطٍ حقيقيٍّ بين الشام والمدينة سوى الارتباط الدستوري الاسمي بتبعيّة الشام إلى الحكومة الإسلاميّة...

هذا الضعف من جهة، والترسّخ من الجهة الأُخرى، [كانا يعقّدان] الموقف على أمير المؤمنين عليه السلام، و[يجعلان] نقطة القوّة التي يحصل عليها ـ وهي مجرّد البيعة في الأيّام الأُولى ـ نقطةً غير حاسمة؛ وذلك لأنّ الإمام إذا عزل معاوية، فبإمكان معاوية أن يثير ـ إلى جانب وجوده المادي القوي المترسّخ في الشام ـ الشبهاتِ على المستوى التشريعي والإسلامي؛ لأنّه يستطيع أن يقول: لماذا عزلني عليُّ بن أبي طالب؟ وما هو الشيء الذي صدر منّي حتّى يعزلني بعد أن اعترف بأنّي حاكمٌ عادلٌ صالحٌ لإدارة شؤون المسلمين؟ ما الذي طرأ؟

(١) «لمّا أتى الشام رأى معاوية في موكب يغدو ويروح فيه، فقال له: يا معاوية! تروح في موكب وتغدو في مثله، وبلغني أنّك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك، فقال: يا أمير المؤمنين! إنّا بأرض عدوّنا قريب منها، وله علينا عيون ذاكية، فأردت أن يروا للإسلام عزّاً، فقال عمر: إنّ هذا لكيد لبيب أو خدعة أريب» أنساب الأشراف ٥: ١٤٧؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٣١. ولهذا وصفه عمر بأنّه «كسرى العرب»، فراجع: أنساب الأشراف ٥: ١٤٧؛ البداية والنهاية ٨: ١٢٥.

(٢) «ثمّ ولّاه عثمان بن عفان ذلك العمل وجمع له الشام كلّها حتّى قتل» الطبقات الكبرى ٧: ٢٨٥، «ولّاه عمر نيابة دمشق بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان، وأقرّه على ذلك عثمان بن عفان وزاده بلاداً أُخرى» البداية والنهاية ٨: ٢١. وقد برّر عثمان بسط يد معاوية بقوله لعليّ عليه السلام: «هل تعلم أنّ عمر ولّى معاوية خلافته كلّها؟ فقد ولّيته، فقال علي: أنشدك الله! هل تعلم أنّ معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟ قال: نعم، قال علي: فإنّ معاوية يقتطع الأُمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغيّر على معاوية» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٣٨؛ تجارب الأُمم ١: ٤٣٤؛ البداية والنهاية ٧: ١٦٩.

وما الذي تجدّد؟!

مثل هذا الكلام كان بإمكان معاوية أن يوجّهه حينئذٍ للإمام، ولم يكن بإمكان الإمام عليه السلام أن يجيب عن هذه الشبهة جواباً مقنعاً للرأي العام الإسلامي وقتئذٍ.

لكنّه حينما يعزله من البداية، فإنّ عزله يكون على أساس عدم صلاحيّته وعدم توفّر الشروط اللازمة في الحاكم الإسلامي عنده. إلى جانب أنّه لا يتحمّل مسؤوليّة وجوده كحاكمٍ في الشام في الفترة السابقة، وهذا العزل يعبّر عن عدم رضا الإمام عليه السلام عن الفترة السابقة التي عاشها معاوية حاكماً في الشام من قبل عمر وعثمان.

النقطة السابعة: عجز الإمضاء المؤقّت عن شلّ مخطّطات معاوية طويلة الأمد:

النقطة السابعة التي لا بدّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي: أنّ هذه الشبهة التي وجّهت للإمام عليه السلام تفترض أنّ معاوية بن أبي سفيان ـ في حال بقائه والياً من قِبَلِ الإمام مؤقّتاً ـ سوف يعطي نقطة قوّة للإمام علي عليه السلام.

ولكن لا يوجد في القرائن والدلائل التي كانت تكتنف موقف الإمام ما يوحي بصحّة هذا الافتراض؛ وذلك لأنّ معاوية لم يعصِ الإمام عليه السلام بسبب عزله عن الولاية، وإنّما كان ذلك ـ في أكبر الظنّ ـ جزءاً من مخطّطه لمؤامرة اُمويّة طويلة الأمد على الإسلام.

الاُمويّة كانت تريد نهب المكاسب الإسلاميّة بالتدريج، هذا النهب الذي عبّر عنه أبو سفيان بأقسى تعبير حينما ركل قبر حمزة رضي الله عنه بقدمه وهو يقول: «إنّ هذا الدين الذي قاتلتمونا عليه وبذلتم دماءكم في سبيله أصبح كرةً في أيدي صبياننا وأطفالنا»[(١)].

(١) «قال أبو سفيان في أيّام عثمان وقد مرّ بقبر حمزة وضربه برجله وقال: يا أبا عمارة! إنّ الأمر

كان المخطَّط الأُموي[1] يريد أن يقتنص وأن ينهب مكاسب البناء الإسلامي والوجود الإسلامي، وكانت هذه المؤامرة تنفّذ على مستويات:

أ ـ كانت المرحلة الأُولى من المؤامرة الأُمويّة عمليّة ترسيخ الأخوين يزيد ومعاوية في الشام، ومن ثمّ محاولة استقطاب الشام عن طريق حكمه الدائم من قِبَلهم.

ب ـ ومن ثمّ ابتدأ معاوية ينتظر الفرصة الذهبيّة التي هيّأها له مقتل عثمان، هذه الفرصة الذهبيّة التي تعطيه سلاحاً غير منتظر[2] يمكن أن يمسكه ويدخل به إلى الميدان. ولهذا نراه قد تباطأ عن نصرة عثمان بن عفّان وعن أمر الجيوش التابعة له بالدخول إلى المدينة لحماية عثمان، مع العلم بأنّ عثمان كان يستنصره ويستصرخه ويؤكّد له أنّه يعيش لحظات الخطر[3].

لكنّ معاوية كان يتلكّأ في إنقاذه، وكان قادراً ـ على أقلّ تقدير ـ على تأخير هذا المصير المحتوم عن عثمان إلى مدّةٍ أطول لو أنّه وقف موقفاً إيجابيّاً حقيقيّاً من نصرة عثمان، ولكنّه تلكّأ.

كان يخطّط لكي يبقى هذا التيّار كاسحاً، ولكي يخرّ عثمان صريعاً على أيدي المسلمين، ثمّ بعد هذا يأتي ويمسك بزمام هذا السلاح[4]، ويقول: «أنا

الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعّبون به» شرح نهج البلاغة ١٦: ١٣٦.

(١) في (ف) و(ن): «الشرف الأُموي»، وهو غير مثبت في (م) وساقطٌ من (غ)، وهو إمّا من خطأ المدوّنين، أو تهكّمٌ منه رحمه الله، وما أثبتناه من السياق.

(٢) أي: غير متوقَّع.

(٣) «فلمّا رأى عثمان ما قد نزل به.. كتب إلى معاوية.. : (أمّا بعد، فإنّ أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كلّ صعب وذلول). فلمّا جاء معاويةَ الكتابُ تربّص به..» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٦٨.

(٤) كتب عليٌّ عليه السلام إلى معاوية: «فأمّا إكثارك الحجاج على عثمان وقتلته، فإنّك إنّما نصرت عثمان حيث كان النصر لك، وخذلته حيث كان النصر له، والسلام» نهج البلاغة: ٤١٠، الكتاب ٣٧. وقال جويرية: «أرسل عثمان رضي الله عنه إلى معاوية رضي الله عنه يستمدّه، فبعث معاوية رضي الله عنه يزيد بن أسد جدّ خالد

ابن عمّ الخليفة المقتول»[١].

هذه الفرصة الذهبيّة التي كانت تحكي مستوى الآمال والأطماع الأُمويّة لِنهب مكاسب الإسلام لم يكن من المظنون أن يدعها معاوية لقاء بقائه والياً على الشام من قبل الخليفة الجديد؛ لأنّ ولاية الشام كانت مرحلة أُنجزت من المؤامرة، وبعد مقتل عثمان ابتدأت المرحلة الجديدة، وهي نهب كلّ الوجود الإسلامي وتزعّمه، والذي كان يعني أنّ إبقاءه والياً على الشام سوف لن يكون على مستوى أطماعه في المرحلة الأُولى من مراحل المؤامرة الأُمويّة على الإسلام التي بدأت بمقتل عثمان بن عفّان.

النقطة الثامنة: عدم وجود يأس من إنجاح عمليّة التغيير بدون مساومة:

وأخيراً، فإنّنا نقول: إنّ ملاحظة طبيعة الوضع العام، وملاحظة موقع الإمام علي عليه السلام في ذلك الوضع لم تكن لتوحي بالاعتقاد بالعجز عن إمكان إنجاح عمليّة التغيير بدون مساومة.

ومن الواضح أنّ الفكرة الفقهيّة التي أشرنا إليها بالأمس ـ من أنّ توقّف الواجب الأهمّ على المقدّمة المحرّمة يبيح تلك المحرّمة ـ إنّما تكون صحيحةً إذا كان هناك توقّف بالفعل، وأُحرز أنّه لا يمكن التوصّل إلى الواجب الأهمّ إلّا عن طريق هذه المقدّمة المحرّمة.

القسري وقال له: إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ولا تتجاوزها، ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، قال: أنا الشاهد وأنت الغائب. فأقام بذي خشب حتّى قتل عثمان رضي الله عنه. فقلت لجويرية: لِمَ صنع هذا؟! قال: صنعه عمداً ليقتل عثمان رضي الله عنه فيدعو إلى نفسه» تاريخ المدينة المنوّرة ٢: ٢٩١.

(١) قال معاوية: «وإنّي خليفة عثمان بن عفّان عليكم، وإنّي لم أُقم رجلاً منكم على خزاية قطّ، وإنّي وليُّ عثمان وقد قتل مظلوماً، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ الإسراء: ٣٣»، «ومعاوية بدمشق قد ألبس منبر دمشق قميص عثمان وهو مخضّب بالدم، وحول المنبر سبعون ألف شيخ يبكون حوله لا تجفّ دموعهم على عثمان» وقعة صفّين: ٣٢، ١٢٧.

ولكنّ الظروف هنا وطبيعة الموقف لم تكن توحي ولم تكن تؤدّي إلى اليقين بمثل هذا التوقّف؛ وذلك لأنّ المؤامرة التي كان على عليٍّ عليه السلام الاضطلاع بمسؤوليّة إحباطها حينما تولّى الحكم لم تكن قد نجحت بعد، بل كانت الأُمّة أيّام مقتل عثمان قد عبّرت تعبيراً معاكساً ومضادّاً لواقع هذه المؤامرة ولمضمونها.

صحيحٌ أنّ هذه المؤامرة تمتدّ بجذورها إلى أمدٍ طويل قبل هذا التاريخ؛ وذلك لأنّ الأُمّة التي سهر رسول الله صلى الله عليه وآله على إعطائها أصالتها وشخصيّتها وكرامتها ووجودها ـ حتّى إنّه ألزم نفسه وألزمه ربُّه بمشاورتها[1] لأجل تربية المسلمين وإعدادهم نفسيّاً لتحمّل مسؤوليّاتهم، ولأجل إشعارهم بأنّهم هم الأُمّة التي يجب أن تتحمّل مسؤوليّات هذه الرسالة[2] ـ، هذه الأُمّة التي خلّفها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي تعيش هذه الروحيّة، وتعيش هذا المستوى عاطفيّاً ونفسيّاً تعرّضت للمؤامرة على وجودها، وتحويل هذا الوجود إلى سلطان.

وكان أوّل جذرٍ من جذور هذه المؤامرة قد أُعطي كمفهوم في السقيفة حينما قال أحد المتكلّمين فيها: «من ينازعنا سلطان محمّد؟»[3]. هذا المفهوم كان من المفاهيم التي شكّلت جذراً من جذور المؤامرة.

السقيفة وإن كانت بمظهرها اعترافاً بوجود الأُمّة؛ حيث إنّ الأُمّة تريد أن تتشاور في تعيين الحاكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن هذا المفهوم الذي أُعطي في السقيفة ـ والذي كُتب له أن ينجح ويمتدّ بأثره بعد ذلك ـ كان بحدّ ذاته

---

(١) ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩.

(٢) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠.

(٣) الإمامة والسياسة ١: ٢٥، ٢٩؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٢٠، وهو قول الخليفة الثاني، وقد ذكرنا في المحاضرتين الخامسة والسادسة كيف عبّر أبو سفيان عن هذا المفهوم يوم فتح مكّة، فراجع: البداية والنهاية ٤: ٢٩٠.

ينكر وجود الأُمّة، كان ينظر إلى النبوّة [على] أنّها سلطان قريش، أنّها سلطان عشيرة معيّنة، وهذه العشيرة المعيّنة هي التي يجب أن تحكم وأن تسود.

نظريّة مالكيّة العشيرة التي[1] تتحدّى وجود الأُمّة، وتنكر عليها أصالتها ووجودها وشخصيّتها، هذه النظريّة طرحت كمفهوم في السقيفة، ثمّ بعد هذا امتدّت واتّسعت عمليّاً ونظريّاً، ونحن نرى أنّ عمر كان يعمّق بشكلٍ وآخر هذا المفهوم.

مثلاً: في إحدى المرّات سمع عمر بن الخطّاب أنّ المسلمين يتحدّثون حلقاً حلقاً، ويفكّرون في أنّه لو أُصيبَ عمر بشيءٍ فمن يحكم المسلمين بعد أن يموت؟ معنى هذا أنّ المسلمين يحملون همّ التجربة، وهمّ المجتمع، ومعناه أنّه لا يزال للأُمّة وجود.

عمر بن الخطّاب انزعج من عمل المسلمين ومن وجود الأُمّة في الميدان؛ وذلك لأنّه يعرف أنّ وجود الأُمّة في الميدان معناه وجود علي عليه السلام في الميدان، ووجود الخطّ المعارض في الميدان؛ ولهذا صعد عمر المنبر وقال: «إنّ أقواماً يقولون: من يحكم بعد أمير المؤمنين؟ ألا إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها»[2].

ما معنى هذا الكلام من عمر؟

[إنّه] يريد أن يقول بأنّه لا يجوز للمسلمين أن يعودوا مرّةً أُخرى إلى التفكير المستقلّ في انتخاب شخص، وإنّما يجب أن يعيَّن لهم شخص من

---

(١) صلة الموصول ترجع إلى «النظريّة» لا «العشيرة».

(٢) «فلا يغرّن امرءاً أن يقول: إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمّت، وإنّها قد كانت كذلك، إلّا أنّ الله قد وقى شرّها» السيرة النبويّة (ابن هشام) ٢: ٦٥٨؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥٨؛ تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٠٥.

أعلى[١].

عمر لم يجرؤ [على] أن يبيّن هذا المفهوم صراحة، عمر كان يريد أن يعيَّن الحاكم من أعلى، لا أن تفكّر الاُمّة في تعيين هذا الحاكم كما فكّرت في ذلك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، ذلك التفكير المشؤوم.

عمر بعد ذلك عبّر عمّا يريد صراحة حينما طُعن؛ حيث جاءه المتملّقون وقالوا له: «ينبغي أن توصي يا أمير المؤمنين، ولا ينبغي أن تترك اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله هملاً»[٢]، عندئذٍ عيّن ستّة أشخاص[٣]. صحيحٌ أنّه لم يجرأ على تعيين واحد، وصحيحٌ أنّه أعطى الاُمّة وجوداً ناقصاً حينما حصر الأمر في ستّة أشخاص عليهم أن يعيّنوا واحداً منهم، ولكنّه في هذا كان ينفّذ المؤامرة، المؤامرةَ التي كانت تنفّذ بالتدريج على وجود هذه الاُمّة وكيانها وإرادتها.

عبد الرحمن بن عوف ـ الذي كان هو قطب الرحى في هؤلاء الستّة ـ لم يستطع أيضاً أن يطفئ دور الاُمّة، ولم يحلّ المشكلة عن طريق التفاوض في ما بين هؤلاء الستّة في اجتماع مغلق، وإنّما ذهب يستشير الاُمّة، ويسأل المسلمين عن الذي يرشّحونه من هؤلاء الستّة.

إلى هنا كانت الاُمّة لا تزال تحتفظ بدرجة من وجودها؛ بحيث إنّ صنيعة عمر بن الخطّاب لم تُغفِل وجودَ الاُمّة.

---

(١) ولذلك ورد في تتمّة كلام عمر: «فمن بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فإنّه لا بيعة له هو ولا الذي بايعه تغرّة أن يقتلا» السيرة النبويّة (ابن هشام) ٢: ٦٥٨؛ تاريخ الإسلام ٣: ٨، أو «فمن عاد لمثلها فاقتلوه» تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥٨؛ البدء والتاريخ ٥: ١٩٠.

(٢) قالت عائشة لعبدالله بن عمر: «يا بني! أبلغ عمر سلامي، وقل له: لا تدع اُمّة محمّد بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً؛ فإنّي أخشى عليهم الفتنة» الإمامة والسياسة ١: ٤٢.

(٣) «..ولكنّي سأستخلف النفر الذين توفّي رسول الله وهو عنهم راض، فأرسل إليهم فجمعهم، وهم: علي بن أبي طالب وعثمان بن عفّان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوّام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رضوان الله عليهم، وكان طلحة غائباً» الإمامة والسياسة ١: ٤٢؛ أنساب الأشراف ٥: ٥٠٠؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٢٢٨.

عبد الرحمن يسأل هذا ويسأل ذاك عن الذي يريدونه، وأخيراً يقول: «ما سألت عربيّاً إلّا وقال: علي. وما سألت قرشيّاً إلّا وقال: عثمان»[(١)].

ومعنى هذا أنّ جماهير المسلمين كانت تقول: علي بن أبي طالب عليه السلام، وعشيرة واحدة معيّنة كانت تريد أن تغصب الحكم من الأُمّة كانت تقول: عثمان؛ لأنّ عثمان كان تكريساً لعمليّة النهب، بينما عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام كان تعبيراً وتأكيداً لوجود الأُمّة في الميدان، ولهذا أرادته الأُمّة، وأرادت العشيرة عثمان.

ثمّ جاء عثمان، وفي دوره تكشّفت المؤامرة أكثر وامتدّت أكثر، أصبحت العشيرة تحكم وتقول بكلّ وقاحة بأنّ «المال مالنا، والأرض أرضنا، والخراج خراجنا؛ إن شئنا أعطينا وإن شئنا حرمنا»[(٢)]، لكنْ كان كلّ هذا خارج نطاق الدستور؛ لأنّ الصيغة في الدستور هي الصيغة الإسلاميّة، وهي أنّ المال مال الله[(٣)]، والناس سواسية كأسنان المشط[(٤)].

---

(١) «قال عمّار: إن أردتَ ألّا يختلف المسلمون فبايع عليّاً. فقال المقداد بن الأسود: صدق عمّار، إن بايعت عليّاً قلنا: سمعنا وأطعنا. قال ابن أبي سرح: إن أردت ألّا تختلف قريش فبايع عثمان» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٢) ربما يقصد صلى الله عليه وآله ما قاله عثمان لعامل صدقات المسلمين على سوق المدينة: «إنّما أنت خازنٌ لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت. فقال: كذبت والله! ما أنا لك بخازن ولا لأهل بيتك، إنّما أنا خازن المسلمين» تاريخ اليعقوبي ٢: ١٦٨. أو لعلّه يشير إلى قول سعيد بن العاص: «إنّما هذا السواد بستانٌ لأغيلمة من قريش» الطبقات الكبرى ٥: ٢٣؛ أنساب الأشراف ٥: ٤٣٣؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٢٣؛ الكامل في التاريخ ٣: ١٣٩.

(٣) وهو المفهوم الذي كرّسه عليٌّ عليه السلام في كتابه إلى الأشعث بن قيس: «وإنّ عملك ليس لك بطعمة، ولكنّه أمانة في عنقك، والمال مال الله، وأنت من خزّاني عليه حتّى تسلّمه إليّ إن شاء الله، وعليّ أن لا أكون شرَّ ولاتك» الإمامة والسياسة ١: ١١١. وانظر: نهج البلاغة: ١٨٣، الخطبة ١٢٦. وقد تحوّل معاوية عن مفهوم عثمان إلى مفهوم علي عليه السلام، ولكنّه أراد من ذلك «أن يحتجنه دون المسلمين» على ما ذكره ابن السوداء لأبي ذر، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٢٨٣.

(٤) البيان والتبيين ٢: ١٤؛ من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٩، الحديث ٥٧٩٨؛ الاختصاص: ٣٤١.

هذه هي الصيغة الإسلاميّة حتّى في عهد عثمان، ولكنّ هذا الوالي الأُموي المتغطرس، أو ذاك الوالي المتعجرف كان ينطق ويترجم الواقع لا الدستور، فيقول: «إنّ أرض السواد بستاننا؛ نحن نعطي ونمنع»، وهكذا كان.

ولكنّ كلّ هذا كان يعني أيضاً أنّه ما دامت الصيغة الإسلاميّة موجودة جماهيريّاً، فإنّ المؤامرة غير ناجحة بالرغم من الجذور ومن المقدّمات والإرهاصات النظريّة والعمليّة؛ لأنّ الأُمّة جاءت وطالبت عثمان بمضمون الصيغة الإسلاميّة في الدستور، وتطالبه بخلع هذا الوالي أو ذاك؛ لأنّه منحرف، لأنّه لا يطبّق كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله[(١)].

ولم يكن باستطاعة عثمان أن يجيب بصراحة ويقول: «أيّتها الأُمّة! ليس لكِ إرادة؛ لأنّ الإرادة إرادتي، وعليه: فهذا الوالي يمثّلني، أنا الحاكم المطلق[(٢)]»، ولكنّه كان يراوغ ويعتذر ويقيل ويُرجع، وهكذا.. كان يناور مع الأُمّة، هذه الأُمّة التي بدأت تحسّ بالخطر على وجودها، فعبّرت عن ذلك تعبيراً ثوريّاً وقتلت الخليفة[(٣)].

وبعد هذا اتّجهَتْ طبيعيّاً إلى الإمام علي عليه السلام لكي يعبّر من جديد عن

---

(١) وقد اعترضت مثلاً على كلام سعيد بن العاص، فقد «رحل من الكوفة إلى عثمان الأشترُ مالك بن الحارث و... يسألونه عزل سعيد بن العاص عنهم، ورحل سعيد وافداً على عثمان فوافقهم عنده، فأبى عثمان أن يعزله عنهم وأمره أن يرجع إلى عمله، فخرج الأشتر من ليلته في نفر من أصحابه، فسار عشر ليال إلى الكوفة، فاستولى عليها وصعد المنبر فقال: هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أنّ هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش، والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم وفيؤكم وفيء آبائكم، فمن كان يرى لله حقّاً فلينهض إلى الجرعة، فخرج الناس فعسكروا بالجرعة وهي بين الكوفة والحيرة» الطبقات الكبرى ٥: ٢٤؛ تاريخ الإسلام ٣: ٤٣١.

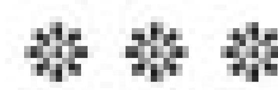
(٢) إمّا أن تكون كلمة (الحاكم) خبراً لمبتدأ في جملة استئنافيّة، وإمّا أن تكون بدلاً.

(٣) قال علي عليه السلام يصف حال عثمان وقتلته: «لو أمرتُ به لكنت قاتلاً أو نهيتُ عنه لكنتُ ناصراً.. استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكمٌ واقعٌ في المستأثر والجازع» نهج البلاغة: ٧٣، الخطبة ٣٠.

وجودها، ولكي يحبط المؤامرة، ولكي يعيد إلى هذه الأُمّة كرامتها داخل الدستور وخارجه، ولكي يقضي على كلّ انحراف خرج به الحكّام عن الصيغة الإسلاميّة عن الدستور.

فمن هنا كانت القضيّة لا تزال في بدايتها، ولا تزال الأُمّة ـ بحسب مظهرها على الأقلّ ـ هي تلك الأُمّة التي قتلت الحاكم لتحافظ على وجودها، وعليٌّ عليه السلام صاحب الطاقات الكبيرة هو الشخص الوحيد الذي يُؤمل منه أن يصفّي عمليّة الانحراف.

فالظروف والملابسات لم تكن تؤدّي إلى يأس، بل كانت تؤدّي إلى أمل، وما وقع خارجاً خلال السنوات الخمس كان يؤكّد هذا الأمل؛ فإنّ عليّاً عليه السلام لولا معاكسات جانبيّة لم تكن تنبع من حقيقة المشاكل الكبرى في المجتمع لاستطاع أن يسيطر على الموقف لولا مسألة التحكيم مثلاً، لولا أنّ شعاراً معيّناً خرج من قِبَل معاوية[1]، وانعكس بفهم خاطئ عند جماعة معيّنة من جيش الإمام عليه السلام، لولا هذا لكان بينه وبين قتل معاوية وتصفيته بضعة أمتار[2].



إذاً، كان الأمل هو أنّ عليّاً عليه السلام يمكنه أن يحقّق الهدف، ويعيد للأُمّة

---

(١) وهو شعار: «هذا كتاب الله بيننا وبينكم»، فراجع: وقعة صفّين: ٤٧٨؛ الإمامة والسياسة ١: ١٤٤، ١٤٧؛ أنساب الأشراف ٢: ٣٢٣؛ الفتوح ٣: ١٨٢؛ مروج الذهب ٢: ٣٩٠؛ تجارب الأُمم ١: ٥٣٧.

(٢) قال يزيد بن هنئ لمالك الأشتر عندما أبلغه أمرَ عليٍّ عليه السلام بالكفّ عن القوم: «..فإنّهم قالوا: لترسلنّ إلى الأشتر فليأتينّك أو لنقتلنّك بأسيافنا كما قتلنا عثمان، أو لنسلمنّك إلى عدوّك.. فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم، فصاح فقال: يا أهل الذلّ والوهن!.. فلا تجيبوهم، أمهلوني فواقاً؛ فإنّي قد أحسست بالفتح. قالوا: لا. قال: فأمهلوني عدوة الفرس؛ فإنّي قد طمعت في النصر» وقعة صفّين: ٤٩١؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٥٠؛ تجارب الأُمم ١: ٥٤٠؛ الكامل في التاريخ ٣: ٣١٧؛ البداية والنهاية ٧: ٢٧٣.

وجودها من دون حاجة إلى المساومات وأنصاف الحلول. كان هذا الأمل أملاً معقولاً وكبيراً، ولهذا لم يكن هناك مجوّزٌ لارتكاب أنصاف الحلول والمساومات.

ولكنّ هذا الأمل قد خاب، وانتهى آخر أمل حقيقي في تصفية الانحراف حينما خرّ هذا الإمام العظيم عليه السلام صريعاً في مسجده، وقُدّر للمؤامرة على وجود الاُمّة أن تنجح وأن تؤتي مفعولها كاملاً.

غير أنّ الإمام عليه السلام حينما فتح عينيه في تلك اللحظة العصيبة ورأى الإمام الحسن عليه السلام يبكي وهو يدرك بأنّ وفاة أبيه هي وفاةٌ لكلّ الآمال، أراد أن ينبّهه إلى أنّ الخطّ لا يزال باقياً، وأنّ التكليف لا يزال مستمرّاً، وأنّ نجاح المؤامرة لا يعني أن نلقي السلاح.

نعم، المؤامرة نجحت يا ولدي، ولهذا سوف تشرّدون وسوف تقتلون، ولكنّ هذا لا يعني أنّنا يجب أن نلقي السلاح، ولا يعني انتهاء المعركة، ولهذا يجب أن تقاوم حتّى تقتل مسموماً، ويجب أن يقاوم أخوك الحسين عليه السلام حتّى يقتل بالسيف شهيداً(١).

لا بدّ أن يستمرّ الخطّ حتّى بعد أن سُرق من الاُمّة وجودُها ؛ لأنّ محاولة استرجاع الوجود إذا بقيت في الاُمّة فسوف يبقى هناك نَفَسٌ في الاُمّة، سوف يبقى هناك ما يحصّنها من التميّع والذوبان.

الاُمّة حينما تنازلت عن إرادتها وعن شخصيّتها لجبّار من الجبابرة، لفرعون من الفراعنة، تكون عرضة للذوبان والتميّع في أتونه. لكن إذا بقي لدى الاُمّة محاولةُ استرجاعِ هذا الوجود ـ باستمرار هذه المحاولة التي يحاولها خطُّ عليٍّ، ومدرسةُ عليٍّ، والشهداءُ والصدّيقون من أبناء علي عليه السلام وشيعتِه ـ

---

(١) «يا بنيّ! أتجزع على أبيك وغداً تقتل بعدي مسموماً مظلوماً، ويقتل أخوك بالسيف هكذا، وتلحقان بجدّكما وأبيكما واُمّكما؟!» بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٣.

فسوف يبقى مع هذه المحاولة أملٌ في أن تسترجع الأُمّة وجودها، وعلى أقلّ التقادير سوف تحقّق هذه المحاولة مكسباً آنيّاً باستمرار، وهو تحصين الأُمّة ضدّ التميّع والذوبان المطلق في إرادة ذلك الحاكم وفي إطاره، وهذا ما وقع.

أسأل الله أن يجعلنا من شيعته، وأنصاره، والسائرين في خطّه، والمساهمين في هذه المحاولات.

❊ ❊ ❊



لماذا كان معاوية
أقدر على الاستمرار بخطّه ؟ (١)

أُلقيت (على الأرجح) في آخر محرّم الحرام / ١٣٨٨ هـ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلوات على أفضل النبيّين وآله الطيّبين الطاهرين.

الخليفة هو القيّم والأمين على الرسالة:

انتهينا في عرض الخطّ العام إلى تولّي أمير المؤمنين ﷺ لزعامة المسلمين سياسيّاً وإداريّاً بعد مقتل عثمان(١).

إلّا أنّ أمير المؤمنين ﷺ حينما تولّى هذه الخلافة ـ أو هذه الزعامة ـ بعد مقتل عثمان أراد أن يشرح للمسلمين بطريقته الخاصّة أنّ المسألة بالنسبة إليه ليست مسألة تبديل [شخص، و](٢)ذهاب شخص ومجيء شخص آخر، ليست المسألةُ مسألة فارقٍ اسميٍّ أو شخصيٍّ بين زعيم الأمس وزعيم اليوم، وإنّما المسألة مسألة اختلاف كامل شامل في المنهج، وفي كلّ القضايا المطروحة أمام الأُمّة لعلاجها وتصفيتها.

كان يريد أن يغذّي في المسلمين النظرة الحرفيّة إليه(٣)، أن يُنظر إليه ﷺ بوصفه قائماً على خطّ، وقيّماً على منهج، وأميناً على رسالة، وعنواناً لدستورٍ

---

(١) وكان مقتله لثمان عشرة ليلة مضت من ذي الحجّة سنة ٣٥، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٧٨.

(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(ف).

(٣) نسبةً إلى (المعنى الحرفي)، وهو بحثٌ أُصوليٌّ معروف، ويقصدﷺ هنا: النظرة الآليّة الطريقيّة، أي: الموضوعيّة غير الذاتيّة.

جديدٍ يختلف عن الوضع المنحرف القائم بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله.

رفض الإمام عليّ عليه السلام الخلافة أوّل الأمر:

لأجل هذا امتنع عن قبول الخلافة في أوّل الأمر، وقال لهم بأنّه: «فكّروا في غيري، واتركوني وزيراً لمن تستخلفون، فأنا لكم وزير خيرٌ منّي أمير»[١]، يعني: على مستوى حياة الدعة والكسل، على مستوى حياة الرخاء واليسر، على مستوى الحياة الفارغة من المسؤوليّة، على مستوى هذه الحياة أنا وزيرٌ خيرٌ منّي أمير؛ لأنّي حينما أكون أميراً سوف أُرهقكم، سوف أُتعبكم، سوف أفتح أمامكم أبواب مسؤوليّاتٍ كبرى، و[أحقن] في قلوبكم الهمومَ الكبيرة، التي تجعل ليلكم نهاراً وتجعل نهاركم ليلاً، هذه الهموم التي تجعلكم دائماً وأبداً تعيشون مشاكل الأُمّة في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، هذه الهموم التي سوف تدفعكم إلى حمل السلاح ـ من دون حاجةٍ ماديّة ـ لأجل تطهير الأرض الإسلاميّة من الانحراف الذي قام عليها.

اتركوني وزيراً [أَكُن] أفضل لكم على مستوى هذه الحياة منّي وأنا أمير؛ لأنّي كوزيرٍ لا أملك أن أرسم الخطّ، لا أملك أن أضع المنهج والمخطّط، وإنّما أُسدّد وأنصح وأُشير، وحينئذٍ يبقى الوضع الذي كان بعد وفاة النبي مستمرّاً.

قالوا له، أصرّوا عليه بأن يقبل أن يكون خليفة، فرض عليهم الشروط، قبلوا هذه الشروط إجمالاً دون أن يفسّر، ودون أن يوضّح، وإنّما أعطاهم ـ بنحو الإجمال[٢] ـ فكرةً عن أنّ عهده هو عهد منهجٍ جديدٍ في العمل السياسي والاجتماعي والإداري[٣]، فقبلوا هذا العهد، وكان هذا سبباً في أن

(١) «وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم منّي أميراً» نهج البلاغة: ١٣٦، الخطبة ٩٢.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: الجملةُ الاعتراضيّة متقدّمة على قوله رحمه الله «أعطاهم».

(٣) ولهذا قال عمر بن الخطّاب لعليّ عليه السلام في قضيّة الشورى السداسيّة: « لله أنت لولا دعابة فيك. أما

ينظر المسلمون من اللحظة الأُولى إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام بوصفه نقطة تحوّلٍ في الخطّ الذي وجد بعد النبي صلى الله عليه وآله، لا بوصفه مجرّد خليفة رابع، وإنّما هذا بداية عهدٍ جديد، انتعشت مع هذا العهد الجديد آمال كثيرة.

انشقاق معاوية:

حينما بويع (عليه أفضل الصلاة والسلام) كانت أكبر الصعاب التي واجهها بعد بيعته هو انشقاق معاوية بن أبي سفيان، وتخلّف الشام بكامله ـ تبعاً لمعاوية بن أبي سفيان ـ عن الانضمام إلى بيعته (عليه أفضل الصلاة والسلام)[1].

هذا التناقض الذي وجد في عهده شقَّ المجتمع الإسلامي ـ أو الدولة الإسلاميّة ـ إلى شقّين، ووُجد في كلٍّ من الشقّين جهازٌ سياسيٌّ وإداريٌّ لا يعترف بالآخر، ولا يعترف بمشروعيّة الآخر.

الفوارق الموضوعيّة بين وضع الإمام عليٍّ عليه السلام ووضع معاوية:

ومنذ البدء كان هناك فوارقُ موضوعيّةٌ واضحةٌ بين وضع عليٍّ عليه السلام

والله، لئن ولّيتهم لتحملنّهم على الحق الواضح والمحجّة البيضاء» شرح نهج البلاغة ١: ١٨٦. وقال عليه السلام للقوم قبل البيعة: «واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أُصغ إلى قول القائل وعتْب العاتب» نهج البلاغة: ١٣٦، الخطبة ٩٢. وقال لهم بعدها: «أيّها الناس! بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي، وإنّما الخيار قبل أن تقع البيعة، فإذا وقعت فلا خيار» الأخبار الطوال: ١٤٠.

(١) بعث عليٌّ عليه السلام جرير البجلي إلى معاوية «وكتب معه كتاباً يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وما كان من حربه إيّاهما، ويدعوه إلى الدخول في ما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته، فشخص إليه جرير، فلمّا قدم عليه ماطله واستنظره ودعا عمراً، فاستشاره في ما كتب به إليه، فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ويلزم عليّاً دم عثمان، ويقاتله بهم، ففعل ذلك معاوية... فلمّا قدم جرير بن عبد الله على علي فأخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه على قتاله، وأنّهم يبكون على عثمان، ويقولون: إنّ عليّاً قتله وآوى قتلته، وأنّهم لا ينتهون عنه حتّى يقتلهم أو يقتلوه» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٥٦١ ـ ٥٦٢.

السياسي والإداري ووضع معاوية السياسي والإداري، هذه الفوارق تجعل معاوية أحسن موقفاً، يعني: أثبت قدماً، وأقدر على الاستمرار في خطّه من إمام الإسلام (عليه أفضل الصلاة والسلام).

هذه الفوارق الموضوعيّة لم يصنعها الإمام بيديه، وإنّما هي نتيجة تاريخ[١]:

الفارق الأوّل: الرصيد العلوي في الشام، والرصيد الأُموي في العراق:

أ ـ فأوّلاً: كان معاوية يستقلّ بإقليم من أقاليم الدولة الإسلاميّة، ولم يكن لعليٍّ عليه السلام أيُّ رصيدٍ أو قاعدة شعبيّة في ذلك الإقليم على الإطلاق؛ لأنّ هذا الإقليم كان قد دخل في الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وانعزال عليٍّ عن خطّ العمل.

وكان هذا الإقليم دخل [و]دشّن حياته الإسلاميّة بولايَة أُمويٍّ قبل معاوية، وهو أخو معاوية: يزيد، ثمّ بعد هذا ولاية معاوية؛ فهو عاش الإسلام من منظار ومن نطاق وُلاة بني أُميّة، ولم يسمع بعلي عليه السلام، ولم يتفاعل مع الوجود الإسلامي والعقائدي لهذا الإمام العظيم.

لهذا، شعارُ عليٍّ لم يكن يملك رصيداً وقاعدةً شعبيّة في المجتمع الذي تزعّمه معاوية، وحمل لواء الانشقاق فيه[٢].

(١) سيعود قدس سره إلى الحديث عن هذه الفوارق في المحاضرة الثانية عشرة، تحت عنوان: طبيعة الموقفين وصراع الأُطروحتين. وإذا كان ما بحثه في هذه المحاضرة تحت عنوان: الفارق الثاني يُطابق ما بحثه في المحاضرة الثانية عشرة تحت عنوان: النقطة الأولى، فإنّه تعرّض للفوراق الأُخرى من زوايا تختلف جزئيّاً عن الزوايا التي سينطلق منها في المحاضرة القادمة، فلاحظ.

(٢) ويؤكّده أنّ معاوية بن أبي سفيان أتى مجلساً في فتنة مقتل عثمان «فيه عليُّ بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعمّار بن ياسر، فقال لهم: يا معشر الصحابة! أوصيكم بشيخي هذا خيراً، فوالله، لئن قتل بين أظهركم لأملأنّها عليكم خيلاً ورجالاً، ثمّ أقبل على عمّار بن ياسر فقال: يا عمّار! إنّ بالشام مائة ألف فارس كلٌّ

ب ـ وهذا بخلاف العكس؛ فإنّ شعار معاوية كان يملك رصيداً قويّاً وقاعدةً قويّة في المجتمع الذي تزعّمه الإمام عليه السلام؛ لأنّ معاوية كان يحمل شعار الخليفة القتيل، والمطالبة بدم الخليفة القتيل(١)، والخليفة القتيل كان هو أميرَ ذلك المجتمع الذي تزعّمه علي عليه السلام، وكان لهذا الخليفة القتيل أُخطبوطٌ في هذا المجتمع، وقواعدُ في هذا المجتمع، وأرحامٌ في هذا المجتمع، ومنتفعون ومرتزقون في هذا المجتمع.

ولهذا، كان شعار معاوية بن أبي سفيان يلتقي مع وجودٍ ومع قاعدةٍ ورصيدٍ في داخل مجتمع أمير المؤمنين عليه السلام، بينما لم يكن شعار الإمام عليه السلام يلتقي مع قاعدةٍ ورصيدٍ في داخل مجتمع معاوية.

الفارق الثاني: اختلاف الموقفين على مستوى الغزو والدفاع:

من ناحية أُخرى، كانت طبيعة المهمّة تميّز معاوية عن عليّ بن أبي طالب:

أ ـ لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام ـ بوصفه الحاكمَ الشرعيَّ المسؤول عن الأُمّة الإسلاميّة ـ كان يريد أن يقضي على هذا الانشقاق الذي ولد في جسم الأُمّة، وذلك بتصفية حساب هؤلاء المنحرفين، وإجبارهم بالقوّة على الانضمام إلى

يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون عليّاً ولا قرابته، ولا عمّاراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتّقون سعداً ولا دعوته» الإمامة والسياسة ١: ٤٦.

(١) «وكان أهل الشام.. لمّا قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان رضي الله عنه الذي قتل فيه مخضّباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم، إصبعان منها وشيء من الكف، وإصبعان مقطوعتان من أُصولهما ونصف الإبهام، وضع معاوية القميص على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد، وثاب إليه الناس، وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلّقة فيه، وآلى الرجال من أهل الشام ألّا يأتوا النساء ولا يمسّهم الماء للغسل إلّا من احتلام، ولا يناموا على الفرش حتّى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم، فمكثوا حول القميص سنة والقميص يوضع كلّ يوم على المنبر ويجلّله أحياناً فيلبسه، وعلّق في أردانه أصابع نائلة رضي الله عنها» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٥٦٢، وراجع: الإمامة والسياسة ١: ١٠٣.

الخطّ الشرعي[١].

وكان هذا يستدعي الدخول في حرب، ودفع الإنسان المسلم الذي كان يعيش تحت راية الإمام علي إلى ساحة حرب، لا ليدافع عن نفسه وعن إقليمه، بل ليغزو إقليماً آخر.

كان عليٌّ عليه السلام يريد من العراقي أن يخرج من العراق، تاركاً أمنَه وهدوءه واستقرارَه ومعيشتَه ورخاءه ليحارب أُناساً شاميّين لم يلتقِ معهم بعداوةٍ سابقة، وإنّما فقط بفكرة أنّ هؤلاء انحرفوا، ولا بدّ من إعادة أرض الشام إلى المجتمع الإسلامي والدولة الإسلاميّة، فكان موقف عليٍّ عليه السلام يتطلّب ويفترض [و]يطرح قضيّة الهجوم.

ب ـ وأمّا معاوية بن أبي سفيان، فكان يكتفي في تلك المرحلة بأن يحافظ على وجوده في الشام[٢]، لم يكن معاوية بن أبي سفيان يفكّر ـ ما دام أمير المؤمنين [حيّاً] ـ أن يهاجم أميرَ المؤمنين، وأن يحارب العراق، ويضمّ العراق إلى مملكته، وإنّما كان يفكّر فقط في أن يحتفظ بهذا الثغر من ثغور المسلمين حتّى تتهيّأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعيّة بعد ذلك لِأَنْ يتآمر على الزعامة المطلقة في كلّ أرجاء المجتمع الإسلامي.

فمعاوية لم يكن يقول للشامي: «تعالَ اخرج من الشام مطلِّقاً كلَّ راحتك واستقرارك وهدوءك، واذهب إلى العراق لتحارب شخصاً لم تعادِه من قبل، لا لشيء إلّا لأنّ هذا الشخص خارجٌ عن طاعتي».

---

(١) فقال عليه السلام: «ولستُ أستحلُّ أن أدع ضرب معاوية يحكم على الأُمّة ويركبهم ويشقّ عصاهم» وقعة صفّين: ١٨٩.

(٢) كتب معاوية إلى عليٍّ عليه السلام: «وقد كنتُ سألتك الشام على ألّا يلزمني لك طاعة ولا بيعة، فأبيت ذلك عليّ»، فأجابه عليه السلام: «فأمّا طلبك الشام، فإنّي لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك منها أمس» وقعة صفّين: ٤٧٠، ٤٧١. وكتب معاوية إلى ابن عبّاس: «وقد قنعنا بما كان في أيدينا من ملك الشام، فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق» وقعة صفّين: ٤١٤.

ولكنّ عليّاً كان يقول هذا للعراقي؛ لأنّ عليّاً كان يحمل بيده مسؤوليّة الاُمّة، ومسؤوليّة إعادة الوحدة إلى المجتمع الإسلامي، بينما كان معاوية كلُّ مكسبه وكلُّ همّه وقصارى أمله أن يحافظ على هذا الانشقاق، يحافظ على هذه التجزئة التي أوجدها والتي كادها للإسلام والمسلمين.

وهنا: شتّان بين قضيّة الهجوم حينما تطرح وقضيّة الدفاع.

الفارق الثالث: المنافسة المَدَنيّة العراقيّة لعليٍّ عليه السلام، والتسليم الشامي لمعاوية:

ومن ناحية ثالثة، كان هناك فرقٌ آخر بين معاوية وبين إمام الإسلام عليه السلام، وهذا الفرق هو:

أ ـ أنّ معاوية كان يعيش في بلدٍ لم يكن قد نشأت فيه زعامات سياسيّة طامحة إلى الحكم والسلطان من ناحية، ولم يكن فيه اُناسٌ من أصحاب السوابق إلى الإسلام ممّن يرى لنفسه الحقَّ في أن يساهم في التخطيط، وفي التقدير، وفي حساب الحاكم، وفي رسم الخطّ، لم يكن هكذا.

الشام أسلمت على يد معاوية وأخي معاوية وأمثال معاوية، كلّهم كانوا مسلمين نتيجةً لإسلام معاوية ولإسلام أخي معاوية ولإسلام من استخلف معاويةَ على الشام، ولم يكن قد مُنِي بتناقضات من هذا القبيل.

ب ـ أمّا عليٌّ عليه السلام [فـ]ـكان يعيش في مدينة الرسول، كان يعيش في حاضرة الإسلام الاُولى التي عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وآله، وعاش فيها بعد ذلك أبو بكر، وعاش فيها بعد ذلك عمر وعثمان، حتّى قتل عثمان:

فهو من ناحية: كان يواجه كثيراً من الصحابة من أصحاب السوابق في خدمة الإسلام، هؤلاء الذين كان كثيرون منهم يرَون[1] أنّ من حقّهم أن يساهموا في التخطيط، وأن يشتركوا في رسم الخطّ، وكان لكلٍّ منهم اجتهاده

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «كان كثيرٌ منهم من يَرَون».

وذوقه وقريحته في التخطيط وفي رسم الخطّ [١]، كان عليٌّ يواجه أشخاصاً كانوا يرونه ندّاً لهم، غاية الأمر أنّه الندّ الأفضل، الندّ المقدَّم، ولكنّهم صحابة كما أنّه هو صحابي، عاش مع النبيّ وعاشوا مع النبيّ.

طبعاً، نحن نعلم أيضاً بأنّ خلافة عليٍّ كانت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بأكثر من عشرين سنة، وهذا معناه أنّ [الرواسب][٢]، يعني أنّ مخلّفات عهد النبوّة، ذاك الامتياز الخاصّ الذي يتمتّع به أمير المؤمنين في عهد النبوّة، والذي عبّر عنه معاويةُ في رسالة له إلى محمّد بن أبي بكر حينما قال له: «كان عليٌّ في عهد الرسول كالنجم لا يطاول»[٣]، ذاك الامتياز الخاصّ كان قد انتهى مفعولُه، وتضاءل أثرُه في نفوس المسلمين.

الناس عاشوا عشرين سنةً يرون عليّاً مأموماً، يرَونه منقاداً، يرونه جنديّاً بين يَدَي أمير، هذا الإحساس النفسي خلال عشرين سنة ذهب بتلك الآثار التي خلّفها عهد النبوّة.

ولهذا كان عليٌّ يُنظر إليه بشكلٍ عام عند الصحابة الذين ساهموا في حلّ الأُمور وعقدها، وكانوا يمشون في خطّ السقيفة.. هؤلاء الصحابة الذين ساهموا في حلّ الأُمور وعقدها، وقدّموا خدمات للإسلام في صدر حياتهم، و[كان] قُدّر لهم بعد هذا أن يمشوا في خطّ الانحراف وفي خطّ السقيفة، هؤلاء كانوا ينظرون إلى عليّ عليه السلام كالأخ الأكبر: الزبير، صحيحٌ [أنّه] كان يخضع لعليّ بن أبي طالب، لكن [كان] يخضع [له] كالأخ الأكبر، لا يرى أنّ إسلامه

---

(١) كطلحة والزبير اللذين أتيا عليّاً عليه السلام بعد مقتل عثمان فقالا له: «إنّه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة، فأشركنا في أمرك» تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٠.

(٢) ما بين عضادتين ليس واضحاً في المحاضرة الصوتيّة، وهو غير مثبت أساساً في (ف)، وساقطٌ من(غ) و(ش) و(ن)، وقد أثبتناه من (هـ).

(٣) «وقد كنّا وأبوك معنا في حياة من نبيّنا صلى الله عليه وآله نرى حقَّ ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرزاً علينا» وقعة صفّين: ١٢٠؛ مروج الذهب ٣: ١٢؛ شرح نهج البلاغة ٣: ١٩٠.

مستمدٌّ منه، أنّ وجوده في الإسلام مستمدٌّ منه.

هذه الحقيقة الثابتة التي كانت واضحةً على عهد النبيّ طُمست خلال عهد الانحراف، خلال عهد أبي بكر وعمر وعثمان. ولهذا، كان الزبير يعترف بأنّ عليّاً أحسن منه، لكن في نفس الوقت لم يكن يرى نفسه مجرّد آلة، أو مجرّد تابع، أو مجرّد جنديٍّ يجب أن يؤمر فيطيع.

فكان هناك أُناس من هذا القبيل، هؤلاء يريدون أن يشتركوا في التخطيط، يشتركوا في رسم الخطّ، في ظرفٍ هو أدقّ ظرفٍ وأحرجه وأبعده عن عقول هؤلاء القاصرين. هذه من ناحية.

ومن ناحيةٍ أُخرى: كانت توجد هناك الأطماع السياسيّة والأحزاب السياسيّة التي تكوّنت في عهد عمر بن الخطّاب، واستفحلت بعد عمر بن الخطّاب كنتيجة للشورى.

هذه الأحزاب السياسيّة أيضاً كانت تفكّر في أمرها، وتفكّر في مستقبلها، وتفكّر في أنّه كيف تستفيد أكبر قدرٍ ممكنٍ من الفائدة في خضمّ هذا التيّار، وفي خضمّ هذا التناقض.

وهذا بخلاف معاوية؛ [فمعاوية][1] لم يكن قد مني بصحابةٍ أجلاّء يعاصرونه ويقولون له: «نحن صحابة كما أنت صحابي»، بل كلُّ أهل الشام كانوا مسلمين نتيجةً لإسلامه هو وإسلام أخيه، لم يرَ أحدٌ منهم رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يسمع أحدٌ منهم القرآن إلّا عن طريق معاوية وأخي معاوية وبعض الشواذ من الصحابة الذي كان يزور الشام بين حين وحين[2].

إذاً، فكانت حالة الاستسلام الموجودة في مجتمع الشام بالنسبة إلى معاوية لا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى إمام الإسلام (عليه أفضل الصلاة

---

(١) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٢) لا يبدو أنّه قدس سره يقصد شخصاً بعينه، فكأنّه أراد: «الذين كانوا يزورون الشام».

والسلام) في مجتمع المدينة والعراق.

الفارق الرابع: تبنّي عليٍّ عليه السلام قضيّةً في صالح الأضعف، بخلاف معاوية:

ومن ناحيةٍ اُخرى، كان هناك أيضاً فرقٌ آخر بين معاوية وبين أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وحاصل هذا الفرق الآخر هو:

أ ـ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يتبنّى قضيّةً هي في صالح الأضعف من أفراد المجتمع، وكان معاوية يتبنّى قضيّةً هي في صالح الأقوى من أفراد المجتمع.

أمير المؤمنين كان يتبنّى الإسلام بما فيه من قضايا العدالة الاجتماعيّة التي يمثّلها النظام الاقتصادي في الإسلام، وهذه القضايا لم تكن في صالح الأقوى، بل كانت في صالح الأضعف.

ب ـ ومعاوية كان يمثّل الجاهليّة بفوارقها وعنعناتها وطبقاتها، وهذا لم يكن في صالح الأضعف، بل كان في صالح الأقوى؛ ذلك أنّه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حينما دخل العراق والشام وبقيّة البلاد في داخل إطار المجتمع الإسلامي لم يقضِ الخلفاءُ الذين تسلّموا زعامة المسلمين على التنظيم القبائلي الذي كان موجوداً في هذه البلاد، بل بقي التنظيم القبائلي سائداً في هذه البلاد، وبقي زعيم كلِّ قبيلةٍ هو الشخص الذي يرتبط بالسلطان، وهو همزة الوصل بين قبيلته وبين السلطان.

وهذا التنظيم القبائلي بطبيعته يخلق جماعة من زعماء وشيوخ هذه القبائل الذين لم يروّضهم الإسلام في المرتبة السابقة، ولم يعيشوا أيّام النبوّة عيشاً صحيحاً، بل لم يَرَوا النبيَّ على الإطلاق، يجعل من هؤلاء طبقةً معيّنةً ذات مصالح وذات أهواء وذات مشاعر في مقابل قواعدهم الشعبيّة، ويُهيِّئ لهم أسباب النفوذ والاعتبار.

الآن تصوّروا مجتمعاً إسلاميّاً تركه أبو بكر وعمر وعثمان وهو يغصُّ بالتقسيمات القبليّة، ويغصُّ بالتنظيمات القبليّة، بمعنى أنّ كلّ قبيلةٍ كانت تخضع سياسيّاً وإداريّاً لزعامةٍ في تلك القبيلة، وكانت زعامة هذه القبيلة هي همزة الوصل بين هذه القبيلة وبين السلطان.

تصوّروا مجتمعاً من هذا القبيل: أحدُ الأميرين [فيه] يحمل أُطروحةَ أنْ يساوي بين شيخ هذه القبيلة وبين أفراد هذه القبيلة، ويحمل الآخر أُطروحةَ أنْ يرشي رؤساء هذه القبائل بقدر الإمكان! أيُّ الأُطروحتين تكون أقدر بالنسبة إلى هذا المجتمع؟!

طبعاً، الأُطروحة الأُولى هي في صالح الأضعف، الأكثرِ كمّاً، ولكنّه الأضعف كيفاً، والأُطروحة الثانية هي في صالح الأقلّ كمّاً، ولكنّه الأقوى كيفاً.

هذا أيضاً كان عاملاً من عوامل القوّة بالنسبة إلى معاوية.

هذه الظروف الموضوعيّة لم يصنعها الإمام عليه السلام، وإنّما هي صُنعت خلال تاريخ، فوُجد لمعاوية مركزٌ قوي، ووجد للإمام عليه السلام مركزٌ لولا براعته الشخصيّة وكفاءته الشخصيّة ورصيده الروحي الكبير في القطّاعات الشعبيّة الواسعة لَمَا استطاع عليه السلام أن يقوم بما قام به من حروب ثلاثة داخليّة في خلال أربع سنوات.

بدأ الإمام عليه السلام خلافته ودشّن عهده، وبدأ الانقسام مع هذا العهد على يد معاوية بن أبي سفيان، وأخذ الإمام عليه السلام يهيّئ المسلمين للقيام بمسؤوليّاتهم الكبيرة، للقيام بدورهم في تصفية الحسابات السابقة، في تصفيتها على المستوى المالي، على المستوى الاقتصادي، على المستوى الاجتماعي، على المستوى السياسي والإداري أيضاً الذي كان يحتاج إلى الحرب، كان يحتاج إلى الجهاد، كان يحتاج إلى القتال، وأخذ يدعو الناس إلى أن يخرجوا للقتال،

وخرج الناس إلى القتال.

الذهنيّة العامّة وتفسيرها لطبيعة الخلاف بين علي عليه السلام ومعاوية:

إلّا [أنّنا][1] هنا ـ ونحن قد درسنا عليّاً مع معاوية بحسب ظروفهما الموضوعيّة ـ لا بدّ وأن ندرس الذهنيّة العامّة للمسلمين أيضاً، الذهنيّة العامّة للمسلمين كيف كانت؟ وكيف كانت تفسّر هذا الخلاف الموجود بين علي عليه السلام وبين معاوية؟!

١ ـ عدم الشكّ في رساليّة المعركة عند انطلاقتها:

الذهنيّة العامّة للمسلمين ـ باستثناء الشام ـ بدأت الأمر وهي تفسّر هذا الخلاف بين علي عليه السلام ومعاوية بأنّه خلافٌ بين خطّ خلافةٍ راشدةٍ وبين شخصٍ يحاول الخروج على هذه الخلافة الراشدة. كانوا ينظرون إلى عليٍّ ـ بشكل عام ـ [على] أنّه هو الخليفة الراشد الذي يريد أن يحافظ على الإسلام، ويحافظ على خطّ القرآن، وأنّ معاوية بن أبي سفيان يحاول أن يتآمر.

هذا المفهوم استطاع أمير المؤمنين عليه السلام أن [يحققه] بالرغم من كلّ تلك الظروف الموضوعيّة التي قلناها[2]، استطاع أن [يحققه] في ذهن القاعدة الشعبيّة الواسعة في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، عدا القطر الذي كان يرتبط بمعاوية بن أبي سفيان.

وهذه الذهنيّة هي التي كانت تصبغ على المعركة بين عليٍّ ومعاوية طابعَ الرسالة، كانت تعطيه هذه المعركة معنىً رساليّاً، وكانت تفسّر هذه المعركة بأنّها معركة بين اتّجاهين، بين فكرين، بين هدفين، وليست بين شخصين أو بين زعامتين شخصيّتين، إلّا أنّ الأمور تطوّرت بعد هذا.

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «أنّه».

(٢) أي النقاط الأربع التي تقدّم الحديث عنها آنفاً، والتي سيرجع إليها قدس سره في المحاضرة الثانية عشرة.

٢ ـ ظهور الشكّ في رساليّة المعركة عند احتدامها وتناميه:

من الصعب جدّاً أن نقول اليوم بأنّ المسلمين بدؤوا يشكّون شكّاً واسعَ النطاق في أنّ هذه المعركة بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين معاوية بن أبي سفيان كانت معركة رساليّة، من الصعب هذا.

الآن نتصوّر أنّه كيف يمكن للمسلمين أن يشكّوا في أنّ المعركة التي كانت قائمةً بين إمام الورع والتقوى والعدالة وبين الشخص الخائن المنحرف الجاهلي ـ عدوِّ رسول الله وابنِ عدوِّه ـ كانت معركةً رساليّة؟ كيف يمكن أن يُشكّ في أنّها لم تكن معركة رساليّة؟! إلّا أنّي لا أشكّ في أنّ عدداً كبيراً من المسلمين ـ ومتنامياً على مرّ الزمن في عهد خلافة أمير المؤمنين ـ بدأ يشكّ في أنّ هذه المعركة: أهي رساليّة حقيقيّة أو ليست رساليّة.

أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين الإمام عليٍّ عليه السلام ومعاوية:

ولنمسك الآن بأسباب هذا الشكّ:

السبب الأوّل: تضاؤل الطاقة الحراريّة وتبدّد صبابة الوعي:

أوّلاً: يجب أن نعرف أنّ المسلمين الذين نتحدّث عنهم: من هم هؤلاء؟[1]

هم أُولئك الذين عرّفناهم عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، هم أُولئك المسلمون الذين خلّفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وكانوا خير أُمّةٍ أُخرجت للناس[2] على مستوى إيمانهم وطاقتهم الحراريّة واشتعالهم وكهربتهم بشخص النبيّ صلى الله عليه وآله والمبادئ التي طرحها النبيّ، ولكن لم يكن لهم من الوعي العقائدي الراسخ إلّا شيءٌ قليل.

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «... المسلمين من هم هؤلاء الذين نتحدّث عنهم؟».

(٢) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠.

هذا المعنى نحن شرحناه وبرهنّا عليه في ما سبق(١)، وقلنا بأنّ الأُمّة لم تكن على مستوى الوعي، وإنّما كانت على مستوى الطاقة الحراريّة.

إذاً، فنحن سوف لن نتوقّع من هذه الأمّة ـ التي هي على مستوى الطاقة الحراريّة، لا على مستوى الوعي ـ نقاشاً رساليّاً منطقيّاً في حساب هذه المعركة.

كما أنّ هذه الطاقة الحراريّة سوف لن نترقّب فيها أن تبقى مشتعلة، وتبقى على جذوتها وحرارتها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وانطفاءِ الشمس عن هذا المجتمع الإسلامي بعشرين سنة، [أن](٢) تبقى هذه الطاقة الحراريّة، هذا أيضاً ليس منطقيّاً وليس [...](٣).

إذاً، فيجب أن نفكّر في أنّ هذه الطاقة الحراريّة قد تضاءلت إلى درجةٍ كبيرة، وحتّى تلك الصبابة من الوعي، أو تلك البذور من الوعي التي كان رسول الله قد بدأ بها لكي يواصل بعد هذا خلفاؤه المعصومون عمليّة توعية الأُمّة، حتّى تلك البذور قد فُتّتت، وقد أُضعفت، وقد مُنع بعضُها من الإثمار، وبقي بعضها الآخر بذوراً لم تثمر.

إذاً، يجب أن نتصوّر الأُمّة الإسلاميّة بهذا الشكل.

السبب الثاني: نظرة المسلمين إلى معاوية قبل تكشّف أوراقه:

حينما نتصوّر الأُمّة الإسلاميّة بهذا الشكل، من ناحية أُخرى أيضاً يجب أن نتصوّر مفهوم المسلمين عن معاوية: هؤلاء المسلمون ما هو مفهومهم عن معاوية؟

---

(١) خاصّة في المحاضرة الخامسة.

(٢) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٣) في المحاضرة الصوتيّة سعالٌ حال دون استيضاح الكلمة، وهي ليست مثبتة في (ف) و(هـ)، وساقطة من (غ) و(ش) و(ن).

نحن الآن ننظر إلى معاوية بعد أن استكمل حظّه من الدنيا وذهب إلى جهنّم، بعد أن دخل الكوفة وصعد على منبر أمير المؤمنين عليه السلام وقال بلسانه: «إنّي لم أُحاربكم لكي تصوموا وتصلّوا، وإنّما حاربتكم لأتأمّر عليكم»[١]، بعد أن أعلن بكلّ صراحةٍ ووقاحةٍ عن هدفه، وبعد أن طرح بكلّ برود شعارَ الخليفة المظلوم، وشعار الخليفة القتيل.

دخل عليه أولاد عثمان بن عفّان[٢]، قالوا له«: لقد ملكنا هذا الأمر وتمّ الأمر لك يا أمير المؤمنين، فما بالُك لا تقبض على قتلة أبينا؟»، قال: «أَلا يكفيكم أن نكون حكّام المسلمين وسادة المسلمين»[٣]؟!

نحن ننظر إلى معاوية بعد أن ارتكب الفظائع وغيّر الأحكام وأبدع في السنن، ننظر إلى معاوية بعد أن استخلف يزيد بن معاوية على أمر المسلمين، بعد أن قتل عشرات ـ بل مئاتٍ ـ من الأبرار ومن خيار المسلمين وقتئذٍ، نحن ننظر إلى معاوية بعد أن تكشّفت أوراقه.

لكن فلنفترض أنّ شخصاً يريد أن ينظر إلى معاوية قبل أن تتكشّف هذه الأوراق، فلنفترض أُولئك الأشخاص الذين كانوا يعيشون في إطار الأُمّة الإسلاميّة وقتئذٍ قبل أن تتكشّف أوراق معاوية.

معاوية ماذا [كان] من أوراقه [مكشوفاً] وقتئذٍ على مستوى المسلمين

---

(١) «إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا؛ إنّكم لَتفعلون ذلك، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون» مقاتل الطالبيّين: ٧٧؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ١٥؛ البداية والنهاية ٨: ١٣١.

(٢) بل دخل هو دار عثمان عندما قدم المدينة كما نُصّ عليه في المصادر الآتية، وكلّم عائشة بنت عثمان.

(٣) «لأَنْ تكوني بنت عمّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأةً من عرض المسلمين» البيان والتبيين ٣: ٢٠١؛ عيون الأخبار ١: ١٤؛ أنساب الأشراف ٥: ١٢٥؛ العقد الفريد ٥: ١١٣؛ التذكرة الحمدونيّة ٧: ١٧٤. تاريخ مدينة دمشق ٥٩: ١٥٥، وفي الأخير اختلاف.

الذين كانوا يدورون في فلك حكومات السقيفة، ماذا كان من أوراق معاوية مكشوفاً وقتئذٍ؟!

أ ـ معاوية كان شخصاً قد مارس عمله الإداري والسياسي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بأقلّ من سنة[١]. خرج من المدينة، ذهب إلى الشام، ذهب إلى هناك كعاملٍ على مدينةٍ في الشام[٢]، حتّى إذا مات أخوه أُسندت إليه ولاية الشام كلّها، وبقي معاوية هناك[٣].

ب ـ وكان معاوية مدلّلاً محترماً معزّزاً من قبل عمر بن الخطّاب[٤] الذي كان يُنظَرُ إليه بشكل عام في المجتمع الإسلامي بنظرة الاحترام والتقدير، حتّى إنّ عمر بن الخطّاب حينما أراد أن يؤدّب ولاته تعلمون أنّه استثنى معاوية من هذا التأديب[٥]! حينما أراد أن يقاسم ولاته أموالَهم استثنى معاوية من ذلك[٦]!

(١) حيث خرج إلى الشام مع أخيه يزيد عندما سيّره أبو بكر إليها سنة ١٣ هـ (أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤: ٤٣٣).

(٢) تنقّل بين عدّة مدن، منها: قيساريّة والأُردن، فراجع: فتوح البلدان: ١٤٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٦٧.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣: ١٤١٦؛ البداية والنهاية ٨: ١١٨.

(٤) فقد قال فيه عمر: «لِحسن موارده ومصادره جشّمناه ما جشّمناه» البداية والنهاية ٨: ١٢٥. ولمّا ذُمّ عنده قال: «دعونا من ذمّ فتى قريش: من يضحك في الغضب، ولا ينال ما عنده إلّا على الرضا، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلّا من تحت قدميه» الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣: ١٤١٨. ولمّا سأل الزبير عثمان عن استعمال معاوية على الشام؟» قال: «لرأي عمر بن الخطاب فيه» الفتوح ٢: ٣٩٣.

(٥) إذ «كان عمر بن الخطاب إذا بعث عمّاله يشترط عليهم أن: لا تتّخذوا على المجالس التي تجلسون فيها للناس باباً، ولا تركبوا البراذين، ولا تلبسوا الثياب الرقاق، ولا تأكلوا النقي، ولا تغيبوا عن صلاة الجماعة، ولا تطمعوا فيكم السعاة» المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٤: ١٣٧. لكنّه عندما خرج إلى الشام ورأى مُلك معاوية واحتجابه عن الناس وسمع تبريره اكتفى بالقول: «ويحك! ما ناظرتك في أمر أعتب فيه عليك إلّا تركتني منه في أضيق سبلي، حتّى ما أدري آمرك أم أنهاك» أنساب الأشراف ٥: ١٤٧؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٣١؛ تجارب الأمم ٢: ٣١.

(٦) إذ كان عمر يقاسم عمّاله نصف ما أصابوا، وكان معاوية هو الذي حاسب بعضهم (الإصابة في تمييز

معاوية كان والياً معتمداً موثوقاً به، منزّهاً من الناحية الإسلاميّة عند عمر بن الخطّاب[١].

ج ـ وبعد هذا جاء عثمان فوسّع من نطاق ولاية معاوية بن أبي سفيان، وضمّ إليه أيضاً عدّة بلاد أُخرى إضافة إلى الشام[٢]، ولم يطرأ أيّ تغيّر في وضع معاوية بن أبي سفيان.

فمعاوية بن أبي سفيان لم يكن شخصاً مكشوفاً، بل كان شخصاً عنوانه الاجتماعي في الدولة الإسلاميّة أنّه والٍ حريصٌ على كرامة الإسلام، وأنّه هو الشخص الذي استطاع أن يدخل إلى قلب الخليفة الخشن الفظّ الغليظ الذي كان يحاسب وكان يعاقب[٣]، كان يضرب ابنه بحدّ الخمر حتّى يموت[٤]، هذا

الصحابة ٤: ٢٧٩)، وروي أنّه «أوصى بنصف ماله أن يردّ إلى بيت المال، كأنّه أراد أن يطيب له الباقي؛ لأنّ عمر قاسم عمّاله» أنساب الأشراف ٥: ٢٨؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٢٧، فيُفهم منه أنّه كان مستثنى.

(١) ظاهر كلامه عليه السلام أنّه قصد هنا النزاهة الدينيّة، ولكن ربما قَصَد كونَه معتمداً عنده في إدارة شؤون الشام فحسب، وهو ما يظهر من جوابه عليه السلام عن المداخلة في الهوامش الآتية. ويكفي للدلالة على شكّ عمر فيه قولُه له بعد أن برّر له عظمة موكبه وسلطانه: «إنّ هذا لكيدُ لبيب أو خدعة أريب»، فراجع: المحاضرة العاشرة، تحت عنوان: النقطة السادسة.

(٢) «مات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمر مكانه أخاه معاوية، فاجتمعت لمعاوية الأردن ودمشق.. وضمّ عثمان حمص وقنّسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن علقمة وكان على فلسطين، فضمّ عثمان عمله إلى معاوية؛ فاجتمع الشام لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان» الكامل في التاريخ ٣: ١١٧.

(٣) حتّى قال طلحة لأبي بكر: «ما أنت قائل لربّك غداً وقد ولّيت علينا فظّاً غليظاً، تفرق منه النفوس وتنفضّ عنه القلوب» شرح نهج البلاغة ١: ١٦٤، بل إنّ معاوية نفسه كان «أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه» على ما جاء في الإمام علي عليه السلام لعثمان، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٣٨؛ تجارب الأمم ١: ٤٣٤؛ البداية والنهاية ٧: ١٦٩.»

(٤) وهو ابنه عبيد الله بن عمر، فراجع: المنمّق في أخبار قريش: ٣٩٥؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٥٩٧؛ العقد الفريد ٨: ٦٢؛ الكامل في التاريخ ٢: ٤٨٩؛ نهاية الأرب في فنون الأدب ٤: ٩٠؛ البداية والنهاية ٧: ٤٨. وأشار إلى ذلك ابن شاذان في: الإيضاح: ٢٧٣.

الخليفة لم يحدّ معاوية، ولم يظلم معاوية، ولم يعاتب معاوية بن أبي سفيان. هذا هو المنظور إليه، هذا هو المفهوم الذي كان...[١]

معاوية بن أبي سفيان كان نتيجةً لهذه الترويجات من الحكّام المنحرفين، الذين كانوا مقدَّرين ـ بالرغم من كونهم منحرفين ـ من [قِبَل] أفراد الأُمّة الإسلاميّة، كان يتمتّع بسمعة طيّبة وبمفهوم طيّب.

د ـ هنا دخل لأوّل مرّة الصراع، دخل الصراعَ بشعار، هذا الشعار الذي حمله معاوية بن أبي سفيان كان يبدو ـ على مستوى البسطاء والسذّج من الناس وكثير من المغفّلين ـ شعاراً له وجهة شرعيّة.

كان يقول بأنّ عثمان قُتل مظلوماً[٢]، بأنّه لم يقتُل أحداً؛ إذ في القرآن لا يوجد هناك نصٌّ صريحٌ بأنّ الخليفة إذا استهتر بكرامة المسلمين وخان الإسلام واستهان بالمسلمين، هذا يستحقُّ أن يُقتل. مثل هذا النصّ الصريح غير موجود في القرآن، وإنّما النصُّ الصريح الموجود في القرآن أنّ من قتل مؤمناً فجزاؤه أن يُقتل[٣].

---

(١) هنا مداخلة غير واضحة وغير مفهومة من أحد الحاضرين تقطع عبارة الشهيد الصدر رحمه الله، ولكن جاء في جوابه رحمه الله: «على أيّ حال هذا خارجٌ عن محلّ الكلام فعلاً. على أيّ حال إجمالاً: لا شكَّ في أنّ عمر بن الخطّاب لم يكن عن حسن نيّة استثنى معاوية بن أبي سفيان، لكن هل إنّ استثناءه كان على أساس أنّه خُدع به، أو أنّه ادّخره لمعارضة خطٍّ، كما يظهر من كلمةٍ له في الشورى مع عثمان حينما تنبّأ ـ إذا صحّت هذه الرواية ـ بأنّه سوف تختلفون، يأتي فلان رحب البلعوم ويسيطر على الموقف. على أيّ حال» (اهـ).

أقول: حديث (رحب البلعوم) منقولٌ عن أمير المؤمنين عليه السلام تارةً، وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أُخرى، فراجع مثلاً: نهج البلاغة: ٩٢، الخطبة ٥٧؛ مقاتل الطالبيّين: ٧٦. ولكن ورد عن عمر قوله: «يا أصحاب محمّد! تناصحوا؛ فإنّكم [إن] لم تفعلوا ذلك غلبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان» تاريخ مدينة دمشق ٤٦: ١٧٥.

(٢) على ما أشار إليه رحمه الله في المحاضرة العاشرة وفي هذه المحاضرة، فراجع: وقعة صفّين: ٣٢، ٨٥، ١٢٧؛ أخبار الدولة العبّاسيّة: ٤٦؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٥٦٢.

(٣) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا

وعثمان، بالرغم من أنّه خان الأمانة، وبالرغم من أنّه استهتر بالإسلام، وبالرغم من أنّه صيّر الدولة الإسلامية دولةَ عشيرةٍ وقبيلة(١)، بالرغم من أنّه ارتكب هذه الجرائم التي أدنى عقابِها القتلُ، بالرغم من هذا، معاوية بن أبي سفيان يقول: هل هناك آية تقول بأنّ عثمان يستحقّ القتل، كثيرٌ من المغفّلين والهمج الرعاع أيضاً يقولون [إنّه لا يستحقّ القتل](٢)، إذاً [فقد] قتل مظلوماً، فلا بدّ إذاً من القصاص من قاتله.

فيا علي بن أبي طالب! أأنت قادرٌ على أن تعطي القاتل لي ولابن عمّي حتّى نقتله أو لا؟!

إن كنت قادراً فاعطِه؛ تطبيقاً لأحكام الإسلام. وإن كنت عاجزاً، إذاً فأنت عاجزٌ عن تطبيق أحكام الإسلام، فلا يجوز لك أن تتولّى حكومة الإسلام؛ لأنّ الخليفة يُشترط فيه القدرة على تطبيق أحكام الإسلام(٣).

هذا هو الشعار اللئيم الخبيث الذي أعلنه معاوية بن أبي سفيان.

عَظِيمًا﴾ النساء: ٩٣.

(١) على ما بحثه في المحاضرة العاشرة، تحت عنوان: ثامناً: عدم وجود يأس من إنجاح عمليّة التغيير بدون مساومة، وراجع: تاريخ اليعقوبي ٢: ١٦٨، وكذلك: الطبقات الكبرى ٥: ٢٣؛ أنساب الأشراف ٥: ٤٣٣؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٢٣؛ الكامل في التاريخ ٣: ١٣٩.

(٢) هذا المقدار غير واضح في المحاضرة الصوتيّة، وهو غير مثبت في (غ) و(ف)، وهو ساقطٌ من (ش) و(ن)، وقد أضفناه على ضوء (هـ).

(٣) قال معاوية: «أطلب بدم عثمان.. من علي..؛ هو قتله وآوى قاتليه.. إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ.. إن كان صادقاً فليمكنّا من قتلة عثمان؛ فإنّهم في عسكره وجنده وأصحابه وعضده» وقعة صفّين: ١٨٩. ومن كتاب له إليه عليه السلام: «..وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفّان ظنَيناً: إيواؤك قتلته؛ فهم عضدك ويدك وأنصارك، وقد بلغني أنّك تتنصّل من دم عثمان وتتبرأ منه: فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته (كي) تقتلهم به، ثمّ نحن أسرع الناس إليك، وإلّا فليس بيننا وبينك إلّا السيف» أنساب الأشراف ٢: ٢٧٨؛ الأخبار الطوال: ١٦٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٧. وقد كتب عليه السلام إليه: «ولعمري يا معاوية! لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان» نهج البلاغة: ٣٦٧، الكتاب ٦؛ وقعة صفّين: ٢٩؛ الإمامة والسياسة ١: ١١٤.

وأمير المؤمنين عليه السلام في مقابل هذا الشعار لم يكن أيضاً يريد أن يصرّح بكلّ وضوح بأنّ عثمان كان جديراً بأن يقتل، كان يجب أن يقتل(١)؛ لأنّه لو صرّح بهذا إذاً لتعمّق اتّهام معاوية بن أبي سفيان له بأنّه هو القاتل، لطوّر التهمة من أنّه: «أعطني قتلة عثمان» إلى «أنّك أنت قتلت عثمان».

عليُّ بن أبي طالب عليه السلام لم يكن يريد أن يصرّح على المكشوف وبالحرف الواحد أنّ عثمان بن عفّان كان يستحقّ أن يُقتل، فبقي هذا الشعار الذي قذفه معاوية وأطلقه شعاراً مضلّلاً إلى حدٍّ كبير. هذا من ناحية.

السبب الثالث: ميل المسلمين النفسي نحو شخصنة المعركة تبريراً لتنصّلهم:

من ناحيةٍ أُخرى: أيضاً لا بدّ وأن نلاحظ الجهود والأتعاب والتضحيات التي قام بها المسلمون في كنف الإمام علي عليه السلام.

لا أدري، هل جَرَّب أحدكم أو لم يُجرّب هذا الإيحاء النفسي حينما تكون المهمّة صعبةً على الإنسان [و]ثقيلةً على الإنسان، توسوس له نفسه بالتشكيك في صحّة هذه المهمّة بمختلف التشكيكات، يوسوس في صحّة هذه المهمّة: من قال هكذا؟!

حينما يكون من الصعب عليه أن يأمر بالمعروف، حينما يكون من الصعب عليه كلمةُ حقٍّ أمام رجلٍ مبطل، حينئذٍ يأخذ بالوسوسة: من قال بأنّ هذا الرجل مبطل؟ من قال [بأنّي] أنا قادر على أن أقول له هذا الكلام؟ من قال بأنّ شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تامّة؟! يوسوس في هذا لأجل أن يستريح من هذه المهمّة، لأجل أن يلقي عن ظهره هذا العبء الكبير.

كلّ إنسانٍ يميل بطبيعته إلى الدعة، إلى الكسل، إلى الراحة، إلى

---

(١) عندما طالب رُسُلُ معاوية عليّاً عليه السلام أن يشهد بأنّ عثمان قتل مظلوماً أجابهم: «لا أقول إنّه قتل مظلوماً، ولا إنّه قتل ظالماً» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٨. ولكنّ عمّار بن ياسر قال: «والله! إن كان إلّا ظالماً لنفسه، الحاكمَ بغير ما أنزل الله» وقعة صفّين: ٣٢٦.

الاستقرار، فإذا وضعت أمامه المهام الكبيرة، حينئذٍ إذا وجد مجالاً للشكّ في صحّة هذه المهام فسوف يكون عنده دافعٌ نفسيٌّ مسبقٌ إلى أن يشكّ، يشكّ لأجل أنّه يريد أن يشكّ، ويشكّ لأجل أنّ من مصلحته أن يشكّ.

وهذا كان موجوداً على عهد الإمام عليه السلام.

العراقيّون قدّموا من التضحيات الشيءَ الكثير، بذلوا أموالهم ونفوسهم ودماءهم في حروب ثلاثة، بذلوا هذه الدماء، وبذلوا هذه الأموال، وبذلوا هذه النفوس.. آلافٌ من العراقيين ماتوا وقتلوا، عشرات الآلاف من الأطفال أُيتموا، آلاف من النساء أصبحن أرامل، آلاف من البيوت والعوائل تهدّمت، كثيرٌ من المدن والقرى غارت عليها جيوش معاوية فنسفتها وحطّمتها، كثيرٌ من هذه المآسي والويلات، كثيرٌ من ألوان الدمار والخراب حلَّ بهؤلاء المسلمين، نتيجةً لماذا؟ ولأجل ماذا؟!

لأجل أن يزداد مالهم؟ لا؛ فإنّ أهل الشام لم يسرقوا منهم شيئاً.

لأجل أن يزداد جاههم؟ لا؛ فإنّهم لا يشعرون بأنّ أهل الشام سرقوا من جاههم شيئاً.

وإنّما لحساب الرسالة، لحساب الخطّ، لحساب المجتمع الإسلامي وتوحيد كلمة المسلمين، لهذا الحساب، لأجل هذا الهدف الكبير. وهذا هدف كبير، هو أعزُّ من كلّ النفوس، وأعزُّ من كلّ الدماء، وأعزُّ من كلّ الأموال.

لكن نحن يجب أن نقدّر موقف هؤلاء، هؤلاء ضحّوا وبذلوا وقدّموا، ثمّ أصبحوا يشكّكون لأنّ من مصلحتهم أن يشكّكوا، وأصبح أمير المؤمنين عليه السلام يحاول أن يدفعهم فلا يندفعون، ويحرّكهم فلا يتحرّكون[1]، لماذا؟! لأنّ من مصلحتهم أن يتصوّروا المعركة بتصوّرٍ جديد، أن يعطوا للمعركة مفهوماً جديداً،

---

(١) قال عليه السلام: «كلّما أطلّ عليكم مَنسِرٌ من مناسر أهل الشام أغلق كلُّ رجل منكم بابه، وانجحر انجحار الضبّة في جحرها، والضبع في وِجارها، الذليلُ» نهج البلاغة: ٩٠، الخطبة ٦٩.

وهو أنّ القصّة قصّة زعامة علي ومعاوية: ما بالنا وعليٌّ ومعاوية، إمّا هذا يكون زعيماً وإمّا ذاك يكون زعيماً، نحن نقف على التلّ ونتفرّج، فإمّا أن يتمّ الأمر لهذا وإمّا أن يتمَّ الأمر لذاك.

هذا التفسير بدت بداياته في ذهن الناس، وهذا التفسير الذي أوحت به مصلحةُ هؤلاء إلى هؤلاء هو الذي كان يشكّل عقبةً كؤوداً دون أن يتحرّك هؤلاء من جديد إلى خطّ الجهاد.

هذا التفسير هو الذي جعل أمير المؤمنين عليه السلام يبكي وهو على المنبر وينعى أصحابه الذين ذهبوا، أُولئك الذين لم يشكّوا فيه لحظة، أُولئك الذين آمنوا به إلى آخر لحظة، أُولئك الذين كانوا ينظرون إليه كامتدادٍ لرسول الله صلى الله عليه وآله، كان يبكي [عمّاراً] وأمثال عمّار[١].

هذا عمّار الذي وقف بين الصفّين، ووضع سيفه على بطنه، وقال: «والله أنت تعلم لو كان رضاك في أن أُغمد سيفي هذا في بطني حتّى أُخرجه من ظهري لفعلت. والله! إنّك تعلم أنّي لا أعلم لك رضاً إلّا في قتال هؤلاء المارقين المنحرفين»[٢].

كان يبكي أمثال عمّار؛ لأنّ [عمّاراً] وأمثال عمّار كانوا قد ارتفعوا [عن] مستوى هذه الشكوك، كانوا قد طلّقوا مصالحهم الشخصيّة في سبيل مصلحة

---

(١) لعلّه عليه السلام قصد من بكائه عليه السلام من على المنبر بكاءه عليه السلام مالكاً الأشتر، الذي نعاه من على المنبر مشيراً إلى شدّة يقينه وعدم شكّه بقوله: «لو كان حجراً لكان صلداً، ولو كان جبلاً لكان فنداً» الاختصاص: ٨١. وانظر حول بكاء عليٍّ عليه السلام عمّاراً يوم صفّين: كفاية الأثر: ١٢٢.

(٢) قال عمّار: «اللهمّ إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت. اللهمّ إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك أن أضع ظُبَة سيفي في بطني ثمّ أنحني عليها حتّى يخرج من ظهري لفعلت. اللهمّ وإنّي أعلم ممّا أعلمتني أنّي لا أعمل اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً أرضى لك منه لفعلته» وقعة صفّين: ٣٢٠؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨؛ الفتوح ٣: ١٥٨.

الرسالة، كانوا قد غضّوا النظر عن كلّ الاعتبارات الخاصّة في سبيل حماية كيان الإسلام، وفي سبيل إعادة مجد المجتمع الإسلامي ووحدة المجتمع الإسلامي، أين أُولئك؟!

كان إذا التفت يمنةً أو يسرةً لا يجد إلّا شخصاً يفكّر في أبٍ له قتيل، أو في ابنٍ له ـ طفلٍ صغير ـ كيف يتركه؟ أو في زوجة كيف يرمّلها؟

أصبح هؤلاء الذين كانوا يفكّرون في الهموم الكبيرة، أصبحوا يفكّرون في الهموم الصغيرة، أصبحوا يفكّرون في قضاياهم.

الأُمّة وقائدها شريكان في الامتحان العصيب:

يجب أن لا نعتب عليهم، فنحن أسوأ منهم؛ لأنّنا لم نرتفع لحظةً هكذا ثمّ نهبط، هؤلاء ارتفعوا لحظةً ثمّ هبطوا، هؤلاء خرجوا من بلادهم وطلّقوا نساءهم وأطفالهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وفي سبيل قضيّةٍ لا تدرّ عليهم ربحاً ماديّاً على الإطلاق، هؤلاء فعلوا هذا ساعةً من الزمان ثمّ أدركهم الشيطان.

أمّا نحن، لا ندري إذا وقفنا مثل هذا الموقف: هل نفعل ولو ساعة؟! هل نطير ولو لحظة؟! أو أنّنا سوف نبقى في الحضيض؟!

على أيّ حالٍ هؤلاء كانوا [بشراً]، لم يكونوا كعمّار بن ياسر، هؤلاء بدأ الشكّ يتسرّب إلى نفوسهم[١]، بدؤوا يشكّون في هذا الإمام الصالح حتّى تمنّى الموت[٢]؛ لأنّه أصبح يحسّ أنّه انقطعت صلته الروحيّة بهؤلاء، أنّه أصبح

---

(١) وقد قال عثمان بن حنيف في قضيّة التحكيم: «إنّا والله ما عدلنا الحيّ بالحي، ولا القتيل بالقتيل، ولا الشامي بالعراقي، ولا معاوية بعليّ، وإنّه لأمرٌ منعُه غير نافع، وإعطاؤه غير ضائر، وقد كلّت البصائر التي كنّا نقاتل بها، وقد حمل الشكَّ اليقين الذي كنّا نؤول إليه، وذهب الحياء الذي كنّا نماري به»، وقال صعصع بن صوحان: «قد كلّت البصائر وذهب الصبر» الإمامة والسياسة ١٤٠ ـ ١٤٢، وقال الأشعث بن قيس: «وكلّت البصائر» مروج الذهب ٢: ٣٩٠.

(٢) الظاهر ـ بقرينة ما يأتي منه رحمه الله في المحاضرة الثانية عشرة، تحت عنوان: المقارنة بين عصرنا وبين عصر سيّد الشهداء عليه السلام ـ أنّه يقصد قول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الجهاد: «فلو أنّ امرءاً مسلماً

منفصلاً عن هؤلاء، أنّهم أصبحوا لا يفهمونه، ولا يفهمون أهدافه، ولا يفهمون رسالته.

ومن أمرّ ما يمكن ـ أصعب ما يُمكن ـ أن يقاسيه زعيمٌ أو قائدٌ صاحبُ منهج وحياة: أن يعيش في جماعة لا تتفاعل معه فكريّاً، ولا تعيش مع أهدافه، ولا تعيش مع خطّه، مع [أُناسٍ][1] يبذل كلّ ما لديه في سبيلهم، ثمّ هم لا يحسّون بأنّ هذا كلّه في سبيلهم، وإنّما يشكّون فيه، يشكّون في نيّته، يشكّون في دوافعه، هذا كان هو الامتحان العسير الذي قاساه (عليه أفضل الصلاة والسلام).

لكنّه بالرغم من هذا الامتحان العسير لم تضعف قوّته، لم تهن عزيمته، بقي إلى آخر لحظةٍ يحاول أن يبثّ من روحه الكبيرة في هذا المجتمع المتفتّت الذي بدأ يشكّ، والذي بدأ يتوقّف. كان يحاول أن يبثّ في هذا المجتمع من روحه الكبيرة، إلى أن خرّ شهيداً صريعاً في المسجد، في مسجد الكوفة، عليه أفضل الصلاة والسلام.

***

مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً» نهج البلاغة: ٦٩، الخطبة ٢٧.

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «مع إنسانٍ»، ومراده ﷺ ما أثبتناه.

٤

١٢

لماذا كان معاوية
أقدر على الاستمرار بخطّه ؟ (٢)

مع إطلالة على مرحلة الإمام الحسن عليه السلام
ومرحلة الإمام الحسين عليه السلام

أُلقيت (على الأرجح) في رحاب ٢٥ محرّم الحرام / ١٣٨٨ هـ

في ظلال الإمام عليٍّ بن الحسين عليه السلام

هذه الساعة نعيشها في ظلال الإمام زين العابدين عليه السلام، آخرِ أئمّة المرحلة الأُولى من المراحل الثلاث التي أشرنا إليها في حياة الأئمّة عليهم السلام [1]، نعيشها في ظلال هذا الإمام الممتحن الذي عانى أقسى فترةٍ من الفترات التي مرّت على قادة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّه عاصر بداية قمّة الانحراف.

هذا الانحراف الذي بدأ عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرةً ـ وقد تحدّثنا عنه في الأيّام السابقة [2] ـ بدأ يتكشّف بشكلٍ صريحٍ واضحٍ سافر، لا على مستوى المضمون فحسب، بل على مستوى الشعارات، وعلى مستوى الكلمات المطروحة من قبل الحكّام في العمل والتنفيذ. فكان الحكم نظريّاً وعمليّاً قد بدأت تتكشّف حقيقته.

الإمام السجّاد عليه السلام ولد قبل وفاة أمير المؤمنين عليه السلام بثلاث سنين [3]، يعني: ولد وأميرُ المؤمنين في خطّ الجهاد في حرب الجمل، أو على أبواب خطّ الجهاد في حرب الجمل. وعاش طفولته مع أمير المؤمنين عليه السلام في محنته،

---

(١) راجع: المحاضرة الرابعة، تحت عنوان: مراحل تاريخ أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وراجع: مطلع المحاضرتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين.

(٢) راجع بنحو خاص المحاضرات: الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة.

(٣) «كان مولدُ عليّ بن الحسين عليه السلام بالمدينة سنة ثمان وثلاثين من الهجرة، فبقي مع جدّه أمير المؤمنين عليه السلام سنتين» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٣٧.

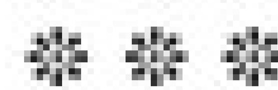
ثمّ عاش مع عمّه الحسن عليه السلام في محنته، ثمّ عاش مع أبيه الحسين عليه السلام في محنته، ثمّ استقلّ بالمحنة، حتّى رأى جيوش الخطّ المنحرف تدخل إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فتربط خيلها بأُسطوانات المسجد(١).

هو يحدّث عليه السلام بأنّه كان يدخل إلى مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله(٢)، هذا المسجد الذي كان من المفروض أن يكون منطلقاً للرسالة في أفكارها ومفاهيمها ونورها إلى العالم كلّه، هذا المسجد قاسى على عهد الإمام زين العابدين عليه السلام هذا المستوى من الذلّ والهوان، وجيش الانحراف ـ جيش بني أُميّة ـ يأتي إلى المدينة ويعلن إباحتها، يهتك كلَّ حرمات النبي صلى الله عليه وآله في المدينة، ويدخل إلى مسجد النبي صلى الله عليه وآله ويربط خيله بأُسطوانات المسجد.

الإمام السجّاد عليه السلام عاش هذه المحنة، [من] محنة الجمل إلى حين دخول جيوش الانحراف إلى المسجد واستهتارها بحرمات النبيّ صلى الله عليه وآله على هذا المستوى.

يمكن أن نعتبر أنّ الفترة التي عاشها الإمام السجّاد عليه السلام هي أقسى فترةٍ مرّت على إمام؛ لأنّها بدايةُ تكشّفِ قمّة الانحراف.

صحيحٌ أنّ هذه القمّة لم تنحسر بعده وإنّما بقيت، ولكنّ البداية كانت على عهده، هو عاصر البداية، وبهذا كنّا نعتبر الإمام السجّاد عليه السلام ممتحناً أكثر من سائر الأئمّة عليهم السلام.



(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ٤: ١٤٣؛ بحار الأنوار ٤٦: ١٣١، الحديث ٢١. وكان ذلك في وقعة الحرّة المعروفة سنة ٦٣ هـ؛ حيث «وجّه يزيد مسلم بن عقبة المري في جيش عظيم لقتال ابن الزبير، فسار بهم حتّى نزل المدينة، فقاتل أهلها وهزمهم، وأباحها ثلاثة أيّام؛ فهي وقعة الحرّة» المعارف: ٣٥١؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٠؛ معجم البلدان ٢: ٢٤٩؛ الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة: ١١٦.

(٢) يقول الراوي في (مناقب آل أبي طالب): «فيتكلّم علي بن الحسين عليه السلام بكلام لم أقف عليه».

عودٌ على بدء
لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه ؟

في ظلال هذا الإمام الذي سوف نتحدّث عنه مفصّلاً ـ عن وضعه وحياته، وعن تفاصيله[١] ـ نعود إلى تسلسل حديثنا السابق؛ حيث إنّا كنّا بدأنا بعرض حياة الأئمّة عليهم السلام بتسلسلٍ، وهذا التسلسل بدأناه من حين وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وانتهينا إلى حين وصول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الخلافة وتسلّمه زمام المسؤوليّة في المجتمع الإسلامي. فنعود إلى ما كنّا فيه؛ حفاظاً على تسلسل الحديث.

طبيعة الموقفين وصراع الأُطروحتين:

أتذكّر أنّي قلت في ما سبق[٢]: إنّ الإمام عليه السلام كان يوجد منذ البدء في طبيعة موقفه وطبيعة موقف معاوية ـ الذي كان يمثّل خطّ الانحراف ـ ما يفرض ـ أو يحرّك ـ النتيجة التي انتهى إليها الصراعُ بين الإمام عليه السلام ومعاوية.

هناك عدّة نقاطٍ لا بدّ من الالتفات إليها تفصيلاً، سأُوجزها إجمالاً؛ لأنّني شرحتها في ما سبق[٣]:

---

(١) وللأسف الشديد، لم يصلنا شيءٌ ممّا ألقاه قدس سره حول الإمام السجّاد عليه السلام إن كان قد وفّق إلى ذلك.

(٢) في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الفوارق الموضوعيّة بين وضع الإمام عليٍّ عليه السلام ووضع معاوية.

(٣) ظاهر كلامه قدس سره أنّه بصدد إعادة ما تقدّم في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الفوارق الموضوعيّة بين وضع الإمام عليٍّ عليه السلام ووضع معاوية. وإذا كان ما بحثه قدس سره في هذه المحاضرة تحت عنوان: النقطة الأُولى يُطابق ما بحثه في المحاضرة السابقة تحت عنوان: الفارق الثاني، فقد تعرّض قدس سره للنقاط الأُخرى من زوايا تختلف جزئيّاً عن الزوايا التي انطلق منها في المحاضرة السابقة، فلاحظ.

النقطة الأُولى: اختلاف الموقفين على مستوى الغزو والدفاع:

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كانت عمليّته على مستوى الغزو، وكانت عمليّة معاوية على مستوى الدفاع:

أ ـ كان أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن تسلّم زمام الحكم في الدولة الإسلاميّة يرى نفسه مسؤولاً عن تصفية الانحراف وهذا الانشقاق غير الشرعي الذي أوجده خطّ بني أُميّة والموالين لبني أُميّة في جسم الأُمّة الإسلاميّة، وكان يرى أنّ من همّه ومن واجب الأُمّة الإسلاميّة القضاءَ على هذا الانشقاق.

وهو حينما ركّز عاصمته وقاعدته الشعبيّة في العراق كان مطلبه السياسي الذي يريد أن يبني هذه القاعدة الشعبيّة لتحقيقه ولبذل الجهد والتضحية في سبيله هو تصفية هذه التجزئة السياسيّة غير المشروعة في جسم الأُمّة الإسلاميّة. وكان معنى هذه التصفية أن يبدأ أميرُ المؤمنين عليه السلام معاويةَ بالهجوم والغزو، يعني ذلك: أن ينقل قاعدته الشعبيّة، ويكلّفها بأن تقوم وتتحرّك، وتخرج من بلادها مهاجرةً في سبيل الله تعالى لكي تقضي على زمرة الانحراف التي قدّر لها أن تتمركز في ثغرٍ من ثغور المسلمين، وهو الشام.

كان يعلم بأنّ العراقيّين لم يكونوا موتورين من الشاميّين بما هم شاميّون، ولم تكن مصالحهم الخاصّة قد تعطّلت عن طريق انفصال الشام عن جسم الدولة الإسلاميّة، وإنّما كان هناك اعتبارُ الرسالة، اعتبار الإسلام الذي يستصرخهم ويناديهم ليقوموا بتصفية هذا الانشقاق والقضاء على هذه التجزئة.

فهم يجب أن يكونوا مدفوعين في هذه المعركة بدافعٍ رساليٍّ كبير، ويجب أن يصلوا إلى مستوىً عظيمٍ من فهم القضيّة وإدراكٍ أبعادها وتبيّن مضمونها؛ حتّى يكونوا على مستوى العطاء لها، عطاء النفوس والأرواح

والأموال والأولاد(١).

ب ـ بينما معاوية لم يكن همّه على مستوى الغزو، ولم يكن موقفه يتطلّب منه أن يغزو، وإنّما كان موقفه يتطلّب منه أن يمسك الشام، كان يتطلّب منه أن يحاول فصل الشام عن باقي أجزاء الوطن الإسلامي الكبير(٢).

وفرقٌ كبيرٌ بين قائدٍ يأمر جيشه بأن يتحرّك من بلاده ليخوض معركةً لا يوجد أيُّ اعتبارٍ لخوضها سوى اعتبار الرسالة فقط، بينما هذا المستوى من العطاء لم يكن هو أُطروحة معاوية لجيشه.

معاوية لم يكن يقول لجيشه: تعالوا نحتلّ العراق، تعالوا لنغزو باقي أرجاء الوطن الإسلامي، وإنّما كان يمنّيهم بالسيادة والاستقلال، وفي النهاية وعلى الخطّ الطويل بزعامة الوطن الإسلامي والعالم الإسلامي(٣).

والأشخاص الذين كانوا يدورون في فلك الإمام عليه السلام كان فيهم عددٌ كبيرٌ من الواعين وأنصاف الواعين، والحارّين وأنصاف الحارّين، على المصطلحات التي وضعناها في ما سبق(٤). وهذه الكتلة الكبيرة من الواعين وأنصاف الواعين، والحارّين وأنصاف الحارّين استجابت لمطالب الرسالة منذ اللحظة الأُولى، استجابت للإمام عليه السلام، وشعرت بأنّ من واجبها الإسلامي أن تصفّي هذه التجزئة، وأعطت هذه الكتلةُ من التضحيات ما أعطت، وخاضت عدّة معارك ضارية.

---

(١) ورد المقطعان الأخيران بعد قوله قدس سره قريباً: «اعتبار الرسالة فقط»، وقد قدّمناهما لكونهما كلاماً اعتراضيّاً استدراكاً على كلامه السابق.

(٢) تقدّم توثيق ذلك في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الفوارق الموضوعيّة بين وضع الإمام عليٍّ عليه السلام ووضع معاوية، الفارق الثاني: اختلاف الموقفين على مستوى الغزو والدفاع، فراجع: وقعة صفّين: ٤١٤، ٤٧٠، ٤٧١.

(٣) كذا في (غ) و(ج)، وفي (م): «وعلى الخطّ الطويل يجعل زعامة الوطن الإسلامي في الشام».

(٤) يقصد قدس سره مصطلحي: «الوعي» و«الطاقة الحراريّة» اللذين أسّس لهما في المحاضرة الخامسة.

هؤلاء أعطَوا للقضيّة التي طرحها أمير المؤمنين عليه السلام عطاءً لا يستهان به، ولكنّ هذا العطاء كان ولا بدّ أن يتناقص بالتدريج وفقاً لمستوى وعي هؤلاء، على ما سوف أشرح في نهاية الحديث[١].

إذاً، فهنا لم تكن الأُطروحتان متكافئتين من حيث درجة الجهد، من حيث درجة الطلب، من حيث درجة الدفع والتحريك: أُطروحة تريد منك أن تخرج من بيتك مهاجراً تغزو في سبيل الله، وأُخرى تريد منك أن تبقى في بيتك، وأن تحافظ على استقلال بيتك في بيتك.

هذا الفرق الكبير بين الدرجتين لهاتين الأُطروحتين ـ بين درجة الجهد التي تفرضها هذه الأُطروحة ودرجة الجهد التي تفرضها الأُطروحة الأُخرى ـ كان له دورٌ كبيرٌ في طبيعة الموقف الذي سوف نتحدّث عنه في نهاية هذا الحديث[٢].

النقطة الثانية: عليٌّ عليه السلام يواجه إفرازات السقيفة ومعاوية يكرّس جاهليّة الشام:

أ ـ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كما كان بصدد تصفية التجزئة السياسيّة المنحرفة التي وقعت في العالم الإسلامي وقتئذٍ، كان أيضاً يواجه انحرافاً في داخل المجتمع الإسلامي الذي حكمه نتيجةً للظروف السياسيّة التي صبغته. وكان لا بدّ له أن يخوض معركةً ضدّ هذا الانحراف الذي كان يعيشه المجتمع العراقي والحجازي والمجتمع الإسلامي بشكلٍ عام؛ فعليٌّ عليه السلام كان يواجه معركتين:

١ ـ معركةً ضدّ التجزئة السياسيّة في جسم الأُمّة الإسلاميّة.

٢ ـ ومعركةً أُخرى ضدّ الانحراف الداخلي في المجتمع الإسلامي،

---

(١) راجع في هذه المحاضرة: النقطة الرابعة: الاختلاف بين الدعويين على مستوى الوعي والحس. كما راجع تحت عنوان: سريان الشكّ وتعمّقه في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام.

(٢) تحت عنوان: سريان الشكّ وتعمّقه في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام.

والذي كان يتمثّل في بقايا سياسة الخلفاء الذين سبقوه، كان يتمثّل في التمييز غير الشرعي وغير الإسلامي، وفي أفكار وعواطف كثيرة غير إسلاميّة، وفي الاستئثار بالأموال وإقامة الثروات على أساس غير مشروع، ويتمثّل في إسناد الولايات ومراكز النفوذ إلى أُناسٍ لا ينسجمون مع خطّ الرسالة.

كان لا بدّ له عليه السلام أن يصفّي كلَّ هذا، كان لا بدّ له أن يقلّم أظافر المنحرفين، وأن يسترجع الأموال من الخائنين، وأن يحارب الأفكار والمفاهيم المنحرفة وغير المتّفقة مع خطّ الإسلام.

وهذه المعركة كبيرة في داخل مجتمعه، كان لا بدّ له أن يخوضها إلى جانب معركته الخارجيّة.

ب ـ وهذا على عكس معاوية بن أبي سفيان، الذي لم يكن يعيش معركةً في داخل مجتمعه؛ لأنّ الشام بالرغم من أنّها داخلةٌ في المجتمع الإسلامي والدولة الإسلاميّة بالفتح العسكري، فإنّه لم يدخل الإسلام إلى الشام دخولاً كبيراً، بل دخل الإسلام بشعاراته الأوّليّة فقط.

لم يدخل الإسلام بمضمونه الحقيقي إلى قلوب أهل الشام؛ فأهل الشام كانوا لا يزالون يعيشون الرواسب الجاهليّة بدرجةٍ كبيرة؛ حيث إنّهم كانوا يتأطّرون[1] بالأفكار التي آمنوا بها قبل الإسلام.

وكذلك لم تكن أوضاعهم الاجتماعيّة والفكريّة والسياسيّة تختلف بدرجةٍ كبيرةٍ عمّا كانت عليه قبل الإسلام، حتّى التشريعات الشكليّة للوضع السياسي كانت هي التشريعات الشكليّة للوضع السياسي قبل الإسلام.

عمر بن الخطّاب ـ بالرغم من صرامته الشكليّة ضدّ هذه التشريعات في العالم الإسلامي ـ قد أمضى هذه التشريعات عند معاوية وأبقاه على وضعه

(١) كذا في (م)، وفي (غ) و(ج): «يتعاطون».

حينما عرض عليه معاوية أن يعيش في الشام كخليفةٍ للقياصرة، ويجب أن يواصل أُبّهة القياصرة وجلالهم. لقد أمضى عمر بكلّ وقاحة مواصلة معاوية لخطّ القياصرة(١).

فالشام كانت تعيش إلى درجة كبيرة الجاهليّةَ التي كانت عليها قبل الإسلام، ومعاوية لم يكن يرى أيّ تناقض بين أهدافه وأُطروحته وبين المجتمع الشامي بوضعه الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، هذا المجتمع الذي كان مؤهّلاً تماماً لتقبّل أُطروحة معاوية، وهو أن يتزعّم الشام زعامةً ملكيّة قيصريّة لا تؤمن بالارتباط الحقيقي بالله تعالى.

بينما أُطروحة عليٍّ عليه السلام كانت هي الأُطروحة التي تواجه انحرافاً عاش عشرين عاماً بعد النبي صلى الله عليه وآله(٢)، وكان مسؤولاً عن تصفية ذلك الانحراف.

ومن هنا نجد الفارق بين وضع كلٍّ من الإمام عليه السلام ومعاوية في مجتمعه الذي يحكمه.

النقطة الثالثة: ارتباط عليٍّ عليه السلام بمُعطى السقيفة، وإسلامِ الشام بمعاوية:

إنّ مركز أمير المؤمنين عليه السلام يختلف بدرجةٍ كبيرةٍ عن مركز معاوية قبل خوض المعركة مع الإمام علي عليه السلام(٣):

أ ـ فإنّ أمير المؤمنين قبل خوض المعركة، قبل تسلّم زمام المسؤوليّة، كان قد تكوّن له في نظر المسلمين المفهومُ الرسميُّ الذي أعطته السقيفة للإمام

---

(١) تقدّم الحديث مفصّلاً عن مفهوم المسلمين عن معاوية بن أبي سفيان في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين عليٍّ عليه السلام ومعاوية، انطفاء جذوة الأمّة الإسلاميّة غير الواعية. وراجع حول إمضاء عمر كسرويّة معاوية: المحاضرة العاشرة، النقطة السادسة، اعتماداً على: أنساب الأشراف ٥: ١٤٧؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٣١؛ البداية والنهاية ٨: ١٢٥.

(٢) يقصد قدس سره: عشرين عاماً ونيّفاً، وذلك منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله سنة ١١ هـ إلى حين تولّيه عليه السلام الخلافة سنة ٣٥ هـ.

(٣) كذا في (م)، وفي (غ) و(ج): «مع المسلمين».

علي عليه السلام، هذا المفهوم الرسمي للإمام علي عليه السلام هو عبارة عن أنّ الإمام عليه السلام ليس إلّا صحابيّاً جليلاً له خدماتٌ في حياة النبي صلى الله عليه وآله، وحاله كحال غيره من الصحابة الأجلاّء ذوي الخدمات الجليلة في عصر النبوّة. هذا هو المفهوم الرسمي الذي أعطته السقيفة، ثمّ أكّدته الشورى على يد ابن الخطّاب.

المسلمون بدؤوا بالتدريج ـ وبحكم السياسة الحاكمة على يدّ الخلفاء المنحرفين ـ يتعاملون مع عليٍّ بن أبي طالب على هذا الأساس، على أساس أنّه صحابيٌّ جليل ذو سوابق[١]، لا أكثر من هذا المقدار، كان هذا شأن علي عليه السلام.

وبحكم هذا المفهوم، كان يوجد هناك رؤوسٌ كبيرةٌ من الصحابة ممّن كانوا يرَون أنّهم لا يقلّون عن عليٍّ عليه السلام، أو [أنّهم] يقلّون عنه قليلاً بدرجات، يرون ـ على أحسن تقدير ـ أنّ الفارق بينه وبينهم فارقُ درجة، هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وهو كذلك، هم أخذوا العلم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو كذلك. نعم، هو أفضل منهم وأورع، هو أكثر منهم جهاداً في أيّام الرسول صلى الله عليه وآله.

ب ـ وهذا على خلاف وضع معاوية بن أبي سفيان بالنسبة إلى المجتمع الشامي، هذا المجتمع الذي لم يكن يعرف غير معاوية.

المجتمع الشامي هو عبارة عن أُناسٍ كفرة دخلوا الإسلام على يد أخي معاوية الذي ولاّه أبو بكر على الشام، وهو يزيد بن أبي سفيان، ثمّ لمّا مات يزيد ولّى أبو بكر[٢] معاويةَ أخاه.

ولذا، فإنّ أهل الشام الذين دخلوا الإسلام على يد معاوية وأخيه ينظرون إلى إسلامهم [على] أنّه ناتجٌ من هذا الرجل، وأنّ هذا الرجل هو همزة الوصل

---

(١) كذا في (م) و(غ)، وفي (ج): «ذو رأي».

(٢) بل عمر بن الخطّاب؛ فإنّ يزيد بن أبي سفيان توفّي سنة ثمان عشرة، فراجع: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤: ١٥٧٦؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤: ٧١٦. وراجع حول تولية معاوية: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣: ١٤١٦؛ البداية والنهاية ٨: ١١٨.

بينهم وبين الإسلام، وهو الذي عن طريقه وصلت الشريعة إليهم.

ولذا، كانت نظرة أهل الشام ورجالاته إلى معاوية تختلف عن نظرة رجال أمير المؤمنين عليه السلام ورجال المدينة والعراق إلى أمير المؤمنين عليه السلام. وهذا الاختلاف في النظرة أوجد في حياة الإمام عليه السلام تناقضاً ومَثاراً من الآراء والاجتهادات المتضاربة، وامتناعاً ـ في كثيرٍ من الأحيان ـ عن قبول رأي أمير المؤمنين عليه السلام، بينما كان أهل الشام يلقَون معاوية بالطاعة الكاملة والخضوع الأعمى[1].

النقطة الرابعة: الاختلاف بين الدعويين على مستوى الوعي والحسّ:

والنقطة التي لا بدّ من الالتفات إليها في المقام هي أنّ دعوى الإمام عليه السلام في معاوية لم تكن على مستوى الحسّ، بل كانت على مستوى الوعي، والواعون لم يكونوا جميع المسلمين. وأمّا دعوى معاوية في عليٍّ عليه السلام فقد صوّرها وكأنّها على مستوى الحسّ، والناس كلّهم يعيشون الحسّ:

أ ـ عليّ عليه السلام كان يقول بأنّ معاوية لا يمثّل خطّاً من خطوط الإسلام، بل يمثّل جاهليّةَ أبيه وجدّه. معاوية يريد أن يقضي على الكيان الإسلامي، ويريد أن يحوّل المجتمع الإسلامي إلى مجتمعٍ آخر لا يؤمن بالإسلام وبالقرآن، بل يؤمن بالقيصريّة والكسرويّة.

هذا هو مدّعى الإمام عليٍّ عليه السلام في معاوية.

ب ـ ومدّعى معاوية في الإمام عليه السلام: أنّ الإمام قد هيّج الناس على عثمان وعلى الشريعة الحاكمة وقتئذٍ؛ لأنّ أصحابه وأهله هم طليعة الثوّار على عثمان، وأنّ عليّاً ـ عن طريق هؤلاء الأصحاب والطلائع الواعية ـ قتل

(١) حتّى قال معاوية لرجلٍ كوفي: «أبلغ عليّاً أنّي أُقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل». وأضاف المسعودي: «وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنّه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفّين الجمعة في يوم الأربعاء»، فراجع: مروج الذهب ٣: ٣٢.

عثمان، ثمّ تربّع على كرسيّه بعده[١].

ما أقرب هذه الدعوى إلى التصديق على مستوى الحسّ!

هل هناك شخصٌ يعيش الأرقام التي كان يقدّمها معاوية عن هذه الطلائع العلويّة التي باشرت بنفسها قتل عثمان، أو التي ساعدت وحرّضت على عثمان ـ من قبيل: محمّد بن أبي بكر، وعمّار بن ياسر وأبي ذر، وغيرهم من أصحاب عليٍّ عليه السلام من أبطال المسلمين رضوان الله عليهم، هؤلاء الذين باشروا وحرّضوا على قتل عثمان ـ ثمّ يأتي علي عليه السلام بعده فيتسلّم زمام الحكم بعد عثمان.. هل هناك تفكيرٌ أقرب إلى الحسّ من أن يكون عليٌّ في المقام قد قتل عثمان بيد، ثمّ أخذ الحكم باليد الأُخرى؟!

تفسير معاوية كان مقبولاً إلى حدٍّ ما؛ لأنّه كان قريباً من الحسّ، وأمّا تفسير الإمام عليه السلام لموقف معاوية [فقد] كان يحتاج إلى قدرٍ من الوعي.

نحن الآن ننظر إلى معاوية بعد أن انتهى وبعد أن تكشّف، وبعد أن صعد على منبر الكوفة في عام الجماعة[٢] ليقول: «ما حاربتكم لتصلّوا أو تصوموا، وإنّما حاربتكم لأتأمّر عليكم»[٣]. ننظر إلى معاوية بعد أن قتل حجر بنَ عديّ والأبطال الأبرار من إخوان حجر بن عدي[٤]، وبعد سمّ الحسن عليه السلام[٥]، وبعد

(١) تقدّم توثيق ذلك في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين الإمام عليٍّ عليه السلام ومعاوية، السبب الثاني: نظرة المسلمين إلى معاوية قبل تكشّف أوراقه.

(٢) وهو عام ٤١ للهجرة، عام توقيع الصلح، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٢٤.

(٣) تقدّم نصُّ كلامه في المحاضرة الحادية عشرة، فراجع: مقاتل الطالبيّين: ٧٧؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ١٥؛ البداية والنهاية ٨: ١٣١.

(٤) وقد قتلوا بمرج عذراء، وهم سبعة نفر: حجر بن عدي، شريك بن شدّاد الحضرمي، صيفي بن فسيل الشيباني، قبيصة بن ضبيعة العبسي، محرز بن شهاب السعدي ثمّ المنقري، كدام بن حيّان العنزي وعبد الرحمن بن حسّان العنزي، فراجع: تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣١؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٢٧٧. وفي (أنساب الأشراف ٥: ٢٥٣) أنّ عبد الرحمن أخو كدام، وأنّه ابن حيّان لا ابن حسّان.

(٥) مروج الذهب ٢: ٤٢٧.

أن أعطى ولاية العهد لابنه الفاسق يزيد[١]، ننظر إلى معاوية بعد أن انتهى معاوية.

لكنّ أُولئك المسلمين، الجماهير الكبيرة من أُولئك المسلمين لم يكونوا ينظرون إلى معاوية بعد أن انتهى، ولم يكونوا ينظرون إلى معاوية من هذا المنظار؛ لأنّهم لم يعيشوا بعدُ هذه الأحداثَ. لا بدّ لنا أن نلاحظ معاوية بعد تكشّفه، وأن نلاحظه قبل تكشّفه.

انظروا أيّها الإخوة بمنظار تلك الجماهير غير الواعية، تلك الجماهير التي عاشت مع أبي بكر وعمر وفضّلتهما على عليٍّ عليه السلام، وتأمّلت في تفضيل عثمان على عليّ عليه السلام. انظروا بمنظار هذه الجماهير غير الواعية، وتساءلوا عن معاوية، من هو معاوية؟!

معاوية شخصٌ كان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان معتمداً لأبي بكر وعمر، وكان من الواضح أنّ عمر كان يوليه درجةً كبيرةً من ثقته[٢].

وعمر هو هذا الشخص الذي تقدّسه هذه الجماهير، ومعاوية ـ بحسب الظاهر ـ كان ملتزماً بالشكليّات التي هي مقياس الإسلام عند هذه الجماهير غير الواعية، ولم يكن قد صدر منه إلى ذلك الوقت وقبل تكشّفه انحرافٌ واضحٌ جليٌّ على مستوى الجماهير، ولم تكن قد صدرت منه معصيةٌ واضحةٌ محدّدة على المستوى المطلوب.

إذاً، فمعاوية بذلك المنظار ليس هو معاوية الذي يُنظر إليه اليوم بعد تكشّفه.

بينما معاوية ماذا يقول؟!

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٣٨.

(٢) راجع بعض الشواهد على ذلك في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين الإمام عليٍّ عليه السلام ومعاوية، السبب الثاني: نظرة المسلمين إلى معاوية قبل تكشّف أوراقه.

معاوية يقول: إنّ عليّاً قتل عثمان، وإن لم يكن قد قتل عثمان فمن الذي قتله؟ على كلّ حال، فإن كان عليٌّ قادراً على أن يقيم الحدّ على قاتل عثمان فليسلّم للناس القاتلَ حتّى نقتله، وإن لم يكن قادراً على ذلك فهو إذاً عاجز عن تطبيق الشرع، فليعتزل الخلافة، وليأتِ شخصٌ آخر قادرٌ على الخلافة.

هذا ما كان يدّعيه معاوية بن أبي سفيان(١).

❊ ❊ ❊

مجموع هذه النقاط أوجد بالتدريج بذرة الشكّ في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام، هذا الإمام الذي خاض المعركة على رأس هذا المجتمع لتصفية الانحراف من الداخل وتصفية الانحراف من الخارج، وكان يريد أن يُوعّي الجماهير ويفهمها بأنّ المعركة ليست معركة زعامة شخصين، وليست معركة وجوده الخاص، وليست معركة قبيلته أو عشيرته أو أمجاده، وإنّما هي معركة رسالة السماء، معركة الحفاظ على أمانة الله التي جاهد في سبيلها عشراتُ الآلاف من الأنبياء.. كان يريد أن يوعّي الجماهير على واقع هذه المعركة وطبيعة هذه المعركة، وأنّها معركة السماء لا معركة الأرض، وأنّها معركة الله لا معركة الهوى.

هذا الإمام العظيم بدأت الجماهير تشكّ فيه، وفي واقع المعركة، وفي طبيعة المعركة على أساس النقاط التي ذكرناها.

سريان الشكّ وتعمّقه في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام:

١ ـ هذه الجماهير بعد أن تعبت، بعد أن أرهقها خطّ الجهاد، بعد أن قدّمت للإمام عليّ عليه السلام وللإسلام كثيراً من التضحيات التي قد لا يمكن أن

(١) تقدّم توثيقه في الموضع المشار إليه في الهامش السابق، فراجع: وقعة صفّين: ١٨٩؛ أنساب الأشراف ٢: ٢٧٨؛ الأخبار الطوال: ١٦٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٧.

يقدّمها كثيرٌ من المجتمعات.. نَفَسُ هذه الجماهير احتبس، النَّفَسُ لم يكن طويلاً، بينما الانحرافُ كان ذا نَفَسٍ طويل، انقطع نَفَسُ هذه الجماهير قبل أن ينقطع نَفَسُ الانحراف.

هذه الجماهير حينما أرهقها خطُّ الجهاد، وحينما أخذت تشعر بأنّها في حالةٍ غير طبيعيّة، وحينما أخذت تشعر بأنّها طلّقت الدنيا، طلّقت الأبناء والأموال والثروات في سبيل قضيّةٍ لا تمسّ مصالحهم الشخصيّة.. حينما أخذوا يحسّون هذا ويدركونه بدؤوا يوحون لأنفسهم بالشكّ؛ فإنّ التميّع يوحي بالشكّ، التميّع قد يخلق للإنسان الشكّ.

رغبة هؤلاء في أن يوقفوا هذه الجهود، في أن يحيّدوا أنفسهم، في أن يريحوا أنفسهم، هذه الرغبة النفسيّة تخلق شكّاً، تخلق مبرّراتٍ لا منطقيّة، هذه المبرّرات اللا منطقيّة هي نتيجة الرغبة النفسيّة في أن يتبدّل الحال، في أن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل أعباء هذا الخطّ، قبل تحمّل مسؤوليّات هذا الخطّ.

وكانت هناك أشياء كثيرة أيضاً تساهم في هذا الشكّ وفي إشاعته:

٢ ـ كان هناك أُناس من الصحابة على قدرٍ كبيرٍ من الورع والتقوى في نظر الناس. كان هؤلاء الناس المؤمنون ـ والذين لم يكونوا واعين رساليّين عقائديّين ـ يوحون للجماهير بأنّ المعركة ليست معركة صحيحة، أنّ القاعد في المعركة خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من السائر والضارب.

هذا الإيحاء من قِبل أبي موسى الأشعري[1] مثلاً كان له قوّة أكبر بكثيرٍ من الإيحاء المقابل من قِبل عمّار بن ياسر؛ لأنّ إيحاء عمّار بن ياسر يكلّف الموت، يكلّفك أن تتنازل عن حياتك. أمّا الإيحاء من أبي موسى الأشعري

---

(١) الذي نُصّب للتحكيم مع عمرو بن العاص «ليصلحا بين الناس ويتّفقا على أمر فيه رفقٌ بالمسلمين وحقنٌ لدمائهم»!! البداية والنهاية ٦: ٢١٦.

فهو يعطي الحياة، ويكفيك بذلَ هذه الحياة، يقول لك: «حافظ على حياتك، ابتعد عن الأخطار، اذهب واجلس في بيتك، ودَعِ الإسلام مع أخطاره ومع أعدائه».

عمّار بن ياسر صحابيٌّ كبير، وأبو موسى الأشعري أيضاً صحابيٌّ كبير، هذا يكلّفك بالموت، وذلك يكلّفك بالحياة، ولكن أيّ حياة؟ هذه الحياة الرخيصة، حياة الذلّ والهوان، الحياة تحت ظلّ معاوية، تحت ظلّ الجاهليّة.

هذا الإنسانُ الاعتياديُّ البسيطُ الساذجُ الشاكُّ يفضّل إيحاء أبي موسى الأشعري وأمثاله على إيحاء عمّار بن ياسر وأمثاله؛ لأنّه يريد أن يحتفظ بحياته.

إذاً، يتعمّق الشكُّ على أساسٍ من إيحاء أمثال أبي موسى الأشعري وعبد الله بن عمر[1].

٣ ـ وممّا ساهم في تعميق الشكّ أيضاً: أنّه كان هناك نزاعٌ تقليديٌّ بين بني أُميّة وبني هاشم، نزاعٌ عاشه بنو أُميّة وبنو هاشم قبل الإسلام[2].

والناس حينما أخذوا يفتّشون عن نقطة ضعفٍ في المعركة، بدأت الأذهان تثير الشكَّ في أن تكون المعركة بين عليٍّ عليه السلام ومعاوية نتيجةً لاستمراريّة صراعٍ تقليديٍّ تاريخيٍّ توارثيٍّ بين القبيلتين، بين بني أُميّة وبني هاشم.

كلّ هذه العوامل ـ وعوامل أُخرى ـ ساعدت على أن يكون هذا الإمام العظيم مشكوكاً فيه من قبل هذه الجماهير، أن يكون الطابع الرسالي للمعركة غير واضح عند هذه الجماهير، فكان هذا الإمام العظيم يصعد على المنبر ليدعو الناس إلى الجهاد فلا تتحرّك عواطفهم، كان يستثير هممهم وعزائمهم

(١) وهو الذي رشّحه أبو موسى الأشعري للخلافة بدل الإمام علي عليه السلام ومعاوية. فراجع: البداية والنهاية ٧: ٢٨٢.

(٢) راجع كلام المقريزي في كتابه: النزاع والتخاصم في ما بين بني أُميّة وبني هاشم: ٣٨، جذور العداء.

فلا يستجيبون[١]؛ لأنّهم بدؤوا يشكّون، والشكُّ في القائد هو أقسى[٢] ما يمنى به هذا القائد المخلص، والشكُّ في القائد هو أخطر[٣] ما تمنى به الاُمّة التي تزعّمها هذا القائد.

بالرغم من هذا الشكّ قلنا في ما سبق[٤] بأنّ الإمام عليه السلام لم يضعف، لم يقف، ولم يتراجع، ولم يتردّد، بقي في المعركة، بقي يواصل عمليّة التعبئة للجهاد لتصفية هذا الانشقاق إلى آخر ساعة من حياته. خرّ صريعاً في المسجد وكان هناك بداياتُ جيشٍ يتجهّز للخروج إلى الشام والقضاء على معاوية بن أبي سفيان[٥].

***

---

(١) قال عليه السلام: «فإذا أمرتكم بالسّير إليهم في أيّام الحرّ قلتم هذه حمارّة القيظ، أمهلنا يسبّخ عنّا الحرّ. وإذا أمرتكم بالسّير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارّة القرّ؛ أمهلنا ينسلخ عنّا البرد» نهج البلاغة: ٧٠، الخطبة ٢٧، وقال عليه السلام: «مُنيت بمن لا يُطيع إذا أمرتُ، ولا يجيب إذا دعوتُ..أقوم فيكم مستصرخاً وأناديكم متغوّثاً، فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي أمراً، حتّى تكشّف الأمور عن عواقب المساءة..» نهج البلاغة: ٨١ ـ ٨٢، الخطبة ٣٩.

(٢) كذا في (م)، وفي (غ) و(ج) و(ن): «أقصى»، ولعلّ الصادر منه قدس سره هو ما أثبتناه.

(٣) كذا في (م)، وفي (غ) و(ج): «أخشى»، والمقصود: أكثر ما يُخشى منه، وفي (ن): «أخسّ».

(٤) في ذيل المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الاُمّة وقائدها شريكان في الامتحان العصيب.

(٥) «كان أمير المؤمنين عليٌّ قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لمّا ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام. فبينما هو يتجهّز للمسير قتل عليه السلام» الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٤.

إطلالة على
مرحلة الإمام الحسن عليه السلام

عوامل تنامي الشكّ وترسّخ عدم رساليّة المعركة:

١ ـ وتولّى الإمام الحسن عليه السلام الخلافة في هذه الظروف من التعقيد، ذلك التعقيد الذي بدأ في أواخر حياة أمير المؤمنين عليه السلام. بدأ الإمام الحسن عليه السلام مع جماهير مَلَأها الشكّ، ولا تؤمن إيماناً كاملاً برساليّة هذه المعركة، وبوضوح أهداف هذه المعركة، ولا تتجاوب ذهنيّاً[1] وإسلاميّاً مع هذه المعركة.

٢ ـ فإذا أضفنا إلى هذا: الفارقَ بين شخصيّة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وشخصيّة الحسن عليه السلام، لا الفارق بينهما في حساب الله سبحانه وتعالى؛ فإنّ كلّ واحدٍ منهما إمامٌ معصوم عند الله، وإنّما الفارق بينهما بحسب المفهوم التاريخي في أذهان الناس أنفسهم؛ فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يملك رصيداً تاريخيّاً في نفوس الناس لا يملك مثله الإمام الحسن عليه السلام.

٣ ـ إذا أضفنا هذا إلى ذاك، وأضفنا كونَ تولّي الإمام الحسن عليه السلام للزمام[2] بعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام [قد] قوّى أن تكون الشبهة قَبَليّة، وأنّ المعركة هي معركة بيتٍ مع بيت، لا معركة شخصٍ يمثّل الرسالة مع شخص يمثّل الجاهليّة؛ لأنّ المسلمين[3] في ذلك الوقت لم يكونوا مؤمنين بفكرة النصّ من قِبل الرسول صلى الله عليه وآله، فكرةِ الإمامة القائمة على النصّ، ولم يكن تولّي الإمام الحسن عليه السلام للزعامة بنظرهم كإمامٍ منصوصٍ عليه، بل كإمامٍ على أساسٍ من

(١) كذا في (غ) و(ج) و(ن)، وفي (م): «دينيّاً» بدل «ذهنيّاً».
(٢) كذا في (غ) و(ج) و(ن)، وفي (م): «الزعامة الدينيّة»، والمراد واضح.
(٣) كذا في (غ) و(ج) و(ن)، وفي (م) جُعل التعليل عاملاً مستقلّاً؛ إذ جاء: «إلى جانب أنّ المسلمين».

الخطّ العامّ للسقيفة، وحين رأوا أنّ الإمامة انتقلت من الأب إلى الابن أصبح الإيحاء لديهم أقوى بأنّ المعركة معركة بيتٍ مع بيت، لا رسالة مع رسالة[1].

كلّ هذا عقّد الموقف، وجعل الشكّ يتفاعل[2] في المقام، إلى درجة أنّ خوض معركةٍ منتصرةٍ مع هذا الشكّ أصبح مستحيلاً.

الإمام الحسن عليه السلام أمام موقفين:

وعندما أصبح خوض معركة منتصرة [أمراً] مستحيلاً، بقي أمام الإمام الحسن عليه السلام أن يخوض المعركة اليائسة، يعني: المعركة التي يُستشهد فيها [من يُستشهد] ويُقتل فيها من يُقتل.

وهذه المعركة اليائسة لم تكن لتؤدّي مفعولاً على الإطلاق؛ لأنّها سوف تتمُّ في ظلّ شكّ الجماهير، فما هي أهدافها؟ وما هي طبيعتها؟ أَ هي مجرّد عناد؟! [مجرّد] استمرار على خطّ الزعامة القَبَليّة والعناد بين البيتين؟! أو هي رسالة وأمانة إلهيّة؟![3]

ولو خاض الإمام الحسن عليه السلام هذه المعركة اليائسة لكانت في نظر كثيرٍ من المسلمين على مستوى المعركة اليائسة التي خاضها عبد الله بن الزبير. [كانت] معركةً يائسة، حينما فرّ عنه أصحابه، فيما تقدّم هو بنفسه مع أصحابه الخواص، فقاتلوا حتّى قتلوا جميعاً، وقتل هو أيضاً.

عبد الله بن الزبير خاض معركةً يائسة[4]، هل ذكر أحدٌ من المسلمين عبد الله بن الزبير؟ هل فكّر أحدٌ من المسلمين في أنّ عبد الله بن الزبير خاض

---

(١) مراده عليه السلام: «لا معركة رسالة الإسلام مع رسالة الجاهليّة».

(٢) كذا في (غ) و(ج) و(ن)، وفي (م): «يتصاعد».

(٣) لم تتّفق (م) و(غ) و(ج) و(ن) على صيغة واحدة في تقرير التساؤلات الأخيرة، وقد أثبتناها تلفيقاً بينها. وقوله: «العناد بين البيتين» أثبتناه من (ن)، ويُحتمل كونه: «العداء بين البيتين».

(٤) الأخبار الطوال: ٣١٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٦: ١٨٧؛ الفتوح ٦: ٣٣٧.

معركته من أجل الإسلام؟ بذل دمه من أجل العمل الإسلامي؟

أبداً وعلى الإطلاق، لماذا؟ لأنّ الناس كانوا يعيشون مفهوماً واضحاً ـ أو نصف واضح ـ عن عبد الله بن الزبير بأنّه يخوض المعركة ضدّ عبد الملك بن مروان لزعامته الشخصيّة، لا لأجل حماية الإسلام، ولا لأجل إنقاذ الرسالة ولأجل تعديل الخطّ.

نفسُ هذا الشكّ ـ بدرجة أو بأُخرى ـ كان قد وُجد في الجماهير أيّام الإمام الحسن عليه السلام؛ لأنّه كان موجوداً في آخر أيّام أمير المؤمنين عليه السلام، وتعقّد ونما في عهد الإمام الحسن عليه السلام.

وعليه، فلو خاض الإمام الحسن عليه السلام المعركة اليائسة لكانت هذه المعركة يائسةً جدّاً إلى درجةٍ كبيرة، كالمعركة التي خاضها عبد الله بن الزبير، ولم يكن لمثل هذه المعركة أيُّ عطاءٍ للإسلام وللعمل الإسلامي.

ضرورة الانحسار المؤقّت لخطّ الإمام علي عليه السلام:

كان لا بدّ للإمام الحسن عليه السلام ـ ولا بدّ للخطّ الصحيح ـ أن ينحسِر مؤقّتاً ويهادن مؤقّتاً، ويستولي معاوية بن أبي سفيان على كلّ العالم الإسلامي؛ لكي ينكشف مضمون أُطروحة معاوية، ولكي يعرف هؤلاء المسلمون البسطاء ـ الذين لم يكونوا يعرفون إلّا ما يرونه بأعينهم[1] ـ مَن كان عليّ عليه السلام، ومن كان معاوية، وماذا كانت أُطروحة علي عليه السلام، وما هي أُطروحة معاوية.

ولقد ساهم معاوية نفسه إلى درجة كبيرة في كشف هذا الواقع؛ حيث لم ينتظر إلى أن تكشف الوقائع والأحداث عن حقيقته، بل أعلن منذ اليوم الأوّل عن مضمون هذه الأُطروحة[2]، وبدأ يواصل هذا الإعلان عمليّاً ولفظيّاً في

(١) راجع في هذه المحاضرة: طبيعة الموقفين وصراع الأُطروحتين، النقطة الرابعة: الاختلاف بين الدعويين على مستوى الوعي والحسّ.

(٢) على ما تقدّم في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين

مختلف مجالات سياسته، حتّى أخذ المسلمون يشعرون شعوراً كاملاً واضحاً بأنّ أُطروحة معاوية هي أُطروحة الجاهليّة التي تريد أن تهدّم الإسلام والكيان الإسلامي، وأنّ عليّ بن أبي طالب هو الذي كان يحمل المشعل، هو الذي كان يضيء الطريق، وأنّ تلك التجربة القصيرة التي زاولها في الحكم بقيت مثلاً أعلى، بقيت أملاً وحلماً في نظر الجماهير الإسلاميّة وهم في خضمّ بؤسهم الذي كانوا يعيشون فيه، وفي خضمّ ما كانوا يعيشونه من البلاء.

وهكذا رأينا أنّ كثيراً من المسلمين كانوا يتّصلون بالإمام الحسن عليه السلام بين حين وحين ويطلبون منه أن ينقض الهدنة؛ لأنّ معاوية أخلّ بالشروط.

ولكنّ الإمام الحسن عليه السلام كان يقول بأنّ لكلّ شيء أجله، ولكلّ شيء حسابه. لم يكن يرفض بشكلٍ مطلقٍ فكرة نقض الهدنة، لكنّه كان يؤجّل هذا النقض بِلُغَةِ أنّ لكلّ شيءٍ أجله وحسابه[1]؛ وذلك لأنّه يريد أن ينكشف معاوية بصورةٍ أوضح وبصورةٍ أكبر، وكان يريد أن تكون أهداف معاوية مكشوفةً لكلّ إنسان.

إلّا أنّ معاوية بن أبي سفيان عرف أنّه سوف يتكشّف على هذا المستوى، وسوف يفتضح أمام المسلمين، ففكّر في أن يخفي هذه الفضيحة، أي أنّه فكّر في أن لا يكون مصيره مصير ابن عمّه عثمان بن عفّان.

عثمان تكشّف، لكن إلى درجةٍ ضئيلةٍ جدّاً، وهو يريد أن يتكشّف

الإمام علي عليه السلام ومعاوية، السبب الثاني. وفي هذه المحاضرة، تحت عنوان: طبيعة الموقفين وصراع الأُطروحتين، النقطة الرابعة.

(١) فإنّه بعد أن خطب معاوية قائلاً: «كلّ شرط شرطته لكم فهو مردود، وكلّ وعد وعدته أحداً منكم فهو تحت قدميّ»، قال المسيّب بن نجبة الفزاري للحسن عليه السلام: «أرى والله أن ترجع إلى ما كنت عليه وتنقض هذه البيعة؛ فقد نقض ما كان بينك وبينه»، فقال عليه السلام: «يا مسيّب! إنّ الغدر لا يليق بنا ولا خير فيه... ولكنّي أردت بذلك صلاحكم وكفّ بعضكم عن بعض، فارضوا بقضاء الله وسلّموا الأمر لله؛ حتّى يستريح برٌّ ويُستراح من فاجر» الفتوح ٤: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

بدرجةٍ كبيرةٍ جدّاً؛ لأنّه يريد أن يتمتّع بالدنيا إلى أقصى مدى يمكن أن يتمتّع به ملك. هو يريد أن ينكشف، ومن همّه وهدفه ذلك، لكنّه في نفس الوقت يريد أن لا تكون نتيجته نتيجة عثمان ونهاية عثمان.

كان يريد أن يتحصّن من هذه النتيجة؛ وذلك بأن يُميت للأُمّة الإسلاميّة ضميرها وإرادتها وقابليّتها لمقابلة جور الظالمين، فوضع سياسته خلال عشرين عاماً[1] ليميت هذا الضمير، وليميت هذه الإرادة، ليميّع الأُمّة الإسلاميّة، ويجعل المسلمين ينصرفون عن همومهم الكبيرة إلى الهموم الصغيرة، عن الآلام الضخمة إلى آلام حياتهم البسيطة، ينصرفون عن الأهداف التي كانوا يحملونها لتحطيم جاهليّات العالم كلّها إلى الدوائر الضيّقة، جعلهم ينصرفون إلى عيشهم ومصالحهم الصغيرة، إلى الدريهمات التي كانوا يتقاضونها من بيت المال في رأس كلّ شهر.

هذا المسلم الذي كان يفكّر في تحطيم ظلم الظالمين في بلاد كسرى وقيصر[2] أصبح لا يفكّر إلّا في هذه الدريهمات الرخيصة، إلّا في هذه الحياة الضئيلة المبتذلة التي يمنّ بها عليه عمّال بني أُميّة.

هل تصدّقون أنّ شيوخ القبائل في الكوفة أصبحوا جواسيس لمعاوية بن أبي سفيان بالرغم من أنّهم من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام؟! أصبحوا عملاء وجواسيس لمعاوية، يعطونه الأخبار المفصّلة عن أيّ تحرّكٍ وأيّ تحسّس

(١) وهي فترة ولاية معاوية على الشام إلى حين صلح الحسن عليه السلام عام ٤١ هـ؛ حيث كان معاوية قد تولّاها بعد هلاك أخيه يزيد سنة ثمان عشرة كما أشرنا في هامش سابق من هذه المحاضرة.

(٢) تقدّم منه رحمه الله هذا المعنى في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: الأُمّة الإسلاميّة حملت طاقة حراريّة ولم تحمل وعياً مستنيراً، استيلاء المسلمين على كنوز كسرى وقيصر، فراجع: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ٤: ١٤ ـ ١٥؛ نهاية الأرب في فنون الأدب ١٩: ٢٩١؛ فتوح مصر وأخبارها ١: ١٤٦؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٥٢٠؛ المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٤: ١٦٨؛ الكامل في التاريخ ٢: ٤٦٣؛ البداية والنهاية ٧: ٣٩.

من قِبل شباب قبائلهم، يعطون الأخبار والأرقام لشرطة معاوية بن أبي سفيان ليضربوا هذا التحرّك ويسرقوا أنفاس هؤلاء الشباب(١).

هؤلاء الشيوخ كانوا شيعةً لعليّ عليه السلام ويؤمنون به، فكيف بغيرهم؟!

ماتت الضمائر، ومات الدين، ماتت إرادة المسلمين، واستسلم المسلمون السنوات العشرين التي حكمها معاوية، والتي هي من أخزى الفترات التي مرّت في تاريخ الأُمّة الإسلاميّة على الإطلاق.

كلّ إنسانٍ كان يحسّ إحساساً واضحاً بأنّه مظلوم، وأنّ الأُمّة الإسلاميّة ككلٍّ مهدّدة بالخطر، وأنّ الإسلام في مهبّ الريح، وأنّ أحكام الشريعة يُتلاعب بها، وأنّ الحاكم لا يفكّر إلّا في نفسه، وإلّا في وجوده وفي مصالحه الخاصّة.

هذا كان واضحاً عند كلّ إنسان، ولكن كلّ إنسانٍ كان لا يفكّر أن يبدأ هو، لا يفكّر في أن يتقدّم هو. كلّ إنسانٍ كان حينما يفكّر في أن يتقدّم يفكّر قبل هذا بالدراهم التي يقبضها في آخر الشهر والتي سوف تنقطع عنه، فكان يحجم عن الإقدام. كانت كرامة كلّ إنسانٍ وكرامة أُمّته ودينه أرخص عنده من هذا العيش الذليل، أرخص عنده من هذا العطاء الرخيص الذي يتقاضاه آخر الشهر من قبل معاوية.

فكان لا بدّ ـ والحالة هذه ـ من شخصٍ يقوم بدورٍ يحوّل هذه الضمائر ويحوّل هذه الإرادة، ينقذها من الموت إلى الحياة، ولم يكن يوجد وقتئذٍ شخصٌ يمكن أن يقوم بهذه المهمّة إلّا الحسين عليه السلام.

❊ ❊ ❊

---

(١) «وكتب جماعةٌ من رؤساء القبائل إلى معاوية بالطاعة له في السرّ، واستحثّوه على السير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام إليه عند دنوّهم من عسكره أو الفتك به» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٢.

إطلالة على مرحلة الإمام الحسين عليه السلام

الإمام الحسين عليه السلام يعالج موت إرادة الأُمّة بعد تبدّد الشكّ لديها:

هنا دور الحسين عليه السلام يختلف عن دور الحسن عليه السلام؛ لأنّ المسلمين هنا ليس عندهم أيُّ شكٍّ في صحّة هذه المعركة. اليوم المسلمون كلّهم يعيشون تجربة الإمام عليّ عليه السلام كمثلٍ أعلى للحكم الإسلامي، يعيشون شعارات الإمام علي عليه السلام [على] أنّها هي الشعارات التي تمثّل القرآن، وهذا واضحٌ على مستوى الجماهير كلّها.

الشكُّ غير موجود، إذاً كان لا بدّ للإمام الحسين عليه السلام أن يخوض معركة.

نعم، هي معركة يائسة وليست معركةً منتصرة؛ لأنّ هذه المعركة ستدور في أمّةٍ ميّتة، في أمّةٍ قد فقدت ضميرها وإرادتها وقابليّة المقاومة عندها. هذه المعركة لا يمكن أن تستقطب من جماهير الأُمّة جيشاً قويّاً واسع النطاق، قادراً على استئصال كافّة الحاكمين الظالمين، هذا أمرٌ كان بعيداً جدّاً. فالمعركة معركة خاسرة في الحساب العاجل.

ولكنّ هذه المعركة اليائسة الخاسرة في الحساب العاجل كان بإمكانها أن تهزّ ضمير الأُمّة الإسلاميّة، كان بإمكانها أن تعيد إلى الإنسان المسلم همّه الكبير بعد أن نسيه في ظلّ أُموره الصغيرة، أن تعيد همّه بأهدافه الضخمة بعد أن ضاعت هذه الأهداف الضخمة في خضمّ محنته الأُمويّة.

المسلمون يرون أنّ كلّ واحدٍ منهم ـ وفي سبيل الحفاظ على عيش رخيصٍ مبتذلٍ ـ لا يعطي شيئاً للإسلام، بل يكون سائراً في خطّ أعداء الإسلام، هكذا كانوا.

كانت الأُمّة في ذلك العصر مسلوبة الإرادة، أَلَم يقل ذلك الشخص للإمام الحسين عليه السلام بأنّ أهل الكوفة «سيوفهم عليك وقلوبهم معك»[(١)]؟! انظروا إلى موت الإرادة إلى أيّ درجةٍ [هو]! وهذا معناه[(٢)] أنّ الإرادة ميّتة.

فأراد أبو عبد الله عليه السلام أن يحرّك هذه الإرادة، أراد أن يخرجها من أسرها الأُموي لتصبح قوّةً وطاقةً فاعلةً متحرّكةً مخيفةً للحكّام الظالمين، المسلم كان يسترخص كرامة الإسلام في سبيل عيشه الرخيص.

الإمام الحسين عليه السلام حينما يتقدّم إلى خطّ الجهاد، حينما يبذل آخر قطرةٍ من دمه، حينما يبذل وجوده ووجود صحبه وأهل بيته وذويه، حينما يقدّم كلّ هذه التضحيات في سبيل الإسلام...[(٣)] ومن هو الحسين عليه السلام؟[(٤)]

الحسين هو شخصٌ كان يعيش عيشاً لا تعيشه أكثر هذه الجماهير. كان من أكثر المسلمين غنىً، كان من أكثر المسلمين جاهاً، كان من أكثر المسلمين عزّاً، كان سعيداً في حياته البيتيّة[(٥)] وحياته الاجتماعيّة وحياته الماليّة، كان

---

(١) المعروف أنّه قولُ الفرزدق، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٤٥؛ مقاتل الطالبيّين: ١١١؛ دلائل الإمامة: ٧٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٦. وقد نسب إلى بشر بن غالب الأسدي (الفتوح ٥: ٧٠) ومجمع بن عبدالله العائذي (أنساب الأشراف ٣: ١٧٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٥؛ تجارب الأُمم ٢: ٦٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٩).

(٢) في (م) و(غ) و(ج): «وهذا معنى»، ولم ترد العبارة في (ن) و(ش)، ولعلّ الصحيح ما أثبتناه، والمراد: «وقولُ ذلك الشخص معناه أنّ الإرادة ميّتة».

(٣) عدل قدس سره إلى سياقٍ آخر قبل إتمام العبارة، وتتّضح تتمّتها ممّا يأتي، خاصّةً ما يأتي في آخر العنوان عند قوله قدس سره: «حصَن الأُمّة الإسلاميّة ضدّ التميّع وضدّ الانحلال...».

(٤) ستتكرّر هذه الفكرة منه قدس سره مراراً، فراجع: المحاضرة الخامسة عشرة، تحت عنوان: الفرق بين موقفي الحسنين عليهما السلام على ضوء الاعتبار الأوّل، الإمام الحسين عليه السلام يواجه مرض موت الإرادة؛ المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: عدم تعرّض الإمام الحسين عليه السلام للظلم أصل موضوعيّة حركته؛ المحاضرة الثامنة عشرة، تحت عنوان: مقوّمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام، المقوّمات الشخصيّة للثائر.

(٥) كذا في (م) و(غ) و(ج) و(ن) و(ش).

شخصاً مرفّهاً، كان شخصاً لا يصله ظلمُ بني أُميّة إلّا بالقدر الذي يصل الإسلام من بني أُميّة، وبنو أُميّة كانوا يحافظون[1] جدّاً على أن لا يصلوا بظلمهم إلى المصالح الشخصيّة للحسين عليه السلام.

فالمصالح الشخصيّة للحسين عليه السلام كانت متوفّرة: المال كان كثيراً، الجاه كان عظيماً، المنزلة كانت كبيرة، مئات وملايين من المسلمين كانوا يتهافتون على التبرّك بالإمام الحسين عليه السلام. فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن جوعاناً، ولا محتاجاً إلى مالٍ ولا إلى جاهٍ ولا إلى مجدٍ ولا إلى تقديس[2]، كان كلّ هذا متوفّراً عنده. هذه الحياة المثلى ـ في نظر ذلك الإنسان اللا مثالي[3] ـ كانت متوفّرةً عند الحسين عليه السلام، بينما لم تكن متوفّرةً لدى جماهير المسلمين.

ومع هذا، رأت الأُمّة أنّ هذا الإنسان الذي تتوفّر لديه كلّ أسباب النعيم والرخاء، كلّ أسباب السعادة بمقاييس الجماهير المنخفضة، هذا الإنسان يطلّق هذه الحياة، ويغلق على نفسه أبواب السعادة في سبيل مقاومة الظالمين والحفاظ على الرسالة.

كانت هذه هي الهزّة الكبرى التي هزّ بها الإمام الحسين عليه السلام ضمير الأُمّة الإسلاميّة. وبمقارنةٍ بسيطةٍ بين السنوات العشرين الفائتة والعشرين اللاحقة ندرك مدى الفرق بين الضمير الثوري للأُمّة الإسلاميّة قبل مقتل سيّد الشهداء عليه السلام والضمير الثوري للأُمّة الإسلاميّة بعد مقتل سيّد الشهداء.

قلت في بداية المحاضرات[4]: إنّ الأئمة عليهم السلام كانوا يستهدفون ـ من جملة

---

(١) كذا في (م)، وفي (غ) و(ج) و(ن) و(ش): «يخافون».

(٢) كذا في (م) و(غ) و(ج)، وفي (ن) و(ش): «تقدير»

(٣) كذا في (م)، وفي (غ) و(ج): «هذه الحياة المثلى عن حياة ذلك الإنسان الرسالي»، ولم ترد العبارة في (ن) و(ش)، ولعلّ الصحيح ما في (م).

(٤) راجع: المحاضرة الثالثة، تحت عنوان: انعكاسات دور الأئمّة عليهم السلام الإيجابي في الحفاظ على الرسالة؛ المحاضرة الرابعة، تحت عنوان: مراحل تاريخ أئمّة أهل البيت عليهم السلام، المرحلة الأُولى:

ما يستهدفون ـ تحصينَ الأُمّة الإسلاميّة ضدّ صدمة الانحراف؛ لأنّ للانحراف صدمةً، وهذه الصدمة كان بالإمكان أن تقضي على الأُمّة كافّة كما قضت على التجربة الإسلاميّة كتجربةٍ سياسيّة حاكمة، و[هذا] كان طبيعيّاً ومنطقيّاً لو استمرّ الوضع الذي [كان] يعيشه المسلمون قبل مقتل سيّد الشهداء عليه السلام.

إلّا أنّ مقتل سيّد الشهداء عليه السلام حصّن الأُمّة الإسلاميّة ضدّ التميّع وضدّ الانحلال، وضدّ أن تنسى نفسها في خضمّ هذا الظلم المعاش من قبل الحكّام المنحرفين المستهترين بأحكام الإسلام.

المقارنة بين عصرنا وبين عصر سيّد الشهداء عليه السلام:

والشيء المهمّ في المقام أن نفكّر في المقارنة بين عصرنا وعصر سيّد الشهداء عليه السلام[١]:

صحيحٌ [أنّه] لا يوجد اليوم في هذا العصر شخصٌ لو ضحّى بنفسه يستطيع أن يوجد هذه الهزّة في ضمير الأُمّة الإسلاميّة.. الأُمّة الإسلاميّة اليوم مات ضميرها كما مات ضميرها في عصر معاوية بن أبي سفيان، الأُمّة الإسلاميّة اليوم تُقطّع من أطرافها وتُنتهك حرماتها فلا تتحرّك حركةً حقيقيّة؛ فهي ميّتة، هذه الأُمّة الإسلاميّة ميّتة.

أنا قلت مراراً[٢] بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام صعد المنبر فقال على إثر هجوم عشيرةٍ من عشائر معاوية على عشيرةٍ كانت تنتمي إلى الدولة الإسلاميّة الصالحة، كان يقول: «لو أنّ إنساناً مات بعد هذا همّاً وغمّاً لم يكن عندي

مرحلة تفادي صدمة الانحراف.

(١) ستتكرّر هذه الفكرة منه قدس سره في المحاضرة الثامنة عشرة، تحت عنوان: الثورة الحسينيّة ووضعُنا الراهن.

(٢) لم يتكرّر ذلك منه قدس سره في المحاضرات الواصلة إلينا، ولكن راجع: المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الأُمّة وقائدها شريكان في الامتحان العصيب.

ملوماً»[١].

واليوم تقع مئاتٌ من هذه المآسي الكبرى وهذه الأحداث الكبرى في العالم الإسلامي فلا يتأثّر بها أكثر المسلمين، ولا يحسّ بها أكثر المسلمين. هذا معناه أنّ ضمير الأُمّة الإسلاميّة ميْت، فهل يمكن إحياء هذا الميْت؟!

لا يوجد عندنا شخصٌ يتمتّع بكلّ الملابسات والظروف التي كان يتمتّع بها سيّد الشهداء عليه السلام: الحسين عليه السلام كان ريحانة النبي صلى الله عليه وآله، كان سيّد شباب أهل الجنّة، كان الناس كلّهم يرونه تعبيراً آخر ومباشراً تماماً عن النبي صلى الله عليه وآله، كانوا يتقرّبون به إلى الله تعالى، كان في عهده بعض[٢] الصحابة الذين لا يزالون موجودين، وقد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ـ من فم النبيّ الطاهر ـ أنّه قال صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»[٣]..

لا يوجد أحدٌ من المسلمين اليوم يملك هذا الذي كان يملكه الإمام الحسين عليه السلام لكي يحرّك ضمير الأمّة الإسلاميّة.. إنسانٌ واحدٌ بمفرده لا يمكن أن يحرّك ضمير الأُمّة الإسلاميّة، فكيف نستطيع أن نحرّك ضمير الأُمّة الإسلاميّة؟

[إنّ] العمل الدعوائي والنموذجيّة الإسلاميّة في الدعاة، وهذا الخطّ الطويل المتلاحق المتتابع للتضحيات هو الذي قد يحرّك ضمير الأُمّة الإسلاميّة، يُظهر هذا الضميرَ من حالة الركود والموت إلى حالة الحياة والحركة.

يجب أن نوطّن أنفسنا، ويجب على المسلمين أن يوطّنوا أنفسهم على

---

(١) «فلو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً» نهج البلاغة: ٧٠، الخطبة ٢٧.

(٢) كذا في (ن) و(ش)، وفي (م): «آلاف»، وفي (ج): «مئات الآلاف».

(٣) الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار (ابن أبي شيبة) ٦: ٣٧٨؛ فضائل الصحابة ٢: ٧٧١؛ المسند (ابن حنبل) ٣: ٣؛ السنن (ابن ماجة) ١: ٤٤.

أن يضحّوا باللحظات والساعات المرحة، ويجب أن لا ينتظروا من هذه الاُمّة أن تستفيق لوحدها، بل يجب علينا التضحية بالغالي والنفيس، بالوقت والدم.

ويجب أن لا ينتظروا حينما يضحّون أن يحقّقوا المكسب الذي حقّقه أبو عبد الله عليه السلام(١)، بل يجب أن يشعروا أنّ تضحيتهم هي جزء من خطٍّ طويل، وهذا الخطّ الطويل بامتداده التاريخي قد يحقّق حينئذٍ جزءاً من ذلك المكسب العظيم الذي حقّقته تضحية الإمام الحسين عليه السلام.

التضحيات حينما تتلاحق، حينما تتتابع، حينما يحسّ المسلمون بأنّ هناك قطاراً من المسلمين مستعدّاً للتضحية بوجوده وبنفسه في سبيل الله سبحانه وتعالى.. حينما يحسّ المسلمون بهذا إحساساً واقعاً في حياتهم العمليّة، حينما يضحّي هؤلاء المسلمون بالتدريج، حينما يضحّون لا على مستوى الكلام، لا على مستوى هذا الكلام الذي أنا أقوله؛ لأنّ الحسين عليه السلام كان بإمكانه أن يتكلّم وليس الكلام بمفيد، لكنّه لم يكتفِ بالكلام؛ لأنّ الحسين عليه السلام لو خطب ألف خطبةٍ لم يكن يستطيع أن يحرّك ضمير الاُمّة الإسلاميّة، وإنّما حرّكها بدمه لا بلسانه، حرّكها بتضحيته لا بخطابته..

فلو أنّ قطاراً تاريخيّاً مترابطاً من التضحيات المتتابعة بُذل في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمة الله بالنحو المناسب والمطابق لقواعد الشرع، فحينئذٍ بالإمكان أن يتحرّك ضمير الاُمّة الإسلاميّة.

ونحن كلّنا يجب أن نعدّ أنفسنا روحيّاً وفكريّاً لكي نكون على مستوى أكبر درجة من العطاء للإسلام، على مستوى عطاء النفوس والأرواح للإسلام، ليس فقط على مستوى العطاء الكلامي وعطاء الأوقات والجهود للإسلام.

---

(١) كذا في (غ) و(ج)، وفي (م): «لكي نحقّق المكسب الذي حقّقه الإمام الحسين عليه السلام في تضحيته»، وفي (ن) و(ش): «يكون المكسب منها شبيهاً بمكسب الحسين عليه السلام»، والمراد من سياق الكلام واضح؛ بقرينة ما يأتي منه قدس سره قريباً.

يجب أن نروّض أنفسنا، أن نوحي لأنفسنا دائماً أنّنا في اللحظة التي ينادينا فيها الإسلام للموت يجب أن نكون مستعدّين للموت. قد لا نواجه هذه اللحظة أبداً، لكنّه بالإمكان أن نواجهها في لحظةٍ من اللحظات.

أَ لم تمرّ علينا جميعاً تجربة المدِّ الشيوعي الأحمر في العراق؟[1] لو أنّ تجربة المدّ الشيوعي الأحمر في العراق كانت قد ارتفع مقياسها الزئبقي أكثر ممّا وقع إلى حدٍّ ما، ألم يكن كلُّ واحدٍ منّا يواجه وقتئذٍ نداءً من الإسلام يدعوه إلى التضحية بنفسه؟! يدعوه إلى الموت؟!

هذه المواقف قد تدعونا إلى التضحية بالنفس والدماء، هذه الأحداث محتَمَلة ما دامت الأُمّة الإسلاميّة تعيش هذه المؤامرات، فلا بدّ إذاً أن نوحي لأنفسنا أنّنا على استعداد لعطاء أنفسنا حينما يتطلّب الإسلام منّا[2].

كما نحن مطالبون اليوم في فلسطين وكثيرٍ من أقطار الأُمّة الإسلاميّة التي يتعرّض فيها الإسلام والمسلمون إلى كوارث ومآسي وويلات، نحن مطالبون بتصحيح الوضع في جميع أقطار الأُمّة الإسلاميّة، والعودة بها للبناء الإسلامي الصحيح، وبإفشاء أحكام الإسلام في الدولة والمجتمع والفرد، في الأرض والمصنع والمتجر، في العامل والفلاّح والصناعي والغني والفقير.

إنّنا يجب أن نوحي لأنفسنا دائماً بأنّنا مطالبون بما طولب به الإمام الحسين عليه السلام؛ وذلك لأنّنا نسير في خطّ الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته.

هذا [هو] الدرس الذي يجب أن نعرفه من تضحية سيّد الشهداء عليه السلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

---

(١) راجع كلاماً له قدس سره حول محنة المدّ الشيوعي الأحمر في: ومضات: ٤٣٨.

(٢) أي: حينما يطلب الإسلام ذلك منّا، أو: حينما يتطلّب وضعُ الإسلام ذلك منّا.

٣

١٣

كلمة في مهرجان أمير المؤمنين عليه السلام

كلمة الشهيد الصدر رضي الله عنه في (المهرجان العالمي بمولد الإمام بطل الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) الذي أُقيم بكربلاء ليلة ١٣/رجب/١٣٧٩هـ ، ألقاها بالنيابة عنه المحامي صبري القنبر

بسم الله الرحمن الرحيم

كان الإمام(عليه السلام) ـ كما ينطق تاريخه المشرق ـ المثل الأعلى للجهاد في سبيل القضيّة الإسلاميّة الكبرى؛ فلم تكن حياته الطاهرة منذ بدأها في المسجد الحرام إلى أن خرّ شهيداً في بيت ربّه إلّا شعلة من الكفاح المقدّس الذي لا يعرف هوادةً في الدين، ولا توانياً في الواجب، ولا تراخياً في الحقّ، ولا شيئاً يعزّ أو يعلو على الفداء والتضحية.

وقد عاصر الإمام الدعوة الإسلاميّة وامتزج فيها بروحه وعقله وفكره وكلّ أحاسيسه وعواطفه، وسايرها منذ الساعة الأُولى من عمرها الطاهر، حين انطلقت كالعملاق لتصنع التاريخ، وتنشئ العالم من جديد، وتحقّق على يد الإنسان الرسالةَ التي خلق من أجلها.

وبقي الإمام يساير موكب الدعوة الجبّار في زحفه الروحي والفكري والاجتماعي المظفّر، ويواكب انتصاراتها الرائعة التي كانت قيادة النبي[صلى الله عليه وآله] المثلى تحقّقها نصراً تلو نصر في كلّ الميادين الفكريّة والعسكريّة. وكان الإمام في كلّ تلك الميادين الجهاديّة يحمل بيده مشعل الدعوة ولواء الداعي الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)، لواء الحقّ والعدل والخير.

وهكذا رافق الإمام أدوار الدعوة كلّها؛ فتغذّى بروحها، وغذّاها بجهاده، واستمدّ منها مثله العليا، وتحقّق فيه وجودُها الإنسانيُّ الأمثل.

رافق الإسلامَ وهو دعوة تبشّر لعالم جديد كلّه عدلٌ وخيرٌ وحقّ، فكان أوّل من أسلم وآمن بدعوته وجنّد نفسه وكلّ إمكاناته لها.

ورافق الإسلام وهو ركيزة تكتّل فكري قويٍّ متضامن، يستعذب الموت في سبيل المبدأ الحيّ، ويستهين بالآلام لأجل أن ترتفع راية الإسلام وتخفق على أرجاء المعمورة بالخير والرحمة، فكان الإمام بطلَ ذلك التكتّل الإسلامي المرصوص، وشريك النبي[صلى الله عليه وآله] في حمل أعباء التكتّل وقيادة الدعوة والدفع بها إلى الأمام، وتذليل العقبات المعنويّة والمادّيّة التي تعترض طريق التكتّل الإسلامي المبارك وتعيقه عن نشر رسالته الإلهيّة الكبرى.

ورافق الإسلامَ حين أصبح الإسلامُ دولةً كاملةً تتمتّع بأداة سياسيّة قويّة، فاحتفل مع سائر المسلمين بوضع الحجر الأساسي للدولة الإسلاميّة إثر هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة.

واستمرّ يؤازر النبيَّ[صلى الله عليه وآله] في تسيير جهاز الدولة وتنميتها والاضطلاع بمختلف المسؤوليّات فيها، كتحمّل أعباء القيادة العسكريّة كما اتّفق في أكثر غزوات النبي[1]، وحمل الدعوة إلى الخارج كما صنع حين أرسله النبيُّ إلى اليمن[2]، وتمثيل الدولة الإسلاميّة في مجال العلاقات السياسيّة كما حصل عند قيامه بمهمّة تبليغ (براءة) إلى أهل مكّة[3]، إلى غير ذلك من ألوان العمل والجهاد التي زخرت بها حياة الإمام.

ولم يُتَح له بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحتلّ موضعه الطبيعي، غير أنّه

---

(١) والتي لم يتخلّف عليه السلام عن واحدةٍ منها إلى حين غزوة تبوك؛ حيث خاطب رسول الله قائلاً: «لم أتخلّف عنك في غزاة منذ بعثك الله تعالى»، فراجع: الأمالي (الطوسي): ١٧١، الحديث ٣٩.

(٢) السيرة النبويّة (ابن هشام) ٢: ٦٤١؛ الطبقات الكبرى ٢: ١٢٨، وانظر: الكافي ٥: ٢٨، الحديث ٤.

(٣) السيرة النبويّة (ابن هشام) ٢: ٥٤٥؛ الطبقات الكبرى ٢: ١٢٨؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ١٢٢.

كان على طول الخطّ العينَ الساهرةَ على القضيّة الإسلاميّة، والجنديَّ الأوّل لها إذا دقّت أجراس الخطر مهما كانت الظروف السياسيّة، حتّى اُتيح له أخيراً أن يباشر صلاحيّاته رئيساً للدولة الإسلاميّة، فاستطاع الإسلام أن يقدّم فيه الحاكمَ الإسلاميَّ الأروع، والنموذجَ الفذَّ للحكم، الذي عجزت كلّ المبادئ الاُخرى في العالم عن تقديم نظيره طيلة حياته السياسيّة.

فحياة الإمام إذاً كانت ـ أبداً ودائماً ـ حياةً جهاديّة تتفجّر بطاقات الكفاح من أجل تحقيق مَثَل الإنسانيّة الأعلى بتطبيق الإسلام وترجمته إلى واقع ملموس محسوس، يتمثّل في حاكم وحكم يسعد به الناس، ويعيشون في كنفه إخواناً وادعين.

وكانت الحياة الجهاديّة للإمام ذات لونين:

فقد وقف تارةً يحارب قوى الكفر الصريحة السافرة التي أنكرت الإسلام كدين وتنكّرت له كمبدأ وعادته كدولة، فسجّل في وقفاته الغرّ معها أروعَ الانتصارات للدعوة والإسلام.

ووقف تارةً اُخرى وقفته الجهاديّة الخالدة في أيّام خلافته ليصحّح مفاهيم المسلمين عن الإسلام، ويقوم[١] سدّاً دون الانحراف عن أهدافه العليا ونظامه الأمثل الذي بدأ المنحرفون والمتأوّلون يتلاعبون به ويشوّهونه طبقاً لأفكارهم الجاهليّة وشهواتهم الرخيصة، ويرفعون شعارات جديدة لا تمتّ إلى روح الإسلام بصلة، فذاك هو القتال على التنزيل وهذا هو القتال على التأويل على حدّ تعبير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

والواقع أنّ المعركة التي خاضها الإمام ضدّ التأويل والتلاعب بأحكام

---

(١) أو: «يقيم».

(٢) اُنظر: الكافي ٥ : ١١ ـ ١٢، الحديث ٢ ؛ تهذيب الأحكام ٤: ١١٦، الحديث ١؛ ٦: ١٣٧، الحديث ١.

الإسلام والانحراف عن نصوصه في الدولة والحكم والدستور لم تكن تقلّ خطراً عن معاركه الكبرى مع الكفّار والمشركين. ولم يُمنَ بما مني به من الأعداء والخصوم السياسيّين والحربيّين إلّا بسبب استبساله في الحفاظ على أهداف الدعوة، وحرصه على إقامة الدولة الإسلاميّة بعيدةً عن تضليل المضلّلين وأطماع الطامعين.

وهكذا نستطيع أن نقول: إنّ الإمام حارب أوّلاً في سبيل الدعوة الإسلاميّة ومُثُلها، وحارب أخيراً في سبيل الدولة الإسلاميّة ومنهاجها في السياسة والحكم، فلم تكن الدولة الإسلاميّة في نظر الإمام لتنفصل عن الإسلام بالذات، ولم تكن العقيدة الإسلاميّة في رأيه لتنفصل عن وعي إسلامي كامل لكلّ نواحي الحياة، ولم يكن ليكتفي الإمام من المسلمين أن يفهموا الإسلام كعقيدة في القلب أو ألفاظ تردّدها الشفتان فحسب، وإلّا فلماذا شنَّ تلك الحروب في خلافته ومني بالمنازعات؟! مع أنّ الإسلام ـ من حيث هو عقيدة في القلوب أو ألفاظ على الشفاه ـ لم يكن موضع خلاف ونقاش، أَلم يكن كلُّ ذلك لأجل أن تعي الاُمّة الإسلام وعياً صحيحاً، وأن يطبّق عليها تطبيقاً نزيهاً!

وهذا ما فعله الإمام عليه السلام تماماً حينما تولّى الحكم وأخذ بزمام القيادة السياسيّة للاُمّة، فأعلن قبل كلّ شيء هدف الحكم الإسلامي الصحيح وحدّد رسالته المقدّسة، فقال مشيراً إلى نعله: «إنّ هذا النعل هو خير عندي من ولايتكم هذه إن لم أقم حقّاً وأزهق باطلاً»[1].

وهكذا وضع للدولة الإسلاميّة هدفها الأساسي المتمثّل في جانب إيجابي، وهو إقامة القسط والعدل، وجانب سلبي، وهو إزهاق الباطل.

فليس الحكم في مفهوم عليٍّ عن الإسلام ذريعةً من ذرائع الثراء المحرّم

(١) نهج البلاغة: ٧٦، الخطبة ٣٣: «والله، لهي أحبُّ إليَّ من إمرتكم، إلّا أن اُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً».

والجاه العريض، ولا أداةً للقهر والغلبة والاستيلاء، ولا وسيلةً من وسائل التخمة والدعة وإشباع الحفدة والأنصار، ولا جهازاً يتملّق لطائفة أو تستأثر به فئةٌ على حساب الآخرين، وإنّما هو حكومة الحقّ والعدل والتطبيق النزيه لأحكام الله على العباد، فإذا فقد ذلك كان صفراً في حساب عليٍّ والإسلام.

ولذلك قالها الإمام صريحة مدويّة في وجوه أُولئك الذين كانوا يزعمون أنّهم ينصحونه بشيء من اللين والانحراف، قالها لتخلد في تاريخ الإسلام كلمات مشرقةً بالنور، عامرةً بأسمى مثل العدالة: «[أَ تأمرونّي] أن أطلب النصر بالجور في من ولّيت عليه، والله [لا] أطور به ما سمر سمير، وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً»(١)؛ ذلك لأنّ حكومة الإسلام هي حكومة العدل والحقّ والقسط، فإذا قامت على أساسٍ من الجور فقدت معناها الإسلامي، الذي هو كلّ قيمتها في نظر عليّ العظيم.

وحدّد عليه السلام مسؤوليّته تجاه رعيّته ومدى مشاركته لهم في جشوبة العيش ومكاره الدهر، فقال: «هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز وباليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل(٢):

وحسبك داءً(٣) أن تبيت ببطنةٍ   وحولك أكبادٌ تحنُّ إلى القدّ

أَ أقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أُشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش»(٤).

---

(١) نهج البلاغة: ١٨٣، الخطبة ١٢٦.

(٢) البيت منسوبٌ إلى حاتم بن عبدالله الطائي، فراجع: شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٨٨.

(٣) في البحث المطبوع: «عاراً» وفقاً لما جاء في: شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٨٦، وما أثبتناه من المصدر، ومن: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣: ٢٤٢ و: التذكرة الحمدونيّة ١: ٩٩.

(٤) نهج البلاغة: ٤١٧ ـ ٤١٨، الرسالة ٤٥.

وهكذا أَفْهَمَ الإمامُ عليه السلام الأُمّةَ أنّه آخر من ينبغي أن يشبع في رعيّته، وليس أوّل من يشبع هو الحاكم كما كان يريد المتأوّلون والمنحرفون من خصومه السياسيّين.

ووضع الإمام المساواة الحقيقيّة التي جاء بها الإسلام موضع التنفيذ؛ فأعلن بكلّ صراحة قائلاً: «إنّما أنا رجلٌ منكم، لي ما لكم وعليَّ ما عليكم»[١].

وقال لأحد ولاته إذ ارتكب جنحة: «والله! لو أنّ الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما [كانت] لهما عندي هوادة، ولا ظفرا منّي بإرادة حتّى آخذ الحقّ منهما، و[أُزيح] الباطل عن مظلمتهما»[٢].

وهكذا حقّق الإمام المساواة بأروع معانيها، هذه المساواة التي لا تزال في الحضارات الأجنبيّة حتّى الآن حبراً على ورق.

ودشّن سياسته الاقتصاديّة بتطبيق المساواة الصارمة التي فرضها الإسلام بين المسلمين في الأموال العامّة، وضرب بيدٍ من حديد على الثروات المنهوبة من الأُمّة، وأعلن بكلّ وضوح أنّ كلّ القيم والاعتبارات لا تبيح شرعاً أن تزلزل تلك المساواة بين المسلمين في فيئهم؛ فهم في نظر الدولة الإسلاميّة سواءٌ، مهما اختلفت درجاتهم عند الله: قال عليه السلام: «أيّها الناس[٣]! ألا لا يقولنَّ رجال منكم قد غمرتهم الدنيا [فاتّخذوا] العقار وفجّروا الأنهار...: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا، ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرى أنّ الفضل له على [من] سواه [لصحبته] فإنّ الفضل [النيّر] غداً عند الله،.... فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسويّة»[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٧: ٣٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤١٢، الرسالة ٤١.

(٣) ليست في المصدر.

(٤) شرح نهج البلاغة ٧: ٣٧، ويبدو أنّ الشهيد الصدر قدس سره قد نقل المتن عن: روائع نهج البلاغة: ٩٥.

وأوضح الإمام بكلّ جلاء نظريّة الإسلام الإنسانيّة التي تترفّع عن التعصّب الذميم مهما كان لونه، فقال لواليه يوصيه: «فإنّهم[1] صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق»[2].

فما أروعها كلمة أراد بها عليه السلام أن يصحّح مفهوم الناس عن الدولة الإسلاميّة؛ فليست الدولة الإسلاميّة في ضوء هذه الكلمة أداة استعباد لغير المسلمين وعداوة لهم، بل هي رعاية للأُخوّة الدينيّة الخاصّة وللأُخوّة الإنسانيّة العامّة.

وقد بلغ حرص الإسلام على هذه النظرة الإنسانيّة مبلغاً رائعاً لا نظير له؛ حتّى إنّ عليّاً ـ وهو رئيس الدولة الإسلاميّة ـ وجد درعاً له عند مسيحي، فلم يكن له طريقٌ إلى أخذه منه إلّا بالوقوف معه بين يدي القضاء.

وهكذا وقف رئيس الدولة الإسلاميّة مع المسيحي جنباً إلى جنب أمام القاضي، وقال الإمام: «إنّها درعي، ولم أبع ولم أهب»، فقال القاضي للرجل المسيحي: «ما تقول في ما يقول أمير المؤمنين؟»، فقال المسيحي: «ما الدرع إلّا درعي». وهنا التفت القاضي إلى الإمام يسأله هل من بيّنة تشهد أنّ هذه الدرع لك، فضحك عليّ وقال: «ما لي بيّنة»، فقضى القاضي بالدرع للرجل المسيحي، فأخذها ومشى.

إلّا أنّه لم يخطُ خطوات قلائل حتّى عاد يقول: «أمّا أنا، فأشهد أنّ هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضٍ يقضي عليه؟!»، ثمّ قال: «الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين»، وأسلم وحسن إسلامه[3].

---

(١) في البحث المطبوع: «الناس»، وما أثبتناه من المصدر.

(٢) نهج البلاغة: ٤٢٧، الرسالة ٥٣.

(٣) الغارات ١: ٤٧؛ البداية والنهاية ٨: ٤؛ شذرات الذهب ١: ٣٢٠؛ مناقب آل أبي طالب ٢: ١٠٥؛ بحار الأنوار ٤١: ٥٦.

وهكذا استطاع الإمام أن يسجّل في ذهنيّة الاُمّة بأقواله وأفعاله مفاهيم الدولة الإسلاميّة الخالدة وآياتها البيّنة، فأصبحت دولةُ الإسلام التي عكسها تاريخ عليٍّ أملَ الإنسانيّة في كلّ العصور، والعقيدةَ التي يتبنّاها المسلمون جميعاً في كلّ زمان وكلّ مكان.

صحيح أنّ الإمام عليه السلام لم ينجح كلَّ النجاح في القضاء على المناوئين والمتربّصين بالدولة الإسلاميّة؛ لأنّ المؤامرة الأثيمة على حياته المقدّسة التي انهار بها أعظم صروح الإسلام بعد صرح النبوّة قامت حائلاً دون تحقيق أماني الإسلام العذبة على يديه، وضمان السيادة السياسيّة له بشكل ثابت.

وصحيحٌ أنّ الإمام كان يؤلّب على نفسه ودولته جيشاً ضخماً من المنافقين والمارقين الذين ضاقوا بالحقّ، ولم يجدوا عند عليٍّ ما يشبع نهمهم المحموم إلى المال والجاه، فنقضوا[1] عليه وعارضوه بكلّ طَول وحَول، فلم يفكّر الإمام لحظةً واحدة في مهادنتهم على حساب الحقّ، وأن يسترضيهم بالوسائل التي لا تتّفق مع طبيعة الغاية المثلى، فنجمت عن ذلك سلسلة من المشاكل السياسيّة التي رافقت خلافة الإمام إلى آخر أيّامها.

كلّ هذا صحيح، ولكن ماذا يضير عليّاً من ذلك كلّه وقد خرج من المعركة كما أراد وكما أراد له الإسلام، ظافراً، منتصراً، قد ضرب للإسلام مَثَله الرفيع، وركّز إلى الأبد في عقول الواعين من الاُمّة مفاهيم الدولة الإسلاميّة، وطبع في أذهانهم صورتها الزاهية بكلّ ما تصبو إليه الإنسانيّة المهذّبة من القيم المادّيّة والمعنويّة؛ فصلوات الله عليه وعلى جهاده، وسلامٌ عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حيّاً.

وختاماً، أرفع أكفّ الضراعة إلى الله سبحانه بأن يوفّق المسلمين جميعاً

---

(١) في البحث المطبوع: «فانتقضوا»، أو أن يكون المراد: «فانتقدوه».

إلى العمل المثمر من أجل الرسالة التي عمل لها عليٌّ العظيم، وأن يأخذ بيد الساعين في إقامة هذا المهرجان الإسلامي الرائع من أهالي كربلاء الأبرار إلى ما فيه صلاح الإسلام والمسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❊ ❊ ❊

مرحلة تفادي صدمة الانحراف

٢

الإمام الحسن بن علي عليه السلام

- خلافة الإمام الحسن وظروفها (١)
- خلافة الإمام الحسن وظروفها (٢)

١٤

خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها (١)

أُلقيت يوم السبت ١٢/ رجب / ١٣٨٨هـ

قلنا[1]: إنّه بعدما خرّ الإمام عليعليه السلام صريعاً في المسجد كانت بذرة التناقض [في] التجربة الإسلاميّة ـ التي تزعّم قيادتها لإعادة كامل الصيغة الإسلاميّة إلى الحياة ـ بدأت تستفحل وتشتدّ.

هذه البذرة هي التي سمّيناها في ما سبق بـ«الشكّ»، ودرسنا الظروف الموضوعيّة والنفسيّة والتاريخيّة التي كوّنت هذا الشك. ونقصد من هذا الشكّ: الشكَّ في القائد، في نظريّة القائد وأُطروحته التي يكافح من أجلها ويحارب على أساسها.

وكان هذا الشكّ ـ على ما أوضحنا في ما سبق[2] ـ شكّاً مصطنعاً ولم يكن شكّاً حقيقيّاً، أي: بالرغم من أنّه كان يعيش وجدانات أكثر القطّاعات التي دخلت في حكم الإمام عليعليه السلام، [إلّا أنّه] لم يكن شكّاً بحكم المنطق أو بحكم [سيرة الإمام] عليعليه السلام، وإنّما كان شكّاً مستوحىً من إرهاق هؤلاء وانخفاض أنفاسهم [بسبب] خطّ الجهاد الطويل المتواصل.

---

(١) في المحاضرات: الحادية عشرة والثانية عشرة من هذا الكتاب، وسيقولهقدس سره في المحاضرتين التاسعة والعاشرة المتأخِّرتين زماناً. وما يأتي من أوّل المحاضرة إلى أواسط بحث (لماذا قَبِل الإمام الحسنعليه السلام أن يبايع؟) سقط من المحاضرة الصوتيّة وأثبتناه من (غ) و(هـ).

(٢) في المحاضرات نفسها.

اقتناع الأُمّة بالقضيّة شرط نجاحها:

وما من رسالةٍ وقائدٍ يحمل[(١)] أُطروحةً رساليّةً تكون فوق مصالح الأفراد وفوق حدود وجوداتهم، ما من رسالةٍ وقائدٍ يحمل رسالةً من هذا القبيل يمكن أن ينجح في خطّ عمله ما لم يحصل على اقتناع الأُمّة بالأُطروحة والقضيّة.

القضيّة التي [هي] أكبر من مصالح هذا الفرد بالذات وذاك الفرد بالذات لا يمكن أن تضمن نجاح مصلحة هذا الفرد بالذات وهذا الفرد بالذات؛ فالمصالح المحدودة المقيّدة قد تتعارض مع قضيّة كبيرة.

وهذه القضيّة الكبيرة جدّاً ـ أيّ قضيّة كبيرة جدّاً تطرح على المسرح السياسي أو الاجتماعي ـ لا يمكن أن تنجح إلّا إذا حصلت على اقتناعٍ من الأُمّة بصحّتها ونبلها وواقعيّتها وضرورة تطبيقها.

وهنا لا يلزم أن يحصل هذا الاقتناع من الأُمّة ككلّ، بل يكفي أن يحصل هذا الاقتناع لدى جزءٍ مهمٍّ من الأُمّة، ثمّ يُحصّل هذا الجزء باقي الأجزاء، فيكسبها بالتدريج إلى الاقتناع، كما وقع في أيّام النبي صلى الله عليه وآله:

[في أيّام النبي صلى الله عليه وآله][(٢)] كان هناك اقتناع من قبل جزءٍ من الأُمّة، وكان هناك استسلام وتجميد من قبل أجزاء أُخرى سمّاها القرآن بـ«المنافقين»؛ الجزء المنافق من الأُمّة كان جمّد مهمّة محمّد صلى الله عليه وآله[(٣)]، والجزء المقتنع من الأُمّة هو الطليعة التي تحمل بيدها الرسالة، وتحارب من أجلها، وتبذل دمها في سبيل تحقيق الأهداف.

---

(١) في (غ) و(هـ): «يحسن»، وما أثبتناه للسياق، ويؤيّده ما يأتي.

(٢) ما بين عضادتين كرّرناه للسياق.

(٣) كذا في (غ)، وفي (هـ): «بالمنافقين، الجزء المناقض. وكان محمّد والجزء المقتنع...».

تحوّل الشكّ بعد عهد الإمام علي عليه السلام كيفيّاً وكميّاً:

هذا المنطق كان يقضي على التجربة التي خلّفها الإمام عليٌّ بأن تعيش حالة مضطربة من التناقض؛ لأنّ هذا الاقتناع ـ الذي هو شرطٌ ضروريٌّ في إنجاح أيّ أُطروحة رساليّة تتعدّى حدود ومصلحة الأفراد ـ لم يكن متوفّراً في أواخر عهد الإمام علي عليه السلام؛ بحكم الظروف التي كان يعيشها الإمام.

وهذا الشكّ كان قد بدأ من عهد الإمام علي عليه السلام، واستمرّ بعده حينما تولّى الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم، غير أنّه تحوّل من شكّ سلبيٍّ على الأكثر إلى شكٍّ إيجابيٍّ على الأكثر:

١ ـ كان هذا الشكّ في عصر الإمام علي عليه السلام شكّاً سلبيّاً إذا استثنينا قصّة الخوارج، هذا الشكّ في أُطروحة الإمام كان شكّاً سلبيّاً، يعني أنّه كان ينعكس على مستوى سلبي لا على مستوى إيجابي، ينعكس على مستوى التخاذل، والتميّع، والتثاقل عن الزحف، والتلكّؤ في تلبية الأوامر العسكريّة التي كان يصدرها الإمام علي عليه السلام بالالتحاق بخطّ الجهاد[1]، فكان ينعكس في مواقع سلبيّة على الأكثر، بينما أخذ هذا الشكّ ينعكس بعد الإمام عليٍّ انعكاساً إيجابيّاً.

٢ ـ ومن ناحيةٍ أُخرى أيضاً اتّسع نطاقه، فشمل قطّاعاتٍ أكثر من المجتمع الذي كانت تحكمه التجربة.

يعني: طرأ على هذه التجربة:

أ ـ تحوّلٌ كيفيٌّ ينعكس إيجابيّاً على الأكثر، كما كان ينعكس سلبيّاً

---

(١) قال الإمام علي عليه السلام: «فإذا أمرتكم بالسّير إليهم في أيّام الحرّ قلتم: هذه حمارّة القيظ، أمهلنا يسبّخ عنّا الحرّ. وإذا أمرتكم بالسّير إليهم في الشّتاء قلتم: هذه صبارّة القرّ، أمهلنا ينسلخ عنّا البرد. كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ؛ فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون فأنتم والله من السّيف أفرّ» نهج البلاغة: ٧٠، الخطبة ٢٧.

على الأكثر.

ب ـ وتحوّلٌ كيفيٌّ جعله يطغى ويشتدّ بالتدريج في الجماهير التي كان من المفروض أن تساهم في مواصلة العمل والجهاد في إنجاح التجربة.

أرضيّة بذرة الشكّ في عهد ما بعد الإمام علي عليه السلام:

أمّا لماذا طغى هذا الشكّ كيفيّاً وكميّاً بعد الإمام علي عليه السلام؟ فهذا هو السؤال الذي يجب أن يجاب عنه.

والجواب ينحصر في النقاط التي ذكرناها في أبحاثنا السابقة[١].

هذا الشكّ بدأ في عهد الإمام علي عليه السلام، وكان فحوى هذا الشكّ ومضمونه هو [تشكيك] الإنسان العراقي المجاهد تحت لواء الإمام عليٍّ عليه السلام في أن تكون معركة الإمام عليٍّ عليه السلام مع معاوية هي معركة الإسلام مع الجاهليّة في قالبها الجديد.

هذا المفهوم الذي كان يعطيه الإمام علي عليه السلام بقوله، بوجوده، بسلوكه، بكلّ جوانبه[٢] ومشاعره.. هو أنّ معركته مع معاوية كانت معركة بالصيغة الإسلاميّة الكاملة الشاملة للحياة مع الجاهليّة، ولكن بالثوب الجديد وعلى مستوى جديد؛ لأنّ الجاهليّة بالأمس لم تكن تقتنع إلّا بإنكار الصيغة الإسلاميّة رأساً، بإنكار النبوّة رأساً، ولكن بعد ذلك، وبعد أن سيطر الإسلام على مقاليد كسرى وقيصر ومَلَك المعمورة، بعد هذا أصبحت الجاهليّة بإزاء أمرٍ واقعٍ استشعرت في مقابله [بالخطر][٣]، فعدّلت من موقفها: فبينما كانت تريد أن تنكر الإسلام ككلّ، بدأت تحاول أن تنكر جزءاً من الإسلام، وهو الجزء الذي يتعارض مع واقع مصالحها السياسيّة والاجتماعيّة وفهمها لأساليب الحياة

(١) في المحاضرات نفسها التي أشرنا إليها في بداية هذه المحاضرة.

(٢) كذا في (غ)، وفي (هـ): «جوارحه».

(٣) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

وتقييمها للسلوك.

هذه المعركة كان يعطيها الإمام لا بقوله فقط، بل بسلوكه ووجوده وتصديقه بهذا المفهوم. استطاع الإمام علي أن [يصنع] المعجزة في سبيل أن يجعل شعباً يواكب هذا المفهوم ويقتنع به، وهو شعبٌ لم يعِش أيّام الرسالة الأُولى، ولم يعِش قضيّة الإسلام على عهد النبوّة.

شعب العراق دخل الإسلام منذ سنين[1]، ولم تكن أكثر القواعد الشعبيّة التي اعتمد عليها الإمام علي عليه السلام قد عاشت أكثر أيّام الإسلام الأُولى، أيّام الوحي الأُولى، مع هذا كسب الإمام هذا الاقتناع إلى درجةٍ ما وإلى وقتٍ ما.

ثمّ بدأ الشكّ في ذلك، [بدأ] الشكّ في قضية عليٍّ عليه السلام مع معاوية: هل هي قضيّة الإسلام مع الجاهليّة بثوب جديد؟ أو هي قضيّة صراع بين شخصين، بين أُسرتين، بين اتجاهين كانا يتحاربان قبل الإسلام واستأنفا الحرب بعد الإسلام؟

كان هاشم مع أُميّة، كان عبد المطلب مع أُمويٍّ آخر[2]، كان محمّد مع أبي سفيان، كان عليٌّ مع معاوية، هل هذه الحرب هي استمراريّة لاتجاهين تاريخيّين وعلاقة تاريخيّة متأخّرة بين هاتين القبيلتين؟

هذا الشكّ بدأ يوجد وينمو في عصر الإمام علي عليه السلام، لكن هل المنمّي له هو [الإمام علي عليه السلام] أو سياسة الإمام علي عليه السلام؟

بل هو الإرهاق الشعبي، انقطاع النفس، رغبة الشعب، حبّ السلامة.. هذا هو الذي نمّى هذا الشكّ.

---

(١) بدأ المسلمون بفتح العراق سنة ١٢ هـ، فراجع: تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٣: ٣٤٣؛ الفتوح ١: ٧٢.

(٢) وهو: حرب بن أُميّة.

عوامل طغيان الشكّ كيفيّاً وكميّاً بعد الإمام علي عليه السلام:

هذا الشكّ بدأ يشتدّ ويقوى بعد الإمام علي عليه السلام؛ فإنّ موت الإمام كان [مثيراً] لعوامل عديدة، هذه العوامل العديدة أدّت إلى تنمية هذا الشكّ كيفيّاً وكميّاً.

١ ـ العامل الأوّل: الفراغ الذي خلّفه رحيل الإمام علي عليه السلام:

أوّل هذه العوامل: لحظة الفراغ؛ فالإمام علي عليه السلام ملأ المركز السياسي للتجربة، وكان كلّ إنسان في التجربة مشدوداً بواقع حياته إلى الاعتراف بسلطته وشرعيّته وأحقيّته.

ثمّ فُقد الإمام في لحظة مفاجئة من دون سابقِ تمهيدٍ أو إعدادٍ لهذا الخطّ. وهذا الاغتيال الذي أودى بحياة هذا الإمام العظيم أدّى بالمسلمين الذين عاشوا في كنف التجربة التي تزعمّها الإمام علي عليه السلام إلى أن يعيشوا لحظة فراغٍ سياسي[١].

حينما انطفأت الشعلة، حينما خلت الساحة من الإمام، أخذوا يحسّون بأنّهم يفقدون اختيارهم، بأنّهم أصبحوا في مركز لا بدّ لهم [فيه من] أن يفكّروا من جديدٍ في أنّ أيّ الطريقين لا بدّ أن يختاروا! [بينما كانت] استمراريّة الحاكم تمنع من أن يشعروا بأنّهم في موقفٍ يتيح لهم التفكير من جديد.

إنّ انطفاء الشعلة وخلوّ الساحة من الإمام القائد عليه السلام أدّى بهؤلاء إلى أن أصبحوا يشعرون بأنّهم في موقفٍ جديد، و[أنّ عليهم أن] يدرسوا قضيّتهم الجديدة، ويدرسوا ـ على ضوء مصالحهم ـ الاتجاهَ والسلوكَ الذي يجب أن يُطبَّق بالنسبة إلى مستقبلهم.

---

(١) أعدنا صياغة هذا المقطع وفق مراده قدس سره؛ لأنّ العبارة في (غ) و(هـ) شديدة الاضطراب.

العامل الثاني: نظرة الأُمّة إلى كيان الحسن عليه السلام بوصفه الكيان الطارئ:

إنّ الإمام الحسن عليه السلام حينما تسلّم مقاليد الحكم كان هناك كيانٌ سياسيٌّ قائمٌ يحكم في العالم الإسلامي، وهذا الكيان يتمثّل في حكم الشام الذي كان يقوده معاوية.

كان هناك كيانان سياسيّان حاكمان في العالم الإسلامي:

أحدهما: يقوده الإمام الحسن عليه السلام.

والآخر: يقوده معاوية.

وهذا الكيان الذي يقوده معاوية اكتسب في نظر معاوية وأهل الشام شرعيّة ثوب الخلافة بعد التحكيم في أعقاب معركة صفّين. ولهذا أخذ معاوية يعيش مع قاعدته كما يعيش الخليفة مع رعيّته.

والإمام علي عليه السلام كان استمراريّة لوجودٍ سياسيٍّ أسبق وخلافة شرعيّة أسبق زمنيّاً من هذا الكيان السياسي القائم بالشام.

لكن بعد أن خلا الميدان من الإمام علي عليه السلام وجاء الحسن عليه السلام يتسلّم مقاليد الحكم، كان في الذهنيّة العامّة والتصوّر العام للإنسان العادي المسلم بأنّ هناك شيئاً يملأ الفراغ إلى حدّ ما، فلا بدّ من التفكير من جديد؛ لأنّه من اللازم بناء كيانٍ سياسيٍّ جديد، أو الالتحاق بهذا الكيان القائم[1].

مثل هذا التفكير لم يكن موجوداً في أيّام الإمام علي عليه السلام، بل إنّ

(١) يقصد رحمه الله: أنّه عند مجيء الإمام الحسن عليه السلام، كان كيان معاوية السياسي ـ بنظر المسلم العادي غير الواعي ـ يملأ فراغ الحكم إلى حدٍّ ما ويفي بالغرض الذي يتصوّره. وقد جعل بروز الإمام الحسن عليه السلام على المسرح هذا المسلمَ العادي يعيد التفكير في مستلزمات الاستجابة له عليه السلام؛ لأنّ الاستجابة تستلزم بناء كيانٍ جديد، بينما كان هذا المسلم العادي وغير الواعي يملك خياراً آخر أقلّ كلفة بالنسبة له، يتمثّل بالالتحاق بكيان معاوية القائم قبل كيان الحسن عليه السلام. ومن هنا نشأت حالة الشكّ في ضرورة الالتحاق بركب الحسن عليه السلام.

هذا الكيان السياسي القائم في الشام طرأ في أيّام علي عليه السلام، بينما الآن كيان الحسن عليه السلام يعتبر في ذهن[١] الإنسان العادي هو الطارئ على الكيان السياسي.

فقد استغلّ معاوية هذه النقطة في كتابه إلى الإمام الحسن عليه السلام حيث قال ما مضمونه: «قد تمّت الخلافة لي ولزمتك منذ يوم التحكيم، وأنت الآن لا بدّ لك أن تدخل في ما دخل الناس»[٢].

معاوية يتكلّم بلغة الخليفة، بينما لم يكن يمكنه أن يتكلّم بلغة الخليفة في عهد عليٍّ عليه السلام؛ لأنّه هو الذي شقّ عصا الطاعة عليه عليه السلام، فلو تكلّم لم يكن مثل هذا الكلام قادراً على أن يزرع الشكّ قدرةَ كلامه مع الإمام الحسن عليه السلام [على فعل ذلك].

فهذا العامل الثاني [يثير الشكّ] في أذهان العاديّين غير الواعين في أنّه: هل من الضروري الحفاظ [على هذا الكيان]؟ أو هل من الضروري بناء هذا الكيان إلى جانب ذلك الكيان؟ أو بالإمكان الانسحاب من ذلك الكيان؟

العامل الثالث: الاعتبارات الشخصيّة القائمة في أمير المؤمنين عليه السلام:

العامل الثالث هو الاعتبارات الشخصيّة القائمة في أمير المؤمنين؛ فالإمام الحسن والإمام علي عليهما السلام في منطق العصمة سواء، وفي منطق النصّ الإلهي سواء، ولكنّهما في منطق الجماهير وقتئذٍ لم يكونا سواء.

ونحن نعلم بأنّ التجربة والحكم الذي كان يمارسه الإمام علي عليه السلام لم يكن قائماً على أساس نصٍّ إلهيٍّ أو [على أساس] العصمة، وإنّما كان استمراراً

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «أذهان».

(٢) «إلى أن اختار رجلاً واخترنا رجلاً ليحكما بما يصلح عليه أمر الأمّة وتعود به الألفة والجماعة، وأخذنا على الحكمين بذلك عهد الله وميثاقه، وأخذا منّا مثل ذلك على الرضا بما حكما، ثمّ إنّهما اتّفقا على خلع أبيك فخلعاه، فكيف تدعوني إلى أمر إنّما تطلبه بحقّ أبيك وقد خرج أبوك منه؟ فانظر لنفسك أبا محمّد ولدينك، والسلام» الفتوح ٤: ٢٨٦؛ وقريبٌ منه: شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٥.

لخطّ السقيفة، غاية الأمر [أنّ] هذه الجماهير التي أخطأت حظّها في المرّة الأُولى وفي المرّة الثانية وفي المرّة الثالثة، أصابت حظّها في المرّة الرابعة. فهذه التجربة كانت تقوم على أساس مفهومٍ جماهيري، لا على أساس نظريّة العصمة والنصّ الإلهي.

وهنا يدخل في تقييم الحاكم اعتبارات كثيرة كانت الجماهير تعيشها؛ فالجماهير كانت تعيش اعتباراتٍ عديدةً عن الإمام عليٍّ عليه السلام، ولا تعيش مثل هذه الاعتبارات عن الإمام الحسن عليه السلام:

أ ـ فمن ناحية [نجد] أنّ الإمام [عليّاً عليه السلام] سوابقه من أيّام الرسول، صحبته الطويلة، مواقفه العظيمة في الأيّام الأُولى من الإسلام، سلطته الروحيّة والعلميّة في آفاق الصحابة، كلّ هذا يجعل من الإمام علي عليه السلام رجلاً عظيماً في أنظار المسلمين، رجلاً أهلاً لِأنْ تُسلَّم إليه مقاليد الأُمور، حتّى في اللحظة الحرجة.

أمّا الإمام الحسن عليه السلام، فلصغر سنّه وعدم وجود تاريخٍ مماثلٍ لديه من هذا القبيل لم يكن يملك القدرة على الإخضاع النفسي ـ على إخضاع المسلمين نفسيّاً ـ بالشكل الذي كان يتاح للإمام [علي] عليه السلام.

ب ـ من ناحيةٍ أُخرى، فإنّ البيعة التي حصل عليها الإمام علي عليه السلام كانت أوضح شرعيّةً ـ في نظر الجماهير التي تؤمن باتجاه السقيفة ـ من بيعة الإمام الحسن عليه السلام؛ لأنّ بيعة الإمام علي عليه السلام تمّت في المدينة، وتمّت على يد الصحابة، ولم يختلف في ذلك إلّا قليلون، والباقون كلّهم بايعوا الإمام عليّاً عليه السلام وكانوا القاعدة الأُولى لبيعته، وكان هناك عددٌ كبير من الصحابة لا يزال موجوداً على المسرح الاجتماعي والسياسي.

كلُّ هذا يعطي لحاكميّة الإمام علي عليه السلام البهاء والشرعيّة والقدرة على

التأثير والنفوذ والإخضاع لنفوس الآخرين، ومثل هذا لم يكن متوفّراً للإمام الحسن عليه السلام.

العامل الرابع: شبهة وراثة الخلافة:

من عوامل تعميق الشكّ هو أنّ الحسن عليه السلام تسلّم مقاليد الحكم عقيب أبيه مباشرة، فاستوحى الإنسان العادي الضعيف غير الواعي من هذا العمل قرينةً جديدةً على ذلك التصوّر الخاطئ.

الإنسان الذي يفترض أنّ معركة عليٍّ عليه السلام مع معاوية [هي] معركة أُسرة مع أُسرة، معركة عشيرة مع عشيرة، لا معركة رسالة مع رسالة.. الإطار القَبَلي للمعركة، هذا الإطار عزّزه أنّ الحسن عليه السلام تولّى الإمامة والخلافة بعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

طبعاً، هذا التعزيز لم يكن [ليوجد] لو افترضنا أنّ الجماهير المسلمة كانت واعية، وكانت تعيش نظريّة الإسلام عن الإمام حقيقةً. ولكن، حيث إنّ الجماهير لم تكن واعية، وكانت هي جماهير السقيفة التي قالت: «من ينازعنا سلطان محمّد»[1]، هذه الجماهير كانت تحمل تلك الروح، ولهذا استوحت وتصوّرت أنّ تسلّم الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم عقيب استشهاد الإمام علي عليه السلام قرينةٌ على أنّ القصّة قصّة بيت في مقابل بيت، وليست قصّة رسالة في مقابل رسالة.

والذي منع الإمامَ أميرَ المؤمنين عليه السلام من الإعلان الرسمي والسياسي على مستوى الجماهير عن [خلافة] الإمام الحسن عليه السلام له في المركز السياسي هو تفادي مثل هذا التصوّر. ولهذا أوصى إلى الحواريّين ـ الذين يؤمنون بالنظريّة الإسلاميّة الصحيحة للإمامة ـ بإمامة الحسن عليه السلام، وعرّفهم بأنّ الحسن عليه السلام هو

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٥، ٢٩؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٣: ٢٢٠.

الإمام، وهو الحجّة من قبل الله والوصيّ من بعده[١]، إلّا أنّه ـ بوصفه حاكماً ورئيساً للدولة ـ لم يعلن إعلاناً رسميّاً سياسيّاً أنّ الحسن عليه السلام هو الذي يتسلّم الأمر من بعده.

العامل الخامس: تردّد الأُمّة في سريان الشكّ إلى القائد نفسه:

من عوامل تعمّق الشكّ في نفوس المسلمين هو: أنّ الإمام الحسن عليه السلام ـ لظروفٍ سوف نشرحها[٢] ـ لم يكن قد تسرّع للإعلان عن عزمه على الحرب مع معاوية والاشتباك المسلّح معه.

عدم إعلان الإمام الحسن عليه السلام وعدم تسرّعه في الإعلان عن عزمه على الاشتباك المسلّح مع معاوية استغلّه معاوية، وأشاع على أساسه أنّ الحسن عليه السلام يفكّر في الصلح[٣].

كانت هذه الإشاعة قائمة على أساس هذه النقطة، وكانت لهذه الإشاعات مساهمة كبيرة جدّاً في توسيع نطاق الشكّ عند المسلمين، وتردّدهم في أن تكون هذه القضيّة التي يحاربون من أجلها قضيّةً يَشُكّ فيها القائد نفسُه.

تعمّق الشكّ واتّساع رقعته نتيجة العوامل الخمسة:

هذه العوامل الخمسة أدّت إلى توسيع نطاق الشكّ، هذا الشكّ المصطنع بعد وفاة الإمام [علي عليه السلام] في تسلّم الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم والزعامة

---

(١) «عن سليم بن قيس الهلالي قال: شهدت أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن وأشهد على وصيّته الحسين ومحمّداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثمّ دفع إليه الكتاب والسلاح» الكافي ١: ٢٩٧، الحديث ١؛ معاني الأخبار: ٣٠٦، الحديث ١.

(٢) قريباً، تحت عنوان: الحسن عليه السلام يعتزم تأخير المعركة بهدف التفرّغ للقضاء على الشكّ.

(٣) «وكان معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن من يتحدّث أنّ قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، ويوجّه إلى عسكر قيس من يتحدّث أنّ الحسن قد صالح معاوية وأجابه» تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٤؛ وانظر كذلك: مقاتل الطالبيّين: ٧٣.

ـ والذي اشتدّ على أساس هذه العوامل ـ تحوّل ـ كما قلنا ـ كيفيّاً من طاقة سلبيّة إلى طاقة إيجابيّة، وتحوّل كمّيّاً من شكٍّ يعيشه بعض الأفراد والجماعات إلى شكٍّ تعيشه الجماهير في مختلف قطّاعات هذا المجتمع الذي كان يحكمه الإمام الحسن عليه السلام.

هذا الشكّ يبدو بكلّ وضوح ومنذ اللحظة الأُولى لتسلّم الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم، أو منذ اللحظة الأُولى التي [فجع] فيها الإمام عليه السلام باستشهاد أبيه إلى اللحظة الأخيرة التي تمّ فيها تسليم الأمر لمعاوية.

في كلّ هذه الفترة القصيرة ـ منذ اللحظة الأُولى إلى اللحظة الأخيرة ـ نحن نجد الشواهد تلو الشواهد والدلائل تلو الدلائل على هذا الشكّ ـ المرير، المتزايد، المتنامي في نفوس الجماهير ـ في القائد، وفي الأُطروحة، وفي الأهداف، وفي الرسالة.

ظروف بيعة الإمام الحسن عليه السلام:

الإمام علي عليه السلام يستشهد، ويعلن الإمام الحسن عليه السلام عن وفاة الإمام العظيم، ولم يعلن عن مسألة الخليفة لتعيين ما يملأ به الفراغ السياسي الذي تركه الإمام علي عليه السلام، [بل] يذهب الإمام الحسن عليه السلام إلى المسجد يؤبّن الإمام عليّاً، [يقرّظ][1] أباه وينعاه، وفي هذا [التقريظ] يحاول أن يدفع الشكّ بقدر ما يمكن لكلماتٍ أن تدفع الشكّ. أراد أن يستعرض صورةً ملخّصةً عن هذا الإمام العظيم الذي خرّ شهيداً في المسجد بين المسلمين، أراد أن يقدّم بين المسلمين صورةً موجزةً عن هذا الرجل النظيف الذي لم يعش لحظةً إلّا لرسالته ولإسلامه.

بعد أن ألقى [الخطبة] التي أراد فيها أن يدفع الشكّ ـ بقدر ما يمكن

(١) في (غ) و(هـ): «يقرّر.. التقرير»، وتحتمل بشدّة أن يكون الصادر منه قدس سره ما أثبتناه.

لخطبةٍ أن تدفع الشكّ ـ عن الإمام عليّ عليه السلام، بعد هذا وقف ساكتاً يتأمّل ليرى ماذا سيكون ردّ الفعل؟ ماذا يكون موقف المسلمين من هذه اللحظة، من ملء الفراغ، من القضيّة المطروحة الآن؟ وهي قضيّة ملء الفراغ الذي تركه الإمام علي عليه السلام.. لمن يتوجّه المسلمون الآن؟

كلّ المسلمين سكتوا، لم يقم أحد، لم يجب أحد، لم يُبرِز أحدٌ شيئاً، هؤلاء المسلمون المجتمعون في المسجد، هؤلاء هم الأُمناء على التجربة، هم أصحاب علي، هم قادة هذا المجتمع، هم الطليعة التي كان بها يصول وبها يكافح وبها يجاهد هذا الإمامُ العظيم، كلّهم سكتوا، لم يجب [أحد]، لم يقل [أحدٌ] شيئاً أبداً.

قام ابن عمّه عبد الله بن عبّاس فقدّم أُطروحة خلافة الإمام: قال بأنّ عليّاً عليه السلام إن كان قد ذهب فهناك ابنه الحسن عليه السلام سوف يواصل طريقه، سوف يسير في خطّه، سوف يحمل اللواء، سوف نسير في كنفه.

حينما قدّم هذا الشعار أو هذه الأُطروحة بدؤوا: شخصٌ [يقوم] من زاوية المسجد، وشخصٌ من زاوية أُخرى، وهكذا.. فاستجابوا مع هذا الشعار وبويع الإمام عليه السلام(١).

لماذا قَبِل الإمام الحسن عليه السلام بأنْ يُبايَع في ظلّ تنامي مرض الشكّ؟

وهنا قد يقول القائل: إنّ الإمام الحسن لماذا قبل أن يبايَع وهو يشعر بهذا الشكّ المتزايد المتنامي؟ هذا الشكّ الذي يُعجز القيادة عن إنجاح أهدافها

(١) مقاتل الطالبيّين: ٦٢؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٧ ـ ٩؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ٣٠. وفي الأوّل: «ابن عبّاس»، وفي الثاني والثالث: «عبدالله بن العبّاس»، غير أنّ في: صلح الحسن عليه السلام: ٥٨ نقلاً عن (شرح نهج البلاغة ط.ق ٤: ١١): «عبيد الله بن العبّاس»؛ باعتبار أنّ عبد الله بن العبّاس لم يكن بالكوفة يومئذٍ. وفي: الحدائق الورديّة في مناقب الأئمّة الزيديّة ١: ١٦٦ أنّ القائل: «قيس بن سعد بن عبادة».

والوصول إلى أغراضها. لماذا وافق أن يبايَع وأن يتسلّم زمام الحكم في لحظةٍ يائسة؟

والجواب: أنّه لو لم يقبل بذلك، لو أنّه رفض أن يبايَع، لو أنّه لم يتسلّم مقاليد الحكم بعد الإمام علي عليه السلام، لقيل بأنّ هذا الشكّ الذي يعيشه المسلمون يتسرّب إلى نفس القادة أنفسهم، إلى الحسن عليه السلام نفسه، وبأنّ الحسن عليه السلام أصبح يعيش هذا الشكّ في صحّة هذه المعركة، في ضرورة هذه المعركة، في أهميّة هذه المعركة، فكان لا بدّ لكي يثبت الإمام الحسن عليه السلام أنّ القادة لا يزالون يؤمنون بقضيّتهم وأُطروحتهم على المستوى الذي [كانوا] يؤمنون به من الساعة الأُولى [أن] يبادر ويقبل البيعة التي عرضها المسلمون وقتئذٍ، ويتحمّل المسؤوليّة، مسؤوليّة الحكم.

وهكذا كان[1]، تحمّل عليه السلام مسؤوليّة الحكم بالرغم من هذا الشكّ؛ لأجل أن لا يُتّهم القائد بأنّه أيضاً بدأ يشكّ.

الحسن عليه السلام يعتزم تأخير المعركة بهدف التفرّغ للقضاء على الشكّ:

أنا أُقدّر وأظنّ أنّ الإمام الحسن عليه السلام حينما تسلّم مسؤوليّة الحكم كان عازماً على أن لا يُسرع في خوض معركة مسلّحة مع معاوية بن أبي سفيان، كان يودّ أن تؤجّل المعركة المسلّحة إلى أمدٍ طويل؛ وذلك لكي يصفّي ـ أو لكي يحاول أن يصفّي ـ هذا الشكّ في الداخل، لكي يتفرّغ للظروف الداخليّة وللمجتمع الذي يحكمه، ويحاول أن يخفّف من حدّة هذا الشكّ، ويقضي على بعض منابعه، ويعالج بعض أسبابه، وينعش من جديد نفسيّة الفرد المسلم في داخل هذا المجتمع، حتّى إذا استطاع في نهاية الشوط أن يكسب درجةً معقولةً من الاقتناع بالقضيّة والأُطروحة، حينئذٍ يبدأ معركته المسلّحة مع

(١) إلى هنا ينتهي مقدار ما أثبتناه من (غ) و(هـ)، وما يأتي أثبتناه من المحاضرة الصوتيّة.

معاوية بن أبي سفيان، وهذا هو الذي جعله لا يعلن عزمه على الحرب منذ اللحظة الأُولى.

جاءه بعض خواصّه، طلبوا منه الإعلان السريع عن الحرب، والسفر السريع إلى ميدان القتال قبل أن يتقدّم معاوية، وقبل أن يخرج معاوية من بلاده. إلّا أنّه عليه السلام رفض ذلك[١]، وكان رفضه مرتبطاً ـ على ما أظنّ ـ ارتباطاً وثيقاً بالظروف النفسيّة التي يعيشها المجتمع الإسلامي الذي يحكمه وقتئذٍ.

كانت هذه الظروف النفسيّة بحاجة إلى علاج أكثر ممّا هي بحاجة إلى حرب، بحاجة إلى توعية أكثر ممّا هي بحاجةٍ إلى قتال، بحاجة إلى إعطاء فرصة جديدة لكي يدرسوا من جديد الأُطروحةَ ونبلَها وأهدافَها وخيراتِها وبركاتِها قبل أن يكلَّفوا بقتال جديد. ولهذا تمهَّل [الإمام الحسن عليه السلام] وتريّث في موضوع القتال، إلّا أنّ معاوية بن أبي سفيان لم يتمهّل ولم يتريّث.

معاوية يدخل الحرب ولا يوفّر خياراته الأُخرى:

معاوية بن أبي سفيان بعد مقتل الإمام [علي] عليه السلام بشهرٍ أو أقلّ أو شهرين أو ثلاثة ـ على اختلاف التقادير في الروايات[٢] ـ خرج مع جيشٍ ليغزو العراق.

معاوية بن أبي سفيان طبعاً كان يقدّر ـ بفهمه للظروف وقتئذٍ ـ أنّ الظروف مؤاتية ـ باعتبار ما خلّفه الإمام علي من فراغات سياسيّة ونفسيّة وفكريّة ـ

(١) «وإذا بكتاب عبد الله بن عبّاس قد ورد عليه من البصرة وإذا فيه: لعبد الله الحسن أمير المؤمنين من عبد الله بن عبّاس: أمّا بعد، يا ابن رسول الله! فإنّ المسلمين ولّوك أمرهم بعد أبيك رضي الله عنه، وقد أنكروا أمر قعودك عن معاوية وطلبك لحقّك، فشمّر للحرب وجاهد عدوّك» الفتوح ٤: ٢٨٣؛ «قال جندب: ..قلت له: إنّ الرجل سائرٌ إليك، فابدأ أنت بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعمله» مقاتل الطالبيّين: ٦٨.

(٢) «وأقام الحسن بن علي بعد أبيه شهرين، وقيل: أربعة أشهر... وأقبل معاوية لمّا انتهى إليه الخبر بقتل علي، فسار إلى الموصل بعد قتل علي بثمانية عشر يوماً» تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٤.

لأنْ يوقع ضرراً كبيراً بالمجتمع الذي يحكمه عليٌّ، وأن يحقّق مكسباً سياسيّاً جديداً له، وقد يمكن ارتفاع هذا المكسب إلى درجة تصفية المعركة نهائيّاً.

إلّا أنّه ـ مع هذا ـ لم يكن عند معاوية فكرةٌ كاملةٌ عن كلّ الظروف النفسيّة والأبعاد التي يعيشها المجتمع الإسلامي الذي يحكمه الإمام الحسن ﷺ.

ولهذا، في نفس الوقت الذي تهيّأ [فيه] للمعركة المسلّحة كان يحاول ـ إلى جانب المعركة المسلّحة ـ أن يستخدم الوسائل الأُخرى التي بإمكانه أن ينتصر بها على عدوّه.

الإمام ﷺ يستنفر المسلمين للجهاد:

في الرسالتين الأخيرتين المتبادلتين بين معاوية والحسن انتهى النقاش، وقُرّر من قبل الحسن ﷺ [أن يخوض] الحرب. خرج الإمام الحسن ﷺ إلى المسجد، أعلن بأنّ «معاوية بن أبي سفيان قد اتّجه مع جيشه لمحاربتكم»، واستنفر المسلمين للجهاد.

إلّا أنّ هذا الشكّ الذي [ذكرناه] ظهر من جديدٍ ظهوراً سلبيّاً في تلك اللحظة؛ حيث إنّه لم يُجِب الإمامَ الحسن ﷺ أحدٌ بكلمةٍ سوى شخص واحد، هذا الشخص الواحد هو عديُّ بن حاتم.

عديُّ بن حاتم (رضوان الله عليه) قام وقال لهؤلاء المسلمين بأنّ «هذا الإمام يأمر وأنا أُطيع، وليس على الجندي إلّا أن يطيع، وهذه دابّتي بباب المسجد، سوف أركبها وأخرج إلى النخيلة ولا أرجع إلى بيتي»، وخرج، وكان أوّل من خرج للجهاد، وتبعه ألف من عشيرته[1].

---

(١) «ثمّ استقبل الحسن بوجهه فقال: أصاب الله بك المراشد، وجنّبك المكاره، ووفّقك لما يحمد ورده وصدره، فقد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا منك، وأطعناك في ما قلت وما رأيت، وهذا وجهي إلى معسكري، فمن أحبّ أن يوافيني فليوافِ. ثمّ مضى لوجهه، فخرج من المسجد ودابته بالباب، [فركبها] ومضى إلى النّخيلة» مقاتل الطالبيّين: ٧٠؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ٣٩؛ بحار

يقول في (البحار): [جهّز][(١)] عليه السلام جماعة معه، وخرج إلى النخيلة، وبقي عشرة أيّام في النخيلة، واستخلف ابن عمّه[(٢)] على الكوفة لكي يعبّئ باقي القوى المقاتلة، فلم يَرِدْ أحد[(٣)].

بقي الإمام الحسن عشرة أيّام في النخيلة ينتظر عسكراً، ينتظر جيشاً، فلم يرد جيش، فيضطرّ الإمام الحسن عليه السلام إلى أن يرجع إلى الكوفة مرّةً أخرى، رجع مرّةً أُخرى ليعبّئ بنفسه جيشاً[(٤)].

عبّأ جيشاً، تقول كثيرٌ من الروايات: إنّه يبلغ اثني عشر ألفاً[(٥)]، واتّجه هذا الجيش إلى مسكن، واتّجه هو مع أربعة آلاف أو ستّة آلاف إلى المدائن[(٦)].

الأنوار ٤٤: ٥٠. أمّا ما ذكره رحمه الله من أنّ ألف فارس من عشيرته تبعوه فليس مثبتاً فيها، ولم نجده في غيرها، وأغلب الظنّ أنّ منشأ الخطأ هو أنّ الشيخ آل ياسين رحمه الله بعد نقله موقفَ عدي قال: «وفي طيء ألف مقاتل لا يعصون لعديٍّ أمراً» صلح الحسن عليه السلام: ١٠١. ولكنّه ليس ناظراً إلى ما نحن فيه، بل إلى قول عديٍّ للإمام علي عليه السلام في قصّة الخوارج: «يا أمير المؤمنين! معي ألف رجل من طيء لا يعصونني، وإن شئت أن أسير بهم سرت» تاريخ اليعقوبي ٢: ١٩٥.

(١) المقطع الصوتي هنا غير واضح، وهو يبدو: «وازن» أو: «وآذن»، وفي (غ) و(هـ): «جهّز»، ولكنّه حتماً ليس كذلك، وقد أثبتناه لمناسبته السياق.

(٢) هو المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب.

(٣) ما أفاده رحمه الله من: صلح الحسن عليه السلام: ١٠١، وقد يُفهم خلافه: «وسار الحسن عليه السلام في عسكر عظيم حتّى نزل دير عبد الرّحمن، فأقام به ثلاثاً حتّى اجتمع النّاس» شرح نهج البلاغة ١٦: ٣٩ ـ ٤٠؛ بحار الأنوار ٤٤: ٥١ عنه. نعم، «ركب معه من أراد الخروج وتخلّف عنه خلقٌ كثير» الخرائج والجرائح ٢: ٥٧٤.

(٤) «ثمّ إنّ الحسن أخذ طريق النخيلة، فعسكر عشرة أيّام فلم يحضره إلّا أربعة آلاف، فانصرف إلى الكوفة، فصعد المنبر ..» بحار الأنوار ٤٤: ٤٤، نقلاً عن: الخرائج والجرائح ٢: ٥٧٤. وكان خروجه هذا بعد الخيانات التي سيتحدّث رحمه الله عنها بعد قليل. أمّا خروجه الذي كان بعد خروج عدي بن حاتم إلى النخيلة فما ذكرناه في الهامش السابق.

(٥) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ١٥٩؛ البداية والنهاية ٨: ١٤، وهذا ليس مجموع الجيش كما يأتي، بل هو ما أرسله عليه السلام مع عبيد الله بن العبّاس، فراجع: مقاتل الطالبيّين: ٧١.

(٦) ورد أنّه عليه السلام خرج في أربعين ألفاً، فراجع: الفتوح ٤: ٢٨٦؛ تجارب الأمم ١: ٥٧٢؛ البدء والتاريخ ٥: ٢٣٥. وما ذكره رحمه الله مبنيٌّ على ما ذكره خاله الشيخ آل ياسين رحمه الله في مقام تمحيص الروايات

الخيانات والتراجعات في جيش الإمام عليه السلام:

هذا الجيش الذي عبّأه وبلغ اثني عشر ألفاً واتّجه إلى مسكن وقعت فيه ثلاث خيانات متتالية:

الخيانة الأُولى: خيانة الكندي:

الخيانة الأُولى كانت على يد شخصٍ من مُرّة[1] هذا الشخص كان هو طليعة هذا الجيش قبل أن يتكامل، أرسله مع أربعة آلاف.

يقول صاحب (البحار): فراسله معاوية بن أبي سفيان قبل أن يصل إلى مسكن، وأعطاه كذا وكذا مقداراً من المال، فرّ هو مع الصفوة من أصحابه وخونته[2] إلى معاوية بن أبي سفيان[3].

الخيانة الثانية: خيانة المرادي:

ثمّ أرسل أربعة آلاف أُخرى مع شخصٍ آخر أيضاً قبل أن يصل إلى مسكن، فرّ مع بعض الخونة إلى جيش معاوية بن أبي سفيان[4].

المختلفة؛ حيث خلص إلى أنّ مجموع عديد الجيش ـ ما عدا جيش المدائن نفسها ـ يبلغ قرابة عشرين ألفاً موزّعين على من سار إلى مسكن ومن سار إلى المدائن، فراجع: صلح الحسن عليه السلام: ١٢٣ ـ ١٢٤.

(١) بل من كندة.

(٢) يقصد رحمه الله أنّهم خونة بلحاظ الإمام الحسن عليه السلام، لا بلحاظ الكندي نفسه.

(٣) «فلمّا توجّه إلى الأنبار ونزل بها وعلم معاوية بذلك بعث إليه رسلاً، وكتب إله معهم أنّك إن أقبلت إليّ أُولّك بعض كور الشام والجزيرة غير مُنفِسٍ عليك، وأرسل إليه بخمسمائة ألف درهم، فقبض الكندي عدوّ الله المال وقلب على الحسن، وصار إلى معاوية في مائتي رجل من خاصّته وأهل بيته» بحار الأنوار ٤٤: ٤٣ ـ ٤٤، الحديث ٤.

(٤) «فبعث إليه رجلاً من مراد في أربعة آلاف.. فلمّا توجّه إلى الأنبار أرسل معاوية إليه رُسُلاً وكتب إليه بمثل ما كتب إلى صاحبه، وبعث إليه بخمسة آلاف درهم، ومنّاه أيّ ولاية أحبّ من كُوَر الشام والجزيرة، فقلب على الحسن وأخذ طريقه إلى معاوية» بحار الأنوار ٤٤: ٤٤.

الخيانة الثالثة: خيانة عبيدالله بن عبّاس:

ثمّ أرسل ابن عمّه عبيد الله بن عباس مع اثني عشر ألف نسمةٍ على أكثر الروايات، ووصل إلى مسكن، وهناك تعلمون بأنّه ترك المعسكر وذهب إلى خطّ معاوية بن أبي سفيان[١].

كان لمثل هذه التراجعات، لمثل هذه الخيانات المتلاحقة المتتابعة أثرُها المشؤوم في تلك النفوس المليئة بالشكّ، المليئة بالتردّد.

أنتم تصوّروا نفوساً كانت بصورة مسبقة مليئةً بالشكّ والتردّد والتريّث[٢]، ثمّ تقع مثل هذه الخيانات الناتجة عن مثل ذلك الشكّ، فسوف يتعمّق ـ لا محالة ـ هذا الشكّ. هذا الشكّ كلّما يتّخذ صورةً إيجابيّةً يكون لهذه الصيغة الإيجابيّة ردُّ فعلٍ نفسيٌّ في الشُكّاك؛ بحيث يزيد [درجة][٣] الشكّ عندهم أكثر.

وهكذا كان، فعاش جيش الإمام الحسن في مسكن وهو يفقد بالتدريج القوى المقاتلة، حتّى بلغ عدد الهاربين من جيش الإمام الحسن في مسكن ثمانية آلاف من اثني عشر ألفاً، بقي من اثني عشر ألف واحد أربعةُ آلاف، والإمام الحسن كان وقتئذٍ في المدائن، وتصل إليه الأخبار، وتنعكس هذه الأخبار على جيشه في المدائن أنّه فرّ اليوم مئة، فرّ خمسمائة، فرّ ألف، فرّ

(١) «ثمّ دعا عبيدالله بن العبّاس بن عبد المطّلب فقال له: يا ابن عمّ! إنّي باعثٌ إليك اثني عشر ألفاً.. وسر بهم على شطّ الفرات حتى تقطع بهم الفرات ثمّ تصير إلى مسكن، ثمّ امض حتى تستقبل بهم معاوية» شرح نهج البلاغة ١٦: ٤٠.

(٢) قال الشيخ المفيد رحمه الله: «ثمّ خفّ معه أخلاط من الناس: بعضهم شيعةٌ له ولأبيه عليهما السلام، وبعضهم محكّمة [= خوارج] يؤثرون قتال معاوية بكلّ حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكّاك، وبعضهم أصحاب عصبيّة اتّبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٠.

(٣) ما بين عضادتين مشوّش في المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(هـ)، وإن كان ليس كذلك حتماً.

ألفان، فرّ ثلاثة آلاف، إلى أن وصل الفارّون إلى ثمانية آلاف[١].

رُسُل معاوية إلى الإمام الحسن عليه السلام:

معاوية بن أبي سفيان أرسل في هذه اللحظات الحرجة العصيبة ثلاثةً من أصحابه ـ أحدهم المغيرة بن شعبة، واثنين آخرين لا أتذكّر اسمهما[٢]ـ أرسلهم إلى الإمام الحسن عليه السلام برسالة[٣]. ماذا كان في هذه الرسالة؟

كان في هذه الرسالة مجموع الكتب التي وصلت إلى معاوية بن أبي سفيان من أصحاب الإمام الحسن في الكوفة، هذه الكتب تقول لمعاوية: «أقدم، فلك السمع والطاعة، وسوف نسلّم لك الحسن يداً بيد»[٤].

هذه الكتب أرسلها معاوية إلى الإمام الحسن ليقرأها بنفسه، محاولاً بذلك أن يكسر من تصميم الإمام الحسن على مواصلة الخطّ ومواصلة الجهاد والمعركة.

دخل هؤلاء الثلاثة على الإمام الحسن عليه السلام بعد أن حاولوا أن يستقطبوا أنظار الجيش. وبطبيعة الحال هناك[٥] وفدٌ مفاوضٌ من [قِبَل] معاوية يأتي إلى الحسن، بطبيعة الحال سوف ينعكس هذا الوفد، وسوف تشخص الأبصار إلى نتائج مباحثات هذا الوفد مع الإمام الحسن.

(١) الظاهر أنّه رحمه الله قد استفاده من صلح الحسن عليه السلام: ١٤٧، وهو مستفاد من: «أرسل إلى عبيد الله بن عبّاس وجعل له ألف ألف درهم، فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه» تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٤.

(٢) هما: عبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن أم الحكم.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٥.

(٤) «وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالطاعة له في السرّ، واستحثّوه على السير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام إليه عند دنوّهم من عسكره أو الفتك به... فكتب إليه معاوية في الهدنة والصلح، وأنفذ إليه بكتب أصحابه التي ضمنوا له فيها الفتك به وتسليمه إليه» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٢، ١٣.

(٥) مراده رحمه الله: «وبطبيعة الحال، عندما يكون هناك..»، ومراده رحمه الله من انعكاس الوفد: انعكاس قدومه.

يدخلون على الإمام الحسن، يعرضون عليه الكتب، كتب الخونة من أصحابه، هؤلاء الذين أعماهم ذاك الشكّ الذي تكلّمنا عنه[١]، فكتبوا إلى معاوية هذه الكتب.

الإمام الحسن يقرأ هذه الكتب واحداً بعد الآخر، ثمّ بعد هذا توجد رسالة من معاوية بن أبي سفيان إلى الإمام الحسن ﷺ يقول له بأنّه: «إن شئت أن تحقن الدماء وأن توقف القتال، ولك الأمر من بعدي»[٢].

الإمام الحسن بعد أن ينهي قراءته لهذه الكتب لا يعطي أيّ كلمة فاصلة في الموضوع، وإنّما يتّجه إلى هؤلاء الثلاثة فيعظهم، يذكّرهم الله والنار وأيّام الله، يذكّرهم بأنّ هذه اللحظات هي جزءٌ قصيرٌ جدّاً من عمرهم، يجب أن يقيّموها على أساس الشوط الطويل الذي يعيشونه، يقف منهم كواعظٍ فقط، ثمّ يسكت[٣].

وإنّما يسكت لأنّه يحاول أن يقوم بآخر تجربة مع قاعدته الشعبيّة، ليرى أنّه: هل بقي في هذه القاعدة الشعبيّة أيُّ قدرة على مواصلة المعركة مهما كلّف الثمن؟

يخرج هؤلاء من عند الإمام الحسن، فيحاولون أن يكذبوا على الإمام الحسن، فنشروا في الجيش وهم [يصرخون][٤] أنّ الله قد فرّج عن هذه الأُمّة،

---

(١) في ثنايا هذه المحاضرة.

(٢) تلفيقٌ منه ﷺ بين عدّة مصادر، وقد جاء في الكتاب: «ثمّ الخلافة لك من بعدي؛ فأنت أولى الناس بها، والسلام» مقاتل الطالبيّين: ٦٨؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ٣٧. لكنّ الظاهر أنّ هذا الكتاب كان قبل استنفار الإمام الحسن ﷺ قومه للجهاد؛ حيث برز موقف عدي بن حاتم المتقدّم، ولم نجد ما يشير إلى أنّه وصله مع وفد معاوية.

(٣) لم نعثر على هذه الموعظة في مصدر، والظاهر أنّه ﷺ قد استفاده من: صلح الحسن ﷺ: ١٦١ الذي يعتمد على (تاريخ اليعقوبي)، ولكنّها ليست في الأخير؛ إذ فيه: «وأتوه وهو بالمدائن نازلٌ في مضاربه، ثمّ خرجوا من عنده» تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٥.

(٤) المقطع الصوتي هنا غير واضح، ويبدو أنّه: «يستصرخون»، وفي (غ) و(هـ): «يستطرقون»، ولكنّه

وقد حقنت الدماء بابن رسول الله؛ حيث إنّ ابن رسول الله استجاب للصلح[١].

بطبيعة الحال كان لهذا الإنشاء ـ هذا الإخبار الكاذب، الذي كان إنشاءً ـ مفعولٌ كبيرٌ جدّاً في التخدير، وفي إضعاف العزائم والهمم، وفي توسيع نطاق الشكّ الذي تكلّمنا عنه.

بعد هذا يخرج الإمام الحسن عليه السلام، يقف خطيباً، يقول بأنّ معاوية ـ لا أحفظ العبارة بالضبط، لكن ما معناه هذا ـ دعانا إلى ما لا يكون فيه خيرنا ولا خيركم، فماذا أنتم فاعلون؟».

وكأنّهم كلّهم يعرفون أنّ هذا الشيء ليس فيه خيره ولا خير [الناس][٢]، فصاحوا بصوتٍ واحد: «الصلح! الصلح!»[٣].

ضرورة انحسار الإمام عن المعركة:

كانت هذه اللحظة هي اللحظة التي أحسّ فيها الإمام الحسن عليه السلام بأنّ بقاء التجربة الإسلاميّة الصحيحة العلويّة أصبح شيئاً متعذّراً غير ممكن، وأنّ انحساره عن الميدان أصبح شيئاً ضروريّاً لأجل الإسلام نفسه؛ وذلك لأنّ هذه التجربة لا يمكن أن تعيش مع هذا الشكّ، فلا بدّ وأن يُقضى على هذا الشكّ ثمّ تُستأنف التجربة.

ليس كذلك حتماً، ولعلّ مراده رحمه الله: ما أثبتناه؛ بقرينة ما يأتي: «وهم يقولون ويُسمعون الناس».

(١) «ثمّ خرجوا من عنده وهم يقولون ويسمعون الناس: إنّ الله قد حقن بابن رسول الله الدماء، وسكّن به الفتنة وأجاب إلى الصلح» تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٥.

(٢) المقطع الصوتي هنا غير واضح، وما أثبتناه من (غ) و(هـ)، ولكنّه حتماً ليس كذلك، وفيها جميعاً: «أنّ هذا الشيء الذي ليس فيه»، بإضافة «الذي».

(٣) «ألا وإنّ معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزّ ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجلّ بظبي السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى. فناداه النّاس من كلّ جانب: البقيّة البقيّة! وأمضى الصّلح» الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٦؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة ١: ٤٩١؛ ديوان المبتدأ والخبر (ابن خلدون) ٢: ٦٤٩.

ولم يكن بالإمكان أن يُقضى على هذا الشكّ المرير المستعصي إلّا بأن ينحسر عليٌّ عن المعركة، و[ينحسر] خطُّ عليٍّ عن المعركة، ثمّ تتكشف أُطروحة معاوية وأهداف معاوية.

بعد هذا يرى المسلمون بأُمّ أعينهم ـ هؤلاء الذين كانوا يعيشون الحسّ أكثر ممّا يعيشون العقل، يعيشون عيونهم أكثر ممّا يعيشون عقولهم[١] ـ يرون بعيونهم أنّ المعركة التي كان يقودها الإمامُ عليٌّ مع معاوية هي معركة الإسلام مع الجاهليّة، لا معركة شخصٍ مع شخص، ولا مصلحة مع مصلحة، ولا عشيرة مع عشيرة، كان لا بدّ ـ في منطق التجربة ـ من أن يُحارَب هذا الشكُّ ثمّ تُستأنف التجربة.

ولم يكن بالإمكان ـ وليس بالإمكان اليوم، وليس بالإمكان في أيّ يوم ـ أن تنجح تجربة رساليّة يقودها قائدٌ يحمل بيده رسالةً هي أكبر من وجودات الأشخاص وأكبر من مصالحهم الخاصّة، ما لم يكسب مسبقاً الاقتناعَ بصحّة هذه الرسالة وبأهدافها وبضرورتها، ولم يكن بإمكان التجربة السياسيّة وقتئذٍ ـ وهي مواصِلةٌ وجودَها في المعركة ـ أن تكسب هذا الاقتناع.

هذا الاقتناع الذي لم يستطع الإمام عليٌّ أن يكسبه ولم يستطع أن يحول دون فقدانه بالتدريج، لم يستطع الإمام الحسن عليه السلام أن يكسبه، أو أن يحول دون تفاقم فقدانه بالتدريج،

ولهذا كان من الضروري أن ينحسر ظلُّ الإمام عليٍّ عن ميدان الحكم لكي تتكشّف أُطروحه معاوية، وبعد ذلك يعرف المسلمون أنّ هذه الأُطروحة التي جاهد في سبيلها عليٌّ هي أُطروحة وجودهم وعقيدتهم ورسالتهم ومصالحهم الحقيقيّة غير المنظورة لهم، وعندئذٍ يكون بالإمكان استئناف العمل من جديدٍ

(١) وهذا مُقتضى طبيعة البشر كما تقدّم منه قدس سره في المحاضرة الأُولى من هذا الكتاب.

على أساس اقتناعٍ مسبق.

هذا خلاصةً ما [أردنا أن نقوله في] الإمام الحسن عليه السلام، وأنا تعبت كثيراً، وهناك بقيّة، وحيث إنّي تعبت [فـ]ـلهذا أكتفي بهذا المقدار.

***

١٥

خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها (٢)

أُلقيت يوم الأحد ١٣/ رجب / ١٣٨٨هـ

الخيارات المتاحة أمام الإمام الحسن عليه السلام:

على أساس الظروف التي شرحناها بالأمس[1]، والتي عقّدت الطريق بين يدي الإمام الحسن عليه السلام، والتي ضاعفت من قوّة الشكّ، وحوّلته من طاقة سلبيّة إلى طاقة إيجابيّة ممتدّة في أوسع نطاق، على أساس ذلك كان بين يَدَي الإمام الحسن (عليه أفضل الصلاة والسلام) طريقان:

١ ـ [إمّا أن] يواصل العمل في الساحة حتّى يخرّ صريعاً كما خرّ بعد ذلك أخوه الحسين عليه السلام شهيداً في ساحة كربلاء.

٢ ـ وإمّا أن يوقف خطّ العمل نزولاً على الأمر الواقع.

الاعتبارات المتمثّلة في الإمام الحسن عليه السلام:

وكان لا بدّ للإمام الحسن عليه السلام وهو يدرس أفضل هذين الطريقين من أن يدخل في حسابه كلّ اعتباراته وكلّ جوانب وجوده؛ لأنّ الإمام الحسن عليه السلام كان يتمثّل فيه عدّة اعتبارات:

١ ـ الإمام الحسن عليه السلام بوصفه أميناً على النظريّة:

[فقد] كان من ناحيةٍ هو الأمين على النظريّة، هو الأمين على الصيغة الإسلاميّة الكاملة على الحياة بوصفها خطّاً فكريّاً وروحيّاً يجب أن يعيش، ويجب أن يستقطب بالتدريج، ويجب أن يمتدّ إلى أكبر قدرٍ ممكنٍ من القلوب والنفوس والعقول.

---

(١) أي في المحاضرة الرابعة عشرة من هذا الكتاب.

٢ ـ الإمام الحسن عليه السلام بوصفه أميناً على التجربة:

وكان من ناحية أُخرى الأمينَ على التجربة، يعني: الأمين على كيانٍ جسّد تلك الصيغة الإسلاميّة الكاملة. هذا الكيان الذي أنشأه الإمام علي عليه السلام واستأنف به حياة رسول الله وعصر رسول الله، هذا الكيان خلّفه الإمام عليٌّ ليتزعّمه الإمام الحسن، فكان الإمام الحسن بالاعتبار الثاني أميناً على الواقع الحيّ الذي جسّد تلك الصيغة الإسلاميّة الكاملة.

أي: هو أمينٌ على النظريّة والتطبيق معاً، أمينٌ ووريثٌ للمفهوم والخطّ، ولتجسيد هذا الخطّ في واقع الحياة.

٣ ـ الإمام الحسن عليه السلام بوصفه أميناً على الكتلة:

وكان هناك اعتبارٌ ثالثٌ من الاعتبارات التي يمثّلها الإمام الحسن (عليه أفضل الصلاة والسلام): فهو أمينٌ على كتلة، هذه الكتلة هي التي نسمّيها اليوم بـ(الشيعة)، هذه الكتلة هي الجانب أو الجزء الذي آمن بنظريّة الإسلام في عليٍّ وفي إمامة عليٍّ وفي خطّ أهل البيت عليهم السلام... هذه الكتلة التي وضع الرسول صلى الله عليه وآله بذورها، ثمّ نمّاها الإمام علي، خصوصاً على عهد خلافته، وأخذها الإمام الحسن عليه السلام ليتسلّم زعامتها وقيادتها ككتلة يجب أن تنمو على مرّ الزمن، وتشكّل الطليعة الواعية القادرة على قيادة المسلمين ككلّ في مستقبلٍ قريبٍ أو بعيد.

خروج الاعتبار العاطفي غير الرسالي عن حسابات الإمام الحسن عليه السلام:

هذه اعتبارات ثلاثة كان يمثّلها جميعاً هذا الإمامُ الشابّ (عليه أفضل الصلاة والسلام)، فكان لا بدّ حينما يدرس أفضل الطريقين ـ طريق التضحية والموت، أو طريق تجميد الخطّ والحركة إلى وقتٍ ما ـ أن يدرس ذلك على

أساس هذه الاعتبارات الثلاثة، دون أن يَدخُلَ إلى جانب هذه الاعتبارات الثلاثة اعتبارٌ رابعٌ يُطلق عليه عادةً أيُّ اسم من الأسماء العاطفيّة أو الخُلُقيّة التي لا ترتبط بمصالح الرسالة، من قبيل أن يقال: «إباء الضيم»، «عدم الاستعداد لمصافحة الأعداء»، «الشعور بالعزّة».

كلّ هذه المشاعر هي اعتبارات عاطفيّة يجب أن لا تأخذ طريقها إلى قلب الإنسان الحقّ الذي يريد دائماً أن يرسم طريقه على أساس الاعتبارات الرساليّة.

فإباء الضيم مثلاً الذي ينسب عادةً إلى الإمام الحسين عليه السلام، هذا الإباء يجب أن يراد به حينما ينسب إلى إمامٍ حقٍّ كالإمام الحسين أو الإمام الحسن: إباءُ هذا الإمام عن أن تُنتَهك حرمةُ الرسالة، وعن أن تُذَلَّ الرسالة، وعن أن تفقد الرسالة مكسباً كان بالإمكان أن يتحقّق بالنسبة إلى هذه الرسالة.

أمّا المفهوم العاطفي لإباء الضيم فهو مفهومٌ جاهليٌّ لا يقرّه الإسلام؛ فإنّ إباء الضيم حيث تقتضي الرسالة من الرسالي أن يُمتحن بتحمّل هذا الضيم، مثل هذا الإباء يكون موقفاً لا رساليّاً ولا إنسانيّاً. كما إنّ العكس صحيح.

فأيّ اعتبارٍ عاطفيٍّ أو خُلُقيٍّ غيرُ نابع من واقع الرسالة وقِيَمها وأهدافها يجب أن لا يدخل في حساب الإنسان الحقّ. وأيّ إنسانٍ حقٍّ أحقُّ بهذا الوصف من هؤلاء القادة الذين اؤتمنوا على أشرف رسالات السماء؟!

وهذا ليس مجرّد مفهوم تاريخي، وإنّما أيضاً يجب أن يكون قاعدةً لعمل كلّ واحدٍ منّا، كلّ إنسانٍ يريد أن يسير على خطّ هؤلاء القادة عليهم السلام يجب ـ في بداية دراسة كلّ نقطةٍ من نقاط سلوكه على مفترق الطريق ـ أن يدرُسَ سلوكه واختياره على مفترق الطريق على أساس اعتبارات الرسالة، لا على أساس نوعٍ من العواطف التي يعيشها الإنسان الاعتيادي بقلبه لا برسالته.

وهكذا، كان أمام الحسن عليه السلام ثلاثة خطوط لا بدّ من أن يدرس موقفه على أساسها:

[الاعتبار] الأوّل: كونه أميناً على الرسالة، أي على الأُطروحة النظريّة، أي على الصيغة الإسلاميّة الكاملة للحياة، نظريّاً، روحيّاً.

الاعتبار الثاني: كونه أميناً على التجربة السياسيّة التي جسّدت تلك الأُطروحة.

الاعتبار الثالث: كونه أميناً على الكتلة التي بذرها النبي ونمّاها الإمام عليٌّ، وكان من المفروض أن تمتدّ مع تاريخ الإسلام.

أسباب زوال الاقتناع التدريجي بالصيغة الإسلاميّة للحياة[1]:

أمّا على الاعتبار الأوّل من هذه الاعتبارات الثلاثة ـ يعني: بوصفه أميناً على الأُطروحة النظريّة، على الصيغة الإسلاميّة للحياة بوصفها خطّاً يجب أن يعيش في عقول وأرواح ونفوس المسلمين ـ فقد كانت أقسى المفارقات هذه المفارقةُ التي تبيّناها في ما سبق[2]؛ حينما رأينا أنّ هذه الصيغة الإسلاميّة الكاملة للحياة كان وصولها إلى درجة الحكم وممارستها للحكم ـ بنفسه وبصورةٍ غير مباشرةٍ ـ السببَ في زوال الاقتناع بها من قبل القواعد الشعبيّة بالتدريج، لا لأنّ وصولها إلى الحكم كشّف[3] عن وجهٍ منحرفٍ، عن سلوكٍ غير منطبقٍ على النظريّة، غير منسجمٍ مع قيمها وأهدافها، بل لأنّ القاعدة الشعبيّة التي وصل على أكتافها قائدُ هذه النظريّة إلى الحكم لم تكن تستطيع

---

(١) لم نقم بصياغة هذا العنوان على أساس الاعتبارات الثلاثة؛ لأنّ الشهيد الصدر قدس سره سيدخل في استطراد، ثمّ يرجع إلى الحديث عن الفارق بين موقف الإمام الحسن عليه السلام وبين موقف الإمام الحسين عليه السلام على ضوء هذه الاعتبارات.

(٢) في المحاضرتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

(٣) أو «كَشَفَ»، وما أثبتناه هو الوارد في المحاضرة الصوتيّة.

أن تعيش حياة الكفاح والجهاد إلّا إلى مرحلة قصيرة من الزمن.

ولهذا، حينما مارس الإمام العظيم أبو الأئمّة (عليه أفضل الصلاة والسلام) تطبيقَ نظريّته على كلّ مستويات الحياة الإسلاميّة ـ اجتماعيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وخُلقيّاً أيضاً ـ بدأت المتاعب والمصائب، وبدأ الناس يشكّون؛ لأنّهم بدؤوا يُرهَقون بتكاليف هذه النظريّة، وبهذا زال الاقتناع بالتدريج بصحّة[١] هذه النظريّة.

وكان لا بدّ للنظريّة ـ لكي تعيش في الأُمّة الإسلاميّة ـ من أن تسترجع هذا الاقتناع بأيّ ثمن، كان لا بدّ لها أن تسترجع هذا الاقتناع بكلّ ثمن، وكان ثمن استرجاع هذا الاقتناع هو أن ينحسر [هذا][٢] الحكم الذي يمثّل هذه الأُطروحة، وأن يُخلى الميدان لحكمٍ آخر مثّله معاوية بن أبي سفيان، ومثّلته كلُّ القوى المتبقّية من السقيفة وقتئذٍ. كان لا بدّ لذلك الحكم من أن يبرز على الميدان، من أن يظهر؛ ليُبدِيَ وليُبرِزَ واقعَ مضمونه وحقيقة أهدافه وكلَّ أبعاده، وحينئذٍ تسترجع الأُطروحة اقتناع المسلمين بها وبصحّتها وضرورتها.

النظريّات الصالحة وشبهة القدر المحتوم:

هنا قد يبدو سؤال: أنّه هل هناك قَدَرٌ لازمٌ على كلّ نظريّة صالحة أنّها حينما تأخذ مجراها في التطبيق تفقد اقتناع قواعدها الشعبيّة بها بالتدريج؟! وحينئذٍ تبدأ من جديد، مضطرّةً إلى التخلّي عن الحكم؛ لتفسح المجال لآخرين [ليمارسوا] الحكم على أساس نظريّة أُخرى باطلةٍ كافرة، حتّى يكون ذلك منبّهاً للمسلمين إلى صحّة النظريّة الأُولى؟!

هل هذا قَدَر مفروضٌ على النظريّة الإسلاميّة دائماً؟ أنّها تدخل إلى

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «من صحّة».

(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(هـ).

الحياة فتقود وتحكم، ثمّ سرعان ما تهزم، وسرعان ما تضطرّ إلى الانسحاب، لكي تسترجع مرّةً أُخرى الاقتناعَ الذي فقدته خلال التطبيق؟

هل هذا قَدَرٌ لازمٌ على النظريّة الإسلاميّة؟

لا، هذا ليس قَدَراً لازماً على النظريّة الإسلاميّة، وإنّما كان هذا قَدَراً لازماً على النظريّة الإسلاميّة في الظروف الموضوعيّة الخاصّة التي تفتّق عنها حكم الإمام علي (عليه أفضل الصلاة والسلام)؛ ذلك لأنّ الإمام عليّاً حينما حكم، وحينما جاء ليمارس تطبيق هذه النظريّة كاملةً غير منقوصة، جاء معتمداً على شعبٍ لم يتفاعل معه ساعة، لم يعش معه يوماً، لم يصرف معه في سبيل إعداده لهذه النظريّة جهداً.

الشعب الذي قام بحماية هذا التطبيق وشكّل الجيش المحارب للإمام علي كان شعب العراق. وبالرغم من أنّ شعب العراق وقتئذٍ كان يبدو من أكثر شعوب الأُمّة الإسلاميّة إخلاصاً للإمام علي ـ ولهذا نادى أهل العراق بالإمام عليٍّ خليفتهم[1] ـ، إلّا أنّ استجابة هذا الشعب واستجابة قطّاعات أُخرى مصريّة وفي الجزيرة العربيّة للإمام علي عليه السلام كانت استجابةً على أساس الرصيد الضخم الذي كان يتمتّع به الإمامُ علي، على أساس هذا النوع من التاريخ الكبير الذي كان يعيشه الإمامُ عليٌّ في أذهان المسلمين.

المسلمون حينما عاشوا محنة انحراف عثمان، ثمّ بعد هذا محنةَ مقتل عثمان، وحينما وجدوا أمامهم مشاكل كبيرةً فوق الحلّ من الإنسان الاعتيادي، اتّجهوا بأنظارهم ـ بطبيعتهم ـ إلى صحابيٍّ كبير، اتّجهوا ليفتّشوا عن صحابيٍّ كبيرٍ يستطيع ـ بما يحمل من تراث محمّدٍ صلى الله عليه وآله ـ أن يتغلّب على هذه المشاكل الكبيرة، ويملأ هذا الفراغ الكبير، ويعيد الأُمور إلى وضعها الطبيعي. فكان أن

---

(١) من كتاب عبد الله بن عبّاس إلى عمرو بن العاص: «فإنّ أهل العراق بايعوا عليّاً وهو خيرٌ منهم، وأهل الشام بايعوا معاوية وهم خيرٌ منه» الفتوح ٣: ١٥٠ ـ ١٥١.

وقع اختيار المسلمين بطبيعتهم على الإمام علي؛ لأنّه كان أبرز صحابيٍّ على المسرح السياسي، يتمتّع بما لا يتمتّع به أيّ صحابيٍّ آخر من سوابق وفضل وشهرة.

إذاً، فالاستجابة منذ البدء كانت استجابةً عاطفيّة قائمةً على أساس الشهرة لا على أساس التفاعل، على أساس التقديس الذاتي لا على أساس التربية المباشرة من قبل الإمام لهذه القواعد الشعبيّة.

ومن الطبيعي أن تكون هذه الاستجابة العاطفيّة القائمة على أساس الشهرة وعلى أساس السوابق وعلى أساس الفضل استجابةً ذات شوطٍ قصير، ذات موجةٍ قصيرةٍ، ثمّ تبدأ بالذوبان، تبدأ بعد هذا بالتميّع حينما تصطدم بما تصطدم به أعباءُ الجهاد من المصالح الشخصيّة للأفراد.

أمّا حينما تجيء النظريّة الإسلاميّة إلى الحياة على أعقاب تفاعلٍ واسع النطاق مع جزءٍ كبير من الأمّة، حينما تجيء ويكون هناك جزءٌ كبيرٌ من الأمّة مقتنعاً بهذه النظريّة اقتناعاً واعياً مدبّراً صحيحاً، في مثل تلك الحالة سوف لن تحتاج هذه النظريّة مرّةً أخرى إلى أن تتنازل عن الحكم لكي تكتسب الاقتناع. الاقتناع العاطفي هو الذي يتبخّر خلال غبار الجهاد، أمّا الاقتناع الواعي فهو الذي يتعمّق ويترسّخ خلال غبار الجهاد.

على أيّ حال، كانت الظروف الموضوعيّة وقتئذٍ تفرض هذا التلاشي وهذا الانحسار في الاقتناع حتّى فَقَد خطُّ عليٍّ وفقدت النظريّة الإسلاميّة الكاملة الصحيحة اقتناعَ المسلمين بها.

وحينما فقدت هذا الاقتناع كان لا بدّ لها من أن تسترجعه، وكان لا بدّ لكي تسترجعه من أن تفسح المجال لأعدائها لكي يعبّروا عن ذاتهم وعن نفسهم؛ لكي يقول معاوية بكلّ وضوح وبكلّ صراحة على المنبر الذي كان

يجسّد آمال المسلمين في تطبيق الحكم: [يصعد على ذلك المنبر ويقول : «إنّي حاربتكم لا لكي تصلّوا وتصوموا ، وإنّما لكي أتأمّر عليكم][١]، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم لذلك كارهون»[٢].

الخيارات المتاحة أمام الحسن عليه السلام لسحب خطّ الإمام علي عليه السلام مؤقّتاً:

إلّا أنّ انحسارَ حكم الإمام عليٍّ وإعطاءَ الفرصة لمعاوية أو للأعداء لكي يمارسوا وجودهم على المسرح كان يمكن أن يتمّ بشكلين، كان يُمكن أن يتمّ باختيار [أيٍّ] واحد من الطريقين اللذين وقف الإمام الحسن على مفترقهما:

١ ـ الخيار الأوّل: مواصلة المحنة العسكريّة:

كان يمكن أن يتمّ بأن يواصل الإمام الحسن محنته العسكريّة حتّى يخرّ صريعاً في ميدان الجهاد، وحينئذٍ يفسح المجال لمعاوية بن أبي سفيان لكي يعيش وجوده كحاكم في العالم الإسلامي.

٢ ـ الخيار الثاني: تجميد الحركة وإيقاف العمل:

وكان يمكن أيضاً أن يتحقّق ذلك بتجميد حركته وإيقاف العمل ضدّ معاوية بن أبي سفيان.

كان يمكن أن يتحقّق هذا [بأيٍّ] من هذين الأُسلوبين.

الفوارق الأساسيّة بين موقِفَي الحسنين عليهما السلام على ضوء الاعتبارات الثلاثة:

ومن هنا قد يقفز إلى الذهن هذا السؤال: أنّه لماذا لم يختر الإمام الحسن عليه السلام الطريق الأوّل من هذين الطريقين بعد أن كان كلٌّ من هذين

(١) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وما أثبتناه من (غ) و(هـ)، وفي (غ): «على ذلك المنبر بالذات».

(٢) «إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك. وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون» مقاتل الطالبيّين: ٧٧.

الطريقين محقّقاً لحاجة الرسالة في الانسحاب مؤقّتاً لكي تكتسب الاقتناع؟

ويزداد هذا السؤال جولاناً في الذهن حينما يُقارَن موقف الحسن عليه السلام بموقف الإمام الثالث (عليه أفضل الصلاة والسلام) حينما وقف بين الطريقين، فاختار أن يخرّ صريعاً بدلاً عن أن يوقف العمل ولو مؤقّتاً.

إلّا أنّنا قلنا في أيّام سبقت[1]، ونقول الآن أيضاً: إنّ فرقاً أساسيّاً كبيراً بين موقف الحسن عليه السلام وموقف الإمام الحسين. وسوف نتبيّن هذا الفرق على مستوى الاعتبارات الثلاثة التي سوف ندرس على أساسها موقف الحسن عليه السلام.

على كلّ واحدٍ من هذه الاعتبارات الثلاثة يبدو هناك فرقٌ كبيرٌ بين موقف الحسن وموقف الحسين، بين الظروف الموضوعيّة لموقف الإمام الحسن والظروف الموضوعيّة لموقف الإمام الحسين عليه السلام:

١ ـ الفرق بين موقفي الحسنين عليهما السلام على ضوء الاعتبار الأوّل:

أمّا على هذا الاعتبار الذي نحن نعالجه الآن ـ على مستوى الرسالة ـ فهناك فرقٌ كبيرٌ حتّم على الإمام الحسين أن يختار الطريق الأوّل، ولم يكن هناك هذا المحتِّم بالنسبة إلى الإمام الحسن عليه السلام، بل كان ما يحتّم الطريق الثاني على أساس الاعتبارات الأُخرى.

الأمر الذي كان يحتّم على الإمام الحسين أن يختار الطريق الأوّل ـ وهو أن يواصل حتّى يخرّ صريعاً ـ هو أنّ الأُمّة وقتئذٍ لم تكن تعيش حالة الشكّ، بل كانت تعيش حالة موت الإرادة، وفرق بين المرضين:

أ ـ الإمام الحسن عليه السلام يواجه مرض الشكّ:

أحدهما مرضٌ سمّيناه بالشكّ، هذا الذي تبيّنّاه ودرسناه[2]: أنّ الأُمّة

(١) في ذيل المحاضرة الثانية عشرة.

(٢) في ذيل المحاضرة الثانية عشرة كذلك.

كانت تشكّ، كانت قد فقدت ثقتها وإيمانها واعتقادها برساليّة الأُطروحة، بموضوعيّة الأُطروحة، بإلهيّة دوافع هذه الأُطروحة، كانت قد فقدت هذا الإيمان حينما اصطدم الحسن مع معاوية بن أبي سفيان.

وفي مثل هذا الحال لو خرّ الإمام الحسن صريعاً، لو واصل الإمام الحسن الحرب حتّى يخرَّ صريعاً لمَا حقّق شيئاً من المكاسب العظيمة التي حقّقها الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنّه حينما يخرّ صريعاً في الميدان والأُمّة تشكّ في دوافعه، تشكّ في نظافة رسالته، تشكّ في صحّة موقفه، تشكّ في إلهيّة أُطروحته، حينما يخرّ صريعاً والأُمّة تشكّ في كلّ [هذا، سوف لن يفعل هذا الدم الطاهر الذي يسكب على الأرض ما فعله الدم الطاهر الذي][1] سكب على أرض كربلاء، سوف لن يحرّك ضميراً في الأُمّة، سوف لن يغيّر شيئاً من الأوضاع الحقيقيّة للأُمّة.

عبد الله بن الزبير أيضاً كان له موقفٌ في وجه جيش عبد الملك بن مروان، كان له موقف أيضاً يعتبر ـ بالمقاييس الشخصيّة، وبقطع النظر عن الرسالة ـ موقفاً بطوليّاً. [واصل][2] الحرب إلى أن خرّ صريعاً في الميدان، إلى أن قُتل، وقُتل معه كلّ أهله وكلّ ذويه القادرين على حمل السلاح تقريباً[3].

إلّا أنّه مع هذا، ماذا خلّف عبدالله بن الزبير؟ ماذا ترك في ضمير الأُمّة؟ ماذا حرّك من نفوس المسلمين؟ هل استطاع عبد الله بن الزبير بدمه أن يحقّق المكسب الذي حقّقه الإمام الحسين عليه السلام؟ لا.

عثمان بن عفّان واصل الحكم، وواصل التجربة، كلّما قال له أعداؤه:

---

(١) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(هـ).

(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(هـ).

(٣) راجع حول مقتل ابن الزبير: الطبقات الكبرى ٥: ٢: ٩٣؛ الأخبار الطوال: ٣١٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٦: ١٨٧؛ الفتوح ٦: ٣٣٧؛ المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٦: ١٢٤.

«استقل، تنحَّ عن الحكم»، قال: «لا أنزع ثوباً ألبسني الله إيّاه»[١]، حتّى قتل وهو يعلم أنّه لو تنحّى عن الحكم لما قتل.

إذاً، كان موقفاً شجاعاً من عثمان بن عفّان حينما واصل الحكم إلى أن قتل، يعني: بذل دمه في سبيل الحكم، بذل نفسه في سبيل الحكم. لكن، هل كان هناك إنسانٌ يتجاوب مع مثل هذه الشجاعة؟ هل استطاعت هذه الشجاعة الفاجرة الكافرة أن تهزَّ ضمير الأُمّة الإسلاميّة أو أن تحرّك شيئاً من أوضاع المسلمين؟

لا، لماذا؟ لأنّ عبد الله بن الزبير، أو لأنّ عثمان بن عفّان، أو لأنّ أيّ شخصٍ آخر من هذا القبيل كان يحارب وكان يقاتل لنفسه لا للأُمّة، وكانت الأُمّة ـ على أقلّ تقدير[٢] ـ تشكّ في هذا، وتحتمل هذا.. كانت على أقلّ تقدير تشكّ في أنّ عبد الله بن الزبير هل كان يقاتل لنفسه؟ هل كان قد استسلم للموت لأنّه أبى الضيم، لأنّه أبى أن يطأطئ أمام عدوّ؟ أو أنّه واصل القتال لأجل الأُمّة، لأجل المظلومين والبائسين والمضلَّلين الذين كان يحكمهم عبد الملك بن مروان؟

الأُمّة حيث إنّها لم تكن تعيش ذلك الاقتناع بالنسبة إلى عبد الله بن الزبير أو بالنسبة إلى أمثال عبد الله بن الزبير، فلهذا[٣] ذهبت ميتة عبد الله بن الزبير دون أن تخلّف أثراً حقيقيّاً في محتوى الأُمّة النفسي أو الفكري أو الروحي.

---

(١) أنساب الأشراف ٥: ٥٨٣؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٤: ٣٧٦؛ تجارب الأُمم ١: ٤٥٢؛ البدء والتاريخ ٥: ٢٠٦؛ الكامل في التاريخ ٣: ١٦٩؛ ديوان المبتدأ والخبر (ابن خلدون) ٢: ٥٩٩.

(٢) متعلّق بالشكّ لا بالأُمّة.

(٣) في المحاضرة الصوتيّة: «ولهذا»، وقد استبدلنا الفاء بالواو ليستقيم المعنى، أو يُحذف قوله‪‬ في صدر العبارة: «حيث إنّها».

وكان مصير مقتل الإمام الحسن عليه السلام نفس المصير تقريباً لو أنّه واصل القتال، لو اختار الطريق الأوّل من الطريقين والأُمّة هي على الحالة التي شرحناها بالأمس(١).

والشكّ الذي تحوّل إلى طاقة إيجابيّة ممتدّةٍ في أوسع نطاق، كان هذا الشكّ يجعل المسلمين ينظرون إلى هذه الاستماتة من الإمام الحسن [على] أنّها استماتة من لونِ استماتة أيّ شخصٍ آخر يأبى الضيم، يأبى أن يطأطئ أمام عدوّه من الناحية العاطفيّة، ولهذا واصل المعركة حتّى قتل... لَما حرّك هذا الدمُ الطاهرُ شيئاً من نفوس المسلمين، ولَما غيّر شيئاً من أوضاعهم النفسيّة والروحيّة.

ب ـ الإمام الحسين عليه السلام يواجه مرض موت الإرادة:

بينما الإمام الحسين حينما اختار الطريق الأوّل كانت الأُمّة ـ أي: كانت القواعد الشعبيّة التي ترتبط بالإمام علي ـ قد تخلّصت من المرض الأوّل، من مرض الشكّ؛ لأنّ الأُسطورة ـ أُسطورة معاوية ـ قد تجلّت بكلّ وضوح؛ لأنّ الجاهليّة التي كان يمثّلها معاوية قد أسفرت عن وجهها على المسرح الاجتماعي والسياسي ورآها الناس، وعلم الناس بأنّ عليّاً عليه السلام كان يحارب في معاوية جاهليّةَ الأصنام والأوثان، ولم يكن يحارب في معاوية خصماً قَبَليّاً أو شخصاً معادياً له بالذات.

هذا عرفه المسلمون، يعني: عرفته القواعد الشعبيّة المرتبطة بالإمام، تخلّصت هذه القواعد من المرض الأوّل، لكنّها منيت بالمرض الثاني الذي سوف نتحدّث عنه بعد هذا، يعني في محاضرة أُخرى(٢). هناك منيت بمرض

(١) في المحاضرة الرابعة عشرة.

(٢) راجع بشكل خاص المحاضرتين التاسعة عشرة والعشرين.

آخر، وهو موت الإرادة، أصبحت الأُمّة الإسلاميّة لا تملك إرادتها.

نعم، هي تعي وتفهم أنّ عليّاً هو طريق الكفاح والجهاد، أنّ عليّاً هو رمز الأُطروحة الصالحة، أنّ حكم عليّ هو المثل الأعلى الذي يجب على المسلمين أن يكافحوا في سبيل تحقيقه، كلّ هذا أصبح واضحاً.. شعار «لا نريد إلّا حكم عليّ» هذا كان يتردّد على ألسنة الثائرين في أكثر الثورات التي وقعت في خطّ أهل البيت عليهم السلام[1].

ولكن مع هذا لم يكن هؤلاء يملكون إرادتهم، كانوا قد فقدوا ضميرهم وإرادتهم، كانوا قد استكانوا، كانوا قد هانت عليهم قيمُهُم ومُثُلهم واعتباراتهم، لم يكن الشكّ في الكبرى وقتئذٍ، بل كان العيب في الصغرى، كانت الإرادة قد انطفأت، كانت الشعلة قد ماتت، كانت الدريهمات الصغيرة هي أكبر هموم هذا الإنسان الصغير، هذا الإنسان القزم، ولهذا كان لا بدّ من أن يُحرَّك ضميرُ هذا الإنسان لكي يسترجع إرادته.

قلت في ما سبق[2]: إنّ أفضل وأروع تمثيل لفقدان الإرادة قول ذاك للإمام الحسين عليه السلام: «سيوفهم مع عدوّك وقلوبهم معك»[3].

هذه قمّة فقدان الإرادة.. أن يكون الإنسان حبيباً لك، يحبّك، ولكنّه يحمل السيف عليك، يعني: قلبه لا يستطيع أن يمسك يده عن حمل السيف، هذه قمّة فقدان الإرادة، حينما تبلغ الأُمّة قمّة فقدان الإرادة [فلا] بدّ لشخص

---

(١) يقصد رحمه الله على الأغلب الثورات التي خرجت تحت شعار «الرضا من آل محمّد».

(٢) تقدّم ذلك في المحاضرة الثانية عشرة، وسيتجدّد في المحاضرات: السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

(٣) المعروف أنّه قولُ الفرزدق، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٤٥؛ مقاتل الطالبيّين: ١١١؛ دلائل الإمامة: ٧٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٦. وقد نسب إلى بشر بن غالب الأسدي (الفتوح ٥: ٧٠) ومجمع بن عبدالله العائذي [أنساب الأشراف ٣: ١٧٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٥؛ تجارب الأُمم ٢: ٦٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٩].

من أن يُرجع إلى الأُمّة إرادتها.

الإمام الحسن بانحساره عن ميدان الحكم وفسح المجال للأُطروحة الأُخرى لكي تبرز بكلّ أبعادها أرجع إلى الأُمّة اقتناعها بموضوعيّة أُطروحة عليّ.

والإمام الحسين بمواصلته الطريق الأوّل حتّى خرّ صريعاً أرجع إلى الأُمّة إرادتها، تنبّه الإنسان المسلم الاعتيادي الذي كان أكبر همّه هو هذه الدريهمات، الذي حوّله بنو أُميّة من إنسان يحمل هموم الأرض شرق الأرض وغرب الأرض، من إنسان يحمل هموم المظلومين والممتحنين في أقصى الأرض[(١)] إلى إنسان لا يعيش إلّا همّ راتبه الشهري وهمّ مصالحه الشخصيّة، هذا الإنسان الذي تحوّل إلى هذا المسخ هزّه مقتل الإمام الحسين عليه السلام، قال: «أنا الذي لا أتحرّك، أنا الذي أرى الإسلام يُنتهَك، أرى الشريعة تمزّق، أرى المسلمين تهدر كرامتهم، أرى الآلاف بعد الآلاف يُعذَّبون، يهانون، يُشرَّدون، ثمّ أسكت، وذلك توفيراً، وذلك طمعاً، وذلك حرصاً على حياة رخيصة؟!».

إلّا أنّ هذا الرجل[(٢)] الذي توفّرت له كلّ مُتع الحياة، هذا الرجل [الذي هو من أغنى الناس مالاً، من أكثر الناس جاهاً][(٣)]، هذا الرجل الذي إذا برز إلى المسلمين تسابق عشرات الآلاف من المسلمين إلى تقبيل يديه، هذا الرجل الذي لم يكن جوعاناً لا إلى شهرة ولا إلى مجد ولا إلى مال كان شخصاً منعّماً، كان شخصاً لم يعش أيَّ ظلامة من الظلامات التي عاشها المسلمون؛

---

(١) كلامه قدس سره ناظرٌ إلى ما ذكره في المحاضرة الخامسة تحت عنوان: الأُمّة الإسلاميّة حملت طاقةً حراريّةً لا وعياً مستنيراً، الشاهد الثالث حول عبادة بن الصامت؛ حيث علّقنا بعض الشيء. وسيتجدّد الحديث عن هذه الفكرة في المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: خطّة معاوية لتثبيت حكمه، عمل معاوية بن أبي سفيان على تمييع الأُمّة الإسلاميّة.

(٢) يقصد قدس سره: الإمام الحسين عليه السلام.

(٣) ما بين عضادتين ساقط من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(هـ).

لأنّ معاوية لم يكن يحاول أن يمتدّ بظلمه إلى شخص الحسين مثلاً، كان يحاول أن يرفِّهَ على الحسين وأمثال الحسين من السادة الإسلاميّين الكبار.

كان الناس تحت السياط، أمّا الحسين لم يكن تحت السياط، لم ينله سوطٌ واحد من تلك السياط التي نالت ظهورَ الناس، بالرغم من هذا خرج الحسين نفسه، بذل دمه في سبيل أُولئك الذين هم تحت السياط، والذين لم يفكّر واحد منهم في أن يبذل دمه في سبيل الآخرين الذين يشاركونه في أنّهم تحت السياط[1].

من هنا تحرّك الضمير الإسلامي، من هنا تحرّكت الإرادة في نفوس المسلمين، من هنا فجّر الإمام الحسين الثورة في يوم عاشوراء، وبقيت الثورة متفجّرةً على تعاقب، إلى أن طاح عرشُ بني أُميّة.

إذاً، فكان هناك فرقٌ موضوعيٌّ كبير بين الظرف الذي عاشه الإمام الحسن والظرف الذي سوف يعيشه بعد عشرين عاماً الإمام الحسين عليه السلام. كان هناك فرق في نوعيّة مرض الأُمّة: مرض الأُمّة في المرحلة الأُولى كان هو الشكّ، وأمّا مرض الأُمّة في المرحلة الثانية كان هو فقدان الإرادة.

وكان لا بدّ للمرض الثاني أن يختار الطريق الأوّل، بينما المرض الأوّل لَمّا كان هو الشكّ، فلم يكن اختيار الطريق الأوّل في ظلّ مرضٍ من هذا القبيل يحقّق ذلك المكسب الذي حقّقه اختيار الطريق الأوّل من قبل الإمام الحسين عليه السلام.

إذاً، فعلى أساس الاعتبار الأوّل من الاعتبارات الثلاثة التي كان يمثّلها

(١) تقدّم الحديث عن هذه الفكرة في المحاضرة الثانية عشرة، تحت عنوان: الإمام الحسين عليه السلام يعالج موت إرادة الأُمّة بعد تبدّد الشكّ لديها. وسيتجدّد في المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: عدم تعرّض الإمام الحسين عليه السلام للظلم أصّل موضوعيّة حركته، وفي المحاضرة الثامنة عشرة، تحت عنوان: مقوّمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام، المقوّمات الشخصيّة للثائر.

الإمام الحسن عليه السلام بوصفه أميناً على النظريّة، على التراث الفكري، على الإسلام بوصفه خطّاً يجب أن يمتدّ مع الأجيال روحيّاً وذهنيّاً، بهذا الاعتبار كان لا بدّ أن يكسب الاقتناع بهذا الخطّ.

وقلنا بأنّ هذا الاقتناع توقّف على أن ينحسر، فكان لا بدّ أن ينحسر، لا بدّ أن يُخْلي الميدان لعدوّه، وكان [يُمكن أن يتحقّق] هذا الإخلاء [بأحد] طريقين: إمّا بأن يواصل حتّى يخرّ صريعاً في ميدان المعركة، وإمّا أن يوقّف[1]، وكان الطريق الأوّل سلبيّاً تجاه المكاسب التي حقّقها الإمام الحسين حينما سلك نفس هذا الطريق.

هذا كلّه على الاعتبار الأوّل.

٢ ـ الفرق بين موقِفَي الحسنين عليهما السلام على ضوء الاعتبار الثاني:

وأمّا الاعتبار الثاني من اعتبارات الإمام الحسن عليه السلام، [وهو] اعتباره بوصفه أميناً على التجربة، أميناً على الواقع السياسي الحيّ الذي كان يجسّد تلك الصيغة الإسلاميّة الكاملة للحياة.. فبوصفه أميناً على هذه التجربة كان لا بدّ أن يدرس موقفه أيضاً ليختار أحد هذين الطريقين.

أصبح واضحاً على ضوء ما سبق[2] أنّ التجربة كان من المستحيل أن تبقى وأن تواصل وجودها، كان من المستحيل افتراض النصر في هذه المعركة ـ الذي هو معنى بقاء التجربة ـ ومواصلة وجودها؛ لأنّ أيّ تجربةٍ بأُطروحةٍ رساليّة تعيش مستوىً أكبر من مستوى مصالح هذا الفرد بالذات وهذا الفرد بالذات لا يمكن أن تواصل وجودها، ولن يمكن في ما يأتي من الزمان أن تواصل وجودها إلّا إذا كانت قد [حظيت] باقتناع كبير واسع النطاق في قواعد

---

(١) كذا في (غ) و(هـ)، والمقطع الصوتي هنا غير واضح، ولعلّه: «يوقّت»، والمراد: التوقّف مؤقّتاً.

(٢) في هذه المحاضرة وفي المحاضرة الرابعة عشرة، خاصّة ما ورد تحت عنوان: الخيانات والتراجعات في جيش الإمام عليه السلام.

شعبيّة قادرةٍ على أن تحمي هذه التجربة، وأن تُسنِد هذه التجربة، وأن تضحّي بدمها في سبيل هذه التجربة[١].

أمّا حينما تفقد التجربة هذا الاقتناع، حينما تصبح حالة [الاقتناع] بالنسبة إليها صفراً، تصبح هذه التجربة مشلولةً عن العمل، غير قادرةٍ على الدفاع عن ذاتها ونفسها؛ لأنّها بِمَ تستهوي الناس؟ هل تستهوي الناس بالمصالح الخاصّة؟ هذا خروج عن مضمونها الحقيقي.

نعم، كان بالإمكان أن يستهوي الإمام الحسن الناس عن طريق مصالحهم الخاصّة، كان بإمكان الحسن أن يدخل المداخل التي دخلها معاوية، أن يشتري ضمائر الناس، أن يكتب إلى رؤساء الشام كما كتب معاوية إلى رؤساء العراق، أن يخدع، أن يماطل، أن يقوم بتوزيع الأموال على غير الأساس الإسلامي الصحيح.. إلّا أنّ هذا خروج عن المضمون الحقيقي للنظريّة.

إذاً، فكان يتوقّف بقاء التجربة ـ ويتوقّف بقاء كلّ تجربةٍ رساليةٍ طاهرةٍ نظيفة ـ على أن يوجد هناك مؤمنون بنظافتها، مؤمنون بطهارتها، مؤمنون بضرورتها، مستعدّون للدفاع عنها.

وحيث إنّ هذا الاقتناع زال في ظروف الشكّ التي شرحناها، فلهذا كان محتّماً ومقضيّاً [على هذه][٢] التجربة أن تنتهي.

ولكن هل تنتهي بأنْ يواصل الإمام الحسن الطريق الأوّل، يواصل الكفاح والجهاد حتّى يخرّ صريعاً في مسكَن أو في المدائن؟ أو تنتهي بطريقٍ آخر؟

كان لا بدّ من أن تدرس مصلحة هذه التجربة أيضاً في تحديد أحد هذين الطريقين.

الإمام الحسن عليه السلام في هذا أيضاً نجد أنّه يختلف اختلافاً كبيراً عن الإمام

(١) راجع المحاضرة الرابعة عشرة، تحت عنوان: اقتناع الأُمّة بالقضيّة شرط نجاحها.
(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(هـ).

الحسين عليه السلام:

الإمام الحسين لم يكن قائداً لتجربةٍ سياسيّة قائمةٍ بالفعل، لم يكن رئيساً لدولة قائمة بالفعل، لم يكن أميناً على حكم قائم بالفعل، وإنّما كان شخصاً مستضعفاً ومضطهداً في الأرض، لم يكن معه إلّا ثلّة من أصحابه.

أمّا الإمام الحسن عليه السلام [فقد] كان يمثّل جبهةً سياسيّة قائمةً بالفعل، إلّا أنّ هذه الجبهة بالرغم من ضخامتها المظهريّة، بالرغم من تخوّف معاوية منها، بالرغم من أنّ معاوية بقي يفضّل مئة مرّةٍ أن[1] يدخل إلى ساحة هذه الجبهة عن طريق الحيلة على أن[2] يدخلها عن طريق السيف؛ لأنّه كان يقدّر، كان يشكّ، كان يحتمل أن تكون الجبهة ملغّمة عليه إلى حدٍّ ما، هذه الجبهة بالرغم من ضخامتها المظهريّة كانت منكوبةً من الداخل، كانت فراغاً من الداخل.

إلّا أنّ هذه الضخامة المظهريّة لهذه التجربة كانت تعطي فرصة للإمام الحسن عليه السلام أن يدخل مع معاوية بن أبي سفيان في تحقيق أكبر قدرٍ ممكن من المكسب لهذه التجربة، ولأهداف هذه التجربة، ولرسالة هذه التجربة.

لم يكن هناك بالإمكان أن يدخل الحسين في تحقيق مكاسب عن طريق المفاوضة السياسيّة مع يزيد والحسين شخصٌ عاديٌّ من أفراد المسلمين، بينما كان بإمكان الإمام الحسن وهو يتزعّم جبهةً مخيفةً لمعاوية من هذا القبيل لا تزال حتّى الآن تذكّر معاوية بسيوف ليلة الهرير[3]، هذه الجبهة التي كانت تذكّر معاويةَ بسيوف ليلة الهرير كان بإمكان زعيمها أن يفرض على معاوية بعض التنازلات في مقابل إيقاف العمل مؤقّتاً.

وهكذا كان، يعني: كان من الأفضل بالنسبة إلى مصلحة هذه التجربة أن

---

(١) في المحاضرة الصوتيّة: «على أن».

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «من أن».

(٣) راجع: وقعة صفّين: ٤٧٩؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٢؛ الفتوح ٣: ١٧٤.

توقَف وأن تنحسر ـ مع ضمان رجوعها ولو رسميّاً وقانونيّاً ـ على أن تنتهي انتهاءً كاملاً باستمرار القتال واستشهاد الإمام الحسن عليه السلام.

كان هناك طريقان:

أ ـ إمّا أن يواصل الإمام الحسن الجهاد والكفاح، فيقتل دون قيد أو شرط؛ لأنّه يعلم أنّ التجربة مقضيٌّ عليها بالفناء. وسواءٌ علم معاوية بذلك أو لم يعلم، فالإمام الحسن ـ الذي يعيش الأوضاع الداخليّة لمجتمعه ـ هو أعلم بهذا، وأدرى به، ولهذا كان معنى المواصلة أن يُقتل. ومعنى أن يقتل: أن تنتهي التجربة دون أن يكون هناك أيُّ أساسٍ ـ يعني أيّ أساسٍ قانوني، أقصد: شرعي ـ لإمكانيّة رجوعها بعد هذا.

ب ـ [وإمّا] أن يدخل الإمام الحسن عن طريق هذه الهيبة المظهريّة لهذه الجبهة، أن يدخل في حديثٍ مع معاوية لاستبقاء ما يمكن استبقاؤه من مكاسب هذه التجربة.

وقد اختار الإمام الحسن عليه السلام الطريق الثاني، وكان لا بدّ لكلّ إنسان يعيش ظروف الإمام الحسن أن يختار الطريق الثاني، إلّا إذا ركبته تلك الاعتبارات العاطفيّة التي ذكرناها في بداية الحديث، وقلنا: إنّها لا تدخل في حساب الإنسان الحقّ[1].

ولهذا، الإمام الحسن عليه السلام اشترط لمعاوية على نفسه أن ينسحب عن ميدان الحكم، ولم ينصّ هذا الشرط على نوعٍ من البيعة والتبعيّة السياسيّة الصريحة في الروايات الصحيحة الواردة عنه (عليه أفضل الصلاة والسلام). لا يوجد في الروايات الصحيحة الواردة عن الإمام الحسن أنّه اشترط لمعاوية

---

(١) في هذه المحاضرة، تحت عنوان: الاعتبارات المتمثّلة في الإمام الحسن عليه السلام، خروج الاعتبار العاطفي غير الرسالي عن حسابات الإمام الحسن عليه السلام.

على نفسه البيعة والتبعيّة السياسيّة[١] بالمعنى الذي كان موجوداً لعليٍّ عليه السلام بالنسبة إلى أبي بكر أو عمر أو عثمان[٢]، وإنّما كان هناك إيقافٌ للعمل، إيقافٌ للمعركة وللقتال.

وفي مقابل هذا الإيقاف كان هناك شيء، كان هناك تعهّدات اشترطها على معاوية، بعض هذه التعهّدات ترجع إلى الكتلة[٣]، وهذا هو الاعتبار الثالث الذي سوف نتكلّم عنه في ما بعد، وبعضها ترجع إلى التجربة، يعني ترجع إلى الحكم وإلى الكيان السياسي.

وأهمّ هذه التعهّدات: أنّه اشترط على معاوية أن لا يوصي إلى أحدٍ غير الإمام الحسن بالأمر من بعده[٤]. وفي روايةٍ أُخرى: أن يوصي إلى الإمام الحسن عليه السلام[٥].

وبهذا كان الإمام الحسن عليه السلام يريد أن ينحسر عن الحكم لكي يكسب اقتناع المسلمين بصحّة الأُطروحة، ثمّ لكي يضع أساساً جديداً، يمكن للأُطروحة على هذا الأساس الجديد أن [تحوز][٦] مرّةً أُخرى على الميدان

---

(١) «بايع الحسن بن علي عليه السلام معاوية على أن لا يسمّيه أمير المؤمنين» علل الشرائع ١: ٢١١. وراجع حول المسألة: صلح الحسن عليه السلام: ٢٧٢، حديث البيعة.

(٢) على قولٍ. وبحسب الشيخ المفيد رحمه الله، فقد «أجمعت الأُمّة على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام تأخّر عن بيعة أبي بكر: فالمقلّل يقول: كان تأخّره ثلاثة أيّام، ومنهم من يقول: تأخّر حتّى ماتت فاطمة عليها السلام ثمّ بايع بعد موتها، ومنهم من يقول: تأخّر أربعين يوماً، ومنهم من يقول: تأخّر ستّة أشهر. والمحقّقون من أهل الإمامة يقولون: لم يبايع ساعةً قطُّ» الفصول المختارة: ٥٦.

(٣) وهي التي تسمّى اليوم بـ (الشيعة) بحسب ما جاء في مطلع هذه المحاضرة ويأتي منه قدس سره قريباً.

(٤) «ليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين» كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام ١: ٥٧٠؛ بحار الأنوار ٤٤: ٦٥، عنه.

(٥) «فاصطلح معه على أنّ لمعاوية الإمامة ما كان حيّاً، فإذا مات فالأمر للحسن» الإمامة والسياسة: ١٨٤. وراجع: مقاتل الطالبيّين: ٦٨؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١: ٣٨٦؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ٣٧.

(٦) المحاضرة الصوتيّة غير واضحة عند هذه الكلمة فقط، والأقرب ما أثبتناه. وفي (غ) و(هـ): «أن

السياسي، وتصارع على أساس هذا الحقّ المكتسب من ناحية هذا الشرط.

وأنتم تعلمون ـ كما مرّ بنا بالأمس[١] ـ أنّه كانت هناك شكوك، يعني بعض أسباب الشكوك كانت في شرعيّة خلافة الإمام الحسن بالنحو الذي شرحنا، وكان هذا الشرط يقضي على كلّ شكٍّ ـ في نظريّة الجماهير عن الحكم ـ في[٢] صحّة خلافة الإمام الحسن.

لو أنّ معاوية قد أُصيب بسكتة تامّة بعد هذا الشرط بشهر أو بشهرين وانتهى أمره لاسترجع بذلك الإمام الحسن في ذهنيّة الجماهير كلّ المبرّرات الشرعية لأنْ يحكم ولأن يُستَخلَف.

فكان معنى هذا الاختيار تجميد التجربة مؤقّتاً، ووضع قاعدة شرعيّة وقانونيّة يمكن على أساسها مواصلةُ الكفاح والجهاد بعد هذا لإرجاعها إلى مستوى الحياة، إلى مسرح الحياة، بعد أن تكون قد استرجعت الاقتناع المطلوب بها من القواعد الشعبيّة التي فقدت الاقتناع في ظلّ الظروف السابقة.

إذاً، فعلى أساس الاعتبار الثاني أيضاً [نجد] أنّ هذا الاعتبار الثاني كان يحتّم على هذا الإمام القائد الممتحن (عليه أفضل الصلاة والسلام) أن يفضّل الطريق الثاني على الطريق الأوّل، بينما الإمام الحسين لم يكن يوجد لديه مثل هذا الاعتبار لكي يدرس طريقَيْه على أساس هذا الاعتبار.

٣ ـ الفرق بين موقِفَي الحسنين عليهما السلام على ضوء الاعتبار الثالث:

الاعتبار الثالث هو اعتباره زعيماً للكتلة. الوقت [انتهى]، فلأختصر الاعتبار الثالث، وأنا تعبت.

قلنا: إنّ الاعتبار الثالث من اعتبارات الإمام الحسن هو اعتباره بوصفه

ترجع مرّة أُخرى للميدان السياسي»، وهو ليس كذلك حتماً.

(١) في المحاضرة الرابعة عشرة.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «عن».

أميناً على الكتلة التي وضع بذورَها النبيُّ ونمّاها الإمامُ علي. هذه الكتلة التي تمثّل الجزء الواعي من الأُمّة الإسلاميّة التي تسمّى اليوم بـ(الشيعة)، والتي كان من المفروض أن تكون طليعة الأُمّة الإسلاميّة على مرّ التاريخ، تحمل إلى الأجيال الإسلام بكامل صيغته ومضمونه.

هذا الاعتبار الثالث أيضاً كان لا بدّ من إدخاله في الحساب حينما يُدرَسُ أفضلُ الطريقين: الطريق الأوّل أو الطريق الثاني.

وفي هذا المجال كان يبدو ـ حينما تدرس المسألة على هذا الضوء الجديد ـ أنّ هناك أيضاً فرقاً كبيراً بين الإمام الحسن والإمام الحسين (عليه أفضل الصلاة والسلام). الإمام الحسين كان مشاركاً للإمام الحسن في هذا الاعتبار؛ لأنّ الإمام الحسين كان هو الزعيم الثالث لهذه الكتلة، كان هو الأمين على هذه الكتلة في مرحلته كما كان الإمام الحسن هو الأمين على هذه الكتلة في مرحلته، إلّا أنّ بينهما فرقاً.

وحاصل هذا الفرق: أنّ الإمام الحسن كان يستقطب كلّ هذه الكتلة، بينما الإمام الحسين لم يكن يستقطب كلّ هذه الكتلة، الإمام الحسن كان يحارب وهو رئيس دولة، كان يحارب وهذه الكتلة داخلة ضمن إطار دولته، ولم يكن من المعقول أن يحارب رئيسُ دولةٍ وأن يواصل الحرب إلّا بأن تستنفد هذه الحرب كلّ قواه وكلَّ طاقاته، وكلَّ رصيده الشعبي الموجود في الدولة حتّى يخرّ صريعاً.

الإمام الحسين لم يخرّ صريعاً إلّا بعد أن استنفدت كلّ قواه الصغيرة المتمثّلة في تلك المجموعة الطاهرة، حتّى خرّ الأطفال[1] صرعى، ثمّ خرّ الإمام الحسين (عليه أفضل الصلاة والسلام) صريعاً.

---

(١) في (غ) و(هـ): «الأبطال»، ولكنّها تبدو في المحاضرة الصوتيّة: «الأطفال».

فكيف برئيس دولة يريد أن يواصل الحرب إلى الموت؟

كان لا بدّ لكي يواصل الحرب إلى الموت من أن يعتصر كلّ طاقات قواعده الشعبيّة، وكلّ ما يملك من حول وطَول في هذه القواعد الشعبيّة. وكان معنى هذا أنّه سوف لن يبقى هناك وجودٌ إسلاميٌّ قادرٌ على أن يسترجع ذلك الاقتناع الذي فُقِد، ذلك الاقتناع بالأُطروحة.

ذلك الاقتناع بالأُطروحة إلى من رجع؟

رجع إلى حجر بن عدي وأمثال حجر بن عدي[1]: هؤلاء هم أوّل من بدأ يقتنع بعد أن شكّ ـ لو قلنا بأنّ حجراً شكّ[2]، أنا على سبيل المثال أقول بأنّ حجراً [شكّ] ـ، يعني هؤلاء الأشخاص الذين عاشوا ظلم معاوية وقتلوا بسيف معاوية، هؤلاء هم أوّل جزءٍ من القاعدة الشعبيّة الذين رجع إليهم الاقتناع، وعن طريق دمهم وعن طريق إيمانهم وعن طريق اقتناعهم سرى هذا الاقتناع إلى الآخرين، وسرى هذا الاقتناع عبر الأجيال، وسرى إلينا؛ فكنّا شيعةً بفضل هذا الاقتناع، وبفضل هذه الدماء، وبفضل هذا الإصرار المستميت من هؤلاء الأوائل عليهم السلام[3] على أُطروحتهم وعقيدتهم.

لو أنّ هذا الجزء الذي كان فيه استعدادٌ لأنْ يرجع إلى الاقتناع بنحوٍ أفضل، لو أنّ ذاك الجزء الأكثر ضآلةً الذي كان لا يزال حتّى الفعل مقتنعاً إلى حدٍّ ما، لو أنّ هذه الأجزاء الصغيرة التي كانت إمّا مقتنعةً بالقوّة أو مقتنعة بالفعل

---

(١) من قبيل: المسيَّب بن نجبة وسليمان بن صرد الخزاعي.

(٢) على أساس ما نقل من اعتراض حجر وصاحبيه على الصلح، وقول حجر: «أما والله! لوددت أنّك متَّ في ذلك اليوم ومتنا معك ولم نر هذا اليوم؛ فإنّا رجعنا راغمين بما كرهنا ورجعوا مسرورين بما أحبّوا» مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٥؛ بحار الأنوار ٤٤: ٥٧؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ١٥. ويفترض أن يكون حجرُ بنُ عدي قد عاد من مهمّته؛ حيث بعثه عليه السلام «يأمر العمّال والناس بالتهيّؤ للمسير»، فراجع: مقاتل الطالبيّين: ٦٩؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٠.

(٣) «عليهم السلام» هنا واردة في المحاضرة الصوتيّة، مع رجوع الكلام إلى أصحاب الأئمّة عليهم السلام.

بدرجاتٍ ضئيلةٍ، لو أنّ الإمام الحسن كان قد أهدر كلّ هذه الأجزاء، قد أعطى كلّ هذه الأجزاء، إذاً لكان بهذا يعطي كلّ إمكانيّات استرجاع هذا الاقتناع للأمّة الإسلاميّة.

فكان لا بدّ للإمام الحسن ـ حفاظاً على قاعدة يمكن أن يرجع على أساسها الاقتناعُ بالأُطروحة في يوم ما، ويمكن أن تسترجع اعتقادها الراسخ بأنّ خطّ عليٍّ هو خطّ الإسلام استرجاعاً يدفعها إلى بذل الدم، واسترخاص الروح في هذا السبيل ـ من أن يفكّر في الحفاظ على أجزاء وعلى قطّاعاتٍ من هذه القاعدة الشعبيّة. وهذا هو الذي كان يعبّر عنه بحقن الدماء، وكان يعبّر عنه بحفظ الشيعة، ونحو ذلك من التعابير[١].

بينما الإمام الحسين عليه السلام أُخذ في معزلٍ، أُخذ واستشهد معه صفوةٌ من خيرة خلق الله، إلّا أنّ هذه الصفوة لم تكن تستوعب كلّ القواعد الشعبيّة الواعية.

ولهذا عقيب شهادته (سلام الله عليه) بدأت ثورة التوّابين[٢]، ثمّ بدأت الثورات تترى من قبل أُناسٍ كان يتزعّمهم عددٌ كبيرٌ من الشيعة الواعين والمؤمنين بأهداف الحسين عليه السلام[٣].

ملخّص القول:

ملخّص القول: أنّه كان لا بدّ للإمام الحسن أن يدرس موقفه على أساس هذه الاعتبارات الثلاثة، وكان لا بدّ أن لا يُدخل في حسابه أيَّ اعتبارٍ آخر

(١) كقوله عليه السلام لحجر بن عدي في المصدر المتقدّم: «وإنّي لم أفعل ما فعلت إلّا إبقاءً عليكم»، أو ما أورده السيّد المرتضى رحمه الله: «وفي رواية: إنّما هادنت حقناً للدماء وصيانتها وإشفاقاً على نفسي وأهلي والمخلصين من أصحابي» تنزيه الأنبياء: ١٦٩؛ مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٤.

(٢) راجع: أنساب الأشراف ٦: ٣٦٣؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٧؛ الفتوح ٧: ١١٢؛ تجارب الأمم ٢: ١٠٧.

(٣) من قبيل خروج محمّد بن إبراهيم طباطبا الذي سيتحدّث عنه رحمه الله في المحاضرة الخامسة والعشرين.

غير هذه الاعتبارات الثلاثة.

وقد رأينا أنّ هذه الاعتبارات الثلاثة ـ بمجموعها ككلّ ـ تشير إلى تعيين الطريق الثاني، ولا يشير شيءٌ منها إلى تعيين الطريق الأوّل. فكان لا بدّ من اختيار الطريق الثاني بدلاً عن الطريق الأوّل مهما كان هذا الطريق قاسياً وصعباً، ومهما كان فيه أقسى ألوان التحدّي للنفس البشريّة الاعتياديّة التي لم تَعْتَد منطق الحقّ وسلوك الحقّ في كلّ سلوكها وتصوّراتها وأفكارها ومشاعرها،

إلّا أنّ هذا الشابَّ العظيم الذي كان يمثّل الدور الحقّ في كلّ آناته وخلجاته لم يتردّد لحظةً ولم يتأمّل لحظةً في أن يتحمّل كلَّ هذا الأذى وكلّ هذا الضيم في سبيل أن يحقّق أقصى درجةٍ ممكنةٍ من المكاسب للاعتبارات الثلاثة، أو أن يبعدها عن أقصى درجةٍ ممكنةٍ من الضرر.

وعلى هذا الأساس، تمّ نوعٌ من إيقاف العمل، جسّده ذلك الموقف المشؤوم في مسجد الكوفة؛ حينما دخل معاوية بن أبي سفيان إلى مسجد الإمام علي (عليه أفضل الصلاة والسلام) وصعد إلى هذا المنبر الذي كان يجسّد آمال المسلمين في حكم الإسلام، إلى هذا المنبر الذي كان يعلوه محمّد[صلى الله عليه وآله] بوجوده الثاني، وهو عليّ عليه السلام.

صعد عليه معاوية بن أبي سفيان ليستهين بمُثُلِ هذا المنبر وكرامة هذا المنبر، وليطعن صريحاً ومكشوفاً من فوق هذا المنبر في الشخص الذي كان يعيش فوق هذا المنبر كلَّ هموم المسلمين وكلَّ آلام المسلمين، الذي كان يعيش من فوق هذا المنبر كلَّ قضيّةٍ من قضايا الرسالة، وكلَّ اعتبارٍ من اعتباراتها، هذا الشخص صعد إلى هذا المنبر ليقول للناس بكلّ وقاحة وجرأة وصراحة:

«أنا حاربتكم لأتأمّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون»[(١)].

وكان من منطق هذه الجلسة أن يخطب كلا الطرفين، أن يخطب معاوية وأن يخطب الإمام الحسن؛ باعتبارهما الطرفين الملتقيين في هذا المسجد. لكنْ بِمَ يخطب الإمام الحسن في مقابل هذا النوع من الاستهتار؟ في مقابل [ضياع] الآمال! في [مقابل][(٢)] تهدّم كلّ ما كان يفترضه الإنسان المسلم من قِيَم ومُثُل واعتبارات!

ماذا يقول الإمام الحسن؟ وبِمَ يجيب على مثل هذا الاعتداء؟

الإمام الحسن عليه السلام حينما انتهى معاوية بن أبي سفيان من [خطبته قام فقال: «يا معاوية! أنت معاوية وأنا الحسن، وأنت ابن أبي سفيان وأنا ابن علي، وأنت حفيد حرب وأنا حفيد محمّد صلى الله عليه وآله، وأنت ابن هند [وأنا ابن فاطمة، وأنت حفيدُ فلانة وأنا حفيد خديجة، اللهمّ فالعن ألأمنا حسباً»، فقال الناس: «آمين»][(٣)][(٤)].

❊ ❊ ❊

(١) تقدّم توثيقه، فراجع: مقاتل الطالبيّين: ٧٧.

(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(هـ).

(٣) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ) و(هـ).

(٤) «لمّا بويع معاوية خطب فذكر عليّاً فنال منه، ونال من الحسن، فقام الحسين ليردّ عليه فأخذ الحسن بيده فأجلسه، ثمّ قام فقال: أيّها الذاكر عليّاً! أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمّي فاطمة وأمّك هند، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وجدّك حرب، وجدّتي خديجة وجدّتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرّنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً. فقال طوائف من أهل المسجد: آمين» مقاتل الطالبيّين: ٧٨؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٥؛ نثر الدرر في المحاضرات ١: ٢٢٥؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ٤٧؛ التذكرة الحمدونيّة ٣: ٣٩٦. وفي مصادر متأخّرة: «حكاية: قيل: لمّا قدم معاوية المدينة...» نفحة اليمن في ما يزول بذكره الشجن (الشيرواني، ت ١٢٥٣هـ): ٦٤؛ فلم تقع الحادثة ـ بناءً عليه ـ في الكوفة.

٣

الإمام الحسين بن علي عليه السلام

- موقف الإمام الحسين عليه السلام من طمس معالم النظريّة الإسلاميّة وتمييع الأُمّة
- الإمام الحسين عليه السلام ومبرّرات رفض البيعة
- مقوّمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام
- التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة
- التحوّل من أخلاقيّة الهزيمة إلى أخلاقيّة الإرادة
- كلمة حول الثورة الحسينيّة وتغيير أخلاقيّة الهزيمة
- سيبقى هذا الصوت خالداً

١

١٦

موقف الإمام الحسين عليه السلام

من طمس معالم النظريّة الإسلاميّة وتمييع الأُمّة

أُلقيت في ٢٥ شهر شوّال المكرّم ١٣٨٨ هـ

[في استعراض حياة الأئمّة عليهم السلام أشرنا[1] إلى دور سيّد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام، بعد أن عشنا محنة الهدنة التي مارسها الإمام الحسن عليه السلام مع خصومه من أعداء الإسلام][2].

والثورة على الحكم أو الحاكم التي هي أساس موقف الإمام أبي عبد الله الحسين تجاه معاصريه من أعداء الإسلام، هذه الثورة على الحكم أو الحاكم ترتبطُ بمفهوم الإسلام عن درجات المعارضة للحاكم، وحكمه الشرعي الذي يتفاوت من حكمٍ إلى حكم، ومن وضعٍ حاكمٍ إلى وضعٍ حاكمٍ آخر[3].

أقسام الحكم المُعاش:

فإنّ الحكم الذي يعاش[4]:

١ ـ إمّا أن يكون حكماً قائماً على أساس قاعدةٍ هي الإسلام. ومعنى قيام الحكم على أساس قاعدة هي الإسلام: أنّ هذا الحكم يتبنّى الإسلام كنظريّة للحياة، وكأساسٍ للتشريع والتقنين، وكرسالةٍ يحملها في كلّ مجالات نشاطه ووجوده.

٢ ـ وأُخرى يقوم الحكم على أساس قاعدةٍ أُخرى غير الإسلام؛ يُقصي

(١) في المحاضرة الثانية عشرة.

(٢) مطلع المحاضرة ساقطٌ من النسخة الصوتيّة، وما بين عضادتين أثبتناه من (غ) و(ش) و(ن).

(٣) أثبتنا التنوين وفقاً لما جاء في المحاضرة الصوتيّة.

(٤) سيأتي مزيد حديث حول (الموقف من أنظمة الحكم المختلفة) في المحاضرة الثامنة عشرة.

الإسلام عن مركزه كأساسٍ للحكم، ويفترض أنّ الإسلام لا دخل له ولا شأن له بالقيمومة على حياة الناس وتنظيمها وتدبير شؤونها، وأنّ هذه القيمومة يجب أن تعطى لقاعدة فكريّة أُخرى من القواعد التي صنعتها الأرض، فيكون الحكم [قائماً](١) على أساس قاعدة فكريّة كافرة؛ لأنّ أيّ قاعدة فكريّة غير الإسلام فهي كفر، فيكون الحكم القائم على أساس تلك القاعدة الفكريّة حكماً كافراً، سواءٌ كان الإنسان الممارس للحكم مسلماً أو كافراً؛ إذ لا يوجد ارتباط بين إسلام الحاكم وإسلام الحكم:

إسلام الحاكم بأنْ يشهد أنْ لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن لا يبدو منه ما يتعارض مع إيمانه القلبي بهاتين الشهادتين.

أمّا إسلام الحكم بوصفه شخصيّة معنويّة فعبارة(٢) [عن] ارتباطه بالإسلام، وقيامه على أساس قاعدة هي الإسلام، فقد يكون الحكم كافراً، [وإن كان] شخص الحاكم مسلماً.

إذاً، فبصورةٍ رئيسيّة يمكن تقسيم الحكم [إلى] اثنين:

١ ـ إلى حكمٍ يقوم على أساس قاعدةِ قيمومة الله على الإنسان وخضوع الأرض لشريعة السماء، أي لقاعدةٍ هي الإسلام، فيكون الحكم حكماً مؤمناً مسلماً متعبّداً بين يَدَيِ الله تعالى.

٢ ـ وأُخرى يقوم الحكم على أساس قاعدةٍ أُخرى غير الإسلام، فيكون حكماً كافراً.

أقسام الحاكم في حال تبنّي الإسلام قاعدةً للحكم:

ثمّ ذاك القسم الأوّل الذي يقوم على أساس قاعدةٍ هي الإسلام يفترض

---

(١) ما بين عضادتين هنا وفي الموضعين القادمين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ).

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «فإسلامُه عبارة».

فيه:

تارةً: أنّ الشخص الذي يمارس هذا الحكم ويُمثّل هذه القاعدة ويتبنّى هذه الرسالة ـ تارةً نفترض أنّ هذا الشخص ـ معصومٌ في منطق تلك القاعدة، لا يشذّ عنها في سلوكٍ أو قولٍ أو فعل، كما هو الحال في الإمام علي وأولاده المعصومين، الذين لا يشذّون عن القرآن حتّى يردوا عليه الحوض، كما شهد بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله(١).

وأُخرى: يمكن أن نفترض أنّ الشخص الذي يمثّل القاعدة إنسانٌ غير معصوم، إلّا أنّه يستمدّ صلاحيّاته هنا من وضعٍ شرعيٍّ صحيح، كما إذا افترضنا أنّ هذا الإنسان كان نائباً عن الإمام المعصوم، ومنسجماً مع نظريّة الحكم في الإسلام.

وثالثةً: يُفترض أنّ هذا الشخص الذي يمثّل القاعدة ويتزعّم التجربة ليس إنساناً معصوماً ولا إنساناً مشروعاً، بل هو إنسان يُحمِّل(٢) نفسه على القاعدة بدون أن تقرّه مقاييس القاعدة عن الحكم.

إذاً، فنحن نواجه ثلاث حالاتٍ في القسم الأوّل:

١ ـ حالةً يكون الحاكم فيها معصوماً بمقاييس القاعدة الإسلاميّة.

٢ ـ حالةً يكون الحاكم فيها منسجماً مع مقاييس القاعدة الإسلاميّة وإن لم يكن معصوماً، كنائب المعصوم عليه السلام.

٣ ـ وثالثةً يفترض أنّ الحاكم غير منسجمٍ مع مقاييس القاعدة، إنسانٌ لا معصوم ولا مشروع، يتولّى زعامة التجربة وتمثيل القاعدة وتطبيقها.

هذه حالات ثلاث:

---

(١) الطبقات الكبرى ٢: ٥٠؛ الفتوح ٤: ٣٢٥؛ المسند (ابن حنبل) ٣: ١٤.

(٢) كذا في المحاضرة الصوتيّة، من: التحميل لا الحمل، وهو بمعنى فرض النفس على الغير.

الحالة الأُولى: أن يكون الحاكم معصوماً:

أمّا الحالة الأُولى: أن يقوم الحكم في المجتمع على أساس قاعدةٍ هي الإسلام، وهذه القاعدة الإسلاميّة تكون أساساً لحكمٍ يمارسه شخصٌ معصوم.

ففي وضعٍ من هذا القبيل لا يمكن افتراض الانحراف أو الخطأ؛ لأنّ المفروض أنّ شخص الحاكم الذي تسلّم مسؤوليّات قيادة المجتمع وتطبيق النظريّة الإسلاميّة عليه، المفروض في شخص هذا الحاكم أنّه معصوم، أي: أنّه متفاعل مع الرسالة والإسلام إلى أبعد حدٍّ ممكنٍ في سلوكه وقوله وفعله، فلن يفترض فيه خطأ ولا انحراف.

وبالنتيجة، لا يكون لدى الأُمّة تجاه حاكمٍ من هذا القبيل إلّا المواكبة لخطّه ولحركته، ولتصعيده للعمل في سبيل الإسلام.

الحالة الثانية: أن يكون الحاكم شرعيّاً غيرَ معصوم:

أمّا الحالة الثانية: أن يكون الحاكم الذي يمارس حكماً قائماً على أساس القاعدة الإسلاميّة ـ أن يكون هذا الحاكم ـ حاكماً مشروعاً بمقاييس تلك القاعدة، إلّا أنّه غير معصوم، كما إذا افترضنا أنّه كان من نوّاب المعصوم.

ففي مثل ذلك: هذا الحاكم ما دام ملتزماً بمقاييس تلك القاعدة لا يمكن أن نفترض فيه الانحراف؛ لأنّ الانحراف يسلخ عنه صفة المشروعيّة، وإنّما يمكن أن نفترض في حاكمٍ من هذا القبيل أن يخطئ، أن يقدّر المصلحة الإسلاميّة على خلاف ما هي في الواقع، أن يجتهد في موقفٍ إسلامي ولا يكون اجتهاده مصيباً للواقع.

في مثل هذه الحالة، حينما يصدر الخطأ من حاكمٍ من هذا القبيل، ما هو موقف من يكتشف هذا الخطأ من الأُمّة؟

من يكتشف هذا الخطأ من الأُمّة [(١)لا بدّ له أن ينبّه الحاكم قدر الإمكان على خطئه، ويوضّح وجهة النظر الأُخرى التي يؤمن بأنّها أكثر تمثيلاً للإسلام، وأصدق تعبيراً عن حاجات الرسالة والأُمّة في ذلك الوقت.

فإن أمكن تنبيه الجهاز الحاكم إلى ذلك الخطأ فهو، وإن لم يمكن تنبيهه إلى ذلك ـ أي بقي الجهاز مصرّاً على وجهة نظره ـ ففي مثل ذلك لا بدّ للأُمّة من اتّباعه، من اعتقد منهم خطأه(٢)، ومن اعتقد منهم صوابه، ما لم يتغيّر الحاكم بظروفٍ أُخرى؛ وذلك لأنّ معنى الحاكميّة والولاية هو إنفاذ تقديره للأُمور، وكون تقديره للأُمور هو التقدير المحكَّم على الأُمّة، من دون أن يسمح لكلّ فردٍ من أفراد الأُمّة أن يُعمِل تقديرَه، ويتصرّف حسب تقديره للموقف.

الحالة الثالثة: أن يكون الحاكم حاكماً إسلاميّاً منحرفاً:

وأمّا الحالة الثالثة، [فهي] أن يكون الحكم قائماً على أساس قاعدةٍ هي الإسلام، ولكنّ شخص الحاكم منحرف، كما هو الحال في الخلفاء الذين اغتصبوا الخلافة من الإمام أمير المؤمنين وآل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فإنّ الحكم الذي كان هؤلاء يمارسونه كان حكماً قائماً على أساس قاعدة إسلاميّة، إلّا أنّ هؤلاء الأشخاص الممارسين لهذا الحكم كانوا متحدِّين ـ بوضعهم، بوجودهم ـ في أكثر الحكم لمقاييس تلك القاعدة ولاعتباراتها في تعيين الحاكم.

---

(١) هنا مقدارٌ ثلاث صفحات ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ).

(٢) ﷺ «إذا كان الحكم كاشفاً عن الواقع ـ كموارد المرافعات ـ فلا يجوز نقضه حتّى مع العلم بالمخالفة، ويجوز للعالم بالمخالفة أن يرتّب آثار الواقع المنكشف لديه. وأمّا إذا كان الحكم على أساس ممارسة المجتهد لولايته العامّة في شؤون المسلمين، فلا يجوز نقضه حتّى مع العلم بالمخالفة، ولا يجوز للعالم بالخطأ أن يجري على وفق علمه» راجع: منهاج الصالحين ١: ٢٠، التعليق على المسألة ٢٥. وراجع بعض التفصيل في مسألة ثبوت الهلال في: الفتاوى الواضحة: ٦٧٦.

فهنا الانحراف في شخص الحاكم، ولا انحراف في القاعدة.

في هذه الحالة يوجد ظرفان:

الظرف الأوّل: أن يشكّل هذا الانحراف الموجود عند الحاكم خطراً على القاعدة، وأنّها بالرغم من أنّ الحكم قائمٌ على أساس القاعدة، إلّا أنّ بعض ألوان الانحراف وأشكاله وبعض مؤامرات المنحرفين تشكّل خطراً على كيان القاعدة ذاتها.

وأُخرى: يفرض أنّ هذا الانحراف بالرغم من كونه خروجاً جزئيّاً على القاعدة، إلّا أنّه لا يشكّل خطراً على القاعدة وعلى المعالم الرئيسيّة للمجتمع الإسلامي:

أ ـ فإن كان هذا الانحراف الذي يمارسه الحاكم ممّا لا يشكّل خطراً رئيسيّاً على القاعدة ومعالم المجتمع الإسلامي، ففي مثل ذلك يتحقّق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا بدّ للأُمّة أن تمارس حقّها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشروطه.

وأيضاً من ناحيةٍ أُخرى تمارس حقّها في الدفاع عن حقوقها. لو افترضنا أنّ انحراف الحاكم كان يمسّ حقوق الأُمّة، حينئذٍ من حقّ الأُمّة ككلٍّ أن تمارس حقّها الشرعي في الدفاع عن حقوقها كما أنّ أيّ شخصٍ يتعرّض لظلم من شخصٍ آخر ـ كمحاولة سرقة من شخص آخر مثلاً ـ فمن حقّه أن يدافع عن نفسه وعن ماله وعن كرامته في مقابل ذلك.

[إذاً، لو كان الانحراف الذي يمارسه الحاكم ممّا لا يشكّل خطراً رئيسيّاً على القاعدة ومعالم المجتمع الإسلامي، فمن حقّ الأُمّة ككلّ أن تمارس حقّها][1] في حدود هذين الحكمين: الحكم بالأمر بالمعروف والنهي عن

(١) ما بين عضادتين غير مثبت في (غ) و(ش) و(ن)، وقد أثبتناه للسياق.

المنكر، والحكم بجواز دفع الظلم عن الإنسان.

ب ـ أمّا إذا افترضنا أنّ هذا الانحراف كان يشكّل خطراً على القاعدة ذاتها، على المعالم الرئيسيّة للشخصيّة الإسلاميّة للمجتمع، ففي مثل ذلك يصبح الحكم حكماً جهاديّاً؛ لأنّ الرسالة في ظلّ انحرافٍ من هذا القبيل افترضنا أنّها في خطر، وكونها في خطر يعني لزوم الحفاظ عليها مهما كلّف الأمر.

فلا بدّ في مثل هذه الحالة من مقاومة انحراف هذا الحاكم في الحدود التي لا بدّ [منها][1] لإيقافه، ولتخليص القاعدة الإسلاميّة من خطر هذا الانحراف.

هذه هي أحكام الحالات الثلاث التي صنّفنا إليها القسم الأوّل.

أقسام الحاكم في حال تبنّي الكفر قاعدةً للحكم:

وأمّا القسم الثاني، وهو ما إذا كان الحكم قائماً على أساس قاعدة كافرة منذ البدء، لم يكن الحاكم يمارس حكمه على أساس الإسلام، سواءٌ كان محقّاً أو مبطلاً، بل كان يمارس الحكم على أساس نظريّة من نظريّات الجاهليّة البشريّة التي وضعها إنسان الأرض.. في مثل ذلك يصبح الحكم كافراً، ويصبح الخطر على الإسلام مخيفاً حتماً.

ولا يمكن في مثل هذه الحالة أن نفترض ظرفين: أن نفترض ظرفاً يكون الانحراف مهدّداً للإسلام، وظرفاً آخر يكون الإسلام في منجىً من الانحراف.. هذا غير ممكنٍ هنا؛ لأنّ معنى أنّ الحكم يقوم على أساس قاعدةٍ من قواعد الجاهليّة البشريّة: أنّه يتبنّى هذه القاعدة، ويدافع عن مفاهيمها وأفكارها، ويبشّر بأُطروحتها وصيغتها في الحياة، وهذا تعبير آخر عن أنّ هذا الحكم يجنّد كلّ طاقاته وإمكاناته كحكمٍ لإبعاد الأُمّة عن رسالتها الحقيقيّة، والفصل بينها وبين مفاهيم دينها، وهذا هو الخطر الماحق الذي يهدّد الإسلام.

(١) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

ففي مثل هذا القسم][1] يكون الموقف دائماً مشابهاً للظرف الثاني الذي وجدناه في الحالة الثالثة من القسم السابق.

انسحاب خطّ الإمام علي عليه السلام مؤقّتا عن الميدان:

على ضوء هذا الفهرست العامّ للأحكام، لا بدّ أن نعيش الآن لحظاتٍ مع سيرة أبي عبد الله عليه السلام. وقد تركنا في المحاضرات السابقة أبا عبدالله عليه السلام وخطّ عليٍّ عليه السلام، تركنا هذا الخطَّ وقد انسحب عن الميدان ـ عن المعترك السياسي ـ مؤقّتاً في هدنةٍ أُعلنت بين الإمام الحسن ومعاوية بن أبي سفيان.

وقد تبيّنا في المحاضرات السابقة[2] أنّ هذه الهدنة كانت نتيجة عجزٍ كاملٍ من قيادة خطّ الإمام علي عن مواصلة تجربتها وأُطروحتها نتيجةً لأسبابٍ متعدّدة: لتفاقم وتضاعف الشكّ ـ الشكّ الذاتي ـ لدى الأُمّة الإسلاميّة والقواعد الشعبيّة التي كانت تعتمد عليها تجربة الإمام علي، هذه القواعد تضاعف باستمرارٍ ـ وفق ظروفٍ شرحناها ـ شكُّها في هذه القيادة، حتّى أصبحت هذه القيادة غير قديرة على مواصلة خطّ جهادها قبل أن تكشف أعداءها.

ولهذا كان من المحتوم أن يتوقّف العمل السياسي والعسكري الواضح الصريح مدّةً من الزمن؛ لكي تسترجع قيادة الإمام علي ثقة الجماهير بها، وإيمانها، واعتقادها بأنّ هذه القيادة لا تدافع عن مكاسب شخصيّة وعن مصالح قَبَليّة، وإنّما تدافع عن أُطروحة الله في الأرض، تدافع عن رسالة السماء، كان لا بدّ أن[3] تعيَ الجماهير هذا، الجماهير التي لم تكن تعي إلّا على مستوى الحسّ لا بدّ أن تعيش على مستوى الحسّ الأُطروحة المقابلة.

---

(١) إلى هنا ينتهي مقدار ما سقط من المحاضرة الصوتيّة وأثبتناه من (غ).

(٢) في ذيل المحاضرة الثانية عشرة، ثمّ بشكل مفصّل في المحاضرتين الرابعة والخامسة عشرة.

(٣) في المحاضرة الصوتيّة: «لكي»، والمعنى يستقيم بما أثبتناه.

وهكذا كان، وخلال المدّة التي حكم فيها معاوية بن أبي سفيان تكشّفت فيها أُطروحة معاوية، أو أُطروحة هذه الجاهليّة التي تزعّمها معاوية بن أبي سفيان، حتّى إنّه في يوم مات فيه معاوية بن أبي سفيان، حينما صعد الضحّاك على المنبر لينعى للمسلمين خليفتهم (وكان يزيد مسافراً)[١]، أو حينما صعد يزيد نفسه على المنبر يعلن نبأ وفاة أبيه، لم يستطع ـ لا الضحّاك، ولا يزيد نفسه ـ أن يمدح معاوية بكلمة واحدة، قال: «إنّ معاوية مات، ذهب هو وعمله»[٢]؛ [يزيد بن معاوية يقول هذا الكلام.

معاوية بن أبي سفـ][٣]ـيان فقد كلّ رصيده الروحي، وكلّ المبرّرات الاصطناعيّة التي كان يحاول تزريقها[٤] في نفوس المسلمين، حتّى إنّ وليّ عهده لم يستطع أن يترحّم عليه أو أن يشايع عهده بكلمةِ ثناءٍ واحدة.

خطّة معاوية لتثبيت حكمه:

معاوية بن أبي سفيان حينما سيطر على العالم الإسلامي نتيجةً للهدنة

(١) ذكر الدينوري أنّ يزيد كان غائباً عن دمشق، فدعا معاويةُ الضحّاك بن قيس ومسلم بن عقبة ليبلّغا يزيد وصيّته، «ثمّ قدم عليه يزيد، فأعاد عليه هذه الوصيّة، ثمّ قضى» الأخبار الطوال: ٢٢٦، بينما نقل ابن قتيبة واليعقوبي وابن أعثم والطبري أنّ يزيد رجع إلى دمشق بعد موت أبيه، فراجع: الإمامة والسياسة ١: ٢٢٥؛ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣٩؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٢٨؛ الفتوح ٤: ٣٥٢.

(٢) الذي نعى معاوية في المسجد هو الضحّاك بن قيس، وقد نقل النعي بصيغ متعدّدة، وأقربها إلى ما ذكره﴿قده﴾ ما نقله ابن أعثم الكوفي: «أيّها الناس! إنّ أمير المؤمنين معاوية قد شرب كأسه، وهذه أكفانه، ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه [قبره]، ومخلّون بين عمله وبينه» الفتوح ٤: ٣٥٣؛ مقتل الحسين﴿ع﴾ (الخوارزمي) ١: ٢٥٩؛ وانظر: الأخبار الطوال: ٢٢٦؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٢٨. وليزيد كلامٌ في نعي أبيه ورد في كتابه إلى الوليد بن عتبة، فراجع: أنساب الأشراف ٥: ٢٩٩؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٣٨؛ الفتوح ٥: ١٠.

(٣) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ).

(٤) أي: حقنها.

التي شرحناها[1]، بدأ يعمل من أجل تثبيت أُطروحته وخطّه وقيادته، قام بعملين:

أ ـ بعملٍ على مستوى النظريّة لطمس معالم النظريّة الإسلاميّة الحقيقيّة.

ب ـ وبعملٍ آخر على مستوى الأُمّة لتمييع الأُمّة وجعلها تتعوّد على التنازل عن وجودها وكرامتها وإرادتها في مقابل الحاكم.

أ ـ عمل معاوية بن أبي سفيان على طمس النظريّة الإسلاميّة الحقيقيّة:

أمّا العمل على المستوى الأوّل، على مستوى النظريّة، والقضاء على النظريّة الإسلاميّة الحقّة التي كان يمثّلها جناح الإمام علي، والقواعد الواعية من أبنائه النَسَبيّين أو الروحيّين في الأُمّة الإسلاميّة:

١ ـ كان يحاول أن يقضي على هذه النظريّة عن طريق شراء الأكاذيب من الأشخاص الذين كانوا على استعداد للكذب في الحديث على رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢ ـ ومن ناحيةٍ أُخرى بممارسة ضغطٍ على الآخرين ليسكتوا عن المفاهيم والأفكار التي هي تعابير عن شعار هذه النظريّة في الحكم، وعن أُسلوبها في القيادة.

بعث معاوية بن أبي سفيان إلى ولاته وحكّامه في مختلف أقطار العالم الإسلامي أنّه: برئت الذمّة ممّن يتكلّم بشيء عن خطّ الإمام علي عليه السلام[2].

٣ ـ ومن ناحيةٍ أُخرى[3] وضع كلّ وسائل الإغراء والترغيب في سبيل أن يتبارى الكَذَبة في النقل عن رسول الله، في تبريكات رسول الله للوضع

---

(١) في المحاضرتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة.

(٢) «نادى منادي معاوية: أن برئت الذمّة ممّن روى حديثاً من مناقب علي وفضل أهل بيته» أخبار الدولة العبّاسيّة: ٤٧؛ وانظر: شرح نهج البلاغة ١١: ٤٤.

(٣) هذا عدولٌ منه قدس سره إلى الناحية الأُولى، وليس ناحية ثالثة برأسها.

المنحرف، وللسقيفة، ولتبعات السقيفة، ولمضاعفات هذه السقيفة[(١)].

كلّ هذا كان يحاول فيه أن يطمس النظريّة ذاتها، لا أن يكون حاكماً فقط، بل أن يستلّ من الأُمّة الإسلاميّة آخر أملٍ في أن ترتبط بأُطروحةٍ صحيحةٍ عن الإسلام، في أن يجعلها تعيش الإسلام في هذا الثوب والبرقع الذي برقع به معاوية جاهليّته وراسبه الجاهلي.

هذا على مستوى النظريّة.

ب ـ عمل معاوية بن أبي سفيان على تمييع الأُمّة الإسلاميّة:

على مستوى الأُمّة أيضاً مارس ألواناً كثيرةً من الإذلال للأُمّة، وتمييع شخصيّتها، وإشاعة الضغائن والأحقاد القوميّة والإقليميّة والقَبَليّة في داخل العالم الإسلامي، فأشغل هذه الأُمّة.

هذه الأُمّة القائدة الرائدة التي من المفروض أن تحمل هموم البشريّة على وجه الأرض، [هذه الأُمّة أشغلها بـ][(٢)]ـأرخص الهموم وأتفه الهموم، بأضيق النزاعات والخلافات في ما بينها؛ لكي يواصل حكمه، ولكي يعيش على النحو الذي يحلو له.

وإذا بابن الأُمّة الإسلاميّة الذي كان يزحف إلى طاغوتٍ ككسرى ليقول له: «نحن لم نأتِ إليك طمعاً في غنمك ولا في دراهمك ولا دنانيرك، وإنّما

---

(١) «ثمّ كتب بعد ذلك إلى عمّاله: (فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في أبي بكر وعمر؛ فإنّ فضلهما وسوابقهما أحبُّ إليّ وأقرُّ لعيني، وأدحض لحجّة أهل هذا البيت، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضائله). فقرأ كلّ قاضٍ وأمير [من ولاته] كتابه على الناس، وأخذ الناس في الروايات في أبي بكر وعمر وفي مناقبهم. ثمّ كتب نسخة جمع فيها جميع ما روي فيهم من المناقب والفضائل وأنفذها إلى عمّاله، وأمرهم بقراءتها على المنابر وفي كلّ كورة وفي كلّ مسجد، وأمرهم أن ينفذوا إلى معلّمي الكتاتيب أن يعلّموها صبيانهم؛ حتى يرووها ويتعلّموها كما يتعلّمون القرآن، وحتّى علّموها بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم» كتاب سليم بن قيس: ٧٨٥ ـ ٧٨٦.

(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ).

جئنا لأنّ مظلوماً في بلادك نريد أن نخلّصه من الظالم، ولأنّ انحرافاً في بلادك نريد أن نعيده إلى طبيعة التوحيد»(١)، ابن الأُمّة الإسلاميّة الذي كان يعيش هموم المظلوم في أقصى بلدٍ لم يعرفه ولم يره بعينيه، هذا ينقلب بين عشيّة وضحاها ـ بفعل هذه المؤامرة ـ إلى شخصٍ لا تهمّه إلّا الدراهم التي يقبضها في نهاية الشهر أو في السنة [ثلاث مرّات.

تحوّل رؤساء العشائر في الكوفة ذاتها إلى عيون ورقباء على خطّ الإمام](٢) علي، كانوا يشون بشبابهم وبأولادهم الذين ينفتحون على خطّ الإمام علي، فيقادون قسراً إلى القتل أو إلى السجن.

موقف الإمام الحسين عليه السلام تجاه تآمر معاوية:

هذه هي مؤامرة معاوية بن أبي سفيان على مستوى النظريّة وعلى مستوى الأُمّة، وكان لا بدّ للإمام الحسين عليه السلام أن يتّخذ موقفاً تجاه كلٍّ من هاتين المؤامرتين:

أ ـ موقف الإمام الحسين عليه السلام على مستوى النظريّة:

أمّا الموقف الذي اتّخذه تجاه المؤامرة على النظريّة، فقد جمع الإمام الحسين في [أحرج](٣) اللحظات وأشدّ الظروف الصحابةَ من المهاجرين والأنصار ـ من تبقّى من المهاجرين والأنصار ـ في سنةٍ من سنين الحجّ في موقف عرفات، في ذلك الموقف الذي يتورّع فيه أيّ إنسانٍ مسلمٍ اعتياديٍّ عن

---

(١) كلامه قدس سره ناظرٌ إلى ما ذكره في المحاضرة الخامسة تحت عنوان: الأُمّة الإسلاميّة حملت طاقةً حراريّةً لا وعياً مستنيراً، الشاهد الثالث حول عبادة بن الصامت؛ حيث علّقنا بعض الشيء. وقد تكرّر الحديث عن هذه الفكرة في المحاضرة الخامسة عشرة، تحت عنوان: الفرق بين موقفي الحسنين عليهما السلام على ضوء الاعتبار الأوّل، الإمام الحسين عليه السلام يواجه مرض موت الإرادة.

(٢) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ).

(٣) ما بين عضادتين ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ).

أن يكذب على الله أو على رسوله، أو أن لا يؤدّي الأمانة كما هي.

جَمَع البقيّة الباقية من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم من حملة تراث محمّد صلى الله عليه وآله ووقف فيهم خطيباً، وقال ما مضمونه: إنّ تراث النبي، وإنّ مفهوم الإمام علي يعيش الآن في خطر، وعليكم أن تنقذوا هذا التراث وهذا المفهوم من الخطر، وإنقاذ ذلك بأن تشهدوا بكلّ ما سمعتم من رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الخطّ، ولو تحمّلتم في هذا السبيل كلّ ما تحمّلتم من وسائل الإخافة والتهديد والحرمان من قبل طاغوت هذا الزمان[1].

هؤلاء البقية الباقية من المهاجرين والأنصار الذين استجابوا لدعوة الإمام الحسين هزّهم الإمام الحسين، وهزّتهم هذه المظلوميّة التي يعيشها خطّ الإمام الحسين، وهزّهم موقفُ عرفات ويومُ عرفة، الزمانُ والمكانُ والشخصُ، فتبارى هؤلاء، انطلقت ألسنتهم في يوم [الحجيج][2] مع المسلمين، فكان يقف الواحد منهم تلو الآخر وينقل ما كان يستذكره وقتئذٍ من أحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله.

وكان كلّ حديثٍ من هذه الأحاديث، كانت قيمته الواقعيّة النفسيّة وقيمته الموضوعيّة أكبر بكثيرٍ من مئاتٍ من الروايات التي تنقل في الحالة الاعتياديّة؛ لأنّ هذا حديث يتحدّث به إنسان وأمامه جبروت معاوية وسيف معاوية وظلم معاوية بن أبي سفيان.

بهذا استطاع الإمام الحسين أن يثبّت معالم النظريّة، وأن يرسّخ في أذهان الأُمّة الإسلاميّة أنّه لا يزال هناك بقيّة من حملة تراث محمّد صلى الله عليه وآله يعبّرون

---

(١) كتاب سليم بن قيس: ٧٨٨ ـ ٧٨٩؛ الاحتجاج ٢: ٢٩٦. وقد تقدّم الاستشهاد بهذه الحادثة في المحاضرة الرابعة، تحت عنوان: المعطى على مستوى الدراسة الكلّيّة.

(٢) ما بين عضادتين غير واضح في المحاضرة الصوتيّة، ولعلّه: «الحجيج»، وفي (غ): «ألسنتهم بالحديث مع المسلمين»، ولكنّه ليس كذلك حتماً.

عن الخطّ الصالح، ويتحدّون بذلك سيف الحاكم وجبروت هذا الحاكم.

هذا على مستوى النظريّة.

ب ـ موقف الإمام الحسين عليه السلام على مستوى الاُمّة:

وأمّا على مستوى الاُمّة، هذه الاُمّة التي شفيت من مرضها الأوّل أو بدأت تشفى، لكنّها مُنيت بمرضٍ آخر، مرض الشكّ شفيت منه أو كادت أن تشفى، تكشّفت لديها [الاُطروحة](1).

استطاع الإمام الحسن باعتزاله المعترك السياسي مؤقّتاً أن يعطيها فرصةً لتجد بأُمّ عينها أبعاد المؤامرة وحدودها، وواقع معاوية وما يمثّله معاوية من أفكار ومفاهيم.

استطاعت أن تعرف ذلك، فأصبحت الاُمّة الإسلاميّة تلعن معاوية، وأصبحت تعيش عليّ بن أبي طالب كمثلٍ أعلى، كأمل، كحلم، كرجل قد مرّ في تاريخها ثمّ وقعت بعده في أشدّ المصائب والنكبات والويلات، أصبحت تعيش هذه الأزمة تجاه واقعها، وهذه العاطفة تجاه ماضيها.

هذا شفيت منه، لم يبق هناك إلّا [الغبي](2) من يفكّر في أنّ عليّ بن أبي طالب كان يعمل لنفسه، كان يعمل لزعامته، كان يعمل لقبيلته، فأصبح واضحاً أنّ معركة عليٍّ مع معاوية كانت معركة رسول الله صلى الله عليه وآله مع الجاهليّة التي اضطرّت أن تلبس الإسلام ثوباً لها لكي تبرز من جديد على المعترك، على الصعيد السياسي والعسكري، هذا أصبح واضحاً بالتدريج.

إلّا أنّ الاُمّة منيت ـ نتيجةً لمؤامرة معاوية بن أبي سفيان، منيت بعد أن

---

(١) ما بين عضادتين غير واضح في المحاضرة الصوتيّة، وهو غير مثبت في (غ) و(ش) و(ن)، وقد أثبتناه وفقاً لما تقدّم منه رحمه الله حول تكشّف اُطروحة معاوية بن أبي سفيان، وإن كان ما في المحاضرة الصوتيّة غير ما أوردناه.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «الأغبياء»، وما أثبتناه أولى.

نجحت هذه المؤامرة، وبعد أن تنازلت الأُمّة عبر هذه المؤامرة عن وجودها وعن شخصيّتها، مُنيت ـ بمرضٍ آخر أدهى وأمرّ. وهذا المرض الذي هو أدهى وأمرّ هو أنّها فقدت إرادتها، وفقدت بذلك أن تقول كلمتها، أصبحت تدرك لكنّها لا تستطيع أن [تتحرّر](١)، أصبحت تتألّم لكنّها لا تستطيع أن تنبثق؛ لأنّ هذه الأُمّة رخص عندها كلّ شيء إلّا حياتها [المحدودة](٢)، إلّا هذه الأنفاس التي [...](٣)، التي تعلو وتهبط في ذلٍّ وفي عبوديةٍ وفي حرمان، غاية همٍّ أيِّ إنسانٍ من هؤلاء أن يحافظ على هذه الأنفاس لكي يصل إلى نهاية الشهر ثمّ يقبض عطاءه عن يدٍ وهو صاغر من عاملٍ من عمّال بني أُمّية.

ماتت الهِمَّة، وماتت الإرادة، وماتت تلك الأُمّة الشامخة التي أعدّها الله لكي تمثّل خلافة الله في الأرض.

مشاهد موت الضمير وفقدان الإرادة(٤):

١ ـ وقصّة سيّد الشهداء، وسيرُ قصّة سيّد الشهداء فيه مئات الشواهد على هذا الموت العجيب، على فقدان الأُمّة لهذه الإرادة:

سيّد الشهداء يعتزم أن يتحرّك، يعتزم أن يسافر من المدينة إلى مكّة(٥)، ثمّ يعتزم بعد هذا أن يسافر من مكّة إلى العراق(٦)، فيتبارى الأشخاص،

---

(١) ما بين عضادتين غير واضح في المحاضرة الصوتيّة، وهو مردّد بين «تتحرّر» وبين «تتحرّك».

(٢) ما بين عضادتين غير واضح في المحاضرة الصوتيّة، ويُحتمل كونه: «المحسوسة».

(٣) ما بين عضادتين غير واضح في المحاضرة الصوتيّة، وغير مثبت في (غ) و(ش) و(ن).

(٤) سيأتي منه رحمه الله تعميقٌ لهذا الحديث في المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: مشاهد موت الإرادة في المجتمع الحسيني.

(٥) «كان الحسين خرج من المدينة إلى مكّة يوم الأحد، لليلتين بقيتا من رجب سنة ستين، ودخل مكّة ليلة الجمعة، لثلاث ليال خلون من شعبان» أنساب الأشراف ٣: ١٦٠؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨١.

(٦) تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٥.

يأتون إليه من كلّ جانب: يأتي إليه عبد الله بن عبّاس(١)، يأتي إليه عبد الله بن جعفر(٢)، يأتي إليه عبد الله بن عمر(٣)، يأتي إليه نساء بني هاشم(٤)، يأتي إليه عبد الله بن الزبير(٥)، يأتي إليه مختلف الأشخاص من مختلف الطبقات(٦)، يقولون له: «الله الله في دمك، لا تخرج، فإنّك تقتل».

أصبح القتل شيئاً مخيفاً مرعباً مذهلاً لا يمكن التصوّر(٧) فيه.

عبدالله بن جعفر، هذا ابن عمّ الحسين، من قبيلة الحسين، عبدالله بن جعفر يبعث برسالةٍ إلى الإمام الحسين مع ولديه ويقول: «أرجوك أن تمسك عن الحركة حتّى آتيك؛ فإنّي آتيك قريباً»(٨).

ثمّ يأتي عبدالله بن جعفر إلى الحسين، يأتي لماذا؟ يأتي بكتاب أمانٍ

(١) عند خروجه من مكّة إلى العراق، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٤٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٣؛ الفتوح ٥: ٦٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٩.

(٢) كتب إليه عبدالله بن جعفر عند خروجه من مكّة (الفتوح ٥: ٦٧)، ثمّ أتاه [تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٨].

(٣) أتاه مع عبدالله بن عبّاس عند قدومه مكّة، فراجع: الفتوح ٥: ٢٣؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٧٨. وقيل: لحقه في طريقه إلى العراق، فراجع: مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٣١٩.

(٤) عند خروجه من المدينة إلى مكّة، فراجع: الفتوح ٥: ١٩؛ كامل الزيارات: ٩٦، وهما ليسا صريحين في مشورتهنّ عليه بعدم الخروج، ولم تجد ما يشير إلى ذلك في غير كتب (المقاتل) المتأخّرة، إلّا أن تُلحق بهنّ أُم سلمة التي قالت له عند خروجه من المدينة: «لا تحزنّي بخروجك إلى العراق»، ولكنّ المحدّث المجلسي رحمه الله روى الخبر عن بعض الكتب التي وجدها (بحارالأنوار ٤٤: ٣٣١).

(٥) أتاه قبل خروجه من مكّة، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٣.

(٦) أشار عليه بذلك أخوه محمّد بن الحنفيّة قبل خروجه من المدينة [تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤٢؛ الفتوح ٥: ٢٠]، وأخوه عمر الأطرف (اللهوف على قتلى الطفوف: ٢٦ ـ ٢٧)، والتقى به عبدالله بن مطيع بين المدينة ومكّة، وأتاه عمر بن عبد الرحمن المخزومي، وكتب إليه سعيد بن العاص (الفتوح ٥: ٢٣، ٦٤، ٦٧)، وكتب إليه المسور بن مخرمة وعمرة بنت عبد الرحمن (تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٧) كذا في المحاضرة الصوتيّة، والمقصود: «لا يُمكن التفكير فيه».

(٨) «فلا تعجل بالسير؛ فإنّي في إثر الكتاب» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٧، ولم يرد قدومُه في إثر الكتاب في: الفتوح ٥: ٦٧، بل ورد جوابُ أبي عبد الله عليه السلام عن كتابه.

من والي يزيد على مكّة[١]، يأتي إلى الإمام الحسين بكتاب أمان، يستأمنه والي يزيد على مكّة، يقول: «إذاً فلماذا تخرج؟ ما دمت في أمانٍ هنا، فلماذا تسافر؟!».

أصبح الشخص لا يفكّر إلّا في أن يكون في أمان، أن يكون دمه في أمان، وأن يكون ماله المحدود في أمان، ثمّ ماذا عليه؟! ماذا عليه من الاُمّة؟! من الإسلام؟! من الأهداف الكبيرة؟! من الاُمور العظيمة؟! ما دام هو في أمان، ما دام يعيش في أمان هؤلاء السلاطين، هؤلاء الطغاة، هؤلاء الجبابرة!

قال عليه السلام: «إنّي لا أعيش في أمان عاملٍ من عمّال يزيد يا عبدالله!»[٢]، قال: «واللهِ يا سيّدي إنّك تقتل إذا خرجت»، [٣]قال عليه السلام: «وإنّي أعلم أنّي سوف اُقتل». سكت عبد الله بن جعفر[٤].

٢ ـ قصّة مسلم شاهد آخر لموت إرادة الاُمّة.

مسلم بن عقيل حينما يُضطرّ إلى مراجعة الأحداث، حينما يجيء عبيدالله بن زياد ويخطّط للاشتباك في معركة مع مسلم والقبض على مسلم،

(١) والي يزيد على مكّة: عمرو بن سعيد بن العاص، ثمّ صارت له مكّة والمدينة بعد أن عزل يزيد الوليد بن عتبة عن المدينة، فراجع: الإمامة والسياسة ٢: ٥؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٣٨، ٣٩٩.

(٢) جاء هذا في جوابه عليه السلام إلى عمرو بن سعيد والي مكّة: «وقد دعوتَ إلى الأمان والبرّ والصلة، فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٨، وكتب مثله لأبيه سعيد بن العاص (الفتوح ٥: ٦٨).

(٣) من هنا إلى آخر المحاضرة ساقطٌ من المحاضرة الصوتيّة، وقد أثبتناه من (غ).

(٤) كتب ابن جعفر إلى الحسين عليه السلام: «فإنّي خائف عليك من هذا الأمر الذي قد أزمعت عليه أن يكون فيه هلاكك وأهل بيتك»، فأجابه عليه السلام: «والله يا ابن عمّي! لو كنت في جحر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني [و]يقتلوني، والله يا ابن عمّي! ليعدينّ عليّ كما عدت اليهود على السبت، والسلام» (الفتوح ٥: ٦٧)، ولمّا أتاه ابن جعفر مع يحيى بن سعيد بن العاص بكتاب عمرو بن سعيد وقرأ يحيى الكتاب، اعتذر عليه السلام بالرؤيا التي رأى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله، والتي لم يحدّثهما بمضمونها، ثمّ انصرفا [تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٨]، وربما فهم عليه السلام من هذا الموقف سكوت عبدالله.

مسلم يخرج إلى الجامع يريد أن يصلّي مع شيعته.

تقول الرواية: بأنّ واحداً تلو الآخر من هؤلاء كان ينسحب، يأتي إليه أخوه أو أبوه أو اُمّه أو اُخته تقول: «أنت ما عليك وشغل السلاطين، هذا شغل السلاطين، أنت اذهب إلى عملك، إلى شغلك، إلى كسبك، إلى متجرك. هؤلاء ـ مسلم وعبيد الله بن زياد ـ سلاطين، في ما بينهم يتعاركون ويتخالفون، أنت اذهب إلى خطّك»[1].

أصبح الإنسان لا يعيش إلّا هذا الوضع المحدود، لا يعيش الإنسان إلّا مصالحه الخاصّة، فكان لا بدّ في وضع من هذا القبيل ماتت فيه الإرادة، كان لا بدّ فيه من هزّ ضمير الاُمّة، وإحياء هذه الإرادة، وإعادتها من جديد.

عدم تعرّض الإمام الحسين عليه السلام للظلم أصّل موضوعيّة حركته:

وهكذا قرّر الإمام الحسين أن يخرج لمواجهة هذه المؤامرة على شخصيّة الاُمّة، [ولم يكن يحاول بذلك][2] أن يقضي على السلطان السياسي لبني اُميّة؛ فإنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يحتمل أن يوفّق للقضاء على السلطان السياسي لبني اُميّة ـ على ما يبدو من الروايات[3] ـ لمجرّد احتمالٍ بدا لا أكثر، وإلّا كانت الأخبار العامّة توضح له بأنّه سوف يقتل، والظروف الموضوعيّة كانت كلّها توضح له أنّه سوف يقتل. وكيف يمكنه أن يتغلّب على السلطان السياسي لبني اُميّة وهو يعيش في اُمّة ميّتة؟!

---

(١) «إنّ المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، الناس يكفونك» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٧١؛ مقاتل الطالبيّين: ١٠٤. وفي: الأخبار الطوال: ٢٣٩ أنّه قول الرجل لابنه وأخيه وابن عمّه.

(٢) في (غ): «محاولاً بذلك لا»، وما أثبتناه أسلمُ وأقربُ للمراد.

(٣) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٧؛ الفتوح ٥: ٣١؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٨٤، ٣٢٤؛ اللهوف على قتلى الطفوف: ٦٥.

كان لا بدّ لشخصٍ هو أبعد هؤلاء الناس عن الظلم وعن الغبن في مصالحه الشخصيّة، كان [لا بدّ](١) لشخصٍ من هذا القبيل أن يثأر لظلم المظلومين؛ لكي يحسّ هؤلاء المظلومون بأنّ هناك هدفاً أكبر من هذه الحدود الصغيرة.

الحسين عليه السلام لم يعش هذا الظلم الفردي الذي عاشه كلُّ مسلمٍ ومسلمة؛ لأنّ الحسين عليه السلام كان أعزّ الناس جاهاً، وأمنعهم جانباً، ومن أكثرهم مالاً، وأوسعهم حياةً. كلّ الدنيا كانت متوفّرةً للحسين عليه السلام، وكلّ المسلمين كانوا يحوطون الحسين عليه السلام بكلّ تجليلٍ وتقديسٍ وتكريم، لم يكن بحاجة إلى جاهٍ وإلى مالٍ وإلى تكريم، لم يكن يعيش أيَّ ظلمٍ من بني أُميّة، كان خلفاء بني أُميّة يجاملونه ويدارونه ويخشونه ويخافونه.

لكنّه بالرغم من هذا تحرّك، ولم يتحرّك أُولئك الذين التهبت السياط فوق ظهورهم، تحرّك لكي يحسَّ أُولئك الذين التهبت السياط فوق ظهورهم بأنّهم لا بدّ أن يتحرّكوا(٢).

سياسة الإمام الحسين عليه السلام في هزّ ضمير الأُمّة(٣):

١ ـ حتميّة القتل:

وقد حاول الإمام الحسين عليه السلام ـ واستطاع(٤) ـ أن يُشعر الأُمّة باستمرارِ

---

(١) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٢) تقدّم الحديث عن هذه الفكرة في المحاضرة الثانية عشرة، تحت عنوان: الإمام الحسين عليه السلام يعالج موت إرادة الأُمّة بعد تبدّد الشكّ لديها. وفي المحاضرة الخامسة عشرة، تحت عنوان: الفرق بين موقفي الحسنين عليهما السلام على ضوء الاعتبار الأوّل، الإمام الحسين عليه السلام يواجه مرض موت الإرادة. وسيتجدّد في المحاضرة الثامنة عشرة، تحت عنوان: مقوّمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام، المقوّمات الشخصيّة للثائر.

(٣) لمزيد من الفائدة، راجع (مقوّمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام) في المحاضرة الثامنة عشرة، و(شعارات الإمام الحسين عليه السلام في تبرير مخطّطه) في المحاضرة العشرين.

(٤) في (غ): «استطاع.. وحاول».

أنّه يتحرّك وهو يعلم أنّه مقتول، يتحرّك وهو يعلم أنّه يستشهد: في المدينة قال للمحتجّين عليه بأنّه[١] سوف يقتل[٢]. في مكّة وقف خطيباً يودّع بيت الله الحرام وقال بأنّه سوف يقتل[٣]؛ لكي يجعل الاُمّة تعيش هذه الاُسطورة، اُسطورة أنّ شخصاً يتقدّم نحو الموت وهو ثابت الجأش، قويُّ القلب، واضح اليقين في أنّ هذا الطريق يريده الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

إذاً، فالموت ليس خطراً إذا كان هذا الموت هو طريق إنقاذ المسلمين، هو طريق تخليص الاُمّة من مؤامرة الجبابرة والطواغيت.

كان يُشيع في نفوس المسلمين أنّ الموت شيءٌ هيّنٌ في سبيل هذه الأهداف الكبيرة.. نعم، أنا سوف أموت.. نعم، أنا سوف اُقتل على أيّ حال، سوف اُقتل لأنّ هذا طريق واجب، لا بدّ لي أن أسلك هذا الطريق لكي أستطيع بذلك أن اُؤدّي الأمانة. هذا من ناحية.

٢ ـ عدم الظهور بمظهر من لا يملك تبريراً لحركته:

ومن ناحيةٍ أحكم كلَّ ظروف حركته بشكلٍ لا يبعث في ذهن هذه الاُمّة المسلمة المائعة أيَّ نقدٍ في أنّ الإمام الحسين عليه السلام استعجل الظروف، أو أنّه استبق أوانه وتحرّك بحركةٍ ابتدائيّةٍ بدون مبرّر، حشد كلّ المبرّرات المنطقيّة والمعقولة لحركته، لم يكن هناك إنسان يمكنه أن يقول: إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد استعجل الموقف قبل أن يتأكّد من الظروف.

كيف يقال: إنّه استعجل الموقف قبل أن يتأكّد من الظروف وقد بقي في مكّة طويلاً والكتب تأتي ولا يجيب عليها، إلى أن اجتمعت عنده آلاف من

(١) متعلّق بالقول، لا بالاحتجاج.

(٢) اللهوف على قتلى الطفوف: ٦٤ ـ ٦٥.

(٣) «خُطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي..» مثير الأحزان: ٤١؛ اللهوف على قتلى الطفوف: ٦٠.

الكتب[١]؟!

وبعد هذا أيضاً لا يجيب جواباً قاطعاً؛ يبعث ابن عمّه مسلم بن عقيل، لا يوصيه بقتالٍ ولا بحرب، وإنّما يوصيه أن يذهب إلى الكوفة ليرى أنّ أهل الكوفة هل هم مزمعون حقيقةً على أن يبايعوا خطَّ الإمام علي عليه السلام، وعلى أن يضحّوا في سبيل خطّ الإمام عليه السلام؟

يذهب مسلم بن عقيل إلى الكوفة، يبقى الإمام الحسين عليه السلام في مكّة حتّى يبعث إليه مسلمُ بنُ عقيل مؤكّداً أنّ جميع أهل الكوفة وشيوخ أهل الكوفة قد اتّفقوا على زعامتك وإمامتك وقيادتك، وهم لك منتظرون[٢].

كلّ هذه الظروف هيّأها الإمام الحسين عليه السلام ـ أو صبر حتّى تتهيّأ ـ لكي لا يبقى هناك نقدٌ لمنتقد، لكي لا يقول شخصٌ يريد أن يخلق المبرّرات بأنّ الإمام الحسين عليه السلام استعجل. الحسين لم يستعجل.

٣ ـ حشد المثيرات العاطفيّة:

من ناحية ثالثة: إنّ الإمام الحسين عليه السلام حشد كلّ الظروف العاطفيّة في حركته أيضاً كي يستعين بهذه الظروف العاطفيّة في سبيل أن يهزّ ضمير الاُمّة.

أ ـ لعلّ ذاك الشخص لم يفهم، لعلّ عبد الله بن عمر[٣] لم يفهم حينما قال له الإمام الحسين: «إنّي أعلم أنّي سوف اُقتل». قال له عبد الله بن عمر: «يا سيّدي ما بال النسوة؟ فلماذا تأخذ معك حريم رسول الله صلى الله عليه وآله؟»، قال: «لأنّ الله

(١) الأخبار الطوال: ٢٢٩؛ البدء والتاريخ ٦: ٩؛ اللهوف على قتلى الطفوف: ٣٥.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ١٦٧؛ الأخبار الطوال: ٢٤٣؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٩٥؛تجارب الاُمم ٢: ٦٠.

(٣) لقد أتى عبدالله بن عمر الإمام الحسين عليه السلام على ما أشرنا إليه، ولكنّ الجواب الآتي جاء في حواره عليه السلام مع أخيه محمّد بن الحنفيّة كما يظهر من الهامش القادم.

أراد أن يراهنّ سبايا»[١].

ولم تكن هذه الإرادة إرادةً تكوينيّة، وإنّما كانت إرادةً تشريعيّة، يعني: أراد أن يصحب معه النسوة من حريم النبي صلى الله عليه وآله حتّى يشارِكْنَ في المحنة، ويشارِكْنَ في اعتداء طواغيت بني اُميّة؛ لكي يكون هذا عاملاً مساعداً في هزّ ضمير الاُمّة.

هذه الظروف العاطفيّة أيضاً حشدها باستمرار، وكان يحاول باستمرار أن يستثير كلَّ من يجده، حتّى عبد الله بن عمر، حتّى أعداءه وخصومه.

قال: «يا عبد الله بن عمر! لا تترك نصرتي»[٢]؛ يعني: ليست نصرتي بأن تقبّلني[٣] وأن تكرّمني، وإنّما نصرتي بأن تمشي في خطّي، بأن تبذل دمك في الخطّ الذي أبذل فيه دمي. أمّا التقبيل، أمّا هذا النوع من التكريم الرخيص، هذا ليس له قيمة عند رسول الله صلى الله عليه وآله.

كان يحاول أن يهزّ ضمير الاُمّة، يهزّ ضمير كلّ فردٍ من أفراد الاُمّة، لكنّ الاُمّة كانت في سبات، هذه الاُمّة التي ماتت إرادتها.

ب ـ عبيد الله بن الحرّ الجعفي الذي وصل إلى منزلٍ من المنازل، وكان الإمام الحسين عليه السلام في ذلك المنزل، واطّلع الإمام الحسين على أنّ عبيد الله بن الحرّ الجعفي [وصل إلى ذلك المنزل][٤]، وعبيد الله بن الحرّ الجعفي له سوء

(١) قال عليه السلام: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين! اخرج؛ فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً»، فقال له ابن الحنفيّة: «إنا لله وإنّا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟»، قال: فقال له: «قد قال لي: إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا» اللهوف على قتلى الطفوف: ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) قال عليه السلام: «اتّق الله أبا عبد الرحمن، ولا تَدَعَنَّ نصرتي» الفتوح ٥: ٢٥.

(٣) «فلمّا رأى ابن عمر إباءه قال: يا أبا عبدالله! اكشف لي عن الموضع الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّله منك، فكشف الحسين عليه السلام عن سرّته، فقبّلها ابن عمر ثلاثاً وبكى» الأمالي (الصدوق): ١٥٣، المجلس ٣٠، الحديث ١.

(٤) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

سابقة في تاريخ جهاد الإمام علي عليه السلام[١]، لكنّ الإمام الحسين حاول أن يهزّ ضميره، بعث إليه برسول يطلب منه النصرة[٢].

ذهب رسول الإمام الحسين إلى عبيد الله بن الحرّ الجعفي قال له: «جئتك بالكرامة، جئتك بكرامة لا يوجد فوقها كرامة؛ بأن تُستشهد بين يدي ابن رسول الله.. إنّ الحسين يدعوك لنصرته والاستشهاد بين يديه»، فظهر الغضب في وجه عبيد الله بن الحرّ الجعفي والضيق وقال: «إنّي خرجت من الكوفة خوفاً من أن يأتي الحسين، وأن تقوم المعركة ويتأزّم حينئذٍ موقفي.. خرجت فراراً من أن أعيش هذه اللحظة التي جعلتَني أعيشها الآن»، ثمّ اعتذر من الاستجابة للإمام الحسين عليه السلام.

الإمام الحسين عليه السلام لم يكتفِ بهذا، قام بنفسه وجاء إلى عبيد الله بن الحرّ الجعفي يستصرخه، يطلب منه، يحاول أن ينفذ إلى أعماقه، أن يحرّك ضميره ووجدانه، أن ينبّهه إلى الأخطار التي تكتنف الرسالة والإسلام.

يقول الناقل: «ما رقّ قلبي كما رقّ يومئذٍ والحسين عليه السلام حوله الصبية من أطفاله يطوفون به، ويمشي إلى عبيد الله بن الحرّ الجعفي يستصرخه ويناديه، فيعتذر عبيد الله بن الحر، يقول له: هذه فرسي خذها بدلاً عنّي»[٣].

يقول عليه السلام: «إنّي لست بحاجةٍ إلى فرسك، إن كنت قد بخلت بدمك على الإسلام وعليّ فلا حاجة في فرسك، لكن عندي وصيّة»، قال: «وما

(١) «لمّا قتل عثمان وكان من أمر الجمل ما كان، خرج عبيد الله بن الحر إلى معاوية بالشام فالتجأ إليه، ولم يشاهد حرب الجمل» الفتوح ٦: ٢٦٩.

(٢) هو: الحجّاج بن مسروق الجعفي.

(٣) «دخل عليَّ الحسين عليه السلام ولحيته كأنّها جناحُ غراب، وما رأيت أحداً قطُّ أحسن ولا أملأ للعين من الحسين، ولا رققت على أحد قطّ رقّتي عليه حين رأيته يمشي والصبيان حوله»، والناقل هو عبيد الله بن الحرّ نفسه؛ حيث قصّ قصّته مع الإمام الحسين عليه السلام على يزيد بن مرّة، فراجع: خزانة الأدب ٢: ١٣٩.

الوصيّة؟»، قال: «إن قدرت على أن لا تسمَعَ واعيتنا فافعل؛ لأنّه ما سمع واعيتنا شخصٌ ثمّ لم ينصرنا إلّا أكبّه الله على وجهه يوم القيامة في جهنّم»(١).

وهذه الواعية ـ واعية الإمام الحسين ـ واعية الإسلام؛ لأنّ الإمام الحسين عليه السلام استشهد في سبيل الإسلام، ولم يكن يعيش تلك اللحظة إلّا للإسلام؛ فواعية الإمام الحسين عليه السلام هي واعية الإسلام، والأخطار التي كان من أجلها يضحّي الإمام الحسين وقتئذٍ هي الأخطار التي تعيشها الاُمّة الإسلاميّة عبر كلّ هذه القرون إلى يومنا هذا.

قتل الإمام الحسين عليه السلام واستشهد في سبيل الحيلولة دون الأخطار التي عاشها المسلمون ويعيشونها إلى يومنا هذا.

امتداد واعية الحسين عليه السلام على مرّ العصور:

إنّ واعية الحسين عليه السلام لم تنقطع يوم عاشوراء.. إنّ واعية الحسين حيث إنّها واعية رساليّة وليست واعيةَ شيخِ عشيرةٍ أو قبيلة، فواعية الرسالة لا تنقطع ما دامت الأخطار تكتنف هذه الرسالة، وقد قال هذا الإمام الشهيد الصادق: إنّه «ما سمع واعيتَنا شخصٌ ولم ينصرنا إلّا أكبّه الله على وجهه يوم القيامة»(٢).

نحن يجب علينا أن نعرف أنّ هذه الواعية نواجهها اليوم كما واجهها عبيد الله بن الحرّ الجعفي. إن لم نواجهها من فم الحسين عليه السلام فنواجهها من دم الحسين، ومن تاريخ الحسين، ومن بطولة الحسين يوم عاشوراء ومواقفه المتعدّدة، نواجه هذه الواعية من كلّ الأخطار التي تكتنف الرسالة، وتكتنف

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٧؛ الفتوح ٥: ٧٣ ـ ٧٤؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٣٢٥ ـ ٣٢٦؛ حيث قدّم عبيد الله للحسين عليه السلام فرسه وسيفه. والمفهوم من هذه المصادر هو ما ذكره رحمه الله من أنّ الحسين عليه السلام رفض الفرس، ولكنْ نقل البلاذري أنّ فرس عبيدالله كانت معه عليه السلام في المعركة، فانظر: أنساب الأشراف ٣: ١٨٨.

(٢) «فوالله! لا يسمع واعيتنا أحدٌ ثمّ لا ينصرنا إلّا هلك» الفتوح ٥: ٧٤.

الإسلام، وتكتنف الأُمّة الإسلاميّة من كلّ صوبٍ وحدب.

كلّ هذا الضياع في القيم والأخلاق، في المبادئ والمثل، كلّ هذا التميّع، كلّ هذا هو واعية الإسلام.

نحن نواجه هذه الواعية في كلّ مكان، في كلّ زمان، من كلّ صوب وحدب.

إنّ الإمام الحسين عليه السلام حينما ثار وحينما بدأ يبذل دمه في سبيل الإسلام كان يواجه بداية خطٍّ من الانحراف، هذا الخطّ نحن الآن نعيش قمّته، نعيش أزمته، نعيش كلّ تصوّراته، كلّ أبعاده. إذاً، فواعية الإسلام اليوم أوسع وأكبر.

ونحن، وأيّ فردٍ من المسلمين، لا يزال اليوم مدعوّاً ـ كما كان عبيد الله بن الحرّ الجعفي مدعوّاً ـ أن يغضّ النظر عن مصالحه، عن وجوده، عن كيانه، عن شهواته، عن رغباته الشخصيّة؛ في سبيل أن يساهم في إنقاذ الإسلام، في إنقاذ المسلمين، في إعادة الإسلام إلى الحياة، في رفع هذا الوهن عن وجوه المسلمين، وعن كرامات المسلمين.

إنّ كلّ مسلمٍ قادرٌ على أن يساهم في هذه العمليّة بقليلٍ أو كثير، في حدود إمكانيّاته وقابليّاته.

المساهمة ليس شكلها الوحيد حمل السيف، وحمل السيف لا يمكن أن يكون إلّا بعد مساهمات طويلة الأمد.. إذاً، فهناك نوعٌ من المساهمة قبل حمل السيف.

ولو أنّ كلّ واحد منّا يقول بأنّي لا أستطيع أن أحمل السيف ـ إذاً فأنا لا تكليف عليّ ولا مسؤوليّة عليّ ـ فمعنى هذا أنّه سوف لن يمكن حمل السيف في يوم من الأيّام.

إنّ حمل السيف هو شكلٌ من أشكال المساهمة، وهو شكل أعلى من

أشكال المساهمة، ولا يمكن أن يوجد هذا الشكل فجأة. لا بدّ لكلّ واحد مسلم أو مسلمة أن يساهم بقدر إمكانه وظروفه الفكريّة والعلميّة والاجتماعيّة في جواب هذه الواعية، في الردّ على هذه الواعية، في إنقاذ هذا الجريح الذي يُضرَب في كلّ يوم، ويُستَهزَأ منه في كلّ يوم، وتُتَحدّى أحكامُه في كلّ يوم، وتُضْرَبُ تشريعاتُه عرضَ الحائط في كلّ يوم.

اللهمّ اجعلنا من شيعة الإمام الحسين، والسائرين في خطّه، والمجيبين لواعيته[١].

* * *

(١) انتهى المقدار الساقط من المحاضرة الصوتيّة، والذي أثبتناه من (غ).

الإمام الحسين بن علي عليه السلام

٢



الإمام الحسين عليه السلام ومبرّرات رفض البيعة

أُلقيت بتاريخ ٢٩/ ذي القعدة/ ١٣٨٨ هـ

نحن كنّا نتكلّم عن الإمام الحسين عليه السلام[1].

الإمام الحسين عليه السلام كان أمامه عدّة مواقف عمليّة، كان بإمكانه أن يتّخذ أيَّ واحدٍ منها بعد أن هلك معاوية وبويع يزيد وطُلب منه أن يبايع يزيد بن معاوية[2]:

الموقف الأوّل: هو أن يبايع يزيدَ بنَ معاوية كما بايع أمير المؤمنين أبا بكر وعمر وعثمان[3].

الموقف الثاني: أن يرفض بيعة يزيد بن معاوية، لكن يبقى في مكّة أو في المدينة، في أحد الحرمين: في حرم رسول الله صلى الله عليه وآله ـ يعني: في بيته وبلدته ـ أو في حرم الله، ينتقل إلى مكّة، ويبقى هناك مستجيراً بحرم الله تعالى حتّى يقضي الله بما هو قاضٍ.

الموقف الثالث: هو أن يلجأ إلى أحد أطراف العالم الإسلامي، يلجأ إلى بلدٍ من بلاد العالم الإسلامي كما اقترح عليه أخوه محمّد بن الحنفيّة، قال

---

(١) أشرنا في مقدّمة الكتاب إلى أنّ هذه المحاضرة تمثّل قسماً من محاضرة الشهيد الصدر رحمه الله حول الإمام الجواد عليه السلام والإمامة المبكرة، وقد أفردناها ضمن بحث مستقلٍّ لمناسبتها ذلك.

(٢) انظر على التوالي: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٢٣، ٣٣٨، ٣٣٩.

(٣) على قولٍ كما أشرنا في المحاضرة الخامسة عشرة، تحت عنوان: الفوارق الأساسيّة بين موقفَي الحسنين عليهما السلام على ضوء الاعتبارات الثلاثة، الاعتبار الثاني؛ حيث أشرنا إلى قول الشيخ المفيد رحمه الله: «والمحقّقون من أهل الإمامة يقولون: لم يبايع ساعةً قطُّ» الفصول المختارة: ٥٦.

له: «اذهب إلى اليمن، أو إلى أيّ ثغرٍ آخر من ثغور المسلمين»[١]. يذهب إلى اليمن مثلاً ـ أو إلى ثغرٍ آخر من ثغور المسلمين ـ ويكوّن هناك جماعةً له ومجتمعاً، وينفصل عن المجتمع الأكبر الذي يضمّ سائر بلاد المسلمين، حتّى إذا استطاع أن يُحكِمَ أمره حاول أن يتقدّم ويضمّ بقيّة البلاد إلى بلده.

الموقف الرابع: هو أن يرفض، وأن يتحرّك، وأن يذهب إلى الكوفة مستجيباً للرسائل التي وردته من أهل الكوفة، ثمّ يُقتل ويستشهد بالطريقة التي وقعت.

هذه هي المواقف العمليّة الأربعة التي كان بالإمكان للإمام الحسين عليه السلام أن يختار أيَّ واحدٍ منها.

شرائح الأُمّة التي شكّلت مجال عمل الإمام الحسين عليه السلام:

وكان اختياره للموقف الرابع من هذه المواقف الأربعة قائماً على أساس إدراكه لطبيعة الظرف الذي يعيشه؛ فقد كانت هناك عدّة نقاطٍ دخلت في تكوين موقفه، أي: إنّه كان عليه أن يقف موقفاً يعالج به عدّة أقسامٍ من أفراد الأُمّة الإسلاميّة:

القسم الأوّل: الذين وهبوا قلوبَهم وشهروا سيوفَهم:

القسم الأوّل كان يشكّل جزءاً كبيراً من الأُمّة؛ فإنّ جزءاً كبيراً من الأُمّة كان قد فقد خلال عهد معاوية بن أبي سفيان ـ كما قلنا في المرّات السابقة[٢] ـ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤٢؛ الفتوح ٥: ٢٠. وقد تقدّم بالاقتراح نفسه ابن عبّاس، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٤٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٣؛ الفتوح ٥: ٦٦؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٩.

(٢) في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الشكّاكون وأسباب الشكّ، وفي المحاضرة الثانية عشرة، تحت عنوان: سريان الشكّ وتعميقه في مجتمع الإمام علي عليه السلام، وفي المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: انسحاب خطّ الإمام علي عليه السلام مؤقّتاً عن الميدان.

إرادته وقدرته على مواجهة الوضع القائم وقتئذٍ، وكان قد استشعر الذلّ والاستكانة والتبعيّة في نفس الوقت الذي هو يشعر بأنّ خسارةً كبيرةً ـ هي خسارة تحويل الخلافة إلى كسرويّة وهرقليّة(١) ـ تحيق بالأُمّة الإسلاميّة، في نفس هذا الوقت لم يكن يقدر على أن يتحرّك؛ لأنّ يده ولسانه كانا ملك شهواته، ولم يكونا ملك عقله وقلبه وعقيدته.

هذا القسم [هو] الذي عبّر عنه الفرزدق في كلامه مع الإمام الحسين حينما قال: «سيوفهم عليك وقلوبهم معك»(٢)؛ فهم يؤمنون بأنّ الإسلام يُنتهك على أيدي بني أُميّة، ولكنّهم لا يستطيعون أن يتحرّكوا، فيتحرّكون إلى جانب بني أُميّة، ويحملون السيوف ضدّ الإمام الحسين عليه السلام.

القسم الثاني: الذين عزّت عليهم نفوسهم وهان عليهم الإسلام:

القسم الآخر في الأُمّة الإسلاميّة(٣) ـ والذي كان يمكن أن يشمل عدداً كبيراً أيضاً ممّن شملهم القسم الأوّل ـ هو ذاك القسم الذي هان عليه الإسلام نفسُه، لا هانت عليه نفسه، بل هان عليه نفس الإسلام والرسالة؛ فلم يعد يهتمّ بالرسالة بقدر اهتمامه بمصالحه الشخصيّة، تضاءلت أمامه الرسالة، وكبر أمامه وجوده ومصلحته واعتباراته ودراهمه.

هذا القسم فرقُه عن القسم الأوّل: أنّ القسم الأوّل كان يشعر بالمصيبة

---

(١) الجملة الاعتراضيّة متأخّرة في المحاضرة المدوّنة على قوله عليه السلام: «بالأُمّة الإسلاميّة».

(٢) المعروف أنّه قولُ الفرزدق، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٤٥؛ مقاتل الطالبيّين: ١١١؛ دلائل الإمامة: ٧٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٦. وقد نسب إلى بشر بن غالب الأسدي (الفتوح ٥: ٧٠) ومجمع بن عبدالله العائذي (أنساب الأشراف ٣: ١٧٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٥؛ تجارب الأُمم ٢: ٦٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٩).

(٣) «وطبعاً، أنا حينما أُقسّم لا أقصد من ذلك: التقسيم الحدّي؛ بحيث لا ينطبق قسمان منهما على فردٍ واحدٍ؛ فهناك عناوين أربعة، ويمكن أن يتصادق عنوانان من هذه العناوين على فرد أو أفراد في الأُمّة الإسلاميّة» (الشهيد الصدر رحمه الله).

لكن لم يكن يستطيع الحلّ، من قبيل المدخّن الذي يشعر بأنّ الدخان ضرر عليه لكنّه لا يستطيع أن يتركه. وأمّا القسم الثاني [فـ]ـمن قبيل المدخّن الذي لا يعرف أنّ الدخان يضرّه.

القسم الثالث: البسطاء الذين تنطلي عليهم المخطّطات الأُمويّة:

القسم الثالث هو قسمٌ من الأمّة، من الأفراد المغفّلين الذين كان بالإمكان أن تنطلي عليهم حيلة بني أُميّة لو سكت صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وأجمعوا على السكوت عن تحويل الخلافة إلى كسرويّة وقيصريّة.

الخلافة منذ توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله انحرفت عن خطّها المستقيم، لكن بقي مفهوم الخلافة هو مفهوم الخلافة، غاية الأمر اغتصب هذا المفهوم أبو بكر واغتصبه عمر واغتصبه عثمان، إلّا أنّ مفهوم الخلافة لم يطرأ عليه تغيير أساسي.

بينما في عهد معاوية بن أبي سفيان طرأ على نفس المفهوم ـ بقطع النظر عن الشخص الذي يتقمّص هذا الثوب، وأنّه محقّ أو معتدٍ ـ تغيّر أساسي، ولم تعد الخلافة حكماً للأمّة، وإنّما هي كسرويّة وقيصريّة بلغة صحابة الرسول صلى الله عليه وآله حينما كانوا يقولون: إنّ معاوية حوّل الخلافة إلى حكم كسرى وقيصر[1].

هذا التحويل ـ أي: التحويل في المفهوم بهذه الدرجة الخطيرة، والذي كان يمارسه معاوية، وكان يحاول أن يلبسه الثوب الشرعي ـ لو أنّه تمّ دون مجابهةٍ من قبل الصحابة ومع سكوتٍ من قبلهم، لأمكن أن تنطلي حيلة معاوية على كثيرٍ من السذّج والبسطاء وأنصاف البسطاء، الذين يقولون بأنّ هذا التحويل شرعي بدليل إمضاء الصحابة لذلك.

---

(١) قالها ـ مع تفاوتٍ ـ عبدالله بن عمر في حياة معاوية (الإمامة والسياسة ١: ١٩٦)، وقالها عبدالرحمن بن أبي بكر لمروان عند إرادة أخذ البيعة ليزيد (المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٥: ٢٩٩؛ البداية والنهاية ٨: ٨٩).

القسم الرابع: البعيدون عن حيثيّات الأحداث في قلب الدولة الإسلاميّة:

وهناك قسمٌ رابع ـ أو بالإمكان أن نفترض قسماً رابعاً ـ يرتبط بمسألة تنازل الإمام الحسن عليه السلام؛ فإنّ تنازل الإمام الحسن عن المعركة مع معاوية وإعلانه الهدنة مع معاوية[1] لم يكن ـ في أكبر الظنّ ـ مكشوفاً بالدرجة الكافية الواضحة إلّا داخل دائرة الجماهير الكبرى في العالم الإسلامي التي كانت تعيش المأساة عن قربٍ، من قبيل الكوفة، ومن قبيل العراق بشكلٍ عام، والتي كانت بيدها خيوط الحكم في العالم الإسلامي.

وأمّا ذاك الإنسان الواقع في آخر حدود العالم الإسلامي ـ في أقاصي خراسان مثلاً ـ ولم يكن يعيش المحنة يوماً بعد يوم، ولم يكن يكتوي بالنار التي اكتوى بها الإمام الحسن عليه السلام في الكوفة من قواعده وشيعته وطائفته وأعدائه، وإنّما تجيئه الأخبار عبر المسافة ما بين الكوفة وأطراف خراسان مثلاً، ذاك الإنسان لم يعرف بشكلٍ واضحٍ شيئاً محدّداً عن هذا التنازل: أَهو اعترافٌ بشرعيّة الأُطروحة الأُمويّة؟ أو هو تصرّف اقتضته الضرورة والظروف الموضوعيّة التي كان يعيشها الإمام الحسن عليه السلام؟

مبرّرات الإمام الحسين عليه السلام في اختيار الموقف الرابع:

فكان لا بدّ للإمام الحسين عليه السلام أن يختار موقفاً يعالج فيه هذه الأقسام الأربعة من الأُمّة الإسلاميّة، أو هذه النقاط الأربعة:

١ ـ كان لا بدّ وأن يختار الموقف الذي يستطيع به أن يُرجع للقسم الأوّل

---

(١) «الذي قد شرحنا سابقاً ظرفه ومبرّراته، وعرفنا أنّه هو الأُسلوب الوحيد الذي كان يحتّمه على الإمام الحسن موقفُه ومركزه كزعيم للطائفة، وكأمين على الإسلام والمسلمين، لكنّ هذا الواقع..» (الشهيد الصدر رحمه الله)، وقد تقدّم الحديث عن ملابسات موقف الإمام الحسن عليه السلام في المحاضرتين: الرابعة عشرة والخامسة عشرة.

[من الناس] إرادتهم التي فقدوها بالتمييع الأُموي.

٢ ـ وأن يختار الموقف الذي يحاول به أن يرجع إلى القسم الثاني [من الناس] إيمانهم بالرسالة وشعورهم بأهمّية الإسلام.

٣ ـ وأن يختار الموقف الذي يحاول فيه أن لا يجعل هناك دليلاً لمعاوية على شرعيّة تحويل الخلافة إلى كسرويّة وقيصريّة، وذلك عن طريق معارضة الصحابة ـ المتمثّلة فيه، وفي البقيّة الباقية من الصحابة والتابعين ـ لعمليّة التحويل هذه.

٤ ـ وكان لا بدّ وأن يختار الموقف الذي يشرح فيه ـ حتّى لمن كان بعيداً عن الأحداث ـ أنّ تنازل الإمام الحسن لم يكن معناه أنّ أهل البيت أمضوا عمليّة التحويل وأنّهم باركوا أُمويّة معاوية وحكم معاوية وأُطروحة أبي سفيان، وإنّما كان موقفاً تحكمه الظروف الموضوعيّة وقتئذٍ.

كان لا بدّ له أن يختار الموقف الذي يشرح فيه كلّ هذا، ويردّ فيه على كلّ هذا، ويعالج هذه الأقسام الأربعة من الأُمّة الإسلاميّة، ولم يكن بإمكان [أيّ] موقفٍ أن يحقّق كلّ هذا إلّا الموقف الأخير.

الموقف الأوّل: مبايعة يزيد بن معاوية:

الموقف الأوّل هو أن يبايع يزيد بن معاوية كما بايع أمير المؤمنين أبا بكر وعمر وعثمان مع أنّهم لا يستحقّون الخلافة.

هذا لم يكن بالإمكان أن يحقّق أيّ مكسبٍ على مستوى هذه الأقسام الأربعة. ولم تكن قصّة يزيد قصّة أبي بكر وعمر وعثمان؛ لأنّ التحويل هنا كان تحويلاً على مستوى المفهوم، كان المفهوم يتحوّل، لا أنّ مجرّد الشخص يتحوّل.

وهذه العمليّة ـ عمليّة التحويل المفهومي، التي أصبحت هي الأساس

بعد هذا لتاريخ المسلمين ـ لم يكن بالإمكان أن تمضي دون أن يقف الصحابة ـ الممثّلون لرسول الله صلى الله عليه وآله ـ وأهل البيت عليهم السلام ـ الذين هم القادة الحقيقيّون للصحابة ـ الموقفَ الدينيَّ الواضح المحدّد من عمليّة التحويل[1] هذه.

الموقف الثاني: رفض المبايعة مع البقاء في المدينة أو مكّة:

الموقف الثاني هو أن يظلّ الإمام الحسين عليه السلام في المدينة أو في مكّة ويرفض البيعة. حينما يرفض البيعة يبيّن بذلك شجبه لعمليّة التحويل، ولكنّه يظلّ باقياً في مكّة أو المدينة حتّى يقضي الله بما هو قاضٍ.

والإمام الحسين عليه السلام نفسه كان يؤكّد ـ والظروف الموضوعيّة كلّها كانت تشهد على طبق تأكيده، بقطع النظر عن إمامته وعصمته ـ أنّه لو بقي في المدينة أو في مكّة لقتل من قبل بني أُميّة.. إنّ بني أُميّة لا يدعونه حتّى يقتلوه ويغتالوه، ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة[2].

وهذا القتل الضائع لم يكن يحقّق ذلك المكسب الذي يريده على مستوى هذه الأقسام الأربعة.

صحيحٌ أنّه يقتل في سبيل امتناعه عن مبايعة يزيد بن معاوية، لكن أين هذا من ذاك القتل الذي استطاع أن يحرّك البقيّة الباقية من عواطف المسلمين تجاه نبيّهم ورسالتهم وقرآنهم؟!

---

(١) في (ح) و(غ): «التحديد»، وما أثبتناه من (ل) و(ن).

(٢) كلامه عليه السلام ناظرٌ إلى مقولة متداولة، ولكنّنا لم نعثر عليها في مصادر متقدّمة، وقد نُقلت عن (الخصائص الحسينيّة: ٣٢) للشيخ جعفر التستري (١٣٠٣هـ) (مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة ٢: ١٥٤)، ولكنّنا لم نعثر عليها فيه. وقد نقلها الشيخ الحائري (و١٣٠٠هـ) عن بعض نسخ (بحار الأنوار)، فراجع: معالي السبطين: ٢٣٩. نعم، أصلُ التربّص به والغيلة به عليه السلام معلوم، فراجع: المحاضرة العشرين، تحت عنوان: شعارات الإمام الحسين عليه السلام في تبرير مخطّطه، الشعار الأوّل: حتميّة القتل.

الناس حينما يفتقدون[١] إيمانهم بالدين أو إيمانهم بأيّ عقيدة، تبقى عندهم مجموعةٌ من العواطف بعد انطفاء العقيدة. ولكي يمكن إرجاعهم إلى تلك العقيدة لا بدّ من تحريك هذه العواطف.

وهذه العواطف لم يكن بالإمكان تحريكها في قتلٍ عابرٍ سهلٍ من هذا القبيل، وإنّما كان لا بدّ لكي تتحرّك هذه العواطف من أن تحشد كلُّ المثيرات وكلّ المحرّكات وكلّ المنبّهات لهذه العواطف، إلى درجة أنّ عمر بن سعد بنفسه يبكي ويُصدر الأوامر بالسلب[٢] والنهب في بقيّة الإمام الحسين عليه السلام[٣].

الموقف الثالث: اللواذ بثغرٍ من ثغور المسلمين:

الموقف الثالث [هو] أن يذهب إلى ثغرٍ من ثغور المسلمين، يذهب إلى اليمن مثلاً ـ وله شيعة في اليمن على ما شهد أخوه محمّد بن الحنفيّة[٤] ـ ويبقى

---

(١) في (ح) و(غ) و(ل): «يعتقدون»، وما أثبتناه من مصحّحة (ن).

(٢) في (غ): «بالسبي»، وما أثبتناه من (ل) و(ن)، خاصّة أنّ في (ح): «بالسّيْب».

(٣) راجع حول ميلان رجال عمر بن سعد «على نساء الحسين وثقله ومتاعه»، ثمّ نهيه إيّاهم عن التعرّض للنسوة: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٤؛ الكامل في التاريخ ٤: ٧٨؛ البداية والنهاية ٨: ١٨٨. أمّا البكاء، فقد «جعلت زينب بنت علي تقول: يا محمّداه! صلّى عليك مليك السماء، هذا حسين بالعراء، مرمّل بالدماء، مقطّع الأعضاء، يا محمّداه! وبناتك سبايا وذريّتك مقتّلة تسفي عليها الصبا! فأبكت كلّ عدوّ ووليّ» أنساب الأشراف ٣: ٢٠٦؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٦. «قالت زينب بنت علي لعمر بن سعد: يا عمر! أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر؟! فبكى (عمر) وانصرف بوجهه عنها» أنساب الأشراف ٣: ٢٠٣، «فكأنّي أنظر الى دموع عمر وهي تسيل على خدّيه ولحيته» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٢. وانظر: الكامل في التاريخ ٤: ٧٨؛ البداية والنهاية ٨: ١٨٨. وسيجدّد رحمه الله الاستشهاد ببكاء ابن سعد في المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: قاتلُ الحسين عليه السلام هو قاتل أهدافه والبكاء عليه غير كافٍ. وفي المحاضرة الحادية والعشرين، تحت عنوان: كيف يمكن أن تكون قتلة للحسين عليه السلام؟ ويُمكن الاستشهاد ببكاء يزيد بن معاوية نفسه؛ إذ «لمّا أُتي يزيد برأس الحسين فوضع بين يديه.. رأيته يبكي.. لو كان بينه وبينه رحم ما فعل هذا» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٩٣.

(٤) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤٢؛ الفتوح ٥: ٢٠؛ حيث قال له: «فإنّهم أنصار جدّك وأخيك وأبيك، وهم أرأف الناس وأرقّهم قلوباً، وأوسع الناس بلاداً، وأرجحهم عقولاً».

هناك.

ولعلّ هذا كان أنفع أو أسلم على الخطّ القصير؛ لأنّه يمكِنُه في اليمن أن يعتصم من يزيد بن معاوية إلى برهةٍ من الزمن. ولكنّه سوف لن يحقّق بذلك المكسب المقصود؛ لأنّه بهذا سوف ينعزل ويتقوقع ويحيط نفسه بإطارٍ منغلق، بينما مسرح الأحداث وقتئذٍ كان هو الشام والعراق والمدينة ومكّة في كلّ العالم الإسلامي.

كان لا بدّ أن يباشر عمليّته على مسرح الأحداث حتّى يمكن لهذه العمليّة أن تنعكس على كلّ العالم الإسلامي، ويمكن لهذه العمليّة أن تؤثّر تربويّاً وروحيّاً وأخلاقيّاً ودينيّاً في كلّ العالم الإسلامي.

ولماذا يذهب إلى زاويةٍ من الزوايا فيعيش هناك؟ لأجل أن يُنشئ مجتمعاً إسلاميّاً؟!

هذا هو الشيء الذي لم يكن بالإمكان على عهد أبيه عليه السلام في الكوفة، التي كان فيها عددٌ كبير من البقيّة الصالحة من الصحابة والتابعين، كانت الظروف الموضوعيّة لا تسمح بذلك في الكوفة لعليٍّ، فكيف تسمح بذلك للحسين في اليمن؟!

أو يذهب لليمن لكي يمدّد عمره برهة أطول؟!

مثل هذا لا يتّفق مع مقصوده عليه السلام. هو يريد أن يعيش على مسرح الأحداث لكي يستطيع بذلك أن يساهم في التغيير الذهني والروحي والنفسي للأُمّة الإسلاميّة.

الموقف الرابع: رفض المبايعة وهزّ ضمير الأُمّة بحيثيّات الخروج:

ولهذا كان لا بدّ له عليه السلام أن يختار الموقف الرابع الذي استطاع به:

١ ـ أن يهزّ ضمير الأمّة من ناحية.

٢ ـ وأن يشعر الأُمّة ـ من ناحيةٍ أُخرى ـ بأهمّية الإسلام وكرامته، هذا الدين الذي ضحّى هو (صلوات الله عليه) بنفسه وبالصفوة من أولاده وأهله وكلّ كراماته واعتباراته في سبيله.

٣ ـ واستطاع ـ من ناحيةٍ ثالثةٍ ـ أن يدفع عمليّة التحويل ـ تحويل الخلافة إلى كسرويّة وقيصريّة ـ بدليلٍ على البطلان[1] لا يمكن أن ينطفئ إلى يوم القيامة.

٤ ـ ومن ناحيةٍ رابعةٍ أوضح لكلّ المسلمين مفهوم التنازل عند الإمام الحسن عليه السلام، وأنّ تنازل الإمام الحسن عليه السلام لم يكن إمضاء، وإنّما كان أُسلوباً تمهيديّاً لموقف الإمام الحسين عليه السلام.

اللهمّ اكتبنا من شيعته، واحشرنا معه ومع المتولّين له، بجاه محمّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين.

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا في (ح) و(غ) و(ل)، وهو ساقطٌ من (ن)، والمراد أنّه عليه السلام قدّم دليلاً على بطلان عمليّة تحويل الخلافة إلى كسرويّة وقيصريّة، بمعنى أنّه أبطلها.



مقوّمات ثورة
الإمام الحسين عليه السلام

ليست الجاهليّة مرحلةً تاريخيّةً قد انتهى أوانها، بل هي حالة اجتماعيّة يمكن أن تتجدّد كلّما توفّرت ظروفها؛ لأنّ حقيقة الجاهليّة [هي] الانحراف عن شريعة الله وهدى الأنبياء، والحكم وفق الهوى، كما جاء في القرآن: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1].

إذاً: عودة الجاهليّة إلى مسرح الحياة معناها في المقابل إبعادُ حكم الله عن ذلك المسرح، ومحاربة النظام الإسلامي، وجرّ الأُمّة من نور الحقّ والعدل إلى ظلمات الباطل والظلم.

إنّ الانحراف الأُمويَّ عن جادّة الصواب والابتعادَ عن الصراط الحقّ جاهليّةٌ جديدة، وإن تغيّرت الأُطر وتبدّلت الأثواب. إنّه حكمٌ جاهليٌّ حاربه الإسلام واستشهد في مكافحته الأخيار.

صحيحٌ أنّ الحاكم الأُمويَّ يزيد (لعنه الله) وأسلافَه وأخلافَه يشهدون أنْ لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً ﷺ رسول الله، لكنّ ذلك لا يغيّر الحقيقة المرّة، حقيقةَ الجاهليّة الأُمويّة.

الموقف من أنظمة الحكم المختلفة:

ووقفة قصيرة على نظريّة الحكم في الإسلام تكفي في إعطاء صورة

(١) المائدة: ٥٠.

واضحة لحقيقة الحكم الأُموي وغيره. وتتلخّص النظريّة في ما يلي[١]:

١ ـ إمّا أن يكون الحاكم إماماً معصوماً، وهو بطبيعة الحال لا يمكن أن يخالف الأُطروحة الإسلاميّة وينفّذ غيرها من الأُطروحات الوضعيّة، وإلّا فلا يمكن ـ بأيّ حال ـ تسميته بالمعصوم، وهذا أمر مفروغ منه.

وفي مثل هذه الحالة يكون من اللازم على المسلمين ـ بمختلف مستوياتهم الفكريّة ـ تنفيذ أوامر هذا الحاكم، وعدم معارضته في كلّ أحكامه.

٢ ـ وإمّا أن يكون الحاكم فقيهاً عادلاً[٢]، وهذا الحاكم يطبّق الأُطروحة الإلهيّة، وبخلافها سوف لا يمكن وصفه بالعدالة.

ولا بدّ في مثل هذا الموقف من مؤازرته ونصرته وتنفيذ أوامره، ولا يجوز مخالفته حتّى من قبل الفقهاء أمثاله[٣].

٣ ـ وإمّا أن يكون الحاكم مسلماً وليس فقيهاً، ولكنّ الأُطروحة التي ينفّذها على واقع الحياة هي الأُطروحة السماويّة، ولا شكّ في أنّ هذا الحاكم قد يقع في أخطاء.

ففي مثل هذه الحالة، يقوم الفقهاء بتسديده وتأييده وتقديم الإرشادات له، وعلى المسلمين مؤازرته ومساندته، إلّا إذا كانت الأخطاء بدرجة تهدّد الأُطروحة بكاملها، عند ذلك يلزم الوقوف منه موقفاً آخر.

٤ ـ وإمّا أن يكون الحاكم ليس مسلماً أصلاً، ولكنّ النظريّة المتبنّاة من قبله هي النظريّة الإسلاميّة.

---

(١) تقدم الحديث عن بعض هذه الصور في مطلع المحاضرة السادسة عشرة.

(٢) في البحث المطبوع إضافة: «كما هو الحال في إيران اليوم»، وقد احتملنا في مقدّمة الكتاب كونها من إضافة ناشر البحث، فراجع.

(٣) راجع تعليقة الشهيد الصدر رحمه الله في: منهاج الصالحين ١: ٢٠، المسألة ٢٥. وقد تقدّمت الإشارة إلى هذه المسألة في المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: أقسام الحكم في حالة تبنّي الإسلام قاعدةً للحكم، الحالة الثانية.

ففي هذه الحالة لا يهمّ شخص الحاكم، بل المهمّ الاُطروحة؛ لأنّه ليس من الممكن أن يعتقد المرء بشيء وينفّذ في الواقع شيئاً آخر إلّا أن يكون إيمانه وهميّاً.

٥ ـ والحالة الأخيرة: أن يكون شخص الحاكم فقيهاً، أو مسلماً ليس بفقيه، أو غير مسلم، والاُطروحة المتبنّاة من قبله اُطروحة كافرة بعيدة عن الحقّ، محارِبةً للرسالة السماويّة.

فعلى المسلمين في مثل هذا الوضع الوقوفُ بوجه الحاكم ومعارضته ومحاربته؛ لأنّ المهم ليس شخص الحاكم وإن كان فقيهاً، بل المهم هو مقدار ما ينفّذ من الاُطروحة الإسلاميّة على مسرح الحياة.

النظرة التي بُني على أساسها موقف الإمام الحسين عليه السلام:

ومن خلال ذلك نستطيع أن نحدّد الموقف العمليّ للحسين عليه السلام بأنّه موقفٌ مبنيٌّ على ضوء النظرة الإسلاميّة للحكم؛ لأنّ النظريّة الإسلاميّة في الحكم تُبتنى على أساس الاُطروحة المنفَّذة في الواقع والمتجسِّدة في الخطوات العمليّة للسلطة: فإن كانت تلك الاُطروحة إسلاميّة فهي، وإلّا فلا قيمة لإسلاميّة الحاكم وصَلاته وتعبّده؛ لأنّ المعنى العبادي الحقيقي لا بدّ أن ينعكس على سلوك الفرد ومشاعره وأعماله.

ومن هنا: فلا قيمة لإسلاميّة يزيد أو غيره من حكّام الجور، ولا معنى للشعائر التي يؤدّونها.

وإذا كان الأمر كذلك والحكّام الاُمويّون لا يطبّقون شريعة السماء، فعلى الحسين عليه السلام بالذات ـ كأفضل إنسانٍ يجسّد الإسلام يومذاك ـ وعلى المسلمين جميعاً الوقوفُ بوجه هؤلاء الطغاة والتصدّي لهم؛ لأنّهم يريدون حكم الجاهليّة ويحاربون شريعة السماء، ولكنّ هذه الجاهليّة ارتدت ثوباً جديداً هذه المرّة

يُخفي حقيقتها عن الأنظار.

ولقد ثار الحسين عليه السلام ليكشف للأُمّة اختفاء الحكّام خلف اسم الدين، وليفضح للمسلمين حقيقة الطواغيب الذين حكموا الناس باسم خلافة الرسول صلى الله عليه وآله.

لم تكن واقعة الطفّ قضيّةً مأساويّة عابرة حدثت في مرحلة معيّنة من التاريخ [فحسب]، بل هي صورة متكاملة لتجسيد الصراع بين الحقّ والباطل، هي مسرحيّة واقعيّة تنبض بالحياة، أدّى أدوارَها كلُّ صنفٍ من أصناف البشر وبمختلف الأعمار والأجناس: فيها المعصوم الذي لا يخطئ ساهياً، والمجرم الذي لا يتورّع عن فعل أدنى الأفعال وأبشعها، فيها المرأة والطفل الرضيع والصبيُّ والشيخ العجوز، فيها التائب والعاصي، فيها السموُّ والرفعة، وفيها أيضاً الدناءة والخسّة.

وهي وإن لم تعبّر عن مرحلة تاريخيّة، لكنّها عبّرت عن حالة أُمّة، وانحرف بها الحكّام عن جادّة الصواب، وأبعدوها عن رسالتها وعقيدتها، حتّى أصبحت أُمّة ميّتة، لا تفكّر إلّا بهذا المقدار من النَّفَسِ[١] الصاعد النازل.. هذه الأُمّة التي بلغ بها الخوفُ حدّاً لا يوصف؛ فهي تعرف أنّ الحقّ لا يُعمَل به، والمنكرَ لا يُتناهى عنه[٢]، تدرك ذلك ولا تحرّك ساكناً. إنّ هذه الأُمّة جاءها [أجلها][٣] فماتت، وإن كانت الأجساد متحرّكة.

---

(١) أثبتناها: «النَّفَس» بدل «النَّفْس» باعتبار تكرّرها بهذا النحو في المحاضرات الصوتيّة للشهيد الصدر رحمه الله.

(٢) المعجم الكبير ٣: ١١٥؛ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: ١٥٠.

(٣) في البحث المطبوع: «أهلها»، ولعلّ الصحيح ما أثبتناه.

مقوّمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام[١]:

وجاءت واقعة الطف ـ كقضيّة مأساويّة مثيرة ـ لتحرّك في الأُمّة ضميرها وتعيدها نحو رسالتها، وتبعث شخصيّتها العقائديّة من جديد. وكان من اللازم أن يقوم بهذا الدور مجموعةٌ من الناس قادرون ـ بما يمتلكون من قدراتٍ ومقوّماتٍ ـ على جعل[٢] دورهم فاعلاً ومؤثّراً في حياة هذه الأُمّة الميّتة مع إدراكها، كما [يصوّر] الفرزدق [الناسَ] بقوله للإمام عليه السلام، قال: «سيوفهم عليك وقلوبهم معك»[٣].

وكانت أهمّ هذه المقّومات ما يلي:

١ ـ المقوّمات الشخصيّة للثائر:

فالثائر الذي يقود جبهة الحقّ كان إماماً معصوماً يمتلك كلَّ المواصفات القدسيّة بنصّ حديث الرسول صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[٤]؛ فهذه الصفة القدسيّة التي يمتلكها الحسين عليه السلام تدركها الأُمّة، خصوصاً مع وجود عدد غير قليل من الصحابة الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وآله، وسمعوا منه صلى الله عليه وآله تلك الأحاديث بشأن هذا الإمام عليه السلام.

وبالإضافة إلى ذلك، فالإمام عليه السلام يمتلك عنصر النَسَب الذي لا تشوبه

---

(١) لمزيدٍ من الفائدة، راجع: (سياسة الإمام الحسين عليه السلام في هزّ ضمير الأُمّة) في المحاضرة السادسة عشرة.

(٢) في البحث المطبوع: «تجعل» بدل «على جعل»، وما أثبتناه أنسبُ للسياق.

(٣) المعروف أنّه قولُ الفرزدق، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٤٥؛ مقاتل الطالبيّين: ١١١؛ دلائل الإمامة: ٧٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٦. وقد نسب إلى بشر بن غالب الأسدي (الفتوح ٥: ٧٠) ومجمع بن عبدالله العائذي [أنساب الأشراف ٣: ١٧٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٥؛ تجارب الأُمم ٢: ٦٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٩].

(٤) علل الشرائع ١: ٢١١.

شائبة ولا يناله شكّ: أبوه علي عليه السلام، وأمّه فاطمة عليها السلام، وجدّه الرسول صلى الله عليه وآله، والصحابة يتذكّرون حديث الرسول صلى الله عليه وآله بشأنه: «حسين منّي وأنا من حسين»[١]، يدركون هذا التمازج الروحي والتمازج النَسَبي.

والحسين عليه السلام يمتلك الجاه والشرف، كيف لا! وهو محطُّ أنظار المسلمين وكهف المستغيثين واللاجئين، ويمتلك الإمامُ المالَ والثروة.

أَتذكرون يوم عاشوراء حينما خاطب (سلام الله عليه) أُخته الحوراء قائلاً: «ناوليني ملابس استبدل بها ملابسي هذه لئلاّ يطمع القوم فيها فيسلِبونيها؟»، فلمّا أعطته ملابس رديئة بالية قال لها مستنكراً: «أَوَيلبس ابن أبيك مثل هذا؟!»[٢]. فلو كان لباسه الأوّل عاديّاً لقبل تلك الخرق البالية، فلا بدّ أن يكون لباسه في أوّل الأمر من أفخر الألبسة وأثمنها. والروايات تذكر أنّ القافلة الهاشميّة كانت محمّلة بالأموال الكثيرة[٣]؛ فالحسين عليه السلام كان يمتلك كلّ المقوّمات الشخصيّة للقداسة: الشرف والجاه، الغنى والثروة، والعصمة.

٢ ـ الحجّة:

ولكي لا تكون الثورة هامشيّة فلا تعطي ثمرتها المرجوّة، فقد كان الثائر يمتلك الوثائق الكفيلة بإضفاء المشروعيّة على هذه الثورة، وأنّها الحلّ الوحيد والخيار الذي لا بديل له.

فقد كانت الرسائل الواردة من زعماء العراق ـ ومن الكوفة خاصّة ـ

---

(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٢٧.

(٢) لم نعثر عليه بهذه الصيغة. نعم، ورد أنّه عليه السلام: «دعا بسراويل محقّقة يلمع فيها البصر، يماني محقّق، ففرزه ونكثه لكيلا يُسلَبه، فقال له بعض أصحابه: لو لبست تحته تبّاناً، قال: ذلك ثوب مذلّة» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٥٤١، أو: «لباس أهل الذمّة» مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٩.

(٣) قد يُستفاد ذلك من حمل الإمام الحسين عليه السلام الورس والحلل في طريقه إلى العراق [تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٠]، والتي نهبت بعد مقتله [الأخبار الطوال: ٢٥٨؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٣؛ الكامل في التاريخ ٤: ٧٩].

تطلب من الإمام عليه السلام بإلحاح القدومَ إلى العراق، وكان مضمون هذه الرسائل ـ كما تنقل الروايات ـ : «أقدم على جندٍ لك مجنّدة؛ فقد طاب الجنان واخضرّ المقام»(١).

ولا شكّ [في] أنّ عدم تلبية الإمام لهذه الطلبات ـ التي تقدّر على أقلّ الروايات باثني عشر ألف رسالة(٢) ـ سيلزم الإمام عليه السلام الحجّة في تفويته للفرصة. وبالعكس، فإنّ المجيء سيلزم الأُمّة الحجّة إن هي خانت.

والأمر الآخر [هو] أنّ الإمام عليه السلام [كان] أمام التهديد الأُموي إن هو لم يبايع، ولو بايع فإنّه سيعطي في مثل هذه الحالة الوثيقةَ الشرعيّةَ للحكّام الأُمويّين الظَلَمَة، وسيطفئ بالتالي بصيصَ الأمل الذي ترصده الأُمّة في تلك الشخصيّة المعارضة، أعني شخصيّة الإمام.

وفي حالة رفضه فإنّه أمام خيارين(٣):

أ ـ إمّا الموت الذي قرّره الأُمويّون له، ولو كان [متعلّقاً] بأستار الكعبة(٤).

ب ـ وإمّا الرحيل إلى إحدى المناطق التي يمتلك فيها شعبيّة وشيعة، ولا تتعدّى هذه المناطق: اليمن، الكوفة والبصرة. ومن المعلوم أنّ الطلب الأُموي

---

(١) «فقد اخضرّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمّت الجمام، فإذا شئت فأقدم على جند لك مجنّد» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٣، ٤٢٥؛ الفتوح ٥: ٢٩؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٣٦، ٩٧.

(٢) وصل الإمامَ الحسين عليه السلام خمسون كتاباً، ثمّ خمسون، إلى أن وصله ما ملأ منه خرجين (الأخبار الطوال: ٢٢٩)، وربما هو المعبَّر عنه بحمل بعير (البدء والتاريخ ٦: ٩)، وقد «ورد عليه في يوم واحد ستمائة كتاب، وتواترت الكتب حتّى اجتمع عنده في توب متفرّقة اثنا عشر ألف كتاب» اللهوف على قتلى الطفوف: ٣٥؛ فما ذكره رحمه الله ليس على أقلّ الروايات. كما ورد أنّ الأسماء ـ لا الكتب ـ بلغت مئة ألف، فراجع: الطبقات الكبرى، الطبقة الخامسة ١: ٤٥٩.

(٣) تقدّم الحديث عن الخيارات المتاحة أمامه عليه السلام بشكل أكثر تفصيلاً في المحاضرة السابعة عشرة.

(٤) تقدّم التعليق على هذه المقولة في المحاضرة السابعة عشرة. وراجع حول أصل التربّص به والغيلة به عليه السلام: المحاضرة العشرين، تحت عنوان: شعارات الإمام الحسين عليه السلام في تبرير مخطّطه، الشعار الأوّل: حتميّة القتل.

سوف يلاحقه في هذه المناطق بلا فرق.

وما دامت الكوفة تحتوي أكثر القواعد الشعبيّة المؤيّدة له (سلام الله عليه)، بالإضافة إلى الطلب الشديد من قبل أهلها، فإنّ الخيار الصحيح لا بدّ أن يكون بالرحيل إلى الكوفة عاصمة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

ولهذا رفض الإمام عليه السلام إلحاح أخيه محمّد بن الحنفيّة وممانعته من الذهاب إلى الكوفة[1]، كما رفض طلب ابن عبّاس رضي الله عنه الذي أشار على الإمام عليه السلام بالذهاب إلى اليمن[2].

٣ ـ الشعار:

ولكي لا تشوّه هذه الثورة، خصوصاً وأنّ الإمام عليه السلام قد علم بخيانة أهل الكوفة، وكيف أنّهم قتلوا رسوله مسلم بن عقيل عليه السلام[3] وصاحبه هانئ بن عروة، وشرّدوا بقيّة الأنصار، واعتقلوا قسماً منهم .. إنّ هذه الصورة جعلت الحسين عليه السلام أمام مواجهة عسكريّة لا مناص منها.

ولكي لا تشوّه هذه الثورة كما قلنا، فقد أعلن الحسين عن أهدافها وطرح شعاراتها ابتداءً من المدينة حتّى يوم المجزرة الكربلائيّة؛ فهو يقول: «والله إنّي ما خرجت أشِراً ولا بطِراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[4].

ثمّ إنّه وضع الأُمّة أمام الخيارات التي لا مناص منها ليجعل من

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤٢؛ الفتوح ٥: ٢٠.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٤٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٣؛ الفتوح ٥: ٦٦؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٩.

(٣) كذا في البحث المطبوع، وقد ذكرنا في المقدّمة أنّ هذا الاستعمال ليس من دأب الشهيد الصدر رحمه الله.

(٤) «وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أُمّة جدّي محمّد [صلى الله عليه وآله]، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر» الفتوح ٥: ٢١.

ثورته الأُسلوبَ الوحيدَ أمام التحديات الكافرة؛ فبعد أن التقى الحرَّ بن يزيد الرياحي رضي الله عنه قال عليه السلام: «هذه أرض الله واسعة، فدعوني أذهب وشأني»[١]، أو ما يقارب هذه العبارة.

وفي هذه الكلمة ـ في أقلّ تقدير ـ أن يُترَك الإمام عليه السلام يختار حياة العزلة، ولكنّ جيش الحر رفض التخلّي عن أوامر السلطة الجائرة، فجعجعوا به إلى كربلاء[٢].

وهناك أيضاً وضع أصحابه أمام الخيار، فلم يُرِدْ إقحامهم في معركة خاسرة من الناحية العسكريّة، لذا جمعهم ليلة العاشر من المحرّم ثمّ خطبهم وقال: «إنّ هذا الليل قد أرخى سدوله فاتّخذوه جملاً، ليس عليكم منّي ذمام»[٣]. ولقد رفض هؤلاء الأخيار هذا الطلب حينما قام زهير بن القين فقال: «ماذا نقول للعرب؟! ـ وفي رواية: لجدّك[٤] ـ أَيقتل ابن بنت رسول الله ونظلّ أحياء؟! لا والله! لا نفعل ذلك أبداً»، وقال غيره مثل قوله[٥].

ولمّا كانت المواجهة حتميّة، و[كان] السيف هو الحَكَمَ الفصل، أصرّ الحسين عليه السلام على خوض هذا الحرب قائلاً:

---

(١) «فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٢٥، والمفهوم أنّه عليه السلام قد قالها بعد الجعجعة لا قبلها.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٨؛ الفتوح ٥: ٧٧.

(٣) «ليس عليكم منّي ذمام، هذا [الليل] قد غشيكم، فاتّخذوه جملاً» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤١٨؛ الكامل في التاريخ ٤: ٥٧.

(٤) الوارد قولُ سعيد بن عبدالله الحنفي: «والله لا نخلّيك حتّى يعلم الله إنّا حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤١٩.

(٥) القول لبني عقيل: «فما يقول الناس؟! يقولون إنّا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا! لا والله! لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتّى ترد موردك، فقبح الله العيش بعدك»، ثمّ قال سعيد بن عبدالله الحنفي وزهير بن القين قريباً من مقالتهم، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤١٩.

إن كان دين محمّد لم يستقم إلّا بقتلي [يا] سيوف خذيني[١]

وعلى كلّ حال، فقد وضع الإمام الحسين عليه السلام أهداف الثورة أمام عينيه منذ حركته من المدينة حتّى مصرعه في الطف، بل واصلت اُخته الحوراء عليها السلام حمل تلك الرسالة، فكانت الوسيلة الإعلاميّة التي تذيع أخبار الثورة، والمِعْوَلَ الهدّام في العرش الاُموي الحاكم.

٤ ـ المقوّم العاطفي:

و[هو] عمليّة إثارة المشاعر في نفوس المسلمين الذين لم تحرّك الأفكار المنطقيّة عقولهم.

ويلاحظ المقوّم العاطفي في الثورة الحسينيّة من خلال اُسلوبين:

أوّلهما: إشراك العقائل من الهاشميّات في الثورة، بالإضافة إلى اشتراك الأطفال[٢]، بالدرجة التي يساهم فيها رضيعٌ وَلَدٌ في اليوم العاشر من المحرّم أثناء المعركة؛ فإنّ وجود نساء البيت العلوي ومخدّرات الهاشميّين في خضم هذه المحنة لا بدّ أن يثير في النفوس العطف، وفي القلوب الانكسار، مهما كانت تلك النفوسُ متوحّشةً والقلوبُ قاسية.

أمّا الأطفال، فقد قدّمتهم الثورة كدليل على أنّ هؤلاء القوم الذين يحاربون خوفاً وطمعاً قد بلغ بهم الأمر ـ حينما نسوا الله فأنساهم ذكر أنفسهم[٣]، بلغ بهم الأمر ـ حدّاً لا يوصف من الدناءة والوضاعة واللؤم، فلهذا خاطبهم الحسين عليه السلام

(١) هذا الشعر ليس من إنشاء أبي عبدالله عليه السلام، بل أنشأه الشيخ محسن الحائري المعروف بـ(أبي الحب الكبير) على لسانه عليه السلام، فراجع: ديوان الشيخ محسن أبو الحب: ١٦٩، قصيدة (بيضة الإسلام)، البيت ٢٣.

(٢) «يريد مكّة بجميع أهله»، «فحمل بناته وأخواته على المحامل» الفتوح ٥: ٢٢، ٦٩؛ «وأقبل الحسين بالصبيان والنساء لا يلوي على شيء»، «خرج ببنيه وإخوته وبني أخيه وجلّ أهل بيته» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤١، ٣٩٥، وانظر: اللهوف على قتلى الطفوف: ٦٤ ـ ٦٥.

(٣) الحشر: ١٩.

بقوله: «إن كان الذنب ذنب الكبار، فما هو ذنب هؤلاء الأطفال؟»[١].

وبهذه المشاركة أضاف للثورة رصيداً عاطفيّاً ضخماً، جعلها تحتلّ مركز القمّة بين الفواجع على طول التاريخ، وتحرّك مشاعر المسلمين وعواطفهم وأحاسيسهم إلى يومنا هذا.

والأُسلوب الثاني: هو أُسلوب التذكير والوعظ الذي استخدمه الإمام عليه السلام وصحبه (رضوان الله عليهم)؛ فلقد ذكَّر الإمامُ القومَ بقوله: «انسبوني من أنا، أَلستُ ابن بنت نبيّكم؟»[٢]، ثمّ يقول: «لم تحاربونني؟! أَلِسُنّة غيّرتها أم لبدعةٍ ابتدعتها؟!»[٣]. وفي موضع آخر يقول: «إن لم يكن لكم دينٌ وكنتم عرباً كما تزعمون، فكونوا أحراراً في دنياكم»[٤]؛ ذلك في إشارة منه للقوم حينما هجموا على بيوت عقائل الرسالة، إلّا أنّهم وصلوا حدّاً لم ينسوا دينهم فحسب، بل نسوا حتّى أعرافهم العربيّة التي تعوّدوها وتسالموا عليها.

ولهذا أيضاً نجد الإمام عليه السلام يصف حال الناس بقوله: «والدِّين لعقٌ على

(١) «ويلكم! إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طغامكم وجهّالكم» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٠؛ أنساب الأشرف ٣: ٢٠٢؛ «إنّي أُقاتلكم وتقاتلوني، والنساء ليس عليهنّ جناح» مثير الأحزان: ٧٣؛ «إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل» تذكرة الخواص: ٢٢٧.

(٢) «فانسبوني فانظروا من أنا..أَ لست ابن بنت نبيّكم[صلى الله عليه وآله] وابن وصيّه وابن عمّه؟!» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٢٤.

(٣) لم نعثر عليه سوى في مصدر متأخّر: «أ تقتلوني على سنّة بدّلتها؟! أم على شريعة غيّرتها؟!» ينابيع المودّة لذوي القربى ٣: ٨٠. وفي المصادر المتقدّمة: «أَ تطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٢٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٦٢.

(٤) «إن لم يكن لكم دينٌ وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون» اللهوف على قتلى الطفوف: ١٢٠. وفي: الفتوح ٥: ١١٧: «أعواناً».

ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محصّوا بالبلاء قلّ الديّانون»[١].

وعلى ضوء ما سبق نكون قد رسمنا صورة موجزة لمقوّمات الثورة من جهة ولحالة الاُمّة أيضاً: فالاُمّة ـ كما قلنا ـ بلغت حالة الاحتضار أو الموت، لا تقوى على المعارضة، وتعيش أزمة معقّدة من الخوف، في الوقت الذي يحاول الحكّام جرّ الاُمّة إلى الهاوية، وقتل روح العزّة والكرامة، وتفتيت كيانها الحضاري، وإبعادها عن رسالتها السمحاء.

الثورة الحسينيّة ووضعُنا الراهن:

وثورة الحسين عليه السلام لم تكن مرحلة تاريخيّة ـ كما قلنا ـ ، لكنّها عبّرت عن حالة اُمّة وصلت [إلى] هذا الوضع المأساوي، فأقدمت على جناية تاريخيّة بشعة.

واليوم تعود هذه الحالة من جديد؛ فهذه الاُمّة الإسلاميّة تعيش الوضع نفسه الذي عاشته الاُمّة في زمن الحسين عليه السلام؛ فلقد انحرف بها الحكّام عن رسالتها وحضارتها وكيانها. وهذه الاُمّة تعيش الخوف والوجل، ولا تفكر إلّا بالنَّفَسِ الصاعد النازل، فلا بدّ من هزّة عنيفة توقظ وجدان هذه الاُمّة وتحرّك ضميرها، وتعيدها إلى رشدها.

ولا بدّ أيضاً أن تمتلك هذه الهزّة كلّ المقوّمات التي امتلكتها هزّة الطف: قائداً رساليّاً مقدّساً ذا جاه وشرف ومال، يمتلك الحجّة الوثائقيّة التي تُدين الحكّام وتفضح انحرافهم عن الرسالة، وتُدين سكوت الاُمّة وخضوعها للذلّ والهوان، وعلى هذا القائد أن يطرح الشعار البديل الذي يوقد الجذوة الثوريّة في النفوس، ويحافظ على الجوهر الرسالي للثورة وأهدافها الحقيقيّة، وعلى

(١) كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام ٢: ٣٢؛ كامل البهائي في السقيفة ٢: ٣٤٣؛ حيث قال الإمام الحسين عليه السلام ذلك للشاعر الفرزدق، ولم ترد العبارة في مصادر القرون المتقدّمة التي سردت لقياه بالإمام الحسين عليه السلام.

القائد هذا أن يحرّك المشاعر والعواطف والأحاسيس عند هذه الأُمّة.

إذاً، لا بدّ من حسين جديد لهذه الحركة ولا بدّ من زينب، ولا بدّ من رجال كأصحاب الحسين عليه السلام، وهذا أمر مستحيل؛ فلا يمكن لأي إنسان أن يمتلك كلَّ هذه المواصفات التي يمتلكها الحسين عليه السلام ولا مقوّمات ثورته بالكامل.

وإذا كان الأمر مستحيلاً، فلا بدّ من قطارٍ من الدماء ورتلٍ ضخمٍ من التضحيات، تشكّل بمجموعها جزءاً من مقوّمات مأساة الطف؛ لتحرّك ضمير هذه الأُمّة الميْتة، وتوقظ مشاعرها وأحاسيسها.

وعلى المسلمين أن يكونوا دائماً على أُهْبَة الاستعداد لتلبية نداء الإسلام متى استصرخهم لنصرته، لعلّ في قطار الدم عودةً إلى الواقع الرسالي الكريم.

❊ ❊ ❊

١٩

التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة

أُلقيت بتاريخ ١٦ شهر صفر سنة ١٣٨٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلوات على سيّد الخلق وخلفائه المعصومين الميامين.

كان الحديث عن الإمام سيّد الشهداء (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وقد تقدّم قسطٌ من الحديث عنه (عليه أفضل الصلاة والسلام).

الحسنان عليهما السلام والمرضان المختلفان:

وقد ذكرنا في المحاضرات السابقة[1] أنّ الإمام الحسين وقف ليعالج مرضاً من أمراض الأُمّة كما وقف من قبله أخوه الإمام الحسن (عليه أفضل الصلاة والسلام) ليعالج مرضاً آخر من أمراض الأُمّة:

فبينما قدّر للإمام الحسن أن يعالج مرض الشكّ في الأُمّة الإسلاميّة التي بدأت في عهد أمير المؤمنين تشكّ في الخطّ الرسالي الذي سار عليه قادة أهل البيت، واستفحل لديها هذا الشكّ حتّى تحوّل إلى حالة مَرَضيّة في عهد الإمام الحسن عليه السلام.. بينما عالج الحسن هذه الحالة المرضيّة التي لم يكن بالإمكان علاجها حتّى بالتضحية، عالج الإمام الحسين عليه السلام حالةً مرضيّةً أُخرى، هي حالة انعدام الإرادة مع وضوح الطريق.

(١) في المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: موقف الإمام الحسين عليه السلام على مستوى الأُمّة، وفي المحاضرة السابعة عشرة، تحت عنوان: شرائح الأُمّة التي شكّلت مجال عمل الإمام الحسين عليه السلام. وسيتجدّد الحديث في المحاضرة الحادية والعشرين، تحت عنوان: الإمام الحسين عليه السلام يعالج مرض موت إرادة الأُمّة.

الأُمّة الإسلاميّة التي كانت تشكّ ـ أو التي بدأت تشكّ ـ في واقع المعركة القائمة داخل الإطار الإسلامي بين الجناحين المتصارعين، اتّضح لها بَعْدَ هذا الطريقُ. لكنّ هذا الطريق اتّضحت لها معالمه بعد أن فقدت إرادتها، بعد أن نامت، واستطاع الذين اغتصبوها وسرقوا شخصيّتها وزوّروا إرادتها وأباحوا كرامتها، استطاعوا أن يخدّروها، وأن يجعلوها غير قادرة على مجابهة موقف من هذا القبيل.

هذه الحالة المَرَضِيّة الثانية عالجها الإمام الحسين عليه السلام بالموقف الذي شرحناه[1]، وشرحنا أنّه كان بالإمكان عدّة بدائل للموقف الذي اتّخذه الإمام الحسين، إلّا أنّ كلّ البدائل الممكنة والمتصوّرة لم تكن تحقّق الهدف في علاج هذه الحالة المَرَضيّة، وكان الطريق الوحيد لعلاج هذه الحالة المَرَضيّة هو الخطّ الذي سار عليه سيّد الشهداء (عليه أفضل الصلاة والسلام).

مشاهد موت الإرادة في المجتمع الحسيني:

تبيّنّا في ما سبق[2] بعض مشاهد موت إرادة هذه الأُمّة، يعني: كنّا نحاول أن نستعرض ـ ونحاول الآن أيضاً أن نستعرض ـ عمق هذا المرض في جسم الأُمّة الإسلاميّة؛ حتّى نعرف أنّه بقدر عمق هذا المرض في جسم الأُمّة الإسلاميّة لا بدّ وأن يفكّر في العلاج أيضاً بتلك الدرجة من العمق.

وإذا كان من المقدّر ـ كما فهمنا في محاضرة سابقة[3] ـ أنّ العلاج الوحيد للحالة المرضيّة الثانية هذه [هو] التضحية، فبقدر ما يكون هذا المرض عميقاً في جسم الأُمّة يجب أن تكون التضحية أيضاً عميقةً مكافئةً لدرجة

(١) في المحاضرة السابعة عشرة، تحت عنوان: مبرّرات الإمام الحسين عليه السلام في اختيار الموقف الرابع.

(٢) تقدّم منه قدس سره حديثٌ حول هذه المشاهد في المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: مشاهد موت الضمير وفقدان الإرادة.

(٣) في المحاضرة السابعة عشرة، تحت عنوان: مبرّرات الإمام الحسين عليه السلام في اختيار الموقف الرابع.

عمق هذا المرض في جسم الأُمّة.

وهذا المرض كان يشمل كلّ قطّاعات الأُمّة، عدا بصيصٍ هنا وهناك تجمّع على الإمام الحسين ﷺ خلال خطّ عمله وحركته.

المشهد الأوّل: التخويف بالموت من عقلاء المسلمين:

لاحظنا[١] كيف أنّ الإمام الحسين ﷺ حينما قرّر السفر من المدينة إلى مكّة، أو في النهاية حينما قرّر الهجرة من الحجاز متّجهاً إلى العراق، متّجهاً إلى تسلّم مسؤوليّاته كشخصٍ ثائرٍ حاكمٍ على طواغيت بني أُميّة.. رأينا كيف أنّ هذا الإمام الذي رسم له هذا الخطّ، كيف كان يتلقّى من كلّ صوب وحدب النصائح من عقلاء المسلمين ـ أو مَن يسمّون يومئذٍ بعقلاء المسلمين ـ الذين يؤثرون التعقّل على التهوّر.. كيف أنّ هؤلاء العقلاء أجمعت كلمتهم على أنّ هذا التصرّف من الإمام الحسين ليس تصرّفاً طبيعيّاً[٢]؛ كانوا يخوّفونه بالموت، كانوا يقولون له: «كيف تثور على بني أُميّة وبنو أُميّة بيدهم السلطان، بيدهم الرجال والمال، بيدهم كلّ وسائل الإغراء والترغيب والترهيب؟!».

كانوا يحدّثونه عن النتائج التي وصل إليها الإمام عليٌّ في صراعه مع بني أُميّة، والتي وصل إليها الإمام الحسن في صراعه مع بني أُميّة. كانوا يمنّونه السلامة، كانوا لا يتصوّرون أنّ التضحية يمكن أن تكون بديلاً لحياة بالإمكان الاحتفاظ بأنفاسها مهما كانت هذه الأنفاس، ومهما كانت ملابسات هذه الأنفاس.

هذه النصائح لم يتلقَّها الإمام الحسين من رعاع أو من عوام، وإنّما

---

(١) راجع التفاصيل التي يذكرها ﷺ هنا في المحاضرة السادسة عشرة، تحت عنوان: مشاهد موت الضمير وفقدان الإرادة، المشهد الأوّل. وسيأتي مجدّداً في المحاضرة الحادية والعشرين، تحت عنوان: الإمام الحسين ﷺ يعالج مرض موت إرادة الأُمّة.

(٢) راجع المحاضرة السادسة عشرة.

تلقّاها من سادة المسلمين، من الأشخاص الذين كان بيدهم الحلّ والعقد في المجتمع الإسلامي، تلقّاها من أشخاصٍ من قبيل: عبد الله بن عبّاس[١]، وعبد الله بن عمر بن الخطّاب[٢]، وعبد الله بن جعفر الطيّار[٣]، ومن قِبَل أخيه محمّد بن الحنفيّة[٤]، ومن قِبَل غيرهم من سادة الرأي في المجتمع الإسلامي.

حتّى إنّ عبد الله بن جعفر، عبد الله بن جعفر الذي هو ابن عمّه، الذي هو ابن أخي عليٍّ بن أبي طالب، بالرغم من وشائج النسب الوثيق، بالرغم من ارتباطه النَسَبي بالخطّ، بالرغم من هذا كان منهاراً نفسيّاً، إلى الدرجة التي أرسل فيها رسالة إلى الإمام الحسين حينما سمع بعزمه على سرعة الخروج من مكّة: «أنْ انتظر حتّى ألحق بك»، وماذا كان يريد من هذا الانتظار؟

الإمام الحسين لم ينتظره. حينما وصل عبد الله بن جعفر إلى مكّة كان الإمام الشهيد قد خرج من مكّة، ذهب عبد الله بن جعفر رأساً إلى والي بني أُميّة في مكّة، أخذ منه كتاب الأمان للحسين، وذهب بالكتاب إلى الحسين، وهو يرى أنّه قد استطاع بهذا أن يقضي على كلّ مبرّرات خروج الحسين، لماذا يخرج الحسين من مكّة؟ لأنّه خائف في مكّة، وقد جاء الأمان له من سلاطين بني أُميّة[٥].

هذه النصائح كانت تعبّر عن نوعٍ من الانهيار النفسي الكامل الذي شمل زعماء المسلمين وسادة المسلمين، فضلاً عن الجماهير التي كانت تعيش هذا الانهيار مضاعفاً في أخلاقها وسلوكها وأطماعها ورغباتها.

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٤٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٣؛ الفتوح ٥: ٦٦؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٩.

(٢) الفتوح ٥: ٢٣؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٧٨.

(٣) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٧.

(٤) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤١؛ الفتوح ٥: ٢٠.

(٥) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٧ ـ ٣٨٩.

هذه السلبيّة والبرود المطلق الذي كان يواجهه الإمام الحسين، أو تواجهه حركة الإمام الحسين، بالرغم من قوّة المثيرات، هذا البرود المطلق ـ في لحظات ترقّب العطاء الحقيقي، هذا البرود ـ كان يعبّر عن ذلك الانهيار النفسي على مختلف المستويات.

المشهد الثاني: موقف عبيد الله بن الحرّ الجعفي :

عبيد الله بن الحرّ الجعفي يقصده الحسين ﷺ بنفسه، يقصده إلى خيمته، يتوسّل به على أن يرتبط بهذا الخطّ، يتّصل بهذا الخطّ، وهو أعرف الناس بصحّة هذا الخطّ وصواب هذا الخطّ، فيعزّ عليه أن يقدّم قطرةً من دمه، يعزّ عليه أن يقدّم شيئاً سوى الفرس فقط[1]، لم يستطع أن يذوق طعم التضحية إلّا على مستوى تقديم فرس واحدة فقط.

المشهد الثالث: موقف زعماء البصرة[2]:

الإمام الحسين يكتب إلى ستّة من زعماء البصرة، يختارهم من أُولئك الذين لهم ارتباطات مع خطّ الإمام علي ﷺ.

زعماء البصرة على قسمين: زعماء مرتبطون مع خطّ بني أُميّة، مرتبطون مع خطّ عائشة وطلحة والزبير، وزعماء يرتبطون مع خطّ الإمام علي ومدرسة الإمام علي.

يختار الإمام الشهيد ستّةً من الأشخاص الذين يرتبطون بمدرسة الإمام علي ويشعرون بالولاء لمفاهيم هذه المدرسة وشعاراتها وأهدافها[3]، يكتب

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٧؛ الفتوح ٥: ٧٣ ـ ٧٤؛ مقتل الحسين ﷺ (الخوارزمي) ١: ٣٢٥ ـ ٣٢٦؛ حيث قدّم عبيد الله للحسين ﷺ فرسه وسيفه. ولكنْ نقل البلاذري أنّ فرس عبيدالله كانت معه ﷺ في المعركة، فانظر: أنساب الأشراف ٣: ١٨٨.

(٢) سيتجدّد الحديث عن هذا المشهد في المحاضرتين العشرين والحادية والعشرين.

(٣) «وقد كان الحسين بن علي قد كتب إلى رؤساء أهل البصرة، مثل: الأحنف بن قيس ومالك بن

إليهم، يستنصرهم ويستصرخهم، ويشعرهم بالخطر الداهم الذي تواجهه الأُمّة الإسلاميّة متمثّلاً في كسرويّة وقيصريّة يزيد بن معاوية[(١)].

فماذا يكون ردّ الفعل لهذه الرسالة ؟!

يكون ردّ الفعل إذا استثنينا شخصاً واحداً، وهو [يزيد] بن مسعود النهشلي الذي كتب مستجيباً[(٢)]، إذا استثنينا هذا الشخص الواحد يكون ردّ الفعل هو البرود المطلق، أو الخيانة.

أ ـ يبعث أحدهم برسول الحسين[(٣)] إلى عبيد الله بن زياد، وكان وقتئذٍ والياً على البصرة ـ صدّقوا: أنّ هذا الشخص الذي قام بهذا العمل هو من شيعة عليّ بن أبي طالب، لم يكن عثمانيّاً، كان علويّاً[(٤)]، ولكنّه علويٌّ فَقَدَ كلَّ مضمونه، فقد كلَّ معناه، فقد كلّ إرادته ـ، جاء إلى هذا الرسول، أخذه مع الرسالة إلى عبيد الله بن زياد، لماذا؟ حبّاً في عبيد الله بن زياد؟ لا، إيماناً بخطّ عبيد الله بن زياد؟ لا، لكن حفاظاً على نفسه، ابتعاداً بنفسه عن أقلّ مواطن الخطر، عسى أن يصطلح في يومٍ ما عبيد الله بن زياد.

على أنّ ابن رسول الله كتب إليه يستصرخه، وهو لم يكشف هذه الورقة

مسمع والمنذر بن الجارود وقيس بن الهيثم ومسعود بن عمرو وعمر بن عبيدالله بن معمر، فكتب إليهم كتاباً يدعوهم فيه إلى نصرته والقيام معه في حقّه» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٧؛ الفتوح ٥: ٣٧. ولم يذكر الدينوري الأخير منهم (الأخبار الطوال: ٢٣١).

(١) راجع: الإمامة والسياسة ١: ١٩٦؛ المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٥: ٢٩٩؛ البداية والنهاية ٨: ٨٩.

(٢) في المحاضرة الصوتيّة: «عبدالله بن مسعود»، وما أثبتناه هو الصحيح (مثير الأحزان: ٢٧؛ اللهوف على قتلى الطفوف: ٣٧)، ولم يذكره الدينوري وابن أعثم والطبري، وكانت ليلى بنت مسعود النهشلي ـ أُخت يزيد ـ تحت الإمام علي عليه السلام (الغارات ١: ٩٣).

(٣) رسول الحسين عليه السلام مولى اسمه سليمان، والذي بعث به إلى عبيدالله هو المنذر بن الجارود.

(٤) حيث شهد الجمل مع عليّ عليه السلام، انظر: المعرفة والتاريخ ٣: ٣١٣؛ الإصابة في تمييز الصحابة ٦: ٢٠٩.

للسلطة الحاكمة وقتئذٍ [لكي لا][١] يُتّخذ هذا نقطة ضعف عليه، لكي يبتعد عن أقلّ نقاط الضعف، لكي يوفّر له كلّ عوامل السلامة، كلّ ضمانات البقاء الذليل.. لكي يوفّر له كلّ ضمانات البقاء الذليل أخذ رسول الإمام، وأخذ الرسالة، وقدّم الرسالة والرسول بين يدي عبيد الله بن زياد، فأمر عبيد الله بن زياد بالرسول فقتل رضوان الله عليه[٢].

ب ـ شخص آخر من هؤلاء الزعماء: الأحنف بن قيس، الذي عاش مع خطّ جهاد الإمام علي، الذي عاش مع حياة الإمام عليّ عن قرب، وتربّى على يديه[٣]، ماذا كان جوابه لابن الإمام علي عليهما السلام؟!

قال له في رسالة أجاب بها على رسالته، قال له: «﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٤]»[٥]، أمره بالتصبّر والتريّث، وقال له بأنّه لا يستخفّنّك الذين لا يوقنون، معرّضاً بالطلبات التي كان الإمام الحسين عليه السلام يتلقّاها من شيعته.

كيف تبرّر الاُمّة المهزومة هزيمتها؟

وفي الواقع: إنّ رسالة الأحنف تعبّر في الحقيقة عن أخلاقيّة الاُمّة المهزومة، عن أخلاقيّة الاُمّة في حالة الهزيمة؛ فإنّ الاُمّة في حالة تعرّضها للهزيمة النفسيّة، في حالة فقدانها لإرادتها وعدم شعورها بوجودها كاُمّة، في مثل هذه الحالة تنشأ لديها بالتدريج أخلاقيّة معيّنة هي أخلاقيّة هذه الهزيمة.

وأخلاقيّة هذه الهزيمة تصبح قوّة كبيرة جدّاً بيد صانعي هذه الهزيمة

---

(١) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٢) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٧؛ الفتوح ٥: ٣٧.

(٣) اعتزل الجمل وشهد صفّين، انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة ١: ٦٩؛ الإصابة في تمييز الصحابة ١: ٣٣٣؛ وقعة صفّين: ١١٦.

(٤) الروم: ٦٠.

(٥) أنساب الأشراف ٣: ١٦٣. وسيتجدّد الحديث عن موقف الأحنف في مطلع المحاضرة العشرين.

لإبقاء هذه الهزيمة وإمرارها وتعميقها وتوسيعها.. يصبح العمل الشجاع تهوّراً، يصبح التفكير في شؤون المسلمين استعجالاً، يصبح الاهتمام بما يقع على الإسلام والمسلمين من مصائب وكوارث ـ يصبح كلّ هذا الاهتمامُ ـ نوعاً من الخفّة واللا تعقّل، نوعاً من العجلة وقلّة الأناة، نوعاً من التسرّع في العمل أو التفكير، هذه الأخلاقيّة هي أخلاقيّة الهزيمة التي تصطنعها الأُمّة لكي تبرّر هذه الهزيمة.

حينما تُهزم، حينما تشعر بأنّها قد انتهت مقاومتها، [تتنسج] بالتدريج مفاهيم غير مفاهيمها الأُولى، وقيماً وأهدافاً ومُثُلاً غير القيم والمثل والأهداف التي كانت تتبنّاها في الأوّل، لكي تبرّر ـ أخلاقيّاً ومنطقيّاً وفكريّاً ـ الموقف الذي تقفه.

فالإمام الحسين عليه السلام في الواقع كان يريد أن يبدّل هذه الأخلاقيّة، كان يريد أن يصنع أخلاقيّةً جديدةً لهذه الأُمّة تنسجم مع القدرة على التحرّك، مع القدرة على الإرادة.

حينما كان يقول: «لا أرى الحياة مع الظالمين إلّا برماً»[١] لم يكن هذا مجرّد شكوى، وإنّما كان هذا عمليّة تغيير لأجل إيجاد ـ أو لأجل الإرجاع في الواقع، لأجل إرجاع ـ هذه الأخلاقيّة الأُخرى التي فقدها الأحنف بن قيس، وفقدها كلُّ الناس الذين مشوا مع الأحنف بن قيس. هؤلاء الذين تبدّل عندهم مفهوم: «وليست الحياة مع الظالمين إلّا جحيماً وشقاءً»، تبدّل هذا المفهوم إلى مفهوم لزوم الحفاظ على الحياة وعلى النَّفَس الذي يصعد وينزل، مهما كان مضمون هذا النَّفَس، ومهما كانت ملابسات هذا النَّفَس.

كان لا بدّ من صنع هذه الأخلاقيّة الجديدة التي تهزُّ ضمير الأُمّة وتحرّكها

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٤؛ تاريخ الإسلام ٥: ١٢.

وتصنع لها إرادتها من جديد.

المشهد الرابع: مغادرة بني أسد محلّ سكناهم[(١)]:

حبيب بن مظاهر يستأذن من الإمام الحسين عليه السلام أن يذهب ويدعو عشيرته بني أسد للالتحاق بخطّ سيّد الشهداء، وكلّ المسلمين يعرفون من هو حبيب بن مظاهر، في مواقفه، في جهاده، في بياض تاريخه، في صفاء سيرته، في ورعه وتقواه.

يذهب حبيب بن مظاهر ليطلب العون والمدد من عشيرة بني أسد للإمام عليه السلام، وتكون النتيجة لذلك أنّ عشيرة [بني] أسد تغادر بأجمعها تلك الليلة المنطقة، تنسحب هذه العشيرة انسحاباً إجماعيّاً.

يرجع حبيب بن مظاهر ليبلّغ الإمام الحسين هذه النتيجة الغريبة، أنّ عشيرةً تخشى أن تبقى بعد اليوم، تخشى أن تبقى حتّى حياديّة؛ لأنّ بالإمكان أنّ عمر بن سعد لا يكتفي بهذا الحياد، فتغادر المنطقة نهائيّاً. ولم يكن جواب سيّد الشهداء على ذلك إلّا أن قال: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»[(٢)].

هذا البرود، هذا السكون، هذه الهزيمة النفسيّة قبل الهزيمة الخارجيّة، هذه الهزيمة هي مرض الأُمّة الذي كان يعالجه الإمام الحسين.

المشهد الخامس: موقف أهل الكوفة من مقتل رسول الحسين عليه السلام:

الصيداوي الذي أرسله الإمام الحسين عليه السلام ـ أظنّه قيس بن مسهّر الصيداوي[(٣)]، أظنّ هكذا ـ، الذي أرسله لكي يبلّغ رسالته إلى أهل الكوفة،

---

(١) سيتجدّد الحديث عن هذا المشهد في المحاضرة الحادية والعشرين.

(٢) الفتوح ٥: ٩٠ ـ ٩١.

(٣) هو كذلك، وكان أهل الكوفة قد أرسلوه بكتبهم إلى الحسين عليه السلام، ثمّ أرسله عليه السلام مع مسلم إليهم، ثمّ أرسله بكتابه إلى أهل الكوفة، حيث أخذه الحصين بن تميم وبعث به إلى عبيد الله بن زيّاد [تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٩٤].

لكي يُعطي لأهل الكوفة إشعاراً بأنّه في الطريق، وأنّه على الأبواب.

هذا الرسول يدخل الكوفة بعد أن انقلبت الكوفة، وبعد أن تغيّرت الكوفة غير الكوفة، وسيطر عبيد الله بن زياد على كلّ القطّاعات العسكريّة في الكوفة، يؤخذ أسيراً إلى عبيد الله بن زياد.

قبل أن يصل إلى عبيدالله بن زيّاد يمزّق الكتاب، يقف بين يدي عبيد الله بن زياد، يقول له: «لماذا مزّقت الكتاب؟»، يقول: «لأنّي لا أُريد أن تطّلع عليه»، يقول: «وماذا كان فيه؟»، يقول: «لو كنت أُريد أن أُخبرك لما مزّقت هذا الكتاب»، يقول له: «إنّي أقتلك، إلّا إذا صعدت على هذا المنبر وقلت بالصراحة شيئاً في سبِّ عليٍّ بن أبي طالب والحسن والحسين».

هذا الرسول الأمين يغتنمها فرصة، يصعد على المنبر في هذه اللحظة الحاسمة، في آخر لحظة من حياته.. في هذا الإطار العظيم من البطولة والشجاعة والتضحية، أمام عبيد الله بن زياد وأمام شرطته وجيشه، يوجّه خطابه إلى أهل الكوفة ويقول: «أنا رسول الحسين إليكم، إنّ الحسين على الأبواب»، يؤدّي هذه الرسالة بكلّ بطولة وبكلّ شجاعة، فيأمر عبيد الله بن زياد به فيقتل[1].

وماذا يكون الصدى لمثل هذه الدفعة المثيرة القويّة؟!

هؤلاء الذين كتبوا إلى الإمام الحسين يطلبونه، الآن رسول الإمام الحسين على المنبر بهذا الشكل غير الاعتيادي، رسول الإمام الحسين على المنبر والسيف فوق رقبته، وهو يودّع الحياة في آخر لحظة من اللحظات، وهو يبلّغهم الرسالة بكلّ أمانة وشجاعة، ويضحّي في سبيل تبليغها بدمه، بروحه، فماذا يكون أثر ذلك؟

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٩٤؛ الفتوح ٥: ٨٢؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤١؛ البداية والنهاية ٨: ١٦٨.

يكون أثر ذلك أنّه حينما يأمر عبيد الله بن زياد به أن يُقتل فيُقتل، يأتي شخصٌ من أهل الكوفة[1] فيذبحه، يعني يقطع رأسه، فيقال له: لماذا قطعت رأسه؟ يقول: لكي أُريحه بذلك[2].

هذه الأُمّة لا تفكّر إلّا على هذا المستوى من الشفقة في حياتها، الشفقة التي تشعر بها هي الشفقة على هذا المستوى. أمّا الشفقة على الوجود الكلّي، الشفقة على الكيان، الشفقة على العقيدة، هذه الشفقة انتزعت من قلوبها؛ لأنّها شفقة تكلّف ثمناً غالياً.

الشفقة التي لا تكلّف ثمناً هي أن يقطع رقبة هذا الشخص، أن يريحه من هذه الحياة، من الحياة في ظلّ عبيد الله بن زياد. ولكنّ الشفقة التي تكلّف ثمناً، تلك الشفقة انتزعت من قلوبهم.

هذه المظاهر من البرود والسكون بالرغم من قوّة الإثارة، هذه المظاهر هي دليلٌ على عمق ما وصلت إليه الأُمّة من انحلال.

المشهد السادس: الاندفاع نحو خطّ السلطة:

إلى جانب ذلك، أو في عكس ذلك: ذلك الاندفاع المحموم نحو خطّ السلطان، نحو خطّ الحكم القائم.

عبيد الله بن زياد استطاع خلال أُسبوعين ـ أو خلال ثلاثة أسابيع على أكثر تقدير ـ بعد مقتل مسلم بن عقيل[3] إلى أوّل المحرّم أن يجنّد عشرات الأُلوف من أبناء هذا البلد، الذي كان ـ ولا يزال إلى ذلك الوقت ـ يحمل رسالة علي، والولاء لعلي، جنّد من هذا البلد عشرات الآلاف، واستجاب له مئاتٌ من

---

(١) هو: عبد الملك بن عمير اللخمي.

(٢) وردت هذه الزيادة في: أنساب الأشراف ٣: ١٦٩؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٧١.

(٣) «كان قتلُ مسلم بن عقيل يوم الثلاثاء، لثلاث خلون من ذي الحجّة سنة ستّين» الأخبار الطوال: ٢٤٢؛ المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٥: ٣٢٨.

الأشخاص الذين كانوا قد حاربوا مع الإمام علي في صفّين، وحاربوا مع الإمام علي في سائر مراحل جهاده.

أ ـ استجاب له شخصٌ من قبيل عمرو بن الحجّاج. ومن هو عمرو بن الحجّاج؟

عمرو بن الحجّاج [هو] من أُولئك الذين اضطُهدوا في سبيل الإمام علي، من أُولئك الذين عاشوا المحنة أيّام زياد(١)، ولكنّه لم يستطع أن يواصل المحنة، طلّق عقيدته قبل أن يصل إلى آخر الشوط؛ لأنّه شعر أنّ هذه العقيدة تكلّف ثمناً غالياً، وأنّه إذا طلّقها أمكنه أن يشتري بدلاً عنها دنيا واسعة.

هذا الشخص (عمرو بن الحجّاج) الذي رافق الإمام عليّاً في جهاده انهار أخيراً، انتهت إرادته، انتهت شخصيّته كإنسان مسلم يفكّر في الإسلام.

عمرو بن الحجّاج نفسه [هو] الذي كلّفه عمر بن سعد بأسوأ عملٍ يمكن أن يُكلَّف به إنسان، كلّفه بالحيلولة دون سيّد الشهداء والماء، بقي واقفاً على الماء يمنع ابن رسول الله والبقيّة الباقية من ثقل النبوّة عن أن يشربوا من الماء(٢).

ب ـ واستجاب لذلك شبث بن ربعي. ومن هو شبث بن ربعي؟

---

(١) سيتكرّر منه ﷺ ذكر ذلك في المحاضرة الحادية والعشرين. لكنّنا لم نعثر في ترجمة ابن الحجّاج على ما يشير إلى هذه الجهة، بل ورد اسمه ضمن من شهد عند زياد على حجر بن عدي في حادثة استشهاد الأخير سنة واحد وخمسين، فراجع: أنساب الأشراف ٥: ٢٥٤؛ تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٢٧٠. ورُوي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أخبر بأنّ ابن الحجّاج من قوّاد جيش ابن زياد، فراجع: مدينة المعاجز ٣: ١٩٧.

(٢) كان عمرو بن الحجّاج أحد الذين كتبوا إلى أبي عبد الله عليه السلام: «أمّا بعد، فقد أخضرّ الجناب وأينعت الثمار..» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٣٨، ثمّ قال له في كربلاء: «يا حسين! هذا الفرات تلغ فيه الكلاب وتشرب منه الحمير والخنازير. والله، لا تذوق منه جرعة حتى تذوق الحميم في نار جهنّم» أنساب الأشراف ٣: ١٨٢؛ تذكرة الخواص: ٢٢٣. كما كان ضمن من حمل رأس الإمام الحسين عليه السلام إلى ابن زياد، فراجع: تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٦.

هذا الرجل الذي عاش مع جهاد أمير المؤمنين، هذا الرجل الذي كان يعي مدلول حرب صفّين[١]، وكان يدرك بأنّ الإمام عليّاً في حرب صفّين يمثّل رسول الله ﷺ في غزوة بدر.

ولكنّ الدنيا، ولكنّ الانهيار النفسي، ولكنّ النَّفَسَ القصير خَنَقَه في النهاية، فذاب وتميّع، واشتدّ تميّعه بالتدريج، إلى أن وصل إلى حدٍّ أنّ عبيد الله بن زياد يبعث عليه ليقاتل الحسين ابن رسول الله، فماذا يكون العذر؟ ماذا يكون الجواب؟

لا يملك أن يعتذر بعذرٍ من الأعذار إلّا أن يقول: «أنا مريض»؛ يعتذر بأنّه مريض، كلمة باردة جدّاً على مستوى بروده النفسي.

عبيد الله بن زياد يبعث إليه الرسول مرّة أُخرى، يقول: «المسألة حدّيّة، لا مرض في هذه الحالة، إمّا أن تكون معنا، وإمّا أن تكون عدوّنا».

بمجرّد أن يتلقّى هذه الرسالة ويعرف أنّ المسألة حدّيّة يقوم شبث بن ربعي يلبس ما كان يلبسه، ثمّ يخرج متّجهاً إلى عبيد الله بن زياد وهو يقول: «لبّيك»[٢].

هذه الاستجابات من هذا الطرف وذاك البرود وتلك السلبيّة من ذلك الطرف هو أكبر دليل على هذا المرض.

---

(١) وقعة صفّين: ٢٩٤؛ أنساب الأشراف ٢: ٣٤٠.

(٢) «أمّا شبث فاعتلّ بمرض، فقال له ابن زياد: أ تتمارض؟ إن كنت في طاعتنا فاخرج إلى قتال عدوّنا. فلمّا سمع شبث ذلك خرج» الأخبار الطوال: ٢٥٤؛ الفتوح ٥: ٨٩. وكان شبث قد استجاب قبل ذلك لطلب ابن زياد في تفريق الناس عن مسلم بن عقيل، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٦٩ ـ ٣٧٠؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٥٢ ـ ٥٣؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٩٨.

المشهد السابع: محنة مسلم وهانئ:

والدليل الذي هو أكبر من هذا [هو] محنة مسلم وهانئ. محنة مسلم وهانئ التي يقلّ نظيرها في التاريخ، هذه المحنة تصوّر هذا المرض ـ وهو في قمّته، وهو في شدّته ـ بأروع تصوير، أو بأفظع تصوير.

قد يذهب وهمُ الإنسان إلى أنّ مسلم بن عقيل كيف استطاع ـ أو كيف اتّفق له ـ أن يفرّط بكلّ هذه القوى الضخمة التي كانت بين يديه؟! كيف فرّط بهذه القوى الشعبيّة التي بين يديه؟ بين عشيّة وضحاها بقي وحيداً فريداً يتسكّع في الطرقات؟! كيف فرّط بمثل هذه القوى؟ كيف لم يستثمر هذه القوى في معركته مع عبيد الله بن زياد؟!

في الواقع: إنّ هذه القوى لم تكن قوىً إلّا على الورق، لم تكن هذه القوى قوىً إلّا في سجلّ تسجيل الأسماء حينما سجّل الأسماء فبلغت ثمانية عشر ألفاً[١]، أو بلغت عشرين ألفاً[٢]، أو بلغت ثلاثين ألفاً[٣]، كانت قوىً على الورق؛ وذلك لأنّ هؤلاء الثمانية عشر ألفاً أو العشرين ألفاً كانوا جزءاً من هذه الاُمّة الميّتة، من هذه الاُمّة المنهارة.

هذا الانهيار العجيب المفاجئ في لحظة، هذا الانهيار العجيب المفاجئ في ساعة هو يعكس تلك الهزيمة المسبقة.. هذه الهزيمة وراءها هزيمة: هزيمة النفس، هزيمة الوجدان، هزيمة الضمير، تلك الهزيمة في النفس والوجدان

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٣؛ أنساب الأشراف ٢: ٨٠؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٧٥.

(٢) الوارد في كتاب مسلم بن عقيل إلى الإمام الحسين عليه السلام يبشّره فيه بمبايعة أهل الكوفة له بحسب نقل ابن الأعثم: «نيّف وعشرون ألفاً» (الفتوح ٥: ٤٥).

(٣) المختصر في أخبار البشر ١: ٢٣٥؛ وانظر: ديوان المبتدأ والخبر (ابن خلدون) ٣: ٢٩، الهامش، نقلاً عنه.

والضمير هي أساس هذه الهزيمة[١].

أ ـ عبيد الله بن زياد يبعث على هانئ بن عروة، يقول له: «تعالَ زر الأمير، الأُمراء لا يطيقون الجفاء، لماذا أنت منقطع عن الأمير؟»، هذا في الوقت الذي [كان فيه][٢] مسلم بن عقيل موجوداً في بيت هانئ بن عروة، والشيعة يذهبون إلى زيارة مسلم متستّرين كما سوف نذكر بعد هذا إن شاء الله [غداً][٣].

---

(١) أي: «الانهيار العجيب المفاجئ في ساعة».

(٢) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٣) في المحاضرة العشرين، تحت عنوان: أساليب تحويل أخلاقيّة الهزيمة إلى أخلاقيّة الإرادة دون استفزازها، الأُسلوب الأوّل.

ومن القضايا التي لم يتعرّض لها الشهيد الصدر‏ في هذه المحاضرات وتعرّض لها في بعض أجوبته الخطيّة: عيادة عبيد الله بن زياد شريك بن الأعور عندما كان الأخير مع مسلم بن عقيل في دار هانئ بن عروة؛ حيث أرسل عبيد الله بن زياد إلى شريك أنّه رائحٌ إليه العشيّة، فقال لمسلم: «إنّ هذا الفاجر عائدي العشيّة، فإذا جلس فاخرج إليه فاقتله، ثمّ اقعد في القصر، ليس أحدٌ يحول بينك وبينه، فإن برئتُ من وجعي هذا أيّامي هذه سرت إلى البصرة وكفيتك أمرها». فلمّا كان من العشي أقبل عبيد الله لعيادة شريك، فقام مسلم بن عقيل ليدخل، وقال له شريك: «لا يفوتنّك إذا جلس»، فقام هانئ بن عروة إليه فقال: «إنّي لا أحبّ أن يقتل في داري» (كأنّه استقبح ذلك)، فجاء عبيد الله بن زياد فدخل فجلس... إلى أن قام وانصرف. فخرج مسلم، فقال له شريك: «ما منعك من قتله؟»، فقال: «خصلتان: أمّا إحداهما فكراهة هانئ أن يُقتل في داره، وأمّا الأخرى فحديثٌ حدّثه الناس عن النبي‏: إنّ الإيمان قيّد الفتك، ولا يُفتك مؤمن، فقال هانئ: أما والله لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً، ولكنْ كرهتُ أن يقتل في داري»، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٦٣.

وقد سئل الشهيد الصدر‏ عن هذه الحادثة السؤالَ التالي: «هل هناك قيمة فقهيّة للمروي تاريخيّاً عن مسلم بن عقيل‏: أنّ الذي منعه من قتل عبيد الله بن زياد غدراً هو حديث علي عن رسول الله‏: إنّ الإيمان قيّد الفتك، فلا يفتك مؤمن»، فأجاب بما يلي: «لا توجد قيمةٌ فقهيّةٌ لهذا المرويّ تاريخيّاً، وأكبرُ الظنّ أنّ إحجام مسلم عن قتل عبيد الله بن زياد كان بسبب [تشكيكه] في موضوعيّة الاقتراح الذي طُرح عليه ومدى جديّة الضيف المقترح والمضيف في التجاوب معه؛ إذ كان الأحرى بهم في موقف من هذا القبيل أن يبادروا إلى التخطيط لقتل ابن زياد بدلاً عن توريط مسلم في المباشرة بنفسه والكشف عن وضعه بصورة مطلقة» محمّد باقر الصدر.. السيرة والمسيرة

هانئ بن عروة يأتي إلى عبيد الله بن زياد، فعبيد الله بن زيّاد يتّهمه بأنّ مسلماً موجودٌ عندك، وأنّك تفكّر في الخروج وشقّ عصا الطاعة، هانئ بن عروة يصطدم مع عبيد الله بن زياد، يقول له بـ«أنّي لا أدري أين مسلم»، يقول: «لا بدّ لك أن تجده»، يقول: «لو أنّ مسلماً كان تحت قدمي لَمَا رفعت قدمي»، ثمّ يقدّم له نصيحة بكلّ قوّة، بكلّ شجاعة.

هذا هو من الأفراد القلائل الذين استطاعت حركة الحسين أن تكشفهم في مجموع هذه الاُمّة الميْتة، قال: «لي نصيحة، نصيحة لك»، قال: «وما هي هذه النصيحة؟» ـ انظروا إلى شخص يقف بين يَدَي أميرٍ يقدّم إليه النصيحة ـ، قال: «النصيحة أن تذهب أنت وأهل بيتك، وتحمل معك كلَّ ما لديك من أموال إلى الشام سالماً صحيحاً، لا شغل لنا بك».

كان هانئ بن عروة يتكلّم وهو يتخيّل أنّ له رصيداً، وأنّ عشرات الآلاف من خلفه سوف تنفّذ إرادته إذا أصبحت هذه الإرادة في موضع التنفيذ، إذا أصبحت بحاجة إلى التنفيذ.

حينما اشتدّ غضب عبيد الله بن زياد، وحينما غضب هانئ، حينما أمر بأن يُحبس هانئ، انعكس الخبر في الكوفة بأنّ هانئاً قتل، في معرض القتل.

جاء عمرو بن الحجّاج ـ الذي تكلّمنا عنه[1] ـ وجاء معه أربعة آلاف إنسان من عشيرته لكي يتفقّدوا أحوال هانئ بن عروة، جاؤوا، وقفوا بباب القصر يطالبون بحياة هانئ بن عروة.

في حقائق ووثائق ٣: ٣٦، الوثيقة ٢٠٣. وراجع كلاماً آخر له صلى الله عليه وآله حول الموضوع نفسه ممّا نقل عنه ولم يصلنا بخطّه في: المصدر نفسه: ٢: ٤٠١ ـ ٤٠٢.

(١) ضمن الحديث عن المشهد السادس من هذه المحاضرة، و«كانت روعة اُخت عمرو بن الحجّاج تحت هانئ بن عروة» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٦٤، وقيل: «رويحة بنت عمرو» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٤٦؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٩٣.

عبيد الله بن زياد يبعث على من؟ يبعث على شريح القاضي. هذا قاضٍ، باعتباره قاضياً لا بدّ وأن تتوفّر فيه الشرائط المطلوبة في مثل هذا المنصب، [فـ]ـهو يعتبر شاهداً ثقة إذا استعمل شهادته.

بعث على شريح القاضي، قال له: «تعال ادخل إلى الغرفة ـ الغرفة التي سُجن فيها هانئ ـ، اُنظر إليه حيّاً، واشهد أمام هؤلاء بأنّ هانئاً حيّ».

دخل شريح القاضي إلى الغرفة، رأى أنّ هانئاً حيّ، يقول شريح القاضي (لعنة الله عليه): «بمجرّد أنْ دخلت إلى الغرفة ورأيت هانئ بن عروة صاح في وجهي، قال: أين ذهب المسلمون؟! أين ذهب المسلمون؟! لو أنّ عشرةً يهجمون على القصر الآن لأنقذوني»[١]، لأنّ القصر ليس فيه شرطة، ليس فيه جيش.

لو أنّ عشرةً يهجموا على القصر اليوم، يعني: لو أنّ عشرة كانوا مستعدّين لأنْ يموتوا في سبيل الله، عشرة فقط، لو كانوا مستعدّين لأنْ يموتوا في سبيل الله، لتغيّر وجه الكوفة يومئذٍ؛ لأنّ البيت ليست فيه شرطة.

ولكنّ الشرطة كانت أوهام هذه الاُمّة التي فقدت شجاعتها وإرادتها. هذه الاُمّة التي فقدت شخصيّتها خُيِّل لها أنّ هذا القصر هو جبروت الحكّام، هذا القصر هو المعقل الذي لا يمكن اجتيازه، بينما هذا القصر كان أجوف؛ لم يكن فيه شرطة ولا جيش، لم يكن فيه سلاحٌ بالقدر الكافي الذي يمكن أن يصمد أمام عشرة فقط.

قال: «أين ذهب المسلمون؟ عشرة فقط، عشرة فقط يكفون لإنقاذي، يكفون للقضاء على هذا القصر، يكفون لاحتلال هذا القصر، عشرة، دبّر لي عشرة».

---

(١) «يا شريح!..إن دخل عليَّ عشرة نفر أنقذوني» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٦٨.

شريح القاضي يقول: «أنا رجعت، رجعت إلى عمرو بن الحجّاج وأنا مكلَّف بأن أُؤدّي الشهادة الشرعيّة بأنّ هانئ بن عروة حيّ؛ حتّى يرجع عمرو بن الحجّاج»؛ لأنّ عمرو بن الحجّاج والأربعة آلاف الذين جاؤوا معه قصارى همّهم أن يكون هذا حيّاً، ليس لهم همٌّ وراء أن يكون هذا حيّاً، يقول: «رجعت، فهممت أن اُبلّغ عبارة هانئ بن عروة لعمرو بن الحجّاج، أن أقول له: إنّ هانئاً يطلب عشرة، عشرة».. يقول: «لو أنّ عشرةً يهجمون على هذا (البُعبُع)[١]، على هذا الشبح الرهيب الذي يكمن فيه عبيد الله بن زياد لتمزّق، لتمزَّق هذا الشبح وتحطّم هذا (البُعبُع)». يقول: «هممت، ثمّ التفتّ إلى أنّ شرطي عبيد الله بن زياد[٢] واقف إلى جنبي، فسكتّ». وأدّى الشهادة المطلوبة منه رسميّاً وحكوميّاً بأنّ هانئاً حيّ، ورجع عمرو بن الحجّاج، وقتل [هانئ][٣][٤].

ب ـ مسلم بن عقيل بنفسه يخرج مع أربعة آلاف شخصٍ يطوّقون قصر الإمارة.

عبيد الله بن زياد ليس معه إلّا ثلاثون [من الشرطة][٥] ـ على ما تقول الرواية[٦] ـ وعشرون من الأشراف، من أشراف الكوفة.

مسلم بن عقيل معه أربعة آلاف[٧]، لكنْ أربعة آلاف ليس لهم قلوب،

(١) «بُع بُع: من حكاية الصبيان» (تاج العروس من جواهر القاموس ١١: ٢٥)، وهي هنا بمعنى الأمر المرعب والمخيف.

(٢) وهو: حميد بن بكير الأحمري.

(٣) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٤) الأخبار الطوال: ٢٣٦ ـ ٢٣٨؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٦٤ ـ ٣٦٨.

(٥) ما بين عضادتين أخّره قدس سره توضيحاً، فقدّمناه.

(٦) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٦٩؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٠.

(٧) أنساب الأشراف ٢: ٨٠؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٠؛ البداية والنهاية ٨: ١٥٤.

ليس لهم أيدٍ، ليس لهم إرادة.

اقرؤوا أسماء قادة مسلم بن عقيل في هذه المعركة: هؤلاء الأربعة آلاف فيهم جماعة من كبار يوم عاشوراء، لكنّهم انهزموا جميعاً، لم يبقَ مع مسلم واحدٌ أبداً[١]. يعني: إنّ حركة الحسين هي بنفسها صنعت هؤلاء، هي بنفسها صعّدت هؤلاء، هؤلاء السبعون الذين استشهدوا مع الحسين عليه السلام كان عددٌ منهم نتاجَ محنة حركة سيّد الشهداء، وإلّا: لماذا انهزموا؟ على الأقلّ يبقى معه هذا الشخص الذي يعرف الطريق، صلّى في المسجد، تفرّق الناس[٢].

يقول التاريخ: بأنّه كانت تأتي المرأة فتنتزع زوجها وأباها وأخاها وتقول: «ما لك وعمل السلاطين»[٣]، تأتي المرأة وتنتزه [رَجُلَها].

هذا نهاية فقدان الإرادة [عندما] الرجل يذوب، يتميّع؛ لأنّ امرأةً واحدةً تأتي وتنتزعه انتزاعاً.

هذه المرأة هي نفسها تلك المرأة التي وقفت بعد الإمام الحسين عليه السلام تلك الوقفات العظيمة على طول الخطّ.. هذه المرأة هي نفس تلك المرأة التي أحبطت مؤامرةَ إمارة عمر بن سعد حينما مات يزيد بن معاوية، وبويع من قبل الأُمويّين في الكوفة لعمر بن سعد مؤقّتاً، عمر بن سعد أصبح أميراً على الكوفة، من الذي أسقط إمارة عمر بن سعد؟

---

(١) «تفرّق عنه الباقون حتّى بقي وحده يتلدّد في أزقّة الكوفة ليس معه أحد» أنساب الأشراف ٢: ٨١.

(٢) «فدخل مسلم بن عقيل المسجد الأعظم ليصلّي المغرب، وتفرّق عنه العشرة» الفتوح ٥: ٥٠.

(٣) «إنّ المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، الناس يكفونك» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٧١؛ مقاتل الطالبيّين: ١٠٤؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٩٨. وفي: الأخبار الطوال: ٢٣٩ أنّه قول الرجل لابنه وأخيه وابن عمّه، وفي: البداية والنهاية ٨: ١٥٥: «فجعلت المرأة تجيء إلى ابنها وأخيها وتقول له: ارجع إلى البيت، الناس يكفونك، ويقول الرجل لابنه وأخيه: كأنّك غداً بجنود الشام قد أقبلت، فماذا تصنع معهم؟».

أسقطته تلك المرأة التي كانت تذهب إلى زوجها وأبيها وأخيها [(١)] تنتزعهم انتزاعاً، وتقول لهم: «لا شغل لك مع السلاطين»، هذه المرأة بنفسها قامت بمظاهرة، وقفت أمام عمر بن سعد تندب الحسين وتصيح: «إنّ قاتل الحسين لا يمكن أن يكون أميراً في الكوفة»، حتّى سقط عمر بن سعد [(٢)].

المشهد الثامن: التناقض بين عمل الأُمّة وعواطفها:

وأعجب مظهر من مظاهر هذا الانهيار هو التناقض الذي كان يوجد بين قلب الأُمّة ـ بين عواطف الأُمّة ـ وعملها، هذا التناقض الذي عبّر عنه الفرزدق بقوله للإمام الحسين عليه السلام: «إنّ قلوبهم معك وسيوفهم عليك» [(٣)]، لا أنّ جماعةً قلوبهم معك وجماعة أُخرى سيوفهم عليك، [بل] الوحدات الثمانية في التناقض [(٤)] [كلّها محفوظة، ولكن مع هذا لا تناقض؛ لأنّ هذا الشخص الذي لا يملك إرادته يمكن أن تتحرّك يده على خلاف قلبه، على خلاف عاطفته [(٥)]، ولهذا] [(٦)] كنّا نراهم يبكون ويقتلون الإمام الحسين.

(١) إلى هنا ينتهي أكثرُ ما وصلنا من المحاضرة الصوتيّة، وما يأتي أثبتناه من (ح).

(٢) «فلمّا همّوا بتأميره أقبل نساء من همدان وغيرهنّ من نساء كهلان والأنصار وربيعة والنخع حتّى دَخَلْنَ المسجد الجامع صارخات باكيات مُعوِّلات يندبن الحسين، ويقلن: أما رضي عمرو بن سعد بقتل الحسين حتّى أراد أن يكون أميراً علينا على الكوفة، فبكى الناس، وأعرضوا عن عمرو» مروج الذهب ٣: ٨٥.

(٣) المعروف أنّه قولُ الفرزدق، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٤٥؛ مقاتل الطالبيّين: ١١١؛ دلائل الإمامة: ٧٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٦. وقد نسب إلى بشر بن غالب الأسدي (الفتوح ٥: ٧٠) ومجمع بن عبدالله العائذي [أنساب الأشراف ٣: ١٧٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٥؛ تجارب الأُمم ٢: ٦٥؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٩].

(٤) كلامه قدس سره ناظرٌ إلى ما يُذكر في المنطق من أنّ التناقض لا يتصوّر إلّا بعد تحقّق ثمانية أُمور عرفت بـ(الوحدات الثمانية)، وهي: وحدة الموضوع، المحمول، المكان، الشرط، الإضافة، الكل والجزء، القوّة والفعل، وآخرها: وحدة الزمان، فراجع: الحاشية على تهذيب المنطق: ٣١٥.

(٥) سيتجدّد الحديث حول هذه المسألة في المحاضرة الحادية والعشرين.

(٦) ما بين عضادتين مثبت في المحاضرة الصوتيّة.

هؤلاء كانوا يبكون ويقتلون الإمام الحسين لأنّهم يشعرون بأنّهم بقتلهم للإمام الحسين يقتلون مجدهم، يقتلون آخر آمالهم، يقتلون البقيّة الباقية من تراث الإمام علي.. هذه البقيّة التي كان يعقد عليها كلّ الواعين من المسلمين الأملَ في إعادة حياة الإسلام، في إعادة الحياة إلى الإسلام، كانوا يشعرون بأنّهم يقتلون بهذا الأملَ الوحيدَ الباقي للتخلّص من الظلم القائم، ولكنّهم مع هذا الشعور لم يكونوا يستطيعون إلّا أن يقفوا هذا الموقف ويقتلوا الإمام الحسين، قتلوا الإمام الحسين وهم يبكون.

قاتلُ الحسين عليه السلام هو قاتل أهدافه، والبكاء عليه غير كافٍ:

وأسأل الله أن لا يجعلنا نقتل الإمام الحسين ونحن نبكي، أن لا يجعلنا نقتل أهداف الحسين ونحن نبكي.

الإمام الحسين ليس إنساناً محدوداً عاش من سنة كذا ومات في سنة كذا.. الإمام الحسين هو الإسلام ككلّ، الإمام الحسين هو كلُّ هذه الأهداف التي ضحّى من أجلها هذا الإمام العظيم، هذه الأهداف هي الإمام الحسين؛ لأنّها هي روحه، وهي فكره، وهي قلبه، وهي عواطفه، كلّ مضمون الإمام الحسين [هو] هذه الأهداف، [هو] هذه القيم المتمثّلة في الإسلام.

فكما أنّ أهل الكوفة كانوا يقتلون الحسين وهم يبكون، فهناك خطرٌ كبيرٌ في أن نُمنى نحن بنفس المحنة، أن نقتل الحسين ونحن نبكي، يجب أن نشعر بأنّنا يجب أن لا نكون على الأقلّ قتلةً للحسين ونحن باكون.

البكاء لا يعني أنّنا غير قاتلين للحسين؛ لأنّ البكاء لو كان وحده يعني أنّ الإنسان غير قاتل للحسين إذاً لما كان عمر بن سعد قاتلاً للحسين؛ لأنّ عمر بن سعد بنفسه بكى.

حينما جاءت زينب (عليها الصلاة والسلام) [و]مرّت في موكب السبايا،

في الضحايا، حينما التفتت إلى أخيها، حينما اتّجهت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله تستنجده، أو تستصرخه، أو تخبره عن جثّة الإمام الحسين وهي بالعراء، عن السبايا و[هنّ مشتّتات]، عن الأطفال وهم مقيّدون، حينما أخبرت جدّها صلى الله عليه وآله بكلّ ذلك ضجّ القتلة كلّهم بالبكاء، بكى السفّاكون، بكى هؤلاء الذين أوقعوا هذه المجازر، بكوا بأنفسهم[1].

إذاً، فالبكاء وحده ليس ضماناً، العاطفة وحدها ليست ضماناً لإثبات أنّ هذا ـ صاحب العاطفة ـ لا يقف موقفاً يقتل فيه الإمام الحسين، أو يقتل فيه أهداف الإمام الحسين.

لا بدّ من امتحان، لا بدّ من تأمّل، لا بدّ من تدبّر، لا بدّ من تعقّل؛ لكي نتأكّد من أنّنا لسنا قتلةً للإمام الحسين.

مجرّد أنّنا نحبّ الإمام الحسين، مجرّد أنّنا نزور الإمام الحسين، مجرّد أنّنا نبكي على الإمام الحسين، مجرّد أنّنا نمشي إلى زيارة الإمام الحسين، كلّ هذا شيء عظيم، شيء جيّد، شيء ممتاز، شيء راجح، لكنّ هذا الشيء الراجح لا يكفي ضماناً ودليلاً لكي يثبت أنّنا لا نساهم في قتل الإمام الحسين؛ لأنّ بالإمكان لإنسانٍ أن يقوم بكلّ هذا عاطفيّاً وفي نفس الوقت يساهم في قتل الإمام الحسين.

يجب أن نحاسب أنفسنا، يجب أن نتأمّل في سلوكنا، يجب أن نعيش

---

(١) «فَلَطَمْن النسوة وصِحْنَ حين مررن بالحسين، وجعلت زينب بنت علي تقول: يا محمّداه! صلّى عليك مليك السماء، هذا حسين بالعراء، مرمّل بالدماء، مقطّع الأعضاء، يا محمّداه! وبناتك سبايا وذريّتك مقتّلة تسفي عليها الصبا! فأبكت كلّ عدوّ ووليّ» أنساب الأشراف ٣: ٢٠٦؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٦. وقد تقدّمت الإشارة إلى بكاء ابن سعد ويزيد في المحاضرة السابعة عشرة، تحت عنوان: مبرّرات الإمام الحسين عليه السلام في اختيار الموقف الرابع، الموقف الثاني. وستتجدّد الإشارة إلى ذلك في المحاضرة الحادية والعشرين، تحت عنوان: كيف يمكن أن نكون قتلةً للحسين عليه السلام؟

موقفنا بدرجة أكبر من التدبّر والعمق والإحاطة والانفتاح على كلّ المضاعفات والملابسات؛ لكي نتأكّد من أنّنا لا نمارس ـ من قريبٍ أو بعيدٍ، بشكلٍ مباشرٍ أو بشكلٍ غير مباشر ـ قتلَ الإمام الحسين عليه السلام[1].

* * *

(١) انتهى ما أثبتناه من (ح).



التحوّل من أخلاقيّة الهزيمة إلى أخلاقيّة الإرادة

أُلقيت في ١٧ شهر صفر ١٣٨٩هـ

الأُمّة حينما تنهزم وتُنتزع منها شخصيّتها وتموت إرادتها تنسج بالتدريج ـ كما قلنا[1] ـ أخلاقيّةً معيّنةً تنسجم مع الهزيمة النفسيّة التي تعيشها بوصفها أُمّة بدون إرادة، أُمّة لا تشعر بكرامتها وشخصيّتها.

بالرغم من وضوح الطريق وجلاء الأهداف وقدرتها على التمييز المنطقي بين الحقّ والباطل، وبالرغم من أنّ أُطروحة معاوية كانت قد تكشّفت كأُطروحةٍ جاهليّةٍ في ثوب الإسلام، وأنّ أُطروحة عليّ عليه السلام كان قد اتّضح أنّها التعبير الأصيل عن الإسلام في معركة ثانية مع الجاهليّة، بالرغم من وضوح كلّ ذلك بعد الهدنة التي أعلنها الإمام الحسن عليه السلام، بدأت الأُمّة ـ نتيجةً لفقدان إرادتها ـ تنسج أخلاقيّةً معيّنةً تنسجم مع هزيمتها النفسيّة والروحيّة والأخلاقيّة.

الإمام الحسين عليه السلام بين أخلاقيّة الهزيمة وأخلاقيّة الإرادة:

وبهذا كان الإمام الحسين عليه السلام بين أخلاقيّتين: بين أخلاقيّة الهزيمة التي تعيشها الأُمّة الإسلاميّة قبل أن تُهزم فعليّاً يوم عاشوراء، و[بين] الأخلاقيّة الأُخرى التي كان يريد أن يبثّها وأن ينشرها في الأُمّة الإسلاميّة، أخلاقيّة الإرادة والتضحية والعزيمة والكرامة.

كان الإمام الحسين عليه السلام يواجه تلك الأخلاقيّة التي ترسّخت، ورسّخت

(١) في المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: المشهد الثالث، كيف تبرّر الأُمّة المهزومة هزيمتها. وسيتجدّد الحديث عن ذلك في المحاضرة الحادية والعشرين.

من المفاهيم عن العمل و(السلب والإيجاب) و(الإثبات والنفي) ما يشلُّ طاقات التحرّك، وكان يريد أن يغيّر تلك الأخلاقيّة دون أن يستفزّها.

أ ـ كان يواجه الأخلاقيّة التي تمثّلت في كلامٍ للأحنف بن قيس ـ كما قلنا بالأمس[١] ـ حينما وصف المتحرّكين في ركاب الإمام الحسين بأنّهم أُولئك «الذين لا يوقنون»، و[بأنّهم] أُولئك الأشخاص الذين يتسرّعون قبل أن يتثبّتوا من وضوح الطريق.

هذا المفهوم من الأحنف بن قيس كان يعبّر عن موقف أخلاقيّة الهزيمة من التضحية، [وهو] أنّ التضحية والإقدام على طريقٍ قد يؤدّي إلى الموت [هو] نوعٌ من التسرّع وقلّة الأناة، والخروجِ عن العرف المنطقي للسلوك.

هذا المفهوم هو معطى أخلاقيّة الهزيمة، هذا المفهوم الذي تبدّل بعد حركة الحسين عليه السلام و[حلّ] بديله، [أي] مفهومُ التضحية، الذي على أساسه قامت حركة التوّابين، حركةُ أربعةِ آلافٍ لا يرون لهم هدفاً في طريقهم إلّا التضحية؛ لكي يكفّروا بذلك عن سيّئاتهم وموقفهم السلبي تجاه الإمام الحسين[٢].

ب ـ أخلاقيّة الهزيمة هي هذه الأخلاقيّة التي انعكست في كلامٍ لأخي الحسين عمر الأطرف، حينما قال للإمام الحسين عليه السلام: «أنْ تبايع يزيد خيرٌ لك من أن تقتل»[٣]، من أن تموت.

أخلاقيّة الهزيمة هذه هي التي تبدّلت بعد هذا خلال خطّ حركة الحسين عليه السلام، وانعكست في مفهومٍ لعليٍّ بن الحسين حينما قال لأبيه: «أوَ لسنا

(١) في المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: المشهد الثالث.

(٢) «كان منهم بالكوفه زهاء عشرين ألف رجل» الأخبار الطوال: ٢٨٨. وانظر: تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٨، [ثورة المختار]؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٦: ٣٨، ذكر الخبر عن أمر المختار مع قتلة الحسين بالكوفة.

(٣) اللهوف على قتلى الطفوف: ٢٦ ـ ٢٧، وهو عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

على الحقّ؟»، قال: «بلى»، قال: «إذاً لا نبالي، أوَقعنا على الموت أو وقع الموت علينا»[(١)].

ج ـ أخلاقيّة الهزيمة التي كان يواجهها الإمام الحسين عليه السلام هي الأخلاقيّة التي انعكست في كلامٍ لمحمّد بن الحنفيّة حينما كان ينصح الإمام الحسين ويقول له: «إنّ أخشى ما أخشى أن تدخل إلى مصرٍ وبلدٍ من بلاد المسلمين فيختلف عليك المسلمون، فبعضٌ يقفون[(٢)] معك وبعضٌ يقفون ضدّك، ويقع القتال بين أنصارك و[أعدائك]، فتكون أضيع الناس دماً، الأفضل من ذلك أن تقف بعيداً عن المعترك، ثمّ تبثّ رسُلك وعيونك في الناس، فإن استجابوا فهو، وإلّا كنت في أمنٍ من عقلك ودينك وفضلك ورجاحتك»[(٣)].

هذه هي أخلاقية الهزيمة التي تحوّلت في ما بعد.. حينما أصبح دمُ الحسين عليه السلام ـ هذا الدم الذي كان يتصوّره محمّد بن الحنفيّة أنّه سوف يكون أضيع دم ـ مفتاحَ تحريك الأُمّة حينما قال المختار في سجن عبيد الله بن زياد: «إنّي أعرف كلمةً أستطيع بها أن أملك العرب»[(٤)]؛ هذا الدم الذي كان يتصوّره

---

(١) «ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذي إليه مرجع العباد، قال: يا أبت، إذاً لا نبالي، نموت محقّين» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٨؛ مقاتل الطالبيّين: ١١٢؛ الكامل في التاريخ ٤: ٥١.

(٢) أو «يقف».

(٣) تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤١ ـ ٣٤٢؛ الفتوح ٥: ٢٠.

(٤) لم نعثر على هذه الصيغة، ولكن بعد خروجه من السجن قال المختار لابن الزبير: «إنّي لأعرف قوماً لو أنّ لهم رجلاً له رفقٌ وعلمٌ بما يأتي لاستخرج لك منهم جنداً تغلب أهل الشام»، فقال: «من هم؟»، قال: «شيعة بني هاشم بالكوفة» مروج الذهب ٣: ٧٣. وربما عرف المختار ذلك ممّا قاله له ميثم التمّار رحمه الله إذ جمعهما سجنُ عبيد الله بن زياد: «إنّك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين عليه السلام، فتقتل هذا الجبّار الذي نحن في حبسه، وتطأ بقدمك هذا على جبهته وخدّيه» الغارات ٢: ٧٩٩؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ٣٢٤؛ شرح نهج البلاغة ٢: ٢٩٣. نعم، روي أنّ المختار قال لعمّه سعد بن مسعود الثقفي لمّا أتى الإمام الحسن عليه السلام قصر المدائن: «هل لك في أمر تسود به العرب؟»، قال: «وما هو؟»، قال: «تدعني أضرب عنق هذا [يعني الحسن عليه السلام] وأذهب برأسه إلى معاوية» الطبقات الكبرى ٥: ١: ٢٨٦.

أنّه أضيع دمٍ أصبح هو مفتاح السلطان والسيطرة على المنطقة كلّها.

د ـ أخلاقيّة الهزيمة هي الأخلاقيّة التي عبّر عنها الأمير الأُموي يزيد بن معاوية في رسالةٍ له إلى عبيد الله بن زياد[١]، يقول له في الرسالة: «إنّ آل أبي طالب أسرع ما يكونون إلى سفك الدماء»[٢].

هذا التعبير في الواقع هو ظاهرة من ظواهر أخلاقيّة الهزيمة، حينما تبرز أخلاقيّة الهزيمة وتترسّخ وتتعمّق، تتحوّل كلُّ محاولة جدّيّة لمقابلة الظلم والظالمين إلى نوعٍ من السفك والقتل في نظر المثبّطين والمجمّدين.

هذه الأخلاقيّة هي التي يريد الإمام الحسين عليه السلام أن يحوّلها إلى أخلاقيّة التضحية والإرادة، إلى الأخلاقيّة الإسلاميّة الصحيحة التي تمكّن الإنسان المسلم من أن يقف موقفه الإيجابي والسلبي وفقاً لما تقرّره الشريعة الإسلاميّة إيجاباً وسلباً.

هزُّ ضمير الأمّة دون استفزاز أخلاقيّة الهزيمة:

وفي عمليّة التحويل هذه كان الإمام الحسين يواجه أدقّ مراحل عمله؛ وذلك لأنّه في نفس الوقت الذي يريد أن يبثّ في جسم الأُمّة وفي ضميرها ووجدانها أخلاقيّةً جديدة، كان [يحرص][٣] في نفس الوقت على أن لا يخرج خروجاً واضحاً عن الأخلاقيّة التقليديّة التي عاشتها الأُمّة نتيجةً لهزيمتها الروحيّة، كان يحرص على أن لا يخرج بشكلٍ واضح ومثيرٍ عن تلك الأخلاقيّة المحنّطة التي عاشتها الأُمّة؛ وذلك لأنّه كان يريد أن يخلق وينشئ

---

(١) بل إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

(٢) نصُّ ابن الأعثم في: الفتوح ٥: ١٠: «أوصاني أن أحدث آل أبي تراب بآل أبي سفيان؛ لأنّهم أنصار الحق وطلّاب العدل»، وفي: مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٦٢ نقلاً عن ابن أعثم: «أوصاني أن أحذَرَ آل أبي تراب وجرأتهم على سفك الدماء»، وربما نقله عن غير (الفتوح).

(٣) في (ح) و(غ) و(ش): «يحاسب»، وهي بالعاميّة، ويُقصد منها ما أثبتناه؛ بقرينة ما يأتي.

الأخلاقيّة الجديدة عن طريق هزّ ضمير الأُمّة الإسلاميّة، ولم يكن بإمكانه أن يهزّ ضمير الأُمّة الإسلاميّة إلّا إذا قام بعملٍ مشروعٍ في نظر هذه الأُمّة الإسلاميّة التي ماتت إرادتها وتغيّرت أخلاقيّتها، والتي أصبحت تعيش هذه المفاهيم التي انعكست في كلمات هؤلاء الذين تحدّثنا عنهم.

كان لا بدّ أن يراعي الإمام الحسين عليه السلام في سيره وتخطيطه هذه الأخلاقيّة وأن لا يستفزّها؛ لكي يبقى محتفظاً لعمله بطابع المشروعيّة في نظر المسلمين، الذين ماتت أخلاقيّتهم الحقيقيّة وتبدّلت مفاهيمهم عن العمل والسلب والإيجاب.

تخطيط الإمام الحسين عليه السلام لعمليّة التحويل:

كان الإمام الحسين عليه السلام في الواقع قد اتّخذ منذ البدء موقفاً إيجابيّاً واضحاً صريحاً بينه وبين ربّه، كان قد صمّم منذ اللحظة الأُولى على أن يخوض المعركة مهما كلّفه الأمر على جميع الأحوال والتقادير، وأن يخوضها إلى آخر الشوط وإلى أن يضحّي بآخر قطرةٍ من دمه، كان يفكّر تفكيراً إيجابيّاً مستقلّاً في ذلك، لم يكن يتحرّك نتيجةً لردود فعلٍ من الأُمّة، بل كان هو يحاول أن يخلق ردود الفعل المناسبة لكي يتحرّك.

ومن أدلّة ذلك:

أ ـ أنّ الإمام الحسين عليه السلام بدأ بنفسه الكتابة إلى زعماء قواعده الشعبيّة في البصرة[1].

نعم، لم يروِ لنا التاريخ أنّه كتب ابتداءً بشكلٍ مكشوفٍ واضحٍ إلى زعماء

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٧؛ الفتوح ٥: ٣٧. وقد تقدّم الحديث عن رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى زعماء البصرة، فراجع: المحاضرة التاسعة عشرة، مشاهد موت الإرادة في المجتمع الحسيني، المشهد الثالث.

قواعده الشعبيّة في الكوفة(١)، ولكنّ التاريخ حدّث بأنّه كتب وابتدأ بالحديث والتحريك لقواعده الشعبيّة في البصرة، وأعلن في رسالته لهم أنّه قد قرّر الخروج على سلطان بني اُميّة، قال لهم بأنّ هذا الحقّ هو حقُّ هذا الخطّ الذي يمثّله هو ويمثّله أخوه وأبوه عليهما السلام، إلّا أنّه سكت وسكت أبوه وأخوه حينما كان الكتاب والسنّة تراعى حرمتهما.

أمّا حينما انتهكت حرمة الكتاب وحرمة السنّة، حينما اُميتت السنّة، حينما اُحييت البدع، حينما انتشر الظلم، لا بدّ لي أن أتحرّك، ولا بدّ لي أن اُغيّر، ولا بدّ لكم أن تحقّقوا في هذا الموقف درجة تفاعلكم مع رسالتكم. قال ذلك بوضوح، وطلب منهم بشكلٍ ابتدائيٍّ الالتفافَ حول حركته.

وهذا يعني أنّ الإمام الحسين لم يكن في موقفه يعبّر عن مجرّد استجابةٍ لردود فعلٍ عاطفيّةٍ أو منطقيّةٍ في الاُمّة، بل كان هو قد بدأ منذ اللحظة الاُولى في تحريك الاُمّة نحو خطّته وخطّ عمله.

ب ـ موقفه من والي المدينة(٢) أيضاً واضحٌ في ذلك، حينما استُدعي من قبل والي المدينة وعرض عليه الوالي في نصف الليل أن يبايع يزيد بن معاوية.

وحينما تكشّف لوالي المدينة أنّ امتناع الحسين عليه السلام عن البيعة هو بحسب الحقيقة لون من ألوان الرفض، صرّح بعد هذا الإمامُ الحسينُ بكلّ وضوح عن إيمانه بحقّه في الخلافة، وقال: «نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة»(٣). وكان هذا واضحاً في إعلانه العزمَ والتصميمَ على حركة مسلّحة ضدّ السلطان القائم وقتئذٍ.

(١) حيث كتب إلى أهالي الكوفة بعد أن وردته كتبهم، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٢٩؛ الإمامة والسياسة ٢: ٧؛ تاريخ الاُمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤٧.

(٢) هو: الوليد بن عتبة.

(٣) الفتوح ٥: ١٤؛ مثير الأحزان: ٢٤؛ اللهوف على قتلى الطفوف: ٢٢.

هذا التهديد، وتلك الرسالة الابتدائيّة لزعماء قواعده الشعبيّة في البصرة، إلى غير هذا وذاك من القرائن والدلائل.. تعبّر عن أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يخطّط تخطيطاً ابتدائيّاً لتحريك الأُمّة، وكان قد صمّم على أن يتحرّك مهما كانت الظروف والأحوال.

هذا واقع التخطيط.

شعارات الإمام الحسين عليه السلام في تبرير مخطّطه:

ولكنّ الإمام الحسين حينما كان يُلقي شعارات هذا التخطيط على هذه الأُمّة الإسلاميّة المهزومة أخلاقيّاً، المهزوزة روحيّاً، المتميّعة نفسيّاً، الفاقدة لإرادتها، حينما كان يلقي شعارات هذا التحرّك على هذه الأُمّة لم يكن في كلّ إلقاءاته صريحاً واضحاً محدّداً؛ وذلك لأنّه كان يجامل تلك الأخلاقيّةَ التي عاشتها الأُمّة الإسلاميّة، أخلاقيّةَ الهزيمة.

وكانت هذه المجاملة جزءاً ضروريّاً من إنجاح الحسين في هدفه؛ لأنّه إذا خرج عن هذه الأخلاقيّة فَقَدْ فَقَدَ بذلك عملُه طابعَ المشروعيّة في نظر أُولئك المسلمين، وبذلك يصبح هذا العمل غير قادر على أن يهزّ ضمير إنسان الأُمّة الإسلاميّة كما كان من المفروض أن يهزّه.

١ ـ الشعار الأوّل: حتميّة القتل:

كان الإمام الحسين يُعترض عليه، ويقال: «لِمَ تخرج؟».. يعترض عليه عبد الله بن الزبير وغيره، فيقول له: بأنّي «أنا أُقتل على كلّ حال، سواءٌ خرجت أو لم أخرج. إنّ بني أُميّة لا يتركونني، ولو كنت في هامة من هذه الهوام لأخرجوني وقتلوني؛ إنّ بني أُميّة يتعقّبوني أينما كنت، فأنا ميّت على أيّ حال، سواءٌ بقيت في مكّة أو خرجت من مكّة، ومن الأفضل أن لا أُقتل

في مكّة؛ لكي لا تنتهك بذلك حرمة هذا الحرم الشريف»[١]، فتراه طرح هذا الشعار.

وهذا الشعار ـ بالرغم من واقعيّته ـ منسجمٌ مع أخلاقيّة الأُمّة المعاشة أيضاً؛ فأخلاقيّة الهزيمة التي تعيشها الأُمّة الإسلاميّة لا تجد منطقاً تنفذ منه للتعبير عن نقد مثل هذا التحرّك من الإمام الحسين عليه السلام؛ فهو عليه السلام يقول: «أنا مقتول على كلّ حال»، والظواهر كلّها تشهد بذلك: الدلائل والأمارات والملابسات تشهد بأنّ بني أُميّة قد صمّموا على قتل الإمام الحسين، ولو عن طريق الاغتيال[٢]، ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة[٣].

إذاً، فطرح مثل هذا الشعار لأجل تفسير هذا الموقف كان مناسباً جدّاً مع إقناع أخلاقيّة الهزيمة، مع كونه شعاراً واقعيّاً في نفس الوقت.

٢ ـ الشعار الثاني: غيبيّة قرار التحرّك:

يأتي أشخاص آخرون إليه، يعترضون عليه، يقولون: «لِمَ تتحرّك؟». يأتي محمّد بن الحنفيّة ينصحه في أوّل الليل بنصائح عديدة، فيقول له: «أنظر، أُفكّر في ما تقول»، فيذهب محمّد بن الحنفيّة، وفي آخر الليل يسمع بأنّ الإمام الحسين قد تحرّك، يسرع إليه ويأتي، يأخذ براحلته ويقول له: «يا أخي قد

(١) قال عليه السلام: «والله لأنْ أُقتل خارجاً منها بشبر أحبّ إليّ من أن أُقتل داخلاً منها بشبر، وأيمُ الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيّ حاجتهم، ووالله، ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت» ويؤكّده قوله عليه السلام للفرزدق: «لو لم أعجل لأُخذت»، وقوله عليه السلام: «والله! لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٤. وراجع: الفتوح ٥: ٦٧؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٨.

(٢) في رسالة ابن عبّاس إلى يزيد: «فلستُ بناسٍ إطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله، ودسّك إليه الرجال تغتاله، فأشخصتَه من حرم الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفاً يترقّب» تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٩.

(٣) تقدّم التعليق على هذه المقولة في المحاضرة السابعة عشرة، تحت عنوان: مبرّرات الإمام الحسين عليه السلام في اختيار الموقف الرابع.

وعدتني أن تفكّر»، قال: «نعم، ولكنّي بِتُّ في هذه الليلة فرأيت رسول الله ﷺ، فقال: إنّك مقتول»(١).

فتراه عليه السلام يجيب بهذا الجواب، يجيب بقرار غيبي من أعلى، وهذا القرار الغيبي [الصادر](٢) من أعلى لا يمكن لأخلاقيّة الهزيمة أن تنكره ما دام صاحب هذه الأخلاقيّة مؤمناً بالحسين، ومؤمناً برؤيا الحسين.

طبعاً، هو لم يحدّث بهذه الرؤيا عبد الله بن الزبير(٣) الذي لم يكن مؤمناً برؤيا الحسين، بل حدّث بذلك محمّد بن الحنفيّة وأمثال محمّد بن الحنفيّة(٤).

فهذا شعار آخر كان يطرحه: شعار «حتميّة الموت من أعلى»؛ أنّ هناك قراراً من أعلى يفرض عليه أن يموت، أن يضحّي، أن يغامر، أن يقدم على هذه السفرة التي قد تؤدّي إلى القتل، وهذا الشعار أيضاً كان ـ بالرغم من واقعيّته ـ ينسجم مع أخلاقيّة الهزيمة، وهو في نفس الوقت شعارٌ واقعي.

٣ـ الشعار الثالث: ضرورة إجابة دعوات أهل الكوفة:

وكان في مرّةٍ ثالثةٍ يطرح شعاراً ثالثاً: كان يقول للأشخاص الذين يمرّ بهم في طريقه من مكّة إلى العراق، في منازله المتعدّدة حينما كانوا ينصحونه بعدم التوجّه إلى العراق، كان يقول لهم: «إنّي قد تلقّيت من أهالي الكوفة دعوة

---

(١) اللهوف على قتلى الطفوف: ٦٤ ـ ٦٥. وفي الكثير من المصادر أنّ كلامه عليه السلام جاء في جوابه عن كتاب عبد الله بن جعفر دون أن يقصّ عليه الرؤيا كما يظهر قريباً.

(٢) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٣) لم يحدّث بالرؤيا عبدالله بن الزبير [تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٣]، ولكن ربما يقصد ﷺ عبدالله بن جعفر، الذي طلب منه أن يحدّثه بها فلم يفعل، انظر: الطبقات الكبرى ٥: ١: ٤٤٨؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٣٨؛ الفتوح ٥: ٦٧؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٠ ـ ٤١؛ البداية والنهاية ٨: ١٦٣؛ تاريخ الإسلام ٥: ٩.

(٤) حيث «قصّ رؤياه على أهل بيته وبني عبد المطّلب»، راجع: الفتوح ٥: ١٩؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٧١.

للذهاب إليهم، وقد تهيّأت الظروف الموضوعيّة في الكوفة لكي أذهب، ولكي أُقيم حقّاً وأُزيل باطلاً»(١).

فكان يعكس ويفسّر سفرته على أساس أنّها استجابة وأنّها ردّ فعل، وأنّها تعبير عن إجابةِ طلب، [عن] أنّ الأُمّة تحرّكت وأرادت، وأنّه قد تمّت الحجّة عليه، ولا بدّ له أن يتحرّك.

الإمام الحسين عليه السلام لم يكن في واقعه يقتصر في مرحلته الجهاديّة هذه على أن تطلب منه الأُمّة فيتحرّك، وإلّا لما راسل ابتداءً زعماء قواعده الشعبيّة بالبصرة ويطلب منهم التحرّك، ولكنّه في نفس الوقت كان يعكس هذا الجانب أكثر ممّا يعكس ذلك الجانب؛ لأنّ هذا الجانب أقرب انسجاماً مع أخلاقيّة الهزيمة.

ماذا تقول أخلاقيّة الهزيمة أمام شخص يقول لها: «إنّي قد تلقّيت دعوة، وإنّ ظروف هذه الدعوة ملائمة للجواب والتحرّك نحو الداعي»؟!

وبطبيعة الحال هناك فرقٌ كبيرٌ بين إنسان يتحرّك تحرّكاً ابتدائيّاً و[بين] إنسانٍ آخر يتحرّك إجابةً لجماهير آمنت به وبقيادته وزعامته:

فهناك تقولُ أخلاقيّة الهزيمة: إنّ هذا متسرّع، وإنّ هذا لا يفكّر في العواقب، وإنّه ألقى بنفسه في المخاطر.

أمّا حينما يكون العمل إجابةً لدعوةٍ من جماهيرَ قد هيّأت كلَّ الأجواء اللازمة لهذه الدعوة، فهذه الأخلاقيّة المهزومة لا تقول عن هذا العمل وهذا التحرّك: إنّه عمل طائش، إنّه عمل صبياني، إنّه عمل غير مدروس.

هذه الشعارات التي طرحها الإمام الحسين عليه السلام كانت كلّها واقعيّة، وفي

---

(١) من قبيل قوله عليه السلام للطرمّاح بن عدي الطائي: «إنّه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قولٌ لسنا نقدر معه على الانصراف» تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٦؛ تجارب الأُمم ٢: ٦٦؛ الكامل في التاريخ ٤: ٥٠.

نفس الوقت كانت منسجمةً مع أخلاقيّة الأُمّة المهزومة روحيّاً وفكريّاً ونفسيّاً.

٤ ـ الشعار الرابع: ضرورة الثورة ضدّ السلطان الجائر:

وكان يطرح أيضاً إلى جانب كلّ هذه الشعارات الشعارَ الواقعيَّ حينما كان يؤكّد على أنّ رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطاناً جائراً يحكم بغير ما أنزل الله، فلم يغيّر من ذلك السلطان بفعل أو قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»[1].

فكان إلى جانب تلك الشعارات التي يسبغ بها طابع المشروعيّة على عمله في مستوى أخلاقيّة الأُمّة، كان يعطي أيضاً باستمرار ودائماً الشعار الواقعيَّ الحيَّ الذي لا بدّ وأن يكون هو الأساس للأخلاقيّة الجديدة التي كان يبنيها في كيان هذه الأُمّة الإسلاميّة.

أساليب تحويل أخلاقيّة الهزيمة إلى أخلاقيّة الإرادة دون استفزازها:

الأُسلوب الأوّل: طرح الشعارات المنسجمة مع أخلاقيّة الهزيمة:

من جملة الأساليب التي اصطنعها (عليه أفضل الصلاة والسلام) للتوفيق بين الأخلاقيّتين، لمجاملة أخلاقيّة الهزيمة لكي يحوّلها بالتدريج إلى أخلاقيّة التضحية: أنّه طرح شعارَ «أن لا يبدأ الآخرين بقتال»[2].

هذا الشعار كان قد طرحه أمير المؤمنين علي ﷺ، ولكنّ [هناك] فرقاً كبيراً بين الشعار الذي طرحه الإمام علي ﷺ و[بين] الشعار الذي طرحه الإمام

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٣؛ الفتوح ٥: ٨١؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٨؛ البداية والنهاية ١: ٦٨.

(٢) قال ﷺ: «فإنّي أكره أن أبدأهم بقتال حتّى يبدؤوا» الأخبار الطوال: ٢٥٢، وراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٩؛ الفتوح ٥: ٨١؛ الكامل في التاريخ ٤: ٥٢.

الحسين عليه السلام:

الإمام علي كان رئيس دولة، ورئيس الدولة من المفروض أن لا يبدأ أحداً من المواطنين بقتالٍ إلّا إذا بدأه المواطن بشقّ عصا الطاعة والتمرّد عليه والقتال، فكان من المفروض أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لا يبدأ عائشة مثلاً بقتال، لا يبدأ الزبير أو طلحة بقتال[(١)]؛ لأنّهم مواطنون في دولةٍ هو رئيسها، و[من المفروض أن لا يبدأهم بقتال][(٢)] ما لم يخرجوا عن الخطّ، يحاربوا الوضع الشرعي الحاكم في تلك الدولة، فكان شعار «أن لا يبدأ أحداً من المواطنين بقتال» مفهوماً وواضحاً.

أمّا على مستوى حركة الحسين عليه السلام ـ الذي خرج ثائراً على دولة قائمة وسلطان قائم ـ فليس من المنطقي أن يقال: إنّ شخصاً يثور على سلطان قائمٍ لا يبدأ هذا السلطانَ القائمَ بقتال، ولكنّ هذا الشعار قد طرحه (عليه أفضل الصلاة والسلام) لكي يكون أيضاً منسجماً مع أخلاقيّة الهزيمة التي عاشتها الأُمّة الإسلاميّة، لكي يسبغ على عمله طابع المشروعيّة على مستوى هذه الأخلاقيّة.

أ ـ حينما التقى (عليه أفضل الصلاة والسلام) مع طليعة جيش عبيد الله بن زياد بقيادة الحُرّ ـ وكانت الطليعة عبارة عن ألف جندي[(٣)] ـ

(١) «فلما تواقفوا للقتال، أمر عليٌّ منادياً ينادي من أصحابه: لا يرمينَّ أحدٌ سهماً ولا حجراً، ولا يطعن برمح حتّى أعذر إلى القوم، فأتّخذَ عليهم الحجّة» الإمامة والسياسة ١: ٩١. وقال عليه السلام في صفّين: «لا تقاتلوهم حتّى يقاتلوكم؛ فأنتم بحمد الله على حجّة، وترككم قتالهم حجّة أُخرى» الكامل في التاريخ ٣: ٢٩٣.

(٢) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

(٣) الأخبار الطوال: ٢٤٩؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٠؛ الفتوح ٥: ٧٦؛ البدء والتاريخ ٦: ١٠.

اقترح عليه زهير بن القين ـ على ما أظنّ[١] ـ أن يبدأهم بقتال، وقال: «إنّ هؤلاء أوهن علينا ممّن يجيء بعدهم، فلنبدأ بقتال هؤلاء، ولنفتح الطريق إلى الكوفة»، قال عليه السلام: «إنّي لا أبدأهم بقتال»[٢].

ب ـ ومن مصاديق تطبيق هذا الشعار كان وضع مسلم بن عقيل؛ فإنّ مسلم بن عقيل قد ذهب إلى الكوفة رسولاً من قبل الإمام الحسين عليه السلام، إلّا أنّه ذهب في إطار هذا الشعار، وهذا هو الذي يفسّر لنا عدم قيام مسلم بن عقيل بأيّ عمل إيجابي سريع خلال الأحداث التي مرّت به في الكوفة.

قد يخطر على ذهن البعض أنّ مسلم بن عقيل لم يستطع أن يزن الأحداث وأن يقدّر الظروف تقديرها اللازم، وأنّ مسلم بن عقيل كان مدعوّاً إلى نوعٍ من [المبادرة][٣] لكي يستلم زمام الموقف.

إلّا أنّ هذا التصوّر إنّما ينتج عن تخيّل أنّ مسلم بن عقيل قد ذهب من قبل الإمام الحسين إلى الكوفة والياً، حاكماً، سلطاناً. وليس في نصوص التاريخ أيّ دلالة على ذلك.

الإمام الحسين حينما أرسل مسلم بن عقيل وكتب معه كتاباً لم يكن هناك في الكتاب أدنى إشارة إلى إعطاء مسلم بن عقيل صفة الولاية والحاكميّة والسلطان، وإنّما قال لأهل الكوفة: «إنّي أرسلت ثقتي إليكم من أهل بيتي؛ لكي يستطلع أحوالكم ويتأكّد من إخلاصكم ويكتب إليّ بذلك، فإن كتب إليّ بما جاءت به كتبكم ورسلكم استجبت لدعوتكم وجئتكم»[٤].

---

(١) وهو كذلك.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٥٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٩؛ الفتوح ٥: ٨١؛ الكامل في التاريخ ٤: ٥٢.

(٣) في (ح) و(غ) و(ش): «المبادءة»، من الابتداء، والمراد ما أثبتناه.

(٤) الأخبار الطوال: ٢٣٠؛ الفتوح ٥: ٣٠؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٨٤؛ المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٥: ٣٢٨.

مسلم بن عقيل كان مكلّفاً في نصّ هذا الكتاب باستطلاع أحوال تلك القواعد الشعبيّة التي راسلت الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكن مكلّفاً بأزيد من ذلك.

وبالفعل، لم يقم مسلم بأزيد من ذلك، دخل الكوفة، نزل ضيفاً في بيت المختار (رحمة الله عليه)، وبقي في بيت المختار مكشوف الحال يزوره الشيعة ويتجمّعون عنده[1]، فيتحدّث إليهم، ويؤكّد لهم أهداف الإمام الحسين عليه السلام، ويؤكّدون له إخلاصهم واستعدادهم للعمل في تلك الأهداف، حتّى يدخل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة[2]، حينئذٍ يتوتّر الجوّ ويُغيِّرُ الموقفُ بشكلٍ عام[3].

مسلم بن عقيل يرى أنّ من المصلحة أن ينتقلَ إلى بيتٍ آخر ويكونَ مكثه في الكوفة سرّيّاً؛ لأنّ عبيد الله بن زياد بدأ عمليّة التعقيب والتفتيش عن مسلم بن عقيل؛ فبينما الوالي السابق[4] كان سلبيّاً، أصبح عبيد الله بن زياد يفكّر في مجابهة هذا التجمّع وبذرة هذا التجمّع.

حينئذٍ انتقل مسلم بن عقيل من بيت المختار إلى بيت هانئ بن عروة (رضوان الله عليه)[5]، وبقي هناك متكتّماً بمكثه، وأخذ الشيعة يزورونه متكتّمين.

وكان ظهور مسلم بن عقيل في اليوم المشهود مع أربعة آلاف، وكان

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٣١؛ أنساب الأشراف ٢: ٧٧؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٥؛ الفتوح ٥: ٣٣؛ الكامل في التاريخ ٤: ٢٢، وقيل: دار مسلم بن عوسجة الأسدي، فراجع: البداية والنهاية ٨: ١٥٢.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٣٢؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤٨؛ الفتوح ٥: ٣٨؛ مروج الذهب ٣: ٥٧.

(٣) أو: «يُغَيِّرُ الموقفَ»، أي: دخولُ عبيدالله بن زياد. أو أن يكون الصادر منه عليه السلام: «يتغيَّرُ الموقف».

(٤) وهو: النعمان بن بشير.

(٥) انتقل مسلم إلى دار هانئ بن عروة المرادي، فراجع: الأخبار الطوال: ٢٣٣؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٤٨، ٣٦٢؛ الكامل في التاريخ ٤: ٢٥.

العمل ـ الذي مارسه حينما ذهب إلى قصر الإمارة مع هذا العدد من الشيعة، وحاول أن يحتلّ قصر الإمارة وأن يسيطر على مقاليد الموقف ـ خارجَ نطاق التخطيط المتّفق عليه بين مسلم والحسين[١].

كان هذا العمل بملاك الدفاع؛ لأنّ مسلم بن عقيل (رضوان الله عليه) وقع في موقع الدفاع. عبيد الله بن زياد بدأ بالهجوم، أخذ يحاول أن يتعقّب مسلم بن عقيل وأن يقضي على هذه البذرة، فكان مسلم بن عقيل في حالة دفاع، ولم يكن في حالة غزو أو هجوم.

يعني: إنّ الظروف اضطرّته إلى أن يقف موقف المدافع، ولو لم يبدأ بهذه العمليّة إذاً لهجم عليه عبيد الله بن زياد وهجم على شيعته وهم في البيوت. فحينما يحاول عبيد الله بن زياد أن يبدأ بالهجوم، كان على مسلم بن عقيل ـ لا بمنطق رسالته من قبل الحسين، لا بمنطق الحاكميّة والسلطان والولاية، بل بمنطق الدفاع ـ أن يبدأ بمثل هذه العمليّة كدفاع عن نفسه وعن قواعده التي التفّت حوله.

اقرؤوا رسالة الإمام الحسين عليه السلام التي بعثها مع قيس بن مسهّر الصيداوي إلى الكوفة، هكذا كان يقول في الرسالة: «إنّي سوف أرد إليكم قريباً، فانكمشوا على أمركم حتّى آتي»[٢].

---

(١) أنساب الأشراف ٢: ٨٠؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٠؛ الفتوح ٥: ٤٩؛ البداية والنهاية ٨: ١٥٤. وفي الثالث والرابع: «أربعة آلاف»، وفي الثاني: «ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون»، وفي الأوّل: تابعه ثمانية عشر ألفاً، ومشى معه أربعة آلاف.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٣٠؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٩٥؛ الفتوح ٥: ٣٠؛ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٥: ٣٢٨. وما ذكره قدس سره مثبتٌ في رواية (الطبري) دون من ذكرنا: «فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدّوا؛ فإنّي قادمٌ عليكم في أيّامي هذه إن شاء الله». نعم، بعد أن دفع عليه السلام له الكتاب قال له (برواية الدينوري): «فإن كانوا على ما أتتني به كتبهم، فعجّل عليّ بكتابك لأسرع القدوم عليك»، وبرواية (ابن أعثم): «فإن رأيت الناس مجتمعين على بيعتي فعجّل لي بالخبر حتى أعمل على حسب ذلك إن شاء الله تعالى».

الرسالة واضحة في أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن قد خطّط لمسلم بن عقيل أن يملك الكوفة، وأن يسيطر على الكوفة كحاكم ووالٍ وسلطان، يقول: «انكمشوا في أمركم»، يعني حاولوا أن تحفظوا هذا التجمّع إلى أن آتي، فكان تحويلُ هذا التجمّع إلى مجتمع، إلى سلطان، إلى دولة، كان كلّ هذا موقوفاً على دخول الحسين عليه السلام، ولهذا أوصى بأن ينكمشوا في أمرهم.

إذاً، فرسالة مسلم بن عقيل لم تكن إلّا عبارةً عن استطلاع أحوال تلك القواعد الشعبيّة، وتزويد الإمام الحسين بالمعلومات الواضحة المؤكّدة عن تلك القواعد الشعبيّة، ولم يكن مسلم بن عقيل مكلّفاً بحرب، وإنّما قام بما قام به في اللحظة الأخيرة كدفاعٍ عن النفس؛ حيث لم يكن هناك طريقٌ آخر للاستمراريّة غير أنْ يتّخذ هذا الموقف الدفاعي.

كلّ هذا يعبّر في الواقع عن شعار عدم الابتداء بالقتال، هذا الشعار الذي كان من المفروض على الإمام الحسين عليه السلام أن يطرحه لكي يشعر الناسُ جميعاً بأنّ العمليّة عمليّة فوق الشكّ، وأنّها مشروعة حتّى على مستوى تصوّرات الإنسان المسلم المهزوم روحيّاً وأخلاقيّاً.

ونحن إذا لاحظنا الإمام الحسين عليه السلام في مسيره من مكّة إلى العراق نرى أنّه كان باستمرارٍ يؤكّد على ضرورة مواصلة السير والسفر؛ لأنّه مدعوّ، ولا بدّ له أن يجيب هذه الدعوة.

بلغه في الطريق أنّ مسلم بن عقيل قُتل، ولم يغيّر من موقفه[1]، أي لم يسقط هذا الشعار، بل بقي هذا الشعار مرفوعاً، وهو شعار أنّه مدعوٌّ من قبل الكوفة، ولا بدّ له أن يجيب.

---

(١) وكان عليه السلام قد مشى إلى الكوفة بعد أن ورده كتابُ مسلم: «فإنّ الرائد لا يكذب أهله، إنّ جمع أهل الكوفة معك» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٩٥.

بالرغم من أنّه اطّلع على أنّ مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة قد قتلا[١]، بعد هذا اطّلع على أنّ قيس بن مسهّر الصيداوي قد قتل من قِبَل عبيد الله بن زياد[٢]، مع هذا لم يغيّر هذا الشعار، بل بقي يؤكّد أنّه مدعوٌّ من قِبَل أهل الكوفة، ولا بدّ له أن يجيب هذه الدعوة، حتّى التقى مع الحرّ بن يزيد الرياحي.

جاءه الطرمّاح قال له: «الحقْ بالجبل الفلاني[٣]، وأنا أجمع لك عشرين ألف [شخص] من العشيرة الفلانيّة[٤] يلتفّون حولك، والله يغنيك بذلك عن الكوفة»، قال عليه السلام: «بيننا وبين القوم عهدٌ، ولا بدّ لي أن أسير إليهم»[٥].

بعد كلّ هذه الدلائل من أهل الكوفة على نكث العهد، مع هذا بقي الإمام الحسين يواصل تأكيده على هذا الشعار.

إذاً، القصّة في الواقع لم تكن قصّة أن يقتنع الحسين، ولم يكن تحرّكه عليه السلام بينه وبين نفسه [نتيجةً] لردّ فعلٍ لطلب قواعده الشعبيّة في الكوفة؛ لأنّه اطّلع في أثناء الطريق على أنّ هذه القواعد الشعبيّة في الكوفة قد خانته، قد قتلت رسوله، قد قتلت ثقته من أهل بيته، ومع هذا كان يواصل السفر إليها.

كان هذا الشعار شعاراً منسجماً مع الأخلاقيّة التي تعيشها الأُمّة الإسلاميّة، وكان لا بدّ له أن يطرح هذا الشعار لكي يسبغ على العمليّة طابع المشروعيّة في

---

(١) ففي: الأخبار الطوال: ٢٤٧ أنّه عليه السلام تلقّى خبر مقتل مسلم وهو في (زرود)، ثمّ أكمل مسيره؛ وفي: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٩٧ أنّه تلقّى خبر مقتل مسلم وهانئ في الثعلبيّة، ثمّ أكمل المسير.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ١٦٩؛ الكامل في التاريخ ٤: ٥٠.

(٣) هو جبلُ «أجأ»، وهو و«سلمى» جبلا طيء (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ١: ١٠٩؛ معجم البلدان ١: ٩٤).

(٤) وهي قبيلة طيء.

(٥) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٦؛ تجارب الأُمم ٢: ٦٦؛ الكامل في التاريخ ٤: ٥٠.

نظر أُولئك الذين يحبّون السلامة، أُولئك الذين يرون في التضحية لوناً من ألوان التهوّر واللامعقوليّة وقلّة الأناة.

الأُسلوب الثاني: حشد كلّ المثيرات العاطفيّة في المعركة:

وكان من الأساليب التي اتّخذها أيضاً (عليه أفضل الصلاة والسلام) لكسب هذه الأخلاقيّة ومجاملتها: أنّه حشد في المعركة كلّ القوى والإمكانيّات.

لم يكتفِ (عليه أفضل الصلاة والسلام) بأن يعرّض نفسه للقتل؛ عسى أن تقول أخلاقيّة الهزيمة: إنّ شخصاً حاول أن يطلب سلطاناً فقتل، بل أراد أن يعرّض أولاده وأهله للقتل، ونساءه للسبي[1].

أراد أن يجمع على نفسه كلّ ما يمكن أن يجتمع على إنسان من مصائب وتضحيات وآلام؛ لأنّ أخلاقيّة الهزيمة مهما شكّكت في مشروعيّة أن يخرج إنسانٌ للقتل، فهي لا تشكّك في أنّ هذا العمل الفظيع الذي قامت به جيوش بني أُميّة، قامت به جيوش الانحراف ضدّ بقيّة النبوّة، لم يكن عملاً صحيحاً على كلّ المقاييس وبكلّ الاعتبارات.

كان لا بدّ للإمام الحسين عليه السلام أن يُدخِل في المعركة دمه وأولاده وأطفاله ونساءه وحريمه وكلّ الاعتبارات العاطفيّة وكلّ الاعتبارات التاريخيّة، حتّى الآثار التي كانت قد تبقّت من عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، حتّى العمامة، حتّى السيف.. لبس عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله، تقلّد سيف رسول الله صلى الله عليه وآله[2]، أدخل كلّ هذه المثيرات التاريخيّة والعاطفيّة إلى المعركة؛ وذلك لكي يسدّ على أخلاقيّة الهزيمة كلّ منفذٍ وكلّ طريقٍ إلى التعبير عن هزيمتها، وعن نوعٍ من أنواع

(١) تقدّم الحديث عن هذه المسألة في آخر المحاضرة السادسة عشرة، وفي المحاضرة الثامنة عشرة.
(٢) «فأُنشدكم الله! هل تعلمون أنّ هذا سيف رسول الله وأنا متقلّده؟ قالوا: اللهمّ نعم. قال: فأنشدكم الله! هل تعلمون أنّ هذه عمامة رسول الله أنا لابسها؟ قالوا: اللهمّ نعم» الأمالي (الصدوق): ١٥٩، المجلس ٣٠، الحديث ١.

الاحتجاج على هذا العمل؛ لكي يهزّ بذلك ضمير ذلك الإنسان المسلم المهزوز الذي تميّعت إرادته.

وهكذا كان، [فقد] استطاع عليه السلام بهذا التخطيط الدقيق الرائع أن يهزّ ضمير ذلك الإنسان المسلم.

الدرس الذي نستفيده من التخطيط الحسيني:

ومن هذا التخطيط يمكننا أن نستفيد درساً عامّاً، وحاصل هذا الدرس:

إنّ عمليّة التغيير في أخلاقيّة الأُمّة لا يجوز أن تقوم بأيّ مجابهةٍ واضحةٍ للأخلاقيّة الفاسدة الموجودة في الأُمّة؛ لأنّ المجابهة الواضحة الصريحة للأخلاقيّة الفاسدة الموجودة في الأُمّة يكون معناها الانعزال عن هذه الأُمّة والانكماش، وعدم القدرة على القيام بعمل مشروع في نظر هذه الأُمّة.

حينما نريد أن ننفذ إلى ضمير الأُمّة التي ماعت أخلاقيّاً، لا بدّ لنا أيضاً ـ في نفس الوقت الذي نفكّر في إنشاء أخلاقيّتها من جديد ـ أن نفكّر في عدم مجابهة الأخلاقيّة القائمة بالشكل الذي يعزل هذا الشخص الذي يريد أن يغيّر أخلاقيّة الأُمّة؛ فلا بدّ له أن يفكّر في انتهاج طريقٍ في التغيير يستطيع به أن ينفذ إلى ضمير الأُمّة، وهو لا يمكنه أن ينفذ إلى ضمير الأُمّة إلّا إذا حافظ باستمرارٍ على معقوليّة ومشروعيّة عمله في نظر الأُمّة، كما عمل الإمام الحسين عليه السلام.

لم يبقَ لدى شخصٍ من أبناء الأُمّة الإسلاميّة أيُّ شكّ في أنّ عمل الإمام الحسين كان عملاً مشروعاً صحيحاً، وأنّ عمل بني أُميّة كان عملاً ظالماً عاتياً جبّاراً.

وهذا الوضوح في الرؤية هو الذي جعل المسلمين يدخلون بالتدريج إلى آفاقٍ جديدةٍ من الأخلاقيّة تختلف عن أخلاقيّة الهزيمة. هذا الوضوح هو

الذي هزّ ضمير الإنسان المسلم، وهو الذي يهزّه إلى يومنا هذا.

فليس دم الإمام الحسين عليه السلام رخيصاً بدرجة يُكتفى في ثمنه بأن يهتزّ ضمير الإنسان المسلم في عصر واحد، أو في جيل واحد.. لا يمكن أن يكون ثمن دم الإمام الحسين عليه السلام أن تتزلزل قواعد بني أُميّة، أو أن يُكشف عن حقيقة بني أُميّة، أو أن تنتعش ضمائر جيل من أُمّة الإسلام..

هذا لا يكفي ثمناً لدم الإمام الحسين الطاهر، بل إنّ ثمن دم الإمام الحسين ـ الذي هو أغلى دم سُفك في سبيل الإسلام ـ أن يبقى محرِّكاً، منوِّراً، دافعاً، مطهِّراً، منقِّياً على مرّ التاريخ لكلّ أجيال الأُمّة الإسلاميّة..

لا بدّ وأن يهزّ ضميرَنا وضميرَ كلّ واحدٍ منّا اليوم كما كان يهزّ ضمير المسلمين قبل ثلاثة عشر قرناً..

لا بدّ أن يهزّ ضميرَ كلّ واحدٍ منّا حينما نجابه أيّ موقفٍ من مواقف الإغراء، أو الترغيب، أو الترهيب..

لا بدّ وأن نستشعر تلك التضحية العظيمة حينما نلتفت إلى أنّنا مدعوّون إلى تضحيّةٍ جزئيّةٍ بسيطة، حينما يتطلّب منّا الإسلام لوناً من التضحية وقَدَراً بسيطاً وضئيلاً من التضحية..

لا بدّ وأن نلتفت دائماً إلى ذلك القَدَر العظيم غير المحدود من التضحية الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام لكي نستصغر.. ولكي يتضاءل أمامنا أيُّ قَدَرٍ نواجهه في حياتنا، ونكلّف أنفسنا بالقيام به في سبيل الإسلام.

إنّ الإسلام اليوم يتطلّب منك قَدَراً قليلاً من التضحية بوقتك، براحتك، بمصالحك الشخصيّة، برغباتك، بشهواتك، في سبيل تعبئة كلّ طاقاتك وإمكانيّاتك وأوقاتك لأجل الرسالة.

أين هذه التضحية من تلك التضحية العظيمة التي قام بها الإمام

الحسين عليه السلام؟ من تضحيته بآخر قطرةٍ من دمه، بآخر شخصٍ من ذرّيّته، بآخر كرامةٍ من كراماته بحسب مقاييس الإنسان الدنيوي؟!

لا بدّ أن نعيش دائماً هذه التضحية، ونعيش دائماً مدلولَ هذا الدم الطاهر؛ لكي يكون ثمنُ دم الإمام الحسين حيّاً على مرّ التاريخ.

وغفر الله لنا ولكم.

❊ ❊ ❊

٢١

كلمة حول الثورة الحسينيّة وتغيير أخلاقيّة الهزيمة

كلمة الشهيد الصدر قدس سره ألقاها باسمه سماحة آية الله السيّد محمود الهاشمي حفظه الله في مكتبة الإمام الحكيم العامّة في محافظة الديوانيّة، وذلك بتاريخ ٢/٧/١٩٧٥م، بمناسبة الموسم الثقافي في عاشوراء.

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

أيّها المؤمنون المفجوعون بمصاب إمامهم!

إنّكم تعيشون في هذه اللحظات ذكرى الإمام الحسين، ذكرى هذا الإمام الممتحن الذي تسلّم مسؤوليّة الإمامة وأعباء الرسالة في أحرج مرحلة من مراحل المؤامرة، المؤامرة التي دبّرتها الجاهليّة المبرقعة ضد الإسلام؛ فإنّ بقايا الجاهليّة التي استطاعت أن تلملم نفسها وتجد من الاُمويّة قيادتها، أدركت بوضوح أنّها خسرت جولتها الأولى ضدّ الإسلام حينما دخلت معه في حرب سافرة، فغيّرت من أساليبها، ودخلت الحرب ضدّ الممثّلين الحقيقيّين للإسلام، ضدّ عليّ وآل علي، ببراقع مصطنعة من الإسلام المزيّن[1]، وقد تمكّنت بذلك أن تكسب المعركة في إطارها العسكري.

غير أنّ الاُمويّة كانت تعرف ـ وتعرف بوضوح ـ أنّ الانتصار العسكري على الإسلام الحقيقي الممثّل في أهل البيت عليهم السلام لا يمكن له وحده أن يضمن نجاح المؤامرة في مداها الواسع وعلى الخط الطويل؛ لأنّ التغلّب بالقوّة على إرادة اُمّة وابتزازها حقّها لا يعني نصراً نهائيّاً ما دام هناك ـ رغم القوّة ـ اُمّة تملك إرادتها المقهورة، وتعي شخصيّتها، وتتململ بجراحها بكبرياء.

---

(١) كذا في النسخة الخطيّة، ولعلّ المراد: «المزيّف».

ولهذا اتّجهت الأُمويّة بعد انتصارها العسكري عام الأربعين[1] إلى أعظم سرقة يمكن أن يمارسها إنسان. وماذا أعظم من أن يخطّط الانحراف الحاكم يومئذٍ ـ وعلى رأسه معاوية ـ على أن يسرق من الأمّة إرادتها وينتزع منها شخصيّتها وكبرياءها، ليحقّق بذلك نصره النهائي، ويضمن له البقاء والامتداد؛ لأنّ الاستسلام الحقيقي للأمّة ليس بإلقائها السلاح فترةً من الزمن أمام الغاصب المنحرف، بل بتنازلها عن إرادتها وشخصيّتها، وقد استطاع معاوية أن ينتزع قدراً كبيراً من هذا الاستسلام.

ولعلّ أقسى تعبيرٍ عمّا وصلت إليه الأُمّة من انهيار واستسلام حقيقي نتيجة هذه المؤامرة ما قاله الوافدون على الحسين عليه السلام من الكوفة: «إنّ قلوبهم ـ يعنون قلوب أهل الكوفة ـ معك وسيوفهم عليك»[2]؛ لأنّ من لا يملك إرادته تتحرّك يده باتجاه معاكس لقلبه.

فكان لا بدّ للإمام الحسين عليه السلام [في] تلك المرحلة الرهيبة أن يحمي الأُمّة وإرادتها من الانهيار الكامل الذي يحقّق لخصوم الإسلام نصرهم النهائي.

وإذا لم يكن متاحاً للإمام يوم عاشوراء ـ وهو في سبعين رجلاً من أصحابه ـ أن يحبط مؤامرة الأُمويّين على السلطة ويستردّ منهم الحكم الذي سرقوه، فقد أُتيح له أن يحبط مؤامرة الأُمويّين على إرادة الأُمّة، ويمدّها بطاقة عظيمة تحصّنها ضدّ الذوبان والانهيار.

وكان الأُسلوب الوحيد لذلك أن يقف الإمام الحسين عليه السلام بنفسه أمام الطغاة الذين سرقوا من الأُمّة إرادتها، ويتحدّاهم بكلّ صمود وثبات، وبيأسٍ كامل من

---

(١) إذا كان رحمه الله يقصد حرب صفّين ـ وهو مقصوده على الأغلب ـ فلعلّه قصد: الانتصار السياسي بمقاييس الأخلاقيّة غير الرساليّة.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٤٥؛ مقاتل الطالبيّين: ١١١؛ دلائل الإمامة: ٧٤؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٦. وقد تقدّم بعضُ التعليق في المحاضرة السابعة عشرة، فراجع.

إمكانات النصر العسكري؛ لكي يضرب بوقفته المستميتة المثل الأعلى للإرادة الحيّة التي لا يمكن أن تضعف أو تلين، ويقدّم لذلك ثمناً أزكى الدماء وأطهرها، يقدّم دماء الصفوة من أولاده وأهله وصحبه(١)، ثمّ يخرّ صريعاً في الساحة، وتظلّ إرادته فوق الموت وفوق سيوف السفّاكين؛ لكي تمتدّ وتمتدّ [في](٢) ضمير الأُمّة ووجدانها، وتزرع الشوك في طريق الجبابرة والظالمين.

أيّها المؤمنون! يا شيعة الحسين!

إنّ إمامكم العظيم حينما كان ينزف دماً، حينما تحمّل الحرمان حتّى من ماء الفرات وقد كانت الدنيا بين يديه، حينما يزداد بِشراً وطلاقةَ وجهٍ كلّما قدّم قرباناً جديداً من ولده وأهله، حينما ضَحى حتّى بوَلَده الرضيع الذي قتله السفّاكون وهو في حجره، حينما كان يخرّ إلى الأرض ثمّ يقوم ليواصل الحرب، وحينما لفظ أنفاسه الطاهرة على أرض كربلاء.. لم(٣) يكن الحسين في ذلك كلّه يمارس عمليّة قتال مستميتٍ فحسب، بل كان يبني أُمّة، ويحمي إرادة، ويمتدّ مع تاريخ رسالة، ويقود مسيرة المجاهدين من أجل الإسلام في كلّ زمان ومكان.

أيّها المؤمنون!

إنّ صمود الإمام الحسين وتضحيته يجب أن يُشعرا المسلمين جميعاً بقيمة هذا الدِّين العظيم الذي كان جديراً بهذه التضحية، وأن يذكّرهم بمسؤوليّاتهم تجاه عقيدتهم ورسالتهم؛ فليس [يوم] عاشوراء يوم عزاء ومصيبة فحسب، بل هو مدرسة غنيّة بعطائها، تلهم المسلمين في كلّ حينٍ القوّةَ والعزيمة، وتمدّهم بزخمٍ فكري وعاطفي.

---

(١) في النسخة الخطيّة: «وأهل بيته»، ثمّ صحّحت إلى «وأهله وصحبه».

(٢) النسخة الخطيّة هنا مخرومة، وما بين عضادتين أثبتناه من السياق.

(٣) في النسخة الخطّيّة: «ولم».

ولئن كان الحسين قد وقف موقفه العظيم من أجل إرادة الاُمّة وحمايتها من الانهيار، فإنّ مدى تجاوب الاُمّة مع هذا الموقف ووعيها لمضمونه وأهدافه هو الذي يحدّد درجة إرادة الاُمّة وأصالتها، وبقدر ما تستوعب الاُمّة من دور الحسين، وتتفاعل مع رسالته الكبيرة، وتلتزم بتعاليمه، وتثبت إرادتها الحقيقيّة وشخصيتها الأصيلة وحرصها على الأمانة الغالية، وكلّ ما تحويه من قيم ومفاهيم وأحكام.

هذه آخر ليلة ودّع فيها الإمام الحسين عالم الأحياء، غير آسف على شيءٍ سوى رسالته العظيمة التي عاش لها عمره، وذاك هو قدرُ المجاهدين أبداً.

الإمام الحسين عليه السلام يُعالج مرض موت إرادة الاُمّة:

بينما قدّر للإمام الحسن عليه السلام أن يعالج مرض الشك في الاُمّة الإسلاميّة التي بدأت في عهد أمير المؤمنين تشكّ في الخطّ الرسالي النظيف الذي سار [عليه] أهل البيت قَدَماً على قَدَم وراء رسول الله صلى الله عليه وآله، واستفحل هذا الشكُّ حتّى تحوّل في عهد الإمام الحسن إلى حالة مَرَضيّة لم يمكن علاجها حتّى بالتضحية، بينما[١] قدّر للحسن أن يعالج مرض الشك في الاُمّة الإسلاميّة، عالج الحسين مرضاً آخر، هو انعدام الإرادة مع وضوح الطريق.

فالاُمّة التي كانت تشكّ في المعركة القائمة داخل الإطار الإسلامي بين الجناحين المتعارضين اتّضحت لها معالم الطريق، لكن بعد أن نامت وتحوّلت إلى رعيل من التنابلة[٢]، وبعد أن استطاع الذين سرقوا شخصيّتها وزوّروا إرادتها ومزّقوا كبرياءها أن يجعلوها غير قادرة على تغيير موقفها.

إنّ فقدان الإرادة كان مرضاً عالجه الإمام الحسين القائد بالسلوك الذي

---

(١) في النسخة الخطّيّة: «وبينما».

(٢) أي: الكسالى.

عرض آخرَ حلقة منه يوم عاشوراء المجيد. وإذا كان مقدّراً أن يكون علاج هذه الظاهرة هو التضحية، فإنّ التضحية يجب أن تكون عميقة عمقَ المرض في جسم الأُمّة، واسعةً وسعَهُ في كيانها[١].

عندما اتّجه الحسين إلى العراق لاستلام مسؤوليّاته العظيمة باعتباره ثائراً على الاحتلال الجاهلي الرجعي، تلقّى عليه السلام سيلاً من النصائح ممّن يسمَّون يومئذٍ «عقلاء المسلمين»، الذين يبغضون التهوّر، [والذين] أجمعوا على أنّ تصرّفه عليه السلام ليس تصرّفاً طبيعيّاً، فخوّفوه بالموت، وحدّثوه عن النتائج التي جناها الإمام علي والإمام الحسن في صراعهما الساخن ضدّ الأُمويّين، ومنّوه بالسلامة.

أُولئك الناصحون ـ وهم أهل الحلّ والعقد في المجتمع ـ لا يتصوّرون التضحية إلّا كتصوّر الطفل للبحر، وكانت نصائحهم ترسم لوحة الانهيار النفسي العميق الذي شمل زعماء المسلمين، كعبد الله بن عبّاس[٢] وعبد الله بن عمر[٣] وعبد الله بن جعفر[٤]، فضلاً عن الجماهير التي كانت تعيش الانهيار مضاعفاً في سلوكها وقِيَمها.

لقد واجهت الحسينَ هذه السلبيةُ المطلقة برغم التوقان للخلاص، وبرغم تمتّع الثائر العظيم بكلّ معاني المنقذ، قدرةً وإخلاصاً وتصميماً..[٥]

(١) تقدّمت الإشارة إلى ذلك في المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: مشاهد موت الإرادة في المجتمع الحسيني.

(٢) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٣؛ الفتوح ٥: ٦٦؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٩.

(٣) الفتوح ٥: ٢٣؛ مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ٢٧٨.

(٤) تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٨٧؛ الفتوح ٥: ٦٧؛ الكامل في التاريخ ٤: ٤٠. وإلى جانب هؤلاء الثلاثة هناك آخرون ذكرهم الشهيد الصدر قدس سره في المحاضرة السادسة عشرة، فراجع.

(٥) هنا كلمتان على الهامش لم نتبيّن موقعهما في الجملة.

مشاهد من أخلاقيّة الهزيمة:

انظروا معي لطفاً!

أ ـ هؤلاء ستّة من زعماء البصرة من الذين كانوا [قد] ارتبطوا بمدرسة الإمام علي عليه السلام ويشعرون بالولاء لمفاهيمها ولأهدافها كتب إليهم الحسين رسالة يستصرخهم فيها، مذكّراً بالخطر الذي يواجهه الإسلام، متمثّلاً بدكتاتوريّة [الأُمويّة] الإرهابيّة، فماذا كان ردّ الفعل [على] تلك الرسالة؟

لقد كان ردّ الفعل خيانة خمسة بكلّ معنى الخيانة، واستجابة شخص واحد هو [يزيد][1] بن مسعود النهشلي[2].

صدّقوا أنّ هؤلاء الذين خانوا لم يحبّوا الأُمويّين ولم يؤمنوا بخطّهم، بل كانوا علويّين فقدوا كلّ مضمونهم عندما فقدوا إرادتهم. وخيانة هؤلاء الزعماء أو برودهم تعبيرٌ صادقٌ عن أخلاقيّة الأُمّة المهزومة؛ فإنّ الأُمّة حالَ تعرّضها للهزيمة النفسيّة وفي حالة فقدانها لإرادتها وعدم شعورها بوجودها كأُمّة تنشأ لديها تدريجيّاً أخلاقيّة معيّنة هي أخلاقيّة الهزيمة، وأخلاقيّة هذه الهزيمة تصبح قوّة كبيرة جدّاً بيد صانعي هذه الهزيمة لإبقاء هذه الهزيمة وتعميقها وتوسيعها، فيصبح الإقدام تهوّراً، ويصبح الاهتمام بما يقع على الإسلام والمسلمين من مصائب ومحن نوعاً من اللاعقلانيّة.

وأخلاقيّة الهزيمة هذه تصطنعها الأُمّة لتسوّغ الهزيمة، وتشعر بأنّها قد انتهت مقاومتها وقرئت عليها الفاتحة، فتنسج مفاهيم جديدة غير مفاهيمها الأُولى، وتتبنّى قيماً وأهدافاً غير التي كانت تتبنّاها، أو لكي تبرّر موقفها أخلاقيّاً

---

(١) في النسخة الخطيّة: «عبدالله»، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) مثير الأحزان: ٢٧؛ اللهوف على قتلى الطفوف: ٣٧. وقد تقدّم التعليق على المسألة في المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: مشاهد موت الإرادة في المجتمع الحسيني، المشهد الثالث.

ومنطقيّاً؛ لأنّها لا تشعر بكرامتها.

والإمام الحسين عليه السلام أراد أن يبدلّ هذه الأخلاقيّة المحطّمة لهذه الأُمّة، ويصنع لهذه الأُمّة أخلاقيّة تنسجم مع القدرة على التحرّك والإرادة حينما كان يقول: «لا أرى [الموت إلّا شهادة، ولا] الحياة مع الظالمين إلّا برماً»[١].

ولم يكن هذا [القولُ] شكوى مجرّدة، بل كان عمليّة تغيير لإيجاد ـ أو في الواقع لإرجاع ـ هذه الأخلاقيّة العظيمة التي فقدها كلُّ الناس الذين مشوا تحت شعار: «أعطني وذلّني»[٢].

ب ـ خذ مثلاً آخر: حبيب بن مظاهر يستأذن من الحسين عليه السلام ليدعو عشيرته بني أسد للالتحاق بركب الجهاد. ومع معرفة كلّ المسلمين لحبيب في مواقفه الجهاديّة وبياض تاريخه، في ورعه وتقواه، أجابه بنو أسد بإخلاء ديارهم والانسحاب جميعاً قبل طلوع الفجر. يرجع حبيب، يبلّغ الإمام عليه السلام بهذه النتيجة الأسطوريّة؛ فبنو أسد كانوا يخشون حتّى من كونهم على الحياد، فغادروا المنطقة نهائيّاً، ولم يكن جواب الشهيد الممتحن عليه السلام إلّا أن قال: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العظيم»[٣].

هذا السكون في الضمير، هذه الهزيمة المأساة هي مرض الأُمّة الذي انبعث إمامكم العظيم ليعالجه. كانت الأُمّة تشفق على علفها الرخيص، على أنفاسها التي تصعد في ذلّ وحرمان وقد لا تنزل. أمّا الشفقة على الوجود الكلّي، على الكيان والعقيدة، فلم تمرّ بخواطر الدمى أبداً؛ لأنّها تكلّف غالياً.

كلّ هذه المظاهر دليلٌ على ما وصلت إليه الأُمّة من انحلال.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٠٤.

(٢) في النسخة الخطيّة حذفت عبارة: «تحت.. ذلّني»، ووُضعت مكانها كلمات متقطّعة: «في الشارع الطويل، شارع طويل، نعمة الهوان، ثمرتها العافية». فأثبتنا المحذوف؛ لكونه أوضح.

(٣) الفتوح ٥: ٩٠ ـ ٩١.

ج ـ أضف إلى ذلك الاندفاعات المحمومة نحو خطّ السلطان: فخلال أسبوعين أو ثلاثة بعد مقتل مسلم استطاع ابن زياد تجنيد عشرات الأُلوف من أبناء ذلك البلد الذي ظلّ يحمل رسالة علي حتّى ذلك الحين، واستخدم مئاتٍ من الذين شاركوا الإمام عليّاً في جهاده بصفّين.

ومن الذين استجابوا: عمرو بن الحجّاج، وكان مضطهداً في سبيل الإمام علي أيّام زياد[١]، لكنّه لم يستطع مواصلة المحنة، طلّق عقيدته قبل أن يصل إلى آخر الشوط؛ ليشتري بعقيدته دنيا واسعة.

هذا المسكين انتهت إرادته، انتهت شخصيّته كإنسان مسلم يفكّر بالإسلام، بعزّة الإنسان، فكلّفه قائد الاحتلال الجاهلي الرجعي بأسوأ مهمّة يُكلَّفُ بها إنسان، كلّفه بأن يحول بين الماء و[بين] سيّد الشهداء وصحبه الميامين.

د ـ وتعال نشقّ عُباب الأسى لنرى كيف طوّق مسلم بن عقيل قصر الإمارة؛ حيث ابن زياد ومعه ثلاثون أو عشرون شرطيّاً[٢]، ومسلم معه أربعة آلاف مسلّح[٣] ليست لهم قلوب، ليست لهم أيدٍ.

في الواقع لم تكن هذه الآلاف الأربعة إلّا دمى متحرّكة من الخارج، وإلّا فلماذا انهزموا عنه؟! وكان في الأقلّ أن يبقى معه ولو شخص واحد يدلّه على الطريق، لكن عبثاً؛ فالتاريخ يحدّثنا أنّ المرأة حينئذٍ كانت [تأتي] فتنتزع زوجها أو أباها وأخاها قائلة: «لا شغل لكم بالسلاطين»[٤]، ونهاية فقدان الإرادة [أن]

---

(١) وقد سبق منه الحديث عنه في المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: مشاهد موت الإرادة في المجتمع الحسيني، المشهد السادس. وقد أشرنا إلى أنّنا لم نعثر في ترجمته على ما يشير إلى هذه الجهة.

(٢) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٦٩؛ الكامل في التاريخ ٤: ٣٠: «ليس معه إلّا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه».

(٣) أنساب الأشراف ٢: ٨٠؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٥٠؛ البداية والنهاية ٨: ١٥٤.

(٤) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٣٧١؛ مقاتل الطالبيّين: ١٠٤؛ مقتل الحسين (الخوارزمي)

يستسلم الرجل ويذوب.

قال المفكّرون: إنّ من لا يملك إرادته تتحرّك يده باتّجاه معاكس لقلبه وعاطفته. لذا رأينا الناس يقتلون الإمام الحسين عليه السلام وهم يبكون عليه؛ لشعورهم بأنّ قتلهم إيّاه معناه قتل آخر أمل في الانعتاق من الشقاء والظلم، لكنّهم لم يستطيعوا أن يغيّروا موقفهم فينصروه.

كيف يُمكن أن نكون قتلةً للحسين عليه السلام؟

وعلى كلّ حال، فالإمام الحسين عليه السلام ليس إنساناً محدوداً بسنة كذا وكذا، بل هو الإسلام ككلّ، أي هو كلّ الأهداف التي ضحّى من أجلها؛ لأنّها روحه وعقله وقلبه وعواطفه.

وإذا كان أهل الكوفة [قد] قتلوا الحسين وهم يبكون، فهناك خطرٌ كبيرٌ [في] أن نصاب بالمحنة نفسها.. أقصد: أن نقتل الحسين ونحن نبكيه، فالبكاء لا يعني أنّنا غير قاتلين للحسين، ولو كان البكاء وحده يعني أنّ الإنسان غير قاتل للحسين لبُرّئ عمر بن سعد؛ لأنّه بكى الحسين بنفسه بكاءً مرّاً(١).

في موكب السبايا حينما مرّت العقيلة زينب عليها السلام على الضحايا التفتت إلى أخيها، اتّجهت إلى جدّها الرسول تستنجده مخبرةً عن جثمان الإمام الحسين عليه السلام تسفيه الرياح، عن السبايا و[هنّ مشتّتات]، عن الأطفال عطشى وهم مقيّدون، حينما أخبرت جدّها بكلّ ذلك ضجّ القتلة كلّهم بالبكاء(٢)، بكى السفّاكون، بكى

١: ٢٩٨. وقد تقدّم التعليق على ذلك في المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: المشهد السابع.

(١) تقدّمت الإشارة إلى ذلك في المحاضرة السابعة عشرة ـ تحت عنوان: مبرّرات الإمام الحسين عليه السلام في اختيار الموقف الرابع، الموقف الثاني. وفي المحاضرة التاسعة عشرة، تحت عنوان: قاتلُ الحسين عليه السلام هو قاتل أهدافه والبكاء عليه غير كافٍ. وربما تستفاد مرارة بكاء ابن سعد من قول الراوي: «فكأنّي أنظر الى دموع عمر وهي تسيل على خدّيه ولحيته» تاريخ الأُمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٢.

(٢) «فأبكت كلَّ عدوٍّ ووليٍ» أنساب الأشراف ٣: ٢٠٦؛ تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٥: ٤٥٦.

هؤلاء الذين أوقعوا هذه المجازر، بكوا أنفسهم.

إذاً فالبكاء ليس ضماناً، والعاطفة وحدها ليست ضماناً لإثبات أنّ صاحب العاطفة لا يقف موقفاً يقتل فيه الإمام الحسين أو يقتل فيه أهداف الحسين.

لا بدّ من امتحان، لا بدّ من تأمّل، لا بدّ من تعقّل؛ لكي نتأكّد من أنّنا لسنا قتلةً لأبي الشهداء عليه السلام. أمّا مجرّد أنّنا نحبّ الحسين، نزوره، نبكي عليه، كلٌّ هذا شيءٌ راجح، لكنّ هذا الراجح لا يكفي ضماناً لإثبات أنّنا لا نساهم في قتل الحسين؛ لأنّ بإمكاننا أن نقوم بكلّ هذا عاطفيّاً، مع أنّنا نساهم في قتل الحسين.

يجب أن نحاسب أنفسنا، ونتأمّل في سلوكنا، ونعيش موقفنا بعمق وانفتاح على كلّ المضاعفات والملابسات، لنتأكّد من براءتنا من قتل الحسين عليه السلام بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، ولكي نعيش دائماً تلك التضحية، ونعيش مدلول هذا الدم الطاهر.

وغفر الله لنا ولكم، وعظّم الله أجوركم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❊ ❊ ❊

٢٢

سيبقى هذا الصوت خالداً

نشر هذا المقال في العدد الثامن من مجلّة (النشاط الثقافي)
السنة الأُولى (١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م)

الحسين مصباحُ الإنسانيّة الباهر، الذي أضاء بالنور في ليلٍ من لياليها الحالكة، ليصنع لها نهارها المشرق الوضّاح، ويأخذ بيدها في سبيل تحقيق إنسانيّة الإنسان، وصقلها صقلاً إسلاميّاً خالصاً، وإعطائها حقوقها الفرديّة والاجتماعيّة، بعد أن انتزعتها منها حكوماتُ الإرهاب والاستعباد، التي لم تقرّ يوماً ما نظرةَ الإسلام في الحكم والنظام.

الحسين هو الفرد الذي اختُصِرَت في فرديّته العبقريّةِ قداساتُ الإنسانيّةِ كلّها، وتماوجت في روحه الفذّة حياةٌ تصنع الحياة، فكبر عليه أن يستأثر بها، وَوَهَبَها للعقائد والأجيال، فشاعت حياةُ الحسين فيها، وتحوّلت من حياة شخصٍ محدود إلى حياةٍ ثريّة خالدة للمثل الإسلاميّة العليا، وحياة ضميريّة خيّرة في قلب الأجيال الواعية من بني الإنسان.

وهكذا استمدّت العقيدةُ نشاطها واستعدادها للخلود من روح الحسين ودمه، كما كان قد استمدَّ منها [كيانَه] وضميرَه، فصارت تحيى بحياةٍ حسينيّةٍ مشعّة، كما كان يحيى بحياة عقائديّةٍ طاهرة.

الحسين هو ذلك العاشق المفتون بالحقيقة الإلهيّة المقدّسة وجمالها الأزلي، الذي لا يحسب حساباً للدنيا وما فيها؛ لأنّ ذلك كلَّه ليس إلّا شعاعاً ضئيلاً من ذلك المنبع الفوّار الذي قد فنى فيه، وسَحَرَ روحَه وكهرب مشاعره كلَّها.

استمع[1] إليه وهو يخاطب معشوقه العظيم عند مسيره إلى جهاده في دعاء عرفة، الذي هو النشيد الخالد للعبوديّة المخلصة: «ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك»[2].

بهذه الروح الرائعة التي لا يدخل شيءٌ من أشياء هذا العالم المحدود في حسابها، ولا ترى بعد الظفر بالجانب الإلهي جانباً آخر يخشى فواته، أو يؤمل إدراكه؛ لأنّ المحدود ليس إلّا لمعة لذلك الوجود غير المحدود.

أقول: بهذه الروح المعنويّة الباهرة دخل إلى معركة كربلاء، مضحّياً بنفسه وبصفوة البنين والإخوة والأصحاب، وبجميع اعتبارات هذه الدنيا الفانية؛ لأنّ سكرة العشق الإلهي جعلته يرتفع عن ذلك كلّه، فلا يرى بعينَيْ عقله إلّا معشوقه العظيم، يتقبّل منه قرابين التضحية، ويبارك له فيها، فيزداد إطلاقةً وبِشراً كلّما ازدادت المعركة اتّساعاً وفارت دماً.

خاض الحسين تلك المعركة الهائلة مندفعاً بضمير إلهيٍّ يملأ ذات نفسه، وبيده مشعلُ الحياة والنور، ولكن شاء صانعو الموت للشعوب ـ الذين لا يمكن أن يقيموا عروشهم الجائرة إلّا في ظلام ـ أن يطفئوا ذلك المشعل، ويقضوا على ذلك النور.

وكانت تلك المعركة مظهراً دامياً للصراع الهائل الذي انبثق عن وضع نظام الدولة في جوهر الإسلام؛ وذلك أنّ الإسلام ـ بطبيعته المتوثّبة إلى الاتّصال والخلود، وبجوهره الذي جاء بالصيغة النهائيّة لرسالات السماء ـ لم يكن ليرضى إلّا أن يمتدّ بوجوده ما امتدّت هذه الإنسانيّة، مهذِّباً ومنظِّماً، ولهذا وَضَعَ في الصميم من دستوره نظامَ الدولة العادلة، فكان ذلك إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة كما أعلنه القرآن العظيم عند احتفال رسول الله صلى الله عليه وآله ودنيا الإسلام يومَ الغدير بوضع نظام الدولة المخلصة[3].

---

(١) في الأصل: «اسمع».

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣٤٩.

(٣) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة: ٣).

وتتركّز الفكرة في هذا النظام على ضمان العدالة والمساواة بإحراز الوجود الأصلح الذي يسعد به المجتمع والفرد، ويطمَئنُّ في ظلّه إلى حياة حرّة كريمة في حدود نزيهة.

وعماد هذه الحياة الصالحة في نظر الإسلام: ذلك الوجود الأصلح الذي يكون امتداداً للنبي، لتمتدّ بذلك رسالةُ النبوّة، والذي لا بدّ أن يرتفع عن الهزّات وتمتنع عليه حُمّى الحكم ومضاعفاتها، من تأثّرٍ بعاطفةٍ، أو انحيازٍ إلى غير العدل، أو فساد في رأيٍ، أو انبعاثٍ عن غير الضمير الإلهي الجبّار.

وإمامٌ كهذا يكبر على طاقة المنتخِبين أو المعيَّنين من الناس، وبهذا كان الانتخاب الإلهي له هو الأساس الذي تقتضيه روح الإسلام، ويتّفق مع جوهره العظيم؛ فليس من جوهر الإسلام في شيء أن يقرَّ حكماً انتخابيّاً ينبثق عن شتّى العواطف ومختلف الأهواء والنزعات، وهو الذي جاء لتقويم تلك العواطف وتحديد هذه الأهواء والنزعات. وليس من طبيعته أن يمضي حكماً فرديّاً يقوم على دكتاتوريّة غاشمة لا حدود لسلطانها، ولا حساب على أعمالها.

وإنّما الذي هو من طبيعته بالصميم أن يعتدل أمر الإمامة برجل معيَّن مختار، ولكن لا على اعتبارٍ دكتاتوريٍّ في الحكم، بل وفق خطّة [تجاوز] بروحها روحَ الديموقراطيّة العادلة التقدميّة؛ ذلك بأنّه يجعل الله تعالى مصدر السلطة الوحيد في جهاز ذلك الحكم، ويعتبر الشعوب عياله وشعبه، ويقيم الإمام أميناً على تنفيذ قوانينه، وحارساً لأحكامه، ومسؤولاً بين يديه، يوزّع على ضوء تلك القوانين حقوق الحياة السواء بين إخوانٍ في الدين والإنسانيّة.

وقد أعطى سيّد الشهداء عليه السلام صورةً رائعة عن ذلك في قوله: «فلعمري، ما الإمام إلّا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحقّ، الحابس نفْسَه على

ذلك لله»[١].

وقد امتُحن هذا النظام للدولة ـ منذ أن أعلنه الإسلام وأتمّ به رسالته ـ بمعارضة صاخبة أبَت أن يبقى لون الحكم إلهيّاً دائماً، وطابع السلطة نبويّاً هاشميّاً أبداً.

وجاءت المعارضة أوّلاً على شكل الدعوة إلى الانتخاب الحرّ واستمدادِ السلطة الحاكمة وجودَها من الناس أنفسهم، وعطّل ذلك النظامَ الخيِّرَ في عواصف مزلزلة لا سبيل لنا إلى ذكرها الآن.

وقام الحكم في دنيا الإسلام انتخابيّاً في لونه الظاهر، بعد أن حصرت دائرة الترشيح في إطار ضيّق من مهاجِرَة قريش خرج منه أكثر المسلمين، وقُصِرَت الأصوات الانتخابيّة على عددٍ لم يكن ليتيسّر أن يقوم ذاك الحكم على أكثر منه[٢].

ثمّ ظهرت عليه مظاهر النزعة الفرديّة في السيطرة والحكم، فلم يمضِ عقدان حتّى اختصرت الانتخابَ في ستّةٍ لم يكن للمسلمين أيُّ تأثيرٍ في ترشيحهم[٣].

ثمّ اشتدّ الطابع الفردي وضوحاً بعد ذلك.

وما زال الحكم يسير في خطٍّ منحنٍ ـ رسمته المعارضة في ظروف ومؤثّرات لا يتّسع لشرحها المقام ـ حتّى انتهى إلى دكتاتوريّة أُمويّة سافرة، هي أبعد ما تكون عن طبيعة نظام الدولة المفروض في قانون الإسلام، وضاعت الحقيقة التي قالها الإسلام في هذا الموضوع.

وفي هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الحكم الإسلامي، دقّت ساعةُ السماء في أُذُنَي الحسين، تؤذنه بأنّها لحظة التضحية والشهادة، لا لكسب السلطة عمليّاً واستردادها من الغاصبين؛ فإنّ ذلك لم يكن ليؤمّل في تلك الظروف التي درسها

---

(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٣٩.

(٢) يقصد رحمه الله حادثة السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٣) يقصد رحمه الله اجتماع الشورى السداسيّة بعد وفاة عمر بن الخطّاب لاختيار من يخلفه.

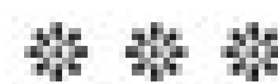
الحسين عليه السلام جيّداً، وفهمها عن آبائه جيّداً أيضاً، بل لتسفر دولةُ المعارضة بلون أحمر من الدم ولون أسود قاتم من الظلم، فينتزع بذلك عنها الطابع الإسلامي الذي كانت تدّعيه، ويضع هذا الطابع على الدولة التي أرادها الإسلام للمسلمين.

لم يُقِم الحسين عليه السلام دولة الإسلام، ولكنّه أرّخ الدولة الإسلاميّة وكتب حقائقها الذهبيّة، وسجّل نظامها بمدادٍ من الدم الطاهر أبدَ الدهر.

كان يوم الطفِّ تاريخاً رائعاً ليوم الغدير، وكان الدمُ الزكي المنسكب على أرض كربلاء برهاناً على أنّ روح الإسلام تتعالى عن منطق المعارضة وحكوماتها.

كان يومُ الطف يومَ القيامة الكبرى التي قضت على شرف الحكم واعتبار الحاكمين، وأعلنت للمسلمين ـ ببطولة لم تظفر الإنسانيّة بنظيرها ـ حقائق الإسلام في إطارٍ دام رهيب.

ولم يكتفِ الإمام بذلك، بل استغاث في ذلك الموقف العظيم بالإنسانيّة كلِّها، ودوّى صوته الإلهيُّ طالباً المعونةَ والنصر، ففاض تاريخ الإسلام بالتضحيات الكريمة والأريحيّات الخيّرة والحركات التحرّريّة الجبّارة، وسوف يبقى هذا الصوت يرنُّ في مسمع الإنسانيّة، ويدفعها إلى الموت ليخلق لها الحياة، وإلى التضحية ليهبها الكرامة، يعلّمُها كيف يهب الفردُ حياتَه للأُمّة، فيكون شيئاً من حياة الأُمّة كلّها.





٤

الإمام علي بن الحسين عليه السلام

○ نبذة عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام

١

٢٣

نبذة عن
الإمام علي بن الحسين عليه السلام

كتب هذا البحث عام ١٩٧٧م مقدّمةً لـ(الصحيفة السجّاديّة)، وقد استفدنا العنوان من وثائق الشهيد الصدر ﵀ الخطيّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمّدٍ وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

وبعد، فإنّ هذه (الصحيفة السجّاديّة) مجموعةٌ من الأدعية المأثورة عن الإمام زين العابدين، عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب، من أئمّة أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً[1]، وهو الرابع من أئمّة أهل البيت.

وجدّه: الإمام أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب، وصيُّ رسول الله ﷺ وأوّلُ من أسلم به[2]، وكان منه بمنزلة هارون من موسى كما صحّ في الحديث عنه[3].

وجدّته: فاطمة الزهراء، بنت رسول الله ﷺ، وبضعته[4]، وفلذّة كبده[5]،

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) كذا، ولعلّ الباء للسببيّة، والأقرب أنّ مراده ﷺ: «آمن به» أو: «أسلم له».

(٣) الكافي ١: ١٠٧، الحديث ٨٠؛ المسند (ابن حنبل) ١: ١٧٧؛ الجامع المسند الصحيح المختصر (البخاري) ٤: ٢٠٩؛ الجامع الصحيح (مسلم) ٧: ١٢٠.

(٤) علل الشرائع ١: ١٨٦، الحديث ٢؛ المسند (ابن حنبل) ٤: ٥، ٣٢٦؛ الجامع المسند الصحيح المختصر (البخاري) ٤: ٢١٠؛ الجامع الصحيح (مسلم) ٧: ١٤١.

(٥) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٦٢٥.

وسيّدة نساء العالمين كما كان أبوها يصفها[١].

وأبوه: الإمام الحسين، أحدُ سيِّدَي شباب أهل الجنّة[٢]، سبط الرسول وريحانته[٣]، ومن قال فيه جدُّه: «حسين منّي وأنا من حسين»[٤]، وهو الذي استشهد في كربلاء يوم عاشوراء دفاعاً عن الإسلام والمسلمين.

وهو أحد الأئمّة الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وآله، كما جاء في صحيحي (البخاري) و(مسلم) وغيرهما؛ إذ قال: «الخلفاء بعدي اثنا عشر، كلّهم من قريش»[٥].

وقد ولد الإمام عليُّ بن الحسين في سنة ثمان وثلاثين للهجرة[٦]، وقيل: قبل ذلك بسنة أو سنتين[٧]، وعاش حوالي سبعةٍ وخمسين عاماً[٨]، قضى بضع سنين منها في كنف جدّه الإمام علي عليه السلام، ثمّ نشأ في مدرسة عمّه الحسن وأبيه الحسين[عليهما السلام] سبطَي الرسول[صلى الله عليه وآله]، وتغذّى من نمير علوم النبوّة، واستقى من مصادر آبائه الطاهرين.

وبرز على الصعيد العلمي والديني إماماً في الدين، ومناراً في العلم، ومرجعاً في الحلال والحرام، ومثلاً أعلى في الورع والعبادة والتقوى، وآمن المسلمون جميعاً بعلمه واستقامته وأفضليّته، وانقاد الواعون منهم إلى زعامته

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٤: ١٧٩، الحديث ٣؛ الطبقات الكبرى ٨: ٢٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ١٧٩، الحديث ٣؛ المسند (ابن حنبل) ٣: ٣، ٦٢؛ أنساب الأشراف ٣: ٧.

(٣) الجامع المسند الصحيح المختصر (البخاري) ٤: ٢١٨؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٨.

(٤) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٢٧؛ المسند (ابن حنبل) ٤: ١٧٢.

(٥) الجامع المسند الصحيح المختصر (البخاري) ٨: ١٢٧؛ الجامع الصحيح (مسلم) ٦: ٣، مع اختلاف باللفظ فيهما.

(٦) الكافي ١: ٤٦٦، باب مولد علي بن الحسين عليهما السلام؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٣٧.

(٧) ذكرهما الطبرسي في: إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ٤٨٠.

(٨) الكافي ١: ٤٦٨، الحديث ٦؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٣٧.

وفقهه ومرجعيّته.

قال الزهري: «ما رأيت هاشميّاً أفضلَ من عليٍّ بن الحسين ولا أفقه منه»[١]، وقال في كلام آخر: «ما رأيت قَرَشيّاً أفضل منه»[٢].

وقال سعيدُ بنُ المسيّب: «ما رأيت قطُّ مثلَ عليٍّ بن الحسين»[٣].

وقال الإمام مالك: «سمّي زينَ العابدين؛ لكثرة عبادته»[٤].

وقال سفيان بن عيينة: «ما رأيت هاشميّاً أفضلَ من زين العابدين، ولا أفقه منه»[٥].

وعدَّ الإمامُ الشافعيُّ عليَّ بن الحسين «أفقهَ أهل المدينة»[٦].

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتّى حكّام عصره من خلفاء بني أُميّة على الرغم من كلّ شيء؛ فلقد قال له عبد الملك بن مروان: «ولقد أُوتيت من [الفضل و]العلم والدين والورع ما لم يؤتَهُ أحدٌ مثلك [ولا] قبلك، إلّا من مضى من سلفك»[٧].

وقال عمر بن عبد العزيز: «سراج الدنيا وجمال الإسلام [و]زين

(١) «ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن حسين.. وما رأيت أحداً كان أفقه منه» المعرفة والتاريخ ١: ٥٤٤؛ وانظر ما في المتن في: مناقب آل أبي طالب ٤: ١٥٩، وفيه: «زين العابدين».

(٢) المعرفة والتاريخ ١: ٥٤٤، وفيه: «أفضل من عليّ بن حسين»؛ وانظر: تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٦٦؛ تاريخ الإسلام ٦: ٤٣٢؛ البداية والنهاية ٩: ١٠٤، وفيه: «أورع منه ولا أفضل».

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٠٣، وفيه: «أفضل من».

(٤) لم نعثر عليه سوى في مصادر متأخِّرة نسبته إليه: نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار: ٢٨٠.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٤: ١٥٩ منسوباً إلى أبي حازم وسفيان والزهري، ولكنّ الصحيح أنّه قولُ الزهري المتقدِّم نفسه؛ حيث رواه سفيان عن الزهيري، لا قاله سفيان والزهري، فراجع: المعرفة والتاريخ ١: ٥٤٤؛ تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧١؛ تهذيب الكمال ٢٠: ٣٨٤.

(٦) الرسائل السياسيّة: ٤٥٠؛ شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٧٣، كلاهما نقلاً عن كتاب (الرسالة)، ولكنّنا لم نعثر عليه فيه.

(٧) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربّ الأرباب: ١٧٠؛ بحار الأنوار ٤٦: ٥٧، عنه.

العابدين»[١].

وقد كان للمسلمين عموماً تعلّقٌ عاطفيٌّ شديدٌ بهذا الإمام، وولاءٌ روحيٌّ عميقٌ له، وكانت قواعده الشعبيّة ممتدّةً في كلّ مكان من العالم الإسلامي، كما يشير إلى ذلك موقف الحجيج الأعظم منه حينما حجَّ هشامُ بنُ عبد الملك وطاف، وأراد أن يستلم، فلم يقدر على استلام الحجر الأسود من الزحام، فنُصِب له منبر، فجلس عليه ينتظر.

ثمّ أقبل زين العابدين وأخذ يطوف، فكان إذا بلغ موضع الحجر انفرجت الجماهير وتنحّى الناس حتّى يستلمه؛ لعظيم معرفتها بقدره وحبّها له على اختلاف بلدانهم وانتساباتهم. وقد سجّل الفرزدق هذا الموقف في قصيدة رائعة مشهورة[٢].

الإمام زين العابدين عليه السلام مفزع المسلمين في كافّة مشاكل الحياة:

ولم تكن ثقةُ الاُمّة بالإمام زين العابدين ـ على اختلاف اتّجاهاتها ومذاهبها ـ مقصورةً على الجانب الفقهي والروحي فحسب، بل كانت تؤمن به مرجعاً وقائداً ومَفزعاً في كلِّ مشاكل الحياة وقضاياها بوصفه امتداداً لآبائه الطاهرين.

ومن أجل ذلك، نجد أنّ عبد الملك حينما اصطدم بملك الروم وهدّده الملك الروماني باستغلال حاجة المسلمين إلى استيراد نقودهم من بلاد الرومان لإذلال المسلمين وفرض الشروط عليهم، وقف عبد الملك متحيّراً وقد ضاقت

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٠٥.

(٢) الأغاني ٢١: ٢٤٦؛ تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٤٠٠؛ تذكرة الخواص: ٢٩٦؛ تاريخ الإسلام ٨: ٢٠٨؛ البداية والنهاية ٩: ١٠٨. وفي: الفتوح ٥: ٧٢ أنّه أنشأها في الإمام الحسين عليه السلام، وقد تقدّم منه قدس سره الاستشهاد بهذه الحادثة في المحاضرة الرابعة، تحت عنوان: علاقة العطاء التي شدّت الاُمّة إلى الأئمّة عليهم السلام.

به الأرض كما جاء في الرواية، وقال: أحسبني أشأم مولود ولد في الإسلام، فجمع أهل الإسلام واستشارهم، فلم يجد عند أحدٍ منهم رأياً يعمل به، فقال له القوم[١]: إنّك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر! فقال: ويحكم مَن؟ قالوا: الباقي من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، قال: صدقتم.

وهكذا كان؛ فقد فزع إلى الإمام زين العابدين، فأرسل عليه السلام ولده محمّد بن عليّ الباقر إلى الشام وزوّده بتعليماته الخاصّة، فوضع خطّةً جديدةً للنقد الإسلامي، وأنقذ الموقف[٢].

وقد قدِّر للإمام زين العابدين أن يتسلّم مسؤوليّاتِه القياديّةَ والروحيّةَ

(١) والقائل هو: روح بن زنباع.

(٢) التفاصيل والعبارات التي يذكرها رحمه الله واردة بحقّ الإمام محمّد الباقر عليه السلام ابتداءً لا الإمام السجّاد عليه السلام، فراجع: المحاسن والمساوئ ١: ٣٤٢؛ الأمالي (ابن سمعون) ١: ٦١؛ حياة الحيوان الكبرى ١: ٩٦ ـ ٩٧. وأشارت بعض المصادر إلى أنّ عبدالملك استقدم الإمام السجّاد عليه السلام إلى الشام واستشاره، ولم تتعرّض للتفاصيل (تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٦٠؛ البداية والنهاية ٩: ١٠٤)، وقد نُقل تارةً أنّ عبدالملك لجأ إلى داود بن يزيد بن معاوية (تاريخ مدينة دمشق ١٧: ١٩٥)، واُخرى إلى خالد بن يزيد بن معاوية (عيون الأخبار ١: ١٩٨ ـ ١٩٩؛ الأوائل: ٢٥٤؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٦: ٢٥٧؛ نهاية الأرب في فنون الأدب ٢١: ٢٢٣)، وثالثةً إلى محمّد بن الحنفيّة (تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ٣٣٢).

وإذا كانت هذه المصادر الاُولى صريحةً في لجوء عبدالملك إلى الإمام الباقر عليه السلام ابتداءً، فمن الممكن أن يكون رحمه الله قد استنتج ما ذكره باعتبار أنّ عبدالملك أمر «بضرب الدراهم سنة ستٍّ وسبعين، ثمّ أمر بعد ذلك بضرب الدنانير، وهو أوّل من ضربها في الإسلام» (الأخبار الطوال: ٣١٦؛ النقود الإسلاميّة، المتن: ١٠)، فكان ذلك في حياة الإمام السجّاد عليه السلام المتوفّى سنة ٩٥ هـ (الكافي ١: ٤٦٨، الحديث ٦)؛ فيُستبعد أن يكون عبدالملك قد لجأ إلى الإمام الباقر عليه السلام ابتداءً في حياة والده مع كونهما في المدينة، ومع علم عبدالملك بصدورهما عن معدن علم واحد.

وقد استشهد الشهيد الصدر رحمه الله بهذه الحادثة في بحث: الاتجاه الشمولي في دراسة حياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وذكر وقوعها بين هشام [بن عبدالملك] وبين الإمام الباقر عليه السلام، فصحّ منه رحمه الله الشقّ الثاني دون الأوّل. ويبدو أنّه رحمه الله قد خلط بين هذه الحادثة وبين جواب الإمام السجّاد عليه السلام عن كتاب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان الذي هدّد فيه بغزو المسلمين إن لم يؤدّوا الجزية، وهو ما ذكره رحمه الله في المحاضرة المذكورة.

بعد استشهاد أبيه، فمارسها خلال النصف الثاني من القرن الأوّل، في مرحلة من أدقّ المراحل التي مرّت بها الاُمّة وقتئذٍ، وهي المرحلة التي أعقبت موجة الفتوح الاُولى؛ فقد امتدّت هذه الموجة بزخمها الروحي وحماسها العسكري والعقائدي، فزلزلت عروش الأكاسرة والقياصرة، وضمّت شعوباً مختلفة وبلاداً واسعة إلى الدعوة الجديدة، وأصبح المسلمون قادةَ الجزء الأعظم من العالم المتمدّن وقتئذٍ خلال نصف قرن.

مواجهة الإمام السجّاد عليه السلام الخطرين المحدقين بالاُمّة الإسلاميّة:

وعلى الرغم من أنّ هذه القيادة جعلت من المسلمين قوّةً كبرى على الصعيد العالمي من الناحية السياسيّة والعسكريّة، فإنّها عرّضتهم لخَطَرَين كبيرين خارج النطاق السياسي والعسكري، وكان لا بدّ من البدء بعمل حاسم للوقوف في وجههما:

أحدهما: الخطر الذي نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات متنوّعة وأعراف تشريعيّة وأوضاع اجتماعيّة مختلفة بحكم تفاعلهم مع الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجاً.

وكان لا بدّ من عملٍ على الصعيد العلمي يؤكّد في المسلمين أصالتهم الفكريّة، وشخصيّتهم التشريعيّة المتميّزة المستمدّة من الكتاب والسنّة. وكان لا بدّ من حركة فكريّة اجتهاديّة تفتح آفاقهم الذهنيّة ضمن ذلك الإطار؛ لكي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنّة بروح المجتهد البصير والممارس الذكي، الذي يستطيع أن يستنبط منها ما يفيده في كلّ ما يستجدّ له من حالات.

كان لا بدّ إذاً من تأصيلٍ للشخصيّة الإسلاميّة، ومن زرع بذور الاجتهاد، وهذا ما قام به الإمام عليُّ بن الحسين عليه السلام؛ فقد بدأ حلقةً من البحث والدرس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، يحدّث الناس بصنوف المعرفة الإسلاميّة، من تفسير

وحديث وفقه، ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين، ويمرّن النابهين منهم على التفقّه والاستنباط.

وقد تخرّج من هذه الحلقة عددٌ مهمٌّ من فقهاء المسلمين، وكانت هذه الحلقة هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه، والأساس لحركته الناشطة.

وقد استقطب الإمام عن هذا الطريق الجمهورَ الأعظمَ من القرّاء وحملة الكتاب والسنّة، حتّى قال سعيد بن المسيّب: «إنّ القرّاء كانوا لا يخرجون إلى مكّة حتّى يخرج عليُّ بن الحسين، فخرج وخرجنا معه ألف راكب»[1].

وأمّا **الخطر الآخر**: فقد نجم عن موجة الرخاء التي سادت المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الامتداد الهائل؛ لأنّ موجات الرخاء تُعرّض أيّ مجتمع إلى خطر الانسياق مع ملذّات الدنيا، والإسراف في زينة هذه الحياة المحدودة، وانطفاء الشعور الملتهب بالقيم الخلقيّة والصلة الروحيّة بالله واليوم الآخر وبما تضعه هذه الصلة أمام الإنسان من أهداف كبيرة، وهذا ما وقع فعلاً. وتكفي نظرة واحدة في كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني ليتّضح الحال.

وقد أحسّ الإمامُ عليُّ بن الحسين بهذا الخطر وبدأ بعلاجه، واتّخذ من الدعاء أساساً لهذا العلاج، وكانت (الصحيفة السجّاديّة) ـ التي بين يديك ـ من نتائج ذلك؛ فقد استطاع هذا الإمام العظيم ـ بما أُوتي من بلاغة فريدة، وقدرة فائقة على أساليب التعبير العربي، وذهنيّة ربّانيّة تتفتّق عن أروع المعاني وأدقّها في تصوير صلة الإنسان بربّه، ووجده بخالقه، وتعلّقه بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبّر عنه ذلك من قيم خلقيّة وحقوق وواجبات ـ، أقول: قد استطاع الإمام عليُّ بن الحسين ـ بما أُوتي من هذه المواهب ـ أن ينشر من خلال الدعاء جوّاً

(١) اختيار معرفة الرجال: ١١٧.

روحيّاً في المجتمع الإسلامي، يساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما تعصف به المغريات، وشدّه إلى ربّه حينما تجرّه الأرض إليها، وتأكيد ما نشأ عليه من قيم روحيّة لكي يظلّ أميناً عليها في عصر الغنى والثروة، كما كان أميناً عليها وهو يشدُّ حجر المجاعة على بطنه.

وقد جاء في سيرة الإمام أنّه كان يخطب الناس في كلّ جمعة ويعظهم، ويزهّدهم في الدنيا، ويرغّبهم في أعمال الآخرة، ويقرع أسماعهم بتلك القطع الفنّيّة من ألوان الدعاء والحمد والثناء، التي تمثّل العبوديّة المخلصة لله سبحانه وحده لا شريك له[١].

وهكذا نعرف أنّ (الصحيفة السجّاديّة) تعبّر عن عمل اجتماعي عظيم كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام. إضافةً إلى كونها تراثاً ربّانيّاً فريداً يظلّ على مرّ الدهور مصدرَ عطاء ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب، وتظلّ الإنسانيّة بحاجة إلى هذا التراث المحمّدي العلوي، وتزداد حاجةً كلّما ازداد الشيطان إغراءً والدنيا فتنةً.

فسلام على إمامنا زين العابدين، يوم ولد، ويوم أدّى رسالته، ويوم مات، ويوم يُبعث حيّاً.

النجف الأشرف

محمّد باقر الصدر

❊ ❊ ❊

---

(١) الكافي ٨: ٧٢، الحديث ٢٩؛ الأمالي (الصدوق): ٥٠٣.

وقد تقدّم للشهيد الصدر رحمه الله حديثٌ في غاية الاقتضاب عن الإمام زين العابدين عليه السلام في مطلع المحاضرة الثانية عشرة، فراجع.

المرحلة الثانية

مرحلة بناء الكتلة الصالحة

○ الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام

١

الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام

○ الإمام الباقر عليه السلام ودوره في تحديد ملامح التشيّع

١

٢٤

الإمام الباقر عليه السلام

ودوره في تحديد ملامح التشيّع

أُلقيت (على الأرجح) بتاريخ ٧/ذي الحجّة/١٣٨٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

البحث في حياة الإمام الخامس عليه السلام، الإمام الباقر، وهو: محمّد بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب الباقر عليهم السلام.

الأدوار الثلاثة التي توزّعت عليها حياة الأئمّة عليهم السلام(١):

الإمام الباقر عليه السلام يشكّل تقريباً شبه بدايةٍ للدور الثاني من الأدوار التي قام بها الأئمّة عليهم السلام؛ فإنّ حياة الأئمّة عليهم السلام يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أدوار:

١ ـ الدور الأوّل: دور تحصين الإسلام ضدّ صدمة الانحراف:

الدور الأوّل هو الدور الذي ركّزت فيه الجهود وصرفت فيه الأتعاب والطاقات في سبيل تحصين الإسلام بالقدر الممكن ضدّ صدمة الانحراف التي حصلت بعد وفاة الرسول الأعظم (صلوات الله عليه)، صدمة الانحراف التي حصلت بعد وفاة القائد الأعظم كان من الممكن أن تأتي على الإسلام كلّه.

وفي هذه المرحلة التي حدثت [فيها] هذه الصدمة كان من المهمّ قبل كلّ شيءٍ أن يحصّن الإسلام، ولو بالقدر الذي يجعل منه شريعةً باقيةً إن لم يجعل منه مجتمعاً باقياً، أو دستوراً باقياً، أو دولةً باقية.

---

(١) راجع حول هذا التقسيم: المحاضرة الرابعة، تحت عنوان: مراحل تاريخ أئمّة أهل البيت عليهم السلام، والمحاضرة الخامسة والعشرين، تحت عنوان: الأدوار الثلاثة التي توزّعت عليها حياة الأئمّة عليهم السلام.

وهذا الدور ـ بحسب الحقيقة ـ هو الدور الذي مارسه أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام حتّى انتهى إلى الإمام السجّاد عليه السلام. وكان من أواخر ملامح هذا الدور الدمُ الطاهر الذي أراقه السفّاكون في يوم عاشوراء، دمُ سيّد الشهداء وأهل بيته الطيّبين الطاهرين.

المركز الرئيسي للنشاط في هذا الدور كان أخذ الاحتياطات وتحصين الإسلام ضدّ هذه الصدمة غير المترقَّبة وغير المخطَّط [لها] بعد أن حُصّن الإسلام ـ ولو كشريعةٍ ـ ضدّ هذه الصدمة، واطمُئنّ من هذه الناحية، بتفاصيل تذكر تباعاً لأحوال هؤلاء الأئمة الأربعة عليهم السلام[١].

٢ ـ الدور الثاني: دور إعطاء الإطار التفصيلي الخاص للشيعة:

بعد هذا انتقل العمل عند الأئمّة إلى الدور الثاني، وتحوّل المركز الرئيسي للنشاط من تلك الناحية ـ بعد الاطمئنان إليها ـ إلى ناحيةٍ أُخرى.

والمركز الرئيسي للنشاط الذي يميّز الدور الثاني عن الأدوار التي مرّ بها الأئمّة عليهم السلام هو دور إعطاء الإطار التفصيلي الخاصّ للشيعة بوصفهم الكتلة المؤمنة، المحافظة على التراث الحقيقي للإسلام وللشريعة ولأحكام القرآن.

هذا الإطار التفصيلي والخطوط التفصيليّة لهذه الكتلة ـ يعني للفرقة الناجية ـ لم يكن قد أُعطي بشكلٍ واضحٍ محدّد في أيّام الأئمّة الأربعة عليهم السلام؛ لأنّ الخطّ الرئيسي لم يكن هذا في أيّامهم، بل كان [عبارة عن] حماية الإسلام كشريعة، وإنعاش معنويّات هذا المجتمع الإسلامي بعد أن انهار من هول الصدمة التي خطّطها الانحراف بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله.

ولهذا يُرى أنّ الطابع الشيعي الخالص الواضح هذا يتجلّى أسرع فأسرع في كلمات الأئمّة من الدور الثاني ممّا يتجلّى في كلمات الأئمّة من الدور

---

(١) راجع المحاضرات السابقة من هذا الكتاب.

الأوّل.

وليس هذا في الحقيقة عبارةً عن تدرّج في التكوّن في نفس التشيّع كما قد يتخيّل للسالكين غير المرتبطين بأُصول هذه الأُسرة؛ [إذ] لم ينشأ التشيّع بالتدريج ولم يتدرّج؛ لأنّ هذا الشيء الذي أُعطي أخيراً هو الذي أُعطي أوّلاً لكن على المستوى الخاصّ والضيّق جدّاً.. هذا الشيء الذي كان يعطيه الإمام الباقر على المستوى العام للكتلة كان يعطيه أمير المؤمنين بالنصوص الصحيحة الثابتة عنه، لكن على مستوىً خاصٍّ جدّاً من الكتلة، على مستوى سلمان وأبي ذرّ ونحوهما.

فالتشيّع هو التشيّع، ولكنّ التخطيط الذي مارسه الأئمّة كان يختلف اتّجاهه العامّ وتركيبه وتكوينه وفقاً لمتطلّبات القضيّة الإسلاميّة في كلّ مرحلة.

فالإمام الباقر [يمثّل] بحسب الحقيقة شبهَ بدايةٍ لهذا الدور الثاني، الذي هو دور إعطاء الإطار التفصيلي للفرقة الناجية، وهذا الدور ينتهي بالإمام الرضا؛ لأنّه من خلال أتعاب وجهود هؤلاء الأئمّة: الإمام الباقر ثمّ الإمام الصادق ثمّ الإمام موسى بن جعفر عليهم السلام، وخلال إعطاء الإطار بأروع ما يمكن، وفي أدقّ ظروف تُتصوّر بالنسبة إلى الداعية والدعاة، عَظُمَ هذا الإطار واتّضح، وأصبح واضحاً بأنّ المسألة ليست مسألة شخصٍ غيورٍ على الإسلام فحسب، بل هي مسألة عقيدة وكتلة وطريقة خاصّة في تفسير الإسلام، وأنّ هذه الطريقة هي الطريقة التي يجب أن تقود المجتمع الإسلامي كلّه.

٣ ـ الدور الثالث: دور الإعداد لتسلّم زمام الحكم:

بعد هذا ننتقل إلى الدور الثالث الذي قرأنا في المجلس السابق شيئاً من مراحله المتوسّطة أو شبه الأوّليّة من حياة الإمام الجواد[١]؛ لأنّ المرحلة الثالثة

---

(١) أشرنا في أحد هوامش المحاضرة الرابعة إلى ما تحتمله من أنّ المحاضرة التي يقصدها رحمه الله هنا عن

تبدأ من الإمام الرضا.

وفي هذه المرحلة أصبحت الشيعة في مستوىً يقرّبهم إلى تسلّم زمام الحكم، وأصبح لهم من القواعد الشعبيّة ما يشكّل خطراً سياسيّاً حقيقيّاً على الخلفاء. وهذا هو الذي جعل هناك تغيّراً أساسيّاً في وجه سياسة الخلفاء مع هؤلاء الأئمّة بدءاً من الإمام الرضا، على النحو الذي أشرنا إليه في حياة الإمام الجواد[١]، وسوف نتكلّم عنه أكثر في حياة الرضا وبقيّة أئمّة ذلك الدور[٢].

الإمام الباقر عليه السلام وانطلاقة الدور الثاني:

الآن نحن نتكلّم عن إمامٍ هو في مطلع الدور الثاني من هذه الأدوار الثلاثة، وهو الإمام الباقر عليه السلام، الذي جاء بعد أن انتهى الدور الأوّل، وعرف المسلمون جميعاً أنّ آباء هذا الرجل هم الأشخاص الذين ضحّوا بأرواحهم ودمائهم وأوقاتهم[٣]، هم الأشخاص الذين ضحّوا بنعيم الدنيا وبانفتاحها وأبعادها، كلّ ذلك في سبيل أن يقفوا في وجه هذا الانحراف، و[يقولوا][٤] للناس ـ على أقلّ تقدير[٥] ـ بأنّ هذا ليس هو الإسلام، بل هو غير الإسلام، [وإنّ] التطبيق غير النظريّة، [وإنّ] الواقع الخارجي غير المدّعى، [وإنّ] المفهوم المعطى في الكتاب والسنّة [هو] غير هذا الذي تجسّد في كيان هؤلاء الزعماء المنحرفين.

الإمام الجواد عليه السلام تختلف عن المحاضرة السادسة والعشرين من هذا الكتاب عنه عليه السلام، والمحاضرة المقصودة لم تصلنا.

(١) كان قدس سره قد أحال إلى هذه الفكرة من محاضرة الإمام الجواد عليه السلام في المحاضرة الرابعة من هذا الكتاب، وقد تقدّم التعليق على ذلك آنفاً.

(٢) راجع حول طبيعة المرحلة الثالثة للأئمّة عليهم السلام: المحاضرة الخامسة والعشرين.

(٣) كذا في (غ)، وفي (ج): «أرزاقهم».

(٤) في (غ) و(ج): «يكون»، ولعلّ الصادر منه قدس سره ما أثبتناه.

(٥) الجملة الاعتراضيّة متعلّقة بالقول لا بالمقول له، أي بـ «الناس».

بعد أن أُنجز هذا المطلب خلال الدور الأوّل جاء الإمام الباقر ليقول: إنّ هذا الدور الذي أُنجز لم يكن مجرّد أعمال شخصيّة يقوم بها أشخاص متفرّقون لأجل مصلحة الإسلام وتجمعهم الغيرة على الإسلام فحسب، بل هذا في الحقيقة هو وجهٌ ومظهرٌ لتكتّلٍ واعٍ يؤمن بالإسلام إيماناً صحيحاً واعياً، وإنّ هذا التكتّل وهذه الفرقة هي الفرقة الناجية التي ذكرها رسول الله[1]، ولها معالمها الخاصّة، وإطارها الخاصّ، وشروطها الخاصّة، وموقفها الخاصّ تجاه مختلف شؤون المعرفة الإسلاميّة التي كانت رائجةً وقتئذٍ.

بحكم [تفهّمه][2] للمسؤوليّات في نهاية الدور الأوّل، فهو ـ بطبيعة الحال ـ سوف يبني على ما بنى عليه آباؤه السابقون، وطبعاً سوف يستفيد من المكاسب الكبيرة التي حقّقها آباؤه السابقون.

منزلة الإمام الباقر عليه السلام في نفوس الأُمّة:

إنّ الخطّ التاريخي الممتدّ هذا أعطى للإمام الباقر مقاماً كبيراً في نفوس الأُمّة الإسلاميّة، هذا المقام الكبير هنا ـ والذي قرّره كونُه وريثَ أُولئك الذين وقفوا في وجه الانحراف، وصانوا الإسلام في مقابل تلك الصدمة التي سبّبها ذلك الانحراف ـ يتجلّى في نصوص تاريخيّة كثيرة عديدة وافرة يمكن الاطّلاع عليها في تراجم الإمام الباقر عليه السلام[3].

أ ـ الإمام الباقر يعبِّر عنه في سؤال [هشام][4] حينما يراه في الحجّ يقول:

---

(١) راجع: الخصال ٢: ٥٨٤، الحديث ١٠.

(٢) في (غ) و(ج): «تكلّمه»، ولعلّ الصادر منه ﷺ ما أثبتناه.

(٣) راجع: بحار الأنوار ٤٦: ٢٨٦، الباب ٦: مكارم أخلاقه وسيره وسننه وعلمه وفضله وإقرار المخالف والمؤالف بجلالته صلوات الله عليه.

(٤) في (غ) و(ج): «ابن هشام»، والصحيح ما أثبتناه.

«من هذا؟»، فيقال له: «هذا من افتتن به أهل العراق»(١)، أو: «هذا إمام أهل العراق»(٢).

ب ـ أو بتعبير فقيهٍ سنّيٍّ آخر في مقام الاستهزاء يقول: «هذا نبيّ أهل الكوفة»(٣)، على أساس أنّ الناس غَلَوْا في هذا الشخص إلى هذه الدرجة.

ج ـ إنّ تصوير حياته الدينيّة في موسم الحجّ، وكيف أنّ الآلاف من مختلف الجهات كانوا يأتون إليه ويستفتونه، من العراق، ومن خراسان، ومن غيرها(٤).. يعطي في المقام الامتداد الروحي الشعبي واسعَ النطاق الذي كان يتمتّع به الإمام الباقر عليه السلام.

د ـ إنّ محاولات الأسئلة ومحاولات الامتحان من قبل كبار فقهاء المسلمين الذين بدؤوا في ذلك الوقت مدارسهم الفقهيّة، ومحاولتَهم تحدّي الإمام الباقر، و[سفرهم] من بلدٍ إلى بلدٍ لأجل أن يحاجّوه بسؤالٍ، أو لأجل أن [يحرجوه](٥) في مسألة(٦).. هذا يدلّ على الصيت الذائع وعلى الفكر الواسع الذي أوجد مثل ردود الفعل المختلفة هذه في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

هـ ـ والذي يبدو من هذه النصوص أنّ هذه الزعامة الشعبيّة الروحيّة كانت فوق الحدود والانقسامات؛ فلم يكن زعيمَ شعبٍ دون شعب، بل كانت

---

(١) الإرشاد ٢: ١٦٣؛ كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام ٢: ١٢٦. والصحيح أنّ سالماً مولى هشام بن عبد الملك رأى الإمام الباقر عليه السلام في الحجّ فقال لهشام: «هذا محمّد بن علي»، فقال له هشام: «المفتون به أهل العراق؟!».

(٢) الكافي ٦: ٤٢٩، الحديث ٣، حيث أُجيب بذلك قومٌ من قريش عند سؤالهم عنه عليه السلام.

(٣) الكافي ٨: ١٢٠، الحديث ٩٣، والقائل هو هشام بن عبد الملك في جواب سؤال نافع بن الأزرق مولى عمر بن الخطّاب، وليس فقيهاً سنيّاً.

(٤) راجع: بحار الأنوار ٤٦: ٢٣٣ ـ ٢٨٦، الباب ٥: معجزاته ومعالي أُموره وغرائب شأنه صلوات الله عليه.

(٥) ما بين عضادتين غير مفهوم في (غ) وساقطٌ من (ج).

(٦) راجع مثلاً: كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام ٢: ١٢٦ ـ ١٢٧.

الشعوب الجديدة الداخلة في الإسلام أيضاً تعترف به وتؤمن به، وترتبط به على حدّ ارتباط أهل الكوفة والبصرة من أبناء الشعب العربي.

و ـ وكذلك في داخل الشعب العربي لم يكن هناك فرقٌ من حيث الارتباط الروحي، بالرغم من التناقض العنصري أو القَبَلي الذي كان موجوداً في الحياة العربيّة في أيّام الخلافة الأُمويّة بين المضريّين والحميريّين، مع هذا نرى في غرّة أصحاب الإمام الباقر من هؤلاء وأُولئك، بالرغم من العداء الشديد المستعر[1] الذي امتلأت به صفحات تاريخ بني أُميّة بين الحميريّين والمضريّين، حتّى أصبح الشعراء الشيعة الرسميّون للإمام من هذين الطرفين.

ولا ننسى بهذه المناسبة الفرزدق التميمي المضري[2] والكميت الأسدي الحميري[3]؛ فهما ـ بالرغم من اتّجاههما القَبَليّين المتعاديين ـ اتّفقا على الولاء للإمام الباقر ولأهل البيت عليهم السلام.

كلّ هذا رصيدٌ ورثه الإمام الباقر من تلك الجهود والأتعاب التي تجسّدت في الدور الأوّل من الأدوار الثلاثة، ورثه حينما بدأ الدور الثاني من هذه الأدوار الثلاثة.

وقلنا: إنّ الطابع العامّ لهذا الدور الذي دشّنه الباقر عليه السلام وابتدأه هو [أنّه] طابعُ إطارٍ تفصيليٍّ للتشيّع، يعني وضع النقاط على الحروف لإعطاء الإطار الواضح محدّدِ المعالم.

---

(١) كذا في (غ)، وفي (ج): «المستمرّ».

(٢) راجع حول ترجمته: الأغاني ٢١: ١٨٠. وبعد إنشاده قصيدته المعروفة في الإمام زين العابدين عليه السلام أسقط هشام بن عبدالملك صلته من الديوان فأمر له عليه السلام ببدرة، فردّها الفرزدق وقال: «إنّما تكلّمت وقلت ما قلت لله عزّ وجلّ ولا أقبل عليه عوضاً وأجراً»، فردّها عليه عليه السلام وقال: «نحن أهل البيت إذا خرجت عنّا صلة لم ترجع أبداً» الحدائق الورديّة في مناقب الأئمّة الزيديّة ٢: ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٣) راجع حول ترجمته: الأغاني ١٧: ٥، وروي أنّ الإمام الباقر عليه السلام دعا له بالمغفرة ثلاث مرّات، فراجع: مناقب آل أبي طالب ٤: ١٩٧.

مسؤوليّة الإمام الباقر عليه السلام الرئيسيّة: إعطاءُ التشيّع إطاره المحدّد:

في هذا المقام كان الإمام عليه السلام يواجه مسؤوليّاتٍ كبيرةً جدّاً ومهمّةً جدّاً:

أوّلاً وقبل كلّ شيء ـ وهي المسألة الرئيسيّة في هذا الدور ـ: مسألة إعطاء هذا الإطار وإعطاء هذه الملامح المحدّدة التفصيليّة للتشيّع، وإخراج العمل من كونه عملاً يقوم به شخص أو شخصان أو ثلاثة إلى عملٍ يمثّل فرقةً، يمثّل الإسلام بوجهه الحقيقي[١].

هذا المطلب كان الإمام الباقر يمارسه:

تارةً: عن طريق التثقيف الموسّع المتنوّع داخل مدرسته.

وأُخرى: عن طريق مجابهة الأُمّة بهذا الإطار.

الإمام الباقر عليه السلام يجابه ذهنيّة الأُمّة غير المؤمنة بإطار أهل البيت عليهم السلام:

لأوّل مرّة تقريباً في حياة الأئمّة كان الإمام الباقر يجابه الأُمّة بهذا الإطار، ويتحدّى ذهنيّة أكثر أفراد الأُمّة الذين لم يكونوا يؤمنون بهذا الإطار. فبالرغم من أنّهم كانوا يؤمنون بالإمام الباقر كشخص، وأنّه رجل عظيم، لكن لم يكونوا يؤمنون بهذا الإطار. والإمام الباقر كان يعطي الشعار على مستوى الأُمّة إعطاءً واضحاً صريحاً بنحوٍ غير مألوفٍ بالنسبة إلى آبائه عليهم السلام:

أ ـ في الرواية: أنّ الإمام الباقر حجّ بيت الله الحرام واصطحب معه ولده الإمام الصادق، حتّى إذا بلغا المسجد الحرام والآلاف من الناس يحتمون[٢] في هذا المسجد يقف الإمام الصادق في قبال أبيه ويعلن ويقول: «نحن.. ونحن.. ونحن»، فيعطي المفهوم الشيعي عن أهل البيت عليهم السلام بشكلٍ واضحٍ محدّد، ويبيّن أمام هذا الملأ ـ ملأ هشام بن عبد الملك ـ ويعلن أمامه: «نحن

---

(١) كذا في (غ) و(ج)، ومن الجائز أن يكون: «... إلى عملٍ يمثّل فرقةً تُمثّل الإسلام».

(٢) كذا في (غ) و(ج)، ولعلّ الصادر منه قدس سره: «يحجّون».

نتمتّع بهذه الخصوصيّات وبهذه الصفات ـ التي مرجعها إلى أنّ أهل البيت هم أصحاب الزعامة الروحيّة والاجتماعيّة في مجتمع الإسلام ـ ونحن ورّاث الإسلام الحقيقيّون»[١].

هذا الإعلان على هذا المستوى الجماهيري وفي ساعةٍ يكون نفسُ هشام حاضراً ليس مجازفةً، وإنّما هو وفق متطلّبات هذا الدور؛ لأنّه في هذا الدور يجب أن يسمع المسلمون أنّ المسألة ليست مسألة [أنّ] الإمام الحسين بن علي عليهما السلام حارب مخلصاً للإسلام وقتل، أو مسألة [أنّ] عليّ بن أبي طالب عليه السلام حارب وقتل، وإنّما هي مسألة اتّجاهٍ عامّ، وزعامةٍ لها تخطيطٌ واضحُ المعالم، وأنّ هذه الزعامة هي التي برزت في عليٍّ تارة وفي الحسين أُخرى، وسوف تبرز وتبقى تبرز على مختلف العصور والأجيال،

هذا المطلب كان لا بدّ من تنبيه الأُمّة إليه تنبيها يهزّها هزّاً عميقاً.

ب ـ نظير هذا وقع أيضاً حينما أُشخص الإمام الباقر عليه السلام إلى الخليفة الأُموي، وأشكل على الخليفة، والخليفة سأله وقال له: «هل أنت من ولد أبي تراب؟ أنت ترابي؟»، ثمّ شرع في كلامٍ يُراد به الاستخفاف[٢] بالإمام، بعد هذا وقف الإمام الباقر عليه السلام خطيباً في وجه الخليفة وأعلن نفس هذا المفهوم، المفهوم الشيعي الواضح أعلنه هناك[٣].

والحسين عليه السلام لم يعلن هذا المفهوم. مع أنّه ثار على يزيد، ولكنّه مع هذا لم يعلن هذا المفهوم في مجلس والي يزيد، لم يقل له: «نحن»، وإنّما قال له:

(١) دلائل الإمامة: ١٠٤.

(٢) في (غ) و(ج): «كلام يُعاب به والاستخفاف»، ولعلّ الصادر منه عليه السلام ما أثبتناه، ولم يرد في المصدر حديثٌ بين الإمام عليه السلام وبين الخليفة، بل الوارد عن الصادق عليه السلام: «لمّا أُشخص أبي محمّد بن علي إلى دمشق سمع الناس يقولون: (هذا ابن أبي تراب)»، قال: «فأسند ظهره إلى جدار القبلة ثمّ..».

(٣) مناقب آل أبي طالب ٤: ٢٠٣.

«إنّ يزيد شارب الخمر، ومثلي لا يبايع مثله»[١].

لماذا؟ لأنّ الحسين كان يعيش مسؤوليّات الدور الأوّل الذي قلناه[٢]، والدور الأوّل كان لا بدّ فيه قبل كلّ شيءٍ من الحفاظ على أصل الإسلام، وإنقاذ سمعة الإسلام من شارب الخمر.

كان هذا هو الواجب واللازم قبل كلّ شيء، أن يُنقّى الإسلام ويُبعد عن مستوى شارب الخمر، وهذا هو الذي قاله الحسين عليه السلام.

أمّا الإمام الباقر عليه السلام، فبالرغم من أنّه لم يكن قد حمل السيف في تلك الساعة كما حمله الحسين عليه السلام، [ولكنّه] قال بالمفهوم الشيعي الخالص عن زعامة أهل البيت عليهم السلام.

هذا كلّه يعطي أنّ الدور دورٌ جديد، و[أنّنا] على أبواب دورٍ جديدٍ له تخطيط جديد، وله هدف رئيسي جديد يختلف عن الهدف الرئيسي للدور السابق. وليس معنى هذا أنّ الهدف السابق عطّل في هذا الدور، وإنّما معناه أنّ العناية أُوليت بهذا الهدف أوّلاً، مع الحفاظ على سائر الأهداف الأُخرى.

إذاً، فهذه كانت هي المسألة الرئيسيّة في هذا الدور.

العقبة التي اصطدم بها الإمام الباقر عليه السلام من الخارج:

وكان الإمام الباقر عليه السلام ـ وفي مقام إعطاء هذه الملامح التفصيليّة وهذا الإطار المحدّد المعالم للفرقة الناجية ـ يصطدم من الخارج بعقبة، ومن الداخل بعقبة.

أمّا العقبات التي كان يصطدم بها من الخارج فهي: أنّ الحياة الإسلاميّة كانت وقتئذٍ تتمخّض عن إعطاء إطارٍ آخر ومبدأٍ آخر محدّد المعالم معاكسٍ

(١) الفتوح ٥: ١٤.

(٢) في مطلع هذه المحاضرة.

لهذا المبدأ الذي حاول الإمام الباقر أن يعطيه.

تمخّض الانحراف السياسي عن مبدأ فكري منحرف:

الإمام الباقر عاصر حالة تمخّض مبدأٍ فكريٍّ جديد تجسّد فيه الانحراف السياسي؛ فكما أنّ العمل السياسي في الدور الأوّل لأئمة أهل البيت عليهم السلام بدأ من الدور الثاني في إعطاء ملامح تفصيليّة للفرقة الناجية، [فإنّ] الانحراف السياسي الذي عاشه الدور الأوّل كان قد بدأ يتمخّض عن مبدأ فكري.

ما هو ذلك المبدأ؟ هو مبدأ مرجعيّة الصحابة، أو الصحابة والتابعين.

تعلمون بأنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أعطى المرجعيّة السياسيّة والمرجعيّة الفكريّة لعليٍّ بن أبي طالب ولخلفائه عليهم السلام من بعده[1]. وتعلمون أنّ المرجعيّة السياسيّة انتزعت من أمير المؤمنين عليه السلام إثر وفاة النبي صلى الله عليه وآله. وأمّا المرجعيّة الفكريّة ـ كمرجعيّة رسميّة ـ فقد بقيت شاغرةً ومعطّلة، ولم يكن هناك تخطيطٌ واضحٌ لملء هذا الفراغ في عهد الخلفاء الثلاثة، وهذا ما سوف نبحثه في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام[2].

وبعد انتهاء عصر الصحابة وبدء عصر التابعين، وانقراض كثيرٍ من التابعين أيضاً وبدء [عصر] تابعي التابعين، في هذا العصر واجهت الدولة الإسلاميّة والمجتمع الإسلامي ضرورة ملء هذا الفراغ؛ وذلك لأنّهم ابتعدوا عن مصادر الإسلام، ابتعدوا عن الكتاب والسنّة وعن عصر النبي صلى الله عليه وآله، ابتعدوا عن لغة الكتاب ومناسباته وظروف الكتاب، وأصبح الكتاب لا يخلو من غموضٍ في نظرهم باعتبار البعد الزمني، وكذلك النبي صلى الله عليه وآله؛ [حيث] لم يبقَ لهم شخصٌ ينقل

---

(١) راجع حول الفكرة: التشيّع والإسلام (بحث حول الولاية): ٥٦، [المرجعيّة الفكريّة والقياديّة لأهل البيت عليهم السلام].

(٢) ربما يقصد قدس سره ما وعد ببحثه حول حياة أمير المؤمنين عليه السلام ممّا لم يصلنا على تقدير أنّه بحثه. وراجع على كلّ حال ما ذكره قدس سره في المحاضرة الخامسة حول عدم كفاءة قيادة التجربة الإسلاميّة.

لهم النصوص عنه مباشرةً.

واتّسعت الحياة الإسلاميّة، واستجدّت فيها أنواع وأحداث وملابسات وتعقيدات، وفتحت الأبواب على مجالاتٍ جديدةٍ لم تكن بالحسبان، في كلّ ذلك كان يُحتاج إلى مرجعٍ فكري، [فمن] هو المرجع الفكري هناك؟

بطبيعة الحال لم يكن من الممكن للخلفاء أن [يُقرّوا] المرجعيّة الفكريّة لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنّهم وإن كان لا شغل لهم بالمرجعيّة الفكريّة، ولكنّ المرجعيّة الفكريّة كانت تمهيداً للمرجعيّة السياسيّة. ولو أنّهم أعطوا المرجعيّة الفكريّة لأهل البيت لأعطوهم أقوى سلاحٍ يمكن أن يصلوا به إلى الحكم، وأن يُرجعوا من جديدٍ حقّهم في المرجعيّة السياسيّة.

فكان لا بدّ إذاً من تسليط الأضواء على جهةٍ اُخرى، وكان لا بدّ إذاً من إشغال الرأي العام عن أهل البيت عليهم السلام مهما أمكن، وكان لا بدّ إذاً من تجميد منابع الصلة بين أهل البيت وبين المسلمين؛ لكي لا يفكّر هؤلاء في استرجاع الحكم بعد ذلك.

هناك كان يتمخّض الفكر المنحرف في حياة الاُمّة الإسلاميّة عن وضع مبدأ، وهو مبدأ مرجعيّة الصحابة، وأن يكون قولُ الصحابي حجّة، وأن يكون أصلاً برأسه؛ باعتبار أنّ الصحابي يعرف ذوق الإسلام وقد فهمه وعاش قضاياه، فلا بدّ وأن لا يكون في أقواله وانطباعاته مخالفاً مع الإسلام، وكان مثل هذا المبدأ مقبولاً من الناحية الذوقيّة بحسب الظاهر.

وحيث إنّ المبدأ بنفسه أيضاً لم يكن يَملأُ كلّ الفراغ؛ لأنّ الصحابة أنفسهم في معالجاتهم للمشاكل وفي أحكامهم وقضاياهم لم يكونوا يستوعبون الفراغ هذا أيضاً، فكان الفكر المنحرف في الحياة الإسلاميّة يتمخّض عن وضع

(متمّم الجعل)[١] لمرجعيّة الصحابة، ومتمّم الجعل كان هو الاجتهاد والرأي، هذا المبدأ الذي قامت على أساسه بعد هذا مدارس القياس والاستحسان والمصالح المرسلة ونحو ذلك من المدارس التي استحدثها فقهاء المسلمين من [أهل] السنّة.

هذا كان يتمخّض حينما كان الإمام الباقر عليه السلام يعلن عن المبدأ الصحيح، حينما كان يواجه المسلمين بالإطار الحقّ للفرقة الناجية، ويعطي هذا الإطار المعالم المحدّدة.

وهذا الإمام كان يواجه صعوبةً كبيرةً من هذه الناحية، وفي الروايات الواردة عن مناقشة الإمام الباقر عليه السلام: «إنّك ترسل عن رسول الله، وكيف يصحّ هذا الإرسال؟»، وهذه المناقشة استبطانٌ لمرجعيّة الصحابة، [فبالنتيجة] المرجع هو الصحابة، ولا بدّ أن تُسند عن[٢] رسول الله صلى الله عليه وآله[٣].

التقيّة من ذهنيّة الرأي العام:

وبالرغم من أنّ الإمام الباقر عليه السلام تحدّى الفكرة العامّة، وأعطى فكرة مرجعيّة أهل البيت بشكلٍ واضح، وصرّح بذلك في أقسى[٤] المجالس من

---

(١) فكرة (متمّم الجعل) فكرة أُصوليّة تُنسب إلى المحقّق النائيني رحمه الله. فراجع حولها: دروس في علم الأُصول (الحلقة الثالثة): ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) في (ج): «أن نستفيد من رسول الله صلى الله عليه وآله»، وما أثبتناه هو ما يبدو من (غ)، والمناسبُ لما يأتي لاحقاً.

(٣) عن سالم بن أبي حفصة قال: «لمّا هلك أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام قلت لأصحابي: انتظروني حتّى أدخل على أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام فأعزّيه، فدخلت عليه فعزّيته، ثمّ قلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! ذهب والله من كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله فلا يُسأل عمّن بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله، لا والله! لا يرى مثله أبداً، قال: فسكت أبو عبد الله عليه السلام ساعةً ثمّ قال: قال الله عزّ وجلّ:... فخرجت إلى أصحابي فقلت: ما رأيت أعجب من هذا! كنّا نستعظم قول أبي جعفر عليه السلام (قال رسول الله صلى الله عليه وآله) بلا واسطة، فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: (قال الله عزّ وجلّ) بلا واسطة» الأمالي (المفيد): ٣٥٤، الحديث ٧؛ الأمالي (الطوسي): ١٢٥، الحديث ٨.

(٤) في (غ) و(ج): «أقصى»، ولعلّ الصادر منه رحمه الله ما أثبتناه، وهو المناسب للسياق.

وجهةٍ سياسيّة، [لكن] في حالاته الاعتياديّة كان هو ومن جاء بعده في تقيّةٍ شديدةٍ من ناحية هذا المبدأ بالذات، وأنا أعتقد أنّ الأئمّة كانوا في تقيّة من ذهنيّة الرأي العام أكثر ممّا كانوا في تقيّة من ناحية خلفاء الجور والظلم[(١)].

لم يكن الأئمّة في تقيّة من ناحية خلفاء الجور بتلك الدرجة التي نراها في الروايات والأخبار، لا أظنّ أنّها بتمامها كانت مستندةً إلى اتّقاء خطر خلفاء الجور، وماذا يهمّ خلفاء الجور أن تكون الفتوى هكذا أو هكذا في مسائل الطهارة والصلاة والصوم، ونحو ذلك من الأُمور التي لا ترتبط بلهوهم وأُنسهم وسياستهم وشهواتهم التي [تهمّهم][(٢)]، لم يكونوا يهتمّون بهذه الناحية بالمقدار الذي يجعل الإمام يتّقي هذا الاتّقاء الذي يبدو من الروايات.

[هل] كان الإمام يتّقي في الموارد التي لا ترتبط لا من قريب ولا من بعيد بمسألةٍ سياسيّة؟ حتّى في هذه المواضيع كان الإمام يتّقي؟ ولماذا كان يتّقي؟[(٣)]

الإمام كان ـ في نظر المسلمين أجمع ـ رجلاً عالماً كاملاً عاملاً عادلاً متديّناً، وكان لا يُشكّ في أنّه في طليعة أهل العلم والورع والتقوى، فلماذا لم يكن يقول في مسألةٍ: «إنّ هذا حرام» أو «إنّ هذا حلال»، ولا يهمّ ذلك الخليفة الجالس في قصره أن يكون هذا حراماً أو أن يكون ذلك [حلالاً] ما دام الخراج بيده وما دام الأمر أمره ونهيه؟

الذي أراه هو أنّ ذهنيّة المسلمين التي كرّسها الانحراف السياسي

---

(١) راجع كلاماً له قدس سره حول هذه الفكرة في: بحوث في علم الأُصول ٧: ٣٤.

(٢) في (غ) و(ج): «التي تحتمل بهم»، وما أثبتناه هو المناسب للسياق.

(٣) قال قدس سره في بعض أبحاثه: «ما كان الأئمّة يمارسونه من تقيّة مع الحكّام إنّما يرجع إلى التعامل معهم كحكّام، وعدم التجاهر بعدم صلاحيّتهم للحاكميّة، لا تبرير فسقهم وفجورهم» بحوث في شرح العروة الوثقى ٣: ٤٤١.

المستمرّ المتدرّج نشأت بنحوٍ تستغرب مرجعيّة أهل البيت، وتستنكر هذه الفكرة. فبالرغم من إعظامها لأشخاص أهل البيت عليهم السلام، ولكنّها تستغرب فكرة أنّ الإسلام قد أُعطي أمانةً بيد هذه الأُسرة الخاصّة، أو بيد أشخاصٍ متسلسلين من هذه الأُسرة الخاصّة[1].

بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بأربعين أو بخمسين سنة أصبحت هذه الفكرة تبدو غريبة، وعمّق غرابتها وشذوذها معاوية وخلفاء معاوية؛ [وذلك] بقطعهم الصلة بين المسلمين وبين كثيرٍ من الروايات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله. وفكرة أنّ الإسلام أُعطي أمانةً بيد أهل البيت، وأنّ أهل البيت هم أُمناء بصورة مباشرة على الإسلام، [وأنّهم] علماء بصورة مباشرة للإسلام، هذا المطلب أصبح شيئاً غريباً، بل أصبح شيئاً تمجّه الطباع وتضيق به.

خيارات الإمام الباقر عليه السلام في مواجهة هذه العقبة:

هنا الإمام الباقر عليه السلام الذي عاش محنة هذا الدور الثاني الذي نتكلّم عنه كان له طريقان:

١ ـ إمّا أن ينصب له مدرسةً فقهيّة كما ينصب غيره من الفقهاء مدرسة فقهيّة، وحينئذٍ يفتي على أساس الرواية المسندة عن النبي صلى الله عليه وآله تارةً، وعلى أساس الاجتهاد والمصالح أُخرى، غاية الأمر بطبيعة الحال أنّه لا يفتي بخلاف الواقع، [بل] يفتي بالواقع، لكن يُلبِس الواقع هذا الثوب المعترف به بحسب الذهنيّة العامّة.

فحينئذٍ: هل كان [سيشكّل] خطراً من هذه الناحية، أو كان [سيشكّل] من هذه الناحية شيئاً يستفزّ الخليفة بمجرّد أن خالف الفقيه الفلاني مع أنّه نهج

---

(١) راجع حول تضاؤل رصيد الأئمّة عليهم السلام بنظر الأُمّة بوصفهم قادتها: ما ذكره قدس سره في المحاضرة الثانية عشرة حول اختلاف رصيد الإمام الحسن عليه السلام عن رصيد الإمام علي عليه السلام بنظر الأُمّة، والذي عمّقه في المحاضرة الرابعة عشرة.

نفس المنهج، واتّبع نفس الإطار العامّ الذي اتّبعه الفقيه الآخر؟

لو كان عليه السلام قد سلك هذا السلوك لما استفزّ الخليفة، ولما استفزّ السياسة الحاكمة، ولكان هذا يجعله في مصاف بقيّة الفقهاء، بل يجعله أكبر من بقيّة الفقهاء الآخرين [الذين كانوا] كلّهم بالنظر العامّ أهبط من مستوى الأئمّة.

يقول ذلك الشخص: «ما رأيت العلماء أمام شخصٍ هم أصغر وأحقر منهم أمام محمّد الباقر»[١].

لو كان ينهج نفس المنهج ويتّخذ نفس الإطار ويُلبس الفتوى الواقعيّة هذه الأثواب إذاً لنجح، ولما وجد هناك تقيّة بهذا المعنى الذي [قلناه].

نعم، توجد تقيّة في مجالاتٍ خاصّةٍ ترتبط بمصالح الحاكم لا أكثر من ذلك.

٢ ـ لكنّ هذا كان يتنافى مع طبيعة الذات[٢]؛ لأنّ هذا إمضاءٌ ضمنيٌّ لهذه الأثواب، إمضاءٌ ضمنيٌّ لهذا الإطار، إمضاءٌ ضمنيٌّ لهذه الذهنيّة العامّة المنحرفة عند المسلمين، وتعطيلٌ ضمنيٌّ لمبدأ مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام.

إنّ المسألة الجهاديّة وقتئذٍ لم تكن مسألةَ أن ينقل الفتوى الواقعيّة في هذه القضيّة أو في تلك القضيّة، وإنّما [أنْ] تُعطى في إطار مرجعيّة أهل البيت، هذه كانت هي المسألة الجهاديّة، وهذه المسألة الجهاديّة هي التي تستفزّ السلطان، وتستفزّ الذهنيّة العامّة للمسلمين أيضاً؛ لأنّ الذهنيّة العامّة للمسلمين غير مستعدّةٍ لِأنْ تسمع مثل هذا.

نعم، هي مستعدّة لِأنْ تسمع من الإمام على قدر ما تسمعه من مالك وأبي

---

(١) قال عبد الله بن عطاء: «ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر» تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ٢٧٨؛ مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ٢٨٠. وفي: تذكرة الخواص: ٣٠٢ أنّ القائل: عطاء.

(٢) كذا في (غ) و(ج).

حنيفة وغيرهم، ولكنّها غير مستعدّة لِأنْ تسمع ذلك على نحوٍ غيبيٍّ إلهي، وإنّما تقول حينئذٍ: «إنّ هذا ساحر، إنّ هذا كذّاب» كما قال الجاهليّون عن جدّه صلى الله عليه وآله![(١)]

إذاً، ففي الوقت الذي كان فيه الإمام يجاهد فيه بإعطاء هذا الإطار، كان في الوقت نفسه يتّقي عن إعطاء هذا الإطار إلّا في الحدود التي تحقّق مكسباً جديداً للفرقة، من دون أن يستفزّ أذواق الآخرين بما يعود على الفرقة بالوبال وبالخسارة.

وكثيرٌ من الإفتاءات الفقهيّة أنا [أظنّها] على هذا الأساس؛ لأنّ أمر الإمام كان يدور بين أن يُظهر الواقع لكن في إطارهم، وبين أن لا يُظهر الواقع. في المقام لم يظهر الواقع، وتابعهم بحسب الصورة، بل كان إمّا أن يعطي الواقع بثوبه الإلهي، وإمّا أن يتظاهر بالتبعيّة المطلقة للفقهاء الآخرين وأنّه ليس له كلامٌ إلّا كلامهم، كلّ هذا كان لأجل دقّة الموقف بكلا قسميه.

هذه هي المشكلة التي كان يواجهها الإمام الباقر عليه السلام بحسب الخارج، مشكلة تمخّض الانحراف في الحياة الإسلاميّة عن وضع مبدأ آخر في مقابل هذا المبدأ.

وهذا المبدأ عاصره الإمام الباقر عليه السلام في حياة مخاض، ثمّ يعاصره الإمام الصادق وهو في حالة عنفوانه، ويواجهه بعد أن اشتدّ [ساعدُه][(٢)] ونما وأصبح شيئاً رسميّاً مقهراً[(٣)] مفروغاً عنه، على ما يأتي في حياة الإمام الصادق عليه السلام[(٤)].

---

(١) ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ص: ٤.

(٢) في (غ) و(ج): «قاعله»، ولعلّ الصادر منه قدس سره ما أثبتناه.

(٣) كذا في (غ) و(ج).

(٤) إذا كان قدس سره قد تحدّث بشيء عن الإمام الصادق عليه السلام، فلم يصلنا.

العقبة التي اصطدم بها الإمام الباقر عليه السلام من الداخل :

وأمّا المشكلة التي كان يواجهها من الداخل فهي المشكلة التي كان يواجهها عليه السلام في داخل الإطار الشيعي.

حينما بدأ القادة بإعطاء المناهج التفصيليّة وإعطاء الخطوط التفصيليّة للتشيّع بوصفه الوريث الحقيقي للإسلام ومعبّراً حقيقيّاً عنه، في هذا المقام كان من الطبيعي أن يوجد شيءٌ من التشويش والاضطراب في داخل الكيان الشيعي أيضاً؛ لأنّ هذه الحدود وهذه المعالم لم تكن تُعطى بصورة [خاصّة] واضحة منشورة، بلا خوف ولا تقيّة ولا وجل، مع التخطيط اللازم والشرح اللازم، وإنّما كانت تعطى في ظروف جهادية معقّدة و[محتفّة][1] بالمشاكل التي شرحناها[2] والتي لم نشرحها.

إذاً، فمن طبيعة هذا أنّ مثل هذه المعطيات سوف يدخل عليها كثيرٌ من التغيير والتبديل والتطوير في داخل [الجهاز][3]، في داخل الكتلة.

هذا المفهوم حينما ينطلق من عند الإمام عليه السلام لا يسمعه الكلّ على مستوىً واحد وبدرجة واحدة، وإنّما يبقى يمشي من إنسانٍ إلى إنسانٍ بتُؤَدَةٍ وببطءٍ إلى أن يستوعب كلَّ الكتلة. هذا المفهوم حينما يمشي شأنه [شأن] الماء حينما يمشي على الأرض؛ يأخذ من تراب الأرض ومن أوساخها، وهكذا.. حتّى يخرج عن كونه ماءً مطلقاً إلى كونه ماءً مضافاً أو ماءً متغيّراً، هذه المفاهيم كانت حالها هكذا.

---

(١) في (غ) و(ج): «مختلفة».

(٢) في هذه المحاضرة.

(٣) في (غ) و(ج): «الجهاد»، ولعلّ الصادر منه رحمه الله ما أثبتناه؛ لمناسبة السياق، ولما يأتي منه قريباً.

نشوء اتّجاهات التحريف والغلوّ داخل الإطار الخاص:

في مثل هذا الجوّ وجدت هناك فرصٌ وإمكانيّات في داخل جهاز الفرقة الناجية للتحريف والانحراف، ولبناءات باطلة ضالّة في داخل هذه الفرقة الناجية. والتاريخ يقول بأنّ اتّجاهات جديدةً للغلوّ نشأت في فترةٍ [مقاربة] لحياة الإمام الباقر عليه السلام وفي حياته.

وكان من جملة المعمّقين لهذه الاتجاهات في داخل الفرقة هم الأشخاص الذين اكتسبوا بعد ذلك اسم (الحنفيّين) أو (المذهب الحنفي) أو نحو ذلك؛ يعني الأشخاص الذين انتسبوا إلى دعوى إمامة محمّد بن الحنفيّة وبعده [إمامة] أبي هاشم، نفس محمّد بن الحنفية لم يثبت بوجهٍ من الوجوه أنّه ادّعى الإمامة، وإنّما شُوّش عنه بهذا المفهوم في عملٍ قام به المختار في الكوفة[١]، وبعد محمّد بن الحنفية جاء ابنه أبو هاشم[٢].

ويبدو أنّ أبا هاشم كان رجلاً غير واضح وغير منسجم مع خطّ أهل البيت عليهم السلام، فقولبت هذه الأُمور التي [أحاطت] أباه بشكل مذهب، ثمّ أخذ يضيف إلى هذا المذهب من المعطيات التي كان يعطيها الأئمّة عليهم السلام بعد تحريفها وتشويشها؛ فالأئمّة كانوا يعطون الحدود الواقعيّة لمرجعيّة أهل البيت عليهم السلام، وهو كان يأخذ هذه الحدود ويتفاعل معها ويشوّهها، ثمّ بعد هذا تنعكس في إطارٍ عقائديٍّ بشكلٍ غير صحيح.

ويذكر النوبختي في (فرق الشيعة) اضطرار الإمام الباقر عدّة مرّاتٍ لأن يصدر قراراً بالكفر والتكفير ـ أو بشيءٍ من هذا القبيل ـ على بعض دعاة الشيعة داخل الإطار الشيعي، من أتباع محمّد بن الحنفيّة ومن غير أتباع

---

(١) فرق الشيعة: ٢٣ وما بعد.

(٢) هو عبدالله بن محمّد بن الحنفيّة، يكنّى أبا هشام، وهو إمام فرقة (الهاشميّة) فراجع: فرق الشيعة: ٣٠.

محمّد بن الحنفيّة[١]، هؤلاء الذين رأوا في هذه المفاهيم وسيلةً للتشويه والانحراف والجهد[٢] من جديد، فأخذوا يدّعون النبوّة تارةً، والأُلوهيّة أُخرى، وينسبون الأُلوهيّة له، أو لشخصٍ ميّت، أو للإمام الحيّ الذي هو يعطي المفاهيم الصحيحة ثالثةً، وهكذا[٣].. حتّى اضطرّ الإمام الباقر إلى أن يطرد بعض أصحابه ويلعنهم ويكرّر لعنهم، من قبيل المغيرة بن سعيد.

المغيرة شخص أخذ هذه المفاهيم وكدّرها وأضاف إليها من عِنْدِيّاته، ثمّ انحرف وأخذ يعطي المفهوم الشيعي مع شيءٍ كثيرٍ من الغلوّ، حتّى جعل الإمام عليه السلام يتألّم ويتأثّر ويلعنه[٤]، وكذلك الإمام الصادق في ما بعد[٥].

وكان الإمام الباقر عليه السلام يقول: «ما لهؤلاء يقولون عنّا؟! ونحن أشخاص ورثنا من محمّد صلى الله عليه وآله، لكن ما صحبنا معنا براءةً من النار، ونحن نخاف من الله ونهتزّ خوفاً منه كما تهتزّ الورقة من الريح، ونحن إن أطعنا الله أدخلنا الجنّة، وإن عصينا الله أدخلنا النار، ولا براءة من الله تعالى إلّا على أساس عملنا»[٦].

كلّ هذا كان من قبله عليه السلام كعلاجٍ للمشاكل الداخليّة.

إعطاء أئمّة هذه المرحلة المفهوم الصحيح بصورة مشتّتة غير مجموعة:

قدّروا موقف شخصٍ داعيةٍ يريد أن يعطي الأُمّة مفهوماً، هذا المفهوم يقيم به الدنيا والآخرة، ويعارض فيه السلطة الحاكمة، ويعارض الذهنيّة العامّة

(١) اُنظر: فرق الشيعة: ٢٨.

(٢) كذا في (غ) و(ج).

(٣) راجع حول هذه الادعاءات: فرق الشيعة: ٦٣.

(٤) اختيار معرفة الرجال: ٢٢٧، الحديث ٤٠٦.

(٥) اختيار معرفة الرجال: ١٩١، ٢٢٣ وما بعد، الأحاديث ٣٣٦، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٥١١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٩. وكذلك الإمام الكاظم عليه السلام، فراجع: المصدر نفسه: ٤٨٢، الحديث ٩٠٩. وكذلك الإمام الرضا عليه السلام، فراجع: المصدر نفسه: ٢٢٣، ٥٠٢، الحديثان ٣٩٩ و٥٤٤.

(٦) الكافي ٢: ٧٤ و٧٥، الحديثان ٣ و٦.

للمسلمين التي يريد الإمام أن يبقى محتفظاً بمكانته فيها لأجل أن يحتلّها بالتدريج؛ فهو يعطي هذا المفهوم في مثل هذا الجو، ويعطيه كتلةً متشتّتةً غير مجتمعة، متفرّقةً مكاناً ووضعاً وحالاً، ولا بدّ له أيضاً من الحفاظ على صحّة هذه المفاهيم التي يعطيها، ومن مقاومة الانحرافات التي تنشأ من محاولة حلّ هذه المفاهيم.

هذه المهمّة [التي هي] مهمّة من أدقّ المهمّات وأصعبها في التاريخ على الدعاة العقائديّين قام بها الإمام الباقر عليه السلام.

هذا كلّه في ما يرتبط بالخطّ الرئيسي في هذا الدور الثاني، وهو خطّ إعطاء معالم الحدود والإطار المحدّد للفرقة الناجية ومجابهة المصائب والمشاكل من الخارج ومن الداخل في سبيل إعطاء هذا الإطار.

ثمّ إنّ هناك نشاطات أُخرى متفرّقة ومهمّة قام بها الإمام الباقر عليه السلام..[1]

❊ ❊ ❊

(١) في ذيل المحاضرة سقطٌ.

المرحلة الثالثة

مرحلة التوسّع والإعداد لتسلّم الحكم

- الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام
- الإمام محمّد بن علي الجواد عليه السلام

١

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

○ الإمام الرضا عليه السلام: المنعطف التاريخي في حياة الأئمّة عليهم السلام

٢٥

الإمام الرضا عليه السلام

المنعطف التاريخي في حياة الأئمّة عليهم السلام

أُلقيت (على الأرجح) بتاريخ ١٨/صفر/١٣٨٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

نجتمع اليوم بمناسبة وفاة الإمام الثامن عليه السلام[1].

وقد ذكرنا في مرّة سابقة[2] أنّ هذا الإمام العظيم يمكن أن يعتبر منعطفاً تاريخيّاً في حياة الأئمّة عليهم السلام، يعني أنّه بداية المرحلة الثالثة من المراحل التي قسّمنا إليها تاريخ حياة الأئمّة عليهم السلام.

الأدوار الثلاثة التي توزّعت عليها حياة الأئمّة عليهم السلام[3]:

فإنّنا صنّفنا تاريخ الأئمّة إلى ثلاث مراحل:

١ ـ المرحلة الأُولى: مرحلة تحصين الإسلام ضدّ صدمة الانحراف:

المرحلة الأُولى هي المرحلة التي عاش فيها قادة الرسالة مجابهةَ ومواجهةَ صدمة الانحراف التي وقعت في الأُمّة الإسلاميّة عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وآله، فكان أئمّة هذه المرحلة [يعملون][4] بشكلٍ رئيسيٍّ لمواجهة ومجابهة هذه

(١) قُبض عليه السلام في صفر من سنة ٢٠٣هـ. فراجع: الكافي ١: ٤٨٦؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٤٧.

(٢) راجع: المحاضرة الرابعة والعشرين، وراجع خلاصة الفكرة في المحاضرة الرابعة.

(٣) راجع حول هذا التقسيم: المحاضرة الرابعة، تحت عنوان: مراحل تاريخ أئمّة أهل البيت عليهم السلام، والمحاضرة الرابعة والعشرين، تحت عنوان: الأدوار الثلاثة التي توزّعت عليها حياة الأئمّة عليهم السلام.

(٤) في (غ): «يشرحون».

الصدمة وتحصين الاُمّة ضدّها.

وهذه المرحلة تنتهي عند الإمام السجّاد عليه السلام.

٢ ـ المرحلة الثانية: مرحلة إعطاء الإطار التفصيلي الخاص للشيعة:

والمرحلة الثانية التي تبدأ منذ ذلك الحين هي مرحلة مواصلة خطّ المرحلة الاُولى، زائداً على ذلك: التصدّي لتنمية الكتلة الواعية التي عرفت في التاريخ باسم «الشيعة»، هذه الكتلة التي كانت هي القاعدة الشعبيّة المؤمنة بمدرسة الإمام علي عليه السلام في الشريعة وفي الحكم وفي السياسة وفي الاقتصاد وفي الأخلاق وفي السلوك، وفي كلّ الميادين التي أعطى فيها الإمام علي أروع تمثيلٍ للنظريّة الإسلاميّة.

أئمّة هذه المرحلة أتوا للتطبيق ببناء هذه الكتلة ورفعها وتوسيع قواعدها الشعبيّة، وإعطائها إطارها ومعالمها الخاصّة ـ الفكريّة والاجتماعيّة ـ في مجموع العالم الإسلامي.

وتنتهي هذه المرحلة عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

٣ ـ المرحلة الثالثة: مرحلة الإعداد لتسلّم زمام الحكم:

تنتهي المرحلة [الثانية] عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لكي تبدأ المرحلة الثالثة التي بدا[١] فيها رصيد الإمام علي[٢] وورثة الإمام علي ضخماً قويّاً ناتجاً[٣] على مستوى تسلّم زمام الحكم، فعاش الإمام الرضا عليه السلام هذه المرحلة التي بلغ [رصيد] مدرسة الإمام أمير المؤمنين العظمة والاتّساع نتيجةً

---

(١) في (غ): «بدأ»، ولعلّ الصحيح هو ما أثبتناه.

(٢) في (غ): «رسول»، وهو ليس كذلك حتماً، وكذلك في المورد التالي، وما أثبتناه من سياق ما يأتي تحت عنوان: فكرة موجزة عن المرحلة الثالثة.

(٣) كذا في (غ).

لجهود أئمّة المرحلة الثانية، وكانت تهيّئ لتسلّم زمام الحكم بحسب بادئ الأمر والنظر على ما سوف أبحثه بعد هذا.

المرحلة الثانية وتميّزها بخطّي التثقيف ودعم المواجهة:

وكان هذا الارتفاع في الرصيد الصحيح الصالح وقتئذٍ يحدّد ملامح هذه الكتلة في جميع جوانبها الفكريّة والاجتماعيّة، وكان هذا نتيجة جهدين متوازيين عاشتهما المرحلة الثانية بأشكالهما المختلفة:

أ ـ خطّ التثقيف الفكري والتوعية العقائديّة:

أحد هذين الجهدين هو جهد التثقيف الفكري والتوعية العقائديّة التي كان يمارسها قادة أهل البيت من الأئمّة المعصومين عليهم السلام ممارسةً مباشرةً واضحة، فكانت هذه الممارسة المباشرة لعمليّة التوعية والتثقيف الرسالي والعقائدي قد أعطت ـ خلال المرحلة الثانية ـ للكتلة الشيعيّة خصائصها الفكريّة، ومزاجها الروحي، ومعالمها ومفاهيمها في كلّ جوانب الإسلام.

ب ـ خطّ دعم المواجهة وتوجيهها:

وكان هناك جهدٌ يمشي موازياً مع هذا الجهد، وهو الجهد الذي انطلق من دم الحسين عليه السلام، هو جهد الجناح الآخر من أبناء الإمام علي عليه السلام، هذا البناء الذي تسلّم زمام الثورة و[المواجهة] السياسيّة للوضع الحاكم وقتئذٍ منذ أن أعطى الإمام السجّاد عليه السلام ـ بوصفه ممثّلاً حقيقيّاً وقتئذٍ للإسلام ـ بيانه العامّ وسماحه[1] العامّ لكلّ مسلمٍ بأن يمارس عمله ضدّ الطواغيت الحاكمين، [وذلك] حينما ذهب إليه محمّد بن الحنفيّة مع رسول المختار ليستشيره في ما عليه طَلَبُ المختار، فأعطى عليه السلام وقتئذٍ بياناً، ولم يكن هذا البيان يخصّ

(١) في (غ): «سماعه»، والمراد ما أثبتناه، أي: «إذنه»، بقرينة ما في المصدر: «أذن لنا زين العابدين عليه السلام».

المختار، بل كان ـ بحسب ما تدلّ عليه الملابسات والظروف العامّة ـ بداية تخطيطٍ للمرحلة كلّها[١].

يعني: إنّ أئمّة المرحلة الثانية لم يكن بإمكانهم ـ على ما سوف نتحدّث عنه عندما نتكلّم عن الإمام السجّاد[٢] ـ مواصلة العمل على أساس دم الحسين عليه السلام، لم يكن بإمكانهم تزعّم المعركة لتحريك الضمير الثوري عند الأُمّة الإسلاميّة، فكان من الضروري إعطاء هذه الصلاحيّات إلى سائر المسلمين، مع التزام الأئمّة عليهم السلام بالتوجيه والمراقبة والمساندة.

والمساندة واضحة كلَّ الوضوح خلال المرحلة الثانية، مساندة قادة الرسالة الحقيقيّين لهذا الخطّ الثاني واضحةٌ في عدّة وثائق تاريخيّة:

لعلّ من أهمّ هذه الوثائق التاريخيّة: ذلك الكتاب الباكي المفجوع الذي كتبه الإمام الصادق عليه السلام إلى بني عمّه، إلى عبد الله بن الحسن المحض أبي صاحب النفس الزكيّة، وإلى أهله وذويه الذين حبسهم طاغية عصره المنصور وسجنهم، وقتل منهم من قتل، ثمّ نفى منهم من نفى.

كتب الإمام الصادق إليهم كتاباً في السجن، هذا الكتاب ـ [الذي] سوف نتعرّض له حينما نتكلّم عن الإمام الصادق عليه السلام[٣] ـ واضحٌ في أنّ الإمام كان يعيش آلام هؤلاء وآمالهم، ويبارك عملهم، ويكتوي في سجنهم حينما سجنوا، ويعذابهم حينما عذّبوا، وبقتلهم حينما قتلوا[٤].

إذاً، فكان هناك خطّان ممتدّان في المرحلة الثانية:

---

(١) ذوب النضار في شرح الثار: ٩٧.

(٢) إذا كان قدس سره قد تحدّث بشيء عن الإمام السجّاد عليه السلام، فلم يصلنا، وما في هذا الكتاب ليس هو المراد.

(٣) إذا كان قدس سره قد تحدّث بشيء عن الإمام الصادق عليه السلام، فلم يصلنا.

(٤) «فلئن كنتَ تفرّدتَ أنت وأهل بيتك ممّن حُمل معك بما أصابكم ما انفردت بالحزن والغبطة والكآبة وأليم وجع القلب دوني؛ فلقد نالني من ذلك من الجزع والقلق وحرّ المصيبة مثل ما نالك» الإقبال بالأعمال الحسنة: ٥٧٩.

أ ـ أحد الخطّين هو خطّ التوعية والتثقيف الرسالي الذي مارسه الأئمّة عليهم السلام.

ب ـ والآخر هو خطّ مواصلة تحريك الضمير الثوري للأُمّة الإسلاميّة؛ لإعطاء الشيعة طابعهم الجهادي في المعترك الاجتماعي، هذا الخطّ الذي مارسه أشخاص آخرون من طلّاب مدرسة الإمام أمير المؤمنين بإشرافٍ وتوجيهٍ ومساندةٍ من الأئمّة عليهم السلام على ما يبدو من قرائن الأحوال، وسوف نشرح هذا إن شاء الله عندما نتكلّم عن المرحلة الثانية[1].

فكرة موجزة عن المرحلة الثالثة:

أُريد أن أستطرد لأُصوّر فكرةً عن المرحلة الثالثة التي نحن الآن بصدد الكلام عن أوّل أئمّتها، وهو الإمام الثامن عليه السلام.

ففي استمرار هذين الخطّين المتوازيين في المرحلة الثانية، أمكن لمدرسة الإمام علي عليه السلام أن تكتسب رصيداً ضخماً ممتدّاً في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، وأن تنمو أرصدة شعار الإمام علي عليه السلام. ولا أدلّ على هذا من المظاهر العديدة الفكريّة والروحيّة والاجتماعيّة التي كانت تكتنف الأُمّة الإسلاميّة في بداية المرحلة الثالثة، يعني في عصر الإمام الرضا عليه السلام.

١ ـ اتّساع شعبيّة مدرسة الإمام علي عليه السلام وخروج الثورات باسمها:

لاحظوا أنّ عصر الإمام الثامن الرضا عليه السلام سادته عدّة ثورات قام بها قادة من آل عليٍّ وطلّاب مدرسة الإمام علي عليه السلام. هؤلاء القادة ملؤوا العالم الإسلامي من الكوفة، إلى البصرة، إلى مكّة والمدينة، إلى اليمن.. أينما كنت تذهب كنت ترى هناك قائداً يحكم باسم الإمام عليّ بن أبي طالب، ويحمل

---

(١) ولم يتعرّض قدس سره بوضوح بهذه المسألة في ما وصلنا منه حول المرحلة الثانية عند حديثه قدس سره عن الإمام الباقر عليه السلام، فليلاحظ.

شعارات الإمام عليٍّ بن أبي طالب.

بالرغم من أنّ بغداد بقيت تحت تبعيّة الخلافة العباسيّة، إلّا أنّها طوّقت بهذه التحرّكات. وكان أهمّ هذه التحرّكات: تحرّك ذلك الرجل العظيم محمّد بن إبراهيم طباطبا[١]، هذا الرجل الذي خرج من المدينة إلى الكوفة وأعلن عن نفسه بالكوفة، وطرح شعار الاعتداديّة[٢] التي كان يطرحها ثوّار آل محمّد، وهو البيعة للرضا من آل محمّد.

هذا الشعار كان من خصائص ثوّار آل محمّد: استبدلت البيعة للشخص بعنوانه إلى البيعة لهذا العنوان الإجمالي منذ ثار زيد بن علي إلى أن تتابع الثوّار من آله ومن آل الإمام الحسن، وكان الشعار الذي يُطرح هو الرضا من آل محمّد؛ لكي يكون الشعار منسجماً مع مضمون القضيّة الإسلاميّة، من دون إحراجٍ للشخص الواقعي الذي يمثّل القضيّة في كلّ حين، فطُرح الشعار بهذا العنوان.

هناك رواية ـ لا أدري صحيحة أو لا ـ عن الإمام الباقر عليه السلام: «سوف يقف على منبر الكوفة في سنة مئتين للهجرة شخص يباهي الله به ملائكة السماء»[٣]. وهذا الشخص الذي عُني في هذه الرواية ـ إن صحّت ـ هو محمّد بن إبراهيم[٤].

محمّد بن إبراهيم خرج من المدينة، وفي طريقه إلى الكوفة مرّ بكربلاء،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٨: ٥٢٨؛ مقاتل الطالبيّين: ٤٢٤ وما بعد.

(٢) كذا في (غ)، والمراد غير واضح.

(٣) عنه عليه السلام: «يخطب على أعوادكم يا أهل الكوفة سنة تسع وتسعين ومائة في جمادي الأولى رجلٌ منّا أهل البيت، يباهي الله به الملائكة» مقاتل الطالبيّين: ٤٢٨ ـ ٤٢٩. وفي الموضع نفسه عن زيد بن علي: «يبايع الناس لرجل منّا عند قصر الضرتين سنة تسع وتسعين ومائة، في عشرٍ من جمادى الأولى، يباهي الله به الملائكة».

(٤) في ذيل كلام زيد بن علي السابق: «قال الحسن بن الحسين: فحدّثت به محمّد بن إبراهيم فبكى».

قبّل الضريح، وعاهد الحسين عليه السلام على أن يواصل خطّه، وعلى أن يستمدّ من دمه وشعاراته، ثمّ ذهب إلى الكوفة. وهناك أعلن الشعارات، وأعلن البيعة للرضا من آل محمّد، على أن يكون الحكم لكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الإمام علي عليه السلام (١).

مقصودي أن أستشهد على نموّ الرصيد والقاعدة التي كانت تملكها مدرسة الإمام علي عليه السلام.

هذا النموّ المتزايد نعرفه عن طريق ردود فعل هذه الثورات في العالم الإسلامي. كان ردّ الفعل لثورة محمّد بن إبراهيم أن وقفت الكوفة معه أربعة سنين، وقاومت جيوش العباسيّين جيشاً بعد جيش، [وانهزمت] الجيوش من أمامها (٢).

الكوفة هذه هي الكوفة التي خانت الحسين عليه السلام، هذه الكوفة هي التي تركت زيداً وحفنةً من الأصحاب (٣)، هذه الكوفة بعد مئةٍ وخمسين من وقعة الحسين، وبعد أقلّ من مئة سنةٍ من وقعة زيدٍ وقفت تدافع عن شخصٍ آخر [سار] (٤) في خطّ الإمام الحسين وخطّ زيد، وقفت تدافع عنه أربع سنين.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٨: ٥٢٨؛ مروج الذهب ٣: ٤٣٩؛ تجارب الأُمم ٤: ١١٤؛ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ١٠: ٧٣؛ الكامل في التاريخ ٦: ٣٠٢؛ تاريخ الإسلام ١٣: ٧٠. وفيها جميعاً: «يدعو إلى الرضا من آل محمّد والعمل بالكتاب والسنّة»، وفي: مقاتل الطالبيّين: ٤٢٨ إضافة: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

(٢) لم تقف الكوفة أربع سنين مع ابن طباطبا؛ لأنّه توفّي بعد معركة أهل الكوفة مع جيش ابن المسيّب يوم في ١/رجب/١٩٩هـ وربما يقصد ﷺ مجمل الثورات التي قامت بالكوفة منذ قيام ابن طباطبا سنة ١٩٩هـ إلى حين المناداة بالمأمون خليفة في بغداد سنة ٢٠٣هـ ورجوعه إليها من خراسان مطلع سنة ٢٠٤هـ، فراجع: تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٨: ٥٢٩، ٥٧٠ ـ ٥٧٤.

(٣) إنّ في كلام زيد بن علي عليه السلام الآتي دلالةً على ما أشار إليه ﷺ، قال زيد: «يا نصر بن خزيمة! أتخاف أهلَ الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينيّة؟» مقاتل الطالبيّين: ١٣٥.

(٤) في (غ): «صار»، ولعلّ الصادر منه ﷺ ما أثبتناه.

هذه الاستجابة دليل على نموّ القاعدة الشعبيّة.

٢ ـ اتّساع شعبيّة شخصِ الإمام الرضا عليه السلام:

أ ـ سوف أستعرض في ما بعد[١] أنّه حينما أرسل الفضل بن سهل رسله إلى الكوفة ليأخذ البيعة بولاية العهد لعليٍّ بن موسى الرضا عليه السلام امتنعت الكوفة عن ذلك، قالوا: «لا نبايع عليَّ بن موسى الرضا بولاية العهد، نبايعه بالخلافة، وإلّا فلن نبايعه بولاية العهد»[٢].

وكان هذا منتهى الحماسة والحرارة في خطّ مدرسة الإمام علي عليه السلام، يعني أنّهم لم يقبلوا أن يبايعوا علي بن موسى الرضا عليه السلام بولاية العهد، وقبلوا أن يبايعوه خليفة.

وهناك شواهد أُخرى كثيرة على نموّ هذه القواعد الشعبيّة:

ب ـ مثلاً ما سوف يأتي من أنّ المأمون كان يستجير بالإمام الرضا عليه السلام في [المصاعب التي كانت تعصف][٣] بدولته.

ج ـ مرّةً من المرّات قال له ـ على ما سوف أتحدّث إليكم[٤] ـ: إنّ شيعتك في مكانٍ [ما] انتفضوا علينا، هلاّ كتبت إليهم؛ فإنّهم يسمعون لو كتبت، اكتب إليهم أن يسكتوا عنّا![٥]

د ـ ومرّةً أُخرى حينما اغتيل الفضل بن سهل، وحينما [سمع] الناس

---

(١) عند الحديث عن: دوافع المأمون في تولية الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد، النقطة الثانية.

(٢) «بلغهم خبر العبّاس بن موسى بن جعفر العلوي، وما يدعو إليه أهل الكوفة، وأنّه قد أجابه قومٌ كثير منهم، وقال له قومٌ آخرون: إن كنت تدعو للمأمون ثمّ من بعده لأخيك فلا حاجه لنا في دعوتك، وإن كنت تدعو إلى أخيك أو بعض أهل بيتك أو إلى نفسك أجبناك» تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٨: ٥٦٠.

(٣) في (غ): «المكاسب التي كانت تعكف بدولته».

(٤) في نهاية النقطة الثانية، عند الحديث عن دوافع المأمون في تولية الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد.

(٥) الكافي ٨: ١٥١، الحديث ١٣٤.

باغتياله، وحينما فسّر أهالي خراسان أنّ اغتياله كان على يد المأمون، قامت جماهير من الناس ووقفت على باب قصر المأمون تنتظر خروجه لتصبّ عليه جام غضبها وانتقامها. يخرج المأمون من الباب الخلفي ويدخل إلى بيت الإمام ـ الذي كان مجاوراً له ـ يستجير به، فيخرج الإمام ويفرّق الجماهير بأمرٍ واحد[١].

وهذا يعني أنّ الإمام كان رصيده الشعبي والاجتماعي في نفس البلد الذي حكمه المأمون والذي حكّم المأمونَ وأمدّه بالقوّة وبالجيوش، كان الرصيد الشعبي والاجتماعي قد بلغ إلى هذا المستوى. إضافةً إلى رصيده العلمي والفكري، وزعامته العلميّة والفكريّة التي تعرفون من شواهدها الشيءَ الكثير.

هـ ـ ومنها ما يتبادر إلى أذهانكم جميعاً: قصّة مروره عليه السلام بنيشابور وتسابق العلماء على الاستفادة منه[٢].

كلّ هذا يثبت أنّ القاعدة الشعبيّة ـ من الناحية العلميّة والاجتماعيّة ـ لمدرسة الإمام علي كانت قد بلغت درجةً كبيرةً من الارتفاع والنموّ.

الإمام الرضا عليه السلام يدشّن سياسة التواصل مع القواعد الشعبيّة:

في هذه المرحلة تسلّم الإمام الرضا عليه السلام زمام الإمامة والمسؤوليّة. ويبدو أنّ الإمام الرضا عليه السلام حينما تسلّم زمام المسؤوليّة والإمامة في مثل هذه المرحلة قام بنشاطٍ له لم يكن اعتيادياً على مستوى الشيعة، ولهذا تعرّض

---

(١) «فقال المأمون لأبي الحسن عليه السلام: يا سيّدي! ترى أن تخرج إليهم وترفق بهم حتّى يتفرّقوا، قال: نعم. وركب أبو الحسن عليه السلام.. فلمّا خرجنا من باب الدار نظر إلى الناس وقد ازدحموا عليه، فقال لهم بيده تفرّقوا. قال ياسر: فأقبل الناس والله يقع بعضهم على بعض وما أشار إلى أحد إلّا ركض ومضى لوجهه» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٦٧.

(٢) راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٣٤.

لاعتراضاتٍ من قبل الشيعة:

أ ـ جاءه جماعة من الشيعة، قالوا له: «ماذا تصنع؟ قد فضحت نفسك، وهارون الرشيد يقطر سيفه دماً، ألا تخاف من سيف هارون الرشيد؟»(١).

ب ـ جاءه أيضاً أصحاب آخرون، قالوا له: «إنّك بما تعمل قد أقدمت على الهلكة»(٢).

ج ـ قال له أشخاص آخرون: «لو سكتَّ كما سكت أبوك وجدّك»(٣).

د ـ بعض الأشخاص جاؤوا إليه وقالوا: «خالفت التقية، التقية دين جعفر بن محمّد الصادق»(٤)، إلى غير ذلك من المضامين.

الروايات هكذا تقول، لكنّها في نفسها لا تقول ماذا كان يصنع الإمام الرضا بحيث إنّه استفزّ هؤلاء، لكن هناك روايات أُخرى قد تلقي ضوءاً على ذلك:

تواصل الإمام الرضا عليه السلام مع القواعد الشعبيّة في البصرة:

تقول الروايات الأُخرى: إنّ الإمام الرضا عليه السلام لمّا تسلّم زمام المسؤوليّة بعد وفاة أبيه قام بجولة في العالم الإسلامي، سافر من المدينة جاء إلى

---

(١) قال محمّد بن سنان للرضا عليه السلام: «إنّك قد شهرت نفسك بهذا الأمر وجلست مجلس أبيك وسيف هارون يقطر دماً (الدم)» الكافي ٨: ٢٥٧، الحديث ٣٧١.

(٢) «عن صفوان بن يحيى قال: لمّا مضى أبو إبراهيم عليه السلام وتكلّم أبو الحسن الرضا عليه السلام خفنا عليه من ذلك، فقيل له: إنّك قد أظهرت أمراً عظيماً، وإنّا نخاف عليك هذا الطاغية، فقال: ليجهد جهده، فلا سبيل له عليّ» الكافي ١: ٤٨٧، الحديث ٢؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٥٥.

(٣) «عن ابن أبي سعيد المكاري، قال، دخل على الرضا عليه السلام فقال له: فتحت بابك وقعدت للناس تفتيهم، ولم يكن أبوك يفعل هذا، قال: فقال: ليس عليّ من هارون بأس» اختيار معرفة الرجال: ٤٦٥، الحديث ٨٨٤.

(٤) جاء في كلام للبزنطي ينقل كلام قوم في وصف حال الإمام الرضا عليه السلام: «وقد نفى التقيّة عن نفسه، فعليه أن يخشى» قرب الإسناد: ١٥٢.

البصرة، اجتمع مع قواعده الشعبيّة في البصرة، قبل هذا أرسل رسولاً[١] إلى البصرة أنْ: «انتظروا، وخلال ثلاثة أيّام سوف يأتي الإمام الرضا»، ثمّ يأتي عليٌّ بن موسى الرضا عليه السلام بعد ثلاثة أيّام، في الوقت الذي يكون الشيعة في البصرة متهيّئين تهيّؤاً كاملاً لاستقباله والاجتماع حوله والاحتفاء به. فيجتمع بهم، ويقيم الحجّة عليهم في إمامته، ثمّ بعد هذا يقول لهم: «سلوني»، فيدير معهم الأسئلة والأجوبة حول مختلف جوانب المعرفة الإسلاميّة.

ثمّ بعد هذا يطلب منهم جمع بقيّة الطوائف أيضاً، فيجمعون له بقيّة الطوائف، بقيّة العلماء من المجادلين الكلاميّين من علماء غير إسلاميّين، فيعقد عدّة اجتماعات مع هؤلاء في البصرة، [يفحمهم][٢] ويسيطر على الموقف[٣].

تواصل الإمام الرضا عليه السلام مع القواعد الشعبيّة في الكوفة:

بعد هذا يرسل رسولاً آخر إلى الكوفة[٤]، يقول: «أخبروا أهل الكوفة بأنّي خلال أيّام سأجيء إلى الكوفة».

بعد هذا يسافر إلى الكوفة، وهناك يقيم عليهم الحجّة بصورةٍ مباشرة، يعني على إمامته بعد أبيه، ثمّ بعد هذا يدير مناقشاتٍ واسعةَ النطاق وأسئلة وأجوبة متنوّعة و[مختلفة][٥].

وأيضاً يتّصل مع مجادلين ومتكلّمين ويهود ومسيحيّين ممّن كانوا وقتئذٍ يشكّلون بداية خطرٍ فكريٍّ على العالم الإسلامي[٦]؛ لأنّ حركة الترجمة

---

(١) هو محمّد بن الفضل الهاشمي.

(٢) في (غ): «يفهمهم»، ولعلّ الصادر منه عليه السلام ما أثبتناه.

(٣) الخرائج والجرائح ١: ٣٤١؛ وعنه: بحار الأنوار ٤٩ : ٧٣، باب وروده عليه السلام البصرة والكوفة.

(٤) بل الرسول نفسه: «قال محمّد بن الفضل: كان في ما أوصاني به الرضا عليه السلام في وقت منصرفه من البصرة أن قال لي: صِر إلى الكوفة، فاجمع الشيعة هناك وأعلمهم أنّي قادمٌ عليهم».

(٥) في (غ): «متكفّلة». وراجع: الخرائج والجرائح ١: ٣٤٩؛ وعنه: بحار الأنوار ٤٩ : ٧٩.

(٦) راجع على سبيل المثال: عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٥٤، الباب ١٢ ، ذكر مجلس الرضا عليه السلام مع

والجدل الكلامي كانت وقتئذٍ قد بدأت تستقطب العالم الإسلامي [١]، وبهذا كان الإمام الرضا عليه السلام يولي هذه الناحية أيضاً درجةً كبيرةً من الأهميّة.

الإمام الرضا عليه السلام يُشكّل منعطفاً في حياة الأئمّة عليهم السلام:

مثل هذا النشاط الملحوظ لم يكن يمارسه آباء الإمام الرضا عليه السلام؛ فآباء الإمام الرضا عليهم السلام لم يكونوا بأنفسهم يسافرون للاتصال المباشر مع قواعدهم الشعبيّة، وتثبيت إمامتهم على تلك القواعد بالشكل المباشر، ثمّ محاولة الاتّصال المباشر مع قواعدهم الشعبيّة بهذا الشكل واسع النطاق.

هذا في الواقع كان من مظاهر طبيعة المرحلة، كانت طبيعة المرحلة وطبيعة اتّساع هذه القواعد وازدياد نفوذ مدرسة الإمام عليه السلام الروحي والفكري والاجتماعي في نفوس المسلمين تقتضي هذا النوع من النشاط من الإمام الرضا عليه السلام.

إلّا أنّ أصحاب موسى بن جعفر عليه السلام لم يربطوا بين هذا التحوّل المظهري في تصرّفات الإمام الرضا عليه السلام عن خطّ آبائه وبين السلوك الموضوعي للمرحلة، ولهذا حاولوا الاعتراض عليه من هذه الناحية.

اتّساع القاعدة الشعبيّة أهّلت الإمام عليه السلام للحكم المتعارف لا المنشود:

فحينئذٍ، هنا الإمام الرضا عليه السلام منذ بداية تسلّمه زمام المسؤولية نفّذ خصائص هذه المرحلة من حيث كونها مرحلة ارتفاع هذه القواعد الشعبيّة.

ولكن يجب أن يعلم ـ كما كرّرنا ذلك أيضاً في بعض المحاضرات السابقة[٢] ـ أنّ نموّ هذه القواعد الشعبيّة لم يكن يعني حقيقةً أنّ مرحلة عمل

أهل الأديان وأصحاب المقالات في التوحيد عند المأمون.

(١) وكان المأمون نفسه مغرماً بالاطلاع على معرّبات اليونانيّة، فراجع: تاريخ الإسلام ١٩: ١٢٨.

(٢) يقصد المحاضرة الرابعة والعشرين، وقد أشار قدس سره إلى هذه النقطة في المحاضرة الثالثة، تحت عنوان:

الإمام كانت مرحلة تسلّم زمام الحكم، بل بالرغم من كلّ هذا النموّ المتزايد في القواعد الشعبيّة كان الإمام ـ وكلّ شخصٍ عميقٍ في ملاحظة الظروف الموضوعيّة ـ يعلم بأنّ الإمام ليس على مستوى تسلّم زمام الحكم؛ لأنّ الحكم الذي يريد أن يتسلّمه الإمام غير هذا الحكم الذي يملك مثل هذه القواعد الشعبيّة.

يعني: هذه القواعد الشعبية التي كانت موجودةً في العالم الإسلامي كانت تهيّئ الإمام عليه السلام لِأنْ يتسلّم زمام الحكم على مستوى ما يتسلّمه أيُّ زعيم آخر؛ فبإمكان الإمام الرضا عليه السلام أن يتسلّم زمام الحكم على النحو الذي يتسلّمه المنصور، أو على النحو الذي يتسلّمه أبو السرايا، أو على النحو الذي يتسلّمه الأمين أو المأمون، هذا كان بالإمكان؛ لأنّ هناك قواعد ضخمة، وهذه القواعد الضخمة يمكن أن تمدّه بالجيوش الكبيرة، ويمكن أن تمدّه بأموال [كثيرة] أيضاً.

ولكن مثل هذه القواعد لم تكن تصلح قاعدةً للحكم الذي يريده الإمام الرضا عليه السلام؛ لأنّ هذه القواعد كانت مرتبطةً بمدرسة الإمام علي ارتباطاً فكريّاً غامضاً عامّاً، وارتباطاً عاطفيّاً حراريّاً قويّاً. هذه الحرارة كان يشعلها في كلّ لحظةٍ الدمُ الطاهر المراق على ساحة الجهاد من ناحية، ومن ناحية اُخرى يسعّرها ظلم الظالمين وجبروت الحكّام الذين كانوا قد اعتدوا على أمر هذه الاُمّة وهتكوا حرمتها وأهدروا كرامتها.

فهذه القواعد التي كانت ترتبط بمدرسة الإمام علي عليه السلام كانت ترتبط بها بهذا المستوى، وهذا المستوى من [ارتباط][1] القواعد قد يمهّد لحكم راسخ

هل كان الأئمّة يحاولون تسلّم الحكم؟ وراجع كذلك: التشيّع والإسلام (بحث حول الولاية): ٦٣، [الجانب الروحي والسياسي في اُطروحة التشيّع].

(١) ما بين عضادتين أضفناه للسياق.

قويٍّ عتيدٍ كما مهَّد لحكم العباسيّين؛ فإنّ العباسيّين لم يمهّد لحكمهم إلّا هذه القواعد وأمثال هذه القواعد، ولكن لم يمهّد هذا الوضع من القواعد لحكم الإمام علي عليه السلام الذي هو أُطروحة أولاده المعصومين عليهم السلام.

ولهذا نرى أنّ الثورات الأُخرى التي عاشها المسلمون من المخلصين للإمام علي عليه السلام كانت تُمنى كثيراً من الأحيان بالتناقضات الداخليّة، حتّى من قبل قواعدهم الشعبيّة، وكان يحصل فيها انحراف بين حينٍ وحين؛ وذلك لأنّ القاعدة لم تكن واعيةً للأُطروحة، كانت حارّةً ولم تكن واعية، والحرارة لا تنتج بناءً حقيقيّاً للإسلام، وإنّما البناء الحقيقي للإسلام يقوم على أساس الوعي[(١)].

فمثلاً محمّد بن إبراهيم ــ هذا الرجل العظيم ــ كان قائده أبو السرايا، أبو السرايا كان كمالك الأشتر بالنسبة إليه. أبو السرايا ارتبط به ارتباطاً عاطفيّاً[(٢)]، رآه في طريقه متّجهاً من المدينة إلى مكّة؛ [فإنّه] لمّا كان مسافراً من المدينة إلى مكّة واجه شخصين:

قصّة محمّد بن إبراهيم طباطبا مع نصر بن شبث (شبيب):

أحدهما لا أذكر اسمه بل أذكر القصّة، واجهه وقال له[(٣)]: «إنّك رجل مهيّأ، وبإمكانك أن ترفع الراية، وأن تعرض على المسلمين البيعة على الرضا

(١) راجع المحاضرة الخامسة من هذا الكتاب.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٤٢٦ وما بعد.

(٣) هو نصر بن شبث (أو: شبيب بحسب مقاتل الطالبيّين) كما ذكرنا، ولكنّ ابن طباطبا لم يلتقِ به في الطريق كما ذكر رحمه الله قبل قليل، بل الصحيح ما يذكره رحمه الله في ما يأتي إجمالاً، من أنّ نصر بن شبيب زاره في المدينة أوّل الأمر ومنّاه النصرة، وتواعدا، فزاره ابن طباطبا في الجزيرة طلباً للنصرة، ثمّ صرفه عنها قومه، فاعتذر نصر من ابن طباطبا، فغضب الأخير ورجع إلى الحجاز حيث التقى في طريقه إليها بأبي السرايا، فراجع: مقاتل الطالبيّين: ٤٢٤ وما بعد. والمقصود من الجزيرة هنا على ما يبدو: «ما بين دجلة والفرات» [مسالك الممالك (الاصطخري): ٧١].

من آل محمّد، وأن أكون جنديّك وحامل هذه الراية»، يقتنع محمّد بن إبراهيم بهذا [الكلام]، ويقول له: «أعطني الفرصة في التفكير».

ثمّ يذهب هذا الشيخ إلى أهله وذويه وأهل البصيرة من ذويه فيستشيرهم في ذلك الموضوع، فيقال له: «ماذا صنعت؟ هذا يمثّل شعار علي عليه السلام، ونحن مؤمنون بالإمام علي عليه السلام، إذاً يجب أن [لا][1] نُعينه ويجب أن [لا] نبرز على المسرح». يقول: «كيف؟»، يقال له: «لأنّ هذا الشخص حينما يتقدّم في الميدان إلى المسرح وتقع المعركة بينه وبين خلفاء بني العباس: إمّا أن ينتصر خلفاء بني العباس وإمّا هو ينتصر، وعلى كلّ حالٍ أنت سوف تفقد كيانك»، قال: «كيف؟»، قيل له: «إذا انتصر خلفاء بني العباس فحسابك واضح؛ لأنّك شخصٌ هيّجت على هذه الأُطروحة، وإذا انتصر هذا، فإن كان هذا هو السائر في خطّ الإمام علي عليه السلام حقيقةً إذاً فهو سوف يعاملك كما يعامل سائر المسلمين، على أساس أنّك كسائر المسلمين، ولا يعطيك ولا يشبع من طموحك وآمالك إلّا في حدود مصلحة الإسلام، وإذا افترضنا أنّه مستعدّ لِأنْ يشبع طموحك خارج نطاق مصلحة الإسلام إذا ما هو الفرق بينه وبين الخليفة العباسي؟!».

هذا لمّا رأى هذا الكلام منطقيّاً ذهب إلى محمّد بن إبراهيم واعتذر منه فقال: «أنا أعتذر وأنا أُعطيك كذا مقداراً من المال تستعين به على أمرك»، فقال له: «أغناني الله عن مالك»، وتوجّه في طريقه إلى [الحجاز][2].

---

(١) الجملة في (غ) مثبتة في كلا موضعيها، وما أضفناه بين عضادتين يقتضيه السياق؛ فإنّ قومه صرفوه عن الأمر، وهو الموافق لما في المصدر التاريخي: «..ورغبتهم عن أهل البيت».

(٢) قال لنصر بن شبث بعضُ بني عمّه وأهله: «ماذا صنعت بنفسك وأهلك؟ أفتراك إذا فعلت هذا الأمر وتأبّدت السلطان يدعك وما تريد؟ لا والله، بل يصرف همّه إليك وكيده، فإن ظفر بك فلا بقاء بعدها، وإن ظفر صاحبك وكان عدلاً كنت عنده بمنزلة رجل من أفناء أصحابه، وإن كان غير ذلك فما حاجتك إلى تعريض نفسك وأهلك وأهل بيتك لما لا قوام لهم به؟... فثنى نصراً عن رأيه، وفتر نيته، فصار إلى محمّد بن إبراهيم معتذراً إليه بما كان من خلاف الناس عليه، ورغبتهم عن أهل

قصّة محمّد بن إبراهيم طباطبا مع السري بن منصور (أبي السرايا):

في طريقه إلى [الحجاز][1] اجتمع مع أبي السرايا، أبو السرايا تجاوب مع الموضوع. وأبو السرايا قائد حركة بالنسبة إلى محمّد بن إبراهيم [طباطبا]، مع هذا فإنّه يمارس انحرافاً كبيراً في عمليّاته، حتّى إنّه في الوقعة الحربيّة الحاكمة التي انتصر فيها على الجيش الذي أُرسل من قبل الحسن بن سهل من بغداد ـ وكان الحسن بن سهل والي المأمون في بغداد ـ انتصر عليهم بالغدر.

ذهب إلى محمّد بن إبراهيم يريد أن يذكّره ـ وكان محمّد بن إبراهيم على فراش الموت، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ـ بأنّهم انتصروا على أكبر جيشٍ أرسله الحسن بن سهل، وكانت الأخبار قد وصلت إلى محمّد بن إبراهيم، قال له: «إنّي لا أعتبر هذا نصراً؛ لأنّ النصر لا يكون إلّا بوسائله النظيفة، أمّا إذا كان بوسائل أُخرى فلا يكون نصراً؛ إنّ جدّي الإمام عليّاً عليه السلام الذي أحرز [النصر][2] لم يباغت قوماً، ولم يبدأ قوماً بقتال، ولم يهتك أموال أُولئك حين سيطر، فإذا كنت تريد أن تكون صادق البيعة للرضا من آل محمّدٍ فاستغفر لنفسك، وارجع، وليُرجع جميعُ جنودك ما غرموا من أموال إلى هؤلاء؛ فإنّهم مسلمون بغاة، والباغي لا يجوز أخذ المال منه».

وبعد هذا بأيّام مات محمّد بن إبراهيم[3]، يقول الطبري بأنّ أمير المؤمنين

البيت، وأنّه لو ظنّ ذلك بهم لم يَعدُهُ نصرَهم، وأومأ إلى أن يحمل إليه مالاً ويقوّيه بخمسة آلاف دينار، فانصرف محمّد عنه مغضباً» مقاتل الطالبيّين: ٤٢٥ ـ ٤٢٦. وفي (غ) أنّه رجع إلى الكوفة، والصحيح ما أثبتناه وفقاً للمصدر.

(١) تقدّم التعليق على ذلك آنفاً، وتضيف بأنّ ابن طباطبا تواعد مع أبي السرايا للالتقاء في الكوفة.

(٢) هنا سقط بمقدار كلمة، أثبتناه من السياق.

(٣) مقاتل الطالبيّين: ٤٣٤، وليس فيه ما ذكره رحمه الله حول استشهاد ابن طباطبا بمواقف أمير المؤمنين عليه السلام. وفيه: إنّه توفّي بين يدي أبي السرايا من ساعته وليس بعد أيّام. نعم، كان ذلك بعد الواقعة بيوم، فراجع: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ١٠: ٧٤؛ البداية والنهاية ١٠: ٢٤٤.

المأمون أرسل إليه سمّاً فقتله[١].

إذاً، نعرف من هذا أنّ القواعد والأرض التي كان يعتمد عليها أمثال هؤلاء كانت تعيش المرحلة الحراريّة للحركة، لا المرحلة الواعية للحركة، ولهذا حينما يتسلّم زمام الحكم حينئذٍ يتساءل كثيرٌ من [أصحابه][٢]، فيفكّرون أنّه [هل] بالإمكان أن نقذف بهم إلى تحقيق أغراضهم ومصالحهم؟

إذاً، فهذه المرحلة بالرغم من أنّها كانت مرحلة تهيّؤٍ لتسلّم زمام الحكم على مستوى الحكم الذي يعرفه الناس، لكنّها لم تكن على مستوى تسلّم زمام الحكم بالشكل الذي كان يطرقه الإمام.

ولهذا امتنع الإمام عليه السلام عن قبول الخلافة حينما عرضها عليه المأمون، و[كذلك] عن قبول ولاية العهد حينما عرضها عليه.

دوافع المأمون في توليّة الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد:

كان بالإمكان التفكير في الموقف الذي قام به المأمون من الإمام الرضا عليه السلام على أساس الدوافع المنفعيّة والإيمانيّة عند المأمون بخطّ الإمام علي عليه السلام؛ لأنّ المأمون كان ينطوي في نفسه على الإيمان بخطّ الإمام عليه السلام، لكن ليس معنى تفكيره بهذا أنّه كان هو الدافع المطلق الحقيقي الذي يعيش كلّ أبعاد نفس المأمون.

من الممكن أنّه كان هناك زاوية في [نفس][٣] المأمون تكشف بين حينٍ وحينٍ آخر عن تأثّره بخطّ الإمام علي عليه السلام، لكن كان هناك في نفس الوقت

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٨: ٥٢٩، وفيه: أنّ أبا السرايا سمّه بسبب منع ابن طباطبا إيّاه عن غنائم وقعتِهم مع جيش الحسن بن سهل، لا المأمون، وهو ما ورد في: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ١٠: ٧٤؛ البداية والنهاية ١٠: ٢٤٤.

(٢) هنا سقطٌ بمقدار كلمة، وقد أثبتناها من السياق، وكذا المورد التالي، والعبارة مضطربة.

(٣) في (غ): «خطّ»، وما أثبتناه أنسبُ للسياق، وموافقٌ لما يأتي منه قدس سره.

زوايا أُخرى أكبر وأوسع من التأثّر بخطّ الإمام علي عليه السلام. كان هناك زوايا أُخرى أكبر وأوسع في نفس المأمون تمثّل المصالح السياسيّة، والأغراض الوقتيّة، وبناء مدٍّ لدولته، تلك الزوايا الأُخرى يمكن أن نعبّر عنها في أربع نقاط:

١ ـ النقطة الأُولى: إلباس خلافة المأمون ثوب الشرعيّة:

النقطة الأُولى هي أنّ المأمون كان يريد أن يُكسب خلافته الثوب الشرعي، وكان يزعم أنّ خلافته بحاجةٍ إلى ثوبٍ شرعي؛ على أساس أنّ القواعد الشعبيّة المؤمنة بالخلافة العباسيّة كانت تنظر بريبٍ إلى خلافة المأمون التي لم تنتهِ إليه إلّا بقتل الخليفة الشرعي السابق، الذي هو الأمين؛ فانتقال الخلافة عن طريق [قتل][1] الخليفة الشرعي كان فيه نوعٌ من الريب والتردّد عند القواعد الشعبيّة المؤمنة ببني العباس وخلفاء بني العباس.

أمّا القواعد الشعبيّة الأُخرى ـ أي التي لا تؤمن بخطّ بني العباس، وإنّما تدور في فلك الإمام علي عليه السلام بمستوىً وآخر، بمختلف المستويات ـ فلم تكن تنظر إلى الخطّ الذي يعيّن المشروعيّة [على أنّه متمثّل في][2] خلافة المأمون ولا الأمين ولا المنصور ولا آباء المنصور[3]، [بل كانت] تشعر بأنّ هذه الخلافة التي اغتصبها [المأمون] أو التي سيطر عليها بالقوّة وبقتل أخيه تحتاج إلى ثوبٍ شرعيٍّ تعتمد عليه وتقدّره قواعد في العالم الإسلامي.

من هنا كان إلباس هذه الخلافة الثوبَ الشرعيَّ عن طريق استدعاء الإمام الثامن عليه السلام، الذي كانت الخلافة حقّاً شرعيّاً له بدرجةٍ وأُخرى على مستوى إيمان كثيرٍ من جماهير العالم الإسلامي: إمّا على مستوى أنّه أفضل

---

(١) في (غ): «حكم»، وما أثبتناه أنسبُ للسياق.

(٢) نصُّ المدوّن هنا مشوّش، وما أثبتناه للسياق.

(٣) في (غ): «الرسول ولا آباء الرسول»، وهو اشتباهٌ حتماً، ولعلّه ما أثبتناه؛ بقرينة تقدّم الكلام عينه قبل أربع صفحات وفيه: «المنصور».

أولاد الإمام علي عليه السلام، أو على مستوى أنّه أفضل [...][١].

[فعلى] مستوى من هذه المستويات يوجد هناك [مؤشّر] واضح النقاط بأنّ الإمام الرضا عليه السلام يتمتّع بحقٍّ شرعيٍّ للخلافة.

يبعث [المأمون] على الإمام الرضا عليه السلام ويقول له: «إنّي أنزع الخلافة وأُعطيها لك»؛ أوّل الأمر لم يطالبه [بقبول] ولاية العهد، وإنّما قال: «أنا أنزع الخلافة وأُعطيها لك»؛ لكي يردّها عليه الإمام الرضا عليه السلام، ويكون في ردّ الخلافة عليه من الإمام الرضا عليه السلام كسبٌ للثوب الشرعي لهذه الخلافة.

لكنّ الإمام الرضا لم [يستجب لطلب المأمون][٢]؛ ولهذا حينما قام المأمون بهذه المناورة قال له: «إنّ الخلافة هل هي ثوب ألبسك الله إيّاه، أو لا؟ فإن كانت ثوباً ألبسك الله إيّاه فلا يكون بإمكانك أن تنزعه وتلبسني إيّاه، وإن لم يكن شيئاً أعطاك الله إيّاه، إذاً فكيف تعطيني ما لا تملك؟»[٣].

فأكّد في هذا النصّ الصريح الواضح أنّه لا يؤمن بشرعيّة الخلافة للمأمون، وأنّ رفض قبول الخلافة ليس معناه إرجاع الخلافة إليه، بل معناه أنّه لا يرى أنّ مثل هذا الإعطاء له مدد[٤]، بعد أن كانت الخلافة أجنبيّةً عن هذا الشخص المعطي.

وبهذا سجّل النصر الذي كان له أثره الكبير ـ في الحاضر وقتئذٍ، وفي المستقبل ـ في نزع ثوب المشروعيّة عن خلافة المأمون.

---

(١) هنا سقطٌ بمقدار أربع كلمات.

(٢) هنا سقطٌ بمقدار ثلاث كلمات، وما أثبتناه للسياق.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٣٩، الحديث ٣؛ الأمالي (الصدوق): ٦٨، الحديث ٣؛ علل الشرائع ١: ٢٣٧، الباب ١٧٣، الحديث ١.

(٤) أي: له أصلٌ يعتمد عليه.

٢ ـ النقطة الثانية: محاولة شراء رضا القواعد الشعبيّة:

النقطة الأُخرى التي كان بالإمكان افتراض أنّها تمثّل زاويةً أُخرى من الزوايا [هي أنّ] نفس المأمون ـ كما قلنا ـ كان يعيش مشاكل تلك القواعد الشعبيّة للإمام الرضا عليه السلام ومدرسة الإمام علي عليه السلام في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، كان يريد أن يثبّت هذه القواعد الشعبيّة، كان يريد أن يشتري رضاها واستسلامها ومواكبتها للوضع الحاكم، [وذلك] عن طريق ضمّ قائدها الأمثل، ضمّ إمامها الفكري، ضمّ أُمثولتها العليا إلى [جهازه]، إلى وضعه.

وهذا الموضوع أيضاً التفت إليه الإمام الرضا عليه السلام وأحبطه، وذلك بأنْ سجّل منذ اليوم الأوّل أنّه لم ينضمّ إلى جهاز المأمون، وإنّما هو مجرّد قبول على أساس إصرارٍ من قبل الخليفة المأمون، لا أكثر ولا أقلّ.

ولهذا اشترط الإمام الرضا عليه السلام في الوثيقة التاريخية التي كتبها: «أنّي لا أُمارس أيّ نوعٍ من أنواع السلطة في جهاز الدولة العبّاسيّة»[١]. وهذا معناه ـ بالفهم العامّ الإسلامي وقتئذٍ، وإلى يومنا هذا ـ أنّه غير راضٍ، و[أنّه] إعلان عن عدم رضاه عن الوضع الحاكم كلّه، وأنّ هذا الوضع الحاكم «لا أُمارس فيه عملاً»، وأنّه يحتاج إلى تغيير، يحتاج كلّه إلى هدمٍ ثمّ إلى بناء من جديد؛ «فأنا ماذا أصنع في قبال هذاالوضع الحاكم الذي يحتاج كلّه إلى تغيير ويحتاج كلّه إلى تبديل؟»، وقد كانوا [...][٢] أيضاً [...].

ولهذا أشرنا في ما سبق[٣] إلى أنّ الفضل بن سهل بعث شخصاً بمئة ألف

---

(١) «أنا أقبل ذلك على أنّي لا أولّي أحداً ولا أعزل أحداً ولا أنقض رسماً ولا سنّةً، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً»، «إنّما دخلت في ما دخلت على أن لا آمر فيه ولا أنهى ولا أعزل ولا أولي ولا أشير» عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٤٠، ١٦٧.

(٢) هنا سقطٌ بمقدار كلمتين، وفي الموضع التالي بمقدار كلمة.

(٣) تحت عنوان: فكرة موجزة عن المرحلة الثالثة، اتّساع شعبيّة شخص الإمام الرضا عليه السلام.

دينار أو درهم ـ لا أذكر ـ قال له: «اذهب بالمال إلى الكوفة وخذ البيعة في الكوفة للمأمون بالخلافة ولعليّ بن موسى الرضا بولاية العهد».

يأتي هذا الرجل إلى الكوفة ليأخذ البيعة للمأمون ـ [فإنّه] إلى ذلك الوقت لم يكن [المأمون] قد بويع بيعة رسميّة في كلّ العالم الإسلامي، ولهذا كان يفتّش عن ثوب المشروعيّة لخلافته ـ ومعه مئة ألف درهمٍ أو دينارٍ ليأخذ البيعة للمأمون ولولاية العهد للإمام علي بن موسى الرضا؛ فالكوفة من أضخم القواعد الشعبيّة للإمام علي بن موسى الرضا، لكنّ هذه القاعدة لم تبايع الإمام علي بن موسى الرضا بولاية العهد، وإنّما تبايعه بالخلافة[١].

إذاً، فمن هذا نعرف بأنّ ولاية العهد للإمام الرضا ليس معناها أنّه أصبح جزءاً من الجهاز الحاكم للمأمون؛ فلم يستطع المأمون عبر هذا الطريق أن يشتري هذه القواعد الشعبيّة، وأن يرتبط ولائيّاً وروحيّاً بمدرسة الإمام عليﷺ.

في مرّةٍ من المرّات التجأ إلى الإمام الرضاﷺ قال له: «لو كنت تكتب إلى شيعتك [في داخل] كلّ أرجاء العالم الإسلامي أن يسكتوا عنّي»، قال: «[...][٢] أنا لا أكتب»؛ امتنعﷺ عن الكتابة إلى قواعده الشعبيّة بأن يسكتوا عن هذا الشخص الذي يعبّر عن نفسه بأنّه وليّ العهد بالنسبة إليه[٣].

بهذا وذاك وبأمثالهما استطاع أيضاً أن يقضي على هذه [...][٤].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ٨: ٥٥٩ ـ ٥٦٠، وفيه: مئة ألف درهم.

(٢) هنا سقطٌ بمقدار سطر، ثمّ جاء: «على أيّ حال»؛ فكأنّه كلامٌ توضيحي.

(٣) الكافي ٨: ١٥١، الحديث ١٣٤.

(٤) هنا سقطٌ بمقدار سطر ونيّف.

٣ ـ النقطة الثالثة: محاولة تجريد خطّ الإمام الرضا عليه السلام عن رساليّته:

النقطة الثالثة هي أنّه [نتيجة][١] خطّ الإمام علي، المأمون كان يشعر بأنّ مجيء الإمام علي بن موسى الرضا إلى هذا الجهاز الحاكم سوف لن يغيّر هذا الجهاز؛ لأنّ هذا الجهاز الحاكم كان [قدره] أكبر من هذا الفرد بالذات، هذا الجهاز الحاكم كان مستمدّاً من انحرافٍ كبيرٍ تعرفه الاُمّة الإسلاميّة كلّها، وهذا الانحراف الكبير لن [يتغيّر][٢] بيوم أو بيومين، كان يشعر بهذا.

وحينما يأتي الإمام الرضا عليه السلام حينئذٍ يمكن للخليفة المأمون ويمكن [للمنطق] الحاكم أن يقول وقتئذٍ بأنّ هؤلاء تجّار اُطروحة لا أنّهم أصحاب اُطروحةٍ حقيقةً، هؤلاء يتاجرون باُطروحة يهزّون بها آمال المسلمين وآلامهم، وليسوا أصحاب اُطروحةٍ حقيقة.

ولهذا حينما فتحتُ أمامهم أبواب الدنيا وأبواب الخلافة على [مصراعيها][٣] وأعطيناهم أبواب الخلافة على طريقتنا تركوا اُطروحتهم وجاؤوا إلينا.

[...][٤].

٤ ـ النقطة الرابعة: محاولة عزل الإمام الرضا عليه السلام عن قواعده الشعبيّة:

والنقطة الأخيرة التي كانت ذات دورٍ كبيرٍ في هذه العمليّة هي: محاولة عزل الإمام الرضا عليه السلام عن قواعده الشعبيّة ووضعه في سياجٍ يحكم بعزله عن الاتّصال بشيعته.

(١) هنا سقطٌ بمقدار كلمة، وما أثبتناه للسياق.
(٢) هنا سقطٌ بمقدار كلمة، وما أثبتناه للسياق.
(٣) هنا سقطٌ بمقدار كلمة، وما أثبتناه للسياق.
(٤) هنا سقطٌ بمقدار ثلاثة أسطر.

وفي الواقع: إنّ عمليّة العزل بين الإمام عليه السلام وبين القواعد الشعبيّة كانت من الخصائص العامّة للمرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة التي بدأت بالإمام الرضا عليه السلام، كان من خصائصها العامّة هذا العزل [...][١] والتعذيب، ووُضعوا تحت الرقابة المستمرّة.

والروايات عندنا تدلّ على أنّ الإمام الرضا عليه السلام حينما انسحب من المدينة إلى إيران كان معه حاجبه[٢]، وهذا الحاجب كان من خواصّ الإمام الرضا عليه السلام، وكانت تجمع الأموال للإمام الرضا عليه السلام من مختلف أرجاء العالم الإسلامي على يد هذا الحاجب، إلّا أنّ هذا الحاجب كان يبدو أنّه من أُولئك الأشخاص الذين يبيعون ضميرهم، يبيعون بطونهم للدنيا، تعامل مع المأمون، اشتراه المأمون، أصبح جاسوساً وعيناً على الإمام الرضا عليه السلام لحساب المأمون ولحساب الفضل بن سهل، كان الإمام الرضا عليه السلام لا ينطق بكلام ولا يتحرّك ويتّصل بأحد إلّا وتأتي الأخبار للمأمون[٣].

[...][٤].

* * *

(١) هنا سقطٌ بمقدار ثلاثة أسطر ونيّف.

(٢) هو هشام بن إبراهيم الراشدي الهمداني.

(٣) «كان هشام بن إبراهيم الراشدي الهمداني من أخصّ الناس عند الرضا عليه السلام من قبل أن يُحمَل، وكان عالماً أديباً لبيباً، وكانت أُمور الرضا عليه السلام تجري من عنده وعلى يده وتصيره الأموال من النواحي كلّها إليه قبل حمل أبي الحسن عليه السلام، فلمّا حمل أبو الحسن اتّصل هشام بن إبراهيم بذي الرئاستين، وقرّبه ذو الرئاستين وأدناه، فكان ينقل أخبار الرضا عليه السلام إلى ذي الرئاستين والمأمون، فحظي بذلك عندهما، وكان لا يُخفي عليهما من أخباره شيئاً، فولّاه المأمون حجابة الرضا عليه السلام» عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٣.

(٤) هنا سقطٌ في ذيل المحاضرة.

مرحلة التوسّع والإعداد لتسلّم الحكم

٢



الإمام محمّد بن علي الجواد عليه السلام

○ الإمام الجواد عليه السلام والإمامة المُبْكِرة

١

الإمام الجواد عليه السلام

والإمامة المُبْكرة

أُلقيت بتاريخ ٢٩/ذي القعدة/١٣٨٨ هـ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلوات على أفضل النبيّين وآله الطيّبين الطاهرين.

اليوم نجتمع بمناسبة وفاة الإمام التاسع عليه السلام[1]: الإمام الجواد، الذي قدّر الله سبحانه وتعالى أن يكون نفس وجود هذا الإمام على خطّ حياة أهل البيت دليلاً وبرهاناً على صحّة العقيدة التي نؤمن بها نحن بالنسبة إلى أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ الظاهرة التي وجدت مع هذا الإمام ـ وهي ظاهرة تولّي الشخص للإمامة وهو بعدُ في سنّ الطفولة؛ على أساس أنّ التاريخ يتّفق ويجمع على أنّ الإمام الجواد توفّي أبوه وعمره لا يزيد عن سبع سنين[2].

ومعنى هذا أنّه تولّى زعامة الطائفة الشيعيّة روحيّاً ودينيّاً وعلميّاً وفكريّاً وهو لا يزيد عن سبع سنين، هذه الظاهرة التي ظهرت لأوّل مرّةٍ في حياة الأئمّة في الإمام الجواد عليه السلام ـ لو درسناها بحساب الاحتمالات، لوجدنا أنّها وحدها

---

(١) قُبض عليه السلام في آخر ذي القعدة (٢٩) سنة ٢٢٠ هـ. فراجع: الكافي ١: ٤٩٢؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٧٥.

(٢) «وكانت سنّه يوم وفاة أبيه سبع سنين وأشهراً» الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٧١؛ حيث ولد في شهر رمضان/١٩٥هـ وتوفّي والده في شهر صفر/٢٠٣هـ (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٤٧، ٢٧٣)، فيكون عمره سبع سنين وخمسة أشهر.

كافية للاقتناع بحقّانيّة هذا الخطّ الذي كان يمثّله الإمام الجواد عليه السلام؛ إذ كيف يمكن أن نفترض فرضاً آخر غير فرض الإمامة الواقعيّة في شخصٍ لا يزيد عمره عن سبع سنين ويتولّى زعامة هذه الطائفة في كلّ المجالات الروحيّة والفكريّة والفقهيّة والدينيّة؟!

١ ـ الافتراض الأوّل: الإمامة الواقعيّة للإمام الجواد عليه السلام:

في هذا الموضوع لا مجال لافتراض أنّ الطائفة لم يتكشّف لها بوضوح هذا الصبي؛ لأنّ زعامة الإمام في أهل البيت لم تكن زعامةً محوطـةً بالشرطة والجيش وأُبّهة الملك والسلطان [التي] تحجب بين الزعيم ورعيّته، ولم تكن زعامةَ دعوةٍ سرّيةٍ من قبيل الدعوات الصوفيّة أو الفاطميّة[1] التي تحجب بين رأس الدعوة وبين قواعد هذه الدعوة لكي يُفترض أنّ هذا الرأس كان محجوباً عن رعيّته مع إيمان الرعيّة به.

إمام أهل البيت كان مكشوفاً أمام الطائفة، وكانت الطائفة بكلّ طبقاتها تتفاعل معه مباشرةً في مسائلها الدينيّة، في قضاياها الروحيّة والأخلاقيّة، والإمام الجواد عليه السلام نفسه أصرّ على المأمون حينما استقدمه إلى بغداد في أن يسمح له بالرجوع إلى المدينة، وسمح له بالرجوع إليها، ورجع إلى المدينة وقضى بقيّة عمره أو أكثر عمره فيها[2].

إذاً، فقد قضى الإمام الجواد عليه السلام أكثر عمره ـ أو كلّ عمره ـ وهو على

---

(١) كذا في (ح) و(غ)، ويحتمل أن يكون الصادر منه قدس سره: «الباطنيّة»، وبكليهما يستقيم المعنى، فراجع: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطميّة: ٢٦٥.

(٢) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٨١؛ كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام ٢: ٣٧٠؛ مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٧٩؛ حيث رجع عليه السلام بعد زواجه من أُم الفضل بنت المأمون إلى المدينة، ولم يزل بها حتى أشخصه المعتصم إلى بغداد في أوّل سنة عشرين ومائتين، فأقام بها حتّى توفّي في آخر ذي القعدة من السنة.

المسرح، وهو مكشوفٌ أمام المسلمين، أمام مختلف طبقات المسلمين، بمن فيهم الشيعةُ المؤمنون بزعامته وإمامته.

فافتراض أنّ الإمام الجواد لم يكن مكشوفاً أمام المسلمين وأمام طائفته بالخصوص [هو] خلاف طبيعة العلاقة التي اُنشئت منذ البداية بين أئمّة أهل البيت وقواعدهم الشعبيّة في المسلمين، خصوصاً إذا أضفنا إلى ذلك أنّ الإمام الجواد قد سلّطت عليه أضواء خاصّة من قبل الخليفة المأمون في القصّة التي تعرفونها[١].

٢ ـ الافتراض الثاني: سذاجة الطائفة بحيث تنطلي عليها الإمامة المبكرة:

يبقى افتراض آخر، وهو افتراض أنّ المستوى العلمي والفكري للطائفة وقتئذٍ كان يَعبُر[٢] عليه هذا الموضوع، كان بالإمكان على المستوى الفكري والعقلي والروحي للطائفة أن تصدّق بإمامة طفلٍ وهو ليس بإمام.

هذا أيضاً ممّا يكذّبه الواقع التاريخي لهذه الطائفة وما وصلت إليه من مستوى علميّ وفقهي؛ فإنّ هذه الطائفة قد خلّفها الإمام الباقر والإمام الصادق وفيها أكبر مدرسة للفكر الإسلامي في العالم الإسلامي على الإطلاق، المدرسة التي كانت تتكوّن من الجيلين المتعاقبين: جيل تلامذة الإمام الصادق والكاظم، وجيل تلامذة تلامذة الإمام الصادق، هذان الجيلان كانا على رأس هذه الطائفة في ميادين الفقه والتفسير والكلام والحديث والأخلاق، وكلّ جوانب المعرفة الإسلاميّة.

إذاً، فليس من الممكن أن نفترض أنّ المستوى الفكري والعلمي لهذه الطائفة كان يَعْبُر عليه مثل هذا، لا يمكن أن يعبُر على طائفةٍ فيها هذه المدرسة

---

(١) يقصدقدس سره قصّتهعليه السلام مع يحيى بن أكثم، فراجع: الاختصاص: ٩٨؛ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٢٨٣.

(٢) أي: «ينطلي».

ـ التي كانت هي قِبلة الفكر الإسلامي في كلّ ميادين المعرفة ـ مثلُ هذا التصوّر، وتتصوّر أنّ شخصاً طفلاً هو إمام، [والحال أنّه] ليس بإمام.

إن أمكن لشخصٍ أن يتصوّر أنّ رجلاً عالماً كبيراً محيطاً مطّلعاً بلغ الخمسين أو الستّين يستطيع أن يقنع مجموعةً من الناس بإمامته وهو ليس بإمام؛ لأنّه يتّصف بدرجةٍ كبيرةٍ من العلم والمعرفة والذكاء والاطّلاع، فليس بالإمكان أن نفترض ذلك في شخصٍ لم يبلغ العاشرة من عمره.

وكيف يستطيع أن يقنع طائفةً بإمامته كذباً وهو مكشوفٌ أمامها؟ وهذه الطائفة تشتمل على مدرسة فكريّة من أضخم المدارس الفكريّة التي وجدت في العالم الإسلامي يومئذٍ، مدرسة كان يوجد بعض قطّاعاتها في الكوفة، وبعض قطّاعاتها في قم، وبعض قطّاعاتها في المدينة، هذه المدرسة التي كانت موزّعةً في حواضر العالم الإسلامي، والتي كانت كلّها على صلةٍ مباشرةٍ بالإمام الجواد تستفتيه وتسأله، وتنقل إليه الأموال من مختلف الأطراف من شيعته[1]، مثل هذه المدرسة لا يمكن أن نتصوّر فيها أن تغفل عن حقيقة طفل [ليس] إماماً.

٣ ـ الافتراض الثالث: عدم وضوح مفهوم الإمامة لدى الطائفة:

يبقى افتراضٌ آخر، وهو: أنّ الطائفة لم يكن عندها مفهومٌ [عن] الإمام والإمامة، وكانت تتصوّر أنّ الإمامة مجرّد تسلسلٍ نسبيٍّ ووراثيٍّ، ولم تكن تعرف ما هو الإمام؟ وما هي قيمة الإمام؟ وما هي شروط الإمام؟

هذا الافتراض أيضاً يكذّبه واقع التراث المتواتر المستفيض من أمير المؤمنين إلى الإمام الرضا عليهما السلام عن شروط الإمام، ومحصول الإمام، وعلامات الإمام.

---

(١) راجع: بحار الأنوار ٥٠: ٨٥ ـ ١٠٩، الباب ٥ من تاريخ الإمام الجواد عليه السلام.

التشيّع قام بصورة أساسيّة على المفهوم الإلهي المعمّق للإمامة، هذا هو أوضح وأبده وأوّل مفهوم من مفاهيم التشيّع، وهو: أنّ الإمام إنسان فذٌّ فريدٌ في معارفه وأخلاقه وقوله وعمله، هذا هو المفهوم الأساسي للتشيّع الذي بشّرت به آلاف النصوص من عهد أمير المؤمنين عليه السلام إلى عهد الإمام الرضا عليه السلام، كلّ الخصوصيّات وكلّ التفاصيل أصبحت بالتدريج واضحةً في ارتكاز الطائفة وذهنيّتها، حتّى بعض التفاصيل الثانويّة.

يقول الراوي[١] في مناسبة قصّة الإمام الجواد عليه السلام: «دخلت المدينة بعد وفاة الإمام الرضا أسأل عن الخليفة بعده، فقيل: إنّ الخليفة في قرية قريبة من المدينة[٢]، فخرجت إلى تلك القرية، ودخلت داخل القرية وكان فيها بيت للإمام موسى بن جعفر انتقل بالوراثة إلى أولاده وأحفاده»، يقول: «فرأيت البيت غاصّاً بالناس، رأيت أحد إخوة الإمام الرضا[٣] جالساً يتصدّر المجلس، إلّا أنّ الناس يقولون في ما بينهم: إنّ هذا ليس هو الإمام بعد الإمام الرضا؛ لأنّنا سمعنا من الأئمّة أنّ الإمامة لا تكون في أخوين بعد الحسن والحسين»[٤].

كلّ التفاصيل وكلّ الخصوصيّات النَسَبيّة والمعنويّة كانت واضحةً ومحدّدةً عندهم.

إذاً، فهذا الافتراض أيضاً يكذّبه واقع التراث المتواتر الثابت عن الأئمّة السابقين عليهم السلام.

---

(١) بل: محمّد بن جمهور العمي والحسن بن راشد وعلي بن مدرك وعلي بن مهزيار وخلقٌ كثير من سائر البلدان.

(٢) وهي «صريا»، قريةٌ أسّسها موسى بن جعفر عليه السلام على ثلاثة أميال من المدينة.

(٣) وهو عبدالله بني موسى بن جعفر عليه السلام.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٨٢. والحديث: «لا تعود الإمامة في أخوين بعد الحسين والحسين» الكافي ١: ٢٨٥، الحديث ١.

٤ ـ الافتراض الرابع: تباني الطائفة على الزور والباطل:

يبقى افتراضٌ أخير، وهو افتراض أن يكون هذا تبانياً على الزور والباطل من قبل هذه الطائفة.

وهذا أيضاً ما لا يكذّبه فقط إيماننا الشخصي بورع هذه الطائفة وقدسيّتها، وإنّما يكذّبه ـ إضافةً إلى إيماننا الشخصي بذلك ـ الظرفُ الموضوعي لهذه الطائفة؛ [إذ] لم يكن التشيّع في يومٍ من الأيّام في حياة هذه الطائفة طريقاً إلى الأمجاد وإلى المال، إلى الجاه، إلى السلطان، إلى المقامات العالية.

التشيّع طيلة هذه المدّة كان طريقاً إلى التعذيب، إلى السجون، إلى الحرمان، إلى الويل، إلى الدمار، كان طريقاً إلى أن يعيش الإنسان حياة الخوف والذلّ والتقيّة في كلّ حركاته وسكناته. لم يكن التشيّع في يومٍ من الأيّام طريقاً إلى مالٍ، أو جاهٍ، أو ثراءٍ حتّى يكون هذا التباني من قبل هذه الطائفة على ذلك في سبيل مطمع.

لماذا يتبانى عقلاء هذه الطائفة ووجهاؤها وعلماؤها على إمامةٍ باطلة؟ مع أنّ تبانيهم على هذه الإمامة الباطلة يكلّفهم كثيراً من ألوان الحرمان؟

ولو أنّ هؤلاء الوجهاء والعلماء والأعلام تركوا هذا الطريق واتّبعوا الطريق الرسمي المكشوف وقتئذٍ ـ المتّبعَ من قبل سائر المسلمين ـ لكانوا في طليعة سائر المسلمين.

فالظروف الموضوعيّة للطائفة كانت بنفسها تشهد على أنّ هذا التباني على إمامةٍ يكلّفهم الاعتقادُ بها ألوان العذاب وألوان الحرمان لا يمكن أن يكون ناشئاً إلّا عن اعتقادٍ حقٍّ بهذه الإمامة.

إذاً، فكلُّ هذه الافتراضات الأُخرى لا يمكن أن تكون مقبولةً عند أيّ إنسانٍ يطّلع على تاريخ الطائفة، وتاريخ الإسلام وقتئذٍ، وعلى الظروف

الموضوعيّة التي تكتنف إمامة الجواد، ولا يبقى إلّا الفرض الوحيد المطابق للواقع، وهو: أن يكون الإمام الجواد إماماً حقّاً.

نحن اليوم نجتمع بمناسبة هذا الإمام عليه السلام، فأردت أن أذكر هذا بمناسبة كون اليوم يوم الإمام الجواد عليه السلام، ثمّ ننتقل إلى حديثنا المتسلسل عن الأئمّة عليهم السلام من حيث انتهينا[1].

***

(١) قمنا بنشر تتمّة المحاضرة الحاليّة في فصلٍ مستقلّ بعنوان المحاضرة السابعة عشرة: (الإمام الحسين عليه السلام ومبرّرات رفض البيعة)، فليلاحظ.



فهرس المصادر

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ أجود التقريرات، محاضرات الشيخ محمّد حسين النائيني، تقرير: السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي، تحقيق ونشر: مؤسّسة صاحب الأمر عليه السلام ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٩ هـ .
٣ ـ الاحتجاج، أحمد بن علي الطبرسي، منشورات المرتضى ـ مشهد، ١٤٠٣ هـ .
٤ ـ أخبار الدولة العباسيّة، المؤلّف مجهول (القرن الثالث)، تحقيق: عبدالعزيز الدوري وعبد الجبّار المطّلبي، دار الطليعة ـ بيروت، ١٣٩١ هـ .
٥ ـ الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين شيّال، منشورات الشريف الرضي ـ قم، ١٣٦٨هـ . ش.
٦ ـ اخترنا لك، السيّد محمّد باقر الصدر، دار الزهراء عليها السلام ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٧٥م.
٧ ـ الاختصاص، الشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان، دار المفيد ـ بيروت، ١٩٩٣م.
٨ ـ اختيار معرفة الرجال، محمّد بن عمر الكشّي، اختيار: الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي، منشورات جامعة مشهد ـ ١٣٤٨ هـ .ش.

٩ ـ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان، دار المفيد ـ بيروت، ١٩٩٣م.

١٠ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البرّ، تحقيق: علي محمّد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٢م.

١١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، عزّ الدين بن الأثير أبو الحسن علي بن محمّد الجزري، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٨٩م.

١٢ ـ الإسلام يقود الحياة، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ .

١٣ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، دارالكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٥م.

١٤ ـ إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ أبو علي الطبرسي، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام ـ قم، ١٤٢٤هـ .

١٥ ـ الأعلام.. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب و المستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨٩م.

١٦ ـ أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين العاملي، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، ١٤٠٦هـ .

١٧ ـ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٥ هـ .

١٨ ـ الإقبال بالأعمال الحسنة في ما يعمل مرّة في السنة، السيّد ابن طاووس

علي بن موسى بن جعفر بن طاووس، دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران، الطبعة الثانية، ١٣٦٧ هـ. ش.

١٩ ـ اقتصادنا، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤ هـ.

٢٠ ـ الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: الدكتور محمّد كمال الدين عزّ الدين علي، عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ.

٢١ ـ الأمالي، ابن سمعون أبو الحسن محمّد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي، نسخة إلكترونيّة، برنامج (الجامع الكبير).

٢٢ ـ الأمالي، الشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان، دار المفيد ـ بيروت، ١٩٩٣م.

٢٣ ـ الأمالي، الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي، دار الثقافة للنشر، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ.

٢٤ ـ الأمالي، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين الصدوق، منشورات المكتبة الإسلاميّة، الطبعة الرابعة، ١٣٦٢ هـ.ش.

٢٥ ـ الإمام علي بن أبي طالب، الدكتور عبد الفتّاح عبد المقصود، مكتبة التربية ومكتبة العرفان، بدون تاريخ.

٢٦ ـ الإمام علي عليه السلام سيرة وجهاد، السيّد محمّد باقر الصدر، دار المرتضى ـ بيروت، ٢٠٠٣م.

٢٧ ـ الإمامة المبكرة، محاضرة السيّد محمّد باقر الصدر، تدوين: السيّد كاظم الحائري، مجلّة الفكر الإسلامي ـ قم، العددان ٢١ و٢٢.

٢٨ ـ الإمامة والسياسة المعروف بـ(تاريخ الخلفاء)، أبو محمّد عبد الله بن

مسلم ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: علي شيري، دارالأضواء ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٠م.

٢٩ ـ الإنباء في تاريخ الخلفاء، محمّد بن علي بن محمّد المعروف بـ(ابن العمراني)، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربيّة ـ القاهرة، الطبعة الأُولى، ٢٠٠١م.

٣٠ ـ أنساب الأشراف (جملٌ من أنساب الأشراف)، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق: سهيل زكّار ورياض زركلي، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٦. ج١: تحقيق: محمّد حميد الله، دار المعارف ـ مصر، ١٩٥٩م. ج٢: تحقيق: محمّد باقر المحمودي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٧٤م. ج٣: تحقيق: محمّد باقر المحمودي، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٧٧م. ج٤: تحقيق: عبد العزيز الدوري، جمعيّة المستشرقين الألمانيّة ـ بيروت، ١٩٧٨م. ج٥: تحقيق: إحسان عبّاس، جمعيّة المستشرقين الألمانيّة ـ بيروت، ١٩٧٩م.

٣١ ـ أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف، محاضرات السيّد محمّد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، بدون تاريخ.

٣٢ ـ أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف، محاضرات السيّد محمّد باقر الصدر، تحقيق: عبد الرزاق الصالحي، مؤسّسة أُم القرى للتحقيق والنشر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣هـ .

٣٣ ـ أهل البيت عليهم السلام.. القدوة والدور التاريخي، السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، إعداد وتحقيق: عبد الرزّاق هادي الصالحي، منشورات أهل الذكر ـ قم، ١٤٢٩هـ .

٣٤ ـ الأوائل، أبو الهلال العسكري، منشورات دار البشير ـ مصر، الطبعة الأُولى، ١٤٠٨ هـ .

٣٥ ـ الإيضاح، الفضل بن شاذان النيشابوري، تحقيق وتقديم: السيّد جلال الدين الأرموي، منشورات جامعة طهران ـ طهران، ١٣٦٣ هـ .ش.

٣٦ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار عليهم السلام، الشيخ المجلسي محمّد باقر بن محمّد تقي، مؤسّسة الوفاء ـ لبنان، ١٤١٤هـ .

٣٧ ـ بحوث في شرح العروة الوثقى، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ .

٣٨ ـ بحوث في علم الأُصول، محاضرات الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، تقرير: السيّد محمود الهاشمي، دار الغدير للطبعة والنشر ـ قم، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

٣٩ ـ البدء والتاريخ، مطهّر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينيّة ـ بور سعيد، بدون تاريخ.

٤٠ ـ البداية و النهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٨٦م.

٤١ ـ البراهين القاطعة في شرح تجريد العقائد الساطعة، محمّد جعفر الاسترآبادي، مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٣٨٢ هـ . ش.

٤٢ ـ بشارة المصطفى، عماد الدين الطبري، منشورات المكتبة الحيدريّة ـ النجف، الطبعة الثانية، ١٣٨٣ هـ .

٤٣ ـ بلاغات النساء، أحمد بن أبي طاهر المعروف بـ (ابن طيفور)، منشورات

الشريف الرضي ـ قم، بدون تاريخ.
٤٤ ـ البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣ هـ .
٤٥ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، السيّد محمّد مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٤ هـ .
٤٦ ـ تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي، تحقيق: عمر عبد السّلام التدمري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
٤٧ ـ تاريخ الأُمم والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.
٤٨ ـ تاريخ الحضارات العام (الجزء الثاني، روما وإمبراطوريّتها)، إشراف: موريس كروزيه، تأليف: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
٤٩ ـ تاريخ المدينة المنوّرة (أخبار المدينة)، أبو زيد عمر بن شبّة النميري البصري، تحقيق: علي محمّد دندل وياسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ١٩٩٦م.
٥٠ ـ تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب واضح الكاتب العبّاسي المعروف بـ (اليعقوبي)، دار صادر ـ بيروت، بدون تاريخ.
٥١ ـ تاريخ مختصر الدول، غريغوريوس الملطى المعروف بـ (ابن العبري)، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق ـ بيروت، الطبعة الثالثة،

١٩٩٢م.

٥٢ ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر أبو القاسم علي بن حسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، جدار الفكر ـ بيروت، ١٤١٥ هـ.

٥٣ ـ تأويل مختلف الحديث، عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمّد الدينوري، تحقيق: محمّد زهري النجّار، دار الجيل ـ بيروت، ١٩٧٢م.

٥٤ ـ تجارب الأُمم، أبو على مسكويه الرازي، تحقيق: أبو القاسم إمامي، منشورات سروش ـ طهران، الطبعة الثانية، ١٣٧٩هـ.ش.

٥٥ ـ تجديد الفقه الإسلامي.. محمّد باقر الصدر بين النجف وشيعة العالم، شبلي الملّاط، ترجمة: غسّان غصن، دار النهار للنشر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٨م.

٥٦ ـ تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ.. أسبابه ونتائجه، بسمة أحمد جستنيّه، دار القلم ـ دمشق، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٠م.

٥٧ ـ التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة، محاضرة السيّد محمّد باقر الصدر، تدوين: السيّد كاظم الحائري، مجلّة الفكر الإسلامي ـ قم، العدد ١٧.

٥٨ ـ التذكرة الحمدونيّة، ابن حمدون محمّد بن الحسن بن محمّد بن علي، تحقيق: إحسان عبّاس وبكر عبّاس، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٦م.

٥٩ ـ تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي، منشورات الشريف الرضي ـ قم، ١٤١٨ هـ .

٦٠ ـ التشيّع والإسلام (بحوث حول الولاية)، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة

الأُولى، ١٤٢١ هـ .

٦١ ـ التغيير والتجديد في النبوّة، السيّد محمّد باقر الصدر، مجلّة دراسات وبحوث، السنة الثانية، العدد الخامس، محرّم ١٤٠٢هـ .

٦٢ ـ تفسير فرات الكوفي، أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي، تحقيق: محمّد كاظم المحمودي، مؤسّسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ـ طهران، الطبعة الأُولى، ١٤١٠ هـ .

٦٣ ـ تفسير ما بعد الطبيعة، ابن رشد، منشورات حكمت ـ طهران، ١٣٧٧ هـ .ش.

٦٤ ـ تلخيص الشافي، الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي، منشورات محبّين ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٣٨٢ هـ .ش.

٦٥ ـ تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة، ابن رشد، منشورات حكمت ـ طهران، ١٣٧٧ هـ .ش.

٦٦ ـ تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي البغدادي، منشورات الشريف الرضي ـ قم، ١٢٥٠ هـ .

٦٧ ـ تنقيح المقال في علم الرجال، الشيخ عبدالله المامقاني، تحقيق: الشيخ محيي الدين المامقاني، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم، ابتداءً من ١٤٢٣ هـ .

٦٨ ـ تهذيب الأحكام، الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي، دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران، ١٣٦٥ هـ .ش.

٦٩ ـ تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجّاج المزّي، تحقيق: الدكتور بشّار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٨٠م.

٧٠ ـ الثورة الحسينيّة وتغيير أخلاقيّات الهزيمة، كلمة السيّد محمّد باقر الصدر، ألقاها السيّد محمود الهاشمي، مجلّة المنهاج ـ بيروت، العدد ٤٤.
٧١ ـ الجامع، معمّر بن راشد الأزدي (ملحق بكتاب المصنّف للصنعاني ج ١٠)، تحقيق: حبيب الأعظمي المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ .
٧٢ ـ جامع الأخبار، الشيخ تاج الدين محمّد بن محمّد بن حيدر الشعيري، منشورات الرضي، الطبعة الثانية، ١٣٦٣ هـ .ش.
٧٣ ـ الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، مسلم النيشابوري، دار الفكر ـ بيروت.
٧٤ ـ الجامع الصغير وشرحه النافع الكبير، أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٦ هـ .
٧٥ ـ الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله[صلى الله عليه وآله] وأيّامه (صحيح البخاري)، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٨١م.
٧٦ ـ الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، محمّد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني المعروف بـ(البرّي)، نسخة إلكترونيّة، برنامج (الجامع الكبير).
٧٧ ـ الحاشية على تهذيب المنطق، المولى عبدالله بن شهاب الدين الحسين اليزدي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في حوزة قم، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ .
٧٨ ـ الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطميّة، محمّد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
٧٩ ـ الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي (شرح مختصر المزني)، علي بن محمّد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، تحقيق: الشيخ

علي محمّد معوّض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٩م.

٨٠ ـ الحدائق الورديّة في مناقب الأئمّة الزيديّة، حميد بن أحمد المحلّي الوادعي الصنعاني، مكتبة بدر ـ صنعاء، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣ هـ .

٨١ ـ حديقة الشيعة، المقدّس الأردبيلي، تصحيح: صادق حسن زاده، منشورات أنصاريان ـ قم، الطبعة الثالثة، ١٣٨٣ هـ . ش.

٨٢ ـ حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين الدميري، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ١٤٢٤ هـ .

٨٣ ـ الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي، مؤسّسة الإمام الهادي ـ قم، الطبعة الأُولى.

٨٤ ـ خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي تحقيق: محمّد نبيل طريفي وإميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٨م.

٨٥ ـ الخصال، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين الصدوق، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في حوزة قمّ، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ .

٨٦ ـ الخصائص الحسينيّة.. خصائص الحسين عليه السلام ومزايا المظلوم، الشيخ جعفر التستري، تحقيق: السيّد جعفر باقر الحسيني، منشورات الاعتصام ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٧ هـ .

٨٧ ـ دائرة المعارف الإسلاميّة، السيّد حسن الأمين، دار التعارف ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م.

٨٨ ـ دراسات في علم الأُصول، أبحاث السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي،

تقرير: السيّد علي الهاشمي الشاهرودي، مؤسّسة دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام ـ قم، ١٤١٩ هـ .

٨٩ ـ دروس في علم الأُصول، الحلقة الثالثة، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ .

٩٠ ـ دلائل الإمامة، محمّد بن جرير الطبري، منشورات المكتبة الحيدريّة ـ النجف، ١٣٨٣ هـ .

٩١ ـ دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٨٥م.

٩٢ ـ دور الأئمّة عليهم السلام في الحياة الإسلاميّة، السيّد محمّد باقر الصدر، تحقيق: الشيخ محمّد اليعقوبي، منشورات بهمن آرا ـ قم، الطبعة الاولى، ١٤٢٧ هـ .

٩٣ ـ دور الأئمّة عليهم السلام في الحياة الإسلاميّة، محمّد باقر الصدر، مجلّة الإيمان، مجلّة الإيمان، السنة الثالثة، العدد (٣ ـ ٤)، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م.

٩٤ ـ ديوان الشيخ محسن أبو الحب، تحقيق: جليل كريم أبو الحب، منشورات المكتبة الحيدريّة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧ هـ .

٩٥ ـ ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

٩٦ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري، دار الكتب المصريّة ـ مصر.

٩٧ ـ ذوب النضار، ابن نما الحلّي، تحقيق: فارس حسّون كريم، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في حوزة قم الطبعة الأُولى، ١٤١٦ هـ .
٩٨ ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله الزمخشري، مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ .
٩٩ ـ رسالة ما بعد الطبيعة، ابن رشد، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٤م.
١٠٠ ـ الرسائل السياسيّة، أبو عثمان الجاحظ، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ هـ .
١٠١ ـ روائع نهج البلاغة، جورج جرداق، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
١٠٢ ـ السنن، محمّد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي دار الفكر ـ بيروت.
١٠٣ ـ سيبقى هذا الصوت خالداً، السيّد محمّد باقر الصدر، صحيفة لواء الصدر، العدد ٨٤١، ٤/ذي الحجّة/١٤١٨هـ .
١٠٤ ـ سيبقى هذا الصوت خالداً، السيّد محمّد باقر الصدر، مجلّة النشاط الثقافي، السنة الأُولى، العدد الثامن، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م.
١٠٥ ـ السيرة النبويّة، عبد الملك بن هشام الحميري المعافري، تحقيق: مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة ـ بيروت، بدون تاريخ.
١٠٦ ـ الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي البغدادي، تحقيق وتعليق: السيّد عبد الزهراء الحسيني، مؤسّسة

الصادق عليه السلام ـ طهران، الطبعة الثانية، ١٤١٠ هـ .
١٠٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن احمد العكري الحنبلي الدمشقي، تحقيق: الأرناؤوط، دار ابن كثير ـ دمشق، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٨٦م.
١٠٨ ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، مكتبة المرعشي النجفي ـ قم، ١٤٠٤هـ .
١٠٩ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاضي شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن أحمد القلقشندي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ٢٠٠٠م.
١١٠ ـ الصحاح.. تاج اللغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٠ هـ .
١١١ ـ صلح الحسن عليه السلام، الشيخ راضي آل ياسين، منشورات ناصر خسور ـ طهران، ١٩٧٨م.
١١٢ ـ الصوارم المهرقة في ردّ الصواعق المحرقة، السيّد نور الدين المرعشي، منشورات نهضت ـ طهران، ١٣٦٧ هـ . ش.
١١٣ ـ الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن علي ابن حجر الهيثمي، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمّد الخرّاط، مؤسّسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٧م.
١١٤ ـ الطبقات الكبرى، محمّد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٠م.

١١٥ ـ الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، السيّد علي بن طاووس الحسيني الحلّي، مطبعة خيّام ـ قم، ١٤٠٠ هـ .
١١٦ ـ العقد الفريد، ابن عبد ربّه الأندلسي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٤ هـ .
١١٧ ـ علل الشرائع، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين الصدوق، منشورات المكتبة الحيدريّة ـ النجف، ١٣٨٦هـ .
١١٨ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين الصدوق، منشورات جهان، ١٣٧٨ هـ .
١١٩ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، أبو الفتح محمّد بن سيّد الناس، تعليق: إبراهيم محمّد رمضان، دار القلم ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٣م.
١٢٠ ـ عيون الأخبار، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، مطبعة دار الكتب المصريّة بالقاهرة، ١٩٩٦م.
١٢١ ـ الغارات، أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي، تحقيق: جلال الدين الحسيني الأرموي، رابطة الآثار الوطنيّة ـ طهران، ١٣٥٣هـ .ش.
١٢٢ ـ الفتاوى الواضحة، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢ هـ .
١٢٣ ـ فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربّ الأرباب.. في الاستخارات، السيّد ابن طاووس علي بن موسى بن جعفر بن طاووس، تحقيق: حامد الخفّاف، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٨٩م.
١٢٤ ـ فتح العزيز، أبو القاسم عبد الكريم بن محمّد الرافعي، دار الفكر ـ

بيروت.

١٢٥ ـ فتوح البلدان، أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، ١٩٨٨.

١٢٦ ـ فتوح مصر وأخبارها، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، تحقيق: محمّد الحجيري، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٦م.

١٢٧ ـ الفتوح، أبو محمّد أحمد بن أعثم الكوفي، تحقيق: على شيري، دارالأضواء ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩١م.

١٢٨ ـ الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة، محمّد بن علي بن طباطبا المعروف بـ (ابن الطقطقي)، تحقيق: عبد القادر محمّد مايو، دار القلم العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٧م.

١٢٩ ـ فدك في التاريخ، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ.

١٣٠ ـ فرق الشيعة، الحسن بن موسى النوبختي، دار الأضواء ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ.

١٣١ ـ الفصول المختارة، الشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان، دار المفيد ـ بيروت، ١٩٩٣م.

١٣٢ ـ فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، تحقيق: الدكتور وصي الله محمّد عبّاس، مؤسّسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٨٣م.

١٣٣ ـ فهرست أسماء مصنّفي الشيعة ومصنّفاتهم (رجال النجاشي)، الشيخ أحمد بن علي النجاشي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة

المدرّسين في حوزة قم، ١٤٠٧ هـ .

١٣٤ ـ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة، الدكتور موريس بوكاي، مكتبة مدبولي ـ مصر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م.

١٣٥ ـ قرب الإسناد، عبدالله بن جعفر الحميري، منشورات نينوى ـ طهران، طبعة حجريّة.

١٣٦ ـ الكافي، الشيخ الكليني محمّد بن يعقوب، دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران، ١٣٦٥ هـ . ش.

١٣٧ ـ كامل البهائي في السقيفة، عماد الدين الطبري، المكتبة الحيدريّة ـ قم، الطبعة الاُولى، ١٤٢٦ هـ .

١٣٨ ـ كامل الزيارات، ابن قولويه القمّي جعفر بن محمّد بن جعفر، المنشورات المرتضويّة ـ النجف الأشرف، ١٣٥٦ هـ .ش.

١٣٩ ـ الكامل في التاريخ ، عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بـ (ابن الأثير)، دار صادر ـ بيروت، ١٩٦٥م.

١٤٠ ـ كتاب الاُم، الإمام الشافعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م.

١٤١ ـ كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلّام، تحقيق : خليل محمد هراس، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٨٨م.

١٤٢ ـ كتاب البلدان، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذانى المعروف بـ (ابن الفقيه)، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الاُولى، ١٩٩٦م.

١٤٣ ـ كتاب الغيبة، الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي، مؤسّسة المعارف

الإسلاميّة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ .
١٤٤ ـ كتاب الفتن، أبو عبد الله نعيم بن حمّاد المروزي، تحقيق: سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد ـ القاهرة، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ .
١٤٥ ـ الكتاب المصنَّف في الأحاديث والآثار ، أبو بكر عبد الله بن محمّد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩ هـ .
١٤٦ ـ الكتاب المقدّس، العهد القديم والعهد الجديد، بدون ناشر، بدون تاريخ.
١٤٧ ـ كتاب سليم بن قيس، سليم بن قيس الهلالي، منشورات دار الهادي ـ قم، ١٤١٤ هـ .
١٤٨ ـ كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمّد علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٦م.
١٤٩ ـ الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود الزمخشري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ .
١٥٠ ـ كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، علي بن عيسى الأربلي، مكتبة بني هاشم ـ تبريز، ١٣٨١هـ .
١٥١ ـ كشف اليقين، العلاّمة الحلّي الحسن بن يوسف بن علي بن مطهّر الحلّي، مؤسّسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ـ طهران، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ .
١٥٢ ـ كفاية الأثر، أبو القاسم علي بن محمّد بن علي الخزّاز القمّي، منشورات بيدار ـ قم، ١٤٠١ هـ .
١٥٣ ـ كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين الصدوق، منشورات دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ .

١٥٤ ـ كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدين علي المتّقي بن حسام الدين الهندي، تحقيق: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٨م.
١٥٥ ـ لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمّد بن مكرّم، تحقيق: أحمد فارس صاحب الجوائب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ودار صادر ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ .
١٥٦ ـ اللهوف على قتلى الطفوف، السيّد ابن طاووس، منشورات جهان ـ طهران، ١٣٤٨ هـ .ش.
١٥٧ ـ المبسوط ، شمس الدين السرخسي ، دار المعرفة ـ بيروت.
١٥٨ ـ مثير الأحزان، ابن نما الحلّي، منشورات مدرسة الإمام المهدي عليه السلام ـ قم، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦ هـ .
١٥٩ ـ المجموع، محيي الدين بن شرف النووي، دار الفكر ـ بيروت.
١٦٠ ـ المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّد باقر الصدر، السيّد محمّد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٠م.
١٦١ ـ المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق : عدنان علي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٩م.
١٦٢ ـ محاضرات تأسيسيّة، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٣٠ هـ.
١٦٣ ـ المحلّى، أبو محمّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.
١٦٤ ـ محمّد باقر الصدر.. السيرة والسيرة في حقائق ووثائق، أحمد عبدالله أبو زيد العاملي، دار العارف للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأولى،

٢٠٠٧م.
١٦٥ ـ المختصر في أخبار البشر، الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل بن علي، المعروف بـ (أبي الفداء)، تحقيق: الدكتور محمّد زينهم محمّد عزب، تقديم: الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف ـ مصر، ١٩٩٨م.
١٦٦ ـ المدرسة الإسلاميّة، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ.
١٦٧ ـ المدرسة القرآنيّة، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ.
١٦٨ ـ مدينة المعاجز، السيّد هاشم البحراني، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ.
١٦٩ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق: أسعد داغر، دار الهجرة ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
١٧٠ ـ المزار الكبير، محمّد بن جعفر المشهدي الحائري، تحقيق: جواد القيّومي الأصفهاني، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في حوزة قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٩ هـ.
١٧١ ـ مسالك الممالك، أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد الفارسي الاصطخري، دار صادر ـ بيروت، أُوفست عن طبعة ليدن، ٢٠٠٤م.
١٧٢ ـ المسائل والرسائل المروية، عبدالله بن سلمان الأحمدي، دار طيبة ـ الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٦ هـ.
١٧٣ ـ المستدرك على الصحيحين، محمّد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة ـ

بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٠م.
١٧٤ ـ المسند، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسّسة قرطبة ـ مصر.
١٧٥ ـ المصنَّف، أبو بكر عبد الرزاق بن همّام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٧٦ ـ مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، الشيخ كمال الدين محمّد بن طلحة الشافعي، تحقيق: ماجد بن أحمد العطيّة، نسخة إلكترونيّة، برنامج (مكتبة أهل البيت عليهم السلام).
١٧٧ ـ مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة، علي الشاوي ونجم الدين الطبسي ومحمّد جواد الطبسي وعزت الله مولائي ومحمّد جعفر الطبسي ومحمّد أمين الأميني، مركز الدراسات الإسلاميّة لممثليّة الولي الفقيه في حرس الثورة الإسلاميّة، مديريّة دراسات عاشوراء، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ.
١٧٨ ـ المعارف، أبو محمّد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
١٧٩ ـ معالي السبطين في أحوال الحسن والحسين عليهما السلام، الشيخ محمّد مهدي الحائري، منشورات صبح الصادق ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٥ هـ.
١٨٠ ـ معاني الأخبار، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين الصدوق، منشورات مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في حوزة قم، ١٣٦١ هـ.
١٨١ ـ معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
١٨٢ ـ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيّوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق:

حمدي بن عبدالمجيد السلفي مكتبة الزهراء ـ الموصل، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١٨٣ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ .

١٨٤ ـ المعرفة والتاريخ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسّسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

١٨٥ ـ المغازي، محمّد بن عمر الواقدي، مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ هـ .

١٨٦ ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبّار المعتزلي، الدار المصريّة ـ القاهرة، ١١٩٦٥م.

١٨٧ ـ مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، السيّد محمّد تقي النقوي الخراساني، مكتبة المصطفوي ـ طهران، بدون تاريخ.

١٨٨ ـ المفردات في غريب القرآن، حسين بن محمّد الراغب الأصفهاني، دار العلم والدار الشاميّة ـ بيروت ودمشق، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ .

١٨٩ ـ المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، منشورات الشريف الرضي ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٣٨٠ هـ .ش.

١٩٠ ـ مقاتل الطالبيّين، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعرفة ـ بيروت، بدون تاريخ.

١٩١ ـ مقتل الحسين عليه السلام، أبو المؤيّد الموفّق بن أحمد المكّي أخطب خوارزم (الخوارزمي)، تحقيق: الشيخ محمّد السماوي، تصحيح: دار أنوار الهدى، منشورات أنوار الهدى ـ قم، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٧م.

١٩٢ ـ من لا يحضره الفقيه، الشيخ محمّد بن علي بن الحسين الصدوق، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في حوزة قم، ١٤١٣هـ .

١٩٣ ـ المناسك، أبو النضر سعيد بن أبي عروبة، دراسة وتحقيق: الدكتور عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلاميّة ـ بيروت، الطبعة الاُولى، ٢٠٠٠م.

١٩٤ ـ مناقب آل أبي طالب، محمّد بن شهرآشوب المازندراني، منشورات العلاّمة ـ قم، ١٣٧٩هـ .

١٩٥ ـ المناقب، أبو المؤيّد الموفّق بن أحمد المكّي أخطب خوارزم (الخوارزمي)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في حوزة قم، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ .

١٩٦ ـ المنتظم في تاريخ الاُمم والملوك، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمّد ابن الجوزي، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الاُولى، ١٩٩٢م.

١٩٧ ـ المنمّق في أخبار قريش، محمّد بن حبيب البغدادي، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الاُولى، ١٩٨٥م.

١٩٨ ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي، تصحيح: السيّد إبراهيم الميانجي، المكتبة الإسلاميّة ـ طهران، الطبعة الرابعة ١٣٥٨ هـ . ش.

١٩٩ ـ منهاج الصالحين، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الاُولى، ١٤٣٢ هـ .

٢٠٠ ـ المهرجان العالمي بمولد الإمام بطل الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في كربلاء، المطبعة الحيدريّة ـ النجف، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

٢٠١ ـ موسوعة السياسة، الدكتور عبد الوهاب الكيالي وآخرون، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر ـ بيروت، تواريخ مختلفة.

٢٠٢ ـ موسوعة الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوي، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٨٤م.

٢٠٣ ـ الموطّأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٩٨٥م.

٢٠٤ ـ نثر الدرر في المحاضرات، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٤م.

٢٠٥ ـ النزاع والتخاصم في ما بين بني أُميّة وبني هاشم، تقي الدين المقريزي، تحقيق: صالح الورداني، الهدف للإعلام، بدون تاريخ.

٢٠٦ ـ النص والاجتهاد، الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين، إعداد وتحقيق: مركز العلوم والثقافة الإسلاميّة، قسم إحياء التراث الإسلامي ـ قم، دار المؤرّخ العربي ـ بيروت، ٢٠٠٦م.

٢٠٧ ـ نفحة اليمن في ما يزول بذكره الشجن، أحمد بن محمّد الأنصاري اليمني الشيرواني، مطبعة التقدّم العلمي بمصر، ١٣٢٤ هـ.

٢٠٨ ـ النقود الإسلاميّة المسمّى بـ (شذور العقود في ذكر النقود)، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، منشورات الشريف الرضي ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧ هـ.

٢٠٩ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القوميّة ـ القاهرة، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣ هـ.

٢١٠ ـ نهاية الأفكار، الشيخ ضياء الدين العراقي، تقرير: الشيخ محمّد تقي

البروجردي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في حوزة قم، ١٤١٧ هـ .

٢١١ ـ نهج البلاغة، كلام ورسائل أمير المؤمنين عليه السلام، جمع الشريف الرضي محمّد بن الحسين، تحقيق: الدكتور صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة ـ قم.

٢١٢ ـ نهج الحق، العلّامة الحلّي الحسن بن يوسف بن علي بن مطهّر الحلّي، مؤسّسة دار الهجرة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧ هـ.

٢١٣ ـ نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، الشيخ مؤمن للشبلنجي، منشورات الشريف الرضي ـ قم، بدون تاريخ.

٢١٤ ـ وقعة صفّين، نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، المؤسّسة العربيّة الحديثة ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٢ هـ ، أُفست منشورات مكتبة المرعشي النجفي ـ قم، ١٤٠٤هـ .

٢١٥ ـ ومضات، الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٨ هـ .

٢١٦ ـ ينابيع المودّة لذوي القربى، الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، تحقيق: السيّد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأُسوة للطباعة والنشر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٦هـ .

* * *



فهرس الموضوعات

كلمة المؤتمر

(٧ ـ ١٢)

مقدّمة المحقّق

(١٣ـ ٥٦)

مباحث تمهيديّة
(٥٩ ـ ١٠١)

||١||

فكرة موجزة عن الوحي
(٦١ ـ ٨٢)

||٢||

التجديد والتغيير في النبوّة

(٨٣ ـ ١٠٢)

||٣||

الاتجاه الشمولي في دراسة حياة أئمّة أهل البيت عليهم السلام (١٠٣ ـ ١٢٠)

|| ٤ ||

التقسيم المرحلي الثلاثي لحياة الأئمّة عليهم السلام
مع مقدّمة حول عناصر التجربة الإسلاميّة وعوامل انحرافها
(١٢١ ـ ١٤٦)

المرحلة الأُولى
مرحلة تفادي صدمة الانحراف
(١٤٧ ـ ٥٧٤)

١ ـ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
(١٤٩ ـ ٣٧٨)

||٥||
مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله (١)
الأُمّة الإسلاميّة: طاقة حراريّة أم وعي مستنير؟
(١٥٣ ـ ١٨٤)

||٦||

مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله (٢)

عوامل انحراف التجربة الإسلاميّة ودور الأئمّة عليهم السلام في مواجهته

(١٨٥ ـ ٢٠٨)

||٧||

مضاعفات وفاة رسول الله ﷺ (٣)

وضع الأمّة الإسلاميّة وموانع تزعّم الإمام علي عليه السلام

(٢٠٩ ـ ٢٣٤)

||٨||

مضاعفات وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله (٤)

الإمام علي عليه السلام بين تصحيح الانحراف وتحصين الأمّة

(٢٣٥ ـ ٢٦٠)

||٩||

الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم (١)

مبرّرات رفض المساومات وأنصاف الحلول (١)

(٢٦٣ ـ ٢٨٦)

||١٠||

الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم (٢)

مبرّرات رفض المساومات وأنصاف الحلول (١)

(٢٨٧ ـ ٣٠٨)

||١١||

الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم (٣)

لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه؟ (١)

(٣٠٩ ـ ٣٣٤)

||١٢||

الإمام علي عليه السلام بعد استلام الحكم (٤)

لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه؟ (٢)

مع إطلالة على مرحلة الإمام الحسن عليه السلام ومرحلة الإمام الحسين عليه السلام

(٣٣٥ ـ ٣٦٦)

|| ١٤ ||

خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها (١)

(٣٨١ ـ ٤٠٦)

|| ١٥ ||

خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها (٢)

(٤٠٧ ـ ٤٣٤)

٣ ـ الإمام الحسين بن علي عليه السلام
(٤٣٥ ـ ٥٦٢)

||١٦||

موقف الإمام الحسين عليه السلام من طمس معالم النظريّة الإسلاميّة وتمييع الأُمّة
(٤٣٧ ـ ٤٦٤)

||١٧||

الإمام الحسين عليه السلام ومبرّرات رفض البيعة

(٤٦٥ ـ ٤٧٦)

||١٨||

مقوّمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام

(٤٧٧ ـ ٤٩٢)

||١٩||

التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقيّة الهزيمة

(٤٩٣ ـ ٥١٨)

|| ٢٠ ||

التحوّل من أخلاقيّة الهزيمة إلى أخلاقيّة الإرادة

(٥١٩ ـ ٥٤٢)

المرحلة الثانية
مرحلة بناء الكتلة الصالحة
(٥٧٥ ـ ٦٠٢)

الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام
(٥٧٧ ـ ٦٠٢)

|| ٢٤ ||

الإمام الباقر عليه السلام ودوره في إعطاء الملامح المحدّدة للتشيّع
(٥٧٩ ـ ٦٠٢)

المرحلة الثالثة
مرحلة التوسّع والإعداد لتسلّم الحكم
(٦٠٣ ـ ٦٤٤)

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام
(٦٠٥ ـ ٦٣٢)

|| ٢٥ ||

الإمام الرضا عليه السلام.. المنعطف التاريخي في حياة الأئمّة عليهم السلام
(٦٠٧ ـ ٦٣٢)

الإمام محمّد بن علي الجواد عليه السلام
(٦٣٣ ـ ٦٤٤)

||٢٦||
الإمام الجواد عليه السلام والإمامة المُبْكِرة
(٦٣٥ ـ ٦٤٤)

فهرس المصادر

(٦٤٥ ـ ٦٧٠)

فهرس الموضوعات

(٦٧١ ـ ٦٩٨)